

تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله

المعرض المغاربي للكتاب



وقائع المعرض • الدورة الثانية

مقاربة الكووني



مع حدث



وجدة، من 18 إلى 21 أكتوبر 2018

تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله

المعرض المغاربي للكتاب



وقائع المعرض • الدورة الثانية

مقاربة الكووني



عاصمة الثقافة العربية
GUISE CAPITALE DE
LA CULTURE ARABE 2018

وجدة، من 18 إلى 21 أكتوبر 2018



« يعتبر الرأسمال البشري
غير المادي
من أحدث المعايير
المعتمدة دولياً،
لقياس القيمة الإجمالية للدول ».

مقتطف من الخطاب الملكي السامي
الذي وجهه جلالته حفظه الله إلى الأمة،
بمناسبة عيد العرش المجيد، 30 يوليوز 2014



ارتبط السعي إلى الكونية، منذ القدم، بالسيطرة الفعلية من خلال استخدام القوة أو الإيديولوجيا أو الثقافة أو الدين أو التفوق التكنولوجي أو الزخم المسيطر لحضارة ما. ولطالما كنا نصف بـ «الكوني» ذلك الذي يسيطر على ذلك الجزء من الفضاء المكاني الذي يعتبر مركزا للعالم في لحظة تاريخية معينة ؛ وهو الأمر الذي صار يتسم بالنسبية من خلال الرؤية السائدة اليوم، سيما مع الازدهار الذي تشهده الصين وكذا توجه إفريقيا لتصبح قارة صاعدة. وبالنسبة لنا نحن كمتوسطين، فلقد تعاقب على حمل مشعل الكونية، الإغريق والرومان والعرب وكذا الإيطاليون إبان عصر النهضة الأوروبية...

في عصر «الأنوار»، ظهر مفهوم جديد وهو عبارة عن نزعة كونية فلسفية دعائها الحوار والكتابة والكلمة، كما أنها مؤسسة على العقل باعتباره أنجع الطرق نحو التوافق المنشود مع الجميع. بعد ذلك، ظهرت نزعات كونية أخرى افتقدت للحس الإنساني، ولم تتخلص البشرية من ويلاتها إلا بعد سقوط ملايين القتلى. ومع ذلك، لا زلنا نشهد نزعات استبدادية تنشد الهيمنة، وهي عبارة عن إيديولوجيات وأنواع من التطرف الديني وأنظمة اقتصادية مهيمنة ونماذج تكنولوجية أو اقتصادية يراد لها أن تكون أحادية بلا بديل، كما صرنا نشهد ظهور إمبرياليات متكررة يصعب كشف حقيقتها في العديد من الأحيان. هذه كلها نزعات تسعى للكونية، تهدد الحريات وتقضي الهويات ولا تتعايش أبدا مع الخصوصية، كما أنها أيضا من أهم أسباب النزاعات، لأنها في الواقع، نزعات متنافسة شكلا ومضمونا. من جانب آخر، يمكن اعتبار السعي إلى الكونية طموحا بشريا طبيعيا في حالة ما إذا تعلق الأمر بالمصالحة مع كوكبنا من خلال رفع التحديات التي ترهن مستقبل البشرية جمعاء. ولعل خير دليل على ذلك، كل تلك المؤتمرات العالمية الكبيرة التي تعقد هنا وهناك، بغية زرع الأمل في النفوس من أجل تأمين مستقبل كوكبنا.

لكن، بما أن مقاربة هذه الإشكالات صارت تتخذ طابعا عالميا أكثر فأكثر، فالحلول بسبب ذلك لازالت تتسم بغياب الفاعلية، إذ تصطدم أساسا بجدران المصالح المتباينة والاختلافات الثقافية والأنظمة التي تجعل المقاربات التي يتم تنفيذها متباعدة ومربكة، بل قد تشعل فتيل التوترات. إن تحقيق السلم العالمي وحوار الأفكار والتسامح مع الآخر المختلف عنا، يتم عبر خلق كونية جديدة تؤسس لمجالات توافقية ومتناغمة، بالموازاة مع الحفاظ على الهويات وتعبيراتها الثقافية.

في الواقع، لا يتوفر المغرب الكبير على أي نموذج جاهز للكونية قد يسعى لفرضه، بل يواجه صعوبة جمة حتى في إسماع أصوات مفكره خارج حدوده، رغم أن كتاباتهم غالبا ما يكون فيها بعد كوني. وقد أكد الكتاب المشاركون على أهمية هذا المعطى وقاموا بتحليله بطرق وأساليب مختلفة في إطار الموائد المستديرة المنظمة ضمن فعاليات المعرض المغربي للكتاب.

وإذا كنا نتبنى جميعا نفس الخطاب حول الكونية وربما نظرة معينة حول ماهيتها، فالفضل في ذلك يرجع إلى قناعاتنا العميقة وتاريخنا العريق. ولا بد من القول بأن نصوص الكتابات والكتاب المغاربة تحمل رسالة كونية بسيطة وعميقة تعبر عن مواطنة كونية، مصدرها الجاليات المغربية التي تشكلت عبر أجيال متعاقبة.

هكذا، يعبر الأدب المغربي عن نفسه بالعربية بطبيعة الحال، لكن أيضا بالأمازيغية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية والهولندية... ويزكرنا التاريخ بأشكال «العيش المشترك» المتسمة بالتناغم والتسامح التي عرفها المغرب الكبير عبر قرون خلت. ويزكرنا التاريخ أيضا بالتنوع الثقافي الكبير لأصول المغرب الكبير - وبالمنااسبة، هو تنوع ينص عليه الدستور المغربي - وذلك باستلهم السمات الثقافية الأساسية «للأندلس» كنموذج في الانفتاح على الكونية. وبالتالي، ليس من الغريب اليوم أن نناقش هنا مسألة الكونية ؛ وليس من الغرور أن نعتبر أن المغرب الكبير كفضاء إنساني قد تكون لديه إضافات نوعية وعميقة حول هذا الموضوع، ربما شيئا جديدا في علاقات القوى التي لا تتوافق أبدا والتي تتجدد دائما في خضم استمرار الصراع.

أليست مدينة وجدة نفسها، «عاصمة الثقافة العربية» هذه السنة، مثلا على هذه الكونية التي يسعى إليها عصرنا هذا، والذي غالبا ما يفشل في تأسيسها ؟ نلاحظ أن رسائل المفكرين المغاربة وما تحتويها من أفكار تتوافق مع الدعوة إلى الكونية المعتدلة والهادئة التي نعتبر بحق ورثتها.

فتفضل صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، بإضفاء رعايته المولوية السامية على معرضنا المغربي هذا، دليل على إرادة المغرب في التفاعل إيجابيا مع مسألة الكونية. في الحقيقة، الكونية الجديدة المنشودة لا زالت في طور التشكل. ولتحقيق هذا الهدف، سينهل الفكر من ثقافتنا الموروثة وقيمنا الروحية الأصيلة، كما سينهل من قدرتنا على الخلق والإبداع والتجاوز عند الاقتضاء بغية التناغم مع عالم اليوم وبناء عالم الغد.

يُبرز هذا العمل، عبر قراءات متعددة، مدى الإمكانيات الهائلة التي تتوفر عليها والتي من شأنها أن تساعدنا على تحقيق الهدف المنشود. إذا، الشكر موصول لكل أولئك الأشخاص المتميزين الذين شاركوا في موائدنا المستديرة بحرفية، بموهبة وبشغف. وهكذا، نعتبر محض الإطلاع على مساهماتهم والنهل منها بمثابة رسالة أمل رائعة وإثراء للمعارف والمعارك. نسعى إلى نقاشات فكرية أكثر ثراء سنة 2019 ؛ ولهذا، نضرب لكم مجددا موعدا بوجوده من 09 إلى 13 أكتوبر 2019 لرفع هذا التحدي.

محمد امباركي
رئيس معرض «آداب مغربية»

تنبيه

يستعيد هذا المؤلف ما تم تداوله في مجموع الموائد المستديرة والعروض التي قدمت في مختلف القاعات المعدة لهذه الغاية بمسرح محمد السادس بوجدة وبعده أماكن مرموقة بالمدينة خلال الدورة الثانية للمعرض المغربي للكتاب لأكتوبر 2018. وبهذه المناسبة، تم تسجيل كل التدخلات، سواء منها الصادرة عن المتدخلين الرسميين الذين يتحدثون انطلاقاً من المنصة أو التي تتعلق بأسئلة وآراء المشاركين المتواجدين بالقاعة.

لقد تم تدوين هذه التسجيلات بكل عناية. إلا أن لهذه الطريقة حدوداً ينبغي الإشارة إليها. وهكذا، فإن بعض التصريحات، وخاصة منها ما لم يستطع الميكروفون التقاطها أو التي انقطعت بصعوبة بحيث لم يكن بالإمكان تدوين بعض التدخلات أو بعض مقاطع التدخلات أو تم ذلك بصورة غير جيدة.

كما أن التدخلات تم نقلها هنا باللغة الفرنسية، وقد تكون قد جرت بلغات أخرى. هذا الأمر يتوافق والانفتاح التقليدي لجهة الشرق على ثقافات عديدة قريبة طعمت الشخصية الثقافية الجهوية، ولكن أيضاً مع الهيمنة الطبيعية للغة العربية في تعبير المثقفين المغاربة، وكذا مع الممارسة القائمة على مستوى بعض المجالات التراثية أو أيضاً لشراكات دولية دفعت شركاء أجانب غير فرنكوفونيين للتعبير. هذه التعددية في لغات التعبير، تُعد مصدر ثراء يعكس غنى جهة الشرق وبشكل أوسع غنى المنطقة المغربية. لكنها تمثل أيضاً خطراً على مستوى الاستعادة الجيدة لفكر المتدخلين، لأن الترجمة تؤدي أحياناً لبعض الفوارق البسيطة في المعنى وإلى معنى مختلف في بعض الأحيان رغم كفاءة وجهود المترجمين.

فالنزاهة الأدبية تحتم إخبار القارئ بأن بعض الاختلافات الممكنة قد حصلت، ولو أن المسؤولين عن النشر بذلوا ما في وسعهم لتجنبها، أو أن بعض الكلمات التي نطقت لم يتم تدوينها. لذا، فإنه من الضروري بالنسبة للساخرين على هذه الدورة التأكيد على أن كل تقصير محتمل من هذا النوع هو طبعاً غير مقصود، بل بالعكس تماماً، بذلت كل الجهود للتقيد بكل أمانة بالتدخلات التي تمت. وبالرغم من هذه المجازفة، فقد بدا لنا أساسياً أن نقاسم مع الجمهور كل الثراء الذي احتوت عليه التدخلات والنقاشات.

اللجنة المكلفة بالنشر

الفهرس

107	أسفار الأندلس	5	تمهيد
116	الإبداع بالأمازيغية	7	توطئة
129	الجاليات : هويات إفريقية جديدة	11	تكريم ثريا الشاوي
145	الهجرة والعولمة	19	أبرز المداخلات التي عرفتھا الموائد المستديرة
160	المتوسط : بين الثقافة والمجهول	20	مسألة الكوني
175	النشر والتراث الأمازيغي	32	أن تكون مبدعا عربيا اليوم
183	متخيل اللغات	39	الكتابة والإبداع في إفريقيا
196	الكتابة على الجدران : تحية لغزة	51	الواقع والحلم
207	كتابات نسائية	58	الشرق والغرب : أفقا التفكير
224	الإسلام والحداثة	73	المشرق والمغرب الكبير : بين الآنأ والآخر
238	المغرب الكبير، الصورة عند الآخر	83	الإرث الثقافي
250	جنوب-جنوب : اللحظة الشعرية	96	الشباب، المرجعيات والانتظارات

358	الكتاب السمعي، مدخل آخر لولوج الأدب	258	كتابات نسائية
395	مؤتمر جامعة محمد الأول بوجدة	268	الإسلام والحداثة
408	الصوفية وثقافة السلام مع مؤسسة الملتقى	281	كتابات مغربية
428	المؤتمر الصحافي الختامي	290	عرض تقديمي لعمل خيالي وعمل تجريبي
440	مسرد مفهرس للمشاركين	300	سؤال الكتابة
458	برنامج الأنشطة اليومي	315	التراث اليهودي الثقافي المغربي
462	حصيلة المعرض : الصور والأرقام	331	المهاجر اليوم
		343	أية مكانة للكوني في الفضاء الإفريقي المتعدد الثقافات
		352	الترجمة والكوني
		368	مجالات ناهضة



سحر التراث؛
وقناعتنا بأنه إستثنائي.



المعرض المغاربي للكتاب



تكریم
ثريا الشاوي



ضيف الشرف : عبد الحق الميريني
رئيس الجلسة : محمد امباركي
المشاركون : عبد القادر الرتتاني، ادريس خروز



ثرىا الشاوي

محمد امباركي

أريد في البداية أن أرحب بالجميع وبالأستاذ عبد الحق الميريني، فهو شخصية غنية عن التعريف، لكن سوف أذكر من جديد ببعض المعلومات حول حياته ومساره. يأتي هذا اللقاء من أجل التكريم، تكريم المرأة. ونحن كلنا نعلم الاهتمام البالغ الذي يوليه صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله للمرأة. هذه المرأة هي ثريا الشاوي، رحلت في سن مبكر وخلفت صدى كبيرا وطنيا بطبيعة الحال ولكن أيضا في العالم العربي كافة.

لكي نكرم ثريا الشاوي طلبنا من الأستاذ، الدكتور عبد الحق الميريني أن يشاركنا في هذا اللقاء. فرغم مهامه وانشغالاته، قبل أن يشرفنا في هذا اللقاء.

أبلغكم أننا توصلنا برسالة من أخ ثريا الشاوي رحمها الله التي سيتلوها علينا السيد عبد القادر الرتتاني فيما بعد. وسنستمع لكلمة السيد عبد الحق الميريني.

السيد عبد الحق المريني هو من مواليد مدينة الرباط، حفظ القرآن في سن جد مبكرة، فهو حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة ستراسبورغ، ثم أكمل الدراسة وحصل على دكتوراه دولة في الأدب من جامعة محمد بن عبد الله بمدينة فاس. بدأ مشواره الإداري كما تعلمون بمديرية التشرifications الملكية التي أصبح مديرا لها، ثم مؤرخا للمملكة، محافظا لضريح محمد الخامس، الناطق الرسمي باسم القصر الملكي، رئيس اللجنة العلمية لجامعة مولاي علي الشريف، فمديرا لخزانة الدولة العلوية في 2015. إذا، شكرا جزيلا السيد عبد الحق المريني على حضوركم وعلى تشريفكم لنا في هذا المعرض المغاربي للكتاب في دورته الثانية والذي حظي بالرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله.



عبد الحق المريني

السيد معاذ الجامعي، والي جهة الشرق،
السيد محمد امباركي، المدير العام لوكالة جهة الشرق ورئيس معرض الكتاب «أدب مغاربية»،
الأساتذة الكرام الحاضرين معنا، سيداتي، سادتي.

أود في البداية أن أتقدم بالشكر للسيد محمد امباركي على دعوته وعلى تقديمه لشخصيتي المتواضعة وكذلك على دعوته الكريمة للمشاركة في هذه الندوة، فأشكره الشكر الجزيل.

إن ثريا الشاوي كانت زهرة من زهرات المغرب الفواح. إنها فتاة أخرجت من الضعف قوة ومن العزيمة جهدا. أمنت بعملها وجمعت كل قواها لتحقيق غاياتها المنشودة. نفخت عنها غبار الركود وطارت تتواثب بين سحب المغرب كما تنتقل الفراشة بين الزهور، فطارت معها أفئدة الفتيان والفتيات. وهكذا حملت ثريا مشعل الشجاعة والشهامة. وخاطبت العالم السماوي الحر بصوت محرك طائرتها الصغيرة. «أنا الفتاة المغربية التي لا تريد البقاء خاملة على وجه البسيطة، أنا أريد أن أطيّر إلى عالم خال من القيود والحوالجز».

كانت ثريا النجم اللامع في سماء مغربها، فرفع المغاربة رجالا ونساء، شبابا وشيوخا عيونهم نحو سماء المغرب ليروا أول طائرة مغربية تشد على زمام ذوي جناحين وليسمعوا صدى دوى في سماء المغرب، صدى زئير طائرتها يعلن فتح عالم جديد تلجه المرأة المغربية في فجر الاستقلال ومطلع عهد جديد، عهد الحرية والكرامة والاستقلال.

هكذا نفضت ثريا عنها غبار الركود وطار مع أسراب الطيور ونفخت في أبناء جيلها روح المغامرة والشجاعة والارتقاء إلى ما هو أحسن. فحلقت أرواحه في أجوائها وغمر الاعتزاز نفوسهم والإعجاب شعورهم.

سيداتي سادتي، لن أنسى ذلك اليوم الذي عاد فيه الملك المجاهد، المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، هو وأسرته الشريفة من منفاه السحيق يوم 16 نونبر 1955 من القرن الماضي، أي القرن العشرين، إلى عاصمة ملكه معززا، مكرما، منتصرا، حاملا في يده وثيقة الحرية والاستقلال.

كانت الطائرة ثريا الشاوي تحلق بطائرتها الصغيرة على علو منحدر، تسوق طائرتها بيدها اليمنى وترمي بيدها اليسرى من نافذة طائرتها الصغيرة بطائق التهاني والتبريك بالعودة الملكية المجيدة الميمونة على الجماهير الغفيرة التي هبت من كل أصقاع المغرب إلى مشور توارغة لتستقبل الموكب الملكي الظافر. كان في الحقيقة يوما تاريخيا في تاريخ المغرب المعاصر. وفي فاتح مارس من سنة 1956 والمغرب في غمرة الأفراح والمسررات لعهد الاستقلال والتخطيط لوضع أسسه وبنائه، امتدت يد أئيمة غادرة وأطفأت شعلة حياتها برصاصة قاتلة وهي على متن سيارتها.

رفعنا رؤوسنا إلى عنان سماء المغرب لنشاهد ثريا وقد ملأ صوت طائرتها الأفق، فلم نر إلا سماء صافية وشمسا ساطعة، تبحت معنا عندليبيا كان يملأ أجواء المغرب الفسيحة، يملؤها أهازيج النصر والفوز المبين. لقد صمت محرك طائرة ثريا الشهيدة البكر، فصمت للأبد، فطأطنا رؤوسنا واستسلمنا للقضاء والقدر وباليات غائبة الشمس لم تغب كما يقول الشاعر ولكن كان أمر الله قدرا مقدورا.

كل هذا أصبح اليوم ذكرى، ذكرى الشهامة المثلى والعزيمة القوية والشجاعة النادرة لخوض غمار المغامرات وذكرى استنهاض همم الشباب والشابات وتقوية عزائمهم لاستكشاف التقنيات الحديثة لينتصروا جميعا على الخمول والركود والجمود الفكري ويدخلوا مجال التحرر والانعتاق والتقدم وتنمية مغربهم الحديث بكل قواهم. وهكذا كل ذكرى تنفع اليوم شبابنا الناهض المقبل على مستقبل زاهر سيقبلون فيه آمالهم وغاياتهم في العيش الرغيد والحياة الكريمة وما ذلك على همتهم بعزير. شكرا على حسن انتباهكم.

محمد امباركي

شكرا السيد عبد الحق المريني على هذه الكلمة القوية في حق المرحومة الشهيدة ثريا الشاوي. والآن أعطي الكلمة للسيد عبد القادر الرتاني، هو كما تعلمون رئيس جمعية الناشرين المهنيين بالمغرب الذي نشر كتابا حول ثريا الشاوي والذي سيقرا لكم رسالة خاصة وجهها للمعرض أخ ثريا الشاوي الموجود في الخارج والذي لم تسمح ظروفه الصحية بأن يكون بيننا في هذا اللقاء.

عبد القادر الرتاني

شكرا السيد محمد امباركي. أشكركم على هذا الاختيار. أنا لست هنا كرئيس اتحاد الناشرين ولكن كصديق عائلة ثريا الشاوي. أتكلم وأذكر الأيام التي أمضينا لما كنا جيرانا وكنت أدخل عندهم للمنزل وألقي والد ثريا الشاوي رحمه الله الذي كان رجلا مثقفا وكان يكتب مسرحيات معروفة. آنذاك كان عنده بنت وولد، وفي ذلك الوقت كان يتعامل بالمساواة. لم يكن في مجال الطيران بنت قبل ثريا الشاوي. النقطة الأخرى المهمة : الكتاب الأول الذي صدر باللغة العربية حول ثريا الشاوي هو للسيد عبد الحق المريني. وهذا قليل من يعرفه. ومن المهم التعريف بذاكرتنا وتاريخ المغاربة. كانت آنذاك بنت عمرها 16 سنة فقط سابقة لعهدا. اسمحو لي... أنا متأثر. السيد ادريس خروز، مدير المعرض، سيتقدم لقراءة الرسالة.



« سيداتي، سادتي،

قراركم بتكريم المرحومة أختي ثريا الشاوي يشعرنني بالفخر ويملاً قلبي وإن كان يؤسفني عدم القدرة على التواجد معكم لظروف القاهرة. أعتذر لكم جميعاً. أتقدم بالشكر لكل الحضور، شكراً جزيلاً على مشاركتكم في هذا التكريم.

الشكر موصول إلى مؤرخ المملكة والناطق الرسمي باسم القصر الملكي الأستاذ عبد الحق الميريني، الذي اتحف هذا اللقاء بحضوره. لا يفوتني الذكر أنه أول من كرم من خلال كلماته مسار الطائرة، من خلال كتابه الصادر في أواخر 1956، بعد شهور فقط من فقدان ثريا، وقد أعادت مؤسسة محمد الزرقطوني إصدار هذا المؤلف في 2009. الشكر موصول كذلك إلى صديقي العزيز الأستاذ عبد القادر الرتتاني، له الفضل في هذه المبادرة. كان بدوره يعرف أختي المرحومة، درسنا سوياً في مدرسة جول فيرن في الدار البيضاء. لم أجد أحسن منه لنشر كتابي "أختي ثريا، أول طيارة في العالم العربي".

يعتبر الفاتح من مارس 1956 على الساعة السادسة والنصف مساءً، تاريخاً بارزاً في حياتي. في ذلك اليوم تم اغتيال ثريا، في سنّها العشرين، أمامي، وهي على متن سيارتها. كان ذلك عشية استقلال المغرب. كان الفرح يعم البلاد بينما كان الحزن يخيم على أسرتي. ستون سنة مرت على هاته الفاجعة، اقتربت شيئاً فشيئاً من ذاكرتها، بقيت هاته الذكريات الحزينة في مخيلتي حية كأنها حديثة كجرح دام.

لي الشرف لتقديم كتاب من أجلها، كتاب يلقي الضوء على سيرتها الغنية رغم قصرها. كتاب يشمل حياتها بين نجابتها في الدراسة ومقاومتها للمستعمر. عمد هذا الأخير إلى تشبيطها من خلال اختبارات صعبة في الامتحان، حلقت في ارتفاع 4 000 متر رغم رداءة الطقس، مخاطرة بحياتها. نجحت في ذلك وهي في السادسة عشر من عمرها، نجحت في الحصول على رخصة الطيران في 17 أكتوبر 1951. وهي شهادة من القوات الجوية الفرنسية، في باريس، تفرد بها بلقب أول طيارة في العالم العربي والأصغر سناً في العالم. هي رمز لتحرر المرأة المغربية، ناضلت من أجل حقوق المرأة، ضد الأمية، ضد الظلم. نادت بعودة جلالة الملك محمد الخامس، باستقلال المغرب فلم يتسن لها الاحتفاء بذلك.

لا يمكنني نسيان ما لحق بأسرتنا، خلال تلك الأيام المؤلمة والمجيدة للمقاومة المغربية. كنا نرتحل من منزل لآخر، ترقبا لهجمات المستعمر. فقد وضع قنبلة في منزلنا، ولحسن الحظ كان خاليا آنذاك، إضافة إلى المحاولات الاغتيالية العديدة التي تعرضت لها ثريا.

لا يمكنني نسيان حدث مهم أفتخر به كشاب آنذاك. خلال أول رحلة لي، في الطريق من مألقة إلى تطوان، مع جميع أفراد الأسرة، ابتسم القبطان ساخرا من المراهقة التي ترتدي ثياب الطيار. دعا القبطان ثريا إلى مقصورة القيادة لاختبارها. إن تفاجأ المسافرون الأربعون على متن الطائرة بعد إعلان القبطان بأن المراهقة هي التي تتولى القيادة. كان متأثرا وفخورا في نفس الوقت. كان هذا سنة 1952. أتمنى أن تظل ثريا رمزا للشجاعة لدى الأجيال القادمة، وأن يخصص لها التاريخ المكانة التي تستحقها. أكرر شكري لكل من يفكر فيها اليوم.

فليتغمذك الله برحمته، أختي الغالية.

صلاح الدين الشاوي «.

محمد امباركي

أشكرك سي إدريس على هذه القراءة، وسأندخل لأعيد ما سبق لي ذكره نظرا لتأثري. قرأت هذا الكتاب وأنا أنصحكم به. لماذا تعتبر ثريا رمزا لنا ؟ لشبابنا ؟ لأن لديها شغف الطيران في سنها الخامس عشر. شجعها والدها الصحافي على ذلك. تلقت شهادتها من مدرسة الطيران بتيط مليل وهي في السن السادسة عشر لتغادرنا وهي تناهز العشرين. مسار يحف بالرموز، كما ناضلت من أجل قيمنا ومؤسساتنا. إذا كان هناك شخص يريد أن يدلي بشهادة حول المرحومة، فمرحبا.

عبد القادر الرتناني

ما أريد قوله مهم لمن يستمع إلينا، ألف عبد الحق المريني كتابا بعد اغتيال ثريا الشاوي، ثم نسيت إلى أن قام ولاية مدينة فيشي الفرنسية باختيار اسم ثريا الشاوي سنة 2015 لشارع بهذه المدينة بعد أن استقرت فيها شركة للطيران. فبحث حينها السلطات عن اسم شخصية في مجال الطيران فتم الاتفاق بالإجماع على هذا الاسم. على إثر ذلك ارتأى أخ المرحومة، صلاح الدين الشاوي، صديقي في الطفولة، إلى سرد قصتها. هكذا تم تخليد ذكارتها. ولقد أرسلت لنا بريجيت ماكرون تهانيها وافتخارها بشارع يحمل اسم بطلة مغربية ثم اغتيالها من طرف المستعمر الفرنسي. هذه قصة مؤثرة بالفعل. وأجدد اعتذاري لما انتابني من مشاعر فلم أكن قادرا على الكلام.

مداخلة

أثناء تدخله قال السيد الكبير حنو : شكرا السيد الرئيس وشكرا للسيد عبد الحق المريني على قبوله الإدلاء بشهادة في حق مناضلة وطنية. لقد اقتحمت ثريا الشاوي عالم الطيران في وقت كان فيه مجال ربانة الطيران حكرا على الرجال في أوروبا وأمريكا، فما بالك في المغرب والعالم العربي حيث كانت هي أول قائدة للطيران في المغرب. نعتز بها لأنني بيضاوي ونفتخر كثيرا بثريا. لكن الغريب أن ثريا الشاوي كان من الممكن أن تمضي في عالم النسيان لولا كتاب مهم يحكي قصة أول طيارة مغربية، الشهيدة ثريا الشاوي لمؤلفه الحاضر معنا الأستاذ عبد الحق المريني. الكل يتذكر الرسالة التي قرأتوها في الذكرى الأربعينية لتأبين الشهيدة. فشكرا لكم الأستاذ عبد الحق المريني.

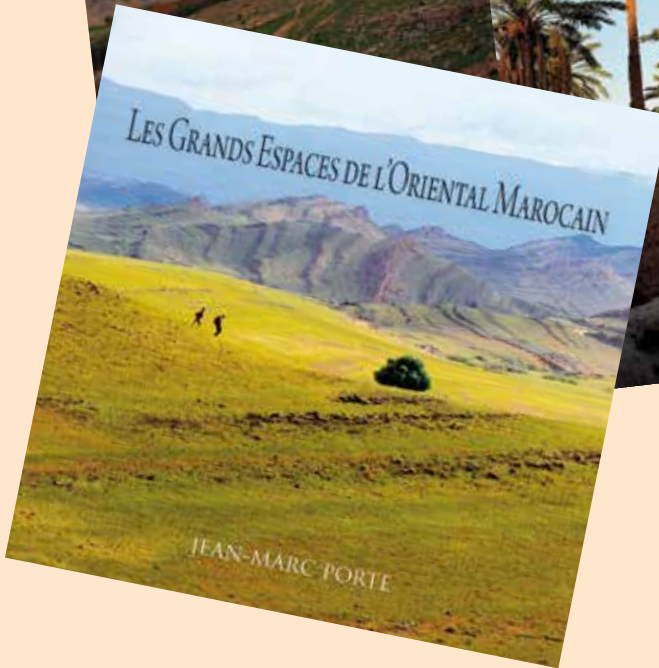
عبد الحق المريني

فعلا، كنت أعرف ثريا الشاوي من بعيد، كنت في الأرض وكانت هي في السماء وخاصة يوم عودة جلالة الملك محمد الخامس من منفاه السحيق، وكان الدخول إلى القصر الملكي بالرباط حقيقة تاريخية. كانت توارثة ساعتها مملوءة بالمواطنين المغاربة، رجالا ونساء وأطفالا. كانوا قد جاءوا لتحية هذه العودة. وكذلك هنا كان لي لقاء أيضا بين السماء والأرض مع ثريا حيث كانت كما قلت في كلمتي توزع علينا بطائق التهنئة بقدوم جلالة الملك. بعد وفاتها رحمها الله، نشر والدها عبد الواحد الشاوي وهو رجل مسرحي وصحافي إعلانا في جريدة لحفل الأربعين في سينما فوكس في الدار البيضاء، التي أقفلت مع الأسف أبوابها كما العديد من القاعات السينمائية التي انقرضت. وهي قاعة تاريخية وبها كان حفل الأربعين لثريا الشاوي، فشاركت فيه. بعثت له بكلمتي فأجابني بالترحيب. وألقيت كلمة التأبين في ثريا الشاوي لأنني كنت أهتم بالمرأة المغربية والفتاة المغربية وخاصة ثريا الشاوي أول طيارة مغربية. لما كنت خارجا من سينما فوكس وانتهى حفل التأبين جاء عندي والدها وقال لي كلمتك كانت مؤثرة جدا وأنا أريد أن أكتب حولها كتابا وأريدك أنت أن تكتبه. أعطيته موافقتي وبدأت أتردد على مدينة الدار البيضاء وأنا أسكن مدينة الرباط تقريبا مرتين كل أسبوع للقاء والدها ليحدثني عن أعمالها وحياتها وليزودني بالوثائق الكثيرة والصور، الخ. واستمر هذا العمل سنة وبعد ذلك خرج هذا الكتاب وتجددت طبعته مؤخرا من طرف جمعية الزرقطوني لإبن الشهيد الزرقطوني الذي توفي هو الآخر في السجن ، فهو انتحر حتى لا ييوح بأسرار المقاومة. إبنه خلق هذه الجمعية الثقافية وطلب مني أن يطبع الكتاب طبعة ثانية وأعطيته موافقتي. هذه باختصار هي قصة كتاب ثريا الشاوي.

محمد امباركي

شكرا السيد عبد الحق المريني على مشاركتكم وشهادتكم وعلى كلمتكم القوية المؤثرة. شكرا للسيد عبد القادر الرتتاني على هذه اللحظات المهمة وأشكركم جميعا على الحضور.

سحر التراث؛
وقناعتنا بأنه إستثنائي.



المعرض المغاربي للكتاب



أبرز المداخلات
التي عرفتها
الموائد المستديرة



رئيس الجلسة : نور الدين الصايل
المشاركون : رشدي راشد، فرانسوا ليفوني
فضاء : القدس
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 09 : 00 - 11 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

يعتبر الأستاذ نور الدين الصايل شخصية عمومية معروفة في المغرب، حيث يرتبط اسمه بالسينما والتلفزيون ؛ لكن ما لا يعرفه كثيرون عن الرجل هو أنه جامعي مخضرم في الفلسفة التي درسها وأشرف على تأطير تدريسها كمفتش عام بوزارة التربية الوطنية. وعلاوة على مواهبه في كتابة السيناريو والنقد السينمائي، فالأستاذ نور الدين خطيب مفوه وخطاط من الطراز الرفيع. وقد أبدى الأستاذ الكريم تحمسه للإشراف على تسيير هذه المائدة المستديرة التي عبر بها إلى بر الأمان باقتدار قل نظيره.

افتتح نور الدين الصايل الجلسة بالحديث عن اليونان القديمة باعتبارها مهدا لمفهوم الكونية والفلسفة الواحدة التي تقابلها الفلسفة المثنوية الصينية. وقد غطى هذا التقديم الجامع المانع فكرة الكونية في كل الأنظمة الفكرية السابقة واللاحقة كالإسلام أو الليبرالية الجديدة أو المسيحية أو الاشتراكية... وهكذا وجدنا أنفسنا في قلب النقاش بكل سلاسة.

تحدث الأستاذ رشدي راشد عن مساهمة الإنتاجات العلمية العربية في بناء صرح الكونية. وقد نفى ضيفنا الكريم أي وجود للكونية بلا عقلانية، معضدا كلامه بمجموعة أمثلة من التاريخ العربي القديم ؛ كما أكد أن نفى هذه العلاقة يدفعه إلى أخذ مسافة من الأفكار والفلسفات اللاعقلانية من جهة والمتطلبات الكثيرة للكونية في حد ذاتها من جهة ثانية. من جانبه، ذكر نور الدين الصايل الحضور بأن أول مكتبة علمية عالمية ضمت معارف كل العصور أسست في القرن الحادي عشر بطلب من النحاة، لاسيما بعد ترجمة أمهات الكتب في الحضارات السابقة كالحضارة اليونانية والسنسكريتية والفارسية...



أما ضيفنا الثاني، فهو الفيلسوف الفرنسي فرانسوا ليفوني الذي أكد أن الكونية وسيلة هيمنة وأنها تتعارض مع فكرة الفردية. وعلاوة على ذلك، ناقش ليفوني الفرق بين مفاهيم الموحد والمشتك والمختلف... قبل أن يختم مداخلته بالحديث عن تعدد طبقات ومستويات الكونية الأوروبية والحديث عن تعددية السبل المؤدية إلى كونية يُنظر لها على أنها الأفق المراد بلوغه.

من جهته، ناقش الكاتب المغربي جليل بناني عنوان كتاب الفيلسوف الفرنسي فرانسوا جوليان «لا توجد هوية ثقافية» الذي أشار إليه المتدخلون عدة مرات. وبالنسبة إليه، أعلن هذا العنوان نهاية نزعة الخصوصية الثقافية والطائفية والهويات الجامدة المتوقعة على ذاتها. وقد صار النقاش أكثر تشويقا وعمقا بعدما أكد المسير على وجود نزعة الهيمنة في الكونية وعلى أن هذه النزعة هي المشكلة الأساسية في الكونية : فهل هي كونية أمريكية أم أوروبية أم ماذا ؟ وهل تقدم الصين نفسها كبديل للولايات المتحدة في قيادة تشكيل هذه الكونية القائمة أم إنها مجرد مساهم فقط ؟

في الختام، ناقش المتدخلون فكرة الحقيقة باعتبارها أفضل أساس للكونية لأنها تلغي أي كونية محلية وتسلب الضوء على الفكر والعلم فقط دون أية اعتبارات جغرافية أو سياسية أو أيديولوجية... قد يوصف بها هذا الفكر والعلم.

مداخلات المائدة المستديرة

نور الدين الصايل

بلا شك، من الصعوبة بمكان الإحاطة بكل جوانب هذا الموضوع المتشعب في ساعة واحدة. لكننا سنحاول تجاوز هذا الإكراه الزمني قدر المستطاع. إذا، ستكون نقطة الانطلاق من سؤال بديهي هو : ماذا نقصد بالكوني ؟ ويحضر معنا اليوم للإجابة على هذا السؤال الكبير ثلة من المفكرين.

ويسعدني أن أستضيف الأخ المصري العزيز رشدي راشد الذي يتقن صنعة السؤال. وهو يتمتع بثقافة موسوعية تمكنه من الخوض في قضايا شتى خوض المختص الضليع. كما أنه مطلع على الإنتاجات الفكرية الأوروبية، والفرنسية بشكل خاص. بصراحة، يحтар المرء بأي صفة يقدم الأستاذ رشدي راشد الذي اجتمع فيه كثير مما تفرق في غيره. وحضوره معنا اليوم هو بلا شك تشريف لنا جميعا.

ضيف كريم آخر أسعدنا حضوره معنا اليوم هو الفيلسوف الفرنسي فرنسوا ليفوني. شخصا، عرفت ليفوني الرجل والكاآب والمفكر من خلال مواقف رائعة وشخصية ودية للغاية ؟ وما قوى صداقتنا حقا هو أن لنا صديقا مشتركا هو العظيم إدغار موران. يختص ليفوني في قضايا أميركا اللاتينية، أأمنى من خلال مناقشته للكونية أن يقدم لنا بعض الأفكار ووجهات النظر القادمة من هذه القارة التي تلعب أدوارا مهمة في عالمنا المعاصر بلا شك.

أولا أشكر المنظمين على اختيار هذا الموضوع الشيق، وهو في الحقيقة موضوع ذو شجون. فطرح موضوع بهذه الجدبة على طاولة النقاش يتطلب قدرا كبيرا من الثقة والتفاؤل. وفي نظري، يجب أن ينكب العالم كله على دراسة ومناقشة ومساءلة الكونية.

لكن، لماذا نطرح هذا الإشكال ؟ أولا لأنه إشكال معقد ليس من السهل التعامل معه دون نقاش معمق وموسع. تكلمت في افتتاح جلستنا عن الشرق الأقصى، وتحديدًا عن الصين التي لم تنشأ أبدا عولمة حضارتها لأسباب جد معقدة يمكننا تبسيطها. لكننا نعلم أن الصين لم تؤمن يوما بالفلسفة الواحدة، والأبحاث التي أجريت في هذا الباب تؤكد ما أقول. بالنسبة للصينيين، العالم كله منتظم وفق الفلسفة المثنوية. ويرجع أصل الواحدة إلى اليونان القديمة التي أسست مفهوم الكونية. وأنا أعتقد أن هذه الحقيقة هي سبب كل سعادتنا وتعاستنا في الوقت نفسه. كيف ؟ كما تم التأكيد في نص تقديم هذه المائدة المستديرة، الكونية، عكس ما ندعيه اليوم، ليست محايدة أخلاقيا. إنها بكل بساطة معركة بين الجميع في هذا العالم.

لكن رغم كل شيء، تبقى الكونية شرا لا بد منه. وحتى عندما أتكلم وأعبر عن معارضي للكونية مستعملا لغة معينة، فأنا أؤكد أهميتها وحضورها من خلال هذه اللغة التي تتشارك مع كل اللغات البشرية الأخرى في مجموعة من الخصائص الكونية. وكيف لي أن أقول : أنا أقترح كونية أخرى مقابل الكونية القائمة ؟ علما أن الكونية التي نعيشها اليوم تضمن لنا كل شيء يمكن ضمانه : حرية التعبير وحقوق الإنسان والليبرالية وما شابه ذلك. لكن المشكلة هي أن البعض خلق علاقة قوية جدا بين حقوق الإنسان والليبرالية، وأصبحوا يعملون باسم حقوق الإنسان على نشر الليبرالية ورعايتها حتى في بلدان لا تقبلها بتاتا، لكنهم لا يبالون لأن حقوق الإنسان مجرد حيلة تعينهم على استغلال ثروات تلك البلدان. وهذه هي المعطيات الأساسية التي أصبحت تشكل صورة الكونية المسيطرة على العالم للأسف. ومنذ اللحظة التي تفرض فيها هذه النسخة من الكونية نفسها على العالم، سوف لن يكون بمقدورنا تجاهل حقيقة أن الكونية قائمة على المثنوية، أو الين واليانغ.

إذا، عندنا احتمالين اثنين : إما تقديم كونية بديلة ومن ثمة الدخول في مرحلة تفاوض تنتهي بكونية جديدة - وهذا تفكير طوباوي بامتياز - وإما أن ندع كونية جديدة كليا ؛ وفي هذه الحالة الثانية، سنحتاج مجموعة من الأسس القوية التي سنبنى عليه هذا الصرح الجديد.

شخصيا، أومن أن ما نسميه اليوم الكونية هو الليبرالية الجديدة مضاف إليها شعارات حقوق الإنسان لا أقل ولا أكثر. لقد أصبحت وسيلة في يد البعض من أجل التحكم في مسير الشعوب. وكما سبق لي أن قلت، أصبح اقتران الليبرالية الجديدة بحقوق الإنسان أمرا بديهيا. في نظري، قد نستطيع التفاوض والتحاور، لكن إذا أردنا المعارضة وطرح أفكار وتصورات الهدف من وراء خلق كونية جديدة، فسيتوجب علينا العمل بأقصى جهد، لماذا؟

لأن الكونية السائدة اليوم كونية مجانية تهيمن عليها الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها راعية الليبرالية في العالم. وإذا بحثنا عن أي تفسيرات تاريخية لهذا الواقع، فسنجده في القرن الثامن عشر، أي عصر الأنوار. عندما نتأمل ما أورده المؤرخون الإنجليز والألمان والفرنسيون بخصوص تلك المرحلة التاريخية، نقف على ثلاثة مبادئ أساسية.

أولا، منذ بداية الفلسفة العقلانية في القرن السابع عشر مع ديكارت وأتباعه، تبين بوضوح أن الحقيقة قابلة للفهم والضبط وفق منهجية دقيقة. وقد ساعد هذا المبدأ الغرب التاريخي على تقديم أشياء مميزة حقا. وبما أن كل شيء قابل للفهم والضبط بمنهجية، فمن الممكن تغيير الواقع والحقائق بفضل العقلانية.

أما المبدأ الثاني فيقول: تفكر الإنسان في الطبيعة هو ممكن بطور الطبيعة ويطور فهم الإنسان لها، فيكون التقدم على مستويين اثنين. وبما أن الناس هم جميعا على قدم المساواة على اعتبار أنهم جميعا يتمتعون بملكة العقل، فالفترض أن تلتقي مساراتنا كلها في نفس النقطة: وهذا هو مبدأ التقارب. لهذا أعتقد أنه أينما توفرت العقلانية والتقارب والسعي إلى الكمال فسنجد الانسجام.

أنا أومن أن هذه هي نقطة البداية الجيدة في التعامل مع الكونية، وهذا الإيمان يفترض أن هناك شيء معين لا نقوله: نحن نفترض حيادية أخلاقية تامة في الكونية، أي الاحتكام إلى العقل وترك القيم جانبا؛ وهذا معناه أننا نضرب بعرض الحائط كل ما هو أخلاقي. وهنا يظهر عيب الكونية، لأنها تعتمد على مبادئ التفكير العقلاني الثلاث ولا تعبر عن أي موقف أخلاقي واضح وصريح. ويبقى الشيء الأكيد هو أن تفاعلات تاريخية معينة هي التي أنتجت منظومة فكرية - بصالحها وطالحها - فرضت نفسها كمنطق وفكر كوني لا نستطيع الخروج منه. وقد تطور هذا الوضع عبر التاريخ.

لهذا، أرى أنه من الضروري أخذ السياقات التاريخية بعين الاعتبار. وفي هذا الإطار، يمكننا القول أن أول كونية أنتجت وفق النموذج العقلاني الذي ذكرت مع إضافة موقف أخلاقي غير محايد هي المسيحية. وبطبيعة الحال بدأت الحكاية مع بولس الحكيم الذي وبينما هو سائر على طريق دمشق فهم أمرا مهما جدا: ماذا لو انطلقنا من فكرة مركزية هي عودة المسيح وطبقناها على الكون كله؟ وهكذا أصبحت المسيحية أول فكرة لا تجتمع بالعقلانية التي أوصلتها إلى الكونية إلا بعد قرون عديدة. يمكننا الحديث عن الإسلام، وما وقع في القرن التاسع الميلادي فكريا وعلميا، وهذه أمور مهمة بلا شك. لكن ما قام به بولس الحكيم من استغلال للعقلانية في فرض نظام عقائدي إيماني نعرفه اليوم باسم المسيحية هو أمر خطير لابد من الوقوف عنده. والأكيد، أن البعض سيشكر بولس الرسول والبعض الآخر لن يفعل. وهذا بطبيعة الحال بفتح نقاشا كبيرا. حاولت من خلال كلمتي هذه فتح شهيتكم للنقاش قدر المستطاع. أما الآن فأعطي الكلمة للأستاذ رشدي راشد.

رشدي راشد

اسمحوا لي في البداية أن أشكر المنظمين وعلى رأسهم صديقتي أمينة المؤدب على هذا التنظيم الرائع وعلى الحس العالي في اختيار موضوع النقاش: مساءلة الكوني. كما يعلم الجميع، وجدة هي عاصمة الثقافة العربية لهذه السنة؛ ولهذا اخترت الحديث في موضوع ذي صلة: إسهامات العلوم العربية في بناء صرح الكونية. فقط قبل أن أبدأ، أعلمكم أنني رجل متفائل بطبعه، لدى اعدروني إن وجدتم في كلامي شيء من التفاؤل الزائد.



قبل حوالي قرن من الآن، تعرضت الكونية والعقلانية إلى سلسلة هجمات متنوعة كلها سعت إلى تحطيم العقلانية. وبالتالي، أرى أن السؤال المناسب هنا : ما الذي يحدث في أيامنا هذه ؟ في الحقيقة، نحن اليوم تجتاحنا اللاعقلانية بكل تلاوينها، سواء كانت دينية أو عرقية أو قبلية... لقد أعادتنا هذه التقسيمات الهوياتية القوية إلى الحديث عن فكرة العرق أو الحضارة السائدة وتنظيم المجتمعات بناء على أساطير في كتب ألحقت بها صفة القداسة تتحدث عن دين واحد وثقافة واحدة. كل هذه الأيديولوجيات، وهذا هو الاسم الدقيق، تخفي أهداف معينة وراء سعيها إلى بلوغ الكونية. إنها حبيسة بنية فكرية غير واضحة لكنها في الوقت نفسه تدعو إلى التوحد والتعاون، وهذا أمر لا نستغربه منها لأن الكونية هي الشيء الذي لابد أن يتفق عليه الجميع. وبالتالي، أعتقد أنه بغض النظر عن الحقبة الزمنية أو اللغة أو الثقافة، فإن معتقدات الناس وعاداتهم وخصوصياتهم الثقافية تصبح في مهب الرياح في مقابل أي أيديولوجية مهينة.

صحيح أن القوانين تختلف من بلد إلى آخر. لكن، كما قال بليز باسكال مخاطبا عالم الرياضيات بيير دي فيرما : «أعرف أن الحقيقة هي نفسها في تولوز وباريس». إذا، فالمسألة متعلقة بالحقيقة. ونحن بالتالي نفهم أن الكونية والعقلانية ليستا بأي حال من الأحوال نتاج الفلسفة والضمير بل نتاج فلسفة المفاهيم. وبهذا المعنى، تصبح الكونية نتيجة غزو وعمل صبور وتراكمي على مستوى المفاهيم. وأنا هنا لا أنوي الحديث عن الأطروحات المتعلقة بالكونية وأكتفي بالقول إنها اعتبارية وتفتقر لأي إبداع. بدل ذلك، سأسلط الضوء على سيرورة تشكل الكونية داخل الحضارة الإسلامية في قرونها الأولى ؛ وسأحدث تحديدا عن المجالات التي كان للمسلمين إسهامات مهمة فيها. وهنا نتكلم عن الرياضيات وباقي العلوم والفلسفة والمنطق وعلم اللاهوت وعلم الكلام والقانون. صحيح أن كل واحد من هذه العلوم له مميزاته الخاصة جدا، لكن العلماء والفلاسفة والفقهاء يقرون أن أساس الكونية هو العقلانية وأن الكونية، في الفكر كما في السلوك، هي وظيفة العقلانية. وعلى هذا الأساس، قدم علماء الكلام والفلاسفة أنظمة فكرية عقلانية نسقية هدفها فهم وتفسير العالم.

ابتداء من القرن الثامن الميلادي، نشأ نوع من التوافق بين الكتاب والمفكرين على ضرورة بناء منهجيات وقواعد تُوَظَر أي بحث عبر خطوات منتظمة يقود بعضها إلى بعض بمنطقية. وتجب الإشارة هنا إلى أن العلماء الذين انبروا لهذه المهمة الصعبة لم يضعوا قطيعة مع الأفكار السائدة في الماضي أو في عصرهم، بل استفادوا منها قدر المستطاع.

دعوني أقرأ لكم مقطعاً مما قاله الكندي بهذا الخصوص في القرن التاسع الميلادي: «واجب علينا أن لا نلوم من أعاننا بعلم يسير ثم عاد يقول إنه كان له علينا فضل عظيم فيما ما فتح الله علينا به من علم. لا نلومه لأنه وإن قال باطلاً فقد كان لنا شريكاً لما أقدنا من علمهم ووجدنا فيه سبلاً سالكة إلى ما وفق إليه آخرون من علم بالحقيقة». ويقول الكندي أيضاً: «لا حرج علينا أن نستحلي الحقيقة ونطلبها في مشارق الأرض ومغاربها». هكذا تكلم الكندي، أحد مؤسسي الكونية.

الفلاسفة بدورهم يريدون بناء فلسفة كونية؛ وهم يبدؤون مسيرة البناء بالتأكيد على أن الفلسفة لا يلج عوالمها إلا الرياضي، حتى أنهم يضعون الطلاب أمام الوضع التالي: يجب البدء بكتب الرياضيات قبل كتب أرسطو. وهذا الوضع سينتج لنا في رأيهم واحد من اثنين: إما فيلسوفاً حقيقياً أو مجرد مردد لكلام الآخرين إذا كان قادراً على حفظه أصلاً. هذا يعني أن الفلسفة أيضاً لها أساس علمي ورياضي. وقد حاول الكندي، حتى وإن قال في درس اللاهوت أو الكلام أن الوحي يأتينا بالحقيقة، بناء فلسفة كونية تخاطب كل البشرية أساسها الصلب هو العقلانية.

وبعيداً عن ما هو وحي، لابد للبراهين المقدمة أن تخضع للعقل لا أن تخرق قوانينه. وما قام به الكندي عند مخاطبة العالم هو تغيير الحجج القائمة على اللاهوت والتوقع والغيب بحجج وبراهين عقلانية. وتطبيق هذا المبدأ أمر لا مفر منه لمن أراد الحصول على حجج عقلانية كتلك التي وجدها الكندي في التراث الأرسطي من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة. هذا الكلام معناه أن كل أطروحة فلسفية مطالبة بالتوفر على أسس نظرية وأسس رياضية كي تتجج. وبهذا المعنى تصبح الرياضيات أداة تشريح لا غنى عنها في الفلسفة الحديثة. وخلال الفترة التي عاش فيها الكندي، ظهرت بوادر أول كونية علمية فيها بعد عاطفي لا عقلاني. هذه الكونية أسس لها رياضيون وعلماء وفلاسفة من أصول وديانات مختلفة القاسم المشترك بينهم جميعاً هو الكتابة باللغة العربية. وقد كانت هذه أول مرة يتم فيها الحديث عن علم كوني. فقبل تلك المرحلة، كان النشاط العلمي متركزاً شرق المتوسط. لكن الأمور تغيرت في القرن التاسع بعد صحوحة كبيرة جداً على مستوى البحث العلمي وترجمة إبداعات ومعارف الحضارات القديمة وتطويرها.

لقد تعمق هؤلاء العلماء الذين كتبوا بالعربية في تخصصاتهم إلى حد كبير فطلبوا ترجمة أعمال الثقافات اليونانية والسنسكريتية والفارسية ذات البعد الكوني إلى اللغة العربية قصد تأسيس أول مكتبة كونية للعلوم والفلسفة. وما لا يحتاج إلى بيان هنا هو أن اللغة الوحيدة في تلك المكتبة كانت اللغة العربية. وهذه هي المرة الأولى التي تستعمل فيها لغة واحدة في قراءة ودراسة الإرث الفكري الذي أنتجه القدامى والمعرفة الجديدة آنذاك. وبالتالي، كانت الأسس المادية الضرورية في بناء فلسفة وعلم كونيين متوفرة منذ القرن التاسع. لهذا توفرت كل الظروف المواتية من أجل نفي إمكانية قيام الكونية بلا عقلانية في القرن الحادي عشر. وهنا أدرج مثلاً سريعاً من حياة الرياضي والفيزيائي العظيم ابن الهيثم يؤكد سيادة العقلانية وتراجع ما سواها إلى الوراء ابتداءً من هذا القرن: في مرة من المرات، رد ابن الهيثم على رسالة يعتقد صاحبها أن بطليموس فلكي معصوم... فخالفه وحاجه.

نور الدين الصايل

شكراً على هذه المداخلة القيمة. أعطي الكلمة الآن للأستاذ فرانسوا ليفوني.

فرانسوا ليفوني

أولاً أحيي الأستاذ راشد على هذه المداخلة المميزة؛ وأشكر اللجنة المنظمة. وأنا هنا أستحضر فارس ترحل مؤخراً هو بول فيريليو الذي كان يتحدث عن انكماش الفضاء من حولنا كلما زادت السرعة. إنه انكماش في الخريطة الذهنية يقابله في نفس الوقت انتشار للنزعة الهوياتية. لقد أصبح الناس في كل أنحاء العالم ينكمشون على نواتهم ويشيدون جدران وحدوداً تفصلهم عن العالم الخارجي.



النتيجة هي أننا اليوم نواجه تناقضا بين عالم يبدو منفتحاً ومحاولات انغلاق وتشنجات هوياتية كتلك التي تشهدها أوروبا. وكما قال بول فاليري، الكونية هي إحدى الكلمات التي لا تقول الشيء الكثير عن نفسها، لكنها كلما ذكرت بدأ التمجيد والتعبير عن القلق والرفض من كل الجهات. لو كان الفرنسي إدغار موران بيننا اليوم وسألناه عن الكونية، فسيجيب بطريقة فيها شيء من الحرج. سيقول إن الكونية المجردة ليست مفهوما «موراني» بل هي شجرة ضاربة بجذورها في أعماق العقلانية. وسيقول بلا شك إن الكون متمحور حول البشر أكثر من اللازم وإن هذا الأخير ليس سوى جزء من الكل، أي الحياة ككل والطبيعة بشكل خاص. وبعبارة أخرى، سيتحدث إدغار موران عن الشمولية انطلاقاً من نموذج أو براديغم مركب. نحن نتحدث دائماً عن قيم كونية وحقوق إنسان كونية... لكن ما هو بالضبط هذا الكوني الذي سيُستنزف من كثرة الاستعمال؟ شخصياً، أرى أنه يمكننا الخروج من هيمنة الكونية بالحديث عن «التعددية الكونية» كمفهوم جديد والتأكيد على تنوع القيم وأساليب العيش الراسخة وخطر السقوط في النزعة الثقافية أو النسبوية.

في الجهة المقابلة، يقول البعض إن التخلي عن الكونية ومبدأ الوحدة الذي تتطلبه يقودنا إلى التعددية الراسخة الصلبة والنسبوية. من بين هؤلاء عالم الاجتماع الفرنسي ألان كايلي Alain Caillé ومجموعة من المفكرين الذين يروجون لـ «التعددية الكونية» ويؤكدون وجودها؛ قد يكون هذا صحيحاً. لكن المشكلة في هذه الحالة هي أنه كلما بنينا مفهوماً جديداً معين، سنجد أنفسنا أمام النواقص والتناقضات والغموض لأن هذا المفهوم لم يبنِ إزاء كونية وحيدة وواحدة، وإنما بني إزاء كونية واحدة من مجموع كونيّات كثيرة تختلف كل واحدة منها عن الأخرى. لدى أرى أن مناقشة هذا الموضوع اليوم نشاط فكري صحي للغاية. وهنا أحييكم أيها السيدات والسادة على المفكر الفرنسي المعاصر المختص في الثقافتين الصينية واليونانية فرانسوا جوليان الذي أصدر سنة 2008 كتاباً له علاقة قوية بموضوع هذه المائدة المستديرة اختار له عنوان «الكوني والموحد والمشارك وحوار الثقافات».

شخصياً، أؤمن أن التفكير يعني القدرة على التمييز؛ وهذا هو تعريف الفلسفة اليونانية. أما الكونية، فهي غامضة يصعب تعريفها. ماذا نقصد بها؟ هل نقصد كونية ضعيفة يسود فيها التعميم أو العموميات؟ لأننا عندما نتحدث مثلاً عن كونية الأخلاق وأساليب العيش، فنحن نتحدث عن كونية أساسها التعميم وسوء استعمال المفهوم بطرق متعددة. وهل نقصد كونية متشددة تسود فيها العقلانية التي تحدث عنها المتدخلون قبلي؟

تحدث السادة الأساتذة عن كونية أساسها العقلانية والضرورة والتعالى والانفصال عن كل اعتبارات التنوع والاختلاف في التجربة بين هنا وهناك وهذا وذلك.

هنا أحيلكم على أرسطو الذي يقول إن الكونية لا تعني التفكير في كل شيء بقدر ما تعني التفكير انطلاقاً من كل شيء. وربما تظهر لنا هذه المقاربة بعض ملامح المفهوم. لقد حظيت الكونية بهذا المعنى الأرسطي بأهمية كبيرة في الفكر الأوروبي والفكر العالمي ككل. يمكننا القول إن الهيمنة العالمية تبدأ بالهيمنة النظرية التي تُوظف فيها أدوات مفاهيمية عديدة على رأسها مفهوم الكونية.

أما ضد الكونية من الناحية المفاهيمية فهو الفردية. وهنا لابد من بيان الفرق بين مفهومي الفردي والموحد. يمكن الفرق في أن هذا الأخير ليس من مفاهيم العقلانية، بل ينتمي إلى مجال الإنتاج والاقتصاد. إذا توجهت بنا الكونية نحو الفلسفة «الواحدة» التي ينبع منها مفهوم الموحد، فستحدث عن المعيرة والأحكام النمطية... وليس عن العالم كما نعرفه والذي يسكنه الناس بروح المواءمة والتعايش لا بموجب الضرورة المنطقية. وبلا شك، من المفيد تنظيم الإنتاج وفق نظم كبيرة يكون كل شيء فيها موحد ومضبوط. ومن الواضح اليوم أننا نميل إلى اعتبار الموحد، رغم أنه كونية فاسدة، تجسيدا دقيقا لمعنى الكونية. وبالتالي فنقيض الموحد، هو المختلف.

مفهوم آخر لابد من تمييزه عن مفهوم الفردي هو المشترك القادم من الحقل السياسي. ويكفي هنا أن نقرأ كتاب أرسطو «في السياسة» الذي يقول فيه بوضوح إن المشترك هو المقوم الرئيس في بناء أي مجتمع، أي الأشياء التي يتقاسمها كل أعضاء جماعة بشرية ما داخل رقعة جغرافية معينة. وقد جسد الإغريق هذا التصور في المدينة. لكن هنا لابد من التنبيه إلى سلبية خطيرة في هذا التصور هي إمكانية سقوط بعض الجماعات البشرية الصغيرة في فخ التحلق حول مشترك يشملها هي فقط ولا يشمل المجتمع كله. وبعبارة أخرى، قد ينتج مفهوم المشترك نزعة طائفية. سجل فرانسوا جوليان ملاحظة مهمة في هذا الشأن: ربما الكوني هو ما يمنع محاولات الانغلاق والاحتشاد حول المشترك الحصري.

وعليه، لابد أن يراعي المرء في حديثه عن الكونية الفرق بين مفاهيم الفردي والموحد والمشارك. وقد طرح فرانسوا جوليان سؤالين اثنين بهذا الخصوص. السؤال الأول أجاب على جزء مهم منه الأستاذان الصايل وراشد وهو كالتالي: كيف نفسر الهيمنة على الكونية في تاريخ أوروبا؟ في الواقع، تاريخ أوروبا والتاريخ الكلاسيكي مليء بالسعي إلى الكونية. وقد تحدث الأستاذان قبلي عن كونية الفلاسفة وكونية المفاهيم والمثالية الأفلاطونية والكونية عند بولس الحكيم، الذي قال في الآية 28 من الإصحاح الثالث من «رسالة إلى أهل غلاطية» «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع». لكن هذه الوحدة في المسيح التي تبقى غريبة على كل حال وهذه الكونية القائمة على روح المواءمة والتآخي لا توجدان داخل أي إطار تاريخي أو انتماء ثقافي. وفي الواقع، لا يتحقق الانخراط في كونية التجليل والميعاد هذه إلا بوضع قطيعة مع كل اعتبار تاريخي أو انتماء ثقافي.

كونية أخرى مهمة لابد لنا من الحديث عنها هي الكونية الرومانية في القانون وحقوق الإنسان التي ضمت في ثنائها أول إرهابات العولمة بفضل بعد لقاء عنصرين اثنين: الكونية الرومانية المبدئية (القانون) وسعي السلطة السياسية إلى ضمان ولاء الناس داخل حدود الإمبراطورية. وأنا الآن أستحضر مرسوم الإمبراطور الروماني كركلا الصادر سنة 212 ميلادية، والذي خاطب مواطني الإمبراطورية الرومانية ككل دون أي تمييز، أي أنه تحدث عن المواطن ببعد كوني.

إذا، الخلاصة الأولى هي: عندما ندرس البعد الكوني في التاريخ الأوروبي فنحن بصدد الحديث عن مستويات وأشكال مختلفة من الكونية: اليونان والرومان وبولس الحكيم والمسيحية... وقد كنت على حق أستاذ نور الدين عندما قلت إن بولس هو من نظر للمسيحية. لكن يبقى هذا مجرد تلخيص قصير قاصر على ذكر كل عناصر الصورة المعقدة جدا تعقيد الثقافة الأوروبية التي تضم مستويات متباينة من الكونية. وهذا باختصار هو السياق العام الذي أنتج كونية ناشئة في عصر الأنوار.



هنا يطرح فرانسوا جوليان سؤال آخر : هل هذا الكوني الأوروبي الذي تأسست عليه العلوم الحديثة منذ عصر الأنوار هو نفسه الذي يقسم الحداثة اليوم ؟

في الحقيقة، يمكن أن نذهب أبعد من ذلك ونتساءل : هل تترك رجة الكونية الأوروبية وأزمته قارة أوروبا بلا أي بديل حقيقي يعوض هذه الكونية التي أصبحت تقود الناس إلى طرح أسئلة من قبيل : هل أوروبا مسيحية ؟ شخصياً، أعتقد أن مشكلة أوروبا اليوم مرتبطة بالمثالية بمعناها اليوناني. أما السؤال الكبير الثاني الذي طرحه فرانسوا جوليان فهو : ما الذي يجب فعله إزاء هذه الكونية بعد كل ما قلناه ؟ حسب جوليان، يجب الانتباه إلى أن هذه الكونية تروج بشكل مموه لقيم معينة، وأن هذا التوجه يخلق مخاوف من العرقية والعنصرية.

نلاحظ اليوم أن ثقافات عديدة تحتج على الثقافة الكونية وتعتبرها إمبريالية تضع قناع القيم الأوروبية. وهذا هو الخطر الذي قد يتولد عن مفهوم النزعة الكونية الشمولية «Universalisme»، الدال على أفكار وقيم تدعى الكونية. ولابد هنا أن نفرق بين الكونية والنزعة الكونية : على خلاف النزعة الكونية، تعبر الكونية عن ضرورة منطقية وأفق يراود بلوغه. علاوة على ذلك، يختلف مفهوم الكونية عن مفهوم «قابل للكوننة» والشمولية «Universalisable» الدال على القيم القابلة لاكتساب بعد كوني ؛ كما أنه يختلف عن مفهوم «المؤدي للكونية» «Universalisant» الدال على العناصر التي تجعل الشيء كونياً. وهذا يعني في نهاية المطاف اقتران الكونية بالمشترك.

وانطلاقاً من هذا التصور، يقترح فرانسوا جوليان اعتبار الكونية ذلك الأفق الذي لا نبغعه أبداً والذي يشكل ضرورة منطقية لكل الثقافات. ومن هنا السؤال : أيمكن أن تكون الكونية المتحررة من أي غموض أو اعتبارات أيديولوجية هي طرق متعددة تلتقي جميعها عند المشترك ؟ كل ثقافة لها سبيلها الخاص نحو الكونية وهو لا يعني التمسك الأعمى بقيم معينة والترويج لها بقدر ما يعني التطلع إلى أفق مشترك بين الجميع. وستكون الكونية بهذا المعنى هي الوعي التام باستحالة أن توصل أي ثقافة كل قيمها للكونية.

جليل بناني

شدت مداخلتك انتباهي كليا لأنني اكتشفت فرانسوا جوليان من خلال كتابه المميز «لا توجد هوية ثقافية». لقد قرأت تأملاته بخصوص الكونية، وأنا على يقين أن لها ارتباط وثيق جداً بما نناقشه اليوم. يدعو جوليان إلى هدم الخصوصية الثقافية كليا لأنه يوجد بداخل ما يبدو ثقافة واحدة ثقافات مختلفة. ومن هنا ينشأ مشكل مفهوم «الثقافة العربية» : لا توجد ثقافة عربية. وليس من الصدفة أن يطرح هذه الأسئلة المعقدة رجل مختص في الثقافة الصينية لأن الصين، كما قال الصايل، لطالما رفضت الانخراط في الكونية. والمميز في هذا الرجل هو أنه يقنعنا جميعاً بضرورة مساءلة الكوني ؛ وذلك ما نحاول فعله اليوم.

لا توجد كونية تبدأ من أوروبا وتسود العالم ؛ وإن كان الأمر كذلك، فهذا يعني أننا ببساطة أمام استعمار جديد بشكل مختلف. بناء على ما سبق، مهمتنا اليوم هي التساؤل حول علاقتنا بالكونية كأفارقة : كيف يمكن لإفريقيا أن تسأل الكونية ؟ وما معنى أن تكون الكونية غير متماسكة ولها سلبيات ؟ وبالتالي فكتاب فرانسوا جوليان «لا توجد هوية ثقافية» يأخذنا إلى عوالم بعيدة ويحررنا من نزعة التمسك بالخصوصيات والطائفة والهويات المفككة...

فرانسوا ليفوني

لقد كان لي شرف نشر كتاب فرانسوا جوليان الصادر عن دار النشر «Erne». ومن المهم وضع هذا الكتاب في سياقه التاريخي : صدر الكتاب مدة قصيرة قبل الانتخابات الرئاسية قصد خلق نقاش. ولكنه لم يخلق أي نقاش لأن مسألة الهوية لم تزل اهتماما كبيرا في الحملات الانتخابية. والشيء المميز في جوليان هو أنه يحاول موقعة نفسه في الـ«هناك» البعيد المختلف. ونلاحظ هذا التوجه بشكل خاص في دعوته إلى استبدال فكرة الهوية بفكرة الموارد الثقافية. ويمكن أن نعتبره مثاليا أيضا. وهو بلا شك يعتبر سؤال الهوية الثقافية والهوية سؤال عبثي من الناحية المفاهيمية.

نور الدين الصايل

أريد التأكيد على نقطة واحدة فقط : قلت أستاذ جليل إن الصين رفضت الانخراط في الكونية. اسمح لي أن أختلف معك ؛ لم تمنع الصين في فرض كونية صينية. لكن نظامها المعرفي لم يتضمن أي عناصر تمكن أفكاره الرئيسية من بلوغ الكونية. وبالتالي فالمسألة لا تتعلق بالإرادة وإنما تتعلق بالقدرة. لم ينجح أحد في تحقيق هذا الهدف قبل اجتماع الفكر اليوناني والمسيحية لإنتاج نظام فكري قيمى يهودي-عقلاني-مسيحي شكل فيما بعد أساس الكونية. وأعتقد أننا غير قادرين على إفراغ الكونية من الصراع الموجود بالطبيعة في أعماق كل مكوناتها، فالأقرب إلى الصواب هو أنه لا توجد كونية سلمية : الكوني يحمل الصراع في داخله. علينا مساءلة الكونية والتفكير في الآليات التي تجعل الكونية الحالية ذات طبيعة مهيمنة. وقد انخرطت الصين في الكونية بسبب الهيمنة الأمريكية على هذه الكونية التي توطرنا اليوم. وحتى نعرف حجم هيمنة الكونية القائمة وتأثيرها علينا، يكفينا إلقاء نظرة سريعة على التطور الهائل والمتسارع في مجال الاتصال والتواصل...

نحن أبناء هذه الكونية. ومقاومتها تعني أننا سنستعمل أدوات هي التي مكنتنا منها. في طريقي إلى هنا هذا الصباح، وجدتني في لحظة هكذا أردت إحدى أغاني البيتلز بعد أن استمعت إلى مقطوعة موسيقية لبيتهوفن في بيتي. لكن من أعطاني هذه الموسيقى ؟ أنا شخصا لم يسبق لي أن وجدت دنماركيا يردد أغاني نعيمة سميح. هذا لا علاقة له بالقومية ؛ كل ما في الأمر هو أن إنتاجات البعض تتوفر لها آلة دعائية قوية جدا يتوفر عليه الغرب المهيمن وحده.

مثلا، إذا شارك أي ممثل فرنسي مهما بلغ شأنه في فيلم أمريكي، فستكلم عنه فرنسا مدة أسبوع أو أكثر، ولو تعلق الأمر بالنجم المخضرم جيرارد ديبارديو. يجب أن نعي أن الكونية أعطتنا من خيرها وشرها، وأن الصين في طور الانخراط فيها كي توظفها وتصبح من المهيمنين. وتبقى الملاحظة الرئيسية هي غياب أي بديل لهذه الكونية القائمة اليوم، وهذا أمر محبط حقا. هذا الوضع يعني أننا نعيش دون استسلام ولكن دون أمل أيضا.

في الختام، أقول إن الحديث عن إنتاجاتنا الفكرية التي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع لا علاقة له بالفكر الحديث، ولا يعدو أن يكون عمل أركيولوجي. ولهذا لا أعتقد أن بمقدورنا ادعاء المشاركة الفعالة في الكونية على مستوى الفكر والعلوم. ما نقوم به ليس خطأ وليس صوابا، لكنه بلا شك غير متسق. والآن أعطي الكلمة للحضور في القاعة قصد التفاعل وإبداء الرأي.



مداخلة

أشتغل كأستاذ باحث بجامعة الحسن الثاني وأنا أقرب إلى معسكر مستهلكي المعرفة منه إلى معسكر منتجيها، فأقبلوا عثرتي في المقال. أولاً، أشكر اللجنة المنظمة التي منحتنا فرصة النقاش والتداول حول عبارة «مسألة» التي تعني فيما تعنيه «تحقيق ماهية الشيء من جديد». سمعنا من السادة الأساتذة الكثير من المعلومات حول تعريف الكونية والنزعة الكونية المهيمنة. وعندما نرجع إلى التاريخ، نجد أن الطبيعة لم تؤخذ بعين الاعتبار طوال تاريخ هذا المفهوم. وقد عرفنا أن كل النماذج الفكرية الاستعمارية أو المحايدة استغلت الموارد البشرية والطبيعية بالبلدان المتخلفة. ما يجب فعله حقا هو موقعة الطبيعة بحيث تتفاعل مع الإنسان ولا تكون ضحيته. وكلنا نعلم أن الموارد الطبيعية محدودة وأن التلوث بلغ مستويات قياسية لن نكون قادرين على تجاوز آثارها السلبية رغم تطور العلوم والطب. أعتقد أنني فهمت سبب اللجوء إلى الكونية : دافعنا هو الخوف من نزعة الخصوصية الثقافية والظلامية. ولهذا ندعو مجتمعاتنا إلى الانخراط في الكونية، وذلك ليس سهلا. شخصا، أو من بوجود عزلة كونية. وبالنسبة للعرب، هناك عزلة إقليمية ؛ لا تجد في هذه الدول سوى المحلية : حتى الديمقراطية أو حقوق الإنسان أو الحكامة... منقولة من النموذج المهيمن. يتمثل دور الأدباء والمفكرين والمدرسين في تعليمنا قيم العيش المشترك. لكننا للأسف نعيش في عالم أحادي القطبية. لم تعد هناك تعددية قطبية، ولو شكلية، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي الواقع، كل ما يمكننا فعله حاليا هو المقاومة والعيش على أمل أننا في يوم ما سنكون قادرين على تغيير الوضع القائم.

مداخلة

شكرا جزيلا على كل هذه التوضيحات المهمة. أريد العودة إلى ما قاله الأستاذ نور الدين الصايل بخصوص الصين والكونية في كلمته الأخيرة. شخصا، أعتقد أنه في هذه النقطة بالذات نحتاج فكر فرانسوا جوليان لأن الأمثلة التي قدمتها بينت معنى مفهوم المشترك بشكل أوضح. وقد أشار جوليان في حديثه عن الكونية إلى مفهوم البعد الذي استبدل به فكرة الاختلاف، لأنه لا يجذب استعمال هذا المفهوم الذي له علاقة بجاك دريدا. حاول الرجل التمييز بين ما فكرت فيه الثقافة الصينية وما لم تقكره فيه. وبناء على نفس هذه المقاربة، كتب جوليان «Le Paysage» الذي يبين فيه الفرق بين الثقافة الغربية والثقافة الصينية في التعامل مع الطبيعة والمحيط. وقد تكون فكرة الكونية في ارتباطها بمفهومى الموحد والمشارك فكرة مفيدة عندما نعتبر أن الإنسان يسعى إلى المثالية. لكن العالم يسيطر عليه منطق اقتصادي يسد الطريق أمام هذه المثالية في جميع الأحوال. وشخصيا، أعتقد أن الأمر المثالي الذي يمكننا القيام به حقا هو محاولة التفكير في «هناك» البعيد غير المألوف والتفكير في البعد أو «المابين» الثقافي الموجود بين الثقافات المختلفة.

شريف فرجاني

أنا أحد المتدخلين في المائدة المستديرة الموالية، لكنني أردت المشاركة في هذا النقاش أولاً. أحيي الأستاذ رشدي راشد على دقته عندما قال إن العقلانية هي أساس الكونية. لكن هذا معناه أنه لا توجد عقلانية إسلامية أو عربية... عندنا في المغرب عدد كبير من المفكرين المختصين في الفكر الإسلامي أفضل منه شخصياً الأستاذ عبد الله العروي، الذي ناقش مفهوم العقلانية ورفض أن تكون هناك عقلانية أو فلسفة عربية أو إسلامية، لأن القول بوجودهما قول لا معنى له. فبالنسبة إليه إما الكونية أو لا شيء آخر. وهذه نقطة مميزة يجب التأكيد عليها. أما بخصوص التعارض بين الكونية والهوية، فلا يتحقق إلا إذا كانت هناك هوية تريد أن تسود وتطمس الهويات الأخرى. وبهذا المعنى، ستصبح الكونية أقرب ما تكون إلى النزعة الكونية التي تخلق مشاكل كثيرة. وبلا شك، الكونية تتناقض مع الهويات القائمة المغلقة؛ وهي ليست عطية من أحد ولا ملك أحد، بل هي بحث ومجهود وتنافس. وهنا أحيلكم على كتاب من تأليف بنجامين باربر بعنوان «الجهاد في مواجهة عالم ماك» يقول فيه إن الجهاد قوة مناهضة للعولمة لا تقدم أي بديل لما تريد تغييره وكل ما في جعلتها هو رجعية نحو هويات قاتلة.

رشدي راشد

فعلاً، لا يمكننا الحديث عن علم أو عقلانية إسلامية. وقد ذكرت الكندي وابن رشد وموسى بن ميمون لأن هؤلاء الثلاثة هم من قال إن الحقيقة لا أصل لها : إنها حقيقة فقط. وحتى نفهم كونية شيء معين، لا يجب التركيز على هذا الشيء بل يجب التركيز على فهم كيفيات وسبل تشكل هذا الشيء أصلاً. وتشكل الكونية كما تمت الإشارة إلى ذلك من عناصر ومكونات فلسفية وعلمية يفترض أن لا تحمل أي صفات وطنية أو عرقية...

مداخلة

أنا باحث في صناعة الذكاء الاصطناعي. نحن الآن بوجدة حيث لا يمكن للناس والسلع عبور الحدود، فأين هي الكونية؟ ألا يمكننا توظيف التكنولوجيا في مقاومة هذه الوضع؟ في الحقيقة، نجح مواطنو البلدين في تجاوز الوضع القائم بفضل التكنولوجيا الرقمية. وهنا أسألك : ما مصير هذه الكونية المحلية ضيقة الأفق بعد أن دخلت على الخط تكنولوجيا الاتصال والتواصل المهمة جداً في حاضرنا ومستقبلنا. كيف يمكن للذكاء الاصطناعي إحداث تغيير في الكونية التي أعتقد أنها في الحقيقة كونيات متعددة؟

مداخلة

طرحنا هذه القضية التي ناقش اليوم في ندوة نظمت سنة 1989 بوجدة تحت عنوان «الإنتاجات العلمية». وقد تطرق المتدخلون آنذاك إلى مفهومي الخصوصية والكونية في ارتباط بالأدب المغربي الناطق باللغة الفرنسية. من بين المتدخلين آنذاك ألبرت ميمي الذي أكد في كلمته الأخيرة أنه من الخطأ أن يعتقد المرء أن حل مشاكله يكون دائماً بالتفكير في الخصوصي والهياتي والرجوع إليهما. وقد أكد أيضاً أن ابن رشد وابن خلدون أرادا إنتاج فكر كوني، وهو الذي نريد اليوم مساءلته. لا بد من البحث عن المشترك بين التصورات المختلفة حول طبيعة العالم وإعادة بناء الأشياء التي توحد الجميع من مختلف الثقافات.

نور الدين الصايل

شكراً. كلامك معقول جداً. تحدث عن ندوة سنة 1989 التي خرجت بمجموعة من الخلاصات المهمة وطرحنا تساؤلات عميقة مازلنا نواجهها حتى اليوم. صحيح أن الغلاف الزمني المخصص لهذه المائدة المستديرة قد انتهى؛ لكن يبقى النقاش مستمراً. لم يبق لي إلا أن أشكركم على إنجاح هذه المائدة؛ شكراً لكم جميعاً.

رئيسة الجلسة : دينا محمود
المشاركون : نجوان درويش، رشا الأمير، ميشيل خليفي
فضاء : سيمون ليفي
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 09 : 00 - 11 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

سيرت الشاعرة المصرية دينا محمود هذه المائدة المستديرة باقتدار وسلاسة. وقد ذكرت في افتتاح الجلسة بالإطار السوسيو-سياسي المحلي والدولي المعقد الذي لا يساعد المبدع العربي ويسبب له غربة داخلية وخارجية وإحساسا عميقا بالوحدة يتجلى في تحمله مسؤولية نشر مؤلفاته والترويج لها دون مساعدة من أي أحد. كان أول من أعطته المشرفة الكلمة المخرج وال كاتب العربي الفلسطيني ميشيل خليفي الذي أكمل تكوينه ببروكسيل البلجيكية. قدم خليفي قراءته الديناميكية والمتعددة الأبعاد لمفهوم الهوية، وهو موضوع له حضور مميز في أفلامه من خلال شخصيات لها هويات مزدوجة - فلسطيني وإسرائيلي أو مسلم ويهودي -... وفي نفس السياق، أكد كاتب السيناريو المميز في مداخلته على ضعف الإشعاع الثقافي الفلسطيني مستنكرا ذلك، كما أكد أن العالم العربي يعيش حقبة انهيار الهويات الجماعية دون استثناء مقابل قيام صرح الهويات الفردية.

من جهته، لاحظ الصحفي والشاعر الفلسطيني نجوان درويش، مدى افتقارنا اليوم إلى قامات فكرية قادرة على تحقيق إشعاع ثقافي عربي وخلق نقاش صحي، كما كان الحال سابقاً. وحيث إنه ناقد أدبي رصين، فقد كان من المفيد جداً الاستماع لتقييمه بخصوص ضعف الإنتاجات الثقافية العربية حالياً.



لعل الخلاصة من كل هذا هي أن المفكرين والمبدعين العرب لم يعد لهم إشعاع خارج حدود بلدانهم. وهذا ما أكدته بشكل أو بآخر مداخلة الكاتبة والناشرة والناقدة اللبنانية رشا الأمير التي استحضرت مبدعين كبار من الأجيال السابقة كمحمود درويش وأمين معلوف. وقد بينت رشا الأمير مستعينة بإنتاجات هؤلاء المبدعين وتجاربهم الفكرية أن المبدع أوسع وأشمل من أن تحتويه أية حدود قد يحاول البعض فرضها عليه لأنه مهاجر ثقافي بالفطرة.

مداخلات المائدة المستديرة

ديما محمود

يسعدني أن أرحب بكم جميعا في هذه المائدة المستديرة المنظمة بمناسبة الدورة الثانية من المعرض المغاربي للكتاب بوجدة. يشرفنا أن نستضيف معنا كل من الكاتبة والناقدة والناشرة اللبنانية رشا الأمير والشاعر نجوان درويش رئيس القسم الثقافي بجريدة العربي الجديد ثم أخيرا وليس آخرا المخرج والمنتج الفلسطيني المستقر ببلجيكا ميشيل خليفي. قد يبدو موضوعنا اليوم غامضا ومعقدا لاعتبارات متعددة. يعيش المبدع العربي غربة داخلية وأخرى خارجية وتمزقا فكريا وعاطفيا بين واقع معين في بلاده الأصلي وحقيقة معولة وسباق إقليمي غاية في التعقيد. وهو على وعي تام بأن كل هذه الشروط المحلية والإقليمية والدولية تنزل بثقلها على قلمه وترزح فوق روحه الإبداعية وتعرقل نشر أعماله. مشكل عويص آخر يعانيه المبدع العربي هو غياب إستراتيجيات واضحة المعالم بخصوص نشر المؤلفات. في الأخير، يظل نجاح أي مبدع في إيصال إنتاجاته إلى القارئ هو ثمرة مجهود شخصي لا غير. كل هذه الشروط تحكم على الإبداعات بالارتجالية والتشتت وضبابية الرؤيا في بيئة سوسيو-سياسية صعبة. وسنسعى في نقاشنا إلى تسليط الضوء على كل هذه الإشكالات مع ضيوفنا الكرام. وسنبدأ بالمخرج الفلسطيني المتألق دوليا ميشيل خليفي الذي سيحدثنا عن فلسطين ورجالها ونسائها والمقاومة.

ميشيل خليفي

شكرا جزيلا على الدعوة الكريمة التي منحتني فرصة التعرف عن قرب على مدينة وجدة الجميلة. أتفق تماما على أن موضوع النقاش صعب للغاية. شخصا من الصعب تلخيص معنى أن تكون عربي أو فلسطيني اليوم. وعلى كل حال، عندما كنت صغيرا، كنت أقول أنني عربي. عند انتقالني للعيش ببلجيكا، كان الناس يسألونني من أي البلاد أتيت. وفي كل مرة كنت أجيب على هذا السؤال المتكرر، كنت أجدني مضطرا لإخراج بطاقة الهوية الفلسطينية. لاحظت أن الهوية لها طبيعة دينامية متحولة على الدوام بحسب تطور حاملها ووضع وسط بيئته. بلا شك، الحجر الأساس في الهوية هو ماضينا، لكن من المهم جدا أن تكون هذه الهوية متطلعة للمستقبل. من ملامح هويتنا التعددية، وهذا فيه غنى على كافة المستويات بلا شك. ناقشت في أحد أفلامي مسألة الزواج المختلط بين الفلسطينيين والإسرائيليين وما يعنيه عند المؤسسة الدينية في المجتمعين معا. أحد المستجوبين قال إنه يشجع أبناءه على تقديم أنفسهم كمسلمين ويهود في نفس الوقت. هذه الثقافة المزدوجة فيها غنى وتعددية ويمكن أن تشكل بداية ممتازة لبناء مجتمع.

ديما محمود

ألم تساعدنا العولة على تجاوز الهويات ضيقة الأفق، تلك القائمة على أسس كالجغرافيا أو التجمعات البشرية ؟

ميشيل خليفي

العالم اليوم قائم على مجموعة من الأفكار أبرزها الحركية. لابد أن تكون هوياتنا قادرة على الحركة والتطور ؛ وأوضح مثال هنا هو اللغات. لغات البشر تعد بالآلاف، لكن المسابير منها للعصر ولو في الحد الأدنى يعد على رؤوس الأصابع فقط. على العموم، سنكون رابحين إذا اعتبرنا الهوية مصفوفة دينامية لا تتوقف عن الحركة والتطور في إطار مشروع للمستقبل.

ديما محمود

في ظل تغيرات الخريطة السياسية في العالم العربي ومسار السلام بالمنطقة، هل تسمح خريطة فلسطين الممزقة بين الضفة والقطاع بنشر المؤلفات في أفضل الظروف ؟

ميشيل خليفي

أعتقد أن الأمر متاح لأبناء فلسطين. أريد فقط التأكيد على أن القضية الفلسطينية فقدت مركزيتها وأولويتها في لائحة انشغالات العالم، خاصة في ظل الصراعات الإقليمية اللامتناهية. مثال صغير على هذا المعطى نأخذه من المعرض المغربي للكتاب : إذ تكفيك جولة قصيرة بين أروقة المعرض كي تدرك مدى خفوت إشعاع فلسطين. هذه هي الحقيقة. الأمر سيء لكنه ليس بالكارثة، على الأقل هذا ما أعتقد أنه. ومن ناحية أخرى، كنت دائما مقتنعا أن الفلسطينيين يسدون فاتورة نزاعات إقليمية لا ناقة لهم فيها ولا جمل. الحرب الدائرة رحاها الآن بالمنطقة تهم المغرب كما تهم الجزائر أو اليمن.

ديما محمود

نقطة أخرى شدد انتباهي هي تراجع عدد الإصدارات التي تناقش القضية الفلسطينية...

ميشيل خليفي

على العكس ! فرص ومجالات الكتابة اليوم أكبر وأوسع من ذي قبل. والإبداع هو الوحيد القادر على حفظ كرامة الشعوب. لهذا أرى أن تحرير فلسطين سيتحقق عبر الإبداع وحرية الفرد وتقجير الطاقات. كلنا واعون بأننا في أزمة خطيرة، وأن العالم العربي القديم مازال يقاوم حركة التاريخ ويسد أفق الرؤيا أمامنا في حين أن العالم العربي الجديد الذي يتوق له شبابنا تنقصه الإمكانيات اللازمة لتحرير نفسه والخروج إلى الوجود. شخصا، أو من أن الفصل بين هذين العالمين هو لحظة نضالية فارقة ستشكل ملامح المستقبل. ومن بين القضايا التي أهتم بها ككاتب سيناريو مسألة ترقى الفرد وسعيه الدائم إلى ما هو أفضل من داخل فلسطين. وأنا أعتقد أن هذا هو حال كل شبابنا بالعالم العربي حيث تسود الهويات الجماعية على حساب الهويات الفردية. بطبيعة الحال، قضية الاستعمار مرتبطة بكل النقاط التي ذكرت. وإن أردنا إيصال صوتنا للعالم وبسط الحقيقة للجميع، فلا بد أن يكون لدينا مبدعون قادرين على نقل هذه الرسالة إلى مشارق الأرض ومغاربها. تتطلب منا اللحظة الراهنة اتخاذ قرارات تاريخية ضرورية.

ديما محمود

شكرا جزيلاً أستاذ ميشيل خليفي. أعطي الكلمة الآن للأستاذ نجوان درويش للتفاعل مع سؤالي الموالي حول وضعية المبدعين في منطقتنا. ماذا بعد «الربيع العربي»، هل اتسع أفق الإبداع أمام المبدع العربي أم ضاق عليه ؟ وهل صحيح أن تصدير المؤلفات خارج المنطقة العربية يفيد الكاتب وحده، أم أنه يفيد حركة إبداعية كاملة ؟

نجوان درويش

سأحاول مناقشة هذه الأسئلة في ثلاث نقاط. أولاً، أنا كشاب أحب الحديث عن الإبداع والمبدعين. يمكنني القول أنني كنت مهووس بهذا النوع من النقاشات. من خلال ما عايشته، توصلت إلى أن دورنا هو كتابة كل هذه الأسئلة التي طرحت. إنها مهمتنا الأساسية. لاحظت أيضاً في علاقة بهذه الأسئلة أن حجم النقاش حول الكتابة والإبداع أكبر من الكتابة نفسها. نتحدث عن الشعر والشاعر أكثر من الإنتاج الشعري الفعلي. أعلم أننا نحتاج للحديث في تلك الأمور، لكن لا بد أن ننتج أولاً.

هنا أطرح سؤالاً أراه مهما للغاية : ما أفق الكتابة الإبداعية العربية اليوم ؟ منذ أمد بعيد، ظل الجواب على هذا السؤال محصوراً في ثنائية الحرية-الرقابة. هذه مقاربة متهافئة. عربتنا الثقافية تسكن اللغة العربية في مجتمعات يحكمها تنوع إثني كبير. وهذا تماماً ما يستوجب تجاوز حدود الوطن ومخاطبة جمهور المنطقة ككل. يتجلى تحدي المبدع العربي في التعبير عن انشغالات جمهوره وتساؤلاته وطرح قضاياها. كتب الشاعر المصري أحمد شوقي للقارئ السوري كما كتب للقارئ الليبي والمغربي كجمهور واحد في نفس الوقت. محزن جداً أن نفتقر في هذه اللحظة التاريخية الفارقة إلى مثقفين وكتاب ذوي إشعاع يتجاوز الحدود الوطنية إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. أصبح المشهد الثقافي العربي مجرد مرآة تعكس «حياة الشارع» دون إبداع حقيقي. قليلون هم الذين انخرطوا في مهمة الإجابة على كل هذه الأسئلة والإشكالات المطروحة ؛ حتى أن البعض لم يكلف نفسه عناء الوقوف عند سؤال أن يكون المرء عربياً اليوم. من جهة أخرى، أرى أن نقاش العروبة والانتماء للعالم العربي من عدمه هو جدل لا أساس له. هل ستكون العروبة الثقافية متعارضة مع حقوق الأقليات ؟ لا أعتقد ذلك. في رأيي، هناك مواقف شوفينية متعصبة تفوت علينا فرصة النقاش وتبادل الأفكار في جو صحي.



رشا الأمير

أدعوكم جميعاً إلى قراءة أو إعادة قراءة أولى دواوين محمود درويش «سجل أنا عربي» الذي نُظم قصائده في شبابه. لقد كان درويش حامل لواء هذا العربي المقاوم ولكن المهزوم أيضاً. أريد أيضاً التحدث عن الكاتب اللبناني والفرنكوفوني أمين معلوف المسيحي المقيم بباريس. وأنا أنصح الجميع بقراءة كتابه المميز «الهويات القاتلة». من نحن في مواجهة خصومنا ؟ من نحن في مواجهة جيراننا ؟ لطالما أكد درويش على عرويته في مواجهة خصمه. أما معلوف فقد ساءل هذه الهوية العربية التي أصبحت هوية مسمومة وقاتلة. يمكن للفرد الإجابة على سؤال الهوية على مستوى شخصي ؛ لكن تحقيق نفس الشيء على مستوى المجتمعات والجماعات هو أمر صعب جداً كونها تتعرض لتأثير هويات أخرى مفروضة وسطحية. من النادر جداً أن ينجح حوار حول الهويات. والإنسان المبدع يكون قادراً على التعامل مع الهوية لأنه يخرج عن إجماع المجتمع. وعلى كل حال، فالفعل الإبداعي نفسه لا يتأتى إلا بالتمرد على المجتمع وهجر هويته القاتلة والشعبوية والطائفية.

المبدع هو بالفطرة مهاجر في سفر دائم نحو عوالم وهويات أخرى. تجده دائما يسير عكس التيار في فهم العالم. قال أحد الشعراء إنه يكتب ضد الحقيقة والأمر الواقع. المسألة فيها أيضا هجرة إلى الذات وسفر ضد الذات. الإبداع لا تحده حدود ؛ فرحلته تبدأ من أرض الأدب ولا يدري أحد أين ستنتهي. في الحقيقة، يمكن أن تستمر بلا توقف مادام للمبدع القدرة على الهجرة الدائمة إلى حيث لم يكن يوما والإمساك بنواصي اللغات والتحرر من هوس تدجين مجتمعه وسراب تغيير العالم، لأن المبدع الحق يصلح ذاته وسلوكه أولا. في الختام، أود تحية كل اللغات والمترجمين والهويات المتعددة.



ديما محمود

يتعين على المبدع العربي التحلي بروح التسامح حتى لا يكون مجرد وعاء ينضج بالتصورات النمطية والأحكام الجاهزة على المجتمع. وهذه أفضل رسالة يمكن تبليغها لمجتمعاتنا. أفتح الآن باب النقاش أمام الحضور الكريم قصد التفاعل وإبداء الرأي.

مداخلة

أعجبني أن المشاركين ناقشوا مفهوم الهوية في شموليته بدل تبني توجه تبسيطي تسطيحي. أنا لا أتفق مع ميشيل خليفي بخصوص تراجع إشعاع فلسطين والإنتاجات المتعلقة بها ؛ ودليلي على ما قلت هو أننا نظمنا بلندن وأمريكا مسابقة للكتاب الفلسطيني، فرُشحت أربعون كتابا للجائزة. هذا يعني أن هناك جيلا شابا يتبنى القضية.

مداخلة

أنا في رحلة البحث عن ذاتي أولا قبل أي شيء آخر. والهوية هي أولا هوية إنسانية، فلا هوية حقيقة لنا إلا من داخل إنسانيتنا.

مداخلة

أنا مغربية لبنانية. وكما قال أمين معلوف، إذا قلت لكم إنني لبنانية فقط ولست مغربية فقد كذبت، لأنني ببساطة لبنانية ومغربية في نفس الوقت.

مداخلة

لقد شدني تسلسل الأفكار الرائع. سؤالي هو كالتالي : هل هناك من أمل في أن يستفيد أبنائنا من تعليم يجعلهم منفتحين بالقدر الكافي ليتوافقوا حول هوية المجتمع حيث يعيشون ؟

نجوان درويش

لاحظت أن لا أحد أشار إلى نقطة العنف الاستعماري الذي مازال قائما حتى في بعده الثقافي. يمكننا الحديث أيضا عن عنف المترجمين.

رشا الأمير

شخصيا، أنتمي إلى منطقة ومدينة حيث العنف منتج محلي أصيل.



نجوان درويش

هذا العنف هو أيضا مرتبط بحكومات صنيعة الاستعمار وعنفه. العنف هو عدونا أي كان مصدره.

ديما محمود

شخصيا، خرجت من هذا النقاش الغني بعدة خلاصات. أولا، الهوية تتحرك وتتطور ولا تبقى جامدة. ثانيا، المبدع لا تحده حدود. ثالثا، خير محرر للمبدع والشعوب هو الروح الإبداعية الفردية قبل الجماعية. في الختام لا يسعني إلا أن أشكر كل من ساهم في إنجاح هذه الجلسة الفكرية المميزة وأتمنى أن يبقى المبدع العربي عربيا رغم كل الإكراهات.

رئيس الجلسة : فودي سيلا
المشاركون : حميد بناني، هنري نكومو، مانيتا دياورا، نعيمة لهبيل التجموعتي
فضاء : ليلي العلوي
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 09 : 00 - 11 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

المشرف على هذه المائدة المستديرة هو كاتب فرنسي من أصول سنغالية، عُرف، بشكل خاص، من خلال نشاطه السياسي والجمعي، حيث أنه كان يترأس حركة «نداء استغاثة» المناهضة العنصرية في فرنسا. ولعل مهمته اليوم كسفير النوايا الحسنة للجمهورية السنغالية، بالإضافة إلى ثقافته وأنشطته السابقة والحاضرة خولت له تشكيل رؤية كونية حول المواضيع المطروحة للنقاش. وفي الواقع، كل ما هو عالمي وكوني يستقطب اهتمامه، ويدفعه للانشغال بسبر أغوار منهجه حيث ينبغي للفنانين الأفارقة اقتفاء أثره للتمكن من ذاك البعد الكوني ولمناقشة الصعوبات التي تعترض طريق الوصول إلى الكونية. ينضم إليه مثقفان إفريقيان من جنوب الصحراء هما هنري نكومو ؛ مدير الكتاب في وزارة الثقافة الإفوارية ومانيتا دياورا ؛ مؤلف ومخرج سينمائي وأستاذ بالولايات المتحدة الأمريكية.

مهارة هذين الرجلين في الغوص في أعماق التاريخ، وتحليهما بنظرة ناقدة ثاقبة ومحيدة
مكناهما من تشخيص ما يعيق ازدهار الأعمال الثقافية الإفريقية، وخاصة الأدبية منها،
وما يمنعهما من اكتساب صبغة العالمية هذه، التي يبدو مفهومها أكثر يسراً بالنسبة لآخرين.



حميد بناني، مخرج سينمائي، يحكي هو الآخر قصة مساره نحو الآداب، ولا يبدو هذا
الأخير أقل وعياً بالصعوبات، فكم مرة اعترضته، عند عودته إلى المغرب بعد إتمام دراسته
في فرنسا، كما يروي، أحداث إعادة اكتشاف بلاده من خلال تجربة خلاقة تمخض عنها
فيلم يعالج واقعا منسيا واجه صعوبات للإفصاح عنه. شقت نعيمة لهبيل التجموعتي،
بدورها، مسارها الخاص نحو التجربة الأدبية؛ مسار جد خصوصي تولد عن تجاربها
العملية في مجال الإسكان والتهيئة العمرانية، ما حرمها إمكانية البوح بأحاسيس ومشاعر
هي بالنسبة إليها الجوهر المكوّن لوجدانها. مسارات ومدارات حياة هؤلاء الكتاب، وعلى
الرغم من اختلافها تشي جميعها بإحباط ناتج عن الاصطدام برؤى منبثقة عن تلك الكونية.
وكما قال إدوارد كليسان، فغالبا ما تنبع الكونية من قلب المحلية، بل وقد تكون هذه
الأخيرة أفضل مصدر لها، وهو ما يؤكد بالفعل، نجاح أعمال أدبية عالمية شتى. ويمكن
التخلص من هذه الإشكالية، عبر التركيز فقط على الالتقاء بالقراء كيفما كانوا، ولكن
لكي يتم ذلك، يجب أن يسمح «سوق النشر» بإصدار الكتاب ولم لا ترجمته، ما يمكن أن
يضع الكاتب تحت رحمة عدة إكراهات ما لم يكن هذا الأخير حبيس الواقع المادي. وفي
الواقع، لا يزال كاهل الأدب الإفريقي مثقلا بأشكال الضغوط المختلفة، دون أن يستطيع
التحرر منها، والتعبير عن نفسه كما هو، لا عبر مواضيعه، ولا عبر لغاته. يحدث هذا في
ذات الوقت الذي تنقلب فيه موازين عالم الفنون، حيث لن يظل حكرا على المركز فقط، بل
وفي الوقت الذي تطالب فيه الضواحي بالتطور وتبرز استعدادها لأداء وظيفة المركز على
أتم وجه. يعيد العالم تشكيل نفسه على أساس التوزيع والتوزيع اللامحدود: سواء أكان
هذا العالم متعدد المراكز أم لا، هل سينجح إذا في نقل الأدب الإفريقي للمتلقى العالمي؟

مداخلات المائدة المستديرة

فودي سيلا

في تسعينيات القرن الماضي، حينما كنت أترأس جمعية «نداء استغاثة» لناهضة العنصرية في فرنسا، كان السيد مانتيا دياورا قدوة لنا، باعتباره من أبرز الأيقونات الإفريقية في الآداب، والتي استطاعت خلق كرسي شرفي لها في الولايات المتحدة، بفضل تفوقه في الإنجليزية. لقد كان حقا مثيراً للإعجاب، وغالباً ما كنا نستشهد به خلال ندواتنا. وإنني لجدُّ سعيد بتواجد أستاذ الآداب والكاتب والمخرج السينمائي مانتيا دياورا بيننا اليوم لمناقشة هذه الأسئلة. وبطبيعة الحال، إن حضور الأستاذة الجامعية نعيمة لهبيل التجموعي معنا اليوم لفخر كبير لنا ؛ هاته الأستاذة التي كرّست مسارها المهني للاشتغال على الاقتصاد والثقافة والتراث. و التي تبدو اليوم أكثر اهتماماً بالآداب. إننا جد سعداء بتواجدك معنا.

أما حميد بناني هو بالنسبة لي إحدى الرموز السارتريّة، فلطالما ترددنا خلال الجامعة في الاختيار بين كامي وسارتر، إلى أن سهل علينا السيد بناني الأمر عبر كتاباته ومؤلفاته وأدبه ومهنته كمخرج سينمائي. لكن مع التقدم في السن، أدت صفحة الحقبة السارتريّة كي أجد نفسي أكثر اقتراباً وتقرباً من كامي. السيد بناني يجسد أيضاً قصة عريقة ؛ قصة السينما. أعماله ترجمة لما كتبه الطاهر بنجلون، أحد ألمع رموز الأدب المغربي الفرنكفوني في نظرتة العالمية. لازلنا نحتفظ جميعنا في ذاكرتنا بأعماله الأدبية دون شك كصلاة الغائب وليلة القدر.

في الحقيقة، استفضت في التقديم كي أعبر لكم عن سعادتي لتواجدي بينكم. اليوم، أنا أشتغل في مكتب رئيس الجمهورية السنغالية وقد سنحت لي الفرصة كتابة بعض المؤلفات المترجمة، من أهمها «من يخاف من مالكوم» و«تفضيل وطني : ميز على الطريقة الفرنسية» قبل أن أعطي الكلمة لأول المتدخلين، أود أن أذكر أن السؤال الأساسي يتمحور حول الكتابة : ماذا نكتب ؟ لمن ؟ كيف ؟ ولماذا ؟ سوف نتطرق إذا لمكانة الكتابة في المجتمع وكذلك لمكانة كتاب إفريقيا السمرء في هذه الحضارة - التي تسمى العالمية. مدير الكتاب في وزارة الثقافة الإيفوارية هنري نكومو سيقاسم معنا نظرتة حول القراءة والكتابة، فلقد كتب كثيراً ونظم معارض عديدة في هذا المجال. نستطيع أن نفتتح معك أيها الصديق العزيز نكومو، موضوع ما معنى أن تكتب اليوم ؟ أعتقد أن الكتابة تنبع عن عدة أسباب، فهناك من يكتب فقط للتعبير عن مشاعره، وهناك من يكتب بغية تبليغ رسائل لهذا المغرب، لإفريقيا هاته التي تتجدد وتبعث من الرماد، فكما قال الكاتب والفيلسوف السنغالي سليمان بشير دياجن : «نحن لم نعد مجرد ضاحية مهمشة. لا وجود لضاحية بعد الآن، ولا وجود لمركز أيضاً في المقابل».

هنري نكومو

أعتقد أن جميع الكتاب الأفارقة قد واجهوا هذا السؤال الإشكالي، منذ الرعيل الأول ؛ جميعكم يعلم أنه منذ كانت إفريقيا السمرء خاضعة لسطوة الاستعمار، بدأ الجيل الأول من الكتاب بطرح هذا السؤال : ماذا يجب أن نكتب لمواجهة العدو ؟ فيما يخص ساحل العاج، كان أول نتاج أدبي هنالك عبارة عن مسرحية عنوانها «المدن»، من تأليف الكاتب برنارد دادبي عام 1993 ؛ طرحت هذه المسرحية إشكالا جوهريا حول ماهية تواجدها في هذا العالم. «المدن» تروي قصة العواصم التي تتغير وتتقل حسب رغبة المستعمر. بعد ذلك بفترة، عالج كتاب رمزيون آخرون، مثل أحمدو كوروما، إشكالية العلاقة مع المجتمع، وكذا علاقة الفرد مع قدره، حيث كانوا شاهدين على عصرهم وحاملين لمشعل هذا التوجه الجديد، ماذا نكتب ؟ لماذا نكتب ؟ لأي غرض نكتب ؟ كلها أسئلة لطالما خالجت ذهني، والتي يطرحها كتاب كثر اليوم مثل كاوز. سوف نتسنى لنا الفرصة لمناقش كل هذا بالتفصيل.

لكن قبل ذلك، يجدر بنا التطرق لذاك السؤال الذي ما يزال يطرح نفسه منذ رأى أدبنا النور وحتى اليوم : أي مكان يحتله كتاب إفريقيا السمراء في خضم هذه الحضارة العالمية، بحيث يشقون طريقهم إليها كـ «أعرج في البحث عن لقمة عيشه»، كما يقول أحد كتابنا المرموقين بوهوي دالي. فعوض أن نقود ركب العالمية، ما زلنا نجر أذيالنا محاولين اللحاق بما يمكن اللحاق به.

فودي سيلا

سأعطي الكلمة للسيدة نعيمة لهبيل لتحاول الإجابة عن نفس الأسئلة : ما معنى أن نكتب ؟ ما معنى أن تُنتج في المغرب، في إفريقيا، وفي هذا العالم ؟

نعيمة لهبيل التجموعتي

كما سبق وذكرنا سابقاً، فأنا ما أزال حديثة العهد بالأدب. بالنسبة إلى عدد من زملائي في مجال الاقتصاد، فلم يسعني الاختيار. سأحاول أن أشرح لماذا. لأنني أعني، تقريبا، لماذا أكتب، ما يدفعني إلى الكتابة ؛ لكن الهدف من الكتابة، لا أعرفه حقا. لماذا نكتب ؟ ما الذي دفعني إلى الانتقال من اقتصاد الثقافة واقتصاد التراث إلى كتابة الروايات والقصص ؟ عندما كنت أستاذة جامعية، اشتغلت كثيرا على قضايا إعادة التأهيل خصوصا في مدينة فاس لدى عقود. اشتغلت أيضا على مشاكل المناطق العشوائية والسكن غير اللائق في المغرب. نظرا لكوني خبيرة اقتصادية، كنتُ، بالأخص، مطالبة بتجاوز هذه الحقيقة الواضحة الساطعة للتوصل إلى تفسير اقتصادي خالص وصرف، أي بمعنى إيجاد روابط منطقية بين الأسباب ونتائجها ومحاولة اقتراح حلول مناسبة لها. ومع مرور الوقت، لم أعد أرتاح في هذا العمل. وعلى الرغم من أن تحليل الظواهر، التي كنت مكلفة بمراقبتها، وتبيان أسبابها كان مثيرا للاهتمام، إلا أنه لطالما راودني ذاك الشعور بأنني لا أقوم باستيفاء الأمر حقه، أي كما يجب وينبغي. أحسست أنني كنت أخفف من حدة الحياة وصخبها، وأطمس ملامح غموضها، وأكبح جماح تلك المشاعر الجياشة المستمدة من تجربتي العملية في ميدان العمل والتي كان بإمكانني مشاطرتها فلم أفعل. أحسست، إذا، أن كل التقارير التي كنت أنجزها، والمقالات التي كنت أكتبها، والندوات التي كنت ألقاها لم تكن تسلط الضوء إلا على جزء بسيط من الحقيقة. لهذا اخترت خوض غمار عالم الأدب، لكن لم أجرو حقا على سير أغواره والغوص في أعماقه. فقد لاحظت أن أول كتاب لي كان محاولة بعنوان «حوار مع المدينة». بعد ذلك، كانت لي كتابات حول موضوع الأحياء المهْمُشة كمحاولة لإرضاء تلك الرغبة بمشاركة ما رأيته وما أحسست به، ولاسيما كمحاولة لفك طلاسم غموض الحياة.

فودي سيلا

إن هذا ينجلي بوضوح من خلال هذه الإرادة الجياشة والطموحة إلى تقديم نظرة تعكس مشاعر أكثر. وهنا أيضا يكمن دور الكاتب. أنقل الكلمة الآن إلى السيد دياورا.

مانتيا دياورا

أنا جد سعيد لتواجدي هنا في وجدة. جذوري مالية، وأدرس في الولايات المتحدة، وأكتب بالإنجليزية. أتممت دراستي عام 1979. بعد نيل شهادة الدكتوراه، وعندما ابتدأت التدريس، كان كل ما يشغل فكري وتفكيري حينها هو كيف نكتب ولن. ولقد ألفت كتابا تحت عنوان «في البحث عن إفريقيا»، والذي تُرجم ترجمة رديئة إلى اللغة الفرنسية لاحقا. في هذا الكتاب، طرحت عدة تساؤلات حول التجربة والواقع المعيش للرجل «الأسود»، كما نستشف من خلال كتب مثل «بشرة سوداء، أقنعة بيضاء» لفرانتر فانون. فإذا بي أطرح على نفسي هذا السؤال : ما هي تلك التجربة التي يعيشها الرجل الإفريقي ؟

هنا، يبدو لي من المهم أن أقتبس مقولة طالما أحب إدوارد كليسان ترديدها : «تفعل كما يريد محيطك وتفكر كما يريد العالم». عودةً إلى مسألة الاغتراب، فما أعني قوله بهذا المصطلح هو، بكل بساطة، المسافة. ما المسافة التي تفصلنا عن الموضوع الذي نود الكتابة حوله ؟ ما مدى المسافات التي يمكننا خلقها خلال رحلة سفرنا من الواقع إلى الخيال ؟ عندما كنا طلبة دكاترة في الولايات المتحدة، كنا نتذمر كثيرا عندما يتكلم خبراء الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وخبراء الاقتصاد بدلا منّا. كانوا يتحدثون عن إفريقيا لأجلنا. لكن كيف نتحدث نحن أنفسنا عن إفريقيا هاته ؟ كيف نعيد امتلاكها ؟ كيف نتملك إفريقيا ونتحدث عن إفريقيا ؟ لطالما تواجد ذاك الإحساس بالاغتراب بين الإفريقي الذي يريد أن يكون لنفسه أنثروبولوجيا، وخبيرا اقتصاديا، وعالما اجتماعيا. لطالما كان هذا المشكل قائما. واليوم، وبعد أربعين عاما لا يزال المشكل ذاته مطروحا، ولكن بين الأفارقة بعضهم البعض هذه المرة : بين هذا الإفريقي الذي يعيش خارج إفريقيا، ويكتب حول إفريقيا وذاك الإفريقي الذي يعيش داخل إفريقيا و يكتب عنها : إنه تجسيد للمشكل عينه. من يستطيع التحدث عن إفريقيا، مع الأخذ بعين الاعتبار الخيال والمتخيل والواقع في الآن ذاته. أظن أن مثال كوروما يظل الأكثر إثارة للاهتمام في العالم الفرنكفوني. أما فيما يخص العالم الأنجلوساكسوني، فقد نجحنا في خلق أدب إفريقي تختلف لغته الإنجليزية عن إنجليزية كندا، وأستراليا، والولايات المتحدة، وحتى إنجلترا. لكننا لم ننجح الأمر ذاته فيما يخص الأدب الإفريقي سواء داخل إفريقيا أم خارجها، باستثناء كوروما. أي، من وجهة نظر عالمية، فقد استطاع خلق أدب فرنكفوني إفريقي يحيل بشكل واضح إلى اللغة الإفريقية : لغة إفريقية قادرة على بلورة وتحويل اللغة الفرنسية.

من هذا المنظور أيضا، يتجلي لنا بوضوح سبب اعتناق أوسمان سمبيني المذهب السينمائي رغبة في أن يستمع إلى ممثليه يتحدثون بـ «الولوف» و«اليمبارا»، لأن عند كتابة «الطبيب الأسود» و«أيا وطن، أيا شعب»، كان لا بد لأعماله أن تمر عبر الناشر، والناشر، بالإنجليزية، هو شخص يصحح اللغة، ما يقودنا تلقائيا إلى منعرج ينعطف بنا عن المعنى والسياق. وهنا يكمن بالأساس المشكل الجوهري بالنسبة للأدب الإفريقي الناطق بالفرنسية. لم ننجح بعد في خلق أدب إفريقي صرف. فعندما نقرأ الفصول الثلاثة الأولى لمارك توين، نعلم فورا أنه يندرج ضمن الأدب الأمريكي، والأمر سيان بالنسبة لتشبيبي : نعلم أنه إفريقي. لحد الآن، وباستثناء «المدن»، لا يمكننا الجزم في مسألة امتلاك أدب إفريقي صرف.

حميد بناني

وأنا أنصت إلى مداخلات أصدقائي، لابد من القول أنها مهمة ورائعة. سأعود إلى هذه النقطة لاحقا، لكن أولا أود تهنئة منظمي هذا المعرض الأدبي الرائع. مجيئي إلى وجدة اليوم يذكرني بأول رحلة لي إلى هذه المدينة. فقد استضافني نادي السينما لأعرض «وشمة» تحت وصاية دومينيك هيليبويد الذي تكلف بإعداد وتمويل الجانب الموسيقي للفيلم. لقد كانت سابقة وطنية. موضوعنا اليوم هو : الكتابة والإبداع في إفريقيا. بطبيعة الحال، كل واحد منا سيتناول الموضوع من منظوره الخاص. ولقد استمعنا بالفعل إلى وجهات نظر مهمة. لن أطرح أمامكم مشكل اللغة الجوهري، فهذا يتطلب دهرًا من الزمن. لكن يمكنني أن أقول، باختصار، أن اللغة ملك للذي يوظفها. اللغة تتجاوز الأمم. هذه هي مشكلة اللغة الإفريقية في كل أقطار العالم. لا يمكنني أن أحسم في هذا الأمر : لا أملك جواباً شافياً لهذا السؤال.

لا أعرف ما الذي يعنيه «فرنسي سنغالي» أو «فرنسي إيفواري»، كما لا أعرف ماذا يعني «فرنسي مغربي». لا يزال أمامي الكثير لأتعلمه منكم. فيما يخص هذا السؤال : «لماذا نكتب ؟» لأننا نحب : لذلك نكتب. الأمر كأن تسألني لماذا نمشي ؟ أو لماذا نتنفس ؟ بالنسبة لبعض الأشخاص، أولئك الذين يتمكنون هذه القدرة، في يوم ما، نشعر في الكتابة بشكل طبيعي ودون سابق إنذار، وهذا ما أصابني. سأنشأ معكم تجربتي الشخصية، أنا لم أفكر يوماً أن أصبح كاتباً، فلم أدخل عالم الكتابة من بابه الرئيسي إن صح القول. درست في مدرسة للسينما في باريس، وشرعت في إخراج الأفلام.

بعدها عدت إلى المغرب، علما أنني كنت أستطيع البقاء في فرنسا والحصول على الجنسية (فزوجتي الأولى وأم ابنتي فرنسية، لذا فطبيعيا كنت أملك الحق في الجنسية)، لكنني لم أطمع في شيء من ذلك وأثرت العودة إلى أحضان الوطن، للبدأ في إعداد أول أفلامي. الإبداع والكتابة ينبعان من الميتافيزيقيا ؛ هما حالة خاصة وخصوصية جدا. أود الاعتراف بأنني قبل أن أتخصص في السينما، كنت ملما بالفلسفة والسيمولوجيا. ولقد حضرت عدة ندوات لدريدا ورولان بارت وآخرين. ولطالما كنت منبهرا بقراءات جون بول سارتر، الذي ألهمتني رائعته الأدبية حول «جون جنيت» لإخراج «وشمة». أعددت بحثي في معهد الدراسات العليا للسينما بباريس، تحت عنوان «بحث حول الغموض في كتابات بونويل»، لأن هذا الأخير كان أستاذًا في مادة الغموض. ولد في مجتمع، عرف في ذاك الوقت، بكونه كاثوليكي حتى النخاع. كان يبدو كأنه يمدح الكاثوليكية، بيد أنه كان يقوم بالعكس تماما ؛ كان يعتمد لاستعمال ما أحب أن أطلق عليه بـ «التَّوَرِيَّة»، وهو ما استخدمته أنا بدوري كوسيلة في عملي.

هذه المغامرة قادنتني إلى كتابة أول رواية لي : «أنشودة المتمردات الأخيرة». كل هذا بدأ برحلة استثنائية رفقة صديقي عبد الله حمودي، الأستاذ بالولايات المتحدة. ذهبنا إلى جنوب تافيلالت ووصلنا حتى بوغافر. كان بصحبتني علماء اجتماع وجغرافيون فرنسيون، كان ضمنهم من اكتشف وجود جبل في الصحراء لأول مرة. كنا نجتاز يوميا ثمانية ممرات جبلية. التقينا نفرا من الناس يدعون «أيت عطى». و ذات يوم، تسلقنا جبلا لنتلقى في مغارة عجوزا حكى لنا عن قبيلة «أيت عطى»، وما انفك الرجل يردد لازمة : «ما لا يُغْنَى ليس حقيقة» (بمعنى أن ما لا يمكن ترجمته إلى شعر لا يساهم في التطور الذاتي للأفراد). لقد روى لنا ملحمة هذا الشعب القبلي ولاسيما مقاومة «أيت عطى» و«أيت وعزيز». بطبيعة الحال، أراد أهالي «أيت عطى» المقاومة إلى آخر رمق، لكن فرنسا أعدت عتادها من مدافع وطائرات وظلت تقصفهم لما يقارب عشرين يوما. في هذه الآونة، كانت قبيلة أيت عطى مجتمعا طبقيًا : كان هناك المتدين النبيل، والمحاربون، والمزارعون الذين يتشكلون من المغاربة السود. وكان المحاربون الخيالة من أيت عطى يأخذون جزءًا من المحصول الزراعي مقابل حماية الفلاحين. كما كان ضمن صفوف المحاربين، من يطلق عليهم حاملي الرايات. كانت قبيلة أيت وعزيز الأشد مقاومة ؛ إذ ظل أبناءها يحاربون حتى آخر رجل فيهم، فلم ينج من القبيلة غير النساء اللواتي أسميتهن، في روايتي، بالأمازוניات. هؤلاء النساء رفضن «سلام الشجعان» الذي اقترحه الفرنسيون، وأثرن مواصلة الحرب. لقد سطرن أسطورة بمقاومتهن. تحكي عجوز حكيمه أسطورة المنقذ الأخير للاتحاد القبلي. هذا الرجل الذي بحث عنه نساء القبيلة إلى أن وجدته : إنه طفل في الخامسة من عمره، ومنه استلهمت عنوان فيلمي : «الصبي الشيخ».

لا مرأى في أن ثقافتني فرنسية، لكنني أحس أكثر بانتمائي المغربي. لقد تجاوزت هذه العقدة. بعد هذه الرحلة المثيرة، وباعتباري مخرجا، رغبت في ترجمتها إلى فيلم. شرعت في العمل، وكان لا بد من التوثيق، فقصدت المكتبة. فوجئت بأن الوثائق الأكثر مصداقية كانت من تأليف الفرنسيين. وهنا أيضا لدينا مشكل. على أي حال، الجانب الأكثر مصداقية من التاريخ كتبه فرنسيون، فما عسانا نفعل حيال هذا ؟

ألّف الجنرال جورج سبيلمان، وكان كاتبًا أيضًا، كتابًا يحمل عنوان «أيت عطى، الصحراء وهدة درعة العليا». كان هذا المؤلف هو المرجع الوحيد الذي أمدّني بتفاصيل حول تاريخ الاتحاد القبلي الأمازيغي الكبير، وحركة المقاومة، وميكانيكيات بعض قادة فرنسا العسكريين، وسلوك الشاوش المدعو حميدة لإخماد جذوة الأمل بعد تنصيب «الصبي الشيخ». كل هذه التفاصيل وثقتها في روايتي. وكان هناك أيضا هنري بوردو، روائي فرنسي، وكتابه حول الكابتن «هنري دو بورنازل» الذي قدم «كبطل للريف وتافيلالت».

أنا مخرج وأدعي أنني كاتب. وأود أن أفسر لكم العلاقة بين الفيلم والكتابة، إذا أدّنتم لي. بالنسبة إلي، ما هو مهم أكثر في فيلم، ليست التقنية ؛ نعم هناك الصورة، وعمل الفريق، وكل هذا مهم. لكن الوشيجة بين المخرج والممثل، أو ما يسميه المحلل النفسي علاقة نقل بين المخرج المهووس بالشخصية، والممثل الذي قرأ النص وينبغي أن يتقمص الشخصية.



المصادقية في الشاشة تنبع من هذه العلاقة، إذ لا يمكنك أن تتخذ الكاميرا ؛ فهي تصورك من داخلك، فإذا كذبت سرعان ما ينكشف أمرك، ولا أحد من الجمهور سيتمكن من رؤية هويته تنعكس من شخصيتك. الرواية أمر مختلف تماما. من وجهة نظري، الرواية تولد في الخلوة، ولكن ليست أية خلوة : نكون تقريبا في حالة مغامرة ؛ حالة تسبح فيها الروح في سكون، ويهتز الفكر تحت وطأة الكلمات والمعاني فتحاول الأنامل تحبيرها. هذه الكلمات ترتج في فكري، وتنتال في ثنايا فصول الرواية. هذا الارتجاج هو الذي يعطي المعنى والشعرية للنص الذي يتلقاه القارئ في عزله، ويتيح له اكتشاف ذاته في فضاء الكتاب. هنا أيضا، تتطلق عملية تفاعل وتمثل لتنبثق منها رؤى وأفكار جديدة. بعد عملية التوثيق، من أجل إعداد السيناريو، توجب خلق خيال وشخص. هذا هو الدور الأساسي للسيناريست والكاتب. ولأنني أردت إنشاء ملحمة، استلهمت نظرية عالم الأساطير الأمريكي جوزيف كامبل : «البطل ذو الألف وجه ووجه». لقد مكنتني هذه النظرية من توطيد دعائم ملحمتي. بطبيعة الحال، الأمر بالنسبة للفيلم كان صعبا جدا، نظرا لأن صناعة السينما بالمغرب كانت في طفولتها. ولم أتمكن من امتلاك العدة الكافية. في الواقع، لم أستطع إخراج سوى ثلث السيناريو، رغم ذلك خرج الفيلم إلى صالات السينما. كنت محبطا. كان ينبغي القيام بشيء ما، فتعاطيت إذا للكتابة بكل عفوية وتلقائية. وتركت نفسي تنساب في بحر الكتابة، وأعتقد أن روايتي منحنتني الراحة النفسية.

فودي سيلا

قال الأستاذ حميد بناني، الذي نشكره على هذه الإضاءات القيمة، إن ما لا يقبل أن يكون في قالب الشعر هو أدنى من أن يكون في حياتنا أصلا ؛ وهذا موقف فيه شيء من روح هوميروس. كما ناقش كتابة السيناريو وصعوباتها وبين أن السينما والأدب نوعان إبداعيان متميزان تربطهما علاقة احتواء. ومن جهتها، أكدت الأستاذة نعيمة أن الكتابة وسيلتها المفضلة في التعبير عن آراءها في قضايا اجتماعية عديدة والتعبير عن مشاعرها وأحاسيسها. وحتى لا أطيل عليكم، أعطي الكلمة للأستاذة نعيمة للتفاعل مع سؤالين اثنين. أولا، ماذا تعني لك الكتابة ؟ وهل هي فعلا مسيرة شخصية وعودة إلى الذات ؟

نعيمة لهبيل التجموعتي

مرحبا بالجميع وشكرا على الاستضافة. بالنسبة لي، الكتابة الروائية هي تقاسم خليط من المشاعر والأحاسيس. أشار أستاذ الفلسفة القديمة، الفرنسي بيير هادوت في معرض حديثه عن فن التأمل لدى الشعوب القديمة إلى طقس تأملي يشجعنا على ترك ذاتنا الموبوءة بالأحكام المسبقة والمغلولة بأغلال المجتمع والانطلاق في رحلة البحث عن ذاتنا التي لا تخاف الغوص في أعماق الأشياء بدل الاكتفاء بالأحكام المعدة سلفا.

شخصيا، أعتقد أن دور الأدب الأول هو الحديث عن حميمية الكون وغموضه. وأرجح أن فكرة الأدب بعيدة عن فكرة الكونية بمعناها المتشدد كما حدده مفكرون غربيون كالفيلسوف الفرنسي فرونسوا جوليان انطلاقا من معيارية تلقينية وإملائية تضع المعايير للناس في كل تفاصيل الحياة. تطبيق المعيارية في العلوم الحقة كالرياضيات والفيزياء هو أمر طبيعي. لكن تطبيقها في مملكة الأدب والفن والأخلاق والقيم يخلق الإشكالات بدل حلها. هل يمكننا مثلا تطبيق المعيارية على حقوق الإنسان؟ وهل هي الخيار الأسلم؟ هل نحن بصدد كونية متشددة؟ وماذا يقول الفكر الإغريقي في هذا الباب؟ لأن فرونسوا جوليان أكد سعي أرسطو وسقراط إلى جعل العالم معياريا. مثلا، فكرة «الجمال» المجردة كما فرضها الفكر الكوني الغربي هي فكرة موهلة في المعيارية. لكن هل هذا طرح سليم؟ شخصا، أرى الأدب والمعيارية كخطين متوازيين لأن الأول يحدثنا عن الفرد والحميمية ويغوص في أعماق النفس البشرية في تناقض تام مع المعيارية. الأدب ببساطة مختلف ومميز لا يقبل المعيارية. أقول هذا الكلام وأنا واعية بوجود ترابط ما على مستوى ما بين الخاص الحميمي والكوني الشمولي. وقد شدد على هذه الترابط الفيلسوف والشاعر الفرنسي إدوارد غليسون الذي يدعونا إلى مغادرة محليتنا والتطلع للكونية. لكن كيف السبيل إلى ما يدعونا إليه؟



ماذا نقصد تحديدا بعبارة «كوني»؟ شخصا، أرى أنه ربما يكون في تشريح تعريف «الانتماء الثقافي» ما يفيدنا. ماذا يقصد الواحد منا عندما يقول إنه ينتمي لثقافة عصره أو أمته أو وطنه؟ وعلى أي أساس ينصب المرء نفسه قيما على العالم وناطقا رسميا باسمه؟ في نفس الوقت، الكتابة الأدبية ليست بتلك البساطة التي قد يتصورها البعض لأسباب عديدة يهمنها منها في هذا المقام، أن الكاتب يستمد أفكاره ومواضيعه من عالمه الداخلي وعالمه الخارجي. المشكل هو أن هذا الأخير طرأت عليه تغيرات جذرية فأصبح عوالم بعضها واقعي ملموس وبعضها افتراضي موازي يتوفر فيه مستوى معين من حرية التعبير وتنفذ فيه مفاهيم كالفضاء والمسافة والجغرافيا معانيها وقوتها وسلطانها. أعتقد أن شروط ممارسة الكتابة الأدبية اليوم تختلف كلياً عن تلك التي سادت في فترة تصفية الاستعمار؛ وذلك راجع أساساً إلى التحولات العميقة التي همت العلاقات الاجتماعية وعلاقاتنا بالخارج. قرأت مؤخراً على غلاف مجلة «زمان» المهمة بتاريخ المغرب سؤال بارزا يقول «من أنت أيها المغربي؟» وقد حذر مدير نشر المجلة يوسف شميرو في مقاله الافتتاحي من تبني أي تعريف مبهم وجامد لمفهوم الانتماء الثقافي في محاولة تعريف الكونية.

خطورة هذا النهج هي أن عقلية القطيع المعششة في أعماقنا ستقودنا إلى عالم تسود فيه عقلية «نحن» مقابل «هم». وهذا تماما ما فعله الأستاذ صامويل فيليبس هنتنجتون في مؤلفه الشهير «صراع الحضارات» لما عرف مفهوم الهوية الثقافية على أساس التكتلات. عندما نحلل العالم بمنطق التكتلات البشرية، سنتساءل مرات عديدة «من نحن؟» ثم سنسلك أقصر طريق في الإجابة على هذا السؤال المعقد فنقول «نحن فيما بيننا» و«الآخرون ضدنا». وهذا توجه خطير.

فودي سيلا

أثارت الأستاذة نعيمة جملة من التساؤلات المتعلقة بسبل مراجعة فكرة الكونية دون أن نحبس أنفسنا في تعاريف وضعها آخرون تفرض علينا رؤيا معينة للعالم. كما تطرقت إلى التساؤلات والانشغالات الهوياتية التي بات يغفل عنها كثيرون. في السياق ذاته، شددت الأستاذة على أن الكتابة الأدبية اليوم مختلفة كلياً عن ما كانت عليه في الماضي.

في سنة 1956، انعقد أول مؤتمر للكتاب والمبدعين السود بجامعة السوربون. حضرت ثلاث تيارات فكرية : الأمريكيون من أصول إفريقية، والذين أرادوا الحديث عن التمييز العرقي والفصل العنصري والأفارقة الذين أرادوا الخوض في أسئلة التحرر من الاستعمار ومجموعة أخرى أرادوا الغوص في معاني ودلالات أن يكون الإنسان أسود. اجتماع كهذا يجعلنا نتساءل ما هو الكوني الواجب الاحتفاظ به والكوني الممكن التخلي عنه ؟ فعندما يجتمع كتاب ومبدعون على أساس اللون فهم يذكون مشاعر العنصرية والتمييز والاحتقار من حيث لا يدرون. مثال آخر يثير نفس التساؤل يتعلق بنضالات تحرر المرأة. عند الحديث عن مظاهر اضطهاد المرأة في كل العصور دون اعتبارات اللون والعرق والجغرافيا والدين وغيرها، هنا فقط يمكننا القول بكونية هذه النضالات.

وفي سنة 1956، أصبح العالم يواجه أسئلة مختلفة عن تلك التي واجهته في الماضي. لم يناقش مؤتمر الكتاب والمبدعين السود بعض الأسئلة الراهنة آنذاك، وهي مازالت مطروحة حتى الساعة. كذلك، لم تحظ قضايا المساواة بين الجنسين والقضايا البيئية بنقاش كافي في المؤتمر. لم يناقش الحداثيون السود مكانة المرأة وحقوقها لما كانوا في غمرة النضال والتنوير، فكيف هي الحال اليوم ؟ حتى لا أطيل عليكم أعطي الكلمة للأستاذ مانتي دياورا الذي سيتكلم في هذا الموضوع.

مانتيا دياورا

شكرا على استحضار ذكرى سنة 1956. لقد كانت سنة احتفال سانغور وأليون ديوب بالزنوجة. لكنها كما أشرت كانت أيضا سنة الانقسامات المفاجئة بين السود، كما حدث بين الأمريكيين الأفارقة والكريبيين الأفارقة وآخرين. وما زاد الطين بلة وقتها هو قول فرانز فانون وإيمي سيزير إنه : «لا ثقافة /لا الثقافة الوطنية». بمعنى أنه يجب بناء الثقافة الوطنية في خضم النضال والسعي إلى التحرر من الاستعمار. بعد مؤتمر سنة 1956، نُظمت مجموعة من المؤتمرات المشابهة كلقاء روما المنظم تحت شعار «وحدة الثقافات الزنوج-إفريقية» سنة 1959 والمهرجان العالمي للفنون الزنوجية بدار سنة 1966 ومؤتمر الجزائر سنة 1969 واللغوس سنة 1977. أما اليوم فتتظم «ورشات الإنتاجية الفكرية». شدد إدوارد غليسان على ضرورة «التفكير مع العالم انطلاقا من قريتنا» بدل «التفكير في العالم». وبالنسبة له، تفكير الفرنسي في العالم محل السنغالي أو المالي أو المغربي... هو محاولة لإقناعهم أن العالم معرف سلفا وأن لا رأي لهم فيه مع الترويج لفكر فرنسا وتاريخها وأدبها وفلسفتها... وهذا تماما هو معنى «التفكير في العالم». أما «التفكير مع العالم» فمعناه أن الإنسان لا يستعين في فهم العالم وعقلنته ببيئته حصرا. الأدب مرتبط بالبيئة والعوالم المرئية وغير المرئية واللاوعي الجمعي ؛ وهنا تكمن مشكلة إفريقيا. كثير من بلدان العالم لها إنتاجاتها وأساليبها الخاصة في الحياة التي تساهم في تحديد ملامح لاوعيها الثقافي.

أما في إفريقيا فنجد أكثر من لاوعي ثقافي واحد في نفس البلد. وفي الحقيقة، حجم اللاوعي الثقافي الإفريقي الأصيل نتاج الإنسان الإفريقي بسيط للغاية والباقي كله نتاج المؤثرات الأوروبية والأمريكية. والإشكال الحقيقي فعلا هو أن الإنسان الإفريقي، داخل القارة وخارجها، لا يلج إلى هذا اللاوعي الثقافي الإفريقي. وسواء كنا أدباء أو خبراء اقتصاديين... فكلنا نحتاج من ينشر مؤلفاتنا، وهذا فيه إشكال آخر يرتبط بتدخل مؤسسات النشر فيما نكتب. منذ 1956 وإفريقيا تناقش هذا الوضع وتحاول خلق أدبها الخاص الذي يعكس واقع الحال والتطلعات والآمال في قضايا إفريقية أصيلة كثيرة تحتاج إجابات حاسمة كقضايا تحرر المرأة والحرية الجنسية...

ليس لدينا أدب له الجرأة على طرح هذه القضايا وتقديم إجابات لأننا نهرب إلى الأمام بالخوض في قضايا أوروبا وأمريكا. هذه هي الحقيقة المرة وأنا لا أستثني نفسي من المشاركة في تكريسها. كلنا متيقنون أن العالم يتغير سريعا بفضل التطورات التكنولوجية الكبيرة وأن الإنسان الإفريقي يمكنه الولوج إلى هذه التكنولوجيا والاستفادة منها في نشر أفكاره وكتابات. قبل الآن، كنا نتواصل مع الأهل والأصدقاء بالرسائل أم اليوم فكلنا نستعمل الهواتف الذكية وتطبيقات التواصل الاجتماعي مثل واتساب. العالم يتغير بسرعة البرق ولا بد أن نكون كما نريد نحن لا كما يريدنا الآخر وذلك بتشكيل وعينا ولاوعينا الخاصين الأصليين.

فودي سيلا

أعطى الأستاذ هنري نكومو فرصة التفاعل مع الأفكار التي طرحت. أنت أيضا لك مواقف معلنة وخرجات تدعو فيها شباب إفريقيا إلى اكتشاف لذة القراءة والإبداع وبث روح الكتابة كوسيلة «لتقاسم الأفكار والإبداعات». برأيك أستاذ، هل هناك أساليب أخرى للتعبير عن العالم والذات وتقاسم التجارب في عصر التكنولوجيا الحديثة التي باتت تشغل حيزا كبيرا جدا في حياتنا اليومية ؟ هل تعيننا هذه التكنولوجيا على فهم العالم بشكل أفضل ؟

هنري نكومو

موضوع الكونية حساس للغاية بالنظر إلى اختلاف الآراء فيه حد التنافر. وأرى أن من بين أفضل التجارب في ارتباط فكرة الكونية بتجربة جزيرة المارتنيك حيث كان واعيا بضرورة التحرر من «خوف الكونية». ولقد ظل إيمي سيزار مدة طويلة وهو يواجه نظره إلى إفريقيا بدل التركيز على بلده المارتنيك، فكانت النتيجة كتابات فكرية وأدبية قادمة من الخارج انتقده عليها شباب بلده، خاصة المنتمين إلى التيار الثقافي الكريولي. بالنسبة لهم، لا بد للمرء أن يحكم قبضته على دفة سفينته في هذا العالم لا أن يكون مقطوعة تجر إلى حيث لا علم لها. كتب إيمي سيزار مقدمة رائعة لرواية بيرتين جوميني «اللقطاء»، قال فيها إن الإنسان المارتيني لقيط ممزق بين أم، أي إفريقيا، تخلت عنه وأب أنكره. وبطبيعة الحال، لم يكن المارتينيون راضين أبدا عن هذا الموقف الذي يليق بشخص تابع لا استقلالية له.

كان هؤلاء الشباب مقتنعين بضرورة الوعي بوجودهم من منطلق أنهم كريول ولكن أيضا من منطلق أنهم مواطنون كونيون. وبطبيعة الحال، نحن هنا في إفريقيا لم نكن دائما على وعي بهذه العلاقة بين عالمنا الداخلي الحميمي وعالمنا الخارجي حتى أبعد حدوده التي تتجاوز قطاعا قريتنا وبلدنا وقارتنا إلى ما هو أكبر من ذلك بكثير. أؤمن أن كل ما ينتجه الكتاب الأفارقة - خاصة بإفريقيا السوداء وبلدان جنوب الصحراء - للعالم يخضع للرقابة الغربية بشكل أو بآخر.

يرى الإفواري جون ماري أديافي أن أقرب طريق بين بلدين إفريقيين في المجال الثقافي هو ذلك الذي يمر عبر الدول الغربية. نحن ننتج أفكارا وأدبا لا يملك زمام نفسه بقدر ما هو مجرد تابع، وقد باتت الكونية تركز هذا الواقع.

أذكركم فقط أنه في سنة 1967 رفضت دار النشر الفرنسية «سوي» نشر رواية «شموس الحرية» للكاتب أحمدو كوروما بداعي أن لغته الفرنسية ليست جيدة بما يكفي. وقد غابت «شموس الحرية» في ظلمة الدرج إلى أن أشرقت من الكيبك الطامح آنذاك للاستقلال عن كندا.

بعد تنقيحات كثيرة بترت ثلث النص، نشرت الرواية التي نالت اعترافا عالميا. نحن كأفارقة كنا سعداء للغاية بأن تنال رواية إفريقية اعتراف العالم أخيرا. لكن من صادق على هذا النص وأشر عليه بالموافقة ؟ للأسف، مازلنا حتى اليوم تابعين. ومن أكثر الكتاب تألقا صديقي ألان مبانكو، خاصة من خلال روايته «زجاج مكسور»، وهذا أمر جميل. لكن من صادق على هذا النص أيضا وأشر عليه بالموافقة ؟ أي كان الذي أعطى موافقته عليه فهو ليس إفريقي. هذا معناه أننا لم نعتنق الكونية بأصالة وأننا مازلنا نعاني الحجر في علاقتنا بها.



نقطة أخيرة أريد التطرق إليها في مداخلتي تتعلق بقدرتنا على إثبات هويتنا بأنفسنا وبقرار حر منا. هذا المسعى يعني أننا قادرون على تقييم أنفسنا وإنتاجاتنا الفكرية والأدبية وإيصالها للكونية دون وساطة أو تشويش. وعندما نتحدث عن تأكيد هويتنا وفي نفس الوقت ننتظر من الآخر تقييما، فنحن ندور في حلقة مفرغة. في رأيي، الإشكالات المشار إليها إشكالات عميقة تمس جوهر أدبنا الإفريقي. نريد أن نعيش الكونية ونغنيها بتجاربنا الفردية الصغيرة الأصلية النابعة من ذات حرة واعية بذاتها في العالم. للأسف، مازال شبح الاستعمار القديم يسكن عقولنا. لا بد من الإجابة على بعض التساؤلات دون لبس حتى نتقدم إلى الأمام : ما هي الزنجية ؟ هي حركة تحررية وهوياتية. لكن ماذا بعد ذلك ؟ فيما وظفنا هذه الحركة ؟ وأي إرث بقي لنا منها ؟ بلا شك، تبقى هذه الحركة هي الأهم من نوعها في مجموع العالم الزنجي، لكن ماذا فعلنا بعدها ؟ وأي ذكرى عظيمة تركت في ذهن الأفارقة الذين كانوا روادها ؟ أختتم مداخلتي بالحديث عن كاتب أرى أن علاقته بالكونية علاقة مثيرة للاهتمام. يتعلق الأمر بالكاتب الإفواري أرموند باتريك كباكا بريدي (Armand Patrick Gbaka-Brédé) الذي لاقت روايته الأخيرة «الرفيق بابا» نجاحا منقطع النظير. وتجدر الإشارة إلى أن أرموند باتريك كسر في هذا الإصدار قوالب اللغة وأساليب التعبير النمطية كما فعل في الجملة التالية : «Je bonjour la voisine et je triste dans la rue». السؤال المحوري في مثل هذا النوع من علاقتنا باللغة هو بالدرجة الأولى سؤال متعلق بحدثة أسلوب الكتابة.

فودي سيلا

كل الانشغالات التي عبرتم عنها هي إشكالات جوهرية. وأنا على يقين أن الجميع يريد التفاعل. أستاذ بناني، أنت تضع قبعة السينمائي وترتدي أيضا قبعة الأديب وهذا يعني أنك في موقع جيد للإجابة على سؤال الموالى : ألا تظن أن قبول الكونية يعني أن نصبح في نفس الآن كريول ومغاريين وأفارقة وفرنسيين وعرب... أليست الكونية في آخر المطاف فسيفساء كبيرة، مكوناتها هي القليل من كل شيء في هذا العالم وكلها على نفس القدر من الأهمية ؟

حميد بناني

يجب أن لا ننتظر اعتراف الفرنسي بأدبنا المكتوب بالفرنسية. يمكننا أن نكتب بلغات أخرى. إذا كان المغربي مثلا قادرا على التعبير بالعربية والأمازيغية والإنجليزية أيضا فلا داعي لحصره في مجال ضيق. يجب أن نتجاوز هوسنا بطلب اعتراف الآخر ونتحرر من كل العقد التي خلفها الاستعمار. حاليا في المغرب، عندنا إصدارات روائية بالفرنسية والعربية والأمازيغية والإنجليزية أيضا ؛ وهذا معناه أن الكونية تتجلى عبر كل اللغات.

نعيمة لهبيل التجموعتي

شعرت من خلال طريقة طرح سؤالك أستاذ فودي سيلا كما لو أنني نفيت في مداخلتي قدرة الأدب على تحقيق الكونية : لم أقصد ذلك بتاتا. أنا فقط بحثت عن معنى دقيق للكونية الأدبية. أعتقد أننا لما نكتب بكل أمانة، فنحن حينها لا ندعي كتابة أدب عالمي أو كوني، حسب تعريف المبدع الألماني العظيم غوته. ما نركز عليه فعلا هو كتابة قصة بأكثر قدر ممكن من الأمانة. شخصا، أبذل قصارى جهدي لأكتب دون التفكير في نوع القارئ المحتمل. بعد نشر الكتاب أكون قد فطمته ليبدأ حياته فينجح في علاقته بالقراء أو يفشل. وعلى كل حال، لا يوجد بالمغرب وبلدان أخرى جمهور كثير من القراء ولا سوق حقيقية للكتاب. ولهذا نحن مجبرون على طلب الاعتراف من أسواق كبيرة كلها في العالم الغربي. دخول هذه الأسواق يمر عبر بوابة الترجمة، إن توفر هذا الامتياز. بعد دخول الكاتب تلك الأسواق تنتهي مهمة الكاتب وتبدأ مهمة القراء لإصدار حكمهم. وإذا نال النص إعجابهم واعترافهم فتلك أكبر هدية للكاتب. هذا الاعتراف مهم لأنه السبيل الوحيد لبدء حوار مع الآخر على أوسع نطاق ممكن عبر الكتابة.

فودي سيلا

نختم المداخلات بالأستاذ مانتيا دياورا.

مانتيا دياورا

أعتقد أن السؤال هنا هو : كيف نجعل المحلي كونيا ؟ لأننا انتهينا من الغرب : فرنسا لم تعد المركز، ولا حتى نيويورك أو لندن، فكلنا غربيون اليوم. لهذا يبدو لي مهما وأساسيا معرفة سبل منح الأفكار القادمة من المغرب أو مالي أو أي مكان آخر في العالم بعدا كونيا.

رئيس الجلسة : محمد زاوي
المشاركون : حسن رشيق، فريدريك مارتن، لورا كرايوتوف
فضاء : أحمدو كوروما
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 11 : 00 - 09 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

افتتح الأنثروبولوجي المغربي حسن رشيق هذه الجلسة الفكرية بمداخلة مطولة حول مفهومي «هنا» و«هناك» ؛ حيث أكد على مدى نسبتهما وطابعهما الثقافي المتجلي في كل لغة عبر مفرداتها التي تعبر عن دلالات ومعاني تختلف من ثقافة إلى أخرى. وسعيا منه إلى إيضاح فكرته أكثر، استعان حسن رشيق بأبحاثه الجارية المهتمة بظاهرة هجرة النساء «الطوعية» التي يدرسها كحدث اقتصادي واجتماعي وتعبير صريح عن رغبة جامحة في الانقلاب على الأنماط والبنى الاجتماعية والعائلية التقليدية. بمعنى أنه يوجد «هناك» محدد مبحوث عنه ومرغوب فيه حتى وإن كان الثمن قطيعة مع جزء مهم من الثقافة الأصلية المرتبطة بـ «هنا». إذا قمنا بتكبير الصورة ودققنا في تفاصيلها، سنجد أن الشباب المسلم الذي اختار الالتحاق بالجماعات الجهادية هو أيضا وضع قطيعة مع «هنا» المرتبط في ذهنه بالمعصية والكفر وبات يسعى إلى المشاركة في بناء «هناك» في شكل طوباوية مثالية حاملة.

العامل المشترك بين المجموعتين المشار إليهما هو رفض فكرة الحدود. ومن جهتها، لاحظت المقابلة والكاتبة والشاعرة، من تولوز الفرنسية، فريدريك مارتن أن الدول غالباً ما تحاكي العائلات من حيث البنية وتوزيع الأدوار : «هناك» لا يكون إلا نتيجة مجهود كسفر أو غزو أرض أو تحرير أرض... من جهة أخرى، ترى فريدريك أن الإنسان المبدع يوجد مبدئياً في «هناك» حيث يحتاج أن يكون لإنهاء ما يكتبه، سواء كان سفره داخلياً أو خارجياً.



أكدت لورا كارايوتوف، الوكيلّة الأدبية والمسؤولة عن توزيع المؤلفات الناطقة بالفرنسية في دول أوروبا الشرقية، بأن «الكتاب سفر في عوالم الذات وأنه خير زاد المسافر». بينت ضيفتنا الكريمة في مداخلتها أهمية الكتاب في اكتشاف «الأخر» وقدرته على إثرائنا ثقافياً. وفي الحقيقة، كانت حيرة الجمهور بادية بعد أن فتح رئيس الجلسة، المخرج الجزائري محمد زاوي باب النقاش حول فكرة الـ «هناك» غير المرغوب فيه. ولم نسمع رأياً حاسماً بخصوص هذه الفكرة إلا عند متدخل من الجمهور أكد أن الأنظمة الشمولية لا تذخر جهداً في تشويه «هناك» وتنفير النفوس منه مقابل تلوين الـ «هنا» بأبهى الألوان حتى تدوم لهم المزرعة ويدوم لهم القطيع. كانت المداخلة الأخيرة من نصيب الأستاذة فريدريك مارتن التي أكدت أن «هناك» هو بالدرجة الأولى فضاء مرغوب فيه وأن الصناعة الإشهارية واعية بهذا المعطى وتستثمره.

مداخلات المائدة المستديرة

حسن رشيق

ما دلالات ومعاني «هنا» و«هناك» في السياق المغربي ؟ سأكون دقيق وموجز في وصف الوضعية من منظور مغربي. على العموم، عندما نتحدث في أي ثقافة عن «هنا» و«هناك»، لا بد أن نستعمل مفردات لها هذا المعنى في لغة تلك الثقافة. فيما يخص الدارجة المغربية، هذا أمر غير صحيح دائما. فعندما ينطق المغربي كلمة «برة» فهي تحيل على كلمة «الخارج»، التي تشير إلى الجانب الخارجي من فضاء معين. وليس هذا ما تعنيه «هناك» الدالة على فضاء آخر مختلف كلياً. أما «هنا» في الدارجة المغربية فتشير إلى «البلاد» بمعنى أنها حصرت في الفضاء. بعد هذه التوطئة، سأحدث عن ظاهرتين جديدتين تشدان الانتباه : ظاهرة هجرة النساء الطوعية وظاهرة التحاق الشباب المسلم بالجماعات الجهادية.

تعد هجرة المرأة بمفردها وإبرادتها مسألة جديدة نسبياً بالمغرب لم تعد ملحوظة كفاية إلا مع بداية الألفية الجديدة. واليوم نرى أن النساء الشابات لهن مشاريع شخصية للهجرة نابعة من ذات مستقلة. قد يستفيد المشروع من موارد ودعم الأسرة، لكن ملكية حقوقه الفكرية تبقى من نصيب الشابة المعنية. يتكون هذا المشروع غالباً من مرحلتين كبيرتين : الهجرة من القرية إلى المدينة ثم دخول الأراضي الأوروبية عبر «لحريك»، أي الهجرة السرية.

هذه ظاهرة متنامية لكن للأسف لا تحظى بالقدر الكافي من الرصد والدراسة والتحليل، إذ يصعب على المرء أن يجد أكثر من دراستين أو ثلاث حولها. مع ذلك، هناك جهود محدودة من بينها كتاب جماعي، من تنسيق الباحثة المغربية الشابة ليلى بوعسري سيصدر قريباً عن دار النشر «ملتقى الطرق». مكنتني معاينة هذه الظاهرة من الخروج بمجموعة ملاحظات أهمها أن الـ «هناك» لا يشكل بالنسبة للمهاجرات حلماً بما في الكلمة من معنى شاعري بقدر ما يمثل رجاء وأمل.

أرى أن بيان هذا الفرق أمر مهم لأن كلمة «حلم» لا تناسب ما قالته شابات استجوبناهن بخصوص تجاربهم مع الهجرة. في نفس السياق، لاحظنا أن هؤلاء الشابات تستعملن مفردات تدل على معاناة في تجاوز العالم والحياة القديمة التي غادرنها دون أن تغادرهن. وعلى العموم، معظم الكلمات التي نطقن بها كانت تدور حول ثنائية «المسؤولية الشخصية والحرية» كتعبير عن أمل في «وعي الذات ذاتها بمسؤولية وفي حرية تامة». والدليل على هذه القراءة هو أن أغلب المستجوبات فضلن الاهتمام بشؤونهن وتلبية حاجتهن دون الاعتماد على أحد، رغم أن لهن أختاً أو أخاً مستعداً مبدئياً لإعانتهم مادياً. شخصياً، أفهم من هذا الوضع أن آمال شابات المغرب في تحقيق مشاريعهن الحياتية الخاصة بمسؤولية شخصية بدأت تساهم في تقويض دعائم البنى الثقافية المغربية التقليدية بالمجالين الحضري والقروي.

إذا، نحن نتحدث عن نساء باحثات عن الحرية والاستقلالية المادية. بطبيعة الحال، بررت المستجوبات سعيهن إلى الهجرة بمبررات نمطية أقرب ما تكون إلى الكليشيهات والأفكار الجاهزة كالبحث عن عمل.. لكنهن قدمن مبررات أخرى تتجاوز الماديات إلى ما هو أعمق. لقد لمسنا فيهن رغبة جامحة في تحقيق أهداف لم تسعفنهن الظروف في تحقيقها من قبل.

يستفاد من كل ما سبق أن الشابات المهاجرات يحدهن أمل كبير في عيش أفضل بعيداً عن عالمهن التقليدي رغم كل ما قد يشدهن إليه. قبل التفكير في الهجرة، كان أمام هؤلاء النسوة نموذج واحد وسيناريو واحد ؛ لكن بعد اختمار الفكرة، أصبحن يشعرن بتفاوت بين ما يعيشه وما يرغبن في عيشه ؛ وهكذا بدأ الصراع والصدام بين إرادة الفرد من جهة والقيم والبنى المجتمعية والأسرية التقليدية من جهة أخرى. خلاصة القول في هذا الباب هي أن هؤلاء الشابات، اللاتي استفدن من برامج دعم تدرس الفتاة القروية، صرن يتقاسمن الشباب أمل الهجرة وتخططن لها كمشروع حياة.

من ناحية أخرى، نتوقع تنامي هذه الظاهرة مع مرور الوقت، تماما كما حدث ببلدان آسيا وأمريكا اللاتينية. وبطبيعة الحال، المسألة مرتبطة بجملة من العوامل المؤثرة، خاصة سياسة الدولة اتجاه هذه الفئة في المجال الحضري لأنها تعيش حاليا في ظروف مزرية : شقة تُكثّر غرفها منفردة وفي كل غرفة عدة أسرة... المثير حقا هو أن ضنك العيش بالمدينة لم يكن أبدا عائقا أمام هؤلاء النسوة للاستمرار في المدينة رغم لحظات الحزن إلى «بلاد» : بالنسبة لهن، الحياة في المدينة رغم كل شيء تبقى «الأفضل». وبهذا المعنى، لا تعارض بين الـ «هنا» والـ «هناك».

اسمحوا لي أن أختتم بحديث مختصر عن ظاهرة التحاق شباب المغرب بالجماعات الإسلامية المتطرفة. في هذه الحالة، لا يحضر في العقول إلا الـ «هناك». هذا الـ «هناك» قد يتمثل في بغداد أو سوريا أو أفغانستان... معنى ذلك أن هذا الشباب يلغي الـ «هنا» ويعوضه بالـ «هناك» ويلغي الحدود السياسية والثقافية التي تفصله عن «أرض الجهاد» حيث يمكنه بلوغ مقام «المسلم المثالي». للأسف، هذا التوجه لمسناه مؤخرا حتى عند أبناء الجالية المقيمة بالخارج الذين باتوا ينتجون خطاب يعبر عن إرادة «مغادرة بلدان الكفر والضلالة كفرنسا أو بلجيكا» للاتحاق بالإخوة الذين سبقوهم إلى «هناك».

فريدريك مارتن

أعيش بمدينة تولوز الفرنسية حيث أعمل مقالة منذ عشرين سنة. بالموازاة مع حياة سيدة الأعمال، بدأت مشواري ككاتبة منتقلة بين الرواية والقصة القصيرة وكتب الأطفال... أهتم في كتاباتي بالأسرة باعتبارها مرآة تعكس بوضوح حال الدولة ككل. إذا نجد أفكار مثل «الأبوية» و«الأخ الأكبر» و«الأمومة» التي تنتجها الأسرة حاضرة أيضا بشكل أو بآخر على مستوى الدولة. أما الكاتب فهو بالفطرة دائما «هناك» حيث يحتاج أن يكون. صحيح أن السفر بالنسبة لي سيبقى صعبا دائما بسبب إعاقة حركية أعاني منها، لكنني أستطيع أن أحلم بالـ «هناك». عندما نسافر كل شيء يتبدل مذاقه ورائحته وشكله، فنتلون الطرق ويحدث التيه في جميع الاتجاهات. شخصيا، أعتقد أن الـ «هناك» هو كل ما يخرج عن المألوف ويفاجئ رؤيتنا العادية للعالم. في الختام، أريد التأكيد على العلاقة المميزة التي تجمعني بأغلب بلدان المغرب الكبير : فأنا اليوم أشارك في لقاءات بوجدة والدار البيضاء ؛ وقد عشت في تونس بشكل متقطع، كما أن لي أصول جزائرية. وبالتالي يمكنني القول أن شيئا من نساء الجنوب يسكنني وأن لي رابطة بهذا الجنوب الذي هو في الحقيقة الـ «هناك» الذي أجهل عنه أكثر مما أعرف. في الختام، أعبر مرة أخرى عن خالص امتناني وشرفي بالحضور معكم في هذا الحدث المميز.

لورا كارايوتوف

يعتبر مجال عملي بحرا تصب فيه كل الأفكار التي أشار إليها الأستاذ والأستاذة قبلي. فأنا أعمل وكيلة أدبية وأروج غالبا مؤلفات ناطقة باللغة فرنسية داخل أسواق دول أوروبا الشرقية. بالنسبة لي، الكتاب هو زاد المسافر وراحته في الآن ذاته. فعندما يتعذر علينا التنقل إلى «هناك» واقعيا، تسافر بنا القراءة والكتابة إلى حيث نشاء، فنلأمس خيال «هناك» كأننا فعلا هناك. أكثر من ذلك، نستطيع بفضل الكتاب تجاوز الحواجز الروحية والأيدولوجية والاقتصادية... ببساطة، الكتاب بساط ريحي سحري يطير بك إلى عوالم بعيدة. إذا كانت للكتاب كل هذه القدرات، فأنا لا أرى خيرا منه سفيراً بين الشعوب والثقافات. لهذا فقرأت كتب «الآخر» هي عملية اغتناء حقيقية. وهنا يأتي دور مهنيي صناعة الكتب بما فيهم الوكيل الأدبي الذي يخلق قنوات يصل من خلالها الكاتب إلى أسواق جديدة خارج حدوده الوطنية حيث يكون الإشعاع الثقافي ضعيفا. في الحقيقة، المنافسة شديدة جدا، بحيث يصعب على إصدار قادم من بلد ذي إشعاع ثقافي ضعيف أن ينافس في سوق قوية كالسوق الفرنسية أو الروسية.

شخصيا، أعتبر هذا المعرض فرصة لاكتشاف آخر الإصدارات والتعرف على كتاب صاعدين وتبادل الأفكار. أيها السيدات والسادة، نحن كلنا اليوم في ضيافة الكتاب الذي جمعنا من مشارق الأرض ومغاربها حتى نتناقش ويغتني بعضنا من تجارب البعض الآخر.

محمد زاوي

دائما في ارتباط بكلمة «هناك» التي يساء استعمالها في حياتنا اليومية، أسأل صديقي حسن رشيق هل يوجد فعلا «هناك غير مرغوب فيه» حيث لا يريد أحد الذهاب ؟ وهل توجد أي إنتاجات وتأملات في هذا الباب ؟



حسن رشيق

لا أريد أن أخيب ظنك، لكن الإجابة على سؤالك أمر معقد، حتى أنني في هذه اللحظة أفكر بصوت مرتفع وأرتجل لعلي أجد ما يفيد. وربما خير ما أفعل هو أن أضيف إلى سؤالك أسئلة أخرى : هل يوجد «هناك» مرغوب فيه ؟ هل يريد الفلسطيني أن يكون في لبنان و الأردن ؟ هل أراد مواطن جنوب السودان أن يكون في الوضع الذي هو عليه اليوم ؟ هذه كلها أسئلة يمكن أن يشتغل عليها الباحثون في الأنثروبولوجيا.

فريدريك مارتن

سأجيب على سؤالك أستاذ محمد من زاوية أخرى. فكرة الـ «هناك» هي بالطبيعة مرغوب فيها لأنها تمنحنا فرصة تجربة شيء مختلف. هذه الحالة النفسية تستغلها شركات الإعلانات أحسن استغلال بحيث تخلق لدى المستهلك رغبة شراء شيء لم تكن له به معرفة حقيقية لحظة إشهارة وربما لن تكون. مثلا، تقول لنا وكالات الأسفار : «تحرروا !» هل هذا يعني أننا مساحين في حياتنا اليومية ؟ هل يعني هذا أن الفرنسي الذي يتمتع بعطلته في المغرب مسجون هناك حيث يعيش ؟ ربما...

لورا كارايوتوف

أعتقد أن الـ «هناك غير المرغوب فيه» موجود ؛ إنه الشيء الحتمي الذي لا مفر لنا منه. على سبيل المثال، فقدان الأحبة حتمية لا مفر منها و«هناك غير مرغوب فيه». وأنا أعلم علم اليقين أنني مفارقة أناس أحبهم سيذهبون إلى «هناك» لا يرغبون في الذهاب إليه.

مداخلة

لدي مجموعة من الأسئلة التي أود طرحها على الأستاذ رشيق لكن ربما الوقت ضيق جدا. وصفت لنا الظروف الصعبة حيث تعيش النسوة الباحثات عن «هناك» يحققن فيه ما لم يتحقق في «هنا». أنا أيضا أتعامل مع نساء تنحدرن من أوساط اجتماعية هشّة وتعشن نفس التجربة. ويمكنني أن أؤكد لكم أنهن مستعدات للقيام بأي شيء مقابل مغادرة الـ «هنا» إلى الـ «هناك» وتحقيق آمالهن. لقد أثبتت لي في كل مرة شجاعتهن ونضالهن في الحياة بروح مميزة حقا. لا شك عندي أن هؤلاء النسوة سيبذلن كل ما في وسعهن للوصول إلى «هناك»، ألسن فعلا نساء رائعات ؟

حسن رشيق

دون شك، تختلف الثقافة الشعبية أو الذوق العام عن الخطابات الأيديولوجية أو المعرفة العلمية. النساء اللاتي قمنا باستجوابهن استعملن كلمات من معيشتهن اليومي في شرح وضعيتهن ومشاريعهن ؛ وهذا أمر مفهوم، فهن لسن مناضلات في صفوف الحركة النسوية أو أستاذات جامعات. أنت وصفت هؤلاء النسوة بالرائعات، أما أنا فأصفهن بكلمات من حقل الدراسات الأنثروبولوجية. عندما تقول هؤلاء النسوة إنهن لا تردن البقاء عالة على أحد، فهن بلا شك تساهمن في تقويض دعائم صرح القيم الاجتماعية التقليدية. النساء اليوم تطالبن بحقهن في الخروج والانطلاق والتزين وارتداء ما يحلو لهن... وهن تتحملن مخاطر جمة لانتزاع هذه الحقوق.

من الأمور الواجب الإشارة إليها هنا هي أن مغادرة القرية نحو المدينة تعنى شطب الزواج من لائحة أولويات وأحلام الفتاة القروية. قد يجد الروائيون أيضا أن هؤلاء النسوة رائعات على نحو يقدح قريحتهم الإبداعية. بالنسبة لي كباحث أنثروبولوجي، هن نسوة تُفقدن القيم التقليدية توازنها وهيمنتها وتحديثها تغيرا كبيرا في بنيتها.

مداخلة

هل تلعب المرأة دورا في تقدم المغرب ؟

حسن رشيق

الشيء الأكيد هو أن الحلم بالهجرة الذي كان حكرا على الشباب في سنوات السبعينيات والثمانينيات بات يسكن قلوب الشابات أيضا.

في سنة 2000، أوكلت إلينا مديرية إعداد التراب الوطني بوزارة التجهيز والتعمير مهمة إنجاز دراسة حول هجرة النساء في المغرب. لم تتوفر لدينا حينها أية معطيات عن الظاهرة التي بدأنا نكتشف تفاصيلها رويدا رويدا.

انطلقنا من أحياء العائلات بمدن الدار البيضاء ومراكش. كانت البداية صعبة، لأن الصحافة وكل الدراسات المهمة بالهجرة ركزت حينها على هجرة الرجال. كان الهدف من الدراسة هو مساعدة صناع القرار على وضع سياسات عمومية تأخذ في الحسبان التأثيرات المحتملة لهذه الظاهرة على سياسة السكنى والتعمير.

مداخلة

أردت التعليق على فكرة «هناك غير المرغوب فيه» التي أعتبرها نتاج الأنظمة الدكتاتورية والمجتمعات ذات النزعة الأصولية ونظام الرأسمالية المتوحشة لأن كل هذه البنى تدجن الناس وتزين لهم سجنهم في حظيرة «هنا» وتنفّرهم من «هناك» حتى يصبح مكان غير مرغوب فيه فعلا.



فريدريك مارتن

نحن جميعا محظوظون بأن لنا قدرة تخيلية نحلم من خلالها بـ «هناك» معين. وربما هذا الـ «هناك» هو أحد لقاءاتنا الفكرية الجميلة والمفيدة.

محمد زاوي

خرجت من هذا النقاش الشيق بمجموعة من الخلاصات. الـ «هناك» عند الأنثروبولوجي ليست الـ «هنا» ؛ وهي سفر عند الكاتب. أما الوكيل الأدبي فيعتقد أن الـ «هناك» يأتي إلينا ونذهب إليه عبر الكتب. وفي الختام لم يبق لي إلا أن أشكر السيدات والسادة المتدخلين على إسهاماتهم القيمة والحضور الكريم على حسن الإصغاء والمتابعة.

الشرق والغرب : أفقا التفكير

رئيس الجلسة : خالد الزكري
المشاركون : إدريس جعيدان، تيفين سامويو، حكمت شطا،
محمد شريف فرجاني
فضاء : القدس
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 15 : 11 - 12 : 45



موجز مداخلات المائدة المستديرة

بين الأكاديمي المغربي خالد الزكري، المختص في الأدب المقارن، أن الغاية من هذه المائدة المستديرة هي مساءلة مفهومي الشرق والغرب مع ثلة من المفكرين، على أمل أن تفتح هذه المسألة آفاقا جديدة أمام الفكرة والمفكرين. وقد سعدنا حقا باستقبال الأكاديمي والكاتب والفيلسوف المغربي إدريس جعيدان الذي بدأ مداخلته بالتعبير عن رفضه مصطلحي الشرق والغرب لأنهما ليسا نتاجا أصيلا ومعتبرا به في أدبيات فاعلي الشرق والغرب أنفسهما ولأنهما ذوي حمولة أيديولوجية.

ضيفة أخرى سرنا حضورها معنا هي الأكاديمية والروائية والناقدة وأستاذة الأدب المقارن الفرنسية تيفين سامويو. أكدت المتدخلة أنها ترفض تماما مفهومي الشرق والغرب حد منع طلابها من استخدامهما دون مبرر قوي. في نفس الوقت، حاولت الأستاذة ضبط معنى مفهوم «عالم» في ظل التفسيرات والمقاربات الكثيرة الواردة في هذا الباب.

من ناحية أخرى، بينت سامويو كيف أعادت اكتشاف عبارة «كوني» عند اشتغالها على أعمال محمود درويش واجتماعها بقراء درويش والمختصين في أدبه. من جهته، فضل المهندس المعماري السوري حكمت شطا ثنائية شمال-جنوب مرجحاً أنها مفتاح رئيسي لفهم الواقع وكشف حيثياته. أسس شطا موقفه هذا في جزء مهم منه على تجربته كلاجئ قادته ظروفه الذاتية والموضوعية إلى الغرب حيث عاين تصورات نمطية وأحكام مسبقة كثيرة حول الشرق تفتح جحيم التمييز العنصري والهيمنة على اللاجئين والمهاجرين الوافدين على الغرب من الشرق. أما أستاذ العلوم السياسية والدراسات الإسلامية التونسي محمد شريف فرجاني فقد حاول بيان الجانب الإيجابي في ثنائية شرق-غرب، مستعينا في ذلك بالتاريخ.



شدد إدريس جعيدان على الدور التاريخي للكتاب : فقد يكون محفزاً وسبباً في الغزو والاستعمار، كما قد يكون محفزاً وسبباً في سيادة قيم العيش المشترك. ولم يخرج محمد شريف فرجاني مفهوم «الكونية» من نسقية الغزو والاستعمار والهيمنة حيث تسود الهويات القاتلة وتيار المحافظين الجدد المسيطر على أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. رغم أن الجزء الأول من النقاش تميز بنزعة نقدية شديدة، فقد تحدث بعض المتدخلين فيما بعد عن الشروط اللازم توفرها كي تتجلى آفاق جديدة أمام مساعي إدراك كنه «الكونية» وتجديدها في استقلال تام عن مفهومي الشرق والغرب.

مداخلات المائدة المستديرة

خالد الزكري

من الضروري التعمق في معنى مفهومي الغرب والشرق، بتسليط أضوائنا الكاشفة على ما يختبئ فيهما من دلالات، وهذا ما يمكننا اعتباره بحثا جديا عن «أفاق جديدة للتفكير». يحضر معنا لمناقشة هذا الموضوع نخبة من الأكاديميين والمفكرين والمبدعين. يسعدني حقا أن أقدم لكم إدريس جعيدان وحكمت شطا وتيفين سامويو ومحمد شريف فرجاني. فقط قبل أن أترك الكلمة، أردت التأكيد على أهمية موضوع النقاش وعلى حساسيته. سنناقش التعاريف الممكنة بإيجاز، ثم ندخل في صلب الموضوع. إذا، بما يوحي لكم عنوان جلستنا ؟ أبداً معك إدريس جعيدان ؛ صدر لك مؤخرا كتاب عبرت فيه عن موقف سلبي من مفهوم التنوع أثار جدلا كبيرا. أمل أن يتحدث الجميع حول هذه النقطة بإيجاز قبل مناقشة موضوعنا الرئيسي.

إدريس جعيدان

شكرا على حضوركم. بكل بساطة، لا توجد في قاموسي مفردات «الشرق» و«الغرب». أنا وأبناء جيلي لا مصلحة لنا في خلق هذه الثنائية والترويج لها، علما أن القوى الفاعلة في الشرق وفي الغرب هي نفسها لا تتحدث عن هذه التقسيمات. ما أريد قوله حقا هو أن الغرب كان يسمى نفسه الغرب حتى مرحلة معينة، ثم بعد ذلك أطلق اسم الشرق على ما سواه من جهة مطلع الشمس، تماما كما فعل مع القارة السمراء عندما سماها إفريقيا. أنا أنتبه دائما إلى ما يمكننا تسميته أيديولوجيا التسمية، أي قدرة كيان معين على تسمية ذاته وبذاته وتسمية العالم ؛ وعليه، لا أجدني مهتما حقا، حتى من الناحية الأخلاقية، بهذه التسميات وما تعبر عنه من تصنيفات، لأن المسألة كلها أيديولوجيا في أيديولوجيا. ما يهمني التفصيل فيه فعلا هو ماهية هذه الآليات الأيديولوجية وكل ما توشي به من أوهام وأحكام مسبقة، لأنني أشك في ماهية مفهوم التنوع الثقافي. أنا من مدرسة الشك المنهجي، وعليه، لا يقين عندي بوجود فلسفة إنسانية ولو وجد أناس يتصرفون بالإنسانية. هذه هي المسائل التي تهمني كثيرا، خاصة فكرة العالم كقرية صغيرة وفكرة الاهتمام بالآخر ؛ وهذا يدعونا إلى تمحيص الخطاب الذي يروج لهذه الأفكار، لأنه خطاب مشكوك في أصوله. في المقابل، جيد حقا أن نهتم بتلك المشاريع الجميلة والإنسانية التي تحاول إشعال الشموع ولعن الظلام بنية صادقة سواء من هنا أو هناك، خاصة أن عالمنا يشهد حاليا مائة وتسعين صراعا. وبالتالي، أرى أن التصرف السليم هو النظر إلى الحقيقة بعيون مجردة وإن أملتنا أشعتها بدل الاكتفاء بالخطابات المثالية والأيديولوجية المبعث والغاية. هذا ما يجعلني دائما حذر من هذه المصطلحات التي تروج لنا الوهم.

خالد الزكري

الأستاذة تيفين سامويو، كثيرا ما نصادف مؤلفات كثيرة، مثل «ما هو الغرب ؟» أو «الشرق بين الشرق والغرب»، تحاول الإجابة على أسئلة مهمة ذات صلة بمفهوم الشرق والغرب. ما رأيك في هذين المفهومين ؟ وبطبيعة الحال، نتوقع جوابا مؤسسا على خبرتك في الأدب المقارن والدراسات السيميائية والغيرية، خاصة أنك أصدرت مؤخرا سيرة غيرية تهتم رولان بارت.

تيفين سامويو

أنا أشاطر إدريس نفس الرأي : هذين المصطلحين لا وجود لهما في قاموسي المعرفي. في الحقيقة، يغلب علي انطباع مفاده أنني تعلمت القراءة والفكر النقدي بفضل كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد ونصوص أخرى ساهمت في تغيير نظرتي لهذه المفاهيم.

أنا اليوم أحاول فعل الشيء نفسه مع طلبتي : أطلب منهم تجنب عبارتي «شرق» و«غرب» عبر تبني صيغ لغوية معينة يبلغونني بها أفكارهم دون توظيف هذين المصطلحين، ما يضطرهم إلى بدل جهد بحثي محترم قصد إيجاد البديل. لقد استفدت كثيرا أيضا من إيدوارد غليسان وفهمه للعلاقة بين مفهومي «عالم» و«كوني». في الواقع، غليسان، الذي لم يوظف أبدا مفهوم «كونية» في كتاباته، ناقش مفهومي «الشرق» و«الغرب»، لكنه ناقشهما بنية التفكير والنفي لا الإثبات. يبدو لي أننا في لحظة تاريخية تستوجب تبني مقاربات لامركزية في فهم العالم ومكوناته. وهذا ما أكدته كتب صادرة حديثا عندما شككت في مبدأ التقاسم والتلاقح ووضع «الكونية» موضع المساءلة والشك. وفي الحقيقة، هذا توجه له مظهرات عدة منها اللغوية والثقافي.

آخر الإصدارات في هذا الباب كتابان أحدهما للمفكر توماس بريسون عنوانه «لامركزية الغرب ؛ مفكرو ما بعد الاستعمارية الصينيون والهنود والعرب ونقد الحداثة» ؛ وأتمنى أن تتاح لنا فرصة مناقشة الخطوط العريضة في هذا الإصدار المهم الذي أحضرت معي نسخة منه. تتبع أهمية هذا الكتاب من كونه يقابل بين مواقف مفكرين صينيين وعرب وهنود اتجاه سؤال كيف، دون تكرار ما سبق من مقاربات وعناصر وروايات، نحث حقول معرفية كالاستشراق على تجديد خطابها حول أهمية الهجرة ولامركزية المركز بهدف مقاربة ومساءلة ثنائية الشرق والغرب ومثيلاتها من التصنيفات الأيديولوجية المؤدلجة. كتابا آخر يسير في نفس الاتجاه عنوانه «البحث عن إفريقيا والكونية وفكرة الاستعمار» ألفه سليمان بشير ديان وجان لوب أمسلي.

في رأيي، هذه الكتب تفتح مجالا للتفكير وإعادة النظر في خطاب الشرق مقابل الغرب وتثري النقاش. كلمة أخرى لا أعترف بها هي «الكونية»، حتى أنه أصابني العجب لما وجدتني أعيد النظر في تجلياتها من خلال الشعر العربي خلال العامين الأخيرين، خاصة أعمال محمود درويش الذي أعطى هذه الكلمة أهمية كبرى حسب المختصين وقراء محمود درويش من متحدثي العربية. لقد استفزتني هذه الكلمة حقا فسعيت إلى الإحاطة بمعانيها في شعر درويش لما يقرأ ويغنى ويلقى ولما يكون موضوع النقاش والتحليل. والنتيجة اليوم هي أن موقعي من فكرة «الكونية» أقل «عدوانية»، لأنني صرت مقتنعة بإمكانية إكساب الكونية معاني في أماكن مختلفة وإفقادها سمة الهيمنة على المعنى. أي أننا، إذا كنا نتبنى تصورا موسع يشمل الجميع ورافضا للمركزية، فسنحتاج هذا المصطلح ؛ بشرط أن يصدر عن منطق آخر غير منطق الكونية العقلانية المهيمنة.

خالد الزكري

هذا هو نفس التصور الذي يناقشه أمسلي وسليمان ديان في كتاباتهم وحواراتهم، لأنهم يؤيدون كونية التنوع ويرفضون كونية الهيمنة التي ترسخ المركزية الأوروبية.

تيفين سامويو

ما لا شك فيه هو أن عملية لامركزية المركز معقدة تتطلب تضافر الجهود ؛ ومن هنا تأتي أهمية الحوار والنقاش الذي نخرط فيه الآن.

خالد الزكري

كلام سليم تماما. ربما كإضافة، يمكن أن نطرح الأسئلة التالية : هل لنا أن نعتبر الشرق هامشا للغرب ؟ وما الحقائق التي يخفيها الشرق، لأننا أحيانا عندما نتحدث عن المنطقة المغاربية، ننسبها أوتوماتيكيا إلى الشرق ؟ وماذا عن الغرب ؟ نحن أحيانا ننسى بعض مجالاتها وحدودها ؛ مثلا، هل يمكننا اعتبار اليابان جزءا من العالم الغربي ؟ بالنسبة لك حكمت شطا، هل تعتبر فكرة الغرب والشرق حقيقة وأمر واقعا ؟



حكمت شطا

لا أعتقد ذلك حقا ؛ أنا أفضل رؤية الأشياء على حقيقتها وتسميتها بمسمياتها كأن أقول «الشمال والجنوب» على أساس جغرافي موضوعي أو «أغنياء وفقراء» على أساس اقتصادي موضوعي هو الآخر. وهنا أستحضر قصة شخصية تقيدينا في هذا الباب : أنا مهندس سوري ؛ وقد اشتغلت ببلدي مدة طويلة كأني من أهل البلد قبل أن تحولني الحرب إلى مواطن غربي وترغمني على مغادرة سوريا والتنقل بين عدة بلدان قبل حط الرحال بتونس كمواطن غربي. وهناك، اكتشفت ردود فعل وأفكار متداولة بين الناس حول الهجرة واللجوء وبلد الاستقبال ؛ إذ يقال مثلا إن «التونسيين كسالى وصاخبون». لم أكن أسمع من المغتربين بتونس سوى الإسقاطات والآراء السلبية. وهنا سأحكي لكم قصة أخرى : قال دبلوماسي غربي لأحد أصدقائه أنه بينما كان يستجم في أحد شواطئ المغرب الكبير، صادف أناس يتمشون كالبطاريق وأنهم سببوا له الغثيان. للأسف، صدور دبلوماسي غربي عربوفون منذ سنوات عن عقلية بهذا التدني تعبير صريح عن حالة من الكراهية وعجز عن تقبل الآخر المختلف.

خالد الزكري

هذه النقطة ناقشتها تيفين سامويو أيضا عندما تحدثت عن إدوارد سعيد. نحن أيضا عندنا بنية من الصور النمطية والأحكام الجاهزة حول الغرب. الغاية من الصور النمطية هي تثبيت أو تجميد الشرق، أي «الآخر»، ضمن فئة معينة، في تجاهل تام لماهيتها الحقيقية ؛ وهذا تماما ما يجعلها سلاحا فتاكا في حرب الهيمنة. تبدأ العملية بتجاهل الماهية الحقيقية للأشياء ثم إنتاج ترسانة كاملة متكاملة من الصور النمطية والأحكام المسبقة ثم تمريرها وإعادة إنتاجها ضمن استراتيجية هيمنة شاملة. أكثر من ذلك، الشرق ينتج صور نمطية وأحكام مسبقة عن نفسه بطريقة معينة. ربما يمكننا الحصول على موقف العلوم السياسية في ثنائية «الشرق والغرب» الحاضرة بقوة في السياسة ؛ وعليه سيكون سؤال الموالى للأستاذ فرجاني كالاتي : كيف نفهم ثنائية «الشرق والغرب» من الناحية السياسية ؟

محمد شريف فرجاني

هذه مسألة أوليتها اهتماما كبيرا في كل أبحاثي منذ أن بدأت الاشتغال على العلمانية وحقوق الإنسان اللذان يقدمان لتصنيفات غربية تتعارض مع فكرة «الآخر».

في الحقيقة، تقابل مؤلفات كثيرة، منها كتاب برتراند بادي «الدولتين : السلطة والمجتمع في الغرب وفي دار الإسلام»، بين الشرق حيث يسود تقليد يعادي حقوق الإنسان والديمقراطية والعلمانية والغرب حيث تسود الديمقراطية وحقوق الإنسان والحداثة. بالنسبة إلي، الشرق بنية والغرب بنية ؛ وهذا ما أكد إدوارد سعيد في كتابه «الشرق من اختراع الغرب» وجورج كورم في كتابيه «الشرق الوهمي بين الشرق والغرب» و«أوروبا وأسطورة الغرب، اختلاق قصة». وبالتالي فنحن بصدد بنى كاملة متكاملة بذاتها ولسنا أمام معطيات وشروط معزولة. في الأصل، ثنائية «الشرق والغرب» تشير إلى الشمال والجنوب ؛ وهذا سبقت منا الإشارة إليه ؛ لكن كما قلنا، أفضل ثنائية الشمال والجنوب الموضوعية على ثنائية الشرق والغرب الإيديولوجية. وهنا لابد من التأكيد على أهمية علم الإثالة (الإيثمولوجيا) في هذا الباب لأنها توظف في بناء المواقف الإيجابية والسلبية أيضا. فمثلا، يمكن للبعض التحدث عن شرق أو مشرق مستبد معادي للغرب، بينما يمكن للبعض الآخر التحدث عن شرق تشرق منه الشمس، رمز النور والحرية والتجديد. وبالتالي، تختلف توظيفات الإثالة حسب الهدف المراد بلوغه. يرتبط فعل «Orienter» في اللغة الفرنسية بمصدر الضوء، أي الشمس ؛ أما كلمة «Occident»، فجدرها الأول يدل على السقوط أرضا والاستسلام والاستلقاء هناك حيث تغيب الشمس وينتهي اليوم. رغم ذلك، استفاد الغرب من الإثالة واللغة عموما أكثر من الشرق. من ناحية أخرى، تقسيم العالم إلى «شرق» مقابل «غرب» ليست ممارسة قديمة جداً، لأن العالم كان يقسم على أساس جغرافي قاريا فقط.

في القرن السابع، قسم العالم إلى ثلاث قارات : أوروبا وآسيا وإفريقيا. ولم ينتشر مصطلح «أوروبا» على نطاق واسع حتى القرن السادس عشر، أي بعد اكتشاف العالم الجديد ثم أوقيانوسيا سنة 1812، إن لم أكن مخطئاً. وبالتالي، كما ترون، تصور العالم وفهمه مرتبط أساسا بنوايا من يصدر عنهم هذا التصور والفهم. لم تكن ثنائية «الشرق-الغرب» متداولة كثيرا قبل القرنين السادس عشر والسابع عشر. في نهاية العصر الوسيط بأوروبا، بدأ استخدام هذه الثنائية في ارتباط بالإمبراطورية الرومانية : عندما تمددت هذه الإمبراطورية في الشرق، أصبح الناس يتحدثون عن جناح شرقي وجناح غربي في الإمبراطورية الرومانية التي ستفقد جناحها الغربي في القرن الخامس ثم جناحها الشرقي سنة 1453 إثر سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين. إذا بحثنا جيدا، سنجد أن ثنائية «الشرق-الغرب» كانت تهم العلاقة بين أوروبا والإمبراطورية الرومانية الشرقية حتى القرن السادس عشر. ولم يتبدل هذا الوضع إلى عندما تكلم مؤرخ ألماني عن بيزنطة والإمبراطورية البيزنطية لدلالة على الإمبراطورية الرومانية الشرقية وسكانها، رغم أن هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم رومان الشرق لا شيء آخر. وحتى في اللغة العربية، مازالت كلمة بيزنطي تدل على كلمة «روماني». وهكذا تطورت الأحداث رويدا رويدا حتى فرضت ثنائية «الشرق والغرب» نفسها مع انتهاء الحرب الباردة التي ألغت كل ما له علاقة بالشيوعية عند الغرب وأدخلتنا وإياهم في تصنيف عالمي جديد.

خالد الزكري

هذه مسألة آنية وملحة حقا. وسنعود لمناقشتها إذا كانت هناك أية إضافات. ذكرني ما قلته حول خريطة العالم الوهمية بكتاب مهم أكد مؤلفه كريستيان كراتلوب أن للجغرافيا، علاوة على بعدها المادي المعروف، بعد وهمي يتحكم بتوزيع الشعوب على أساس انتمائهم الجغرافي الحقيقي وانتمائهم الوهمي أيضا. ولفترة طويلة، حللنا مصطلحي الغرب والشرق في شكل ثنائية ولم نحقق نتائج كبيرة. أكثر من ذلك، نحن ولا ريب أمام فكرة أنتجت الميതافيزيقا الغربية التي فككها دريدا ومن لف لفه من المنخرطين في تيار فكري عارض كثيرا من الأفكار والمسلمات السائدة في الفكر الغربي. وبالتالي، ألا تعتقد يا أستاذ جعديان في إمكانية أن تتفتح أمامنا آفاق جديدة تكون أساس مقاربة تناقش التفاصيل ولا مركزية المركز بدل المعارضة من داخل المركزية ؟ وهل هناك أفق أو آفاق جديدة تعيننا على التفكير في مسألة غرب-شرق ؟



إدريس جعيدان

إذا كنت لا أجد في منظومتي الفكرية والنفسية أي من هذه التصنيفات، وأنا كذلك، فسيصعب علي إيجاد أفق جديد. ولكن، الشيء الذي لا أرتاب فيه هو ضرورة القطع مع فكرة أن الكتب نقية ورائعة وبريئة ؛ لأننا عندما ننظر فيما حدث خلال القرن التاسع عشر داخل ما تصرون على تسميته الغرب، نجد أن من القوم من أسس أدب ليس من أدب الرحلة الحقيقي في شيء، فحكوا عن شعوب وقبائل لم يروها ومرروا أفكارا وتصورات حولها من يدري مدى صحتها. لكن في المقابل، يجب أن ننصف مفكرين غربيين عاشوا في هذه الحقبة الفكرية والفلسفية والأنثروبولوجية من تاريخ أوروبا بالقول إنهم أبانوا عن شجاعة كبيرة لما ناقشوا ثقافتهم الحساب وأعادوا فتح ملفاتها السوداء.

من هؤلاء واحد اشتغلت عليه بعض الشيء هو ميشيل فوكو الذي قال شيئاً بسيطاً للغاية : «لإيقاع بالناس، سعيها في معرفتهم». وأي وسيلة تعرفك بالناس أفضل من الكتب. لذا، فإن الكتاب شرط أساسي في نجاح البعثات والفتوحات والهيمنة. وكل شيء متقن يتم عبر الكتب والتقارير والورقة والقلم في آخر المطاف. في الحقيقة، كتب كثيرة مثل (Supplément au voyage) «ملحق السفر» للكاتب بوكانييل (Bougainville) تدفعنا إلى التساؤل حول الغاية الحقيقية منها وتجعلنا نشك في سلمية نية معرفة الآخر. وعليه، من الضروري التأكيد على أن الكتب سلاح الغزو الأكثر نجاعة وعلى أنه لا غزو ولا هيمنة حيث لا كتب، لأن الكتاب رمز الحضارة والشاهد عليها ولها بشكل عام، يكون الرقي الفكري في حضارة معينة رقياً شاملاً يحوط العلوم الصلبة والطبيعية والاجتماعية والقانون... وهذا يغري الغزارة ؛ تصورنا هذا يفسر لنا إحجام أوروبا عن غزو المجتمعات البدائية.

استلهمت القارة العجوز هذا المبدأ من مفهوم الخلق عند اليونان. وإذا كان فكر الفكر الأوروبي أنتج كتباً كلية وتصنيفية في منطقتها ومنهجيتها حتى ولادة الديالكتيك الهيجلية ذات الموقف السلبي هي أيضاً، حتى أن سليمان بشير ديان مثلاً، لا يرى هيجل مثلاً يحتذى به. المفهوم الثاني في نقاشنا هو مفهوم «الكوني» المختلف في تصوري عن «الكونية» لأن هذه الأخيرة أي كانت تتسم بالثابت بطريقة معينة، إنها موجودة بالفعل. لكن ما هو الأصل الاشتقاقي لمصطلح الكوني ؟ هذا هو ما يتم العمل عليه حالياً. عندما نقول بالدارجة مثلاً «غدي نتكونو» التي تعني : سنكون (شيء ما)، فهذا يعني أننا بدأنا عملية الخلق فوراً انطلاقاً من اللغة. وعليه، يمكننا اعتبار «الكوني» منتجاً نصف مصنع في مصنع اللغة الطبيعي الإلهي يمكن توظيفه في تصنيع أشياء أخرى.

نحن نتحدث عن تصنيفات مختلفة تخلق آفاق إيجابية جديدة يأمل منها أن تقودنا إلى إعادة صياغة الكون وفق مقارنة إستيمولوجية كالتي عبرت عنها حنة أرندت حين قالت إن عالمنا عالم مشترك. والسير في هذا الاتجاه يتطلب منا التوقف عن استعمال عبارات جاهزة مثل التسامح والتنوع الثقافي وحوار الأديان : لا يوجد حوار بين الأديان، مثلما لا يوجد حوار بين الثقافات. إذا أردنا عالما مشتركا كالذي تصبو إليه حنة أرندت، يجب أن نطرح مسألة الثقافة بشكل جدي ومعمق يتجاوز العبارات المسكوكة الرنانة المشار إليها، لأن القرارات التي تغير العالم دائما تكون غاية في البساطة : غاليليو مثلا لم يزد عما قال إن هناك عالما أكثر عقلانية يمكننا معرفته عبر الرياضيات ؛ وكلنا يعلم مدى صحة هذا القرار وفائدته. إذا مرة أخرى، ما هي الثقافة ؟ أنا أجد أنها تعني مراعاة ضعف الضعيف وموت الآخر والحاجة إلى خلق معنى مشترك، أي شيء يجعلنا نقبل العيش المشترك ونقبل عليه. الثقافة بهذا المعنى خليط مركب ومعقد من هذه الأشياء الثلاثة الرئيسية. وبلا شك خلق عالم مشترك بواسطة الكتب يعني طرح تساؤلات حول مسألة تقاسم مشاعر حالة الضعف والموت مع الآخر وإبراز حاجة المرء الملحة إلى سرد قصص تجعله متمسكا بالحياة. وهنا يأتي دور الفنانين والمثقفين والكتاب والسياسيين. وأنا كلي إيمان أننا قادرون على جعل «الكون» مكانا أفضل إذا اعتمدنا على الفاعلين المحايدون المتحررين من قالب وإطار الشرق والغرب.

خالد الزكري

كلامك معقول ؛ من يدري، ربما يساعدنا فهم الكوني والنزعة الكونية على بلوغ فهم أفضل. أستاذة تيفين، ما أهمية سؤال لامركزية المركز في أعمالك ؟ وبالمنااسبة، هذا هو السؤال الذي يطرحه مفكرون هنود يناهضون أفكار هيجل مثل تشاكرا بارتى ديبيش (Chakrabarty Dipesh) صاحب كتاب «لنجعل أوروبا إقليما» (Provincialiser l'Europe) هل هذا سؤال خصباً كفاية كي يولد لنا آفاق تفكير جديدة ؟



تيفين سامويو

نعم، أعتقد ذلك ؛ لكن ربما هذا أيضا قد يعتبره إدريس تصورا انبطاحيا أو مسكونيا بالمعنى المسيحي. أنا ألتمس الحذر في استعمال هذا النوع من الكلمات التي تضمم الجروح بشكل خاطئ وأؤيد ما قيل للتو. بالنسبة لي، حدث الأمر بشكل مختلف قليلا. رغم أنني ولدت وترعرعت بمنطقة كانت مهيمنة فكريا، أدركت توا أن الخطاب العقلاني والفلسفة والفكر السائد لا يعترف بي.

لقد أدركت باكراً أن ضمير «أنا» في الفلسفة لا يشملني كامرأة. رغم كل ما قيل لي من أن ضمير «أنا» الفلسفي محايد في النوع والجنس، كنت موقنة أنه ليس كذلك؛ وأعتقد أنني كنت على حق؛ وكان ذلك يؤلني كثيراً. كنت في سن 15-16 سنة واستشعرت هذا الإجحاف والعنف المعنوي. ونظراً لصغر سني في ذلك الوقت لم يصدقني أحد. عندما فهمت أن الفلسفة تمارس علي نوع من العنف، هاجرت إلى أرض الأدب لأنه المكان الوحيد الذي يواجه فيه المرء الضعف البشري والشعور بموت الآخر. ولهذا أرى أن غاية الأدب الأسمى هي خلق مجال مشترك ومتوازن وسط هذه الفوضى التي تلف عالمنا. بعد أن استوطنت أرض الأدب، انغمست في التدريس وكتابة مقالات تقضح وتندد بالتفكير السلطوي، كما اهتمت بكتاب كثر، كفوكو وبارت، حاولوا بلورة طرق وأساليب غير سلطوية للتدبير بخطاب معين. في رأيي، إذا أردنا وضع قواعد جديدة للكونية أو النزعة الكونية، فافضل ما نستعين به في هذا الباب هو الأدب. وكلكم تعرفون الدور الذي لعبه درويش وكافكا في إعادة استخدام ومعننة هذه المفاهيم. في الحقيقة، أرى أن ازدياد كافكا ببراعته ودرويش بفلسطين قبيل قيام دولة إسرائيل لم يكن سبباً في هذا التوجه؛ لأن سليمان ديان المنتمي إلى بيئة غير متشنجة فعل مثلهما عندما ناقش في أحد كتبه المعاني المختلفة لمصطلح «الكونية» ثم خرج بخلاصة: إذا استعمل مفهوم الكونية في مجال حقوق الإنسان كي تكون حرية التعبير مثلاً حقاً للجميع، فلا مانع من إعادة التفكير فيه ومسأله. وهذا يجعلني متفقة للغاية مع ما قاله إدريس. الوضع ليس وردياً ولا مبشراً. فنحن مازلنا نتعامل مع أحكام مسبقة كثيرة سمعت منها الكثير وسط بعض جماعات المغترين بحكم تنقلاتي الكثيرة؛ لكن يبقى الأمل قائماً بلا شك. هذه محاولة للتفكير بإيجابية من خلال الكتب والمناقشات وليست انبطاحية. لذا، يجب أن نواصل بذل الجهود لإرساء خطاب مشترك متنوع يتجاوز الأفكار العنصرية.

خالد الزكري

تماماً؛ أستاذ حكمت، اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً شخصياً: هل لك أن تحدثنا قليلاً عن تجربتك، من منطلق أن تقاسم التجارب في هذا الموضوع أمر ضروري؟ هل الهجرة واللجوء بالنسبة إليك معارضة أم بحث عن حياة أفضل أم تحول؟ وكيف ترى مساعي لامركزية المركز؟ هل كان التحول سلبياً أم إيجابياً؟ وهل تحدث التحولات دون ضغط أم أن الضغط محفز لا غنى عنه في عملية التحول الإيجابي؟

حكمت شطا

انظر إلى ما تعيشه سوريا: هذا البلد الصغير الذي كان دائماً حديقة خلفية لأحد ما منذ أن أسسه الغرب. ما يحدث لنا الآن وما حدث في السنوات الأخيرة يبين إلى أي مدى تتلاعب القوى الغربية بهذا البلد. كان بإمكاننا تجنب هذه المأساة، ولكن لم يحدث شيء من ذلك. وكما تعلمون، الأبرياء هم فقط من يدفعون كلفة رهانات ومصالح الغرب.

خالد الزكري

سؤال أخير أود طرحه على محمد الفرجاني قبل فتح باب المناقشة. أشرنا آنفاً إلى أهمية البعد الجيو-سياسي: ما رأيك في المسألة كأستاذ للعلوم السياسية؟

محمد شريف فرجاني

كما بين جورج كورم بوضوح، تشكلت فكرة الغرب في سياق الحرب بين العالم الليبرالي بقيادة الولايات المتحدة والعالم الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفييتي. بعد الحرب الباردة، توسعت فكرة الغرب لتشمل أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وبلدان أوروبا غير الشيوعية وكوريا الجنوبية واليابان على اعتبار أنها أصبحت مرادف للحدث والتكنولوجيا.



في أيامنا هذه، أصبحت فكرة الغرب بمعناها ومكوناتها الجديدة نقيض ما نسميه اليوم العالم الثالث أو البلدان المتخلفة. لذا نؤكد أن هذا التصنيف لا يعتمد على رؤية جغرافية للعالم بل رؤيا أيديولوجيا، والدليل هو أن معاني ومكونات مفهومي «الشرق» و«الغرب» يتبدلان من حقبة إلى أخرى. بالتالي، أرى أن مفارقة الشرق والغرب يعترئها نوع من الغموض، وخير مثال على ذلك مؤسسة الشرق والغرب بالرباط، التي لا تفكر في هذا المشروع من منظور معارض، ولكنها تحاول بناء الجسور التي تربط الغرب بالشرق. وهي تتقاسم أهدافها مع جمعية أوروبا الشرق والغرب في تونس. وبالتالي أنا لا أعارض من يرفض كونية مبنية على خصائص ثقافة واحدة مهيمنة، لأنه يفتح أمامنا أفق مشروع جماعي هدفه إنتاج ما يمكننا تسميته «كون» يتلون بكل ألوان الطيف. إذا نجحنا في ذلك فعلا، فحينها يمكننا التحدث عن كونية منفتحة على جميع الثقافات. ويوضح بنجامين باربر في كتابه «الجهاد في مواجهة عالم ماكدونالد» أن ما يسمى العولمة هو في الواقع «ماكدونالدية» العالم. وهو يعتقد أن لا ضرر في مقاومته طالما هذه المقاومة لا تدخل تحت لواء الجهاد بمعناه الموسع. وعلاوة على ذلك، فإنه يحدد أنواع مختلفة من الجهاد كجهاد المحافظين في الولايات المتحدة والمدافعين عن الاستثناء الفرنسي، أو الباسك أو الكاثولونيين... كل المقاومات التي تأسست على الهويات، أو يسميه أمين معلوف الهويات القاتلة، حبيسة هويات متوقعة على ذاتها. من جهته، يتحدث حسن رشيق عن الهويات الضعيفة والهشة العاجزة عن مواجهة الكونية ؛ أي عندما تقبل التلاقح مع الآخر والتطور في إطار التبادل، لا تكون ندا لندا.

أما الهويات التي ترفض الكونية أصلا فهي هويات محسوم في أمرها على أنها هويات قاتلة، ولو بعد حين. المشكلة اليوم هي أننا نشهد ثورة محافظة في جميع أنحاء العالم أوصلت اليمين المتطرف في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إلى السلطة، ومنحت بوتين فرصة تعزيز الهوية الأرثوذكسية عند الروس، كما منحت الحزب الهندي الحاكم فرصة تبني الهوية الهندوسية بصراحة مقابل التخلي عن جميع الهويات الهندية الأخرى. لقد أدرك الجميع أن الطريق نحو فرض هوية واحدة في فضاء متعدد الهويات هو تأسيس الأحزاب والسيطرة على مقاليد السلطة. وهذا يبرر تأسيس أحزاب إسلامية عديدة كالعدالة والتنمية في المغرب، وحزب النهضة في تونس وحزب العدالة والتنمية في تركيا... تتبنى نوعا ما فكر جماعة الإخوان المسلمين في محاولة لإتمام مشروعها السياسي على الصعيد المحلي. هذه هي مشكلة العالمية : يجب التفكير مليا في هذا «الزواج الكاثوليكي» بين الليبرالية والثورة المحافظة التي تتخذ أشكالا وألوانا مختلفة من مجتمع إلى آخر.

خالد الزكري

هذا مجال خصب للنقاش. يمكننا أن نتلاعب بالكلمات كما نريد : إنها دائماً إشكالية إسقاط الكلمات المناسبة على الأشياء باعتبارها فرصة للتفكير في اللغة، لكنها تصبح لعنة، عندما لا نجد الحدود الملائمة لتسمية الأشياء. الكلمة الآن للحضور.

نعمة الجهدي

أتوجه بالسؤال إلى تيفين سامويو وإدريس جعيدان اللذين لا يعترفان بعبارتي «الشرق» و«الغرب» ويرفضان الكونية : كيف نحل مسألة الرغبة في توحيد العالم في إطار الكونية الحالية برفض جميع أشكال الثقافات وكيف أن فكرة النسخ والتطبع لها علاقة وطيدة بالعالمية ؟ إذا اعتبرنا الكونية زيفاً، فما هي مسؤولية الفيلسوف والمثقف وكيف يستطيع مكافحة هذه المتغيرات ومناقشتها دون السقوط في شرك قصوره اللغوي وغياب المصطلحات البديلة ؟ هل نفعل ما فعلتم ونرفض فكرة الكونية ككل : أم يجب علينا، كما اقترح محمد فرجاني، أن ننتقي ونختار ما يناسبنا، ولا نلقي بعرض الحائط كل شيء، كما يقترح الفيلسوف فرانسوا جوليان الذي يعتقد أن المشكلة برمتها ترتبط بتعريف الهوية ؟

هل نحن عندما نحدد الهوية كمخزون ثقافي منظم ونضبط أوجه التشابه والاختلاف مع الآخر نكون قد بدأنا صراعاً بين الحضارات ؟ يشرح فرانسوا جوليان، في كتابه «الهوية الثقافية غير موجودة»، أن الهوية شيء ديناميكي ومتحرك، فوجود ثقافة قائمة بذاتها يفرض عليها وجود ثقافة أخرى مضادة بحكم التأثير الذي يمارسانه على بعضهما. لذلك دعونا لا نحاول تجميدها وخلق صراع بينها بل يمكننا اعتبارها حقلاً خصباً يقتات منه كل واحد كل حسب حاجته. فاللغة هي بمثابة هوية للشخص الذي يتبناها. علاوة على ذلك، يعرف جوليان العالم بمثابة أفق لا يمكنه أن يتكرر على من يفهم خباياه وكيفية التعامل معه ولكن هل يمكن الإلمام بأوجه النقص فيه بصفة دائمة. ما هو موقفك من هذا ؟

تيفين سامويو

في الواقع، هذا سؤال مهم جداً. لا تزال مسألة التبعية صفة لصيقة بالاستعمارية العالمية ويوجد نص خاص من رواية نايبول، «الرجال المقلدين»، الذي يؤكد أن تقليد الشعوب بعضها لبعض هو السر في التبعية الاستعمارية ؛ وهذا أيضاً ما عبر عنه الرائع فرانسوا جوليان في كتابه المميز «لا توجد هوية ثقافية». أيضاً، موضوع آخر يحتل مكانة مميزة في الحوار الذي يجمع بين سليمان ديان وأمسلي هو : نقاش الترجمة كفضاء للبناء والسير إلى الأمام. وقد تمت مناقشة هذه النقطة في مائدة مستديرة أخرى مع الأستاذة بابارا كاسان.

في أحيان كثيرة، تكون الترجمة فضاء إيجابياً للالتقاء والحوار والحركة ؛ لكن ما إن نتعمق فيها حتى نجد مشكلة في الفصل بين الممكن من غير الممكن في الترجمة، ونعني أن ترجمة الحركة والاختلاف بشكل كامل أو أن ترجمة الترجمة مهمة أقرب ما تكون إلى الاستحالة : والنتيجة هي تقوية نزعة الانغلاق. وبالتالي، أميل حالياً لاعتبار سلبيات الترجمة أكثر من إيجابياتها.

مداخلة

قولك هذا يعني أننا في حاجة ماسة للوضوح التام. أعتقد أن هذا تقاطع في الآراء يعبر عليه فرانسوا جوليان بقوله : «نحن نقبل كل ما هو مستعصي وغير قابل للترجمة».

تيفين سامويو

أمسلي قال إنه لا حدود في الترجمة ؟



خالد الزكري

هذا أمر مثير للدهشة لأنك تدافعين عن فكرة الهويات الضعيفة وفي نفس الوقت لا تقبلين كل ما هو مستعصي على الترجمة : لديك شكوك وريبة حول ماهية الترجمة، لكن ربما من الأفضل أن نركز على فكرة الهويات الضعيفة.

إدريس جعيدان

أولا، يجب أن نبتعد عن هذه الرغبة في الكمال. فهناك أشياء لا يمكننا إثارتها أو التحدث عنها ولكن علينا قبولها كما هي بكل بساطة. حفاظا على جسور النقاش، وهذا في حد ذاته ليس فشلا في المناقشة بل حدودا لها، لأن كل موضوع يهم المصلحة العامة يستوجب الاختلاف في الآراء مما يولد نقاشا هادفا ودون حزازات. ومن الواضح أن المصرح به يمكن أن يؤدي إلى إلغاء المحادثة أو وضع حد لها كل حسب فهمه وتحليله الخاص. أما بالنسبة لمسألة الترجمة، فدائما هناك شيء غير قابل للترجمة في كل المجالات : في الأدب والفلسفة مثلا، وكذلك إذا تحدثنا عن معنى «الكيونة الإنسانية» في اللغة العربية نجد أن ليس لها نفس المعنى في اللغة الفرنسية. فلماذا إذا هذا الاختلاف ؟ لا ننسى أن هذه الثقافات تتكون على مر القرون ويصقلها المفكرون حسب ظروفهم وظروف مجتمعاتهم. والسؤال الذي يعيد نفسه بإلحاح هو تحديد معنى كلمة «كائن» بالنسبة لكل شخص، وكيف ينظر إليه المرء، ويتعايش معه، وهل نؤمن بوجوده أم لا ؟ من هنا تبرز الحاجة إلى الخروج من مجال الاحتمالات والاعتراف بانعدام الحدود بيننا، فليس الاختلاف بمثابة جرف عميق لا يمكن تجاوزه، بل هو بمثابة مكان فارغ لا يجب أن نضمحل فيه. وانطلاقا من تجربتي الخاصة أتفق مع ما قالته تيفين حول حاجتنا إلى التفاوض، فهناك تجارب يمكن اعتبارها تجارب ذات قيمة بيداغوجية يمكننا الاستعانة بها. وأذكر هنا «مذكرات» فرانز كافكا، وهو من أصل تشيكي يكتب باللغة الألمانية، وربما يفسر في جزء من عمله، علاقته باليهودية أو مع والده. إنه شخصية مثير للاهتمام : يكتب رسالة إلى أبيه ولا يرسلها، ويستشعرنا أنه مزيج من الإنسانية واللغة والسياسة... ألقت الراحلة باسكال كازانوف كتابا عن كافكا عنوانه «كافكا الغاضب» أوضحت فيه أن كافكا الذي يبدو هادئ للغاية ويؤلف القصص هو في الحقيقة بركان غضب انفجر فأنتج لنا نصوصا غاية في الروعة. المميز في هذه الكتب ليس إخبارنا أن كافكا بركان غضب والبحث في أسباب غضبه، بل البحث المدقق في معاني المصطلحات الموظفة في فهم كيان كافكا وترويدنا بترجمة صادقة لهذا الكيان كإنسان وككاتب في علاقته بالعالم ؟

بحيث يعتبر القارئ، سواء في أحد الأحياء الفقيرة في المغرب أو في إدارة مغربية أو في الحياة اليومية أو في التشيلي أو الولايات المتحدة، كافكا أخوا له في الإنسانية ويؤمن بإمكانية إيجاد من يمكنه اعتباره «أخا مستقبلي» تماماً كما قد يعتبر الفيلسوفة الكبيرة سيمون ويل «أختا مستقبلية». هذا هو السؤال الذي يجب طرحه. وما أنتقده غالباً في عدة دراسات هو أننا نحاول أن نصلح المشكلة وننسى المعنى العميق للأشياء التي يجب أن تدرج تحتها. ما الذي يوجد في عمل كافكا، أو في شخص كافكا نفسه، بحيث تجعل من تجربته شيئاً حياً وما زال بوسعنا مشاركته طيلة أزمنة قادمة؟ أعني أنه بإمكاننا قضاء وقت ممتع معه وقد سبق لي أن فعلت ذلك لما قلت في ورشة لي مع الأطفال الجملة التالية: «في صباح أحد الأيام، استيقظ رشيد بعد تحوله إلى صرصور ضخمة» من روايته المسخ. وقد كان الأطفال مسرورين للغاية، كما أدركوا أن فيهم شيء ما من شخصية غريغور سامسا بطل الرواية.

ليس المهم أن نعرف ما إذا كانت كلمة أو تترجم بعبارة حشرة كبيرة أم بعبارة أخرى. الأطفال لم يولوا هذه التفاصيل الترجمية أية أهمية، لأنهم كانوا مسحورين بغرائبية موقف سامسا الذي يستيقظ في صباح أحد الأيام ليجد نفسه في جسد صرصار ولا يفكر مع ذلك في أي شيء آخر سوى كيفية العودة إلى عمله. هذه كانت بحق حيرة الشباب ما بين 12 و15 سنة، وعندما تعمقت في التفكير، وجدت ظهور هذه العبقورية الرائعة مع حلول القرن العشرين، والحادي والعشرون والثاني والعشرون، وهذا ما أسميه تجربة أساسية وعميقة لتصورات الأجيال. أعتقد أن ما أسميه «كون» هو إعادة أبدية: بحثنا عن شيء نمناه بعداً وجودياً، شيء يصدر عن ذات نريد إعادة ترجمتها بلغة صادقة بحيث تتجاوز ما أنتجت تلك الذات إلى أعماق وتفاصيل الذات نفسها وجعلها هي عينها مصدر إلهام متواصل متعالي عن الحدود والتصنيفات كيفما كانت. وهذا ما أسميه إعادة الترجمة وليست بالضرورة ترجمة له.

خالد الزكري

شكراً لإدريس على هذا التوضيح، هذا ما يمكن تسميته إعادة زرع حياة جديدة في المبدع وما أبدع على حد السواء. نحن نرى ذلك في تجربة الترجمات. يمكنني أخذ مثالين من مصر. الأول هو مصطفى المنفلوطي، كاتب ترك بصمته على جيل كامل. أما الآن، فبالكاد نتحدث عن ذلك. لم يكن يتقن اللغة الفرنسية، لذلك استعان بشخص من أجل قراءة النصوص عليه وهو أعاد صياغتها من خلال إعادةتها إلى الحياة وإسقاطها في قالب جديد على الحياة المصرية. ولاقى نجاحاً كبيراً للغاية. والثاني هو العقاد، الذي كان على معرفة ممتازة باللغة الإنجليزية وترجم العديد من النصوص إلى الإنجليزية، دون نجاح يذكر في مصر. إذا، هل دقة إتقان اللغة هي ضمان الترجمة الصادقة الفعالة؟ أعتقد أن خطورة الترجمة في أن تحني لغة أمام أخرى. يجب على اللغة أن تعيد صياغة نفسها بشكل دائم داخلياً وفي ارتباط باللغات الأخرى.

تيفين سامويو

من المهم أن تكون عندنا الترجمة الأدبية لأن لغتها مختلفة عن اللغة ذات الطابع الجيوسياسي. يجب ألا ننسى أن هناك تسلسل هرمي للغات وعدم المساواة بينها، وأننا لا نستطيع أن نوجد فيما بينها بسهولة كما نعتقد. لذا حضور الأدب يجعل ذلك ممكناً، لكن الترجمة في وقتنا تهدف أساساً إلى تحقيق مبدأ التوحيد لأن كل برامج الترجمة الآلية تهدف إلى توحيد اللغة تماماً لتكون قادرة على بيع المنتج نفسه في كل مكان.

مداخلة

أتمنى من الأستاذات والأساتذة الكرام أن يأخذوني بحلمهم من حيث أنني متابع عادي يستزيدكم علماً فيما استعصى عليه فهمه. الذي فهمته ثلاثة أشياء: أولاً، مصطلحي الغرب والشرق أيديولوجيا؛ وأنا شخصياً ملتزم بجدلية المتطور والمتخلف.

ثانيا، هناك إجماع - كما قال إدريس وباقي الأساتذة - على ضرورة توخي الحذر في تعاملنا مع فكرة الكونية، لأنها، من حيث هي مخزن قيم وأفكار معينة، قد تكون سلاحا في يد الثقافة المهيمنة تخضع به ما عداها من ثقافات وشعوب العالم ؛ وأنا أتفق مع هذه الفكرة. ثالثا، نحن نتحرك نحو الصالح العام ونحو أفق متطور هو إعادة ابتكار دائمة تلتزم فيها الشعوب والأفراد بالتعاون طيلة حياتهم. وهذا أتفق معه أيضا : أفق مشترك في التقدم، تحول دائم لكل شخص ؛ هذا ما يجب أن يحدث ؛ وهذا ما ألتزم به في حياتي أيضا. المسألة الرابعة التي أريد التحدث فيها لإشكالها علي بعض الشيء تمت إثارتها من الأستاذة سامويو ومجموعة من الفلاسفة الفرنسيين وحتى بعض الأصدقاء الذين يقولون لي مرارا : «عليك أن تستوعب أن الفرق الحقيقي ليس التمييز بين أبيض وأسود ومسلم ومسيحي؛ بل الفرق الحقيقي والوحيد أيضا، هو الذي نراه بين النساء والرجال». أعجبتني فكرة التطور الذي نفكر فيه جميعا، لأنه يخدم بطريقة أو بأخرى الصالح العام، قصص فردية تجمع رجلا بامرأة أو امرأة برجل والسعي إلى التطور وبناء مستقبل مشترك. أنا أحب هذه الفكرة لأن التصنيف «رجال ونساء» هو أكثر أهمية من «غرب وشرق» أو «سود وببيض» لأنه حقيقة موضوعية من الطبيعة لا أيديولوجيا فيها.

مداخلة

تحدثت عن اللغة ؛ ويبدو لي أنها تعبر عن مساعي توظيف الواقع وتحولاته بهدف فرض رؤيا جديدة للعالم، بغض النظر عن كونها رؤيا كونية أو شيء آخر وبغض النظر عن كون المثقف تقبلها أم رفضها. والدليل على ذلك هو أن العديد من مثقفي الشرق تكونوا في الغرب. لقد تحدثوا لغة الغرب وبشروا بالكونية في نصوصهم الفلسفية والأدبية الكثيرة التي كتبت ونشرت هناك. لكن هؤلاء مروا في مرحلة متأخرة من حال البحث عن النجاح إلى مرحلة طرح الأسئلة ووعي العالم والوجود. من بينهم المصري زكي نجيب محمود الذي عاش في إنجلترا حتى السبعينيات وألف كتابه «تجديد الفكر العربي» بعد التخرج من أكسفورد حيث يدرس. بدأ هذا الوضع سنة 1930 ومازال مستمرا حتى الآن. هذا الوضع عاشه بقوة الجيلين الأول والثاني من المفكرين والكتاب الذين تركوا كتابات تعكس حالة الفشل والهزيمة وتسجل أسئلة كثيرة تبدأ باللغة أولا. لقد تحدثوا عن الثقافة والمثاقفة وقبله الاغتراب ثم مزيج من الثقافة والاغتراب وأشياء أخرى. كلنا ضحايا لهذا الوضع التائه. أعتقد أن المثقف لم يفعل شيئا ؛ صحيح أنه كتب، لكن ماذا قدم من حلول ؟ هل يجب على المثقف أن يتخطى السياسة إلى ما هو أبعد ؟ أم عليه التزام الهدوء وقبول الوضع الراهن ؟

مداخلة

أستاذة سامويو، هل تعتقدين أن فكرة الكونية، كما فرضها الغرب منذ قرون الآن - استولت عليها الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية - ستغير مركزها، وبالتالي تكتسب معاني ودلالات جديدة في ظل صعود قوى اقتصادية جديدة كالصين وروسيا ؛ فكما تعلمون، القواعد والقوانين يحددها القوي دائما ؟

تيفين سامويو

أنت على حق. هذا هو السبب الذي جعلنا نعطي الانطباع برفضنا التام لفكرة الكونية لأنها مرتبطة بشكل وثيق بالإمبريالية. في الواقع، لقد صدمت كثيرا من إنكار الأستاذ شطا وجود الشرق والغرب، ثم استعماله عبارة «القوى الغربية» عند حديثه عن ما وقع بسوريا. هنا فقط يصبح للعبارة معنى، لأننا بصدد حقيقتها المختفية المتمثلة في الإمبريالية ؛ وأنا أتفق معه على استعمالها في هذا السياق بهذا المعنى الذي ذكرت. وبالتالي، سواء انتقلنا من هذه الكونية إلى كونية بودية أو كونفوشيوسية أو ما شئت، فنحن لم نغير شيء في حقيقة الأمر، لأننا سنبقى أمام كونية قائمة على الهيمنة والإقصاء. مشكلة الكونية في بحثها عن التوحيد والقضاء على الاختلاف والتنوع بالقوة أو بالاقتصاد، ومن هنا خطورتها ورفضنا لها.

محمد شريف فرجاني

في بعض الأحيان، من الأفضل تعليق المناقشة واستئنافها لاحقاً كي نضمن استمرارية العيش المشترك. هذا الموقف عبر عنه فيلم وثائقي إيراني أريد أن أحكي لكم قصته بسرعة : يصور المخرج مع بعض الملالي ويعيش معهم. لكن هؤلاء عبروا له في الفيلم عن رفضهم إياه كغربي غريب عن الثقافة الإيرانية، فأجاب بأنهم جميعاً إيرانيون وأنهم مجبرون على العيش معاً. عاش معهم مدة أسبوع في نفس المنزل يتحدثون ويتناقشون ؛ لكنه أحس في لحظة أن المناقشة بدأت تدخل نفقا مظلماً، فغير الموضوع. حظيت بفرصة تقديم هذا الفيلم ؛ وعندما سألت المخرج لماذا أعطانا انطباعات مفاده أن الملالي كانوا على حق، أجاب أنه رأى بوضوح أن هناك حدوداً للنقاش إذا تم تجاوزها فقد تكون النتيجة القطيعة أو حتى المواجهة. وأضاف أنه يفضل تغيير الموضوع لأن المواضيع كثيرة ولا تقتصر على موضوع واحد فقط. أما بالنسبة للتصنيف «رجال ونساء» الذي وصف بالطبيعي والموضوعي، فأنا في شك منه مريب. هل نتذكرون ما حدث لأوليمب دو غوج عندما كتبت إعلان حقوق المرأة ؟ هل تعرف ما حدث لها مع الثوريين الفرنسيين الذين كانوا يتحدثون عن الحقوق الكونية للجميع إلا النساء ؟ لطالما وضعنا مقابلة لا تقبل الاختزال بين الرجل والمرأة والكبير والصغير والأجيال فيما بينها : «لا يمكنك فهمي، أنت كبير وأنا شاب، أو العكس». علينا أن نبذل جهداً كبيراً يومياً في سبيل التغلب على هذه التصنيفات والفئات الكثيرة التي أصبحت تملأ حياتنا. وإذا أردنا تحديد مشكلة المقابلة بين الرجال والنساء بدقة أكبر فعلى القول : إنها الرؤية الاستبدادية للرجال. إذا أعاد الرجال النظر في هيمنتهم، وقبلوا معاملة المرأة على قدم المساواة في كل شيء، بما في ذلك المشاركة الحقيقية في الحياة اللاهوتية وتفسير النصوص والحياة السياسية... أعتقد أنه يمكن للمرء الوصول إلى أبعد الحدود بين «الكائنات البشرية» : أنا أفضل هذه العبارة لأن عبارات أخرى أبرزها عبارة «الرجل» التي نوظفها في عبارات مثل «الرجل الأوروبي» لدلالة على كل الأوروبيين، وعبارة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ساهمت في استبعاد النساء لقرون.

خالد الزكري

لهذا تعتبر أفكار فرانسوا جوليان في هذا الباب مهمة للغاية ؛ فهي، في نفس الوقت، تفتح عيوننا على تصنيفات يكون صعب الانتباه إليها، وتعتبر عن موقف واضح من مفاهيم المشترك والموحد والكونية. يضع جوليان فصلاً تاماً بين الكونية والموحد، رغم أن الحدود ليست واضحة للكثيرين : هناك انسياب من طرف إلى آخر، وهذا يصعب التقاط الفرق القائم.

إدريس جعيدان

يقول جيل دولوز حول المقابلة «ذكور-إناث» : «الفرق الحقيقي هو الفرق بين الرجل والمرأة». وهو ليس مخطئاً ؛ في نفس الوقت، كلمة «الفرق» ليست كلمة كبيرة وقوية ؛ لأن مفكر مثل دريدا يرى في غياب الاختلاف إلغاء للنص والكتابة. وبالتالي، هناك أشياء يجب القيام بها مرة أخرى في إطار مساءلة وإعادة تشكيل الكونية. هناك كتب مراسلات قيمة حول المرأة يمكننا إعادة صياغتها والاستفادة منها في هذا الباب ككتب غيثة الخياط والخطيب. أحد هذه الكتب سيصدر قريباً ؛ إنه كتاب مشترك بين صديقين ؛ وأنا أرى أن من الجيد حقاً أن يكتب الرجال عن النساء المختلفون أي نوع من الاختلاف الإيجابي الذي قد تتصورونه، لأن هذا الاختلاف لا يقودنا في مجال الكتابة إلى المشترك.

خالد الزكري

شكراً لكم جميعاً ولنواصل المغامرة !

المشرق والمغرب الكبير : بين الآنأ والآخر

رئيسة الجلسة : ثريا ماجدولين
المشاركون : حبيب السالمي، هدى بركات، محمد الأشعري
فضاء : سيمون ليفي
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 15 : 11 - 12 : 45



موجز مداخلات المائدة المستديرة

افتتحت الشاعرة والكاتبة والأستاذة الجامعية المغربية ثريا ماجدولين هذه المائدة المستديرة بالتأكيد على قدم إشكالية العلاقة بين المشرق والمغرب، مبينة أن طبيعتها شهدت بعض التغييرات في ظل حالة من الانفتاح المتبادل وتشكل عدد من قنوات التبادل والتواصل. وفي نفس السياق، أكدت أن التحدي الحقيقي حاضرا ومستقبلا هو معرفة ما إذا كان التصور القديم الذي جعل المغرب الكبير خاضعا وتابعا ثقافيا للمشرق مازال قائما، خاصة أن انبهار المغرب بالمشرق مازال مستمرا حتى الآن. ولقد حاولت ثلة من الكتاب المحدثين تجاوز واقع الجغرافيا الثقافية العربية ومن بين هؤلاء كتاب أصولهم عربية يعيشون في المغرب، كالتونسي الحبيب السالمي الذي يكتب باللغة العربية. كما أكد أن الكتاب المغاربة حاضرون في المشرق، ويواجهون صعوبات في النشر تحد من انتشار كتاباتهم. أكثر من ذلك، قال إن من غير المفيد معرفة ما إذا كان المشرق يؤثر في المغرب أم العكس.

بينت هدى بركات، الروائية اللبنانية المقيمة بباريس والحاصلة على جوائز عدة، كيف أن اختيارها الكتابة باللغة العربية يمنعها رغم كل شيء من توسيع قاعدتها الجماهيرية، علما أن صناعة الطباعة والنشر والإعلام في فرنسا يوليئها اهتماما معتبرا، حسب قولها. وهي ترى أن لحظتنا التاريخية تتسم بالانفتاح على كتاب العالم العربي ككل والمغرب الكبير والمشرق الذين نشؤوا خارج بلدانهم الأصلية كما أنهم يكتبون بلغات مختلفة، بما فيها لغات بلدان الاستقبال. ومن ناحية أخرى، اعتبرت الأستاذة أن بلدان الخليج لا تروج للغة العربية بالقدر الكافي. وهذا يعني أن السبيل الوحيد أمام الكتاب الناطقين بالعربية نحو الانتشار هو الترجمة ؛ وهذا السبيل بدوره لا يمكن النجاح فيه إلا بإرادة قوية ودعم من دور الطباعة والنشر. واعتبرت بركات أن لا أحد يدافع بجدية على اللغة العربية مما يترك مجالا فسيحا للإسلاميين فقط للقيام بهذه المهمة، معتبرة الأمر محبطا ومؤسفا. ومن جانبها، أكدت المسيرة أن تحديات الثقافة العربية أصبحت تتخذ أشكالا وتظاهرات مختلفة سمتها الأساسية هي التنوع الثقافي ؛ وهذا يحدث في المشرق كما في المغرب.



أما محمد الأشعري، وزير الثقافة السابق والكاتب والشاعر والروائي المغربي والذي يكتب أيضا باللغة العربية، فيرى أن العالم اليوم يفرض جغرافيات جديدة، وإنه من الضروري دراسة ثنائية المشرق-المغرب وفق مقاربة جديدة ومختلفة عما سبق تجريبه. وبالنسبة إليه، تطلعننا جميعا إلى نفس الأفق مشروط بلغة عربية حديثة هي الآن لغة موحدة، رغم حالة الفشل العامة التي يتصدرها الفشل السياسي، تكون نقطة البداية في مسار بناء عالم ثقافي عربي. وبالتالي يمكن تجاوز حالة الجمود السائدة، أولا بتحررنا من عقدة طلب الاعتراف من الغرب وبتحمل كتابنا مسؤولية الكتابة باللغة العربية، التي يعبرون من خلالها عن أصالتهم والتي تضيف على كتاباتهم رونقا وبهاء لا نظير له. وبدورها، أكدت الكاتبة العراقية هيفاء زنكنة على إشكالية النشر التي تشكل عائقا أمام تطور كتاب اللغة العربية، وذكرت بأن من بديهيات ممارسة اللغة التحدث بها كلما سنحت الفرصة، كما هو الحال بهذا المعرض مثلا.

مداخلات المائدة المستديرة

ثريا ماجدولين

سعيدة بوجودي معكم في هذه المدينة الصامدة ويشرفني إدارة هذه الندوة العلمية القيمة التي تجمع كتابا وأساتذة نعتز بحضورهم في الساحة العربية والدولية. دعوني أرحب بداية بالسيدة هدى بركات من لبنان والسادة حبيب السالمي من تونس ومحمد الأشعري من المغرب ونتأسف لعدم تمكن الكاتب والروائي السوري ممدوح عزام من الحضور بيننا. هذه الندوة تدور حول إشكالية العلاقة الملتبسة بين المشرق والمغرب. وسؤال العلاقة بين المشرق والمغرب، ليس جديدا كما تعرفون ولم يعد يطرح بالحدة نفسها التي كانت في السابق، لأن الحوار والتواصل الثقافيين بين المثقفين والكتاب في المغرب والمشرق ظلا قائمين ومفتوحين، بل ونلاحظ في السنوات الأخيرة أنهما تطورا كثيرا بفضل وسائل الاتصال العابرة للجغرافيات. وبفضل انفتاح المشرق والمغرب معا على بعضهما البعض في المهرجانات والمعارض واللقاءات الثقافية التي تعتبر، كما نعرف، من أهم قنوات التواصل والتعارف والحوار وهذا من شأنه، طبعاً، ردم الهوة بين المشرق والمغرب انطلاقاً من كون العلاقة بينهما محكومة بحتمية الاتصال وبحتمية التواصل وبناء علاقات متنوعة ومستمرة. نحن معا، مشاركة ومغاربة، بحاجة إلى تغليب الأهداف والغايات الثقافية التي تخدم الثقافة العربية ككل. طرح هذا الموضوع الآن، هو من باب تجديد الرؤية إلى هذه العلاقة الجدلية، والتوقف عند حصيلة هذا الانفتاح الجديد، ومعرفة ما إذا كانت النظرة القديمة التي أعطت للمشرق دور المركز الثقافي، وجعلت المغرب الكبير في الهامش. هل ما زالت تلك النظرة مسيطرة على المنظومة الثقافية العربية الآن، والتي كانت قد أثارت لدى البعض التباساً وسوء فهم أحيانا ؟

كلنا نتذكر ذلك الحوار المثير بين المفكر المغربي محمد عابد الجابري والمفكر المصري حسن حنفي في موضوع حوار المشرق والمغرب، نفس الجدل دفع أحد الرواد المغاربة آنذاك، وهو الكاتب عبد الله كنون إلى كتابة مؤلفه الشهير، «النبوغ المغربي في الأدب العربي». المشرق كان حاضراً باستمرار في الذاكرة الثقافية المغاربية، ورافداً أساسياً لها، وأحد المثيرات الأساسية للمتلخيل الجماعي المغاربي، بحيث شكل مرجعاً للوصف والتخيل، وحداً بمجموعة من الروائيين المغاربة إلى ابتداء حكايات حاولت استثمار الفتنة المشرقية، كما ساهم في ذلك اقتران المشرق في ذهن المغاربة بالقضايا الكبرى وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

كان المشرق مهيماً برموزه الثقافية أيضاً، حتى أن الأطروحات الجامعية المغربية ظلت، إلى وقت قريب، تنكب عن الأدب المشرقي وتتنظر إلى الأدب المغاربي كأدب من الدرجة الثانية، قبل أن يستدرك الباحثون هذا الأمر في السنوات الأخيرة، ليجدوا أن المشرق لا يكاد يعرف عن دول المغرب الكبير ثقافياً إلا النذر القليل. ومعلوم أن العلاقة بين الأنا والآخر هي الخيط الناسج للنص الإبداعي والمنجز في صيغة جمالية معينة، قد تكون رواية أو رحلة أو شعراً أو سينما، وتساهم في نقل صورة الآخر والتعريف به، بل إن الأدب من أهم المصادر الناقلة لصورة الشعوب والمجتمعات، نجد مثلاً أن العديد من الحكايات السردية المغاربية، جسدت هذا الانجذاب إلى المشرق، أذكر هنا رواية «القاهرة تبوح بأسرارها» لعبد الكريم غلاب و«رفقة السلاح والقمر» لمبارك ربيع و«النار والاختيار» لخنانة بنونة ورواية «المصري» لمحمد أنقار، «مثل صيف لن يتكرر» لمحمد برادة، وغيرها كثير، فكيف يحضر المغرب في حكايات المشاركة وكيف تحضر تونس والجزائر وليبيا وموريتانيا من المغرب العربي في الأدب المشرقي ؟

أسئلة وطيدة الصلة بمفهوم الغيرية، نجتمع حولها في هذه الندوة ونتطلع عبرها عن حالات الانطباق والتناظر بين الآخر والصورة المقترحة له وضبط وضعيات الآخر في الخطاب الثنائي المبني على الأنا والآخر الغير.

أيها الحضور الكريم، فنانون وعلماء وشعراء وروائيون أنتجوا أعمالا هي جزء من هذه التقاطعات الناجمة عن ثنائية مشرق-مغرب، تجاوزت الجغرافيا، لتقيم في الثقافة وفي الوجدان الإنساني. هذا ما سوف نتوقف عنده اليوم مع ضيوف هذه الندوة. بداية أتوجه إلى الأستاذ حبيب السالمي من تونس، وهو كاتب وروائي تونسي مقيم في باريس منذ سنة 1985. يعيش السالمي أيضا تقاطعا من نوع آخر، بين ثقافتين، الشرقية والغربية (l'orient et l'occident) بين تونس وباريس، المكان الذي اختاره للعيش دون أن يتخلّى عن الحكى عن واقع تونس وعن الكتابة باللغة العربية، فهو يكتب في باريس وينشر في المشرق العربي وفي كبريات دور النشر الغربية، تترجم رواياته إلى عدة لغات أجنبية. لديه أعمال روائية كثيرة أذكر منها : «روائع ماري كلير» الصادرة سنة 2008 وهي رواية تشكل فعلا نموذجا لهذا التقاطع بين ثقافتين الشرق والغرب، أذكر أيضا رواية «النساء البساتين» سنة 2010 ورواية «البكارة». الأستاذ حبيب السالمي، الثقافة المغاربية منفتحة أكثر على الثقافة المشرقية ومستعدة لاستقبالها فما الذي يمنع إذا دول المغرب الكبير من التأثير القوي على المشرق ليكون التبادل والتأثير متوازنا ؟ لكم الكلمة.



حبيب السالمي

لا أدري لماذا نحاول أن يكون للأدب المغاربي تأثير على المشرق أو العكس، للأدب المشرقي تأثير على المغرب. شخصا، أنا لا أطرح المسألة من الخارج هكذا. هناك بلدان عربية تتكلم لغة واحدة، وهذا من حظنا، أتحدث طبعا عن اللغة العربية الفصحى، وعلاقة الشرق بالغرب كما ذكرت منذ حين هو موضوع قديم، قديم-جديد، ولكن أعتقد... لنترك الماضي فلنتحدث عن... منذ 20 سنة، نعتقد أن المسافات قد تقلصت بين المشرق والمغرب، على مستوى الأدب طبعا، هناك كتاب مغاربة أصبح لهم حضور منذ سنوات، دون البحث عن التأثير أو اللاتأثير، صار لهم حضور حقيقي في بلدان المشرق العربي، لكن كيف ؟ لنكن صرحاء، تتعلق المسألة أيضا بالنشر.

في السبعينات، بدأ الكتاب المغاربة ينتبهون للأمر، كانوا في البداية ربما محليين إلى حد ما، لا أتحدث هنا عن النصوص، أتحدث عن العلاقة بالمشرق، كانوا ينشرون في بلدانهم، لكن منذ السبعينات بدأنا نهتم، نحن المغاربة، بنشر أعمالنا في المشرق العربي، لأن دور النشر الكبرى موجودة في المشرق العربي وتحديدا في لبنان، أحببنا أم كرهنا، ويعود ذلك لأسباب تاريخية معروفة، حيث بدأت الطباعة العربية، أيضا لأسباب تاريخية-دينية، لترجمة الإنجيل، أي أن الموضوع طويل-عريض وأغلبنا يعرفه. كانت هناك محاولات، جادة نذكر منها، بما أننا في المغرب مثلا محمد زفزاف الذي انتبه إلى هذه النقطة وطبعا محمد زفزاف، لا أحد ينكر قيمته، كما أحبه كثيرا وأحب أعماله وقرأت له، حتى كانت لي صداقة معه.

كنت أدير مجلة في باريس اسمها المقدمة، وقد أرسل لي رسائله مع يوسف الخال، وهو الذي نشر له إحدى رواياته الأولى «المرأة والوردة» إذا لم تخني الذاكرة، لدي رسائل لحد الآن بخط محمد زفزاف، لأنه كنا قد نشرنا في هذه المجلة، هذا الحوار الجميل بينه وبين يوسف الخال، ثم نشرت الرواية. نبقي في المغرب دائماً وأذكر مثالا آخر - إذ توجد اختلافات داخل المغرب العربي في رأيي أن المغرب الأقصى كان أكثر انتباها من تونس لهذا الموضوع الهام - وهو الصديق محمد برادة الذي نشر مجموعته القصصية الأولى «سلخ الجلد» في بيروت، في إحدى كبريات دور النشر آنذاك، من النادر أن ينشر الإنسان في دار الآداب، هذا اللقاء الجميل تواصل وأعتقد أنه في جيلي أنا، بلغ مرحلة متقدمة جدا، نجد الآن مثلاً، سواء في المغرب أو في الجزائر أو في تونس، عدداً من الكتاب الذين نشرت لهم أعمال كثيرة في دور عربية كبرى في بيروت أو في القاهرة وخاصة بيروت وأضع تحتها خطين، لأن المسألة تهم التوزيع أيضاً، طبعاً أصبح لهؤلاء الكتاب قراء واكتسبوا شهرة، سواء أعجبنا بهم أم لا، وذلك موضوع آخر، أعتقد أنني أنظر إلى الجانب الإيجابي أكثر، ولكن من ناحية أخرى يوجد سوء تفاهم، بل واختلافات أحيانا داخل البلد نفسه، مثلاً بين جنوب تونس وشمالها. فمن الطبيعي جداً وجود اختلافات، العالم العربي عبارة عن قارة ويطلق عليه الفرنسيون العالم العربي (le monde arabe) حيث تتعايش فيه عدة لغات وعدة إثنيات وعدة ثقافات مما يفتح المجال لسوء التفاهم. وبالنسبة لي، يجب أن نوظف وأن نشغل على هذا الأخير كمبدعين لكي نخلق منه شيئاً ما. هذه أرضية إجابة وربما هناك أسئلة أخرى من القاعة.



ثريا ماجدولين

شكراً جزيلاً الأستاذ حبيب السالمي، أنتقل مباشرة إلى السيدة هدى بركات، روائية لبنانية مقيمة في باريس أيضاً منذ 1989، نالت جوائز عديدة عن أعمالها الروائية، منها جائزة نجيب محفوظ عن روايتها «حارث المياه» كتبها سنة 1998، وجائزة الناقد عن روايتها «حجر الضحك» وكتبها سنة 1990. وفي سنة 2008 منحتها الحكومة الفرنسية وسام الاستحقاق من درجة فارس. كما فازت مؤخراً بجائزة «العويس» في دورتها الخامسة عشر سنة 2017 عن مجموع أعمالها. هدى بركات، عملت أيضاً لسنوات عدة، كمديرة لراديو الشرق في باريس. كتبت باللغة العربية، وترجمت أعمالها الروائية إلى لغات عدة، إضافة إلى «حجر الضحك» و«حارث المياه» أذكر أيضاً من أعمالها «أهل الهوى»، «سيدي وحبيب»، «ملوك هذه الأرض»، «رسائل الغريبة»، و«بريد الليل» الذي صدر سنة 2017 عن دار الآداب. السيدة هدى بركات، هل يمكن اعتبار الكتابة، كائناتنا ذا أجنحة، يجوب العالم دون حدود، ودون اعتراف بالجغرافيات والهويات واللغات ؟ لك الكلمة مشكورة.

هدى بركات

شكرا ثريا، شكرا للذين دعوني إلى وجدة، لأنه منذ سنوات قليلة كنت قد اتخذت قرارا بعدم حضور أي مؤتمر في بلاد عربية لأسباب يمكن تخيلها بسهولة. وما يهم الآن هو تلبية لدعوات الحضور إلى دول عربية لأنني أحاول التعرف من جديد إلى من توقفت عن الرغبة في التعرف إليهم. فشكرا لثريا ماجدولين لأن الأسئلة التي طرحها، أسئلة غاية في الأهمية، فعلا. وكرد شبه مباشر على سؤالك، أعتقد أن هناك حدود طبعاً وعقبات أيضاً بين المشاركة والمغاربة فالحكاية معقدة ولا تستطيع أن تستقل بأجنحتها لتعبر السماء العربية لأنه لا توجد سماء عربية : سواء من حيث توزيع الكتاب ولا من حيث أهميته. بالنسبة للمشاركة والمغاربة، فإن الموضوع معقد وطويل، كما أتمنى أن أجيب باقتضاب من وجهة نظر مختصرة جدا، المسألة بين المشاركة والمغاربة، كما عايشتها، هي مسألة لغة. هل تكتب باللغة العربية، إن كنت مشرقيا أم مغربيا ؟ أم هل تكتب باللغة الفرنسية ؟ أي هل أنت فرانكفوني ؟

كان في بدايات العلاقة مع الغرب اضطراب العبور لفرنسا، يعني مثلا، يتم سؤالي باستمرار بمجرد أن يصدر لي كتاب مترجم إلى الفرنسية : هل تجيدين اللغتين ؟ هل تكتبين بالفرنسية ؟ إذ أنك ستقضين حياتك في الهامش، وأنا أعلم لماذا سأبقى في الهامش، وذلك اختياري. لأنني كتبت بالفرنسية حين طلب مني ذلك أي كتابة تحت الطلب ومدفوعة الأجر، تعد تلك حكاية طويلة ومعقدة. بدأت أتعامل مع الكتاب ذوي التعبير باللغة الفرنسية، وكان أغلبهم مغاربة.

في حين - نحن المشاركة - مهما علا شأننا لا ندخل السوق الفرنسية، إذ توجد سيطرة فكرة فرانكفونية مفادها أن أي شيء مهم، متحرر، جديد ويستحق الترجمة أو ولوج السوق الغربية يجب أن يكتب بالفرنسية. روج الفرانكفونيون لهذه الفكرة، وما زالوا يدعون حتى الآن بأن اللغة العربية لغة ميتة يحكمها المقدس، فبالنتالي لا تستطيع أن تكون لغة حديثة أو جريئة، فقد عايشنا هذه الفكرة قبل أن نكتب وقبل أن ننشر، يعني السؤال المستمر لبعض من يكتب حاليا من الكتاب والكاينات على الأخص المغاربة بالفرنسية، لها سوق، ولي سوق مختلفة تماما، تملك إمكانيات في التوزيع والنشر والتغطية الصحفية والنقدية والابتهاال بكمية مواهب قد لا أصل إلى 10% مما قد يكون لها. فالمشكلة إذا إن كنت مشرقيا أو مغربيا، إن كنت ليلي سليمانني أو أمين معلوف، فالطريق مفتوح أما بالنسبة لي أو حبيب السالمي فالطريق ليست كذلك كيف ما كانت كتاباتنا.

هل يتعلق هذا، عطفاً على الندوة السابقة، بقصة هيمنة الشرق أو الغرب. ؟ سوف يعيدنا ذلك إلى الكلام مرة أخرى عن مسؤولياتنا كعرب، من يعمل على تقديم اللغة العربية بشكل محترم ؟ لا أحد. أولا ليس هناك دول ذات مؤسسات تدافع عن اللغة العربية، ولا بأي شكل من الأشكال وهي سعيدة بتصدير منتجاتها، بلغات أخرى، وفخورة بذلك، الآن هناك أجيال من المغاربة والمشاركة من الذين تركوا بلدانهم وهم صغار السن، يكتبون مباشرة بالانجليزية، بالتركية...، ويلجئون أسواق العالم دون التدقيق في ما إذا كانوا مشرقين أو مغربيين أو غير ذلك، بينما المؤسسات التي تمتلك الأموال، مثل دول الخليج، لا توظف في اللغة العربية، بل وأكثر من ذلك لا توظف عربا، حتى لو كنت كاتباً أو موظفاً أو مثقفاً مؤهلاً، فيمكن أن تكون خبيراً في أكبر مؤسسات العالم، لكن الخليج لا يوظفك، لأنه يخاف منك.

حسناً، إذا كانت الأموال هناك، والسيطرة على الأسواق في مكان آخر، فلن يعود هناك فارق فعلاً بين المشرق والمغرب إلا من حيث لغة الكتابة. يعني، لو حبيب السالمي كتب باللغة الفرنسية، كان سيلقى معاملة أخرى، أنا كذلك، ولو اعتبر نفسي محظوظة فكما ذكرت ثريا، فقد حصلت على جوائز من فرنسا مرتين، ولا زلت أجهل لماذا، حتى إنني ظننتها مزحة في بداية الأمر من إحدى صديقاتي، كما أن الصحافة الفرنسية تغطيني بشكل ممتاز، ويخصص لي عالم الكتاب صفحة كاملة، وهي الصفحة الأولى وكتبي تنزل في الموسم... إلخ، لكنني أعرف مكان الخل، ولماذا هناك عطب، إذ حالياً ودون الخوض في الماضي مسألة تسويق.

يجري منذ أيام مؤتمر للدول الفرنكفونية، لا أدري إن كنتم على اطلاع بهذه المسألة، وإلى أي حد تعد سوقا للبلدان الناشئة، أو امتدادا السلطة السياسية الفرنسية التي تسعى إلى إيجاد أسواق. لم تعد الفرنكفونية تعنى بالأمكنة التي لا توجد فيها أسواق حقيقية، مثلا هناك معرض للكتاب الفرنكفوني في بيروت هذه السنة، بالتوازي مع مؤتمر الفرنكفونية، لم تهتم فرنسا بدعوة الكتاب المترجمين إلى الفرنسية، ولا الذين يكتبون باللغة الفرنسية، يعني تخلت عن لبنان، لماذا، علما بأن «لبنان الكبير» أسسته فرنسا، وهناك دعم... إلخ، حقيقة هذه المسألة، صارت فضيحة، بمعنى أن الفرنكفونية أو الكتاب الفرنكفونيين، أنا لا أعارض على أي أحد يكتب باللغة التي يريد، أنا أتكلم عن التسويق، وعن أي سوق يدخله أي كاتب، إن كان مشرقيا أم مغربيا. المغاربة، من حيث أنهم كانوا فرانكفونيين، دخلوا الأسواق العالمية لأنهم كانوا يكتبون مباشرة باللغة الفرنسية، لأنه، عدا ما تكلم عنه حبيب السالمي، وأنا أوافق الرأي 100%، هناك استحالة هذه «الفرقة» بين المغاربة وبين المشاركة، إلى التسويق الخارجي، نحن لا نبيع كثيرا في الأسواق العربية، ونضع آمالنا كلها في الترجمة كأجيال. قد تصادف عقود ترجمة مخزية مع بعض الشبان سواء كانوا مغاربة أم مشاركة. فألى أي مستوى قد ينزلون فقط من أجل أن يترجموا، أو من أجل أن تتم دعوتهم إلى الخارج، هذه ليست سلطة الرأسمالية، بالنسبة لقول الأخ باسم، ولا الأمريكية ولا الفرنسية، بل إنها سلطة التسويق، فاللغة العربية، لغة يتيمة بالكامل، ومن يكتب بها، يرى نفسه في خضم معركة لا يعرف أبدا إلى أين يتجه بها، ومع من يتحارب، لنأخذ مثلا محمود درويش حين كان يقيم أمسية بباريس، كان الحضور بالنظر لقيمتهم وبالنظر للقضية الفلسطينية التي كان لها وهج متميز في فرنسا. إن بحثنا اليوم عن توزيع وبيع كتب درويش في فرنسا وفي العالم، سوف نجد أنها لا شيء، وأن هذا الرجل غير موجود، ومن مثله غير موجودين، هذا الرجل الذي شغل العالم، أين هو الآن؟ حتى ما إذا ترجمه أحد، فستجده في هامش الهامش، ربما بإيطاليا مثلا، لا أعرف بأي قرية، قد تجد له كتابا أو كتابين، إذا كان لصاحب المكتبة المعنية مزاج لذلك.

باختصار، فإن المسألة خطيرة جدا، إذ تسقط اللغة العربية أمام أعيننا، ونحن لا نستطيع، ولا نملك كيفية الدفاع عنها، أو عمن يكتب بهذه اللغة، أو من يسوق بهذه اللغة، وكل من يستطيع إنقاذ هذه اللغة ويملك الإمكانات لذلك، فإنه لا يتعامل معنا، بل يتعامل مع الأجانب ممن يشتغلون بالخليج، ولديهم أجور لا يتخيلها عقل لجرد كونهم أجانب، بينما الشباب العربي المثقف والواعي، متروك بلا عمل، مشتت في بلدان العالم يبحث عمن يشغله، لدرجة أن من يتكلم العربية ويعتمدها اليوم هم المتشددون الإسلاميون، فتصوروا، في كل مرة يهجم فيها أحدهم قائلا عبارة «الله أكبر» وناطقا باللغة العربية، أتمنى الموت إذ أشعر أنهم أخذوا مني ما أصبح هويتي الأخيرة، أنا لا أنتمي إلى أي بلد عربي، ولا إلى العروبة، ولا إلى أي أصدقاء إيديولوجية لها علاقة بهذا العالم، لأنه لا يعجبني، ولكن أن أستلب من هذه اللغة العربية ويصبح الإسلامي الوحيد الذي يدافع عنها ويحاول التكلم بها، بشكل صحيح، والأجنبي الذي يذهب للقتال في العراق أو سوريا يحاول تعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن، حينئذ تصبح المسألة خطيرة جدا، لا أعرف ما رأيكم، لكن بالنسبة لي أعيشها بشكل مأساوي.

ثريا ماجدولين

شكرا السيدة هدى. اختارت هدى طبعا وجهة نظر مختلفة لتناول الموضوع، فتحت المجال لمجموعة من التساؤلات لديكم. تنتقل إلى الأستاذ محمد الأشعري، كاتب وشاعر وروائي مغربي، وزير الثقافة والإعلام في المغرب سابقا، من دواوينه الشعرية «سهيل الخيل الجريشة» «سيرة المطر» «كتاب الشظايا»، «أجنحة بيضاء في قدميها» «جمرة قرب عشب الكلمات» الذي صدر سنة 2017 ومن أعماله الروائية «جنوب الروح» «القوس والفراشة»، «علبة الأسماء»، رواية «ثلاثة ليال» الصادرة سنة 2017. فازت روايته «القوس والفراشة» بجائزة البوكر العربية سنة 2011، كما أنتج مجموعة قصصية بعنوان «يوم صعب».

الأستاذ الأشعري، لاشك أننا نعيش راهنا ثقافيا عربيا مختلفا عن سابقه، يعكس مستوى التحول الذي طال العقلية وأصبحنا نشهد الآن، نوعا من الندية الثقافية بين الغرب والمشرق وبخاصة لدى الأجيال الجديدة والشابة من المثقفين.

وأنا أقرأ روايتكم «علية الأسماء» أثارني تعدد الثقافات الذي تزخر به الرواية، هل يمكن أن نقول إنه لا يوجد آخر واحد فقط، بل هناك آخرون متعددون ومتنوعون وربما أيضا مختلفون في صراع متواصل لإثبات الذات، وأن المشرق مشارق، القاهرة في المتخيل مختلفة عن بيروت وعن بغداد وعن دمشق ونقل أيضا أن المغرب مغارب، فتونس ليست هي ليبيا، ولا الرباط هي نواكشوط. وبالتالي ألا يجدر بنا، إعادة تسمية هذه العلاقة وتغيير زاوية النظر إليها ؟ لكم الكلمة.



محمد الأشعري

بالطبع هناك آخرون متعددون وأنواع متعددة، وللأسف فإننا حبيسي صيغة قديمة لفهم الأنا والآخر، حتى أن السؤال الذي يعنون هذه الندوة، يبدو سؤالا خارج عصره، فنحن اليوم وعلى مستوى كل بلد على حدة فقدنا مشارقتنا ومغاربتنا على مستوى الدولة الواحدة ومن الصعب أن نبقى في ظل هذه الثنائية التقليدية، بينما يفرض علينا العالم اليوم جغرافيات جديدة، وحدود مختلفة تماما عن الحدود التقليدية، أستغرب لاستمرار هذا السؤال بهذا الشكل، بينما في الواقع، وكما أشار إلى ذلك بعض الزملاء، هناك الآن تقدم مؤكد، بفضل التبادل الثقافي، على محدوديته، وبفضل وسائل الاتصال الجديدة كذلك، وبفضل النضج الذي حققه أيضا الإنتاج الأدبي في الوطن العربي، بفضل كل ذلك، هناك تقدم في معرفتنا ببعضنا، وفي استهلاكنا لمنتجات بعضنا، وأستطيع القول بأننا اليوم نعرف الكثير من الأشياء ونستوعبها، بل ونستعملها في شعورنا بهويتنا، انطلاقا مما نقرأه ونتصل به باستمرار بين حدودنا التي انفجرت الآن ولم تعد الحدود التي ورثناها عن مرحلة ما بعد النضالات الوطنية، التي أنتت باستقلال بلداننا. في نظري، إذا كانت هذه الثنائية، أي المشرق والمغرب، مستمرة لحد الآن في تساؤلاتنا، فلأن هناك فشل في مكان آخر، ليس بالضرورة في المجال الثقافي، هناك فشل تاريخي في المعركة من أجل الديمقراطية والحريات، والحريات الفردية خصوصا، ومن أجل المساواة بين الرجال والنساء، وفصل الدين عن السلطة، إلى غير ذلك من الأشياء الكونية التي اعتبرنا أنها تنتمي للعالم الآخر، ولن تكون أبدا أنا.

في نظري، فإن الوعي بأن الأنا اليوم، وفي هذا العصر، هي أنا ثقافية وكونية في آن واحد، وفصل هذا البعد الكوني عن البعد الوطني أو البعد القومي، هو نوع من العدمية التي لن تجعل من هذه العلاقات بين المشرق المغرب علاقة موضوعية ومبنية على آفاق مشتركة، بل علاقة يوتوبيا ومثالية، نوعا ما، تستند إلى شيء من الماضي، وليس إلى شيء من المستقبل. هذه نقطة أساسية أردت أن أركز عليها. وأريد أن أشير هنا إلى نقطة ثانية، تتصادف مع ما قالته الأستاذة هدى بركات، وتتعلق باللغة، يبدو أننا نسينا، في غمرة اهتماماتنا المتشعبة، بأن العالم العربي، ومنذ عدة عقود، أنتج جغرافية جديدة لها علاقة باللغة العربية. يصف الكثير من الناس اللغة التي نكتب بها، بأنها لغة فصحي كلاسيكية أو تقليدية، في حين أنها ليست كذلك. إذ كان هناك إنجاز كبير حققه العرب في العقود العشرة الأخيرة، فهو ذلك المتعلق باللغة. هذه اللغة التي نكتب بها أدبنا الحديث، اللغة في مكوناتها الخيالية وفي مكوناتها اللسانية كذلك، وكوننا اليوم نستطيع أن نقرأ رواية لبنانية، ورواية مصرية، وقرأ الآخرين رواية مغربية، دون أن يجدوا أنها تنتمي إلى عالم آخر، بل أنها تنتمي إلى هموم مشتركة، وإلى صياغة مشتركة، فهذا تقدم عظيم. ويجب أن ندرك اليوم، أن ما يشكل وحدة أساسية بالوطن العربي، هو هذه اللغة، اللغة الحديثة التي أنتجتها الصحافة وأنتجها الأدب، والنص الأدبي خصوصا الذي نكتبه اليوم واللغة التي نكتب بها لا علاقة لها إطلاقا باللغة العربية الكلاسيكية، ولا باللغة العربية التقليدية، أو بما يسميه البعض بلغة المقدس أو اللغة الأصولية. في جميع لغات العالم، هناك اللغات الحديثة، ولكن لا أحد سيمنع أي اتجاه من استعمال اللغة نفسها. النازيون استعملوا اللغة الألمانية ويستعملها اليوم نازيون جدد في فرنسا وفي هولندا، وفي إيطاليا، لكن هذا لا ينفي البعد الحداثي، والبعد الإنساني للغات الموجودة في هذه البلدان، ولذلك أظن أنه بالفعل هناك أزمة سياسية اتجاه اللغة العربية، هناك اضطهاد لها في بلدانها، هناك حملات ضدها أيضا. ظهرت في بلدنا منذ فترة دعوة إلى الاستغناء عن اللغة العربية واستعمال اللغة العامية بدلا عنها في التعليم في المدارس العمومية، وأعتقد أن أصحاب هذه الدعوة ليسوا سذجا، فهم يعرفون محدودية العامية، وأنها لا يمكن أن تكون لغة التعليم، ولكنهم يريدون أن يبتروها من هذه الجغرافية الجديدة المشتركة التي هي جغرافية اللغة العربية المشتركة بين جميع أفراد هذا العالم العربي، وربما من الأشياء التي يجب أن نستحضرها في علاقتنا باللغة العربية، ليست فقط السياسات الرسمية التي تهمش اللغة العربية وتحاربها، أحيانا، لكن هناك أيضا تلك العقدة التاريخية مع اللغة العربية.

نحن نكتب باللغة العربية، وفي نفس الوقت لا نكتفي بأن يعترف بنا قراءها المباشرون نحن نبحت دائما عن الاعتراف الفرنسي أو الاعتراف الإسباني، وهو شيء مؤسف. لم أشهد مثلا، أن كاتباً صينياً ينتظر أن تعترف به فرنسا ككاتب صيني أو كاتباً يابانياً ينتظر أن تعترف به فرنسا ككاتب ياباني. هذه عقدة حقيقية. هناك الكثير من الكتاب المغاربة باللغة العربية، كتبوا نصوصاً عظيمة، ولهم عقدة حقيقية تخص عدم ترجمة كتبهم حتى الآن إلى اللغة الفرنسية. أنا - يا أستاذة هدى - متأكد أن ليس هناك في العالم العربي بأكمله، كاتبة فرانكفونية، كتبت رواية أجراً من روايتك «حجر الضحك» فكيف أتمنى أن لا تعترف فرنسا بحجر الضحك، لا أريد ذلك إطلاقاً. يجب أن ندرك أيضاً أن كثيراً من النصوص فرانكفونية التي تهلل لها فرنسا، لا تصل إلى مقام نص بسيط في الوطن العربي مكتوب باللغة العربية، فلذلك يجب أن نتخلص من هذه العقدة، يجب أن نكتب لقراءنا، ويجب أن نكتب لنصوصنا، كما نؤمن بنصوصنا، بهذا الإخلاص للغة العربية التي نحب والتي لا نكتب بها لأنها قدر تاريخي، لأننا ولدنا في هذه الأمة ولدينا هذه اللغة، ولكن نكتب بها لأننا نعشق هذه اللغة، ونعتبرها طريقتنا للوجود، وطريقتنا للحياة، وطريقتنا للتواصل مع الناس، ولتشارك الخيال، والمطامح والتطلعات والأحلام، وهذا ما يجعل لنصوصنا الأدبية اليوم، بعداً استراتيجياً. نحن نجيب، من خلال نصوصنا الأدبية، على الفشل السياسي كذلك، يجب أن نستحضر هذه القوة الإستراتيجية للنص الأدبي، لأنه لا يجب فقط على الحاجيات الأدبية الطبيعية في كل لغة، ولكنه يجب كذلك على الإخفاقات السياسية التي عرفها الوطن العربي، شكراً لكم.

ثريا ماجدولين

شكرا السيد محمد الأشعري، سواء كان السؤال المركزي لهذه الندوة جديدا أو قديما، فقد أثار كما تلاحظون عدة قضايا وعدة أسئلة، وأعتقد أن هذا في حد ذاته أحد الرهانات التي دفعت المنظمين إلى اقتراح هذا الموضوع. لا شك أن لديكم وجهات نظر مختلفة أو متقاطعة مع ما جاء في تدخلات الأساتذة : هدى بركات وحبيب السالمي ومحمد الأشعري ويهمن أن نستمع إليكم. إذا أفتح النقاش، إذا كان هناك من يريد الإدلاء بصوته، وأريد لكل متدخل أن يعرف بنفسه وأن يختصر طبعاً.

هيفاء زنكنة من العراق

أؤيد تماما الأستاذ حبيب فيما قاله عن صعوبة النشر، لأنني تعرفت لأول مرة على الأساتذة من المغرب، وكذلك من تونس والجزائر، عبر المجالات الأدبية التي كانت متوفرة في العراق حينئذ، وكانت في السبعينات وحتى في الثمانينات مفتوحة لكل كتاب العرب بغض النظر عن جنسياتهم، فأنا أعرف محمد بنيس، محمد برادة، وأنا في عمر أصغر بكثير من الآن، من خلال المطبوعات حينئذ، وربما واحد من الإجابات على الأسئلة، أن تكون المطبوعات الأدبية والفكرية، متاحة للجميع عبر هذه الحدود التي تنصب أمامنا في كل يوم بشكل من الأشكال. إنهم يبدعون في إقامة الحدود بيننا، فعلياً أن نبذع في تفسير هذه الحواجز والحدود بمختلف الطرق، وربما جانب النشر الإلكتروني واحد من هذه الطرق التي يستوجب النظر فيها، أنا مثلاً قمت بوضع كل كتابي المنشورة بصيغة PDF على الإنترنت، لتكون متوفرة للجميع، خصوصاً إذا كانت كتب لها علاقة بفلسطين، أردتها أن تدخل فلسطين وتخرج من فلسطين بدون أن يمنعها المحتل الصهيوني.

بالنسبة للأستاذ محمد يقول إنه يجب أن نكتب باللغة العربية، أنا أقترح أن نبدأ الحديث باللغة العربية، يعني خلال اليومين أو الثلاثة الأخيرة أثناء تواجدي هنا، أكاد لا أفهم شيئاً مما يدور حولي، الكل يتحدث باللغة الفرنسية، فربما كخطوة أولى علينا أن نمزج أنفسنا وأن نفطم أنفسنا من لغة المستعمر، ونحن ندرك جميعاً أنها لغة المستعمر، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن أقنع، وأنا ديكتاتورية في هذا المجال، أن يقال لي أنا أحتل اللغة الفرنسية من خلال كتابتي باللغة الفرنسية إذا كنت تختار أن تكتب باللغة الفرنسية أنت حر ولكن حين أقول يجب أن أكتب وأشجع الكتابة باللغة العربية، ففي هذه الحالة، علي أن أبدأ بالكلام والكلام المقتضب، إذ ليس بالضرورة الكلام الكثير باللغة العربية.

رئيس الجلسة : شكيب كُسوس
المشاركون : زكية داوود، إدريس كسيكس، سعد الخياري، بوعزة بنعاشر
فضاء : ليلي العلوي
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 12 : 45 - 11 : 15



موجز مداخلات المائدة المستديرة

اعتمد شكيب كُسوس في تسيير هذه المائدة المستديرة على كتاباته السوسيو-أنثروبولوجية وتجربته الجمعوية. وقد افتتح النقاش بسؤال ماهية «التراث الثقافي» في السياق الإفريقي. ولقد أَلقت زكية داوود، الصحافية الفرنسية-المغربية الشهيرة والروائية الجديدة، الضوء على التراث الفنيقي والذي لازالت آثاره بادية للعيان حتى اليوم بالمغرب الكبير، مؤكدة أن بعض مظاهر الثقافة المغاربية المعاصرة ترجع أصولها إليه. علاوة على ذلك، بينت زكية، انطلاقاً من تجربتها ومن خلال مؤلفاتها، الحضور القوي للذكريات في كتاباتها مؤكدة بذلك، سواء عن قصد أو دون قصد، علاقة التراث بالمجال. من جهته، تساءل الكاتب والصحافي والمؤلف المسرحي إدريس كسيكس عن الجدوى أصلاً من إحياء عناصر معينة من ذاكرة المجتمعات ووضعها في الصدرة بعد أن كانت في حكم المتجاوز المنسي.

من ناحية أخرى، اعتبر الأستاذ كسيكس من الأهمية بمكان أن نكون نشيطين اتجاه تراثنا الثقافي، وأكد على حالة التملك الديناميكية التي تربطنا بهذا التراث. وهو ما يفسر اهتمام الضيف الكريم بالممارسة والتفاعلات الإنسانية مع التراث. أما السيناريست والكاتب سعد الخياري، الذي يعرف المجتمع الجزائري جيدا، فقد شدد على أن اعتراف الأفراد بتراثهم يكون دائما بوابة أكيدة نحو المواطنة الكونية، التي ستضاعف فيهم رغبة تقاسم هذا التراث مع العالم. وقد ثمن ضيفنا الكريم التراث الأندلسي من حيث أنه تراث يمجّد السلم والسلام وتعايش الأديان، مشددا في الوقت ذاته على ضرورة إحياء هذا التراث للاستعانة به في مواجهة خطر الأصولية. ويرى في هذا الصدد بأن الحوار والمناقشة خير وسيلة لإحياء هذا التراث.



أما الكاتب المغربي بوعزة بنعاشر، فقد حاول إعادة رسم مسارات من شأنها حسب رأيه أن تقودنا إلى الكونية وكلها تبدأ من الخصوصيات الثقافية. وقد وصل بنعاشر إلى هذه الفناعة من خلال اللقاءات التي جمعته بالإفريقيين العظمين الراحلين ليوبولد سيدار سنغور وإدموند عمران المالح. ومن جهته، بين إدريس كسيكس، اعتمادا على معطيات تاريخية، كيف أن الأنظمة الفكرية المهيمنة تحارب التراث الثقافي المتنوع قبل أن تصارع وتحارب أي شيء آخر. وقد أبرز مجموعة من اللحظات التاريخية التي أخلف فيها المغرب الكبير موعده مع الحداثة بسبب صعوبة وتعقد تفاصيل وحيثيات هذا التاريخ. وفي نفس السياق، ذكرنا المتدخل بإمكانية أن تجد الذاكرة نفسها مبتورة من الخارج أو مقيدة من الداخل، خاصة إذا تسلطت مقاربة تحنيطية اختزالية على الثقافة التقليدية المحلية المؤمنة بالحوار وتسوية النزاعات سلميا. كما قال إن الجميع مسؤول عن هذا الوضع وليس فقط حكام المغرب الكبير وحدهم. وبالنسبة إليه، نحن اليوم مطالبون أكثر من أي وقت مضى بالاشتغال على هذا التراث التعددي، خاصة ما يتعلق بالدين الإسلامي. وقد أجمع المشاركون في الختام على أن التراث هو أيضا بنية.

مداخلات المائدة المستديرة

شكيب خُسوس

إنه لمن دواعي سروري حقا أن أجتمع بكم اليوم في إطار هذه المائدة المستديرة التي سنناقش من خلالها قضية الثقافة الإفريقية والتراث الثقافي تحديدا. باسمي وباسمكم جميعا، أشكر المنظمين وأحييهم على اختيار هذا الموضوع وعلى اختيار التيمة العامة المؤطرة للمعرض والنقاشات : «مقاربة الكوني». وسوف نرى جميعا كيف يتأطر موضوعنا لهذا اليوم ضمن التيمة العامة، خاصة في السياق الإفريقي. وبالمناسبة، حضرت إحدى الموائد المستديرة، فتبين لي أن المواضيع المطروحة للنقاش كلها مترابطة ويصب بعضها في البعض الآخر فعلا. ماذا نقصد بالتراث الثقافي، لاسيما فيما يخص الحالة الإفريقية ؟ هل لأن الإنسان الأول أصله من إفريقيا، ومن المغرب تحديدا ؟ هل نحن بصدد تراث ثقافي عندما يتعلق الأمر مثلا بتمرير ونقل الإنسان الأول تقنيات مطاردة الحيوانات وصيدها من جيل إلى جيل ؟ هل الشعر هو التراث الثقافي ؟ الشعر الإفريقي ؟ وما هي الحضارة ؟ هل هي مصر الفرعونية ؟ أم أننا بصدد تراث حديث بدأ يتشكل بعيد الاستقلال ؟ هذه بعض الأسئلة التي سنحاول مناقشتها مع ضيوفنا الكرام. يسعدني أن أستضيف الأستاذة زكية داوود الغنية عن كل تعريف، التي أشرفت مدة مديدة على مجلة «لاماليف» التي كانت بحق شجرة طيبة قطفت من ثمارها أنا والكثير من أبناء جيلي : كلنا قطفنا ؛ ومن لم يقطف الكثير، قطف القليل. ضيف آخر يسرني حضوره معنا اليوم هو السيناريست سعد الخياري، المقيم بين المغرب والجزائر وتونس. ويشارك من خلال كتاباته في عدد من الجرائد والمجلات ؛ لكنه مؤخرا ولج عالم الكتابة والرواية أيضا. وقد أصدرت دار النشر «ملتقى الطرق» روايته الأخيرة «Le soleil n'était pas obligé» (لم تكن الشمس مجبرة)، قبل فترة وجيزة. وستتاح لنا بهذه المناسبة فرصة مناقشة كتاب له حول حوار الأديان. ويحضر معنا اليوم أيضا بوعزة بنعاشر، الكاتب والباحث في معهد الدراسات الإفريقية. وأخيرا وليس آخرا، إدريس كسيكس، الكاتب والمسرحي ومدير مركز الأبحاث «Economia» التابع للمعهد العالي للتدبير (HEM) ؛ ومنسق كرسي الراحلة فاطمة المرينسي في نفس المؤسسة. وبعد هذا التقديم الموجز الذي لا يوفي ضيوفنا الكرام حقهم، سنبدأ النقاش بسؤال بديهي : ما هو التراث الثقافي ؟ وسنبدأ مع الأستاذة زكية.

زكية داوود

بالنسبة إلي، التراث هو ما يبقى بعد أن تذهب كل الأشياء الأخرى. عندما تختفي أشياء معينة من حياة المجتمع لأن حركة التاريخ تجاوزتها، تبقى بعض آثارها راسخة لا تنمحي : وهذه الآثار نسميها الثقافة. هنا حيث نحن الآن، يوجد التراث الثقافي الوجداني. وأنا أعتقد موقنة أن خصوصيات جهة الشرق، كجهة مميزة في العالمين العربي والإسلامي، تجد أصلها في تراث الجهة الثقافي المتميز عن سواه. ويبدو لي أن التراث الثقافي في بلدان المغرب الكبير جميعها مرتبط بالحضارة الفينيقية قبل أي حضارة أخرى. وتكفي هنا الإشارة إلى أن الكسكس والبرنوس مثلا مرتبطان بالفينيقيين، وأن اللغة الأمازيغية، كما قيل لي، تحتوي كلمات فينيقية كثيرة. هذان المثالين الصغيرين يؤكدان أننا بصدد تلاقح ثقافي عميق يمتد قرونا من الزمن. بعد أن دخل الرومان شمال إفريقيا، حدث تصادم بين الإمبراطورية أو الدولة القومية من جهة والقبيلة أو القرية من جهة أخرى. وهذا الصدام في حد ذاته ذكرى ثقافية ذات حمولة سياسية بلا شك. ونحن فعلا مقصرون في دراسة هذه الذكرى ومثيلاتها قصد الإفادة منها في كشف وفهم طبيعة الرهانات السياسة في عصرنا. ومما لا يحتاج إلى بيان أن التراث الثقافي المغربي يجد أصوله في حضارات أخرى أيضا...

إدريس كسيكس

في البداية، أشكر المنظمين وأحييهم على فتح باب النقاش في تيمة «مقاربة الكوني». عندما أناقش التراث الثقافي، أحرص على فعل ذلك في ارتباط بقضية «مقاربة الكوني». عندما نناقش التراث الثقافي بهذا الشكل، ندرك توا أننا في سياق خاص جدا يتسم بنوع من التسارع في وتيرة نشر وترويج نموذج معياري معين مقابل، في نفس الوقت، تفكك وتحلل جملة معايير وقواعد توحد الإنسانية. والنتيجة هي نوع من التراجع عن فكرة الإنسان الكوني. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : هل علينا استرجاع التراث الذي نسبته ذاكرة المجتمع ؟ وهل نحن نسترجع جزء من التراث أم نعيد ربط الثقافة مع كل تراثها بصالحه وطالحه ؟ شخصيا، أفهم مسألة التراث فهما واسعا موسعا لا تحده حدود سمته الحركية والإيجابية لا السلبية والجمود. وبعبارة أخرى، أرى أن كل فرد يتعامل مع تراثه الخاص المختلف عن تراث غيره وفق شروط ذاتية وموضوعية خاصة به : كل له حزمته الخاصة من التراث الثقافي. يختلف التراث الثقافي من مجتمع إلى مجتمع، لأن بعضه من فولكلور مختلف وبعضه شفهي مختلف، ولكن أيضا لأن بعضه من نصوص مختلفة نحتك بها يوميا ونروج لها في الآن نفسه دون أن ندري ولأننا نعيش واقعا مختلفا ونواجه تحديات مختلفة أيضا. معنى هذا أن علاقتنا بالتراث نشيطة غير سلبية. ومن ناحية أخرى، لا أفهم التراث الثقافي على أنه عناصر جامدة ومجمدة في المجال ؛ بل أفهمه على أنه ديناميكية. وهذا يدعونا إلى طرح مجموعة من الأسئلة حول طرق التفاعل مع التراث ومساءلته وتجديده وإعادة صياغته. دائما أفكر في العناصر التي ترد علينا وأنماط تفاعلنا معها أيضا ؛ وأرى أن تأمل هذا الأنماط أمر في غاية الأهمية.

شكيب غسوس

شكرا إدريس. الكلمة لك أستاذ الخياري : ما هو التراث ؟ عندما نتحدث عن التراث، ينبغي أن نقاربه في كليته بدل اختزاله في الأشياء التي نراها جميلة ؛ لابد أن نمتلك شجاعة الحديث عن الأشياء السلبية أيضا. أعتقد أن حديثنا عن الصالح والطالح من تراثنا سيجعلنا ندرك أهميته ونحن على بينة من الأمر كله. طرح علي مرة في ندوة بفاس نفس السؤال الذي طرحته للتو، فأجبت السائل إن فاس خاصة والمغرب عامة مسؤولان أمام البشرية عن تراث ثقافي عظيم. نحن قيمون على تراث من واجبنا المحافظة عليه. ومن هنا سؤالنا : ما الذي يتوجب علينا فعله في سبيل المحافظة على هذا التراث ثم تمريره ونقله لمن يأتي بعدنا ؟

سعد الخياري

قبل الإجابة على هذا السؤال، أعلن من البداية - على مسؤوليتي - أن لا قدرة لي على تخيل الكونية فبالأحرى مقاربتها ومساءلتها. وأرى أن فكرة الكونية ولدت وتشكلت ملامحها ثم برزت للعالم على يد شخص مهم جدا في التاريخ اليوناني القديم ما بعد أرسطو وأفلاطون هو ديوجانس الكلبي. فقد فكك ديوجانس خطاب النزعة الكونية والخطاب الأرسطي، لما قال إن السر ليس في الكوسموبوليتية أو المدينة بالمعنى اليوناني للكلمة بل في الطبيعة. الكونية بهذا المعنى هي إعادة تملك شيء موجود في الثقافات بشكل عام، والثقافة المتوسطية التي نحن من ورثتها بشكل خاص. ما السبيل إلى تقاسم هذا التراث مع الآخرين ؟ كيف نجعله ممرا منتقل عبره من التفكير في ذواتنا إلى التفكير في الطبيعة، أي الآخر ؟ كيف نجل الكونية احتفالا كبيرا بما سماه دولوز كوسموبوليتية التفاوت والاختلاف ؟ أم أن خير ما نفعل هو الاستجابة لدعوة مارتن هايدغر فنبنى الكونية ونسكنها ونستغرق في تأملها ؟

شكيب غسوس

على ما يبدو لي، كلنا في هذه القاعة واعون الآن أن نقاشنا اليوم هو رحلة ذهاب وإياب متواصلة بين الكونية وإفريقيا وبين الكل العام والجزء الخاص.

سؤال الموالي أريد أن أطرحه على الأستاذة زكية : كيف لك، بناء على كتاباتك وتجربتك في مجلة «لاماليف»، أن تقاربي التراث الثقافي في سياق محلي وإقليمي ؟ وهل لك أن تعرفي لنا هذا التراث الثقافي من وجهة نظر شخصية وإنسانية ؟



زكية داوود

في الحقيقة : الوضع تسيطر عليه حالة من التناقض. أولا، يجب أن ننتبه إلى الفضاء حيث نحن الآن : نحن في وجدة ؛ مدينة حدودية، ومدينة مغربية محورية كانت جزء من مملكة تلمسان، وهي مدينة حاولت الاستمرار في الحياة بطريقة أو بأخرى ؛ وقد نجحت في ذلك فعلا بفضل الثقافة أولا. بالتالي، يمكننا القول إن وجدة تستعين بتاريخها المغربي في عيش حاضرها واستشراف مستقبلها. علاوة على هذا، نحن نتحدث عن جهة تقع على هامش الجغرافيا المغربية أحست في لحظة تاريخية معينة أنها مهمشة، فثارت ثأرتها وبقيت على هذه الحال مدة من الزمن حتى أصبحت جهة الثوار.

من ناحية أخرى، أرغم شح الموارد أبناء جهة الشرق على الهجرة : كانوا في البداية يتجهون إلى الجزائر ؛ لكن الحرب وبرودة وتوتر العلاقات الجزائرية المغربية رسما الحدود ووضعها عليها الحواجز والمتاريس، فأصبحوا يقصدون أوروبا. نحن بصدد جهة تصدر وتستورد. والنتيجة هي أن هذا التبادل والروح الثورية والتدفق البشري وضعوا جهة الشرق في قلب المغرب والمغرب الكبير والعالم.

ما هو المغرب والمغرب الكبير ؟ إذا رجعنا إلى التاريخ، سنجد أنهما جسرا بين أوروبا وإفريقيا. لقد جعلت الجغرافيا المغرب شجرة كبيرة جذورها في إفريقيا وأغصانها في أوروبا. قاوم المغرب عادات الزمن ونوابه قرونا عديدة بفضل المبادلات التجارية بين ضفتي غرب المتوسط (الذهب والعاج...). إلى جانب كل ما ذكرت، عرف المغرب وجودا قرطاجيا ؛ وهذا أمر مهم. والمغرب بلد له واجهتين بحريتين كبيرتين بلغ منه الانفتاح على العالم عبرهما مبلغ السبق إلى الاعتراف بالولايات المتحدة. كل هذه المعطيات وغيرها الكثير تؤكد مكانة المغرب كملتقى لحضارات العالم وحلقة وصل بينها. أنا أعيش في المغرب منذ ستين سنة الآن ؛ أصبحت أنتمي إليه ؛ إنه يجري في نفسي مجرى الدم في العروق. قضيت جزءا مهما من حياتي العملية كصحافية ؛ وقد حاولت أن أكتب وأصف وأفك الشفرات وأتقنص الأشياء : حاولت أن أفهم. لا أعرف إن كنت قد فهمت شيئا، لكنني في جميع الأحوال عندما طويت آخر صفحات مجلة «لاماليف» انصرفت إلى تأليف الروايات. وخلال الكتابة، وجدت المغرب وكل الذكريات التاريخية المرتبطة به يتجلى، رغما عني ودون سبب واضح، في شخصيات حكاياتي وأزمنتها وأمكنتها. باختصار، كل ما يمكنني قوله بخصوص التراث الثقافي من منظور شخصي هو أن التراث، أي كان، يبقى دائما مزيج من الصالح والطالح، يجب أن نكون قادرين على التعامل معه وتوظيفه فيما ينفعنا و ربما تمريره.

شكيب خُسوس

شكرا أستاذة زكية على هذه الشهادة. أتجه الآن للأستاذ الخياري ؛ ألفت كتابا مهما ناقشت فيه حوار الأديان، وأنت تعيش بين ثلاثة بلدان مغربية، فكيف يمكننا في نظرك أن نحافظ على التراث الفكري ونحميه ونمرره ؟ هل نمرر التراث كله بصلحه وطالعه أم نختار ونميز قبل أن نمرر أي شيء ؟

سعد الخياري

الجواب على هذه الأسئلة مهمة صعبة. اشتغلت كثيرا على قضية التراث الثقافي. لكني لم أصدر فيها إلا كتابا واحدا اخترت له عنوانا بليدا تماما : «Catholique/musulman, je te connais, moi non plus» : (الكاثوليك/المسلمون : سوء الفهم الأيدي)، وقد كان الاشتغال على هذا الموضوع تحديا رفعتة. كانت الفكرة هي أن يتضمن الكتاب نصا يخطه مسيحي كاثوليكي ونصا آخر يناقش النص الأول يخطه مفكر إسلامي ؛ لكن هؤلاء جميعا رفضوا المشاركة. ولما عرضت علي المشاركة قبلت ورفعت التحدي : ثلاث سنوات من البحث والعمل المكثف توجت بصدر هذا الكتاب. وهو أبعد ما يكون عن نقد الدين الإسلامي والمسيحي، إنما هو محاولة للبحث عن المشترك بينهما. أنا دائما مهتم بالتجارب المتعلقة بالتراث... وهذا وجه الشبه بيني وبين شريكي في الكتاب. قادني هذا العمل إلى اكتشاف الخطر الأصولي. عندما نرى ما يجري في بلدان منطقتنا، ندرك أننا واقفون في حقل ألغام كبير. وعليه، نحن مطالبون بالتفكير الجدي والمكثف في سبل حماية هذا الجيل والأجيال القادمة من هذا الشر. ما يترك لي بعض الأمل رغم كل الضباب الذي يحجب النور هو علمي أن في تراث منطقتنا شيء مميز مكن الحضارة العربية الإسلامية من بلوغ ما بلغت من مجد وعظمة ؛ وأنا هنا أقصد الأندلس : حالة التعايش الديني الفريدة عبر التاريخ الإنساني. هناك سؤال يطرح نفسه بقوة : لماذا لا نستعين بتراث بهذا الغنى والسمو والإيجابية إذا كان لنا في الاستعانة به للشفاء والعلاج من سرطان الأصولية و الظلامية ؟ شخصيا، أعتبر أننا نحن المغاربة نعد من ورثة الديانات السماوية الثلاث. لكن هذا لا يمنع من الانفتاح على رؤى كونية ووجودية أخرى كالبودية واللاينية كي نتعلم ثقافة الحوار. مجتمعاتنا المغربية تؤمن في الغالب أن في كل حوار رابع وخاسر ؛ بينما الحوار شيء عكس ذلك تماما : إنه تفاعل الفكرة مع الفكرة لا بحث عن الربح وتجنب الخسارة. والحق يقال، نحن قوم لا نعرف كيف نتحاور. وانظروا إلى برلمان منطقتنا ترون خير البراهين على ما أقول. وكى تتضح الصورة أكثر، ألقوا نظرة على البرلمان البريطاني. هناك بون شاسع ورتق واسع ؛ لكن ما سبب هذا الفرق بين هنا وهناك ؟ السبب الرئيسي هو افتقارنا إلى ثقافة الحوار. خلال اشتغالي على كتابي، لم أستطع في البداية محاوره شريكي ؛ لكن مع مرور الوقت أصبحنا أصدقاء أعزاء ؛ أتعرفون لماذا ؟ لأننا في آخر المطاف تشبعنا بثقافة الحوار. كجواب على سؤال الأستاذ خُسوس، ما أريد الإبقاء عليه من تراثنا هو روح الانفتاح على الآخرين وروح النقد التي لا تترك حجرا إلا وقلبته، لكن أساسا أريد رغبة قوية في حماية أبنائنا من أمراض العقول والقلوب قبل أمراض الأبدان، لأنني أرى أن هذا الإسلام الغريب المستورد الذي نشأ وظهر في الثلاثين سنة الماضية فقط هو، للأسف، منبع للشرور والآلام. المشاكل السياسية قابلة للحل ؛ لكن إذا تسممت عقول وقلوب أبنائنا، فالعلاج صعب والأمل ضئيل. وهذه في الحقيقة استغاثة ورسالة أقول فيها إننا نحن الراشدون، نحن مسؤولون عن فتح الآفاق وبعث الأنفس على الانطلاق فيها من جهة والانتباه لما يحدث في العالم من جهة ثانية، لأننا لا نتحدث عن كل ما يقع من حولنا رغم أنه الشر عينه.

شكيب خُسوس

شكرا لك سعد. سؤالي الموالي للأستاذ بوعزة : كتبت عن إدمون عمران المالح وسنڭور، وهما قاتمتين شامختين في إفريقيا من ديانتين مختلفتين عاشتا في بيئة تجمع الديانات الثلاث : هل لك أن تصف لنا التراث الثقافي، خاصة الإفريقي منه ؟



بوعزة بنعاش

هذا سؤال متوسع وجوابه مترامي الأطراف ؛ لكن سأحاول عرض بعض العناصر الكفيلة بتقريب المعنى اعتمادا على اللقاءات التي جمعتني بالعظميين إدمون عمران المالح وسنڭور اللذين غادرا عالمنا للأسف. ناقشت مع المالح في أول لقاء لنا بباريس مجموعة من سمات لاهوت الكابالا المترسخ في الجغرافيا الروحية والثقافية والذهنية للمغرب القديم، أي ابتداء من القرنين السادس عشر والسابع عشر، بفضل كاباليين مثل ابن منطقة درعة بوفرجان. ومنذ تلك اللحظة عملت على اكتشاف هذه الثقافة الممتد وجودها في التاريخ مدة ثلاثة آلاف سنة. خلال البحث، طرحت السؤال التالي : كيف لنا أن نتصل بهذا الجزء الأصيل من أركيولوجية وجينيولوجيا الثقافة المغربية ؟ وقد حاولت تقديم إجابة في كتاب لي ناقشت فيه كتابات عمران المالح. اتبعت في هذا الكتاب مقاربة تربطنا بأنفسنا وبعملة ثقافية يهودية تحضر فيها شخصيات يهودية كثيرة استحضرها إدمون في كتاباته من منطلق أنها مغربية أولا ثم أندلسية أو أيبيرية ثانيا. في الحقيقة، هذا الخيال أو التعددية أو الميراث ضاربة جذوره في أعماق العالم كله، بما في ذلك إفريقيا جنوب الصحراء وآسيا والأمريكيتين منذ أن اكتشفهما الرجل الأوروبي. الطرح النظري والنقدي عند إدموند عمران المالح يقودنا إلى الخروج بخلاصة مهمة أصوغها في سؤال : أية مكانة للفرد في الثقافة المغربية والمغاربية ؟ لقد قادتنا المقاربة التحليلية النفسية عبر التنقيب في الموروث الثقافي الذي خلفه عمران المالح إلى فك الارتباط مع الكونية المهيمنة. إذا، كيف نفك هذه الكونية ونزع من يدها مفاتيح الأفاق فنفتحها على مصراعيها أمام الفرد كي يكون فردا مفكرا وإنسانا تشع منه الإنسانية والأمن والعافية واليقين والحرية، فتملاً الأفاق شساعة ورحابة ؟

أما العلاقة مع سنڭور فقد بدأت سنة 1986 في أحد المؤتمرات الدولية. سألته حينها : «ها هي الزنوجة ؟» فأجابني قائلا : «صديقي العزيز، الزنوجة تعيش معكم هناك في المغرب». فعدت أسأله مرة أخرى : «أين بالضبط، دلي من فضلك»، فرد علي : «إنها فيك، هل تفقد وعيك بين الفينة والأخرى وتتغشى ؟» أجبت بأنني فعلاً أحاول الغوص في غشية وجذبة مع الأفكار والمفاهيم ؛ فنصحتني الرجل بزيارة الصويرة. بالنسبة له، الصويرة من المدن القليلة حيث مازال ممكنا العثور على ما يسمى مجتمعات السود، مع مخيال نكهته كُناوية. إذا، تعين علي اكتشاف شعائر قائمة على الجذبة والغشية، وفي الحقيقة العلاج النفسي، كي أقف على حقيقة الفكر والتصور الوجودي عند السود وحقيقة مجتمعات السود بالمغرب. وهذا فتح أمام طريق بحث جديدة في فكر الإنسان الأسود. لكن الوصول إلى فهم جديد حقيقي يتطلب مني القطع من فكرة أن هناك زنوجة مغربية. كيف لي أن أتحرق من هذه الفكرة ؛ كيف لي أن أجعل المسألة كونية لا محلية ؟ أولا بالانتباه إلى لحظتين فلسفتين غاية في الأهمية : الحركة الزنجية التي كانت تعبر عن مجموع فكر وقيم الإنسان الأسود، أي كل المرويات والفنون والإيقاعات...

لقد تعين في لحظة ما مسألة علاقة الحركة بما يمكن أن نسميه فضاء الأطلسي الأسود، على اعتبار حالة الرابطة القوية التي نشأت بين إفريقيا والأمريكتين بسبب العبودية والقوانين الأوروبية التي قننت تجارة الرقيق. وعلاوة على هذا، تعين علي أيضا التمكن من مرجعيات أطروحة وفكر سنغور، أي «نهضة هارلم» التي جاء بها أحفاد العبيد من الأمريكيين الأفارقة. وهذا يفسر تأثر فكر سنغور بالرومانسية الزنجية النيويوركية، التي تجلت في حالة انتزاع واقتلاع الخيال الإفريقية من أرضه الأصلية والرحيل به إلى عوالم أمريكية. وقد عرف هذا الخيال تحسن في صحته السياسية بفضل توسان لوفرتير، مؤسس أول جمهورية هسبانية في أمريكا اللاتينية وأول جمهورية للسود في العالم.

شكيب شسوس

شكرا بوعزة على هذا التصور وهذه الفكرة الواضحة عن التراث الثقافي التي ارتكزت في بنائها على معرفة قريبة بشخصيتين إفريقيتين فذتين. سؤالي الموالي لك يا إدريس. ألفت كتابا عن ابن رشد : وهو بالمناسبة تراث ثقافي إيبيري وإفريقي وكوني في نفس الوقت. في الحقيقة، أريد أن أطرح عليك أسئلة أكثر تفصيلا. حدثنا بوعزة عن إدمون عمران المالح وسنغور اللذين عاصرا الاستعمار ؛ هل لك أنت أن تقول لنا ما هي أساليب وطرق انتقال التراث الثقافي من جيل إلى جيل استقبالا ومعيشة وتميرا ؟ وهل تجب المحافظة عليه أصلا أم تجاوزه بكل بساطة ؟ هذا من جهة. أما من جهة ثانية، فأريد أن أرجع معك إلى بعض النقاط التي تمت إثارتها، كالدين والتراث الروحي والفن... وحبذا لو تمدنا بمزيد من التفاصيل بخصوص فكرة التراث الديناميكي التي سبقت الإشارة إليها.

إدريس كسيكس

أسئلتك واسعة جدا وشاسعة، وحتى أكون دقيقا فيما أقول، أفضل الانطلاق من الشيء المحسوس فيما ذكرت، أي روايتي عن ابن رشد ؛ ثم بعد ذلك، سأعود للسؤالين الأخيرين. أولا، أنا دائما أطرح على نفسي الأسئلة التالية : ما هي بالضبط الأشياء التي تنتقل من جيل إلى جيل كتراث ثقافي ؟ ما هي الخطابات والشروط المهيمنة التي توصل إلينا العناصر التي نسميها تراثا ثقافيا أو تقصر الولوج إليها على طلاب العلم والعلماء ولا تشيعها في المجتمع كله ؟ وما الذي يجعل تراثا ثقافيا معينا للمجتمع على النماء والرخاء والسمو ويجعل تراثا آخر خراب وانحدارا ولعنة على المجتمع أو جمودا في أحسن الأحوال ؟ سننطلق من مثال ابن رشد ومسألة الجامعة. أولا، أرى أن عندنا شيء إشكالي مرتبط بتأسيس الجامعات في وقت متأخر. وكلي لا نسقط في التقليد الأعمى، لا بد أن نذكر هنا أن الجامعة من إفرازات الكنيسة، تماما كما هي العلمانية من إفرازات الكنيسة. وليس المراد هنا معرفة ما إذا كانت عندنا نحن أيضا جامعة تشبه تلك التي أسستها الكنيسة. ثم هناك مسألة الرعاية. غالبية مفكري وعلماء وفناني العصر الوسيط رفضوا أن يخضعوا للرعاية. عندنا، لم تمارس الوصاية في عملية نقل التراث.

مسألة أخرى مهمة يجب أن نأخذها في الحسبان قبل الإجابة على الأسئلة المطروحة هي الطباعة التي بدأت في أوروبا في القرن الخامس عشر ولم تصلنا إلا في القرن التاسع عشر. أنا أرى أننا لم نطور هذه الآليات الثلاث التي تمكن تراثا ثقافيا معينا من الانتشار. والإشكال في نظري سببه تزامن حدوث وتطور هذه الآليات في بلادنا مع حدوث الاستعمار ؛ فكانت النتيجة أننا دخلنا عهدا استعماريا بدل أن ننطلق في مسيرة تطوير الآليات سالفة الذكر. وهذا كله قادنا إلى حالة ميزتها الخط والتصادم بين رغبة قوية في تملك الإرث الثقافي والمحافظة عليه وحاجة ملحة للتعبير عن الموروث الثقافي الخاص بالسكان الأصليين الذين لم يجدوا أنفسهم في هذا الإرث المراد المحافظة عليه. نحن اليوم عالقون بين أيديولوجيتين اثنتين : إما أيديولوجيا محافظة تنشد وتسعى الرجوع إلى السلف والأصل، أو شيء يجمعنا، وتعرض علينا نوع من المحافظة في كل مظاهر الحياة كالدين والثقافة والقيم ؛ أو أيديولوجيا حداثة مقلدة.

لعل التحدي اليوم متعلق بقدرتنا على تملك العناصر التعددية في إرثنا الثقافي. وهنا يطرح إشكال الإرث الثقافي التعددي، لأن ولوجنا إليه وتملكه مشروط بموافقة الخطاب المهيمن. هذا الإشكال يجب أن يتطرق إليه كل من يريدون الخير لإفريقيا والساعين إلى تحرير المعرفة وتحرير الخيال، لأن ما يصلنا تتم تصفيته وانتقاؤه عبر ترسانة من الإنتاجات الفكرية الغربية أو آلات إنتاج فكري مقلدة غير مستقلة بالقدر الكافي كي تنتج لنا فكريا نكون نحن موضوعه من خلال إرثنا الجماعي. وهذا يقودني إلى قضية التراث الديناميكي، أو بعبارة أدق، التملك الديناميكي للتراث، المهمة جدا.

سأحكي لكم قصة تساعدني في تبليغ فكرتي : التقيت باحثا بيروفيا قال لي إن مئات من المغاربة كانوا يرحلون خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر - وهذه حقائق موثقة - إلى أمريكا الجنوبية على يد الإسبان والبرتغاليين الذين كانوا يضعون سجلات بأسماء المرحلين. مازالت هذه السجلات موجودة في الأرشيف البرتغالي إلى اليوم. لكن آلة إنتاج الفكر البرتغالية تمتنع عن اطلاعنا على ما يكفي من البيانات كي نجيب على الكثير من الأسئلة المعلقة التي تشدنا إلى الوراء وتمنعنا من السير إلى الأمام، وهي أسئلة متعلقة بالتراث. إذا، ما الذي قاله صاحبنا ؟ لقد قال لي أن ثلاثة أشياء - يشتغل عليها عدد من المؤرخين حاليا - جاءت إلى أمريكا الجنوبية من المغرب الكبير : أولا، النساء اللواتي كن ضحايا الاستعباد الجنسي : لم يكن الأيبيريون يصطحبون معهم نساءهم إلى أمريكا الجنوبية وكانوا يصطحبون بدلهم نساء أمازيغيات. ثانيا، الحرفيون الذين أكلت إليهم مهام عديدة كتشييد مباني السلطة الاستعمارية والكنائس. ثالثا، الماشية : ربما تعرفون أن تلاقحا وقع وأن المطبخ البيروفي مثلا شبيه بالمطبخ المغربي...

قصة قصيرة أخرى : يتعلق الأمر هذه المرة بالموسيقى تيتي روبين الذين يشتغل كثيرا بالمغرب. يحدثنا تيتي عن سفر الإيقاعات والأنغام ورأيه في إيقاعات وأنغام المغرب والهند وطاجيكستان وبلدان أخرى. بالنسبة إلي، هناك تراث آخر غير الذي يصلنا عموديا وفي نفس المكان : التراث المتسم بالحركة والتقسام. لكن هذا التراث، المنتسب غالب للفضاء جنوب-جنوب، محبوب ومحاصر من قبل الخطابات المهيمنة التي ورثناها هي الأخرى. وعليه، فقد فهما تقارب التراث الثقافي عموديا أكثر منه أفقيا. في رأيي، تفكيك هذا الفهم ضرورة ملحة.

أما فيما يتعلق بنقطة التملك الديناميكي للتراث، أرى أن هذه ساحة الفنانين والكتاب بالدرجة الأولى. لا يمكن أن يختصر التراث في مجموعة أسوار نعتبرها تراثا مبنيا أو إيقاعات وأنغام. نحن اليوم نفتقر إلى آثار الشفوية المغربية في فترة الحداثة القديمة وفترة الحداثة المتأخرة التي نعيش فيها اليوم. هذه الحداثة عمرها لا يتعدى العقدين، لكن أشياء كثيرة حدثت وأخرى تغيرت خلال هذه المدة القصيرة، كما هو الشأن بالنسبة إلى رقصة أحواش. كيف استطعنا أن ننقل رقصة أحواش ونمررها ؟ لقد فعلنا ذلك مرة أخرى من خلال الخطاب الإعلامي الذي قدمها كفلكلور فيه الحركة والرقص... لكننا في المقابل غفلنا عن القيمة المضافة الكبيرة التي يتمتع بها فن أحواش : قيمة مضافة كبيرة يمكن أن تقيدها في واقعنا المعيش. نحن بصدد قيمة مضافة خفية خلقت، في فترة معينة، جدلا بين شاعرين اثنين تملكها ومررها عبر الكلمة وسحر العبارة. وهذا يبرر دخول أحمد عصيد ودا براهيم في مشادات كلامية حول حراك الريف، في لقاء بأكادير قبل بضعة أشهر ؛ حتى أن المنظمين منعهما من حضور عرض للأحواش.

شخصيا، حاولت، قبل ثمان سنوات من الآن، كتابة نصوص مسرحية مستلهمة من فن الأحواش نجعل من خلالها ساحة للجدال والنقاش العمومي مع استثمار القيمة المضاف الكبيرة في هذا الفن. وبعبارة أخرى، أردت أن أنطلق من تقاليدنا المحلية وتراثنا المجدد حيث توجد قيمة مضافة وجدل يمكن تجسيدهما على خشبة المسرح فينتجان لنا في مدينتنا الفرجة في لحظة معينة والنقاش في لحظة معينة أخرى.

وبالتالي، التملك الديناميكي للتراث هو كل الجهد الذي يبذله الفنانون والكتاب والممثلون. وللجامعة دور مهم تلعبه في عملية التملك الديناميكي للتراث، وهذا الدور بلا شك يتجاوز الأرشفة. لابد أن نحرر الجامعة من قيودها ونطلق لها العنان كي تسري في كل تفاصيل المجتمع والفنون.

إتباع هذا النهج سيمكننا من الاشتغال على التراث الثقافي وفق مقاربة شمولية لا تقتصر فقط على ذلك التراث القادم من بعيد وتقصي هذا التراث القريب النابع من هذه الأرض بشكل أو بآخر : يجب أن نوسع مفهوم الإرث الثقافي كي يشمل أيضا ما تم إنتاجه من فن وأدب... في عهد الاستعمار وما بعد الفترة الاستعمارية. كل هذه العناصر جزء من إرثنا الثقافي. والتحدي المطروح يتعلق بالتجديد والتطوير الذي يبدأ بالخروج من الأطر المعهودة وتكسير القوالب الجامدة.



شكيب خُسوس

شكرا لك السيد إدريس. لقد أنصت بكل تركيز لمداخلتك، ووجدت في كلامك فائدة كبيرة. وأرى أننا فعلا محظوظون اليوم بهذه المداخلات الواضحة الموضحة. أستاذ سعد، أشرت في سابق حديثك إلى نقطة دون أن تتوسع فيها ؛ نحن اليوم إزاء خطاب مهيم ذي طبيعة تعبدية دينية هو أيضا موروث ؛ وأنا هنا أقصد السلفية ؛ لأن هذه الأخيرة هي بكل بساطة رجوع إلى الداخل والماضي. كما نعرف جميعا، إفريقيا ليست بمعزل عن الكونية.

من ناحية أخرى، عندنا في المغرب تراث ديني تعبدى مختلف عن السلفية الساعية للهيمنة. في رأيك، كيف يمكننا التمييز بين كل هذه العناصر؟ ما هي أفضل طريقة في التعامل مع هذا التراث الديني التعبدى الثنائي ؟

بوعزة بنعاش

قادتني مداخلة إدريس إلى التفكير في ابن خلدون والكاتب المغربي الطنجي هشام العيدي، الأستاذ بجامعة نيويورك. نظر ابن خلدون في مقدمته للسلطة، وبين أن الفاعلين الرئيسيين الذين يؤسسون إمبراطورية ما لا يمثلون إلا خمسة في المائة من مجموعة ساكنتها. وإذا أسقطنا خلاصة ابن خلدون على منطقة المغرب الكبير، سنجد أن، خمسة في المائة فقط هم من يشاركون في عملية الأسلمة وإعادة الأسلمة. ما تسعى إليه هذه الرؤيا ذات النفس الإمبراطوري المهيمن هو إنتاج مخيال وليس مخيالا محليا أصيلا، بل مخيال موسوم ومفروض. ولقد قادنا هذا الوضع إلى نوع من الفصام الذهني أصاب الهويات الفردية والجماعية. ومن ناحية أخرى، من المهم جدا طرح الأسئلة بخصوص الأسباب والشروط التي منحت الخطاب التعبدى الديني فرصة ارتداء لباس العقلانية وتثبيت نفسه كمنطق سياسي.

هكذا، لا بد من الإشارة إلى أن هناك أيضا رغبة وميول من بنية روحية وذهنية معينة إلى استغلال واستعمال ذهنية مجتمعية مهيم عليها لصالح سلطة طبيعية يظن أنها تسيير الحياة والجسد والحلم والمدينة أيضا. نحن نحتاج بعض الأشياء الأخرى إلى الجانب الديني التعبدى أو الشعائري : نحن نحتاج اقتصادا قويا ومجتمعاً متماسكا وهويات قوية حاملة وحررة ومحررة وغير قاتلة.

شكيب خُشوس

أطرح نفس السؤال على الأستاذة زكية.

زكية داوود

أنا أرى أن ثقافة الاستياء عميقة، لأن مطالب الاستقلال والاستقلالية الملحة مستمرة عدواها في الانتشار منذ زمن بعيد. على سبيل المثال، كلما كانت هناك مواجهة مع أوروبا، نجد بلدان المغرب الكبير تتصرف كالإمبراطوريات، بدل التفاهم والتكتل في كيان واحد ؛ والنتيجة هي أنها تكون الخاسر كل مرة... أعتقد أن مطالب الاستقلالية هي أولوية الأولويات. من ناحية أخرى، لطالما كانت منطقتنا ساحة للعنف الديني. وأعتقد أن من واجبنا تحمل هذه المسؤولية ثم المضي في عملية التفكيك وإعادة البناء.

سعد الخياري

نحن جميعا نعرف من المسؤول عن استيراد هذا الإسلام المشوه. لكن السلطات في المغرب الكبير لم تمتلك الشجاعة الكافية كي تلقي القبض على المهربين الإسلاميين الذي هربوا هذه السلعة الفاسدة في الظلام. عندما نتكلم عن السلفية، فأنا سلفي ! ولا يمكنني أن أنكر تاريخي، أي تاريخ الإسلام. غير أن كلمة «السلفية» تمنح الشرعية لمنطق يفسر الإسلام تفسيرا فاسدا. والعجيب في أمر السلفيين هو أنهم يتعاملون بانقائية مع آيات القرآن، فتجدهم لا يتحدثون إلا عن الآيات التي تبدو في ظاهرها مؤيدة للتصور السلفي. والكارثة اليوم هي أن هذه السلعة المغشوشة باتت تصدر لأبناء الجالية المقيمة بالخارج وتعرض عليهم كلما رجعوا إلى أرض الوطن. حتى أننا أصبحنا نمر ببعض أحياء بعض الدول الأوروبية، فنحسب أنفسنا رجعنا إلى العصور الوسطى. هذا الوضع ساهمت فيه بشكل كبير البروباغندا السلفية القوية المدعومة بالمال السعودي. وخلاصة القول هي أن الخطر الذي يتهددنا أكبر بكثير مما قد نتصور.

شكيب خُشوس

شكرا لك السيد سعد. قبل أن أعطي الكلمة للقاعة، تمنيت لو يحدثنا إدريس عن هذا التهريب التعبدى الديني ؟

إدريس كسيكس

في الحقيقة لا أجدني أنسب شخص للحديث عن هذا الموضوع. لكن يمكن أن أتحدث في نقطتين اثنتين انطلاقا من القضايا التي أحاول فهمها من خلال أعمالي المختلفة. النقطة الأولى تتعلق بالفضاء العمومي : ألاحظ أن كل الإذاعات اليوم عندها برامج دينية وأنها تتبنى خطاب له حمولة ومرجعيات دينية في كل حدث له صبغة دينية... شخصا، لن أتهم العربية السعودية، فأنا لا أريد أن أنحي باللائمة على الآخر. فهم ما كانوا لبييعونا ما قد باعونا لو أن حكوماتنا كانت بالمرصاد : وهذه حقيقة يمكن الاستدلال عليها ببسر شديد. لا يخفى على أحدكم أن هذه السلعة لها عميق الأثر السلبي على البنى الاجتماعية التي تحدثت عنها من قبل : المدرسة والجامعة وصناعة الطبع والنشر : فقط ألقوا نظرة على الكتب التي ترد علينا من المشرق والسعودية تحديدا، وستعرفون عما أتحدث.

في لحظة معينة، سارت المؤسسة الدينية المغربية في اتجاه تأسيس ما يكن تسميته قومية دينية الهدف منها حفظ الأمن الروحي المغربي وتجديد مقاربة تسييس وتوظيف الدين لفائدة السلطة الحاكمة. كل هذه الشروط أنتجت لنا فضاء عموميا ضيق، حيث أن سمته الأساسية التي نراها كل يوم هي توظيف واستغلال الدين. هذه السمة ترسخها وسائل الإعلام بشكل يومي أيضا، عبر جملة من وسائل التواصل المتاحة داخل هذا الفضاء العمومي. والنتيجة هي أن البعض يفقدون قدرتهم على إعمال العقل والاختيار، لأنهم منشغلون بمعرفة ما إذا كان يتعين عليهم توحيد طرق أداء الشعائر. هذه أول ملاحظة لي في هذا الباب ؛ وهي ملاحظة أجدها أساسية، لأننا في هذا المستوى نتجاوز بكثير مسألة التراث التعبدية الديني نحو نوع من الاشتراط والتنظيم الاجتماعي السياسي. أما الملاحظة الثانية فهي أن من يعتبرون أنفسهم حداثيين لم يشتغلوا بالقدر الكافي على التراث التعبدية الذي شهده التاريخ الإسلامي بهدف تقديم طرح أخلاقي يواجه ويفضح الطرح الفاسدة من خلال الدعوة الأخلاقية في الساحات والميادين والمؤتمرات والكتب والتحدث لهؤلاء الناس عن أشياء حقيقة في واقعها ومنحهم اختيارات عديدة ومختلفة تنهي الهيمنة. إن تقديم الخيارات وإبراز كثرتها وتعددتها للناس هو أهم وأفيد ما يمكننا القيام به. وللأسف، فشلنا في النقطة الأولى والثانية أيضا حتى الآن.

شكيب غسوس

شكرا إدريس الكلمة الآن للجمهور الحاضر معنا قصد التفاعل وإبداء الرأي.

مداخلة

غالبا ما ننظر للتراث كشئ ينتقل من الماضي إلى الحاضر ؛ أتمنى لو نعتبر التراث حاضر-ماضي، فهو ليس شيئا منقولا وإنما شئ مبني، أي منتج. هناك نية لبناء التراث، وهذا يتماشى مع السياق الحالي.

شكيب غسوس

تماما، كلامك مهم جدا. يمكن أن نأخذ أسئلة أخرى.

مداخلة

نتحدث عن الإسلام كتراث مغاربي، بينما هو فرض علينا فرضا وغرست شجرته غصبا في أرض ليست أرضه. نتحدث عن التراث الثقافي، لكننا نركز كثيرا على الدين ونهمل الفلسفة والطب...

مداخلة

أرى أن خير وسيلة يطلع من خلالها المرء على الإرث الثقافي في بلد ما، هي التعليم. وهنا، أنتم تعرفون، المدرسة عندنا... لا تعترف بالتاريخ وتتكر له. وكما قال الحكيم غاندي : «لشعب الذي لا يعرف تاريخه شعب بلا مستقبل». النقص الكبير الذي نعاني منه في نظري هو معرفتنا بالتاريخ. وعليه أرى أنه من الضروري أن ننبه ونسأل المعلمين والأساتذة حول حالة النقص والاجتزاء التي تسم التاريخ المدرس لأبنائنا. فيما يخص الإرث الثقافي بالمغرب الكبير، المغاربة يتشاركون الكثير مع جيرانهم - الإرث اليهودي والكاثوليكي والقرطاجي والروماني والكثير من الأشياء الأخرى - وسيكون من المؤسف حقا اختزال التراث المغاربي في الإسلام. وكإضافة إلى ما قاله الباحث البيروفي على لسان الأستاذ كسيكس، أغلب المغاربة المرحلين إلى أمريكا اللاتينية، كانوا يهودا طردوا من البرتغال وإسبانيا سنة 1492. عندما وصل هؤلاء اليهود إلى فاس تم طردهم، بعد أن رفضوا الدخول في الدين الإسلامي. فما كان من هؤلاء إلا أن قصدوا إلى أمريكا اللاتينية مع من ذهب من الحرفيين.

مداخلة

أنا ألتبع الثقافة المغربية بالملاحظة والدرس منذ سنوات الآن. بحثت كثيرا في أشياء مكنتني من أن الاطلاع عن قرب على التراث والثقافة الفرنسية بطبيعة الحال والثقافة القرآنية وأشياء أخرى. وأنا أرى، لوجاز لي أن أستعين بهذا التشبيه، أن مسألة التراث هي بمثابة «قمع كبير» يصب لنا أشياء كثيرة : تاريخيا، نجمع في هذا التراث المغربي تراث الفينيقيين والرومان واليونان والأندلسيين... لكن ما الذي يصب من خلال ذلك «القمع الكبير» في وقتنا الحالي ؟ شيء بسيط من الثقافة ؛ شيء روحي ؛ إنه هذا الإسلام الغريب المليء بالقيود والتقليد. أما الإرث الثقافي المادي الذي يصلنا عبر هذا «القمع الكبير» فأجد فيه جزء يقلد أمريكا في «الهوت دوغ» وسراويل الجينز وموسيقى «الراب»... فهل ترون أن أمام شبابنا أي اختيارات مستقبلية غير هذين اللذين ذكرت لكم الآن، واحد روحي يتجلى في الإسلام وآخر مادي يتجلى في أمريكا.

مداخلة

مرحبا، أنا أشتغل كمدرسة، أعتقد أن هذه المواضيع تلقي بنا مباشرة في نقاش تاريخ الهوية. شخصيا، أصبحت ألتقي مزيدا من الشباب المضطربين والخائفين على هويتهم. ولا شك أن هذا الوضع له ارتباط بطبيعة الخطاب الديني السائد المهيمن، وهذا يقلقني للغاية. ومن هنا سأوالي : كيف لنا أن نحقق «مسألة الكوني» في عصر الثورة الرابعة والإنترنت.

بوعزة بنعاش

فيما يخص الكونية، أرى أنه لابد من نزع الطابع العرقي عنها ؛ أي مساءلتها وفق مقاربة متحررة من نزعة الهيمنة ومعتمدة على فكرة الاستقلالية كما يبينتها الأستاذة زكية داوود.

سعد الخيازي

أنا ألتفق مع كثير مما قيل ؛ وكل ما لدي هو إضافة بسيطة : يجب أن نقطع مع تلك العلاقة الملية بالاستحياء التي تربطنا بالتراث الثقافي. صحيح أن هناك بنية سياسية، لكن أيضا هناك مسؤولية سياسية تجب مراعاتها.

إدريس كسيكس

أنا متفق معك. شيء آخر، نحن بصدد بنية خطابية تمر عبر كل المرشحات التي تقوم بترشيح كل هذه الأفكار، والتي هي المدرسة والجامعة، بالإضافة إلى الإنترنت في عالم اليوم.

الشباب، المرجعيات والانتظارات

رئيس الجلسة : جليل بناني
المشاركون : هند المؤدب، فديكا ماطا
فضاء : أحمدو كوروما
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 12 : 45 - 11 : 15



موجز مداخلات المائدة المستديرة

لا شك أن شخصية المشرف على هذه المائدة المستديرة، السيد جليل بناني، قد وجهت النقاش وارتقت بمستواه. يهتم السيد بناني بقضايا «اللاجئين في المغرب» - صدر له مؤخرا كتاب بعنوان «طريق طويل : كلمات لاجئين بالمغرب» - وهو طبيب ومحلل نفسي مهتم أيضا بقضايا الشباب ومهاراته المهنية ؛ وقد كان يدهيا أن يقوده تخصصه إلى دراسة متخيل الشباب واللاجئين. في الحقيقة، يعتبر الخيال حجر الزاوية في العملية الإبداعية عند المبدع الذي يعكس حالة المجتمع. وقد ساهم في إثراء النقاش حول هذا الموضوع مفكرون ومبدعون ومختصون وشباب مهتم بالموضوع. أسعدنا حضور الفنانة الشيلية فديكا ماطا، المعروفة بخدمة المجتمعات البشرية عبر أعمالها الفنية في الفضاءات العمومية بالمدن، والتي تهدف إلى تغيير تمثيلات الناس حول هذه الفضاءات وخلق سلوكات وأساليب عيش جديدة.

لا أحد ينكر أن هذه الأنشطة الإبداعية تساهم بفعالية في تغيير المتخيل وتطور أنماط التفكير والسلوك. ضيفة أخرى سرنا حضورها معنا هي الصحافية هند المؤدب التي قدمت في مداخلتها مقاربة خاصة للمتحيل من نافذة الذاكرة التي تظل حية في ذهن الفاعلين المجتمعين حتى بعد فترة من نهاية الأحداث التاريخية التي يشهدها بلدهم. وقد تم عرض فيلم وثائقي أنجزته هند المؤدب حول الثورة المصرية يتضمن شهادات شباب صنعوا هذه الأحداث. يتيح لنا هذا النوع من الأعمال الإبداعية فرصة الفهم الصحيح للوقائع والحالة النفسية السائدة في تلك اللحظة الفارقة في حياة المجتمعات، لأن الأحداث توضع في سياقاتها وفي إطار تمثلات المساهمين فيها آنذاك، كل من موقعه.



يبعث الفنان الروح في الأماكن المهجورة من أدوارها التاريخية ؛ ويحيي صانع الأفلام الوثائقية ذاكرة موضوعية للتمثلات الذهنية السائدة عن الماضي وأحداثه. وبالتالي فكلاهما يؤثران على الخيال الجمعي، لاسيما عند الأجيال الصاعدة. وبلا شك، فالخيال والذاكرة الجمعية والتمثلات تتعلق أيضاً بالهجرة وتصورها ومدى قبولها في المجتمعات المضيفة. أعطيت الكلمة أيضاً لمجموعة من الشباب، وقد أثارت كلمة أحد الطلبة من جنوب الصحراء انتباهنا حول ظروفه المعيشية بالمغرب، وبأنهم معنيون بقضايا الهجرة أكثر مما قد نتصور. معنى هذا أن بلداً كالمغرب هو بلد انطلاق واستقبال في نفس الوقت، وهذا يجعله في مقدمة المعنيين بالهجرة وقضاياها. وتعيش دول أوروبية عديدة هذا الوضع المزدوج الذي يلزمنا الوعي به. وربما تساهم تقنية «الوخز بالإبر في المناطق الحضرية» التي توظفها فديكا ماطا في الفضاءات الحضرية العمومية في تحقيق هذا الوعي.

مداخلات المائدة المستديرة

جليل بناني

نفتتح هذه المداخلات بالسيدة فدريكا ماطا، وهي فنانة اشتغلت في جميع أنحاء العالم حاملة معها هم التحسيس بدور الفن والإبداع. أما المداخلة الموالية فستكون من نصيب الصحافية ومخرجة الأفلام الوثائقية هند المؤدب الفرنسية من أصول تونسية القادمة إلينا من باريس وعدة بلدان أخرى اشتغلت فيها، خاصة مصر وتونس. في سنة 2011، خطرت لهند فكرة توثيق أحداث ثورة الياسمين بتونس وثورة 25 يناير بمصر. وقد ركزت في فيلمها الوثائقي الذي ستحدثنا عنه في مداخلتها على الشباب وكيف عاشوا هذه الأحداث. بينت هند أن شباب مصر وتونس لديه الكثير من الإمكانات وقد لا يستهان به من الإبداع، لاسيما في الموسيقى التي تتجاوز الحواجز وتخترق كل الحدود. وحتى نكون فكرة أوضح عن أفلام هند المؤدب وقدرة الفنون التعبيرية والإيجابية على صنع التاريخ وتخليده سنشاهد مقتطفات من هذا الفيلم.

يسعدني جداً أن أكون بينكم اليوم وأن أدير النقاش في هذه المائدة المستديرة، خاصة وأنني كنت على الدوام مهتماً بقضايا الشباب. قد يتساءل المرء عن المستقبل وعن هذه الظواهر التي تسمى «ثورات» أو انتفاضات أو حركات. وفي الواقع، كلنا نشعر أن هنالك أمل في تونس وأن الأمور تسير إلى الأمام بشكل عام؛ ونحن هنا في المغرب نتابع المشهد التونسي باهتمام. لكن هذا لا يمنع من أن بعض القطاعات لا تحظى بالاهتمام اللازم، وأبرزها قطاع الشباب. الاستماع إلى الشباب ليس فقط بأن يقول المسؤول «أنا فهمتكم... أي نعم، أنا فهمتكم» ولكن أيضاً بأن يفهم كيف يغير هذا الشباب المجتمع ككل. وبما أننا في مدينة حدودية، فالهجرة من أهم مواضيع الإعلام الدولي، فمن المهم الاستماع لوجهة نظر الشباب المهاجر. لهذا قررنا دعوة ممثلي دائرة الطلبة الأفارقة من جنوب الصحراء بوجدة كي يقدموا لنا تصورهم للحياة في بلد المهجر وصعوباتها وسيعرفوننا على جماعتهم. وحتى لا أطيل عليكم أكثر، أعطي الكلمة للأستاذة هند المؤدب؛ ولتفضل مشكورة.

هند المؤدب

أود أولاً توضيح ما يجمعني بفدريكا ماطا، رغم أننا من عوالم مختلفة جداً. صحيح أن فدريكا امرأة تشيلية تشتغل في الرسم وإعادة إنتاج الفضاءات العمومية وأنا امرأة فرنسية-مغربية-جزائرية-تونسية تصنع الأفلام الوثائقية، لكننا نشترك في علاقتنا القوية بفكرة التخيل واهتمامنا بقضايا الشباب. قال الأستاذ جليل أن الثورات العربية عجزت عن تحقيق أهدافها السياسية. لكن، ما يهم فعلاً ليس النجاح السياسي لهذه الثورات، بل تأثيرها على متخيل المجتمع. هذا التأثير على المتخيل أصبح أمراً واقعاً نلمس أثره على شباب المغرب وتونس والعالم العربي والتشيلي. وأنا اليوم سأحاول تقديم مجموعة من الدلائل على أن الخيال في حقيقة الأمر لا يوجد خارج الواقع بل جزءاً منه ويؤثر عليه كما تفعل السياسة والاقتصاد أو ربما أكثر.

جليل بناني

أعطي الكلمة الآن للأستاذة فدريكا ماطا.

فدريكا ماطا

فقط كتوضيح بسيط قبل أن أبدأ، سنعرض مجموعة من الصور بينما أتحدث أنا في مواضيع مختلفة قد لا ترتبط مباشرة بهذه الصور. ثانياً، أشكر رفيقتي في رحلة التخيل والبحث المستحيل، الأستاذة أمينة المؤدب على كلامها الجميل. وأنا جد سعيدة بالمشاركة في هذه المائدة المستديرة بالمغرب الذي أزره لأول مرة.

في الحقيقة، تلهمني كثيرا هذه الحوارات وتحفزني على المزيد من العطاء، خاصة أنني أشارك رفقة هند التي تناضل في الميدان من أجل تحقيق أمور كثيرة أحاول تحقيقها عندما أرسم، وأنا مستلقية على سريري. أما بخصوص قضايا الشباب التي نحاول مناقشتها وتسلط مزيد من الضوء عليها، فأعتقد أن الإجابة الممكنة، لاسيما في المجتمعات حيث الأفق مسدود تماما وحيث لا تنتهي الكوابيس، هي أن كل واحد منا مطالب بتحفيز روح الشباب بداخله، أي أن يتحلى بشجاعة الغوص في أعماق الأشياء التي يجدها غامضة ويحاول فهمها. وشخصيا، أعتقد أن السير في هذا المسار سيمكننا من فتح الأبواب الموصدة وإعادة تشكيل البعد الكوني في الحياة. لقد رأينا للتو صورة تُظهر لوحة جدارية أنجزتها في التشيلي التي شهدت انقلابا عسكريا دمويا سنة 1973 (اغتيال الرئيس، قتل الناس واحتجاز المعارضين...).

ومباشرة بعد هذه الفاجعة، صارت الساحات مهجورة وصرت أَسْأَلُ : كيف يمكنني إعادة الناس إلى هذه الساحات ؟ فوجدت الجواب على سؤالي في فن النحت بتقنية أسميها «الوخز بالإبر في الفضاءات الحضرية» التي تعني خلق مشاريع إبداعية في مناطق محددة من المدينة تكون قادرة على تنشيط الطاقات الإبداعية التي كبتها العنف وخلق واقع وتمثيلات جديدة. كل واحد منا يحمل في داخله صدمات معينة تخلق فيه مناطق مظلمة يستعصي عليه الوصول إليها وكشف ما يكتنفها من غموض. وأرى أن الوعي بهذا الواقع مهم جدا، لأننا صرنا نتهرب من مواجهة صدماتنا وواقعا بالعيش في عالم مثالي نخلقه لأنفسنا على شاشة الهاتف والتلفاز والحاسوب. ومن نتائج استمرار هذا الوضع واستفحاله احتمال انقراض الجنس البشري. في الواقع، إذا تحقق هذا الاحتمال فهو لا يعني الكثير في مقاييس الكون. ولكننا كمنتمين للجنس البشري، نراه أمرا جلاا نتمنى تحاشيه. وشخصيا، أعتقد أن مسؤولية ابتكار أشياء جديدة ترفع مستوى الوعي لدى الجميع هي مسؤولية ملقاة على عاتقنا نحن المبدعون بشكل عام.

هذه الصورة التي ترونها الآن صورتها بمدينة فوكوكا اليابانية، قرب هيروشيما. وهي تعبر عن حالة من العنف الشديد. وفي الحقيقة، صور كهذه تجعلني مقتنعة أننا محاطون دائما بأشباح تتولد من صدماتنا الشخصية وصدمات أسلافنا ومجتمعنا ككل. لهذا من المهم جدا فهم كيف يحلم الناس بشكل مختلف عن بعضهم البعض. أنا مثلا، حلمت في أول ليلة لي بالمغرب أنني رياحٌ. ولم يسبق لي أن رأيتني رياحا في أي من سالف أحلامي حتى نمت في حضن وجدة، حيث يعانق الجبل البحر. وبلا شك، خوض تجربة خيالية كهذه أمر مثير حقا. أما الصورة المعروضة الآن فقد التقطتها بمدينة سان نازير الفرنسية خلال حفل كبير لنحت تمثال حورية بحر تذكر بدور المدينة في التجارة المثلية الأطلسية (التجارة الثلاثية) والعبودية وتنفض الغبار عن فترة مهمة جدا من تاريخ المدينة، تاريخ مسكوت عنه. بعض الناس، قد لا تعجب الأشكال والألوان المستعملة في تبليغ الرسالة، لكن ما يهم هو المشاركة واستعمال الفضاء العمومي فيما يفيد المجتمع، على أمل أن يطبع الناس مع هذه المبادرات الإبداعية. عندما نعي وقوعنا في فخ الأفكار القديمة، فالسؤال الحقيقي حينها هو : كيف نستبدل أفكارنا القديمة بأفكار جديدة ؟ وأسلوبى الشخصي في هذا الباب هو أنني أتخيلني وأنا أضع شمعة فوق رأسي بنبر لي ضوءها حقيقة الناس من حولي. أتمنى أن توفقوا أنتم أيضا إلى معرفة ولو جزء بسيط من حقيقة ذاتي. في مثل هذه اللقاءات، يخلق المشاركون فضاءات لم تكن من قبل، لا خوف فيها من التغيير أو الضياع. أعتقد أنه من المهم جدا أن نلتقي ونتحاور، لأننا حينها نفتح الأبواب الموصدة ونفهم كل صور العالم الحسية واللاحسية كخطوة مهمة نحو تغيير العالم.

أنا فعلا معجبة بهند لأنها تعايش قضايا الهجرة والمهاجرين بكل جوارحها. وأعتقد أنه في مواجهة هذا الواقع الجديد، سيتعين على كل واحد منا هجر ما هو مألوف عنده لأسباب كثيرة كالحروب أو بسبب قناعات فكرية جديدة معينة، خاصة أن العالم من حولنا يتغير بسرعة لم نشهد لها مثيلا من قبل. لقد ضاعت منا نقاطنا المرجعية في ظل هذه التحولات المتسارعة حتى صرنا نقاطا مرجعية لبعضنا البعض. نحن مطالبون بعقد المزيد من اللقاءات كي نخلق المجال المشترك الذي سيمكننا من تبادل المعارف والتصورات حول العالم والناس الذين يعيشون في ظروف صعبة للغاية، لاسيما أننا نعيش اليوم في ظل نظام جديد يهتز فيه الوعي.

بصراحة، أشعر بسعادة غامرة كلما تذكرت أنني مواطنة عالمية بمعنى الكلمة. كان والدي دائماً يقول «المدخل عند المخرج»، لذلك أؤمن أننا وإن كنا نقترّب من باب النهاية فنحن نقترّب في الوقت نفسه من باب البداية الجديدة؛ وما علينا سوى الوعي بذلك والعمل على دخول الباب الصحيح قبل فوات الأوان، وهذا أمر مثير للغاية! عندما نتحدث عن الشباب ونقول «مساكين» يبدو الأمر كما لو أنهم كانوا بالفعل في المنفى، لكن الحقيقة خلاف ذلك. ورغم عامل السن، أعتقد أننا جميعاً نبقى جزءاً من الشباب ما دمنا نخوض تجربة التواصل والتقاسم والإثراء مجتمعين. هذا تصور جديد يلغي الفرق بين مختلف الفئات العمرية على اعتبار أننا جميعاً أمام الكارثة.

هند المؤدّب

أتمنى عزيزتي فديكا أن تحدثينا قليلاً عن انقلاب 11 شتبر 1973 وكيف عشت أحداثه. وكيف تسبب في هجر الناس ساحة بلازا دي أرماس بالعاصمة؟



فديكا ماطا

لقد كان شهر شتبر من سنة 1973 صعباً للغاية بأمريكا اللاتينية، إلى درجة أنه إذا شوهد ثلاثة أشخاص معا يتهمون بالتحضير لانقلاب عسكري، لقد كان النظام السائد قائماً على إرهاب المواطنين، حيث لم يكن يُسمح لنا بالخروج بعد السابعة مساءً، ولم يُسمح لنا قط بارتداء ملابس ملونة. وعند أول هفوة أو خطأ، قد ينتهي بك المطاف في المعسكرات حيث تنتظر ألبشع طرق التعذيب. لقد عشنا عشرين سنة تحت رحمة الجنرال بينوشيه الذي حكم البلاد بقوة الحديد والنار. ثم فجأة، تم طرده من السلطة بشكل ديمقراطي. بعد شهر من رحيله، رأيت أن ساحات العاصمة مازالت مهجورة تماماً. ففكرت في فعل شيء يعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي.

من جهة، كان صعباً علينا كأفراد عيش حياة طبيعية، كما لو أصبح إحساسنا ووعينا بوجودنا أمر صعب التحقق. ولكن من جهة أخرى، كنا نساعد أناس آخرين، خاصة الأطفال الذين يحملون ذلك الجزء البهيج والنقي فينا. شخصياً، فضلت المساعدة بالرسم والنحت في الساحات العمومية. بعد تدشين واحدة من منحوتاتي، بدأ الناس يعودون إلى الساحة حيث وضعتها واحداً تلو الآخر بدافع الفضول حتى اعتادوا على الحياة في الفضاءات العمومية مرة أخرى. لقد أعادت منحوتاتي الحياة لتلك الساحة التي فقدت حيويتها منذ خمسة وعشرين عاماً. وبكلمات أخرى، عندما نشعر أن فضاء معين فيه شيئاً يأبى الظهور، فما علينا سوى التحلي بشجاعة التقدم إلى الأمام والكشف عنه ومشاركته مع الآخرين.

جليل بناني

يعتبر حضور الفنان في المشهد العمومي ضروريا للغاية. لأنه يبدع داخل فجوات و ثغرات أي نظام استبدادي. في السبعينيات، عندما كان النظام المغربي سلطويا، لكي لا نقول شيئا آخر، قرر الفنان محمد قاسمي الاجتماع بمجموعة كبيرة من الشباب في ساحة عامة بالرباط. وفي الآونة الأخيرة، اجتمع فنانون شباب في ساحة عمومية بنية عزف مقطوعات موسيقية ؛ لكن ما إن تحلق حولهم حشد من الجمهور، حتى تم تفريقهم. هذه القرارات السلطوية تلقى معارضة قوية على شبكات التواصل الاجتماعي، حيث تدعو أصوات كثيرة إلى جعل الفضاءات العمومية مسرحا يعبر فيه الشباب عن أنفسهم. وهذه دعوة معقولة جدا، لأنه لا فائدة من هذه الساحات العمومية إذا لم تتح للشباب فرصة إبراز إبداعاته ولأن الفضاءات العمومية ليست المساجد أو المدرسة فقط. من ناحية أخرى، يجب استنساخ تجربة فديكا بالتشيلي في جميع أنحاء العالم. وما أعجبني في تجربتها بشكل خاص هو أن أعمالها الفنية تبقى حيث أنجزتها.

فديكا ماطا

نعم بالتأكيد ؛ لأن هذه الأعمال تتيح فرصة فتح جسور الحوار مع السلطات المحلية وسكان الأحياء. وهي بمثابة نقطة مرجعية يرجع إليها كل المتدخلين في الشأن المحلي كلما تعقدت الأمور لأنها تساعد على الانتقال من حالة ذهنية إلى أخرى. بالمناسبة، أعمل حاليا في بورفو الفرنسية على لوحة جدارية كبيرة في ساحة تتم إعادة هيكلتها. والهدف الأساس من هذه اللوحة هو جمع الناس وحثهم على التفكير الجماعي في مسائل العيش المشترك التي تطرح نفسها علينا بقوة، تماما كفضايا الهجرة واللاجئين. وهكذا، ينقل الفن مشاعر الغضب والعنف إلى السلطات التي يفترض أن تتفاعل وتبدع في تقديم الإجابات المناسبة.

جليل بناني

عندما يكون صوت الفنان مسموعا، فإن السلطات تأخذ ذلك بعين الاعتبار. ذكرت قبل قليل اللاجئين والهجرة : هذه فرصة لإعطاء الكلمة لهند المؤدب التي ستحدثنا عن هذا الموضوع.

هند المؤدب

أنا حاليا أصور فيلما وثائقيا عن باريس كمدينة مغلقة تملؤها الحواجز التي تمنع الناس من الاستقرار والشرطة التي تطرد الأجانب إلى الضواحي. أعتقد أننا بحاجة إلى التخلص من عبارة «مهاجر» و«لاجئ» لأن أولئك الذين نصفهم بهذه العبارات هم بشر مثلنا. للأسف، نحن نعيش في عالم تنتقل فيه البضائع بحرية بينما تغلق الحدود أمام الناس وتساء معاملتهم ويتم تعذيبهم، بل ويتركون في مواجهة الموت. شخصيا، أعتقد أن تسمية هؤلاء الناس «مهاجرين» أو «لاجئين» هي طريقة مقنعة لإبعادهم وتميرير رسالة مفادها أنهم ليسوا مثلنا. غير أن من يفكر قليلا، سيدرك أنه كان من الممكن أن نكون مكان هؤلاء الناس لأن مكان ولادتنا هو مسألة حظ لا غير. وبالتالي، لا بد من التأكيد على أن لا فرق بين شخص فرنسي أو سوداني أو تونسي... لأننا جميعا أبناء هذه الأرض. أما بخصوص سؤال المتخيل، ما شعرت به بشدة في الأفلام التي صورتها هو أن ما شهدته بلد كمبر من ثورة مضادة وعودة قوية لدكتاتورية ليس فشلا بمعنى الكلمة. لأنني عندما عدت مؤخراً إلى هذا البلد وتحديث مع الناس في الشارع أو سيارات الأجرة، أدركت أن مصر ما بعد الثورة ليست مصر قبل الثورة، رغم أن النشاط والمناضلين الشباب إما يقبعون في السجون أو مبعدون في المنفى، وإما قتلوا. لقد فهم الناس أن بإمكانهم تقرير مصيرهم. ويعد هذا الوعي نهاية شكل من أشكال الاستقالة والانعزال. ويعني أيضا أنه حتى في حال إجهاض الثورة الفعلية، ففكرة الثورة تسكن العقول والقلوب. كنت هناك عند انتخاب السيسي، الذي كان المرشح الوحيد. والأشخاص الذين تحدثت معهم لم يندعوا، لكنهم كانوا يأملون أن تتحسن أحوال بلدهم.



ما أود قوله في أفلامي هو أنه لا يمكن لدكتاتوريات سجن الخيال. ولهذا ألتقي بأشخاص لا يتمتعون بالقوة السياسية أو الاقتصادية، لكنهم يتمتعون بقوة إبداعية. إنه لأمر مدهش ما يمكنهم فعله بقليل من المال. إنهم يبدعون أشياء ثمينة جداً أحاول تصويرها وتتبعها كصانعة أفلام وثائقية. أنتم الآن تشاهدون مقتطفاً قصيراً من فيلم وثائقي صورته في واحد من الأحياء العشوائية المنتشرة بالقاهرة والتي تبني دون ترخيص على الأراضي الزراعية.

القاطنون في الأحياء العشوائية هم من يضع خريطتها، حيث أنها مفتقرة للتجهيزات التحتية التي يسبب غيابها الكثير من المشاكل الصحية والبيئية. أكثر من ذلك، لا تدخل الشرطة هذه الأحياء الفقيرة التي تسير نفسها بنفسها في استقلال عن العالم الخارجي. لكن كل هذه الظروف الصعبة، يمكن للمرء أن يلاحظ في هذه الأحياء إبداعاً غنياً جداً، سواء في المجال المعماري أو الحضري أو الفني، وهذا يعني أن كل شيء ممكن رغم الظروف الصعبة. في الواقع، تأثرت كثيراً باللقاءات التي جمعتني بساكنة هذه الأحياء بين عامي 2011 و 2013، أي قبل العودة إلى الديكتاتورية. من أبرز ما ميز هاتين السنتين أمنياً غياب الشرطة في الشارع وحرية القيام بأي شيء ؛ وهذا ساعدني في عقد تلك اللقاءات. أما اليوم، فلا أعتقد أن بإمكانني تكرار نفس التجربة. عندما أعدت مشاهدة الفيلم بمناسبة عرضه في معهد العالم العربي، أصبت بصدمة : لقد رأيت مصر مختلفة حيث يمكن للمرء أن يعبر عن نفسه بحرية عكس ما هو موجود اليوم ؛ وقد قلت في نفسي حينها إنه من المهم تخليد هذه اللحظات التاريخية التي كانت تشهدها مصر آنذاك.

جليل بناني

قلت إنك لا تستطيعين تكرار نفس التجربة اليوم. ألم تحتاجي ترخيصاً من السلطات لتصوير هذا الفيلم الوثائقي ؟

هند المؤدب

في الواقع، لم يكن لدي أي ترخيص رسمي. بدأت التصوير بمفردتي. اكتشفت الشباب الذين صورت معهم الفيلم عبر الإنترنت فتواصلت معهم ؛ وقد صارت الأمور على ما يرام حتى انتهيت. وعكس اليوم تماماً، لم يكن حضور الشرطة قوياً في الشارع المصري حينها. كان بالإمكان القيام بأي شيء، لا أظن اليوم الأمر ممكناً.

جليل بناني

هل عرف هؤلاء الشباب أنك تصورين فيلم وثائقي يمكن عرضه على جمهور واسع ؟

هند المؤدب

نعم، لقد عرفوا دون أي لبس أنني أصور فيلما يمكن عرضه أمام الجمهور. وقد عرض الفيلم لأول مرة على الإطلاق في مهرجان الإسماعيلية قبل عرضه في باقي دول العالم. وفي الحقيقة، ساعد عرض الفيلم الموسيقيين الشباب الذين صورت معهم على اكتساب شهرة كبيرة وتقديم حفلات في دول أجنبية عديدة (إنجلترا، الولايات المتحدة، إلخ) علما أن لا أحد منهم كان يتوفر على جواز سفر قبل تصوير الفيلم وعرضه.

جليل بناني

تحدثنا عن الشباب والمهاجرين... وفئات أخرى وربطناها بالبعد الإنساني لأننا جمعيا من أصل واحد ؛ أليس كذلك ؟

هند المؤدب

لا أحب كلمة «فئة»...

جليل بناني

ربما يكون تقييبي الناس أمرا ضروريا عند المؤسسات وصناع القرار، فنحن لا نعيش في نفس الظروف ولسنا في نفس الوضعية. وأخذ هذا المعطى بعين الاعتبار أمر مهم جدا.

هند المؤدب

قد يكون هذا هو أصل المشكلة.

جليل بناني

إذا عملنا على بث الروح الإنسانية التي تجمعنا، فسيكون بمقدورنا مساعدة الناس على تحسين ظروفهم المعيشية والتطلع إلى المستقبل بأمل. أما الآن، فأعطي الكلمة لممثل جمعية الطلاب الأفارقة من جنوب الصحراء بوجدة.

مداخلة لطالب إفريقي

تمثل جمعية الطلاب الأفارقة من جنوب الصحراء بوجدة جميع الطلاب الأفارقة من جنوب الصحراء المسجلين في كليات ومدارس جامعة محمد الأول. تسعى جمعيتنا التي توتر أكثر من 750 طالباً من 27 دولة إلى خلق روابط متينة بين جميع الطلبة وتجاوز الحدود الثقافية والدينية والعرقية والجغرافية ومساعدتهم على التفوق في مسارهم الدراسي والاندماج داخل المجتمع المغربي. تنشط الجمعية في عدد كبير من المجالات، كتنظيم الأيام الرياضية والأمسيات الطلابية والأيام الثقافية والمشاركة في تمويل الرحلات الميدانية.

جليل بناني

إذا، هل يمكننا القول إن وضع الطلبة أفضل من وضع المهاجرين غير الشرعيين أو اللاجئين الذين يأتون إلى هنا لأسباب مختلفة. أنت مثلا رغم إقامتك هنا كطالب وتوفرك على الوثائق الضرورية، مازلت تواجه تصرفات وخطابا لا يمان عن ترحيب وقبول. أود أن نخبرنا بصدق شديد كيف تعيش في وجدة والمغرب عموما. نتحدث كثيرا عن الضيافة المغربية، ولكني أعتقد أن هذا لا ينفي صعوبة الحياة اليومية. لقد استقبل المغرب الطلاب الأفارقة منذ السبعينيات، ما يعني أنه دائما كان لهم وضع مختلف عن باقي الأفارقة القادمين كمهاجرين غالبا، ما جعل الكثير من المهاجرين ينتحلون صفة طالب، لكن هل يعني هذا أن وضع الطلبة جيد حقا ؟

مداخلة طالب إفريقي

بشكل عام، لا نشكو من وضعنا هنا في المغرب. ونحن ندرك أن الساكنة لا ترحب بنا بشكل كبير. على سبيل المثال، يوم الجمعة هو يوم الكسكس الذي يجمع العائلة والأصدقاء. تصلني رائحة الكسكس اللذيذة كل أسبوع من بيت جيرانني المغاربة، لكنهم لم يدعوني قط إلى مشاركتهم تلك اللحظات المميزة من العيش المشترك، رغم أنني أعيش هناك منذ أربع سنوات.

جليل بناني

شكرا على شهادتك. الكلمة للحضور قصد التفاعل وإبداء الرأي.

كريم الحدادي

أنا طالب في ماجستير لسانيات اللغة الفرنسية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة. وقد صدرت لي ثلاثة كتب تهتم بقضايا عديدة منها قضايا الشباب. في الحقيقة، ليس لدي سؤال، بل لدي تعليق مقتضب على ما جاء في المداخلات. فيما يخص أوضاع الشباب المغربي والعربي والإفريقي، يمكنني القول إننا أصبحنا عبيدا (حتى وإن كانت هذه الكلمة تحمل معاني قديمة جدا) لشبكات التواصل الاجتماعي. فنحن لم نعد نبحث عن الثقافة في الكتب. أتطرق في أغلب كتاباتي إلى مواضيع تهتم الشباب العربي والإفريقي. لم أتحدث في كتيبي الثلاثة عن مواضيع كالحب والتعليم فقط، بل ناقشت الإنسان من حيث هو إنسان دون أي اعتبارات أخرى، وهدفه هو رفع مستوى الوعي.

جليل بناني

أمل أن تلقى إصداراتك الإقبال والتفاعل الذي تستحق. وفي الحقيقة، من الجيد أن يشجع شباب مثلك كل مكونات الشعب على القراءة، خاصة الشباب أمثالهم. من ناحية أخرى، أنفق معك على أن الشاشات وشبكات التواصل الاجتماعي قادرة على قتل رغبة القراءة في الناس. أنا على يقين أنك أنت والشباب من أمثالك ستنشرون الوعي بأهمية المطالعة أفضل منا. وأنا هنا أدعوك إلى تأسيس جمعية وخلق شبكة علاقات تساعدك على تبليغ رسالتك كما فعل شباب آخرون بمدينة الدار البيضاء والرباط. يجب أيضا إنشاء ورشات للكتابة الإبداعية لأنها تساعد كثيرا على ربط المرء بالكتاب.

فدريكا ماطا

يبين لنا إيماننا على الشاشات أننا قادرون على الاتصال بالآخرين. وهذا الجانب الإيجابي لابد من تطويره في الاتجاه الصحيح.

جون بول كافالييري،

ممثل المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في المغرب

تفاعلا مع كلامك أستاذة هند، أجد، كممثل للمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بالمغرب، أن مسألة المواءمة بين المواطن والمهاجر واللاجئ تشكل تحديا حقيقيا. اللاجئ، بشكل عام، يهرب من الحرب والاضطهاد، إلخ. وقد يختار المهاجر مغادرة بلده طوعية، ولا مشكلة في ذلك. وفي الواقع، أنا بنفسني ابن مهاجرين إيطاليين قررا في لحظة ما البحث عن مستقبل أفضل في مكان أفضل. لكن، أعتقد أنه لابد من توفير حماية خاصة للاجئين لأنهم لا يستطيعون العودة إلى بلدانهم حيث ستصبح حياتهم مهددة، وذلك بموجب مبدأ الحماية الدولية الذي يمنع على الدول إعادة اللاجئين إلى بلده الأصلي إذا كانت حياته مهددة بالخطر.

هند المؤدب

مع ذلك، فمنذ مارس من سنة 2017، أعادت فرنسا مثلاً عدداً من اللاجئين إلى السودان التي ألقت بهم في السجن بتهمة مغادرة التراب الوطني دون ترخيص مسبق. وهذا يعني بما لا يدع مجالاً للشك أن الحق في اللجوء لم يعد مضموناً للجميع. شخصياً، أعرف أناس كثر فروا من نفس البلد للأسباب نفسها. لكن المفارقة الصادمة هي أن بعضهم حصل على حق اللجوء في فرنسا، بينما حرم منه البعض الآخر. وهذا يدل على أن بعض الدول تتعامل مع الفارين من الحروب والموت بمنطق الحصص (الكوطة)، ما يشكل ضربة قوية لحق الإنسان في اللجوء. وما يبعث على الأسى بخصوص البلدان الأوروبية هو أنها بنت ثروتها عبر نهب ثروات بقية العالم دون حسيب أو رقيب. تتحدث هذه البلدان كثيراً عن حق اللجوء وضرورة استقبال اللاجئين وحمايتهم، لكنها لا تتخذ أي إجراءات فعلية في هذا الاتجاه لأنها في الحقيقة تقول ما تقول فقط لتتخلص من تأنيب الضمير. وبناءً على ما سبق، فالفرد الذي يقدم طلب اللجوء في فرنسا، فكلنا يلعب اليانصيب فقط.

جون بول كافاليري

يواجه حق اللجوء صعوبات في جميع البلدان بسبب مشاكل كثيرة تصعب تطبيقه ومنحه لمن يستحقه فعلاً. فمثلاً، يغادر مهاجرون كثر بلدانهم لأسباب مختلفة لا تهدد حياتهم، وأنا أحترم اختيارهم، لكنهم يطالبون بحق اللجوء ويزاحمون أو يحرمون آخرين هم أولى منهم به. لهذا لا بد من حماية الأشخاص المهددة حياتهم في بلدانهم الأصلية.

هند المؤدب

يجب أن نكون حذرين في تعاملنا مع كلمة «مهاجر» المستخدمة في وسائل الإعلام، لأننا نخلق مسافة وبقا بين الناس ونخلق ضرراً جسيماً بمبدأ المساواة أمام القانون. ومع مرور الوقت، سيصبح في المجتمع الواحد فئة تسمى المواطنين وفئة تسمى الآخرين، وهذا بلا شك انتهاك خطير لحقوق الإنسان. للأسف، تحدث هذه الأمور في قلب باريس. فقط حتى أكون واضحة، أنا لا أقول لا بد أن يكون جميع الناس في نفس الوضع المريح، وإنما أدعو إلى التخلي عن مصطلح «لاجئ» أو «مهاجر»؛ وأنا هنا أتحدث بمنطق فلسفي بالدرجة الأولى. إذا تأملنا في التخيل واللاوعي الجمعي الغربي سنرصد مجموعة تصورات وأفكار خطيرة حول الهجرة والمهاجرين تبعث على القلق. ولأننا لا نعطي الكلمة لهؤلاء المهاجرين، يترسخ في أذهاننا أن هؤلاء الناس لا يمكنهم قول «أنا» وأن لا حق لهم في الوجود والعيش الكريم. وعموماً، عندما تكون هناك ندوات حول هذه القضايا، فإننا ندعو خبراء ومختصين، وهذا أمر جيد؛ لكننا لا ندعو اللاجئين أو المهاجرين للتحدث، وهذا بالنسبة لي مشكل كبير. لدى أخذ مسافة عندما يتعلق الأمر باستخدام هذا المصطلح الذي أنسانا أنهم بشر مثلاً.

جليل بناني

للأسف، الواقع يقول أن هذا المصطلح موجود. وإذا أردنا تجاوزه فعلاً، فيجب أن نعيش ونحن مؤمنون أننا كلنا بشكل أو بآخر مهاجرون ونتاج للهجرة. شخصياً، أؤمن أنه من الصعب الحديث عن الفكر والثقافة والقيم الإنسانية وتطورها دون استحضار دور الهجرة. وفي الحقيقة، قد يكون الإنسان مهاجراً حتى داخل بلده.

مداخلة

التحدي الكبير الذي نواجهه في عملنا مع الشباب هو معرفة سبل جعلهم قادرين على لعب أدوار إيجابية ومؤثرة دون السقوط في نزعة التشبيب المتحاملة على الفئات السنية الأخرى وبالتالي خلق صراع بين الأجيال. ونلاحظ في مغرب اليوم مثلاً أن عدد وتأثير المتقاعدين والشباب في ارتفاع مستمر.

من ناحية أخرى، هناك عمل كبير يجب القيام به على مستوى تخليد الذاكرة بمختلف الأشكال الإبداعية الممكنة كالفيلم الوثائقي الذي صورته هند المؤدب. وقد تأكد لنا خلال لقاءات نظمته المنظمة الحقوقية غير الحكومية أروميد دعت إليها فئات عريضة من جميع بلدان المتوسط أن هناك إهمالا كبيرا للذاكرة الجمعية. لكن يجب الاعتراف بصعوبة الاشتغال على هذا الموضوع. فإذا تحدثنا مثلا عن المغرب الكبير ذي الخصوصيات العربية والأمازيغية والأفريقية... فالاشتغال على الذاكرة أمر معقد للغاية.

هنا أعود إلى فكرة خلق مشاريع صغيرة في مناطق محددة داخل المجال الحضري التي ذكرتها فدريكا ماطا لأذكر مشروعاً تم تنفيذه بالتعاون مع اليونيسف تحت شعار «الطفل والمدينة». وقد شارك الشباب في هذا المشروع بشكل فعال في مرحلة التشخيص، إذ يجب تحرير الشباب من قيود رؤى وتصورات البالغين وسيطرة المؤسسات على كل شيء ومنحهم فرصة المشاركة في اتخاذ القرار.

فدريكا ماطا

السؤال (أو الإجابة) هو : كيف نصل إلى تطوير الإبداع ؟ وأقصد هنا سبل تطوير الإبداع فينا وفي الأطفال والمتقاعدين والمسؤولين المحليين. لكن في ظل تعثر هذا المشروع وإدمان الناس على الشاشات، يجب أن نتساءل حول سبل إعادة الاتصال بحسنا التخيلي وإعادة بعضنا إلى البعض كبدائية. يجب أن نكون قادرين على خلق فضاءات محايدة حيث يمكن للوالدين والأطفال والأجداد التلاقي ومعالجة صدماتهم المختلفة. ومن خلال هذه «الأماكن المقدسة»، يمكننا أن نعطي صورة جديدة عن المدينة. والأکید أن فضاءات كهذه يمكن أن تحتضن تظاهرات مختلفة كالتظاهرات الفنية والسياسية.

مداخلة

أنفق مع الأستاذة هند بخصوص استخدام كلمة «مهاجر». فلقد استقبلت بلدي تونس عام 2011 أكثر من مليون ليبي ولم تعتبرهم «مهاجرين» ورحبت بهم رغم كل صعوباتها الأمنية والسياسية والاقتصادية. ما أريد قوله هو أن حديث ومقاربة أوروبا عن هذه القضية المعقدة بشكل مختلف عما نقوم به ليس مستغربا. في الواقع، ما قام به الشباب التونسي خلال تلك اللحظات التاريخية التي شهدتها تونس استثنائي حقا، فقد استثمروا الفضاء العام بمختلف أشكاله، وبشكل مميز. وهذا لم يكن ممكناً لا في زمن بن علي ولا في زمن بورقيبة. لقد استثمروا الفضاء العام في إظهار إبداعاتهم وتنظيم تظاهرات مختلفة أفادت المجتمع.

فدريكا ماطا

يجب أن تتوفر المدارس والإعداديات والثانويات على برامج للتعليم الذاتي في المجال الفني حتى يتمكن الشباب من تطوير قدراتهم الإبداعية.

جليل بناني

للأسف، داهمنا الوقت. كان النقاش شيقا للغاية رغم أننا لم نوفق في تسليط الضوء على كل جوانب هذا الموضوع المهم جدا ؛ لكن يبقى النقاش الموسع مستمرا، ولقائنا اليوم هو مساهمة في هذا النقاش. في الختام، لم يبق لي إلا أن أشكر المتدخلين على إسهاماتهم القيمة والحضور الكريم على حسن الإصغاء والمتابعة.

رئيس الجلسة : مولاي احمد الكُمون
المشاركون : روني دوسيكتاتي، محمد بنيس، أنطونيو شافيس
فضاء : القدس
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 16 : 30 - 15 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

نجح الأستاذ الجامعي المختص في الدراسات الإسبانية والأندلسية مولاي احمد الكُمون، وهو غني عن كل تعريف في تسيير هذه المائدة المستديرة بكل اقتدار. بعد افتتاح الجلسة بأسلوبه المميز، أعطى الكلمة للكاتب والناشر والمترجم الفرنسي من أصول تونسية الأستاذ روني دوسيكتاتي الذي بين باللموس كيف وصل إشعاع الأندلس في العصور الوسطى إلى إيطاليا وكيف أثر الفكر والأدب العربيين في كاتب عظيم بحجم دانتي أليغييري مؤسس اللغة والثقافة الإيطالية الحديثة.

يسمى دانتي بالشاعر الأكبر والأعظم، وهو أول شاعر ينظم باللغة الإيطالية بدل اللغة اللاتينية خلافا لما جرت عليه العادة آنذاك. وقد نال شعره إعجاب الجميع. ازداد هذا الشاعر العظيم بمدينة فلورنس عاصمة إقليم توسكانا سنة 1265، حيث نشأ وهو يكتب ويتحدث لهجة محلية ستصبح فيما بعد القاعدة الأساس في بناء اللغة الإيطالية.

عرف عن دانتي إعجابه الكبير بالشاعر اللاتيني فرجيل، كما أن بعض الباحثين متفقون على أن الرجل تأثر أيضا بالشاعر الإغريقي هوميروس. في الحقيقة، تمنحنا هذه المائدة المستديرة فرصة الاطلاع على التأثير الكبير للأدب والثقافة العربيين في فكر دانتي وأسلوبه الذي أصبح أكثر نضجا خلال السنوات الأولى من القرن الثالث عشر الذي شهد بداية انحطاط دولة الموحدين (توفي دانتي سنة 1321) وبداية حروب الاسترداد التي ستنتهي بسقوط مملكة غرناطة سنة 1492. هذا يعني أن دانتي عاش إبان ذروة وأوج الإشعاع الفكري للأندلس. يحضر معنا أيضا أحد أعلام الشعر العربي المعاصر، ابن مدينة فاس محمد بنيس، والذي بلغت شهرته العالمية، والذي ركز في معظم أعماله على الشعر واللغة العربيين، حيث أن بنيس يحتفل في مداخلته بتاريخه وتراثه الأندلسي الذي له تأثير عميق في مسقط رأسه حتى يومنا هذا.



ضيف آخر أسعدنا حضوره معنا اليوم، وهو ممثل منظمة «الثقافات الثلاث» والباحث الإسباني أنطونيو شافيس. يستحضر ضيفنا الكريم في كلمته التنوع والغنى والإسهامات المستمرة التي جاء بها المكون الأندلسي من أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية إلى شمال إفريقيا. وضيفنا، يرى ويعتقد أن الموروث الأندلسي حيوي ومازال ينبض بالحياة حتى يومنا هذا.

لقد بلغت نقاشات هذه المائدة المستديرة محطتها الأخيرة متحررة من مشاعر الحنين إلى الماضي، بل جاءت محتفلة بالموروث الثقافي الأندلسي في أبعاده وصوره العصرية المختلفة التي نتملكه من خلالها ومؤكدة أهمية استعانتنا به في استشراف المستقبل.

مداخلات المائدة المستديرة

مولاي احمد الخُمون

جمعت هذه المائدة المستديرة ثلة من المثقفين من المغرب وإسبانيا وفرنسا. وبالفعل، يحمل مصطلح «الأندلس» دلالات جغرافية وتاريخية عميقة في الآن ذاته. الأندلس موضوع إشكالي لأننا لا نعرف على وجه اليقين هل هو جزء من الماضي أم الحاضر أم المستقبل. هل الأندلس ماضي مؤلم وذكرى حزينة كما قال عبد الكبير الخطيبي أم إنها نموذج يجدر بنا استحضاره في حاضرننا ومستقبلنا ؟

صور الأستاذ عبد الكبير الخطيبي الأندلس كقوة جذب تسجننا في الماضي وتغرقنا في أجواء الحنين والبقاء على الأطلال على نحو يشهد انتباهنا اتجاه الحاضر والمستقبل. وعليه، اعتبر أنه لا بد من إعادة قراءة وفهم تاريخ الأندلس للوقوف على عوامل توافق وتجانس مكونات المجتمع الأندلسي وتشبعه بقيم نبيلة كتحمل الآخر والتعددية، مؤكداً أنه حينها فقط سيكون الحديث عن الأندلس مفيداً.

أعطى الكلمة الآن للناشر والروائي والكاتب المسرحي والمترجم من الإيطالية واليابانية إلى الفرنسية روني دوسيكتاتي، الفرنسي ذي الأصول التونسية. وسيدشنا الضيف الكريم في مداخلته عن «الكوميديا الإلهية»، أعظم عمل أبدعه دانتي أليغييري، أشهر كاتب ومفكر وشاعر وسياسي من فلورنسا.

روني دوسيكتاتي

سأتطرق في مداخلتي إلى موضوع يهمنا جميعاً. سأحدث عن العالم الإسباني كبوتقة صُهر فيها المكون العربي مع مكونات أخرى على نحو مكن العالم العربي من التجلي في «الكوميديا الإلهية» التي ترجمتها مؤخرًا إلى اللغة الفرنسية. لقد تساءل العديد من الباحثين المختصين في العالم العربي، خاصة المهتمون بالدين الإسلامي، منذ بداية القرن العشرين بخصوص مدى تأثر دانتي بالمؤلفات العربية. ومما يعطي شرعية لهذا التساؤل اعتراف دانتي شخصياً في العديد من مؤلفاته («الكوميديا الإلهية» و«الوليمة») بفضل الأدب العربي وبعض الفلاسفة العرب عليه. بطبيعة الحال، أكثر من كان يشير إليهم دانتي هم في الواقع ابن سينا وابن رشد من حيث أنهما ناقلان وممرران للفكر الأرسطي. إذا أول شيء مهم تأكدنا منه عند دانتي هو تمتعه بثقافة الاعتراف.

الأمر الثاني الذي أريد التطرق إليه سريعاً جداً في مداخلتي - مادام الأمر متاح للجميع ويمكن الإطلاع عليه في مجلدات - يتعلق بحضور مفكرين عرب كبار في ثنايا العمل الأدبي العظيم «كوميديا الآلهة». وبما أن دانتي ذكر هؤلاء المفكرين العرب ضمن فصل «الجحيم» في مصنفه، فلا بد، حسب البعض، أن نرى كيف قدمهم. في الحقيقة، دانتي وضعهم في منطقة رمادية غير واضحة على اعتبار أنهم ممن تعذر عليهم الاستماع إلى كلمة المسيح لأسباب مختلفة كتلك المتعلقة بالجغرافيا أو الزمن. لقد رفض دانتي إدانتهم، وهذا أمر مهم للغاية. في مقابل ذلك، قذف دانتي بمحمد في الجحيم دون تردد لادعائه النبوة ورفضه ابن الرب يسوع المخلص. هذا يعني أن دانتي تبنى الموقف العام للكنيسة من نبي الإسلام.

النقطة الثالثة في مداخلتي أخصصها للفيلسوف الإسلامي الإسباني العظيم ميغيل أسين بلاثيوس. من مشاريع هذا الرجل دراسته كل مؤلفات دانتي وعلى رأسها «الكوميديا الإلهية» بحثاً عن أي أثر لنصوص تنسب إلى نبي الإسلام محمد بن عبد الله أو أبي العلاء المعري من «رسالة الغفران». سأتبين في الوقت المتبقي لي كيف أحوالت «الكوميديا الإلهية» على الفكر والأدب العربيين واستفادت منهما كممثل رئيس للروح والرؤيا الإسلامية - كما يرى بلاثيوس - وكممرر رئيس للفكر والفلسفة والعلوم القديمة ؛ وسأفعل ذلك من خلال ثلاثة أوجه. تعتبر «الكوميديا الإلهية» خلاصة وافية لعلوم العصور الوسطى منذ بداية القرن الرابع عشر. وهذا يؤكد أنها تلعب أدواراً أخرى كالدور التاريخي إلى جانب دورها الأدبي الشعري.

أردت أن أعرف، كمفكر انطلق من خلفية مسيحية بعيدة تماما عن الكنيسة، كيف استطاع دانتي المتأثر بالأفكار المسيحية تقبل واستيعاب رؤيا وجودية مختلفة تناقض الرؤيا المسيحية الكاثوليكية. وأردت أن أفهم أيضا كيف أدخل في عمله ذي الطابع الفلسفي والشعري فكرا، كان من الممكن وضعه في قصة أخرى مختلفة ومستقلة.

يتشكل تاريخ منطقة فلورنسا في جزئه الأكبر من تاريخ المسيحية والتاريخ الأوروبي القديم. مع ذلك، يرجع الباحثون - وهذا كله فرضية غير مثبتة تاريخيا - أن أستاذ دانتي العظيم برونيتو لاتيني المستشار بديوان ألفونسو العاشر ساهم في جلب مصنفات عربية ترجمت إلى اللغة اللاتينية والإسبانية والفرنسية ؛ هذا يعني أنه كان هناك قدر معين من الانفتاح على الثقافات الأخرى. ومما يدعم هذا الرأي عثور الباحثين على ترجمة قديمة «لرسالة الغفران» باللغة المحلية في منطقة بروتاني الفرنسية. النقط التي أشرت إليها مختلفة وقد تبدو غير مترابطة، لكنها جميعها تشير إلى حضور قوي جدا للمكون العربي والإسلامي والفارسي في أعمال دانتي. مثلا، يشير دانتي في مصنفه «الوليمة» مرارا لابن سينا وابن رشد، خاصة فيما يتعلق بتصوراتهما حول طبيعة الروح التي جاءت كشروح وتعليقات على أفكار أرسطو ؛ كما أنه استحضر الإمام الغزالي في عدة مواقع. إلى جانب هذه الشخصيات ذات الحضور القوي، ذكر دانتي أسماء بعض علماء الفلك الفرس. شخصا، أرى أن دانتي كان ذكيا باستحضاره كل هذه الشخصيات التي منحت معنى وواقعية أكبر للصورة التي رسمها عن الجنة.

وهكذا قدم دانتي خلاصة جامعة مانعة لفلسفة القرون الوسطى المستندة أساسا على علم الفلك القديم الذي مرره الفرس لمن جاء بعدهم.

ومما لا شك فيه هو أن هذا الخليط العجيب من الأفكار والشخصيات والأحداث بلغ أثره العميق في بنية وكنه الكوميديا الإنسانية ككل. جاء دانتي على ذكر ابن رشد لأول مرة في «الكوميديا الإلهية» عندما تساءل بخصوص أعظم مقالة عن الروح وطبيعتها ؛ وكل من قرأ المصنف يعلم أنه اختار مقالة أرسطو «عن الروح». وفي هذا السياق بالذات وظف دانتي فكرة مركزية في الفلسفة الرشدية والفلسفة الواحدة مفادها أن أصل روح كل ذي روح هو روح واحدة كونية. الإشارة إلى هذه الفكرة وإلى اهتمام دانتي بها مهم للغاية حيث يفسر مركزيتها في مصنفه «الملكية» المخطوط باللاتينية والمهتم بقضايا السياسة في المقام الأول. بناء على ما سبق، يصبح الاعتراف بفضل ابن رشد في ما أنتجه دانتي أمرا لا بد منه، وأنا أتكلم بهذا الأسلوب المباشر فقط لأن دانتي نفسه اعترف بفضل ابن رشد ومبدعين آخرين عليه، خاصة الفلاسفة. صحيح أن دانتي أشار إلى ابن رشد وابن سينا في الأناشود الرابعة من فصل «الجحيم» من كتاب «الكوميديا الإلهية»، لكنه لم يذنها بشيء. لا بد هنا من التأكيد على أن الأناشود الرابعة مخصصة لكبار فلاسفة وأبطال العصور القديمة. يظهر ابن رشد وابن سينا في فصل «الجحيم» كشخصيتين خارجيتين عن المؤلف يصعب اتخاذ موقف واضح منها ؛ وذلك تماما ما فعله دانتي ؛ فهو لم يلحقهما لا بأهل النعيم ولا بأهل الجحيم. وهذا قرار له دلالات عقديّة وسياسية عميقة. الموقف ذاته اتخذه دانتي اتجاه فرجيل أحد الشعراء العظام الذين اعترف لهم بالعبقريّة ولو أنه يصهر في بوتقته الإبداعية شيء من روح هذا الشاعر. ومن ناحية أخرى، أردت أن أعرف الأسلوب الذي اتبعه دانتي لإقحام اسم نبي الإسلام محمد بن عبد الله والحديث عنه في فصل «الجحيم».

الأناشود الرابعة من هذا الفصل عنيفة، لكنها لم تكف دانتي عندما أراد إصدار حكمه على محمد ؛ فقرر إقامة المحكمة في الأناشود الثامنة والعشرين المخصصة للمهرطقين وناشري الفوضى. المثير حقا هو أن دانتي تطرق لأنواع العذاب التي مر منها نبي المسلمين ولم يغفلها. لقد احتار دانتي وتردد بين إدانة محمد ونقل معاناته المريعة الصادمة التي قال إنه عجز عن وصفها من شدة فظاعتها. وقد ظهر محمد ابن عبد الله في كتابات دانتي آخر مرة بمناسبة إعدام الكنيسة مؤسس الحركة الدولتشيانية الإيطالي فرا دولتشينو بتهمة الهرطقة، حيث عبر دانتي عن تعاطف كبير مع هذا الرجل.

لماذا استحضر دانتى نبي الإسلام في هذا الموقف ؟ كان دولتشينو عضوا في الرهبانية الفرنسيسكانية نسبة إلى مؤسسها القديس فرنسيس الأسيزي قبل طرده منها ، وإسم محمد كان ناقوس خطر يعلن القادم من المعاناة ثم الإعدام.

فهم هذا التفاصيل أمر مهم لأن جهلنا بها يجعلنا نقرأ «الكوميديا الإلهية» ونحن نظن أن دانتى له نفس أحكام مینوس ملك مملكة كريت الأسطوري الذي حكم العالم السفلي بعد موته. أمر مهم آخر تجب الإشارة إليه هو أن حضور شخصية ما في فصل الجحيم لا يعني بالضرورة إدانتها لكنه يعني وقوفها في محكمة القاضي مینوس الوثني.

يجب التأكيد على أن الحكم النهائي لم يصدر في «الكوميديا الإلهية» إلا في مشهد نهاية العالم. وبالتالي فالذين ألقوا نار جهنم هم أولئك الذين أدانتهم الكنيسة. دانتى كان من أشد منتقدي السلطة الدينية المهيمنة على كل مظاهر الحياة آنذاك. وبالتالي فنحن لا نتحدث عن حكم يعكس موقفه في جميع الأحوال. لقد كان مهما جدا أن تشهد «الكوميديا الإلهية» حضور مفكرين عرب لهم فضل كبير في تشكل ملامح فلسفة دانتى.



النقطة الثالثة التي أود الحديث فيها هي الإشكال الذي طرحه ميغيل آسين بلاثيوس عندما قال أن «الكوميديا الإلهية» مستوحاة من «كتاب معراج محمد» و «رسالة الغفران» وكتابات ابن عربي. من دون شك، كلام كهذا لا بد من التعامل معه بحذر وتحفظ، خاصة أن الباحثين الذين جاؤوا من بعد ما دققوا في كل نقاط التلاقي الممكنة بين «كتاب معراج محمد» و«الكوميديا الإلهية».

الفكرة الأساسية محل النقاش هنا هي فكرة سفر الأرواح بعد الوفاة، وبالضبط حدث إسراء ومعراج نبي الإسلام محمد ليلا إلى عالم الغيب كما هو وارد في «كتاب المعراج». عندما أقام بلاثيوس مقارنته بين الكتابين تلقى انتقادات كبيرة من عدة مفكرين أبرزهم لويس ماسينيون، لأنه من الخطأ حسب هؤلاء المنتقدين مقارنة «الكوميديا الإلهية» من منطلق أنها نص مقدس في حين أنها كتاب شعري بروح نقدية مستفزة سياسيا ودينيا.

علم دانتى علم اليقين أن البابا بونيفاس الثامن كان عدوا له. كما أن الفلاسفة المسيحيين أبدوا ردة فعل عنيفة للغاية اتجاه ما اعتبروه إسراف دانتى في النهل من الفكر العربي، خاصة بعد اعترافه ضمنيا بغنى هذا الفكر. لما ترجم المفكرون العرب الكبار الفكر الإغريقي إلى العربية لم يكن دافعهم هو أسلمة هذا الفكر.

كل ما في الأمر هو أنهم أرادوا النهل من معينه حتى الارتواء قبل نشره عبر كل ربوع العالم. ما قلناه عن المفكرين العرب ينطبق على مفكرين غربيين كأستاذ دانتي العظيم برونيتو لاتيني الذي لم يتردد في جلب مصنفاً ومؤلفات عربية وترجمتها. هنا، يجب النظر للأمر على أنه نقل وإثراء ونشر للمعرفة والحقيقة، وهذا تماماً ما فعله دانتي. في ختام مداخلتني، أود التأكيد على أن ما يبدو ثقافتين مختلفتين حد التناقض لأسباب أكثرها دينية هما في الحقيقة ثقافتان تتشاركان مجموعة من الأمور التي يجب العمل على بيانها أكثر فأكثر مع نبذ منطق صراع الأديان. والأكيد أن النهل من الفكر العربي لا يعني خضوع المسيحية للإسلام. شكرا لكم على حسن الإنصات ؛ وأتمنى أنني لم أخرج عن موضوعنا اليوم، أي أسفار الأندلس.

مولاي احمد الثمّون

شكرا لكم أستاذ روني دوسيكايتي. أنت لم تخرج عن الموضوع، بل كنت في صلبه لما تحدثت عن أزهي أيام الأندلس. والآن أعطي الكلمة للشاعر محمد بنيس.

محمد بنيس

تتمنيت أن تكون مداخلتني باللغة العربية ونحن على أرض المغرب، لكن أجدني مضطرا للحديث بالفرنسية. للأسف، هذا المعطى في حد ذاته يطرح سؤال حقيقة الأندلس بين الإمكان وعدم الإمكان من الأصل. وكما قال الأستاذ عبد الكبير الخطيبي، يتحدث المغاربة عن الأندلس دائماً إما بحنين ونسئالجيأ أو بحزن وفجعية. وهذا أمر يمكن تفهمه بالنظر إلى مكانة الأندلس في تاريخ المغاربة وثقافتهم إلى اليوم. إنها في كل تفصيلية من تفاصيل حياتنا اليومية، على الأقل ذلك ما ألاحظه أنا في مسقط رأسي فاس التي ورثت نصيباً وفيراً من ميراث بلاد الأندلس. مدينة وجدة هي الأخرى تبدو فيها مظاهر الحضارة الأندلسية جلية. وبالتالي فمن الصعب حقاً على أي مغربي الحديث عن أي أندلس جديدة.

الأندلس مثال ولا أروع لفكرة الكونية ؛ فكيف لا تتخذ منها بلدان المتوسط منارا ونموذجاً قد يقود نحو التفاهم والتعاون بدل أي شيء آخر سلبي ؟ هذا أمر ممكن، خاصة أن شعوب المتوسط على تنوعها تجمعها ثقافة شاملة واحدة تميزها عن ثقافة بلدان مناطق أخرى من العالم كآسيا. نحن نتشارك ثقافة واحدة تتمازج فيها كل مكونات حوض المتوسط. إذا نظرنا إلى الأندلس على هذا النحو الذي ذكرت، فحينها سنتحدث عن بلدان أندلس كثيرة تنبض بالحياة. كل واحد منا يعيش في أندلسه الخاص، حيث أن للفلاسفة أندلسهم وللموسيقيين أندلسهم...

شخصياً، دخلت عالم الأندلس من خلال أول تجربة لي مع ناشر إيطالي. وخلال حفل توقيع كتابي الجديد فتحت نقاشاً مع الحضور حول الأندلس، وتحدثت عن ذلك المجال التاريخي وكأنه مألوف بالنسبة لي. وأنا الآن أعني تماماً أن لي في الحديث عن الأندلس متعة وسكينة لأنها ببساطة أصبحت جزء من كياني. وفي نفس الأمسية طلب مني الناشر الإيطالي تحضير ديوان في شكل مقتطفات من الشعر الأندلسي، قبلت العرض بشكل عفوي واقترح أن أكتب عن أندلس الشعراء. وفي الحقيقة أنا سعيد للغاية لأنني تداركت هفوتي حيث أن أندلس الشعراء مختلفة عن شعر الأندلس، والفرق بينهما كبير. في الحقيقة، شخصياً، كنت «متأثراً» للغاية بفريدريك نيتشه وكتابه «المسيح الدجال»، الذي يحتوي مقطعاً رائعاً للغاية ينتقد فيه المسيحية بشراسة على تدميرها الثقافة الأندلسية. يقول الفيلسوف الألماني في نفس المقطع إن المفكرين والمبدعين لو استحقوا أي شيء على الإطلاق فهذا الشيء سيكون الأندلس. وكإسهام مني في طرح رواية مقابلة للرواية الغربية، الأسبانية بالتحديد، حول الأندلس حاولت صياغة مقاربة نقدية منطلها إعادة بناء أندلس الشعراء. وقد منحت في إطار هذا الموضوع الكلمة لمجموعة من الشعراء قصد طرح أفكار جديدة، بمعنى أن القراءة النقدية للشعر والتعمق فيه لا تتم من خلال الشعر نفسه بل من خلال أفكار حول الشعر وعالم الشعر. لقد نبهتني انتقادات نيتشه إلى شعر آخر وأندلس أخرى يجب تشكيلهما.

من ناحية أخرى، أنا لا أؤمن بفكرة النوسطالجيا. صحيح أنني من أصول أندلسية، لكن لا علاقة لي بماضي انتهى ولى. أنا اليوم مغربي حتى النخاع، ولن أعود يوما إلى إسبانيا. وحتى عندما أقرأ لشعراء الأندلس، فأنا أقرأ لهم كما لو كانوا شعراء معاصرين. وهذا بلا شك مما ساعدني على الجمع بين العربية الفصحى والدارجة المغربية وبين المسلم واليهودي وبين الشعراء والشاعرات تماما كما جمعت بين أشكال شعرية مختلفة. كنت أول من جمع مختارات لأربعة أو خمسة شاعرات أندلسيات. وبالنسبة إلي، هذا مجهود يعطي فكرة عن ما هي أندلس الشعراء. وبالتالي فنحن بصدد الحديث عن أكثر من أندلس واحدة، والفضل في ذلك يعود لتوفر تعددية لغوية وفكرية حقيقة آنذاك. النتيجة هي بالتأكيد، شعر ينبض بالفرح والسرور في تجسيد لأفكار نيتشه العميقة؛ لهذا أظن أن الشعر عرفني إلى أندلس السلام بشكل جميل وعرفني إلى أندلس البهجة والرقص ومنحني إحساس وكأنني خارج الزمن. إنني شخص يعيش في حاضره وينفتح على مستقبل.

مولاي احمد الثمّون

شكرا لكم أستاذ بنيس. أعطي الكلمة الآن لأحد عشاق المغرب وثقافته الباحث الإسباني أنطونيو شافيس المنتمي إلى منظمة «الثقافات الثلاث».

أنطونيو شافيس

أود أن أشكر وكالة جهة الشرق وتحديدًا مديرها العام السيد محمد امباركي على منح منظمة الثقافات الثلاث فرصة المشاركة في فعاليات المعرض المغاربي للكتاب بوجدة، وقبل ذلك فرصة المساهمة في مجهودات التعاون الثقافي بين شعبي شقيقين.

سأتطرق في مداخلتي للتراث الأندلسي والموريسكي بالمغرب الكبير وسنسافر جميعا في رحلة لاكتشاف إسهامات الأندلسيين والموريسكيين من القرن الحادي عشر حتى القرن الثامن عشر في نقل الثقافة وإثرائها على ضفتي المتوسط. وسنقف على شواهد مادية وأخرى غير مادية في ميادين كالهندسة والتهيئة الحضرية والتصوف والأدب والموسيقى والحرف والمطبخ. في الحقيقة، يمكننا القول إن الأندلسيين والموريسكيين لعبوا دور البطولة في أحداث تاريخية فارقة بإرادتهم ورغما عنهم في الآن ذاته. تحققت إرادتهم لما قرروا الهجرة إلى الضفة الأخرى. وفرض عليهم الأمر الواقع لما طوروا وطردوا من أرضهم. هذا التحول كان له وقع علمي وثقافي جد إيجابي على المجتمعات التي استقبلت الفارين والمهجرين من الأندلس. فكانت النتيجة تشكل حالة عمرانية جديدة مميزة ممتدة عبر الزمن وبروز معلمين كبار ومتصوفين سالكين كانوا منارات لأهل العرفان.

في مراكش، على سبيل المثال، سبعة رجال هم حكماء وعارفون أصولهم من الأندلس. نتحدث أيضا عن مدن أخرى كثيرة كسيدي بالعباس الجزائرية وسلا المغربية حيث يوجد ضريح سيدي أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأندلسي المتوفى سنة 1364 ميلادية والقادم من خيمينا دي لا فرونتيرا بقادس جنوب الأندلس. يؤمن مرتادو ضريح سيدي ابن عاشر القادمين من كل حذب وصوب خاصة في المناسبات الدينية كعيد الأضحى والمولد النبوي بأنه يشفي الأمراض العقلية. ومن ناحية أخرى، عادت إسهامات الأندلسيين في الميدان الفلاحي بفائدة كبيرة على بلدان الاستقبال جنوب المتوسط حيث جلبوا معهم مزروعات جديدة كالذرة والبطاطس والطماطم والتين والمشمش ورسخوا ثقافة زراعة أشجار الزيتون والعنب، بالإضافة إلى مساهمة مهمة أخرى في المجال الفلاحي تتعلق بإدخال تقنيات ري جديدة. أما إذا انتقلنا للحديث عن التقاليد فحدث ولا حرج. أبسط مثال على ذلك هو رداء «الشاشية» ذي الأصل الأندلسي الذي نجده بكل بلدان المغرب الكبير وعلى رأسها تونس حيث له مكانة مميزة، هذا الزي الإكسسوار الشعبي طوره الموريسكيون.

أما فيما يخص المطبخ، فالأمثلة كثيرة بخصوص الأطباق والوصفات التي يعود أصلها لبلاد الأندلس ومثال ذلك ما نجده في المغرب من إبداع في صناعة الخبز ومشتقاته. نذكر أيضا إدخال تقنيات تحليل مواد كثيرة كالزيتون والحامض وصناعة الحليب ومشتقاته كالجبن والنقانق والبيصارة والشباكية وكعب غزال، وحلوة فاس... كل هذا وأكثر هو جزء من المطبخ الأندلسي العريق.

ولقد كان للموسيقى الأندلسية بدورها تأثير كبير على موسيقى الضفة الجنوبية من المتوسط. عندما تعزف الفرق المغاربية المختصة «الغرناطي» و «المعلوف» فهي تمجد تراث عريقا تناقلته الأجيال بفضل التبادل الثقافي بين الشعوب والثقافات.

من ناحية أخرى، كان للأندلسيين مساهمة عظيمة في مجال الهندسة وسياسية المدينة، وهذا يبدو جليا جدا في مدن كشفشاون وتطوان التي صنفتهما المنظمة الأممية اليونسكو كتراث عالمي إنساني.

وفي الختام، أردت استحضار الفكر الإسباني المختص في شؤون العالم العربي بيدرو مارتيني كونكفس الذي يرى أن الحديث عن الأندلس كشيء لم يعد له وجود واقعي لا يعني بالضرورة أنها خارج الوجود. شخصيا، أجد في هذا الكلام قدرا معقولا من الصواب؛ فالأندلس حقيقة تاريخية وجغرافية وسياسية كنه هادئ يجري في أعماق الناس؛ كأنه ينحت صخرهم فتبرز مشاعر وأحاسيس واعية وغير واعية تصل حد التناقض. الأندلس لم يعد له وجود على أرض الواقع لكنه أصبح جزء من الوجود في بعده الكوني. وفي المقابل، يرى المؤرخ التطواني محمد ابن عبود أن وجود الأندلس لم ينقطع في الزمن، مع تأكيده هو أيضا على البعد الكوني للثقافة الأندلسية. أتمنى أن تساعد هذه المساهمة البسيطة في بيان ضرورة عدم نسيان تاريخنا وهويتنا. إنه تراث ينبض بالحياة في المدن والأغاني والموسيقى ووسط الأسر المغربية والجزائرية والتونسية.

مولاي احمد الثموني

نفتح الآن باب النقاش. أتمنى منكم سيداتي سادتي طرح أسئلة مقتضبة نظرا لضيق الوقت.

مداخلة

أولا، أشكر هذه الثلة المميزة من الأساتذة على مداخلاتهم. لم نتردد ولو لحظة واحدة أنا وأصدقائي في حضور هذا المؤتمر لما علمنا أن تيمته هي الأندلس و «الأندلسيات الجديدة».

كما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل المتدخلين... الأندلس تستفز الجميع وتحرك شيء ما في الجميع. أنا أرى أن إسم الأندلس يحبي فينا روح الشعر ويغذي لواعيننا. لكن هل يمكننا وضع تعريف للأندلس؟

محمد بنيس

كيف نعرف الأندلس؟ هذا سؤال ظل يشغلنا منذ سنوات. ما أصل هذا النموذج المميز الذي لم يسبق له مثيل لا بالشرق الأوسط ولا بالمغرب ولا إسبانيا؟ أعتقد أن النموذج الإسلامي له مساهمة كبيرة في خلق هذا الفضاء الحر حيث تقاعلت روافد ثقافية كثيرة على نحو جعل شبه الجزيرة الأيبيرية قطعة من الجنة فوق الأرض. شخصيا، أهتم كثيرا بتاريخ إسبانيا قبل وبعد الأندلس. أنا شخص يرى العالم بطريقة حرة ونقدية في الآن ذاته. هل عاشت إسبانيا فترة زاهية كذلك التي عاشتها إبان عصر الأندلس؟ هل توجد إسبانيا واحدة أم أكثر؟ هذه كلها أسئلة يمكن طرحها.

قالت الباحثة الأمريكية مارية روز مينوكال المختصة في الأندلس إن نسبة العرب في المجتمع الأندلسي لم تتجاوز واحد في المائة. وبالتالي، فالعرب لم يكونوا غزاة، خلافا لما قد يظنه البعض. رغم ذلك، قدم العرب مساهمة قيمة في فن العيش والثقافة والعلوم والمعارف. لقد قدموا إسهامات جميلة بالأندلس؛ أجمل مما فعلوا بأماكن أخرى قطعا.

لقد كانت هذه الثقافة تجسيدا حيا لروح السلام ومدرسة تتعلم منها مشارق الأرض ومغاربها. لحسن الحظ، الأندلسيون هم إسبان. والمسيحيون هم الذين طردوا مواطنيهم وعذبوهم فقط لأنهم لم يكونوا مسيحيين. نفس هذا السيناريو وقع للأسف بفرنسا حيث نكل المسيحيون الكاثوليك بمواطنيهم من البروتستانت. كان هنالك متطرفون بكل من إسبانيا والمغرب آنذاك لكن الروح الجماعية كانت تجنح للمحبة والسلام. من ناحية أخرى، أحدث المرابطون والموحدون تغيرات عميقة في المجتمعين الأندلسي والمغربي، حيث استجلبوا الفلاسفة والشعراء والأطباء فتوسعت المدارك وسمت الأرواح وطاب العيش. لقد كان في ذلك شيء من السحر خلق لحظة تاريخية فارقة لا أظن أننا سنعيشها مرة أخرى أدبيا وشعريا. ولهذا أنا لا أومن بالسياسة بل أومن بالإبداع في الشعر والأدب وهذه هي أندلسنا الجديدة.

أنطونيو شافيس

كجواب على سؤالك سيدتي، أرى أن المسألة ليست متعلقة بالماضي فقط : نحن بصدد مفهوم قادم من الماضي يعيش في الحاضر ويتطلع للمستقبل. بالنسبة لي، الأندلس هي جنة التعايش. إنها جنة ضاربة جذورها في التاريخ نحتاج التعلم منها اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأننا اليوم أحوج ما نكون إلى سيادة روح التعايش. ولهذا فمنظمة الثقافات الثلاث تحتفل وتروج لإرث الحضارة الأندلسية التي أعطتنا الكثير وتستوجب منا الاعتراف.

مداخلة

شكرا للأساتذة الكرام على كل هذه التوضيحات المهمة حول الأندلس العظيمة على قلوبنا جميعا. بلا شك، اختيار هذا الموضوع ليس اعتباطيا. حضارات العالم تتفاعل وتتداخل. نتحدث دائما عن إعادة تشكيل العالم والتقارب وإلغاء المسافات، لكن الأمور في الواقع عكس ذلك إلى حد كبير. ينظر الشباب المغربي إلى الأندلس على أنها جنة أو إلدorado حقيقي يمكن أن يحقق فيه أحلامه ؛ أما الأوروبي فيعتبر الهجرة القادمة من الجنوب كارثة حقيقية يجب منعها.

نشعر أننا أندلسيون ليس لأن أجدادنا عاشوا هناك بل لأن تراث بلاد الأندلس في جيناتنا. نحن اليوم مجتمعون بوجدة العريقة حيث توجد المعابد اليهودية ولا توجد أحياء «الملاح» لأن المسلمين واليهود تعايشوا في تجانس داخل حي واحد. توجد هنا أيضا كنيسة سان لويس الشاهدة على الوجود المسيحي. في الحقيقة، هذه المدينة تجسيد جميل لروح التعايش.

أنطونيو شافيس

أعتقد أن الحديث عن الأندلس هو حديث عن الحداثة في المقام الأول. لهذا، يجب علينا توظيف مفاهيم «الأندلس» في حديثنا عن قيم المواطنة بحوض البحر الأبيض المتوسط الآن.

مولاي احمد الثمّون

قبل الختام، أتمنى لو يقدم لنا الأستاذ روني دوسيكاكي مزيدا من التوضيحات حول موقف رسول الإسلام في «الكوميديا الإلهية» ويقول لنا هل صلاح الدين الأيوبي قائد المسلمين في الحروب الصليبية مذكور أيضا.

روني دوسيكاكي

توجد في «الكوميديا الإلهية» شخصية باسم صلاح الدين، لكنها ليست الشخصية التي قصدت. بالمناسبة دانتلي لم يكن يحدد أصول شخصياته.

رئيس الجلسة : الحسين المجاهد
المشاركون : مفتاح عامر، فاطمة أڭناو، نورة الازرق، عبد الله بومالك
فضاء : سيمون ليفي
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 15 : 30 - 16



موجز مداخلات المائدة المستديرة

تلقي هذه المائدة المستديرة الضوء على رؤية أصيلة ومبتكرة هدفها تأهيل الأمازيغية وتمييزها في إطار معيارية تراعي تنوعها. ولقد رأت هذه الرؤية النور مع تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية وإعلان الأمازيغية لغة وطنية إلى جانب اللغة العربية في دستور 2011. وتركز هذه الرؤية على السياق الوطني المغربي، لكنها تراعي السياق الثقافي المغربي الممتد حتى مصر شرقا والنيجر جنوبا. ولقد استثمرت الرؤية التي نريد إبرازها اليوم مصادر معرفية متنوعة منها كتابات أوروبية كولونيالية وبحوث ميدانية ودراسات أكاديمية قديمة وحديثة.

لعل أول قضية حسمت في مسلسل تهئية الأمازيغية هي قضية حرف الكتابة، حيث تم اختيار حرف «تيفيناغ» المكون من ثلاثة وثلاثين رسما. وبعد إغلاق هذا الملف، بدأ العمل على النحو والصرف والتراكيب...

لكن التحدي الأكبر هو وضع معجم اللغة الأمازيغية. وفي الحقيقة، هذا ورش مفتوح على الدوام وتبذل فيه حالياً جهود كبيرة. وفي هذا الإطار، عرض المتدخلون المساطر والإجراءات المتبعة في وضع المعجم مع شرحها وتبرير اختيارها. وقد أوضحوا أن هذا المعجم يلجأ إلى الاقتراض كلما دعت الضرورة إلى ذلك، مؤكدين أن الاقتراض ظاهرة لغوية كونية. رغم أن البعض لهم موقف سلبي من تجربة إشراف المؤسسات على «تهيئة اللغة»، فالواقع يقول إن التجربة نجحت في بلدان عديدة مع لغات مختلفة. وبطبيعة الحال، أبرز مثال في هذا الباب هو معجم الأكاديمية الفرنسية. وبعد إثبات إمكانية وضع معجم للغة الأمازيغية، ناقش المتدخلون بشكل تنزيل هذا المعجم على أرض الواقع، خاصة أن العملية تأخذ وقتاً طويلاً وتتطلب إرادة سياسية دائمة تتبناها كل القطاعات، وعلى رأسها قطاع التعليم.



يفترض أن تساهم جهود المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية على مستوى وسائل الاتصال السمعي البصري في تسريع وتيرة تمكن وتملك الأجيال الصاعدة للغة المعيارية. وهذا الجهد التواصلية يتمشى والجهود المبذولة في قطاع التعليم. رغم أن الطريق مازال طويلاً، ويجمع الخبراء على أن اللغة الأمازيغية اليوم جاهزة لتلعب دورها كلفة دستورية لأنها اليوم تتوفر على أدوات الاشتغال. ومن بين هذه الأدوات ما أصدره المعهد الملكي من كتب نحو ومعاجم للمرادفات (أمازيغية-فرنسية-عربية) ومقررات دراسية يتم إنتاجها منذ سنوات.

في الختام، أشار المتدخلون إلى مخاوف البعض من عدم مراعاة الاختلافات الحاصلة بين التشكيلات اللغوية الأمازيغية المختلفة خلال عملية المعيرة، لكنهم أكدوا على وعي المعهد بهذا المعطى وحرصه على التوافق ولم الشمل.

مداخلات المائدة المستديرة

الحسين المجاهد

مرحبا بكم جميعا ؛ سنتفقون معي على صعوبة مناقشة قضايا كثيرة تتعلق بديداكتيك اللغة الأمازيغية في حيز زمني لا يتعدى الساعة والنصف. هذه فقط ملاحظة جانبية أردت الإشارة إليها. سنناقش في هذه المائدة المستديرة، المنظمة بمبادرة من المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، أعمال المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية في اللسانيات بكل تجلياتها ودراسات مركز التهيئة اللغوية المتعلقة بتوحيد اللغة الأمازيغية ومعيرتها. ومنذ تأسيسه سنة 2001، وضع المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية استراتيجية طموحة هدفها دراسة اللغة الأمازيغية من كل النواحي (المعجم والحرف والنحو والكتابة والقراءة والتعليم والتعلم...). وقد حقق المعهد نتائج مهمة بفضل فرقه البحثية المحترفة، خاصة في مركز التهيئة اللغوية. كما تعلمون، يسعى المعهد إلى تشمين الأمازيغية وتأهيلها وتطويرها وإدماجها في عدة ميادين من قبيل الأدب والتعليم والإعلام والتكنولوجيا والرقميات... ويشرف مركز التهيئة اللغوية على عدة أبحاث في حقول معرفية متصلة بديداكتيك اللغة والثقافة الأمازيغيتين بهدف توفير أكبر قدر ممكن من العمق والدقة والفاعلية في هذا الديداكتيك - علم الاجتماع والبيداغوجيا والأنثروبولوجيا والتاريخ والترجمة - علما أن المركز له سياسية نشر هدفها تسريع وتيرة اكتساب وتملك اللغة، خاصة في ميدان التعليم. ويسعدني أن أستضيف ثلثة من المفكرين والخبراء من أجل مناقشة هذه القضايا :

- ضيفتنا الأولى هي الأستاذة الجامعية مفتاحة عامر، الخبيرة في قضايا اللغة الأمازيغية، خاصة المعجمية والفونولوجيا. وهي رئيسة مركز التهيئة اللغوية التابع للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. تحدثنا مفتاحة عن اللغة والمعيرة وإنتاجات مركز التهيئة اللغوية ؛

- ضيفنا الثاني هو الأكاديمي عبد الله بومالك، الذي اشتغل لسنوات طويلة في شعبة اللغة الفرنسية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة. وهو اليوم منسق وحدة البحث النحوي في مركز التهيئة اللغوية. يحدثنا بومالك عن إشكالية المعجم والمصطلحية ؛

- ضيفتنا الثالثة هي اللسانية نورة الأزرق التي ستحدثنا عن بيداغوجيا وأساليب تأهيل اللغة الأمازيغية معجميا ونحويا ودلاليا... وسبل إدماجها في النظام التعليمي ؛

- ضيفتنا الرابعة هي الأستاذة بالمرسة العليا للأستاذة فاطمة أكنّاو، والتي لها مؤلفات في بيداغوجيا وديداكتيك اللغة. وتتابع أكنّاو وضع اللغة الأمازيغية في المنظومة التعليمية الوطنية منذ فترة.

أول إشكالية نتناولها هي الكتابة الإبداعية، حيث من الصعب جدا أن تستمر لغة في الحياة فضلا عن أن تتطور إن لم تكن فيها نصوص أدبية وأدوات جمالية وخطابية وإنتاجات فنية وموروث شفهي... ما هي إذا آفاق الإبداع باللغة الأمازيغية وأي مستقبل للشباب ؟ نبدأ معك أستاذة مفتاحة عامر.

مفتاحة عامر

ألقاسم معكم بعض الأفكار والتأملات حول مسار تأهيل اللغة الأمازيغية. سأحدث عن المقاربة والبيداغوجيا المتبعين في هذا الباب، على أن أختم بالحديث عن التحديات، وما أكثرها. أبدأ بالتعليق على سؤال طرحته وثائق الدورة الثانية للمعرض المغاربي للكتاب بوجدة : هل تملك الهويات والتي يتم الاهتمام بها والتأكيد عليها بقوة في بلدان المغرب الكبير على وسائل تطورها المستقل ؟ هذا سؤال مباشر لكل الباحثين المهتمين باللغة الأمازيغية، بما فيهم نحن، لأن اللغة، كما نعلم جميعا، مرآة الهوية ورمزها. شخصيا، أرى أن بإمكاننا إعادة صياغة السؤال على الشكل التالي : هل تستطيع لغات المغرب الكبير التطور باستقلالية ؟ الأمازيغية حقيقة مغربية لا يمكن إنكارها، وهي عنصر أساس في تكوين الإنسان المغاربي.

كلكم تعرفون جيدا أن الواقع السوسيو-لساني المغربي يمتاز بحضور أنظمة لغوية مختلفة : لن أتكلم في هذه النقطة، لأنها تتطلب الكثير من الوقت، ولأن كتب كثيرة عالجتها. لكن بشكل عام، عندنا اللغات الوطنية المتمثلة في العربية وتشكيلاتها المختلفة والأمازيغية وتشكيلاتها المختلفة، كما أن عندنا لغات أجنبية (الفرنسية أولا ثم الإسبانية والإنجليزية مؤخرا). مما لا شك فيه هو أن الأمازيغية تاريخيا لغة معزولة ومهمشة بالمغرب الكبير وأنها لغة تواصل مشتركة. وفي الواقع، الحديث عن الأمازيغية، هو حديث عن تشكيلات لغوية مختلفة. وربما أحد أهم أسباب هذا الاختلاف هو الامتداد الجغرافي الشاسع الذي غطته الأمازيغية منذ آلاف السنين. وهنا لا أتحدث عن المغرب الكبير فقط، بل أتحدث عن امتداد جغرافي يمتد من المتوسط حتى واحة سيوة المصرية شرقا ومن المتوسط حتى النيجر جنوبا ومن الأطلسي حتى ضفاف النيل. وبطبيعة الحال، يتركز الأمازيغ بالمغرب والجزائر وبلدان المهجر. لم يتمكن الأمازيغ من التواصل بشكل مستمر عبر هذا الفضاء الشاسع، ما نتج عنه انعزال كل مجموعة في فضاء معين وتطور تشكيلاتها اللغوية بمعزل عن بعضها البعض. وتمتاز الأمازيغية بطابعها الشفهي. وعلى العموم، الاختلافات المسجلة بين هذه التشكيلات اللغوية ليست اختلافات جوهرية، ويمكن تجاوزها.



لقد عرف واقع اللغة والثقافة الأمازيغيتين بالمغرب تحولا لافتا في السنوات الأخيرة، خاصة بعد خطاب أجدير في سنة 2001 - قريبا سنحتفل بالذكرى السابعة عشر للخطاب - الذي أعلن تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. وهكذا بدأ مسار مؤسسة اللغة الأمازيغية. وبطبيعة الحال، أبرز محطة في هذا المسار هي إعلان دستور 2011 الأمازيغية لغة رسمية في الدولة المغربية. أرى أننا حققنا نتائج سارة ومرضية على مستوى توحيد اللغة. والضرورة الملحة اليوم هي تهيئة الأمازيغية كي تصبح لغة مكتوبة قادرة على الاندماج في المنظومة التربوية الوطنية. لن أتحدث في المسائل التقنية ؛ عندما أقول «تهيئة»، فأنا أقصد توحيد ومعييرة اللغة. إذا، كان علينا التحرك على مستويين اثنين : ضبط مكانة وموقع اللغة الأمازيغية مقارنة باللغات الفاعلة على المشهد اللغوي المغربي، والاشتغال على النظم الداخلية في اللغة الأمازيغية، والتي تمتاز بتنوع كبير. وأوضح نقطة مهمة هنا قبل أن أتابع مداخلتني : غالبا ما يقال إن هدف المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية هو تهيئة اللغة الأمازيغية، وهذا كلام صحيح ؛ لكنه كلام منقوص : تهيئة اللغة الأمازيغية ما هي إلا هدف واحد من بين أهداف أخرى يسعى المعهد إلى تحقيقها.

من بين المراكز البحثية السابعة التابعة للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز واحد فقط يهتم بموضوع تهئية اللغة الأمازيغية وتأهيلها في كل أبعادها. ويعمل هذا المركز على بناء النظم الداخلية للغة الأمازيغية وإدماجها في التعليم والإعلام والتكنولوجيا والاقتصاد وكل المؤسسات وتجميع النصوص الأدبية وفرزها وإجراء بحوث في التاريخ والأنثروبولوجيا، إلخ ؛ وأود أيضا التأكيد على أن تهئية الأمازيغية ليست هدفا في حد ذاتها. أحيانا يلتبس على الناس معنى ومغزى التهئية اللغوية. البارحة فقط، سمعنا من يؤكد أن ناطقي اللغة لا ينظرون لعملية التهئية اللغوية بعين الرضا. وهذا كلام صحيح في كل اللغات. بشكل عام، يعتبر الناطقون باللغة بأن التهئية اللغوية تعتبر تدخلا في لغتهم وتوجيه لها، وهذا هو السبب الرئيس وراء موقفهم السلبي، إذ يشعر هؤلاء أنهم سيفقدون لغتهم الأم، وأننا سنفرض عليهم لغة جديدة لن يجدوا أنفسهم فيها. ينبغي أن نراعي هذه المواقف التي تكشفها لنا اللسانيات الاجتماعية كي لا يرفض متكلم اللغة الأمازيغية لغته بعد توحيدها ومعييرتها. وعلى العموم، التهئية اللغوية قضية مؤسساتية : مثلا، مكتب الكيبك للغة الفرنسية والهيئة العامة للغة الفرنسية هما من يعينان باللغة الفرنسية في الكيبك وفرنسا. ويوجد في هذه المؤسسات رجال ونساء يعملون في إطار نظري وبيداغوجي محدد بدقة. كيف سنتدخل في اللغة ؟ وما الذي سنهيئه ؟

على سبيل المثال، إدماج الأمازيغية في المنظومة التعليمية يفترض الإجابة على سؤال مهم : ما هي الأمازيغية التي نريد تدريسها ؟ وهذه النقطة تمت مناقشتها كليا قبل لحظات. سؤال آخر يطرح نفسه : على أي أساس نختار التشكيلة اللغوية التي ستخضع للمعيرة ؟ هناك مقاربة تقول : إذا كانت عندك تشكيلات لغوية مختلفة تريد معيرة واحدة منها، كل ما عليك فعله هو اختيار تشكيلة لغوية واحدة (على حساب التشكيلات اللغوية الأخرى) ومعييرتها. إذا قبلنا بهذه المقاربة، فنحن لا محالة نتجه مباشرة إلى المواجهة، لأنها مقاربة غير ديمقراطية بتاتا. وبطبيعة الحال، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية لا يتبنى هذه المقاربة. كان المعهد حريصا على تبني مقاربة تؤكد وحدة اللغة ولا تنكر تنوعها : معيرة الأمازيغية انطلاقا من تشكيلات الجهوية والمحلية. مكتننا هذه المقاربة من وضع النواة الأساسية لنظام الصوتي : استعملنا فونولوجيا ومورفولوجيا ومعجمية تنتمي إلى مناطق وسياقات اجتماعية مختلفة. ويندرج هذا العمل ضمن مسلسل طويل من التهئية اللغوية يتطلب الجهد والوقت. وحاليا، لا يمكننا الحديث عن لغة أمازيغية معيارية : هذه لغة لم تر النور بعد. عند اختيار التشكيلة اللغوية التي ستخضع للمعيرة، يجب الانتباه إلى العمليات المعقدة التي تنقل اللغة من الشفوية إلى الكتابة، كما يجب الانتباه إلى الغنى الأدبي. معيرة اللغة مسار معقد وطويل جدا. وأرى أن أماننا الكثير لنقوم به في هذا الباب. علينا إخبار الجميع أن المعيرة عملية معقدة تتطلب الكثير من الوقت، وأننا سننتظر لأجيال قبل بناء لغة أمازيغية معيارية بمعنى الكلمة. نحن إذا بصدد مسيرة طويلة ومرنة تسمح لنا بالمراجعة والتعديل متى دعت الضرورة إلى ذلك. كما سبقت الإشارة، تبني المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية خلال مسيرة المعيرة مقاربة توافقية وإدماجية لا تستثني أي تشكيلة لغوية أمازيغية. وهذا معناه أننا نعتبر تنوع التشكيلات الأمازيغية مصدر ثراء نفيد منه قدر الإمكان في بناء لغة معيارية مشتركة. بعبارة أوضح، يتبنى المعهد مقاربة تركيبيّة تعددية (كما هو الحال في جزيرة كورسيكا حيث تتعايش تشكيلات لغوية مختلفة مع بعض في جو من التسامح).

تطبيق هذا النموذج يعطينا لغة معيارية تعددية. يعني أننا سنحصل على لغة مشتركة دون الوقوع في النزعة المعيارية. وهذا بدوره يؤكد أن المعهد لا يقول للناس «قولوا هكذا ولا تقولوا هكذا». على العكس تماما، المعهد يريد أن يقول للناس «يمكنكم أن تقولوا هكذا ويمكنكم أن تقولوا هكذا أيضا». والخلاصة الأساسية هنا هي أن عملا ديداكتيكيا كبيرا ينتظرنا. لقد انتهينا من موضوع حرف الكتابة. والآن يجب الاشتغال على موضوعين هما : أولا المعجم والمصطلحية، ثانيا المورفولوجيا والنحو. نعرف أن العامل المشترك القوي بين كل التشكيلات اللغوية المنتمية لنفس اللغة هو المورفولوجيا والنحو. أما المعجم والمصطلحية فيتجلبان في التشكيلات اللغوية المنتمية إلى نفس اللغة بدرجات مختلفة. هذا كلام صحيح بالنسبة إلى لغات عديدة.

أول شيء قمنا به هو ضبط نظام التهجئة. بدأنا هذا المشروع سنة 2002-2003. واليوم نتوفر على نظام تهجئة مستقر له قواعد. بناء هذا النظام خطوة مهمة في مسار الانتقال من الشفوية إلى الكتابة. وأشير هنا إلى أن «تيفيناغ» تتضمن ثلاثة وثلاثين حرفا. راعينا في اختيار هذه الرسوم مجموعة من المعايير المحددة في نظام التهجئة، الذي يمتاز بطبيعة فونولوجية بارزة : أي أنه لا يرسم كل الأصوات المنطوقة. نعلم جيدا أن اللغات لا تكتب دائما كما تنطق ؛ هناك نوع من التمييز بين المكتوب والمنطوق. على سبيل المثال، يعبر عن «الأرض» في إحدى التشكيلة اللغوية الأمازيغية بعبارة «أكال»، بينما يعبر عنها في تشكيلة أخرى بعبارة «أشال» وفي تشكيلة ثالثة عبارة «أخال»... المهم هو توفير نظام تهجئة مستقر. وحين توفر هذا النظام، لا تشغلنا كثيرا الاختلافات في النطق بين الأفراد : كل واحد يسمع بطريقته الخاصة وينطق بطريقته الخاصة التي لن تختلف كثيرا في نهاية المطاف. توحد الناس في النطق بنسبة كبيرة سيحقق مع الوقت. إذا نحن بصدد نظام تهجئة ذو طبيعة فونولوجية. أهم خصائص هذا النظام أنه يمثل كل صوت برسمه الخاص، أي أن المتعلم لن يواجه مشكل التعبير عن نفس الصوت برسمين مختلفين في سياقات مختلفة كما في الفرنسية التي تستعمل «f» و«ph» لتعبير عن نفس الصوت في سياقات مختلفة. وفي اللغة الأمازيغية المعيارية، كل صوت له رسمه الخاص بغض النظر عن موقعه في الكلام، هذا يعفي المتعلم من التعامل مع صعوبة أخرى : اختلاف شكل الرسم في بداية الكلمة عن شكله في وسطها وآخرها كما في اللغة العربية. بالنسبة إلى المعجم، نحن أمام مشروع كبير نتعامل فيه مع اختلافات كثيرة. وفي حقيقة الأمر، الاختلافات المصطلحية مصدر ثراء للغة المعيارية : يمكننا مثلا توظيف العبارات المعبرة عن نفس المدلول كمرادفات. عندما ندمج معاجم التشكيلات اللغوية الأمازيغية في معجم اللغة المعيارية سيكون بمقدورنا إبداع كلمات جديدة. بطبيعة الحال، هذه العملية تتم وفق قواعد محددة. لابد أن ننطلق من جذر في اللغة ؛ ولابد أن تضبط الكلمة الجديدة للنظام الصوتي والهجائي. بطبيعة الحال، تهيئة المعجم تضعنا في مواجهة بعض القضايا، كقضية الاقتراض : أي موقف يجب تبنيه اتجاه الاقتراض ؟ وكيف نتعامل معه ؟

اختار المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية المقاربة التالية بهذا الخصوص : الاقتراض إثراء، لكننا لا نستعمله إلا عند الضرورة ووفق معايير دقيقة. وفي الحقيقة، الاقتراض علامة على حيوية اللغة وتفاعلها مع لغات أخرى. لكن يجب ألا يتجاوز الاقتراض الحد المعقول أو يكون على حساب المفردات الأصلية. إذا حدث هذا، يصبح الاقتراض أمرا سلبيا ويجب توقيفه، لأنه غالبا سيدخل لنا كلمات لا نحتاجها. وفي النهاية، يبقى مستعملو اللغة هم الحكم : استعمال كلمات دون غيرها مؤشر سوسيو-لساني أساسي. وكما أشرت من قبل، لا يوجد اختلاف كبير بين مورفولوجيا ونحو التشكيلات اللغوية الأمازيغية. مهمتنا هي دراسة عناصر اللغة وتهيئتها وخلق علاقات وترابطات بينها.

أرى أن التحديات التي مازالت تواجهنا كثيرة ومعقدة، رغم أننا حققنا قفزة نوعية في التهيئة اللغوية التي تشرف عليها مؤسسات المغرب والجزائر بتعاون مع جامعات مختلفة. ورغم الجهود التوثيقي الكبير الذي بذلناه - بما في ذلك البحوث الجامعية المتعلقة بالأمازيغية - مازال هناك الكثير من الأشياء علينا دراستها. لابد أن نبذل مجهودا كبيرا : بحث معمق يتطور ويتوسع ليشمل كل تفاصيل التشكيلات اللغوية الأمازيغية التي لم ندرسها بما يكفي أو لم ندرسها أبدا. ينجز المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية العديد من الأبحاث العلمية الميدانية ويستعين بباحثين متعاونين خارجيين. يعرف حجم الطلب على مصطلحات ومعاجم الأمازيغية ارتفاعا متزايدا منذ دسترتها. وبهذا الخصوص، يعمل المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية على وضع استراتيجية عامة تعيد ترتيب الأولويات. وبعبارة أخرى، يريد المعهد الانتقال من معجمية نظرية إلى معجمية تطبيقية. نقطة مهمةؤكد عليها هنا : يؤاخذنا البعض من خارج المغرب على أن مشروعنا لتهيئة اللغوية له توجه مغربي، أي أنه محصور في المغرب. وجوابي هو أننا في المغرب نشتغل على كل الوثائق المتوفرة وكل المصادر المعجمية الخاصة بكل التشكيلات اللغوية الأمازيغية التي تقع بين أيدينا. نستعين بمعجم فوكو حول الطوارق ومعجم دالي حول أهالي منطقة القبائل ومعجم دولور حول بني مزاب...

نحن نفعل هذا لأن التشكيلات اللغوية المدروسة لا تتطابق مع الحدود السياسية، وهذه مسألة معروفة في اللسانيات الاجتماعية. أنا أرى أننا في مرحلة ما سنغطي كل التشكيلات اللغوية الأمازيغية، بما فيها تلك الموجودة خارج حدود المغرب. ككلمة أخيرة - لا أريد ختم مداخلتني بنبرة متشائمة - أقول إننا مازلنا ننتظر، منذ دسترة اللغة الأمازيغية سنة 2011، المصادقة على القوانين التنظيمية الضرورية. للأسف، لم نحقق نتائج مهمة على المستوى التشريعي منذ 2011. بل على العكس، منذ أن أصبحت الأمازيغية لغة رسمية إلى جانب العربية، لاحظنا مجموعة من التراجعات، خاصة على مستوى الإدماج في المنظومة التربوية. في تصوري، لا بد أن تحقق اللغة والثقافة الأمازيغيتين نهضتهما عبر إرادة سياسية حقيقية ودائمة وتدخل مباشر من الدولة إداريا وقانونيا.

الحسين المجاهد

شكرا جزيلا على هذه المداخلة الغنية جدا. حدثتنا الأستاذة بشكل عام عن تطور عملية التهيئة اللغوية، مبرزة أساليب العمل والتحديات التي تواجه هذا المشروع المجتمعي الكبير. أعطى الكلمة الآن للأستاذ عبد الله بومالك الذي سيحدثنا عن قضية النحو في الأمازيغية.

عبد الله بومالك

أسلط مزيدا من الضوء على بعض القضايا اللغوية التي تطرقت إليها الأستاذة عامر في مداخلة عامة توطر كل المداخلات الأخرى. سأحدثكم عن الدور المهم الذي تلعبه أدوات اللغات في انتشارها ورواجها وتطورها. في الوقت الحالي، من البديهي أن نقول إن انتشار اللغات لا يحدث وفق نسق خطي وعفوي. ولعل بعث لغة محلية من رمادها وإخراجها من الشفوية والهامشية مرتبط في المقام الأول بما تتوفر عليه هذه اللغة من أدوات، علما أن هذه الأدوات ليست الضامن الوحيد للانبعاث والاستمرارية. معرفتنا بهذه الأدوات اللغوية تقودنا إلى إنتاج مجموعة من الوثائق (معاجم وكتب نحو وأدوات ديدكتيكية...)، فتكون النتيجة هي ارتفاع عدد وجودة كتابات اللغة الواصفة. فيما يخص الأمازيغية، نجد أن المؤسسات المعنية عملت على توفير كل الظروف الكفيلة بمساعدة هذه اللغة على التطور. يسمى اللسانيان «ريني باليبار» و«سيلفيان أورو» هذه العملية «التقعيد» - أي تزويد لغة بشرية معينة بالأدوات الضرورية للعمل وتزويدها بلغة واصفة. تشير هذه العبارة إلى انتقال لغة معينة من الشفوية إلى الكتابة وفق تقنيتين اثنتين هما اليوم ركائز اللغة الواصفة: النحو والمعمجة بشكل عام. وعليه، يمكننا القول بأن «تقعيد» الأمازيغية بدأ مع الأعمال الأولى التي كتبت في عهد الاستعمار. ويمكننا أن نتحدث حسب مصطلحية الأستاذ سيلفيان أورو (الثورة التكنولوجية وتقعيد اللغة؛ مقدمة في تاريخ علوم اللغة) عن تقعيد خارجي، لأن من كتبوا النصوص الأولى ونقلوا تكنولوجيا التقعيد اللغوي والمعجمي ليسوا من ناطقي الأمازيغية. في الواقع، لم يظهر أول اللسانيين الأمازيغ إلا في سنوات الستينيات والسبعينيات. لماذا؟ لأن المعارف اللغوية المتعلقة بالأمازيغية لم تكن مكتوبة ولم تكتب في وقتها. وما حدث هو أن أدوات اللغة الأمازيغية تم إنتاجها لأول مرة كتابيا باستعمال المعارف النحوية الغربية، لأسباب سياسية وتاريخية نعرفها جميعا.

وبعد هذه المرحلة، انتقلنا من التقعيد الخارجي إلى التقعيد الداخلي، أي تقعيد الأمازيغية على يد لسانين أمازيغ. الهدف الرئيس من وراء عملية التقعيد هو وصف وضبط نظم اشتغال لغة معينة. بالنسبة للغة الأمازيغية، لم تطمح محاولات التقعيد الأولى إلى وصف اللغة ككل؛ وكل ما سعت إليه هو وصف بعض التشكيلات اللغوية الأمازيغية المحلية، حيث اهتم الباحثون بمناطق محددة. لكن مع تراكم مجهودات التقعيد منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أصبحت عندنا قاعدة بيانات كبيرة فيها نصوص أمازيغية مكتوبة بالحرف اللاتيني ونصوص حول المعجم ومسارد وقواعد نحوية، رغم أنها متأثرة جدا بنحو اللغة الفرنسية.



هناك مرحلتين اثنتين - ذكرتهما الأستاذة عامر - في مسار التقعيد الداخلي للغة الأمازيغية : مرحلة أولى تمت فيها عملية التقعيد على يد أفراد وجماعات من المناضلين الملتزمين الذين يحملون هم اللغة الأمازيغية، ثم مرحلة ثانية، بدأت سنة 2000، تتم فيها عملية التقعيد على يد مؤسسات مختصة. أعود هنا إلى قضية التهجئة لأقول إن ضبط تهجئة كلمات أي لغة أمر مهم للغاية في مسلسل تهئية هذه اللغة وتقعيدها ؛ وهذه القاعدة تنطبق كل لغات العالم. أي كانت اللغة المراد تهيتها، أول ورش يجب البدء به هو اختيار حرف التهجئة. ولقد توصل العلماء إلى هذه القناعة بناء على دراسات لغوية كثيرة في علم الأصوات والفنولوجيا وعلم المورفولوجيا. لماذا ؟ لأن الهدف من تزويد لغة معينة بأدوات الاشتغال الضرورية هو الانتقال من الشفوية إلى الكتابة في أقرب وقت ممكن. حسب الأستاذ قاضي قدور، ربما هذا سيسمح للانتقال إلى الكتابة، ولكن هذا لا يعني موت الشفوية كمصدر للهوية، وهو ما قد يمنح بعض القضايا الاجتماعية المتداولة في بيئة شفوية فرصة البروز بشكل أفضل، لأن الكتابة تثمنها. وبالفعل، فالتثمين الذي توفره الكتابة أكبر من ذلك الذي توفره الشفوية لعدة أسباب ليس أقلها أن الكتابة تمنحنا فرصة السيطرة على المضمون وأنها تمنح اللغة المقعدة فرصة العمل والاشتغال في الحقول العلمية. وعليه، فانتقال لغة معينة إلى الكتابة يحتاج تضافر كل الجهود من أجل ضبط نظام التهجئة أولا.

الورش الثاني بعد ورش نظام التهجئة هو المعجم ؛ وهذا أيضا ليس حكرا على الأمازيغية ؛ وتاريخ اللغات يؤكد هذا الكلام. وضع المعجم هو مرحلة ضرورية في عملية التهئية اللغوية. وهذا كله يعني أننا بصدد مشروع له أولوية كبرى لأنه يمكننا من تجميع مفردات اللغة وحفظ الذاكرة المعجمية. وبالنسبة للغات الشفوية كاللغة الأمازيغية، المعجم هو أفضل وسيلة لتخزين المفردات الأساسية والمحافظة عليها في ظل عدم توفر كتابات أدبية كثيرة تقوم بهذا الدور. معنى هذا هو أن التعامل مع معجمية هذه اللغة الشفوية محصور في صفحات المعجم. ووعيا منه بأهمية المعجم، عمل المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية منذ تأسيسه على إنتاج مجموعة من المعاجم والمصادر. وستحدثنا زميلتي نورة الأزرق عن المعجمية بعض لحظات.

المحور الثالث المهم في عملية التهئية اللغوية والتقعيد هو النحو. ومما لا شك فيه هو أن استخراج القواعد النحوية في لغة شفوية ليس بالأمر السهل بتاتا. جميع اللغات، سواء كانت شفوية أو مكتوبة، تتوفر على نظام نحوي. ويكون هذا النظام موصوفا في اللغات المكتوبة وغير موصوف في اللغة الشفوية. لا توجد لغة بلا نحو. وعندما نتكلم عن النحو في سياق التهئية اللغوية، فنحن نتكلم بشكل خاص عن النحو الموصوف. يصف علم النحو القواعد اللغوية التي تمنح اللغة قدرتها على صناعة المعنى. وهنا أيضا نستفيد من تاريخ اللغات.

اللغة التي لا تتوفر على قواعد نحو موصوفة، غالبا ما تعاني وضعاً هشاً للغاية. التوفر على نحو معترف به، يسجل الصرف والتراكيب والقواعد اللغوية، ولا يتعدى دوره توصية المتعلم ونصح بعض الاستعمالات اللغوية، سيساهم بقوة في بناء اللغة المعيارية. وبالنسبة للأمازيغية، بدأت جهود وضع المعاجم منذ سنوات. وقد نشر أول معجم سنة 1844 بعد أن ألفه «فونتير دوبارادي» سنة 1970. بعد ذلك ظهرت معاجم أخرى تخص تشكيلات لغوية مختلفة. ويمتاز المشروع المعجمي في المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بكونه مشروعا شاملا يغطي كل التشكيلات اللغوية الأمازيغية المغربية.

الحسين المجاهد

شكرا. أعجبني مصطلحا «التقعيد الداخلي» و«التقعيد الخارجي» وتطورهما. الكلمة الآن للأستاذة نورة الأزرق.

نورة الأزرق

سأناقش مصطلحية اللغة الأمازيغية. جميعنا نتفق على أن المصطلحية تلعب دورا مهما للغاية في جميع اللغات، وأن تاريخها قديم جدا، وأنها تتغير من لغة إلى أخرى حسب الحاجات والأهداف المسطرة. وتختلف المصطلحية التي تسعى إلى «قياس» اللغة - كما هو الحال بالنسبة لمعايير «إيزو» و«أفنور» - عن المصطلحية المتعلقة بالترجمة مثلا. وكذلك، تختلف المصطلحية المعلقة بالترجمة عن مصطلحية التهيئة اللغوية مثلا. واللغة الأمازيغية، كجميع اللغات الأخرى، تحتاج إلى المصطلحية. إنها وسيلة فعالة في تطوير اللغة، بشرط أن تكون هي نفسها مفيدة وعملية وتتأقلم مع التغيرات والجديد وتكون قادرة على إنتاج كلمات جديدة تعكس التطورات الحاصلة على أرض الواقع. ولم تكن جهود تحديث الأمازيغية وليدة اليوم، فقد ظهرت أول محاولات التحديث في القرن الماضي بمنطقة القبائل الجزائرية مع الأستاذ مولود معمري، الذي أنتج، من بين أشياء أخرى، كتابين في النحو هما «تجرومت نتمازيغت» و«أماوال نتمازيغت». هذان الكتابان لهما أهمية كبرى في مصطلحية اللغة الأمازيغية. وفي الحقيقة، نصوص مولود معمري في المصطلحية نصوص مؤسسة بني عليها ما أتى من بعدها. بعد هذه المرحلة، ظهرت معاجم مختصة تهتم بمجالات مختلفة، كاللسانيات والجغرافيا والرياضيات. وقد حاول الباحثون والمناضلون إيجاد مرادفات ودلالات في اللغة الأمازيغية لتوفير ما يكفي من المرادفات. وتميزت هذه المرحلة بصدور مؤلفات ثمينة قدمها لنا هؤلاء الباحثون والمناضلون الذين كانوا يحملون هم اللغة الأمازيغية.

عرفت مصطلحية الأمازيغية في مرحلة موالية تطورا ملحوظا بعد تأسيس مجموعة من المعاهد التي تعنى بهذه اللغة كالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. بفضل هذه المعاهد، أصبح ممكنا تجاوز مرحلة العمل الفردي وبدأ مرحلة العمل المؤسساتي المنظم الذي تشرف عليه فرق بحثية كاملة هدفها إتمام ما بدأه الباحثون الأوائل وإغناء المعجم الأمازيغي. هذا العمل يستجيب دون أدنى شك لمجموعة من الانتظارات الاجتماعية. ويندرج بشكل عام في إطار التحولات التي تعرفها اللغة الأمازيغية منذ فترة. من الضروري في ظل هذه التحولات ترتيب الاحتياجات السوسيو-ثقافية ووضعها في بنية معينة تراعي التطلعات والآمال المعبر عنها في مختلف القطاعات، أول قطاع وجب الاهتمام به هو التعليم. ووضع المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية معجم اللغة الأمازيغية مرتبط بمجال المدرسة والتدريس؛ وعلاوة على هذا المعجم المدرسي، وضع المعهد معاجم أخرى للمرادفات باللغات «الفرنسية-الأمازيغية» و«العربية-الأمازيغية». كل هذه الإصدارات متوفرة في مكتبة المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. نقطة أخرى مهمة: الإعلام والتكنولوجيا الرقمية. بعد إطلاق قناة الأمازيغية، كنا في حاجة إلى عدد من المصطلحات الخاصة بهذا الميدان. ولحل هذا الإشكال، وضع المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية معجما متخصصا في الإعلام لغاته «الفرنسية-الأمازيغية» و«العربية-الأمازيغية». علاوة على ذلك، وضع المعهد معجم آخر مختص في المجال السمعي البصري.

ارتفع حجم الاهتمام والطلب على مصطلحات الأمازيغية بعد دسترتها، لأنها الآن مطالبة بلعب دور إداري واجتماعي كان حكرا على العربية والفرنسية. وبالتالي كان من الضروري وضع معاجم متخصصة في الإدارة ؛ إلى جانب المصطلحات، وتتضمن هذه المعاجم الإدارية عبارات وتسميات تتعلق بالإدارات والوزارات والمنظمات. ومن المتوقع أن تصدر معاجم جديدة قريبا، خاصة معجم القانون ومعجم الصحة... وعندما نتحدث عن استعمال مفردات هذه المعاجم، نتدخل معايير لا تتصل بالضرورة بعلم اللسانيات بقدر ما تتصل بعلم اللسانيات الاجتماعي ؛ ومن هنا أهمية إيجاد قنوات تمكنا من تنزيل مفردات هذه المعاجم في التعليم والإعلام أولا، لكيلا تبقى حبرا على ورق.



الحسين المجاهد

تحدثت الأستاذة الأزرق عن جهود المعيرة على مستوى المعجمية والمصطلحية. وقد عرضت علينا بشكل واضح ودقيق مشاريع المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية في ميدان المعجمية والمصطلحية. كما أكدت ضرورة الاشتغال على هذا المشروع قبل إدماج اللغة الأمازيغية في القطاعات المتخلفة، وعلى رأسها التعليم. إدماج اللغة الأمازيغية في منظومتنا التعليمية هو تحدي كبير ستحدثنا عنه الأستاذة فاطمة أكناو.

فاطمة أكناو

لا بد من التأكيد على أن وضع برامج تربوية خاصة بالأمازيغية يتطلب الإجابة على بعض التساؤلات أولا. ماذا نريد أن ندرس ؟ وكيف سندرس ؟ ما هي الموارد البيداغوجية والبشرية التي نحتاجها ؟ هذه كلها تساؤلات ينبغي أن يجيب عنها من يضع برنامج تربوي. وحتى أكون عملية، سأركز في مداخلتني على السؤال الأول : ماذا نريد أن ندرس ؟ أنا لا أتحدث هنا عن المهارات المراد تطويرها عند المتعلم، بقدر ما أتحدث عن اختيار المحتوى المراد تدريسه : ما هي الأمازيغية التي نريد تدريسها ؟ عن أي أمازيغية نتحدث ؟ قدمت لنا زميلتي مفتاحة عامر جزء من الجواب. في الحقيقة، نحن نتحدث عن ديداكتيك يهدف إلى تدريس لغة أمازيغية معيارية تراعي كل التشكيلات اللغوية الأمازيغية. هذا الديداكتيك يتبنى مقاربة تكاملية تركيبية تدرجية وتفاعلية. ولكن مرة أخرى، كيف نطبق هذا التصور على أرض الواقع ؟ أول خطوة يجب القيام بها هي توحيد التشكيلات المختلفة انطلاقا من أوجه الشبه بينها والإبداع انطلاقا من المادة الخام المتوفرة. كيف ذلك ؟

رأينا مع الزميلة مفتاحة أننا نتوفر اليوم على حرف معياري وموحد هو حرف تيفيناغ، الذي يحترم قواعد نظام التهجئة. شيء آخر مهم يجب القيام به هو استعمال المفردات المشتركة بين مختلف التشكيلات الأمازيغية مثل «أغروم» و«أنزار» و«أفوس» و«أدار»... عملية أخرى مهمة هي استرجاع مفردات فقدت أو بدلت بمفردات مقترضة. بالنسبة للمدرسة، نعمل على استبدال بعض هذه المفردات المقترضة بمفردات أمازيغية كان تستعمل من قبل مثل «تيفلوت» و«تاغيبورت» بدل «الباب»...

عملية أخرى يمكن القيام بها هي توسيع دلالات مجموعة من المفردات بحيث تستعمل في أكثر من مجال. على سبيل المثال، توجد في الشمال تشكيلة لغوية أمازيغية تستعمل مفردة «تاستوت» للدلالة على عملية تهيئة الأرض قبل الحرث ؛ ما فعلناه نحن هو استعمال نفس المفردة لدلالة على عملية تهيئة التلاميذ قبل إلقاء الدرس. وهكذا أصبحت مفردة «تاستوت» مرتبطة بمجال الفلاحة والتعليم. نفس الشيء فعلناه مع مفردة «تاغدا» التي أخذناها من معجم الفلاحة إلى معجم المدرسة. وبطبيعة الحال يمكننا أيضا اشتقاق كلمات جديدة. تحدثت الأستاذة مفتاحة في هذه النقطة : نحن لا نخلق كلمات جديدة من العدم، بل نشتق كلمات جديدة من كلمات وجذور موجودة في اللغة. وبالتالي، نحن لا نخلق المفردات وإنما نشتقها. هذا ما فعلناه مثلا مع المصطلحات البيداغوجية في ميدان التعليم. ينبغي استعمال مصطلحات بيداغوجية موحدة في أنشطة القراءة والتعبير والنحو والتصريف كما في أي لغة أخرى.

اخترنا لهذه الأنشطة أسماء مثل «تيفري» و«أماوا» و«أوراد» و«تافوست»... وبطبيعة الحال، كل هذه المصطلحات والمفردات التي استعملناها لها جذر في اللغة الأمازيغية الحية. مسألة أخرى تجب مراعاتها في وضع معجم اللغة المعيارية الأمازيغية هي العبارات التي أصبحت لها حمولة دلالية مميزة، خاصة في الميدان الجمعي. من هذه الكلمات «أزول» التي أصبحت تحية نضالية. وهكذا يتم توحيد مفردات اللغة في أرض الواقع على يد متعلمي اللغة الأمازيغية الذين يستعملونها في عدد لا محدود من الوضعيات التواصلية. كما قلت من قبل، بعد توحيد معجم اللغة المعيارية، يجب إثرائه. وتتم هذه العملية أساسا من خلال الترادفية (مثلا، نضع المتعلم في وضعية معينة بحيث يتعلم المفردة ومرادفاتها المأخوذة من عدة تشكيلات لغوية أمازيغية محلية). إذا تعلم شخص كل هذه المفردات فذلك يغني تشكيلته اللغوية ويقربها من التشكيلات الأخرى. يمكننا أيضا إثراء المعجم بتطوير عدد من الوظائف اللغوية (على سبيل المثال، التعبير عن مشاعر حب الوطن). كما تعلمون، لا ندرس التلاميذ لغة أمازيغية مختبرية، بل ندرسه لغة أمازيغية حية وثرية تستفيد تشكيلاتها اللغوية المختلفة. لكن كيف نفعل هذا؟ نشغل على ثلاث مستويات :

- المستوى الأول : يتعلم التلاميذ على اللغة المحلية أو الجهوية. يتعلم التلاميذ هذه التشكيلة اللغوية وفق المسار الذي حددته في بداية مداخلتي : التوحيد كخطوة أولى ؛

- المستوى الثاني : يواصل التلاميذ تعلم اللغة الجهوية أو اللغة الأم أو لغة البيئة بالنسبة للتلاميذ غير الناطقين بالأمازيغية. وهنا أؤكد مرة أخرى أن التلاميذ يتعلمون تشكيلة لغوية تم إثرائها بمرادفات من التشكيلات اللغوية الأخرى. وبالتالي، يتعلم التلاميذ الكثير من المرادفات ويستعملونها في مختلف الأنشطة الفصلية من نحو وتعبير كتابي وشفهي ... ؛

- المستوى الثالث : تدريس الأمازيغية كلغة تثري نفسها بكل ما توفره لها تشكيلاتها المحلية والجهوية من ثراء على كل المستويات بهدف إكساب متعلميها قدرة التعامل مع كل التشكيلات اللغوية الأمازيغية بسلاسة والتواصل في عدد كبير من الوضعيات، لأننا نتحدث عن لغة أم أصبحت لغة وطنية رسمية. هذا يعني أن التلميذ المغربي سيجد نفسه أمام نفس اللغة أينما انتقل في التراب المغربي ؛ وسيكون قادرا على الاندماج في المحيط الجيد والتواصل مع ساكنته.

بطبيعة الحال، نجاح هذه المقاربة وتناسقها على المستوى الأفقي والعمودي يتطلب توفير تكوينات أساسية ذات جودة عالية للأساتذة ويتطلب تعيين عدد مهم من الأساتذة كي نضمن استمرارية العمل في المستويات الثلاث وعلى مستوى كل العمليات التعليمية العلمية.

الحسين المجاهد

قضية توحيد ومعييرة الأمازيغية قضية آنية تفرض نفسها في كل المناسبات : كيف نوحّد الأمازيغية ونمعييرها ؟ وأي أسلوب نتبع ؟ وأي أدوات نوظف ؟ ولمن نوحّد هذه اللغة ونمعييرها ؟ ومن يتكلف بهذه المهمة ؟ كل هذه الأسئلة تفرض نفسها ؛ وهناك أسئلة أخرى تهّم طرق تنزيل هذه اللغة المعيارية ومجالات تنزيلها، المدرسة بشكل خاص... يجب أن نهتم بالنحو والمعجمية والمصطلحية والمقررات... ولقد اشتغل فريق البحث في المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية يوميا وعلى مدار الساعة لرفع هذا التحدي. وكما نقول، الاتحاد قوة. أشكر كل زملائي الذين شاركوا في هذه المائدة المستديرة. الكلمة الآن للحضور قصد التفاعل وإبداء الرأي.

مداخلة

سعدت حقا بالاستماع إليكم نتحدثون عن المعجم الأمازيغي والنحو والمعجمية والمعييرة. تحدثتم عن التشكيلات اللغوية والمناطق، تشلحيت مثلا. قدمتم لنا أمثلة عن مفردات تشتق من مفردات أخرى متوفرة في اللغة ؛ وأمثلة عن الاقتراض اللغوية. وقلتم إننا نحافظ على مفردات اللغة بوضع معاجم توفر المفردات ومرادفاتها المأخوذة من كل التشكيلات اللغوية الجهوية والمحلية. هل فعلا تغطي هذه اللغة المعيارية كل التشكيلات اللغوية الجهوية والمحلية بالمغرب ؟ هل تركز على أمازيغية منطقة محددة، أم أنها تشمل كل التشكيلات اللغوية الجهوية والمحلية، بما في ذلك تريفيت مثلا ؟

السيد الفزائي

بالنسبة لي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية هو صاحب الفضل في بدأ وإنجاز مشاريع بحثية - لاقت نجاحا محترما - هدفها تأهيل اللغة الأمازيغية وإدماجها. لكن يبدو أن النتائج المحققة على أرض الواقع - خاصة في المدرسة - متباينة... هل لكم أن تشاركونا تقييمكم للوضعية ومستوى اكتساب اللغة الأمازيغية من طرف الفئات المستهدفة ؟ هل توجد دراسات جادة تقيم بالأرقام والإحصائيات حصيلة العمل المنجز في السنوات الأخيرة. لدي سؤال للأستاذة أگناو بخصوص تريفيت، التي تبين لنا بشكل واضح صعوبة تهيئة الأمازيغية لأنها هي نفسها لها تفرعات بينها مشاكل جدية واختلافات كثيرة. كيف نتعامل مع هذا الوضع في الريف ؟

مفتاحة عامر

طرحت مسألة عسيرة حقا : تنزيل اللغة المعيارية. قبل سنوات من الآن، كنا نتساءل : هل تتوفر الأمازيغية على ما يكفي من الأدوات، وهل أصبحت مؤهلة للعب دور اللغة الرسمية كاللغة العربية ؟ حاليا، نتوفر على معاجم وكتب نحوية وأخرى معجمية والكثير من الإصدارات الماثلة. شغلنا الشاغل من داخل المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية اليوم هو تنزيل الأمازيغية المعيارية. وما كان يشغلنا عن هذا الورش هو سعيينا إلى إثبات سلطة المعهد وكسب اعتراف كل الفاعلين. في الحقيقة، تعتبر هذه المسألة نقطة ضعف تطرح العديد من المشاكل. في فرنسا مثلا، ترتبط لجان المصطلحية بمكتب رئيس الوزراء مباشرة ؛ والقرارات المتعلقة بها ويعملها تصدر في مراسيم رئاسية.

ما أريد قوله هو أن تنزيل لغة ما أكبر بكثير من أن يتكلف به أفراد أو حتى مجموعات : الأكاديمية الفرنسية هي التي تسهر على العملية في فرنسا. على المغاربة أن يفهموا أن في المغرب مؤسسة تعمل على تنزيل اللغة الأمازيغية، وأن عليهم اكتشاف ما تنتجه من معاجم وكتب ودلائل للمدرسين... عندما نتكلم عن تثبيت لغة معينة - المعيرة - التوحيد - التنزيل - فنحن نتكلم عن مدة زمنية طويلة والكثير من العمل. هذا من المشاريع التي تنفذ على المدى البعيد. بالنسبة للمدرسة، أعتقد أننا سنتمكن التلاميذ من اكتساب نظام لغوي متكامل مستقبلا.

فاطمة أڭناو

هل يوجد معجم للمرادفات ؟ نعم يوجد. نفس هذه المرادفات توجد في دلائل تدريس اللغة الأمازيغية والمقررات المدرسية. عندنا أيضا معجم مدرسي يجد فيه التلاميذ المرادفات المتوفرة في المعجم العام. استعمال هذه المرادفات في المقررات المدرسية يمنح التشكيلات الأمازيغية المختلفة فرصة إثراء بعضها البعض وملء الفراغات. اشتغلنا على كل التشكيلات المحلية في نفس الوقت لأن أعضاء فريقنا البحثي كانوا يمثلون كل التشكيلات اللغوية. اعتمدنا في هذا على أبحاث مركز التهيئة اللغوية التي تعتمد على وثائق كثيرة، لكننا اعتمدنا أيضا على الناطقين أنفسهم، كما فعلنا في الجنوب. علاوة على هذا، ينبغي أن نعتبر المتعلم مصدرا مهما للمعلومات. أحيانا، يستفيد الأستاذ كثيرا من التلميذ في فصل اللغة الأمازيغية.

الحسين المجاهد

شكرا جزيلا على حسن الإصغاء والمتابعة.

الجاليات : هويات إفريقية جديدة

رئيس الجلسة : يحيى أبو الفرح
المشاركون : مانتي دياورا، بوعزة بنعاشر، فودي سيللا، عبد الفتاح الزين،
جون لويس كيغو
فضاء : ليلي العلوي
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 16 : 30 - 15 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

أبرز مسير هذه المائدة المستديرة يحيى أبو الفرح، المختص في الشؤون الإفريقية، التحديات الاقتصادية والإنسانية والأبعاد التاريخية المرتبطة بحركة الهجرة عبر العالم ؛ وأكد أن الهدف في الوقت الراهن هو إعادة ترتيب العلاقة بين أوروبا وإفريقيا وفق معادلة رابح-رابح. وقد نشط النقاش ثلة من المختصين والخبراء ذوي الصلة بالموضوع. قدم الأستاذ جون لويس كيغو رؤيا جديدة للعالم متحررة من منطق الشرق مقابل الغرب وقائمة على علاقة دينامية بين الشمال والجنوب. وفي هذا السياق، أشاد المتدخل بالأقطاب التجارية والصناعية والمالية المندمجة المشيدة على حدود الأمريكيتين الطامحتين إلى تحقيق تكاملية ثقافية واقتصادية، كما نوه بمجهودات ربط اقتصادي اليابان والصين باقتصاديات جيرانهما وصولا إلى أستراليا ونيوزيلندا.

على هذا الأساس، يعلن كُيْكو تأييده محورا عالميا يمتد من شمال أوروبا إلى جنوب إفريقيا (أوروبا-المتوسط إفريقيا) ويقوم على مبدأ «دمج سلاسل القيمة» بحيث ترتفع قيمة المنتجات إلى أعلى المستويات الممكنة دون ارتفاع تكاليفها. في السياق ذاته، حيث أبرز المتدخل المساهمة الفعالة لأبناء الجاليات من الأجيال الصاعدة في إحداث تغير إيجابي وعميق في العلاقات شمال-جنوب. ضيف عزيز آخر تشرفنا بحضوره معنا هو فخامة السفير المتجول بديوان الرئاسة السنغالية فودي سيلا، الذي ناقش في مداخلته أمرين متناقضين أولهما هو أن علاقة الأفارقة مع أوروبا حيوية وقوية وثانيهما أن الملفات العالقة وجروح الماضي الاستعماري مازالت ترخي بظلالها رغم كل شيء. وبخصوص ملف الهجرة، شدد فخامة السفير على ضرورة أن تأتي الحلول من الأفارقة أنفسهم.



من جهته، ساءل الكاتب وأستاذ الدراسات الأدبية المقيم بالولايات المتحدة مانتيا دياورا طموح إقامة محور أوروبا-المتوسط-إفريقيا في ضوء حقيقة لا تتماشى وهذا الطموح هي أن أعدادا متزايدة من الجالية والمفكرين الأفارقة يفضلون العيش بالولايات المتحدة بدل أوروبا. وقال إن هؤلاء أصبحوا يشكلون جالية من بين الجاليات الكثيرة بالولايات المتحدة تماما كاليهود أو الأمريكيين من أصول إفريقية. واعتبر المتدخل الجالية الإفريقية بأمريكا مصدر ثراء حقيقي بسبب تنوعها الثقافي الكبير الذي تطور في فضاء بعيد لا يحكمه التصور الأوروبي للعالم. أما الكاتب والأستاذ بوعزة بنعاشر فقد سلط الضوء على تاريخ الجاليات في الواقع والفكر الأوروبيين. ولقد اختتمت هذه المائدة المستديرة بمداخلة قيمة أخرى أكد فيها الأستاذ والسوسيولوجي عبد الفتاح الزين أنه يجد ما يكفي من الأسباب للإيمان بقدرة إفريقيا على المشاركة الفعالة في العولمة بدل الاكتفاء بدور الشريك الاقتصادي لأوروبا والصين ؛ وأوضح المتدخل أن بث روح التلاحق الثقافي والترويج لها في المناهج التربوية أسلم سبيل نحو تحقيق هذا الهدف. وفي نفس السياق، شدد عدد من المتدخلين على أهمية تلاحق الثقافات والشعوب والأعراق وعلى أهمية الهويات المتعددة.

مداخلات المائدة المستديرة

يحيى أبو الفرح

مرحبا بكم جميعا معنا في هذه المائدة المستديرة التي سنناقش فيها موضوع بعنوان : «الجالية، هويات إفريقية جديدة». جميعنا نعلم أهمية الجاليات الإفريقية والأدوار التي تلعبها في عالمنا المعاصر. فهي بلا شك عامل مهم في النماء والتحول الاجتماعي الإيجابي ببلد الإقامة أو البلد الأصلي. جميعنا نعلم أيضا أن هناك مجموعة من الشروط والحيثيات التي تأثر في هذه الجاليات وتغير فيها شكلا ومضمونا. ومن هذا المنطق، يمكن القول إن الجاليات الإفريقية لا تعيش حياة كلها ورود في بلدان الاستقبال لأن العلاقة بين الأوروبي والإفريقي مازالت معقدة وفيها الكثير من الحواجز التاريخية والنفسية. يبلغ عدد أفراد الجالية الإفريقية بأوروبا تسعة ملايين نسمة، منها ثلاثة ملايين نسمة بفرنسا لوحدها. وتعتبر الازدواجية الثقافية التي تمتاز بها هذه الجالية عن انتماءات هوياتية إفريقية وأوروبية متنوعة، ما يجعل منها حلقة وصلة قوية بين القارتين.

وتجدر الإشارة إلى أن أوروبا تبحث اليوم أكثر من أي وقت مضى ولأسباب متنوعة عن علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية جديدة مع إفريقيا. وهنا ستطرح بطبيعة الحال جملة من الأسئلة : كيف يمكننا إعادة التفكير في الاتفاقيات الاقتصادية الإستراتيجية بين القارتين وبالتالي تبني معادلة رابح-رابح، كمنطق جديد يحكم علاقتهما ؟ ما الذي تعرضه أوروبا على إفريقيا بخصوص الإنتاج الصناعي المشترك وخلق فرص الشغل والقيمة المضافة ؟ وما السبيل إلى تأسيس محور أوروبا-المتوسط-إفريقيا من أجل تقادي الهيمنة الصينية التي تلوح في الأفق ؟

ويحضر معنا اليوم لمناقشة كل هذه التساؤلات نخبة من الخبراء والمختصين ذوي الصلة بالموضوع. سنفتتح المداخلات مع الأستاذ جون لويس كيجو، الرئيس المؤسس لمعهد الاستشراف الاقتصادي في منطقة البحر البيض المتوسط الذي نظم بباريس مؤخرا مؤتمرا كبيرا حول الجاليات الإفريقية. لكم الكلمة السيد كيجو.

جون لويس كيجو

سنناقش في مداخلتي ثلاثة أفكار رئيسية. أولا، أريد إقناعكم برؤيا جديدة للعالم أصبحت تعرف قبولا أكبر يوما بعد يوم. قبل بضع سنوات من الآن، لم تكن هذه الرؤيا سوى نظرية نسمع بها : أما في وقتنا الحالي، فقد أصبحت واقعا يعترف به القادة الأوروبيين وبعض من قادة إفريقيا. ربما لا يستعمل صاحب الجلالة الملك محمد السادس نفس العبارات، لكنه بدون شك يتبنى نفس الرؤيا. فما مضمون هذه الرؤيا التي أروج لها ؟ من فضلكم، عودوا معي بذاكرتكم إلى الخمسينات. حينها، كان المنطق السائد هو الصراع : صراع الشرق مع الغرب وصراع الشيوعية مع الرأسمالية وصراع الروس مع الأمريكان. لكن مع سقوط جدار برلين، قال مجموعة من الخبراء الاقتصاديين، وأنا واحد منهم : إن العالم سينتقل من صراع الشرق مع الغرب إلى صراع الشمال مع الجنوب. وفي 25 مارس من سنة 2007، كتبت مقالا في جريدة «لوموند» الفرنسية، تحدثت فيه عن تقطن الولايات المتحدة واليابان لهذا التحول ووعيهما بضرورة تبني عولمة جهوية تربطهما ببلدان الجنوب القريبة والتي أصبحت فيما بعد تتلقى ثمانية عشر في المائة من استثماراتهما : وقد بينت في مقالتي أن هذا التوجه أدى إلى تأسيس أقطاب تجارية واقتصادية ومالية مندمجة على الحدود بين هذه الدول. هذه الرؤيا التي أحدثكم عنها اليوم هي ما سيشغل السياسيين والاقتصاديين والناس جميعا في المستقبل. الولايات المتحدة تعمل الآن مع أمريكا اللاتينية المحسوبة على الجنوب. وسواء كان ترامب هو الرئيس أو أي شخص آخر، فذلك لن يؤثر على هذا التوجه. والنتيجة اليوم هي أن أمريكا الشمالية أصبحت المستثمر الأول والزبون الأول في بلدان أمريكا اللاتينية.

لقد نجحت هذه الدول في العمل سوية بفضل الأقطاب التجارية والاقتصادية والمالية المندجة التي تحل مشاكل كثيرة، أولها الفوارق الزمنية الكبيرة بين الولايات المتحدة وشركائها. أما التكتل الاقتصادي الثاني المحكوم بمنطقة شمال جنوب كما ذكرت، هو تكتل اليابان والصين ونمور الآسيان. وقد توسع هذا المحور ليشمل دول أستراليا ونيوزيلندا : أي أنه يغطي مساحة قدرها عشرة آلاف كيلومتر طولاً وثلاثة آلاف كيلومتر عرضاً. والرائع في الأمر هو أن كل الشركاء يعملون وفق ساعة واحدة حددها التين الصيني كما بين الخبير الاقتصاد ووزير المالية المغربي الأسبق فتح الله والعلو في كتابه «نحن والصين... الجواب على التجاوز الثاني». معنى هذا أن قوة الصين ليست نابعة من الصين وحدها، بل من شركائها في المنطقة أيضاً. شخصياً، أؤمن أن التكتل الثالث وفق منطق شمال-جنوب هو أوروبا-المتوسط-إفريقيا.

إذا أخذنا في الحسبان الخمسمائة مليون نسمة بأوروبا والخمسة مائة مليون نسمة في حوض المتوسط والمليار ونصف أو المليارين بإفريقيا، فلا شك أننا نتحدث عن سوق جد عملاقة ممتدة من الدول الإسكندنافية حتى جنوب إفريقيا يمكنها أن تتجاوز الولايات المتحدة والصين لتصبح أعظم قوة اقتصادية في الأربعين سنة الموالية كأكصى تقدير. وفي إحدى المرات، سألني الرئيس الفرنسي الأسبق نيكولا ساركوزي قائلاً : «لماذا أنت متفائل بخصوص هذه الأقطاب / المندجة ؟» فقلت إنني متفائل لسبب بسيط هو أن رؤوس الأموال الجبانة بطبيعتها آمنة في هذه الأقطاب وتحقق أرباحاً كبيرة. كيف ذلك ؟ تبحث الشركات عما يسميه الخبراء الاقتصاديون دمج سلاسل القيمة، أي رفع قيمة المنتج دون تكاليف إضافية. من قبل كانت هذه السلاسل موزعة في مناطق مختلفة من العالم ؛ ولكن بعد الأزمة الاقتصادية في سنة 2008، راجعت الشركات هذه السياسة وأصبحت تفضل دمج مختلف سلاسل الإنتاج التابعة لها في فضاء واحد. وعلى سبيل المثال، دمجت شركة «ميشلان» خمسين مؤسسة صناعية تابعة لها إلى أن أصبح عددها عشرين مؤسسة فقط. أما شركة «هوغو بوس» فقد قلصت عدد مؤسساتها من أربعة عشر مؤسسة إلى ثلاث مؤسسات فقط. والمنطق المتحكم في هذه القرارات هو أن اختصار المسافات بين سلاسل الإنتاج يرفع الجودة ويخفض التكاليف كما أسلفت. من جهةها، تقبل شركات السيارات الألمانية بنشر سلاسل الإنتاج خارج ألمانيا لكنها تشترط حصرها في مساحة لا تتعدى أربعة آلاف كيلومتر كحد أقصى. هذه هي الرؤيا الجديدة التي أدعو إلى تنزيلها على أرض الواقع قصد خلق محور اقتصادي يجمع أوروبا والمتوسط وإفريقيا. أتمنى أن يتفق المنتمون إلى هذا الفضاء يوماً ما على نفس التصور ونفس التوقيت ونشاهد نفس القوات. بلا شك، الواقع يقول إننا نتعارف ونتعاضد ونتحاب داخل هذا الفضاء، لكن مما لا شك فيه أيضاً، هو أننا نتشارك نفس المرجعيات الثقافية الجذرية مقارنة بالصين مثلاً. غالباً ما يسألني الأفرقة لماذا أضع أوروبا العجوز في مقدمة اسم هذا الفضاء الذي أدعو إليه وأضع إفريقيا الشابة في المؤخرة.

في مرة من المرات، قلت كلاماً كهذا للرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون فقال «دعونا نبدأ العمل». وهذا معناه أن القادة السياسيين ورجال الأعمال المنوط بهم تنزيل هذه الرؤيا لا يهتمون بالتسميات بقدر ما يهتمون بالمشاريع الحقيقة والخطوات العملية الكفيلة بتحقيق تعاون فعال بين مختلف الشركاء القريبين منهم بدل البحث عن شركاء في آسيا أو الأمريكيتين. وباختصار، ستصبح منزلة إفريقيا من أوروبا كمنزلة المكسيك من الولايات المتحدة.

تتعلق النقطة الثانية في مداخلتي بأفراد أسميهم الفاعلون الجدد. هؤلاء الأفراد ليسوا سفراء ولا وزراء. إنهم شباب ونساء من الجاليات الإفريقية بأوروبا. وأنا سعيد باحتضان فرنسا وأوروبا عموماً جاليات إفريقية ومغاربية كبيرة : يبلغ تعداد الجالية الإفريقية بأوروبا تسعة ملايين نسمة تستقبل منها فرنسا لوحدها ثلاثة ملايين ونصف نسمة. وقد بينت الدراسات أن أزيد من ثلاثة أرباع هذه الجالية يعبرون عن رغبتهم في مساعدة بلدانهم الأصلية ؛ وأنهم لا يريدون العمل لصالح أوروبا فقط، بل يريدون العمل لصالح أوروبا وإفريقيا معاً. ولقد نظم معهد الاستشراف الاقتصادي في منطقة البحر الأبيض المتوسط الذي ترأسه مؤتمر بباريس في الفترة الأخيرة حول موضوع الجاليات الإفريقية.

أكثر ما أثار اهتمام كل المشاركين في فعاليات هذا المؤتمر هو الحضور القوي للأجيال الصاعدة من أبناء الجاليات المغربية والإفريقية. وقد طرح هذا الشباب تساؤلات عديدة : لماذا لا يوجد في مراكز صناعة القرار بدول أوروبا مسؤولون من أصول مغربية أو سنغالية أو إفوارية... ؟ لماذا لا توجد المساواة ؟ ويقول هذا الشباب إن المناصب الحساسة في الدول الأوروبية كلها محجوزة للبيض، ولا يصل إليها أي مسؤول من أصول إفريقية. وأنا أعتقد أن هذه التساؤلات والمطالب مشروعة إلى حد بعيد، لكنها مطالب سلبية، إن جاز القول. يوجد جيل جديد من الجاليات الإفريقية ينبض بروح الإبداع ومتحرر من عقدة الماضي ومنخرط في عصر التكنولوجيا. هذه الجاليات هي التي تعمل بشكل جمعي واعي ولاواعي على إحداث تغييرات إيجابية وعميقة في علاقات الشمال والجنوب.



فكرتي الثالثة والأخيرة هي : العلاقات بين أوروبا وإفريقيا قوية بالقدر الكافي كي تقوما بربط أنظمتيها البنكية وجامعاتهما... وهذا تماما ما تسعى إليه اليابان والصين وباقي الدول الآسيوية التي تجمعها علاقات وطيدة. صحيح، أن علاقاتنا يعكر صفوها تاريخ استعماري والكثير من المنغصات الأخرى، لكننا نتقرب من بعضنا البعض رويدا رويدا. تنتظم العلاقات بين أوروبا وإفريقيا بموجب «اتفاق كوتونو» الموقع بين الاتحاد الأوروبي من جهة وبلدان إفريقيا والكاريبي والمحيط الهادي من جهة ثانية. وقد مرت عشرون سنة على توقيع هذا الاتفاق بالعاصمة الاقتصادية لدولة البنين، وتتم مراجعته كل خمس سنوات. هذا الاتفاق أمر جيد ؛ لكنني بصراحة أفضل أن تتجاوز العلاقة الأوروبية-الإفريقية منطق التجارة وحقوق المرأة والتبادل الحر إلى أفق أرحب بكثير. هذه القضايا أصبحت جزء من الماضي وفي حكم المتفق عليه ؛ ما يجب التفاهم حوله فعلا هو إعادة توزيع وسائل الإنتاج ونقل التكنولوجيا. وقد قال الأفارقة هذا الكلام بكل وضوح للرئيس الفرنسي الأسبق فرانسوا هولاند خلال لقاء جمعه ببعضه من رجال الأعمال الأفارقة : قالوا إنهم يرفضون أن تواصل أوروبا إغراق إفريقيا بمنتجات تصنعها كفاءات إفريقية. وهم يضعون موضع تساؤل منطق أوروبا التي تريد بيع سياراتها وأدويتها... في الأسواق الإفريقية وترفض أن تصنع تلك المنتجات داخل القارة. وعلى كل حال، لعل نتيجة هذه السياسة هي طرق الأفارقة أبواب أوروبا من كل الجوانب ؛ الأمر بهذه البساطة.

سأنهي مداخلتني بمثال مقتضب يبين أننا نحن الأوروبيون نجد أنفسنا في موقف سخيף حقا : نتكلم دائما عن الشكولاتة السويسرية والشكولاتة البلجيكية، لكنها جميعها في الحقيقة شكولاتة إفريقية. كما تعلمون لا توجد شكولاتة بدون كاكاو ولا يوجد كاكاو بدون إفريقيا ؛ فلما لا نتجج الشكولاتة في إفريقيا ونخلق علاقات جديدة بين أوروبا وإفريقيا أساسها المساواة والربح المشترك.

يحيى أبو الفرح

شكرا لكم أستاذ جون لويس غيغو على تقديم هذه الرؤيا الجديدة للعالم والقائمة على فكرة بناء فضاء موحد أسميته «أوروبا-المتوسط-إفريقيا» الهدف منه الجمع بين معارف وتكنولوجيا أوروبا العجوز وطاقات وموارد إفريقيا الشابة النابضة بالحياة. وقد أشرت أيضا إلى الدور المهم الذي يجب أن يلعبه المجتمع المدني وشباب الجالية الإفريقية في تحقيق هذا الهدف. وفي الختام، أكدت على ضرورة تقاسم وسائل الإنتاج والتكنولوجيا مع الجنوب.

مداخلة

أجد أن فكرة دمج سلاسل الإنتاج التي أشرت إليها مثيرة للاهتمام حقا، لأنها تخلق دينامية جديدة. هل لك أن تقدم لنا تفاصيل أكثر حول هذه النقطة ؟

جون لويس غيغو

مع بداية عصر العولمة، كان سعر برميل النفط متدنيا ؛ وكان رؤساء الشركات يهتمون بثلاثين أو أربعين مهنة في نفس الوقت، خاصة رؤساء شركات صناعة السيارات : المحرك والأسلاك الكهربائية وهيكل السيارة والعجلات... لقد كانوا مهووسين بإنتاج كل جزء من أجزاء السيارة على خط إنتاج خاص وتشيتت سلاسل القيمة عبر العالم. مثلا، كانت دول كثيرة تساهم في صنع مقعد السيارة : تصنع تركيا جزء وتصنع الأرجنتين جزء وتصنع التايوان أو دولة غيرها جزء آخر وهكذا دواليك. أما الآن فقد اختلف الوضع تماما ؛ أسعار البترول حاليا لا علاقة لها بما كانت عليه سابقا، وهذا يعني مصاريف شحن مرتفعة كما أن حركة الأموال ترافقها أخطار الشركات في غنى عنها... والأهم هو صعوبة مراقبة الجودة. وإذا ألقينا نظرة على الألمان باعتبارهم أسياد هذه الصناعة، سنجد أنهم بدلو الإستراتيجية القديمة. خمسة وتسعون في المائة من أجزاء سيارة بورش مثلا لا تصنع في ألمانيا، لكنها تصنع في فضاء محدود لا يتجاوز دول الجوار الأوروبي كبولونيا وتركيا وهنغاريا. وعندما سألت الألمان لماذا يفعلون ذلك ؟ قالوا : لأن المهندسين الألمان يستطيعون مراقبة الجودة في المصانع التي تنتج أجزاء السيارة بسهولة، وهذا أمر يصعب تحقيقه إذا كنا نتعامل مع مصانع في بلد بعيد كفيتنام.

معنى هذا الكلام هو أن الألمان اتبعوا سياسة دمج سلاسل القيمة. والمثير للإعجاب حقا هو أنهم قرروا، بعد الاستثمار في دول شرق أوروبا، التوجه إلى المغرب الكبير، حيث استقرت شركات مناولات ألمانية عالمية بتونس البعيدة عن ألمانيا بألفي كيلومتر فقط. وهذا يؤكد مرة أخرى أن الألمان يستثمرون داخل مجال جغرافي ضيق للحفاظ على اندماج سلاسل القيمة بأكبر نسبة ممكنة. كما تقدم شركة «إيرباص» مثلا رائعا في دمج سلاسل الإنتاج : تصنع المقصورة في هامبورغ الألمانية وتصنع محركات الجاكوار باسكتلندا وتصنع الأسلاك الكهربائية بإسبانيا بينما يتم التجميع في مدينة تولوز الفرنسية. وإذا حسبنا المسافات الفاصلة بين مختلف سلاسل القيمة نجد أن المسافة بين تولوز واسكتلندا أو تولوز وهامبورغ لا تتعدى ألف وخمسة مائة كيلومتر وأن المسافة بين تولوز وإسبانيا هي ألف كيلومتر فقط. وهذا يساعد على مراقبة الجودة بفاعلية كبيرة ويقضي على احتمال أن يفكر مدراء «إيرباص» يوما ما في صناعة محركات طائراتهم بالصين أو أمريكا الجنوبية. وأنا واثق من أن كل من المغرب والجزائر وتونس بدأت تدخل شيء فشيء ضمن الحركة الصناعية الأوروبية.

في الحقيقة، يلعب العاهل المغربي الملك محمد السادس دورا رياديا في هذا الصدد. إذ وافق المغرب على التعاون، وقال إنه إذا لم يكن المغرب جار فرنسا وألمانيا فهو بلا شك حلقة الوصل بين أوروبا وإفريقيا. مصر أيضا ستعرف تطور حركة صناعية كبيرة في الخمس عشرة سنة القادمة بفضل اكتشافاتها الكبيرة للغاز في البحر الأبيض المتوسط والتي تجاوزت احتياطي قطر من الغاز.

مداخلة

ما هي المكانة الحقيقية لإفريقيا في دينامية شمال-جنوب، خاصة في ظل التطورات التي تشهدها علاقاتها بأوروبا، وعلمنا أنها اليوم ساحة صراع على الموارد والأسواق بين القوى العظمى التقليدية أو الصاعدة أيضا ؟ كما لا يخفى عليكم، تشهد إفريقيا تحولات عميقة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وبيئيا...

جون لويس غيغو

في الحقيقة، سيادة السفير فودي سيلا هو الرجل المناسب للإجابة على هذا السؤال. ما تقييم الأفارقة لعلاقتهم بأوروبا ؟ يمكن أن أقدم جوابا، لكنه بلا شك سيبقى جوابا ناقصا. عندما أتحدث مع أصدقائي الأفارقة، يقولون إن من بين حكام الدول الإفريقية الأربعة وخمسون جيل قديم من الرؤساء غير المتعلمين الذين يستفيدون من استئثار الفساد وغياب الكفاءة في مقابل جيل جديد من الرؤساء يسمون رؤساء القطيعة. ومن رموز هذا الجيل الجديد الرئيس الرواندي بول كاغامي والرئيس الغاني نانا أكوفو أددو ورئيس البنين باتريس تالون ورئيس السنغال ماكي سال وبطبيعة الحال ملك المغرب محمد السادس. وقد التمتست لقاء الرئيس نانا أكوفو أددو لأنه رجل أصابني بالحيرة والدهشة على منصات التواصل الاجتماعي الإفريقية ؛ إنه حقا ماكرون إفريقيا. لقد حيرني فعلا. رأيته في نوفمبر من السنة الماضية عندما نزل الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، في إطار أول جولة إفريقية يقوم بها، ضيفا عند رئيس دولة النيجر محمدا إيسوفو ؛ وقد حضر حينها عدد من رؤساء الدول الإفريقية. وعندما قال ماكرون في كلمة له : «هذا هو تصوري للقارة الإفريقية...» رد عليه الرئيس نانا أكوفو أددو قائلا : «سأقول لك ما هي إفريقيا بالضبط ؛ فأنا إفريقي» وبشكل عام قال الرئيس أددو : «إن المساعدات الأوروبية لم تكن ولن تكون حلا في أي يوم من الأيام. أبقوا عندكم أموالكم ؛ إنها أموال مسروقة. أتركها للشعب الفرنسي ؛ إنها أمواله. أما نحن، فاتركونا فقط نعمل ونصنع موادنا الأولية بأنفسنا. لم يعد مقبولا أن تأخذوا الكاكاو إلى سويسرا كي تصنعوا منه الشكولاتة. لقد ضقتنا نرعا بكل الممارسات المماثلة وشبعنا من سياسة الضحك على الذقون. نحن نريد الاحتفاظ بموادنا الأولية ونريد أن نبدأ صناعتنا من خلال هذه المواد. فلقد ولى عصر استغلال اليد العاملة ؛ لقد ولى عصر استغلال المواد الأولية» وبصراحة هذا خطاب ناري أسعدني سماعه حقا. وهنا أتذكر كتاب الاقتصادي ووزير المالية المغربي السابق فتح الله والعلو بعنوان «نحن والصين... الجواب على التجاوز الثاني». يجد الإنسان الأوروبي صعوبة في فهم كلمة «نحن» في العنوان، فتجده يتساءل : من يقصد الكاتب بكلمة نحن ؟ لكن بشيء يسير من الإطلاع يمكن للمرء أن يفهم أن «نحن» تشير إلى العرب والأفارقة الذين حجر الاستعمار عليهم وعلى تنميتهم. وهنا الاختلاف، لأن الأوروبي غالبا سيناقش علاقة أوروبا بالصين كمنافس. بالمناسبة، نال فتح الله والعلو الجائزة الخاصة للكتاب في بكين عن هذا المؤلف الذين ختمه بالقول : «إذا كنتم لا تريدون أن تبتلع الصين إفريقيا فالحل الوحيد أمامكم هو تعاون شمال-جنوب حقيقي.»

يحيى أبو الفرج

موضوعنا لهذا اليوم مهم جدا وهو في صلب قضايا الهجرة والحركات البشرية كظواهر تكاد تهم كل قارات العالم، وفي مقدمتها إفريقيا. فمنذ قرون مضت، عرفت هذه القارة حركات هجرة قوية كانت نتيجتها تشكل جالية إفريقية كبيرة أصبحت مع مرور الوقت تطرح أسئلة هوياتية تختلف حسب البلد الأصلي وبلد الاستقبال. سنستمع في الوقت المتبقي إلى أربعة أساتذة سيناقشون مجموعة من الإشكالات المرتبطة بهذه النقاط التي أثرتها الآن. سنبدأ مع فخامة السفير المتجول بديوان الرئاسة السنغالية السيد فودي سيلا. كما نعلم جميعا يقدم السنغال نموذجا اجتماعيا فريدا، حيث يحتضن جاليات إفريقية. بعد ذلك، سنستمع للكاتب والمخرج مانتيا دياورا ذي الأصول المالية.

تعتبر مالي دولة مهمة في منطقة الساحل، وهي أيضا تشهد دينامية ملحوظة في حركة الهجرة تمتاز بها في الواقع كل منطقة الساحل والصحراء. وبعد ذلك، سنستمع إلى الباحث الأكاديمي الدكتور عبد الفتاح الزين المختص في قضايا الهجرة. والختام سيكون مع الأستاذ بوعزة بنعاشر، الباحث السابق بمعهد الدراسات الإفريقية والمختص في قضايا الزنجية بإفريقيا. وبالتالي ننتظر تصورا متعدد الأبعاد. تفضل أستاذ فودي سيلا.

فودي سيلا

اسمحوا لي في البداية أن أعبر لكم بصفتي سفيرا متجولا بديوان الرئاسة السنغالية عن فخري واعتزازي بالمشاركة في إثراء النقاش والأفكار المطروحة على هذه المائدة المستديرة. نقطة أخرى أريد الإشارة إليها قبل الدخول في الموضوع هي أننا سنؤسس، بفضل التعاون مع أصدقائنا الناشرين والمثقفين المغاربة، دارا للكتاب ومكتبة كبيرة بالمدينة السنغالية الجديدة ديامنيديو ؛ نحن نشغل على هذا المشروع على قدم وساق. وقد وعدنا رئيس اتحاد الناشرين بالمغرب السيد عبد القادر الرتاني بالآلاف من الكتب كهبة. ومن المهم جدا أن يستفيد الناس استفادة مباشرة من التعاون المغربي السنغالي، خاصة في ميدان التربية والتكوين. وبالتالي فحضورنا معكم اليوم هو أيضا فرصة ثمينة للوقوف على سير هذا المشروع. هذه فقط ملاحظات أولية أردت أن أبدأ بها. أعرف الأستاذ كيجو معرفة جيدة. وأنا عادة، أخذ حذري من الدعاوى التي تضع لنفسها هدفا عاما واحدا في القضايا المتعلقة بالهوية. فالأمر ليس سهلا بحيث نختصره في هدف واحد، لأن الأصل في الهويات هو التنوع لا الاختزال.

شخصيا، لا أتذكر أنني عشت أي نزاع مع الصينيين. لكنني في المقابل عشت نزاعا مع ذاك الذي شحن الإنسان الإفريقي في السفن وباعه في أسواق النخاسة لقرون من الزمن. أنا لا مشكلة عندي مع الصيني، مشكلتي مع من استعبد الأفارقة واستعمر أراضيهم واستغل خيراتهم. لكن رغم كل شيء، أنا أحاول تجاوز الماضي. أنا أحمل جنسيتين اثنتين وأعترف أنني ربما ما كنت لأبلغ ما بلغت لو لم أكن فردا من أفراد الجالية الإفريقية بأوروبا. هناك في فرنسا، وجدنا الدعم والتيسير اللازمين من الرئيس الفرنسي ميتران عندما قررنا تأسيس جمعية مناهضة العنصرية «SOS». وأنا مازلت أجد في أوروبا قدرا محترما جدا من التعاطف مع المهاجرين وقضاياهم رغم كل ما قد نلاحظ من سلبيات.

على سبيل المثال، تناضل جمعية «SOS» المتوسطة يوميا من أجل إنقاذ مئات المهاجرين من شبح الموت غرقا في عرض البحر. ومن جهتها، تبذل بلدية مدينة نانت مجهودات جبارة من أجل استقبال المهاجرين. والحق يقال، هذا كله مجرد غيض من فيض. لهذا، أنا لا أحمل في صدري أي نوايا انتقامية، لكنني في نفس الوقت أرفض أن يقال اليوم إن الخطأ خطأ الصينيين. موقفني هذا ليس وليد الأمس ؛ أما مصطلح «الجالية» فأرى أنه مصطلح مضلل الهدف منه خلق الجدل لا أقل ولا أكثر. لابد أن نتجاوز القشور وننفذ إلى لب المشكلة، وهذه هي النقطة الخلافية بيني، وبين الأستاذ جون لويس كيجو. عادة، نسمع الكثير من العوام وحتى المختصين يقولون بكل ثقة في النفس إن هناك جالية إفريقية جديدة مختلفة تماما عن الجاليات التي سبقتها، وأنهم مهتمون جدا بالعمل المفاوضي والتكنولوجيات الحديثة...

لكن الحقيقة شيء آخر تماما ؛ فتاريخ السود والأفارقة عبر العالم هو تاريخ نضال من أجل انتزاع الحقوق. إنه تاريخ نضال ومناهضة التمييز ضد الرجال والنساء السود أينما وجدوا. لطالما تم النظر إلى هؤلاء الرجال والنساء على أنهم بشر من درجة ثانية ؛ كل يوم تطلع شمسهم هو نضال جديد من أجل الحق في السكن والحق في التطبيب والحق في التمدرس... وبلا شك، لن تنفع أي محاولات لإقناعي بأي حقيقة أخرى مزيفة، لأن ما قلته هو الحقيقة الوحيدة في تاريخ السود الأسود. أتعامل يوميا مع مئات الأفراد المشردين في مخيمات عشوائية بفرنسا، وكلما زرتهم أيقنت أن طريق النضال ما زال طويلا. هذا جزء مهم من حقيقة الجالية لا يجب بأي حال من الأحوال إنكاره أو غض الطرف عنه.



في الواقع، يعيش الأفارقة اليوم وضعا لم أعرفه أنا شخصا لما كنت شابا يافعا بفرنسا. نحن اليوم نشهد تشكل «غيطوات» كبيرة يكس فيها الناس ويواجهون تمييزا اجتماعيا ومجاليا وإثنيا في نفس الوقت. وأنا إذ أقول هذا الكلام لا أروج لأي صورة سوداوية أو قاتمة، وإنما أريد أن أقول إنه من الخطأ عند الحديث عن أي جالية، وخاصة الجالية الإفريقية، فصل هذا النضال اليومي من أجل حياة كريمة عن الهوية، لأن الهوية بلا شك تتكون، ولو في جزء بسيط منها، من تلك النضالات. وإذا فصلناهما، سنحصل على فهم وتصور سطحي اختزالي يحصر المسألة في نشوء جيل جديد مختلف من الجالية الإفريقية. أنا لا أنكر مساهمة هذا الجيل الجديد، لكنه لا يمثل كل عناصر الصورة الواقعية.

وحتى هذا الجيل لا شك أن هويته تحمل الكثير من مكونات الأجيال السابقة التي ذقت مرارة استجداء الاعتراف من الآخر. وقد ناقشت هذا الموضوع صباح اليوم مع المبدع الكبير مانيتا دياورا. ولقد انعقد مؤتمر الفنانين والكتاب السود الأول من نوعه سنة 1956 بالسوربون ؛ و كان هذا المؤتمر قد منح الأجيال الأولى من مثقفي جاليات السود فرصة التعبير عن ذاتهم. ولقد شهد هذا المؤتمر جدلا ونقاشات محتدمة بين التيارات المختلفة التي حضرت ؛ وقد استمر الشقاق بين هذه التيارات عبر الأجيال اللاحقة التي مازالت إلى اليوم تناهض كل أشكال التمييز. وهنا لا بد من التأكيد على أن العولمة خلقت سابقة في تاريخ حركة الهجرة : عندما أستمع جواز سفري الفرنسي لا أحتاج لأي تأشيرة كي أتنقل بحرية في العالم وألج إلى الثقافة والمعرفة. أما إذا استعملت جواز سفري السنغالي، فأنا متأكد بأنه لا توجد أي دولة ستستقبلني دون تأشيرة. وهذا أمر غريب جدا : العولمة اليوم تريد إقناعنا أن البعض يحق لهم التنقل بحرية وأن البعض الآخر لا حق لهم في ذلك. نحن نتحدث عن مائتي مليون مهاجر في كوكب مجموع ساكنته سبعة مليار نسمة. أغلبية المهاجرين في العالم من الصين ؛ وثمانون في المائة من المهاجرين القادمين من الجنوب تستقبلهم بلدان الجنوب. مثلا، عدد المهاجرين الذين يستقبلهم المغرب اليوم أكبر نسبيا من عدد المهاجرين الذين تستقبلهم فرنسا. أنا حريص دائما على مناقشة هذه المسائل مع زملائي في البرلمان الأوروبي. ومؤخرا، نظمت في مدينتي تامباكوندا بالسنغال لقاء حول الهجرة دعوت إليه كل ممثلي الاتحاد الأوروبي، لأن المنطقة تشهد حركة هجرة قوية تترك لنا المآسي. لا بد أن نضع حدا للاعتقاد السائد بأن أوروبا هي وحدها التي تعاني التبعات السلبية للهجرة.

في الحقيقة، إفريقيا هي أول المتضررين من حركة الهجرة القوية. نحن نتكلم عن أبنائنا وأقاربنا الذين يموتون في الصحراء والبحر. لهذا أرى أنه من الضروري القطع مع الخطابات التي تصور أوروبا في صورة الضحية. يجب أن نوسع نقاش قضايا الهجرة كي نسلط الضوء على جوانب لم نتطرق إليها بعد. أعتقد أن الرئيس ماكي سال أراد من خلال قرار تعييني سفيراً متجولا أن يعطي إشارة قوية للجالية السنغالية ويرسل رسالة مضمونها : تعالوا، نحن في انتظاركم.

في الحقيقة، علاقة الجالية ببلدها الأصل لا تكون دائما بسيطة وواضحة. فحتى إذا فكر المهاجر السنغالي مثلا في العودة، فإنه لا يستطيع في ظل غياب البنى التحتية والخدمات الأساسية كالسكن والطرق والتطبيب والمدارس. وأنا أؤمن أنه بإمكاننا الاستفادة من تجربة المغرب كأحد البلدان القليلة التي نجحت في المحافظة على علاقة قوية بجالياتها في أوروبا. نحن في السنغال نحاول إيجاد أفضل السبل لتحقيق نفس الشيء. وأنا على يقين أننا نحن من يجب أن يطرح حلولاً حقيقية للقضايا المطروحة لا أن ننتظر حلولاً من الطرف الآخر. وبعد أيام قليلة من الآن، سأشارك في اجتماع للمجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي سيخصص لمناقشة سبل تدبير الهجرة ؛ وهذه فرصة أخرى لتعميق النقاش والفهم واكتشاف أفضل الممارسات في التعامل مع جاليتنا. في الحقيقة، لا أجد كلمات أختتم بها مداخلتني أفضل من كلمات العظيم نيلسون مانديلا الذي قال : «ما تفعلونه لصالحنا دون إشراكنا فيه شر، ولا خير فيه».

يحيى أبو الفرج

شكرا لكم سيد سيلا. الكلمة الآن للأستاذ دياورا.

مانتيا دياورا

أصبحنا نلاحظ في الفترة الأخيرة أن الجالية الإفريقية تفضل الاستقرار بالولايات المتحدة بدل أوروبا، لأن هذه الأخيرة لم تعد تريد استقبالهم أصلا. وهذا المعطى الجديد يهدد فرص خلق محور أوروبا- المتوسط-إفريقيا الذي بشرنا به الأستاذ جون لويس كيجو. لقد قرر عدد كبير من الأساتذة والأطر المغربية والجزائرية والسنغالية... المكونة بفرنسا الإقامة بالولايات المتحدة. شخصا، سافرت إلى هناك سنة 1974 من أجل إتمام دراستي في سلك الإجازة ثم الماجستير ثم الدكتوراه ؛ عندما وصلت إلى هناك، وجدت قليلا من المغاربة والجزائريين وبعض الجنسيات الإفريقية الأخرى من غرب القارة. وحتى تلك اللحظة، كانت الجالية عندي محدودة في الأمريكيين السود من أصول إفريقية. لكن مع الوقت تشكلت جالية جديدة هي جالية الأفارقة المقيمين بالولايات المتحدة. مؤخرا، شاركت في لقاء نظمته جامعة كامبريدج ؛ وفي الطريق امتطيت سيارة أجرة تبين لي أن سائقها مغربي يتكلم الإنجليزية والعربية فقط ولا يتكلم الفرنسية. في الحقيقة، يمثل هذا الرجل مثالا عن العدد المتزايد من المغاربة الذين يتكلمون لغات مختلفة كالإنجليزية والعربية والأمازيغية دون الفرنسية. لا أعرف هل الوضع مماثل في الجزائر؛ لكن ما أعرفه بلا شك هو أن علاقة المغاربة باللغة الإنجليزية أبهرتني حقا. وفي مرة من المرات، سنحت لي فرصة زيارة أطفال إحدى المدارس النيجرية والتحدث معهم حول أمور عدة من بينها الجالية ؛ وقد كانت مفاجئتي كبيرة لما عرفت أن الجالية عندهم هي الأفارقة الذين ذهبوا إلى الولايات المتحدة مؤخرا. لقد ظننت حينها أنني قمت بتلك الزيارة كممثل للأمريكيين السود، لأنني عضو في منظمة أمريكية تعنى بشؤون الأمريكيين السود، لكن من دعاني على أساس أنني من الجالية الإفريقية بالولايات المتحدة. لقد كان هذا التفصيل مفاجئا حقا. مفاجئتي تلك سببها الرئيسي هو أنني لطالما اعتقدت أن وصف الجالية ينطبق في الولايات المتحدة على اليهود والأمريكيين السود مثلا وليس على الأفارقة لأنهم لم يكونوا موجودين إلا بأعداد صغيرة. توجد اليوم جالية إفريقية اقتصادية بكل بلدان العالم.

لكن ما يهمني شخصا هو الجيل الجديد من أبناء الجالية الذين ترعرعوا وتشربوا ثقافة العيش المشترك والتعددية، والذين لا يفكرون في العودة إلى بلدانهم الأصلية بعد اكتساب المعارف والخبرات. الهويات بطبيعتها متعددة : يمكن أن أعيش بالولايات المتحدة مثلا وأكون فرانكوفوني وبيمبارافوني وسونيكيفوني وأنغلوفوني... وحسب إدوارد غليسان، هذه التعددية هي ما يثري ثقافة الجالية. وإذا ألقينا نظرة على الجالية الإفريقية اليوم، نلاحظ أن عددا كبيرا من المهاجرين بالولايات المتحدة أو فرنسا يتوفرون على نية العودة حسب الخطاطة : ذهاب ثم وصول واغتناء ثم عودة.

من بين هؤلاء الأفراد صديق لي من مالي يعيش بباريس. غادرنا العاصمة بماكو سنة 1970 ؛ وفي كل مرة يشتري قميصا، يتساءل ما إذا كان هذا القميص ملائما لارتدائه في بماكو ؛ هذا هو معياره الأساس في اختيار ما يشتريه من قمصان. والغريب في الأمر، حقيقة، هو أن دولا كفرنسا وبريطانيا التي رفضت استقبال المهاجرين طوال الوقت، أصبحت اليوم تريد فقط نكاية في الصين والولايات المتحدة... هذا أمر مثير حقا.

شخصيا، من أهم أسباب اختياري للولايات المتحدة هو عشقي لموسيقى الروك. في تلك الفترة، كنت أسكن بباريس، وكانت حرب فيتنام قد وضعت أوزارها، والجميع يريد العيش بالولايات المتحدة. فقررت دون تردد أن أحزم أمتعتي وأقصد بلاد العم سام. وبالتالي، أرى أن حالتي مختلفة عن حالة الأمريكيين السود والجالية الاقتصادية والسياسية التي بتنا نراها اليوم في دول الاستقبال. وضعي هذا جعلني مقتنعا أننا لا نحتاج سوى قليل من حرية الحركة كي نطوف العالم ونعيش مغامراتنا وتجاربنا في العالم ومع العالم. أنا أتكلم عن جالية عايشة مهرجان وودستوك والمغني جوني هاليدي وأنطوان. والسؤال الذي أصبحنا نطرحه اليوم هو كيف نعيد ذلك الحلم الجميل الذي كان يجمع الشباب ويمنحهم فرصة السفر في عوالم الخير والحب والجمال. وقد قال الكاتب إدوارد غليسان في حديثه عن الجالية أن كريستوفر كولومبس غزا القارة الأمريكية وأنه هو عاد منها. لكنه بلا شك لم يعد كما ذهب. لقد عاد بعقلية وثقافة تعددية وهوية غنية جدا. وهذا الكلام معناه أن العيش كجالية يحررنا من عقلية «الواحد» و«الأنا» ويدخلنا في عقلية «المتعدد والمتنوع». وأهم شيء بالنسبة لنا كإفارقة هو أن هذه التعددية متحررة من أي تصورات وأطر فكرية أوروبية حول العالم. ربما أكون أوروبيا أكثر من بعض الأشخاص الذين يتحدثون الإنجليزية والفرنسية أفضل مني. وإيماني بحقوق الإنسان والحرية التي بدأت أول ما بدأت من أوروبا أرسخ من إيمان أوروبيين كثر. و أنا أوروبي في مأكلي ومشربي وأسلوب كتابتي وأسلوب عيشي في هذا العالم أكثر من الأوروبيين الذين يعانون رهاب الأجانب كل يوم. لطالما كانت إفريقيا في قلب حركة الهجرة العالمية وبالتالي فهي أول المعنيين بقضايا الجاليات. الإنسانية التي تخرج من إفريقيا تنسى كإنها لم تكن. ولهذا، من المهم جدا الحديث عن الجالية الإفريقية والحديث عن التعددية وكل تلك الهويات.

يحيى أبو الفرح

شكرا جزيلاً ؛ نستمتع الآن إلى مداخلة تناقش نفس الموضوع يقدمها لنا الأستاذ بوعزة بنعاشر.

بوعزة بنعاشر

بصراحة، أجد صعوبة في تصور إفريقيا منخرطة في علاقة قوية مع جالياتها. يمكن أن نقول إنها إفريقيا معولة، لكنها ليست منخرطة في تلك العلاقة بالشكل الكافي كي نقول أنها تتوفر على جالية حقيقية. وقد أشار فخامة السفير فودي سيلا والأستاذ مانتيا دياورا إلى سنة 1492، والتي يعتبرها البعض سنة «اكتشاف القارة الأمريكية»، كما لو أن الهنود الحمر لم يكتشفوا قارتهم قبل ذلك التاريخ بقرون. وقد تكلم الأستاذ دياورا عن إمكانية توجيه رسالة «كونية» أو «محلية» في حالة تبني عالمية معتدلة، كما فعل إدوارد غليسان مثلاً عندما تحدث عن «التفكير العالمي» و«العالمية المعتدلة». سأكمل من حيث توقفت المداخلة السابقة. تحدث إدوارد غليسان عن تاريخ فكرة الجالية عند الأفارقة انطلاقاً من «سنة الصفر العار» أي 1492 بأمريكا، التي لم تكن حينها بالنسبة للأفارقة إلا أرض غضب ومعاناة. وكلمة أفارقة هنا يراد بها كل الأفارقة، سودا وبيضاً. لكن ما هي السنة الصفر الأخرى التي عاشها الأفارقة داخل القارة وخارجها، والتي ستساهم في ظهور الحركة الزنجية لاحقاً ؟ بعد سنة 1492، جاءت سنة 1684 كي تزيد الطين بلة. فقد أصدرت فرنسا في هذه السنة أول قانون خاص بالسود في سابقة تاريخية لم تتأخر إسبانيا في ترسيخها.



هكذا، توفر غطاء قانوني يبرر شحن الأفارقة إلى أوروبا وأمريكا كخدم وعبيد في إطار ما بات يعرف بتجارة الرقيق. لقد قام هذا القانون بتشبيء الإنسان الإفريقي وتقنين شحنه إلى أوروبا والعالم الجديد. ولقد اطمأن قلب من وضع ذلك القانون إلى أنه على صواب وأن الإفريقي شيء تملكه بلاده ويمكنها أن تفعل به ما تشاء. وتوجد في التراث الفكري والفلسفي والديني الأوروبي في القرن الثامن عشر نصوصا حاولت تبرير شحن الأفارقة.

فماذا قالت فلسفة الأنوار في هذا الموضوع ؟ أنا لا أنوي ضرب روح الممارسة النقدية في فلسفة الأنوار، لكن موقفها لم يكن كافيا في هذه النقطة بالذات. أفكر في فولتير ومونتيسكيو وكانط وكل التيارات الفكرية الحضارية آنذاك وفي طبيعة خطاب الأنوار المنتصر للحرية والفرد، ولكنني أفكر أيضا في نشوء خطاب معادي لإفريقيا من داخل أوروبا الأنوار. لقد اضطر هذا الوضع الأفارقة إلى الرد. وقد جاء هذا الرد في سياق النهضة الأوروبية. والنتيجة هي ظهور فضاء يمكن تسميته الأطلسي الأسود ؛ «لكن ما معنى ذلك ؟»، كما قد يتساءل بعضكم. في الواقع، أدت حرارة الحياة الثقافية والسياسية والفلسفية داخل فضاء المحيط الأطلسي إلى نشوء حركة الزنجية.

ويتجسد مضمونها الفكري والجمالي والسياسي وتوجهها الإفريقي أيضا في ثلاثة شخصيات أساسية : سانغور وسيزار وليون غونتران داماس. هؤلاء المبدعون الثلاثة سيقدمون لنا ما يسميه فرانس فانون «البشرة السوداء والأقنعة البيضاء»، في دلالة على التشبع بروح المواجهة والغضب الذي كانت إفريقيا ضحيته. لقد كانت هذه الحركة بمثابة فرصة لانطلاقة جديدة واسترجاعا لروح الأنوار الأصلية قصد استعمالها في نقد وتعرية فكر وفلسفة الأنوار.

بعبارة أخرى، أرادت هذه الحركة التفكير في إفريقيا ومسارات وواقع الجالية الإفريقية عبر بقاع العالم من خلال تجاوز الكونية النمطية الموسومة بالقبطية الواحدة والهيمنة إلى كونية قوية لها اتصال مباشر بها ومساهمة حقيقية في تشكيلها. وهنا طرح السؤال : كيف يمكننا اللجوء إلى العلم والمعرفة الكاملة دون حجر ورقابة من أحد ودون أي اعتبارات للون بشرة الكاتب وجعلها عنصرا في متخيل إفريقيا بحيث يكون الإفريقي، كما قال سارتر، إنسان فقط كأي إنسان آخر ؟

وعليه، فالحركة الزنجية كانت تهدف إلى تحقيق انخراط الإنسان الإفريقي في حياة فكرية معولة. لقد كانت الحركة صرخة مدوية في العالم، خاصة في منطقة خط الاستواء ومنطقة الساحل والصحراء. كيف نبرر وكيف نفكر ونتملك من جديد فضاء الأطلسي الأسود ؟

ربما هذا ما يجب أن نخلص له عقولنا وأجسادنا وأرواحنا وعواطفنا وأحلامنا في سبيل الوصول إلى ما يمكن تسميته «الفكر الهيجلي حول إفريقيا»، أي فكر التاريخ وليس تاريخ الفكر. واختتم بالقول : وداعا هيغل ومرحبا سيلبا ودياورا.

عبد الفتاح الزين

كما نعلم جميعا، الكونية هي عبارة عن بنية تفرض نفسها بالقوة وتحرك عجلة التنمية والنماء. غير أن هذه الكونية باتت تعيش أزمة في عصر العولمة، لكن مع الأزمات تأتي الفرص أيضا. وكمختص في الدراسات الاجتماعية وكفاعل جمعي، أشتغل مع عدد من جمعيات المجتمع المدني المعنية بالمهاجرين وقضاياهم في السنغال ومالي والكوديفوار وجنوب إفريقيا وأثيوبيا. لقد زرت عدد لا بأس به من الدول؛ كما أنني اشتغلت مع أفارقة في أوروبا. وهنا أؤكد على ضرورة التمييز بين إفريقيا كشيء وإفريقيا كموضوع.

لا بد من مواكبة أبناء الجالية والاستجابة إلى احتياجاتهم والاستفادة من هذه الهويات الصاعدة في محاولة هدم ما أسماه «معرفة وعلم المركزية الغربية» والتي لا بصمة إفريقيا فيها. هذا بطبيعة الحال تحدي كبير جدا. هذه المعرفة المركزية الغربية هي التي بررت عزل «الآخر» وتعرضيه لكل أشكال التمييز. وهي التي بررت الاستعمار وجعلت الناس يذلون الغالي والنفيس في سبيل تحرير أنفسهم وأوطانهم وبالتالي نشوء علوم إنسانية واجتماعية جديدة مقاومة. هذا يعني أن مجهودا كبيرا بذل في عملية هدم وإعادة البناء فكرة إفريقيا في تلك الفترة. وكما تعلمون، هذه التحولات قادتنا إلى الدولة الأمة لأنها تولي اهتماما كبيرا بقضايا الأمة وأرضها والتي مازلت حاضرة حتى اليوم. شخصا، أؤمن أن مبدأ عدم المساس بالحدود الموروثة عن الاستعمار هو أكبر كذبة مازال الأفارقة يعانون من تبعاتها. كل النزاعات التي نعيشها اليوم ناجمة عن هذا المبدأ. ولم تُنح لنا أي فرصة لتصحيح المسار حتى تأسس الاتحاد الإفريقي، أي بعد استغلال الطرفية التاريخية التي خلقتها أوروبا الشرقية إثر تغيير جلداه تماما. أشار الأستاذ كيغُو إلى سقوط جدار برلين. في تلك الفترة، عاش العالم كله في جو الحرب الباردة.

لكن للأسف، تجاوز العالم كله الحرب الباردة، إلا إفريقيا. إذ لا تألؤ حركة الزنجية جهدا في سبيل تقديم شيء جديد يخدم الأفارقة، ومجهودها بلا شك، يذكر فيشكر على كل حال. لكن السؤال الواجب طرحه في هذا المستوى من النقاش هو كالتالي: أليس بالقارة الإفريقية أي حركات فكرية أخرى غير الزنجية؟ أعتقد أن طرح هذا السؤال هو بداية جيدة في مسار النقاش مع المجتمع المدني جنوب الصحراء الذي يرى في قطاع واسع منه أننا نحن سكان شمال إفريقيا لا ننتمي للقارة السمراء. هذا كلام غير منطقي، ولا يساعد إفريقيا. فكيف يمكن لهذه القارة أن تنهض وتعالج جراحها بينما ينكر بعض أبنائها إفريقية البعض الآخر؟ عندما قرر المغرب الانضمام إلى المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، أبدى المثقفون السنغاليون ردة فعل أشعرتني بالخوف حقا. وقد أتيحت لي فرصة مناقشة بعض هؤلاء المثقفين. عندما نتحدث عن الجاليات الإفريقية، نفكر في خارج القارة. ولكن أعتقد أننا قادرين، بفضل العمل المشترك وتأمين الجاليات الإفريقية في الدول الإفريقية، على إطلاق تنمية وخلق تعاون وفق منطق جنوب-جنوب. لماذا أقول هذا الكلام؟ لأننا، كما أشار الأستاذ كيغُو: غير قادرين على خلق حلقات الوصل والأقطاب التجارية والصناعية والمالية بين حدود بلدان إفريقيا دون الحديث عن الماضي الاستعماري والذاكرة الإفريقية. عندما تحدث الرئيس الفرنسي ماكرون عن قضايا الهجرة والجاليات من الجزائر العاصمة، تناقشنا نحن بدورنا في دكار وأجمعنا على أن ما قاله يهمننا نحن جميعا كأفارقة.

بالمناسبة، أوروبا هي المسؤولة عن توقف نقاش جدي بدأ في المؤتمر الأول لمدينة دوربان الجنوب إفريقية، لأن الدورة الثانية التي عقدت بجنيف عرفت فشلا ذريعا، غير بريء تماما. وهناك مجموعة من المعطيات التي تؤكد هذا الطرح. وأهم معطى هو أن المشاركين ليسوا أفارقة أصلا، بل آسيويين حيث كانت مداخلاتهم كلها هدم في هدم وإجهاض لأي فرصة في تطور النقاش. لماذا تم القيام بشيء كهذا؟ لأن النقاش الرصين المثمر سيخرج بخلاصات ونتائج لن تكون في صالح البعض. أعتقد أنه من غير الممكن الحديث عن نتائج إيجابية في علاقة أوروبا وإفريقيا إذا لم نضع النقاط على الحروف معا بخصوص التاريخ الاستعماري والذاكرة الإفريقية. انخرط إفريقيا في هذه العلاقة التي تشوبها الشوائب من أول يوم خطأ تاريخي وسقوط جديد في فخ أسقطنا من قبل في مبدأ عدم المساس بالحدود الموروثة عن الاستعمار.

لقد أنصت بكل اهتمام إلى صديقي دياورا وهو يتحدث عن الإفريقي الأسود. لكن لماذا الحديث عن الأمريكي الأسود ؟ لماذا نتحدث عنه ولا نتحدث عن الأمريكي الأبيض ؟ لقد نسي الأمريكيون السود والبيض على حد سواء مقولة الرئيس جون كندي التي قال فيها «نحن أمة مهاجرين». وهذه الهجرة أنتجت بنية منظمة تؤمن بالتعددية وتمارسها. لا بد أن نكف ألسنتنا عن الحديث في موضوع الجالية الإفريقية خارج القارة ولو إلا حين فهو ليس أولوية. من أفراد هذه الجالية من يتحدث كممثل للشعوب الإفريقية، وأقول لهؤلاء إن التمثيلية الحقيقية تكون من داخل القارة. وأجد أن بعض الأمريكيين الأفارقة وخاصة بعض الأفارقة المقيمين بالولايات المتحدة لا يفوتون أي فرصة لتقديم أنفسهم كأفارقة. وهنا أستحضر فكرة مهمة تتعلق بالأندلس.

نعتقد في المغرب أن الأنديسيين كانوا بيض بعيون زرقاء. لكن الأنديس يوجد حتى في مالي، لأن التجار الأنديسيين وصلوا إلى أبعد الأسواق في غرب إفريقيا. ومن الأدلة على ذلك هو أن كلمة «تاجر» في اللغة الفلانية والكثير من اللغات الإفريقية القديمة تعني «عربي مسلم». كما تلاحظون، سوء التفاهم الذي ذكرته بخصوص الأنديسيين هو نفس سوء الفهم الحاصل بالنسبة لبلدان جنوب الصحراء. ما هي إفريقيا جنوب الصحراء؟ وما ماهيتها بالنسبة إلى ماذا ؟ هل إفريقيا مجرد جغرافيا أم إنها تبادلات وتفاعلات بشرية وثقافية ؟ ولسخرة القدر، عثر خبراء الأركيولوجيا على بقايا أقدم إنسان في العالم بالمغرب. وبلا شك، لا بد أن يتأمل المرء في مثل هذه الإضاءات والإشارات. وأنا من جانب أكتفي بإتقان صنعة السؤال. أتمنى أن تقتنعوا بأن الوقت قد حان كي يتكلم الأفارقة عن إفريقيا لا عن أوروبا. جميل أن نتكلم كثيرا عن أوروبا والماضي الاستعماري وآلامه والذاكرة الإفريقية، لكن الأجمل هو أن نبدأ في الحديث عن إفريقيا وتجربة إفريقيا الشرقية، لأن جزء مهم من القارة لا بد من تقوية علاقته بكل المناطق الأخرى، خاصة شمال إفريقيا. يجب أن نتحلى بشجاعة طرح الأسئلة الصعبة والوجودية ومواجهتها. وأنا أعتقد أن أفضل طريقة لتحقيق هذا الهدف هي تجاوز عقد الماضي التعيس بوضع النقاط على الحروف والقطع مع أساطير الذاكرة والبدء في بناء هوية إفريقية مشتركة تكون جزء من صورة أكبر تضم عناصر أخرى كثيرة هي التي ستقودنا إلى إفريقيا التي نحلم بها جميعا. وحينها سنكون مستعدين لتلوين العولة باللون الأسود الإفريقي الأصيل الذي يجب أن يكون حاضرا، لأن العولة ليس لها لون واحد.

أنا لا أرى أن من صالح إفريقيا الاختيار بين أوروبا والصين. إفريقيا يجب أن تفرض نفسها رقما صعبا في معادلة العولة. ومع كل احتراماتي، أقول إن ما قدمه الأستاذ كيكو لا يعدو أن يكون مناورة. بلا شك إفريقيا تريد المشاركة في الإنتاج الصناعي، لكنها تريد بالدرجة الأولى الحصول على التكنولوجيا في كل المجالات دون رقابة وعدم الاكتفاء بتركيب السيارات. لا بد من إبراز هذا الموقف واحترامه والاعتراف به. وقد ساهمت الهجرة والهويات الجديدة في ظهور ما يمكن تسميته «العائلات العابرة للحدود». ربما لا تنتبهون إلى ذلك، ولكن عندنا زيجات مختلطة كثيرة بين المغاربة والسنغاليين ومنذ سنوات طويلة. وهذه الزيجات تحصل غالبا بأوروبا، خاصة بفرنسا. تقول كاتبة من الموريس مهتمة بهذه القضايا لا يحضرني اسمها حاليا «عندما تجتمع الأسرة المهاجرة، فكأنما اجتمعت الأمم المتحدة. يوجد الصينيون والهنديون والأمريكيون والفرنسيون والأفارقة ؛ يوجد من كل فن طرف». وهذا لغز معقد يجب أن نتعاون على فهمه والاستفادة منه جميعا. بالنسبة إلينا كأفارقة، يجب أن ننسج هوياتنا الجديدة بأيدينا ونضبط علاقاتنا كأفارقة فيما بيننا وكأفارقة في تعاملنا مع العالم.

على هذا الأساس، أرى أن هناك مسارين يجب الاشتغال عليهما : أولا، يجب أن نؤسس نظم تعليمية تحتفل بالتلاقح الثقافي وتروج له. والسؤال هنا : كيف ندرس إفريقيا ؟ وهذا سؤال طرحه الراحل سيمون ليفي في واحدة من آخر مداخلاته الأكاديمية خلال لقاء نظمته الرابطة المغربية للمواطنة وحقوق الإنسان. وقد أجاب سيمون بالقول إن المدرسة خانت المدرسة. كيف ذلك ؟ المدرسة لم تعلمنا العيش داخل التنوع والتعددية ؛ وأطفالنا هم أيضا لم يتعلموا هذا.

يجب أن يكون تعليم إفريقيا أيضا من التعددية الثقافية وتجنب القشور والجزئيات التي لا تربط التلميذ بلب الموضوع. ثانيا، يجب على الحكومات الإفريقية إشراك المجتمع المدني بشكل أكبر والاستماع لأراء أبناء الجالية الإفريقية داخل القارة وخارجها.

يحيى أبو الفرح

يجب أن أوضح نقطة مهمة : مسألة تكوين الجاليات الإفريقية داخل القارة لها شروط خاصة بعض الشيء لأن النسبة الأكبر من حركة الهجرة الإفريقية تتم داخل حدود القارة. وكما تعلمون جميعا الهجرة في إفريقيا قديمة تعود إلى قرون مضت. ومع الوقت أنتجت هذه الحركة البشرية جاليات إفريقية داخل إفريقيا كلها تعيش في أمان ولا تواجه أي أخطر بسبب أصولها. على سبيل المثال، أكثر من ثلث ساكنة الكوت ديفوار هم ماليون وبوركينابيون. وقد تمكنت هذه الجاليات من الاندماج في المجتمع الإفواري بسلاسة. وعلاوة على الجالية اللبنانية والسورية، تستقبل السنغال ومالي جالية مغربية كبيرة. أما السودان فيعيش فيها أكثر من مائة ألف سوداني من أصول مغربية. لقد توجه أول المهاجرين المغاربة إلى إفريقيا، وليس إلى أوروبا. وقد بدأت هذه الحركة البشرية في القرن التاسع عشر وتوقت في ستينيات القرن العشرين. ولقد كان أغلب المهاجرين المغاربة إلى أوروبا من البادية المغربية، بينما كان أغلب المهاجرين المغاربة إلى إفريقيا من الحواضر والمدن الكبيرة، خاصة فاس. وعلى عكس الجالية المغربية بأوروبا التي تواجه العديد من الصعوبات في بلدان الإقامة، تعيش الجالية المغربية داخل البلدان الإفريقية في اندماج وتأخي نموذجي. في السنغال مثلا، توجد عائلات فاسية كبيرة مثل برادة والتازي وبنشقرور... لكن لم يبق من مغربيتها إلا الاسم من فرط ما اندمجت في المجتمع السنغالي. وفي ختام حديثي عن هذه النقطة، أكتفي بالقول إن والدة سفير المملكة بالسنغال السيد برادة امرأة سنغالية. والآن نمر إلى سيادة السفير فودي سيلا الذي سيتفاعل مع السؤال التالي : كيف نجعل الجالية الإفريقية رافعة تنموية مهمة في البلدان الأصلية وبلدان الإقامة ؟

فودي سيلا

حاول السادة المتدخلون قبلي الإحاطة بموضوع هذه المائدة المستديرة من زوايا مختلفة ؛ والخلاصة الأساسية التي خرجت بها هي أنه لا ماهية واحدة جامدة للهوية، وأنها مشروطة بظروف وتجارب حاملها. وهذا معناه، أن انتماءك إلى إفريقيا ليس المحدد الوحيد لهويتك. كان الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران يقول «أن تكون فرنسي معناه أن تكون إيطاليا قليلا وإسبانيا قليلا وبولونيا قليلا... وربما أيضا عربيا قليلا». هذا تصور يستحق التعمق في معانيه والتعلم منه. إن إفريقيا بتاريخها وهويتها هي أرض تلاقح بامتياز. كثير منا يحملون جنسيتين اثنتين. وكثير من الكريول مولودون في إفريقيا. ولقاءنا مع ثقافات الدول الاستعمارية فيها، سواء شئنا أم أبينا، تلاقح وتمازج ثقافي وهوياتي. وكما أسلفت، هوية كل واحد منا تحددها الشروط والتجارب الشخصية. أما بخصوص التصور التي يروج لها الأستاذ كيغو، فيظهر لي أن البعض مازال غير قادر على تصور إفريقيا مستقلة بذاتها لا تتبع لأحد. وهنا أستحضر فيلسوفا سنغاليا قال : «لا هو/مش بعد /اليوم ولا مركز بعد /الآن». تكلم صديقنا كيغو بزهو وفخر عن فكرة بناء محور إفريقيا-المتوسط-أوروبا. أما أنا فأحلم بإنجاز الجدار الأخضر العظيم الممتد من إثيوبيا حتى دكار. أنا أفكر طوال الوقت في سبل وقف زحف رمال الصحراء نحو المدن والقرى والأراضي الفلاحية ؟ من المهم عندي زرع الأشجار وخلق واحات تساعدنا على الحد من الانعكاسات السلبية لهذه الظاهرة الطبيعية. التصور الذي يطرحه الأستاذ كيغو لا يتفاعل إيجابيا مع أكبر انشغالاتي : تحقيق التنمية المستدامة. في المقابل، عبر المغرب عن إرادة قوية في العودة إلى أسرته الإفريقية الكبيرة. وفي الذكرى الأربعين، خاطب العاهل المغربي شعبه وإفريقيا من دكار وليس من الرباط لأن إفريقيا كلها بيته وأسرته.

في الحقيقة، لا أتصور أن يفعل الرئيس ماكرون هذا في العيد الوطني الفرنسي. ما أحلم به أنا هو ذلك القطار القديم الرابط بين دكار وباماكو حيث استقر عدد من أفراد عائلتي الذين عملوا كسككين. علاقتنا مع أوروبا فيها الكثير من الأسئلة المعلقة والمظالم التاريخية. اليوم، يجب أن نجلس مع بعضنا نحن الأفارقة والعرب ونفكر في تحقيق طموحاتنا بالبحث العميق على كل صغيرة وكبيرة توحدنا. لماذا علاقات المغرب والسنغال قوية بالشكل الذي توجد عليه اليوم ؟ لأن المغاربة والسنغاليين يتقاسمون الكثير من الأشياء. فبعيد عن ما هو ديني (الطريقة التيجانية)، يوجد بين البلدين تبادل ثقافي واقتصادي ما فتى يتعزز يوما بعد يوم. وبالنسبة لي، يعتبر المتوسط قصة وتاريخ مرير ؛ المتوسط أصبح مرادفا للموت. وبعد كل هذا، مازال البعض يريد أن يبيع لي الوهم ؛ هذا بكل بساطة لم يعد ممكنا.

إفريقيا ليست بيدقا في يد أحد. إفريقيا لا تصطف مع أحد ضد أحد ولا تخوض حرب ليست حربها. كل شيء بات موضع شك عندنا لأننا لم نشاهده ولم نفهمه بناء على تصور للعالم نابع منا. عندما يقول أحد مثلا أن كريستوفر كولومبوس اكتشف القارة الأمريكية، فنحن نشك في صحة المعلومة. يريدون أن يرسخوا في أذهاننا أن العالم لم يكن له معنى قبل أوروبا وأنه لن يكون له معنى دون أوروبا. في نفس السياق، غالبا ما أسمع الناس يقولون أن الأمريكيين أبادوا الهنود الحمر ؛ لكن هذا ليس دقيقا ؛ في تلك الفترة لم يكن هناك أي أمريكي بل كان هناك أوروبيون قاموا بغزو تلك القارة وذبحوا سكانها. هذه الأمثلة وغيرها تقول بصوت واضح إن أولوية إفريقيا هي إعطاء الأولوية للجالية والاهتمام بذلك القطار القديم كبداية جيدة نقول من خلالها «لآخر» : لم تعد أنت مركز العالم بعد اليوم، فالعالم اليوم له مراكز عديدة أنت واحد منها فقط.

مانتيا دياورا

يجب أن نتكلم عن عودة أبناء الجالية الإفريقية. شخصا، مقاربتني لهذه المسألة أدبية فنية. يعود إلى إفريقيا كثير من الفنانين والكتاب الذين ولدوا بالولايات المتحدة أو أوروبا لأبوين أصولهما إفريقية. نحن هنا لا نتكلم عن بضعة أفراد، بل نتكلم عن حركة بشرية مهمة. وعلاوة على ذلك، تدعونا الكتابات الأدبية الإفريقية المعاصرة إلى اتخاذ الحيطة والحذر من مفاهيم مثل «جنوب الصحراء». بالنسبة لأبناء الجالية من الشباب، العودة اليوم لا تعني بتاتا العودة إلى «الواحد» الفقير ثقافيا وهوياتيا... بل تعني العودة إلى «المتعدد والمتنوع» ثقافيا وهوياتيا... لأن في عودتهم اكتشاف للكثير من التجارب التي أثرت وأغنت إفريقيا والعالم أجمع.

عبد الفتاح الزين

أود أن أقرأ لكم مقولة للكاتب الغيني الكبير تييرنو مونينيمبو قال فيها «مصر هبة النيل والصحراء هبة إفريقيا».

بويزة بنعاش

عندما نتحدث عن الجالية، نفكر في الهجرة. لكن الهجرة، كما هي في الأجندة الدولية، محكومة بتصور غربي صرف. ومسؤوليتنا نحن هي إعادة صياغة مفهوم الهجرة وفق تصورنا كأفارقة دون الخوف من طرح أسئلة حول العبودية والماضي الاستعماري وغيرها من القضايا الشائكة في علاقتنا بأوروبا. والحذر كل الحذر من أساطير الذاكرة ومتاهات التاريخ.

رئيس الجلسة : عبد الله الترابي
المشاركون : شادية أعراب، جون بول كفاليري، محمد العمرتي، يوسف أمين العلمي
فضاء : أحمدو كوروما
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 15 : 30 - 16 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

يجمع عنوان هذه المائدة المستديرة بين كلمتين بوزن وقافية رنانة، وتظهران كما لو أن إحداهما ترجع صدى الأخرى، أو كأنهما متقابلتان، أو كما لو كانت الأولى نتيجة سلبية للثانية. ولناقشة هذه القضية بأسلوب أصيل وثقافي، اجتمع فريق متكامل، بقيادة الأستاذ عبد الله الترابي، الصحفي والكاتب، من الدار البيضاء، والذي يجد خطابه الحر صدى إيجابي في الصحافة المكتوبة وكذا في التلفزيون. بجانبه، شادية أعراب، وهي عالمة جغرافيا وباحثة في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي ومتخصصة في قضايا الهجرة، حيث راكمت تجربة دولية كبيرة، بالرباط وباريس. أما السيدان محمد العمرتي، رئيس اللجنة الإقليمية لحقوق الإنسان في وجدة-فجيج، وجون بول كفاليري، ممثل مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين في المغرب، فقاما بتسليط الضوء على الظواهر التي تمت دراستها انطلاقا من الحقائق القانونية المغربية، وكذلك السياسات العمومية المتبعة وظروف الهجرة على الصعيد العالمي، والتي صارت محط اهتمام دولي.

بالمناسبة، ستوضح الأرقام الحقيقية إلى حد كبير مبالغات بعض الخطابات، وهي ليست وحدها الاستنتاجات التي خلص إليها هذا النقاش الغني، الذي أفضى إلى التوافق التام بين هذه الكفاءات المجتمعة لتدارس حيثيات هذا الموضوع. وأخيراً، يبين لنا الأديب والأكاديمي المغربي يوسف أمين العلمي، وهو أحد المفكرين المهاجرين، كيف يمكن للكاتب - بل وعليه - تجاوز الأرقام التي تتعلق بالهجرة، لإعادة تثبيت البعد الإنساني، لأنه لا يمكن تقديم أي قراءة جيدة لهذه الظاهرة، وهو بالمناسبة كتب روايتين في هذا السياق.



في الواقع، يعود الكاتب إلى مناقشة مشكلة الحدود التي بدونها تفقد كل الاعتبارات التقنية والقانونية معناها، أي الحدود الجغرافية والقانونية والبشرية والجسدية والنفسية وغيرها. إنها فرصة لإلقاء نظرة نقدية على التشكيلات التعاقدية التي تهدف إلى منع الهجرة المؤقتة للعمل من أن تصبح دائمة. ومن الواضح أن قضية الهجرة تطورت بسرعة في السنوات الأخيرة كما تطورت معها بنفس القدر القراءات والتأويلات لهذه الظاهرة. وفي نفس السياق، يعد الوعي بالدور المتنامي للمرأة مهم للغاية، لكن الدوافع والأهداف تغيرت أيضاً، خاصة بالنسبة للمهاجرين الذين هم على عكس اللاجئين، لا يرحلون تحت ضغوط أو نتيجة لمخاطر قد تهدد حياتهم في بعض الأحيان، ولكن من أجل البحث عن حياة أفضل.

ييدي المغرب اهتماماً بهذه التطورات ويحترم الاتفاقيات الدولية التي وقعها. وهو يحاول مواجهة هذه التحديات رغبة منه في رفعها عن طريق نهج سياسة فعالة وسليمة، وهو جهد يمكن اعتباره مثالياً وصادقاً إذ يسعى للبحث عن أفضل الحلول، بغض النظر عن الحوادث التي لا مفر منها والتي تولدها تلك التوترات البشرية القوية المحيطة بالهجرة.

مداخلات المائدة المستديرة

عبد الله الترابي

مرحباً بكم جميعاً، وشكراً لحضوركم في هذه المائدة المستديرة. عندما كنا نتحدث عن العولمة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، كثيراً ما كان يتم التطرق إلى مسألة الحرية الكاملة لحركية البضائع والأشخاص. والمقصود بذلك بشكل واضح هو أن يصير العالم فضاءاً تختفي فيه الحدود أكثر فأكثر. ولكن عندما ننظر إلى المشاهد الحالية، نلاحظ نزعة كبيرة نحو الانغلاق والحمائية، خاصة الصور التي تظهر المهاجرين في منطقة البحر الأبيض المتوسط وهم يواجهون مصيراً مجهولاً، على بعد بضعة كيلومترات من هذا المكان، وحيث ترفض بعض الدول استقبالهم. يكفي أيضاً أن نرى، على المستوى السياسي، صعود التيارات اليمينية القومية المتطرفة في العالم، والتي تعتمد مرجعيتها على رفض الآخر، الأجنبي، اللاجئ، أي رفض المهاجر بصفة عامة... بغض النظر عن نتائج هذه السياسات.

ومن خلال هذا يمكن أن نستنتج أن الهجرة صارت محور القضايا السياسية والحضارية في هذا القرن. وللحديث عن هذا الأمر، يسرنا أن نرحب بشادية أعراب، عالمة جغرافيا وباحثة في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي والمتخصصة في الهجرة، وكذلك جون بول كفاليري، ممثل مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين في المغرب. نستضيف أيضاً يوسف أمين العلمي، وهو كاتب ومؤلف عدة روايات، منها «مغربي في نيويورك» و«المهاجرون غير الشرعيين»، ومعنا أيضاً الأستاذ الجامعي محمد العمرتي، رئيس اللجنة الجهوية لحقوق الإنسان في وجدة - فحيج. أشكرهم جميعاً لمشاركتهم. أتوجه بسؤالي لشادية أعراب، إذا ما هي الاتجاهات الرئيسية للهجرة في العالم اليوم وخصوصاً في منطقة البحر الأبيض المتوسط ؟

شادية أعراب

موضوع مائدتنا المستديرة يجعلنا نربط الهجرة مع العولمة بشكل طبيعي ومنطقي. وما أود أن أخبركم به هو كيف أصبحت هذه الهجرة معولمة، وكيف تطورت هذه الأرقام، ومدى تنوع موجات تدفقات المهاجرين ؟ أصبحت طرق الهجرة متعددة، معقدة، طويلة وخطيرة للغاية. لقد كان هناك تغيير حقيقي في المشهد العالمي للهجرة، وتحولت عدة دول من بلدان المغادرة إلى وضعية بلدان الإقامة، في حين كانت تعتبر أماكن عبور أو بمثابة مرحلة من مراحل الهجرة، حسب تغيير مهدي عليوة. يعتبر المغرب مثلاً مثيراً للاهتمام، وهو في الحقيقة، مختبر حقيقي لنا نحن الباحثين، لأننا نميل إلى القول أنه كان منذ فترة طويلة بلداً مصدراً للهجرة، وأصبح الآن بلداً لعبور المهاجرين صوب أوروبا. وفي الواقع، صار اليوم بلد هجرة حيث يستقر هؤلاء المهاجرون، يتزوجون ويعملون ويدرسون أطفالهم... يبدو لي أن التسلسل الزمني التاريخي ليس صحيحاً بالضرورة. إنها قصة حديثة وبالتالي قد لا يكون لدينا المنظور والمرجعية لتحليلها. وفي رأيي، فالمغرب يجمع كل هذا. إن المغرب ينهج إلى حد ما سياسة جديدة للهجرة، والتي سوف يحدثنا عنها السيد العمرتي. وهكذا نجد ثلاثة عناصر مهمة في هذا النمط المعولم للهجرة : نسجل في البداية، دخول أطراف فاعلة جديدة على الساحة، تختلف عن تلك التي عرفناها في ستينيات القرن الماضي، وقد ركزت في أعمالها الخاصة وكذلك في أطروحتي على هذا الموضوع، إذ تمكنت من تتبع مهاجرين كانوا في معظمهم أميين لا يعرفون الكتابة والقراءة، حيث أنهم غادروا في ستينيات القرن الماضي، من نقطة إلى أخرى، متخذين مساراً شبه خطي، وذلك انطلاقاً من قراهم إلى إحدى مدن أوروبا وخاصة فرنسا، ملتحقين بالجالية هناك، ولاسيما بمعارفهم الذين ينحدرون من نفس القرية. اليوم يدخل فاعلون جدد وفاعلات جديداً إلى المشهد. وعلاوة على ذلك، فإن مصطلح «فاعلات» مهم جداً لأن مصطلح تدفقات الهجرة أصبح أيضاً بصيغة التأنيث. وهذا ما يقودني للتطرق إلى الرحلة الخاصة بالشابة حياة، والتي بالتأكيد سمعتم عنها.

عبد الله الترابي

هي الفتاة التي لقيت مصرعها أثناء عبورها إلى إسبانيا، أليس كذلك ؟

شادية أعراب

نعم بالتأكيد. هذه المرأة الشابة التي لقيت حتفها تكشف لنا اليوم، ثلاثة حقائق عن ماهية العولة التي تؤثر في كل هذه الهجرات :

- أولا، لم تعد تقتصر ظاهرة الهجرة السرية على الرجال فحسب بل طالت أيضا النساء (وكثيرا ما كانت صورة المهاجر ترتبط بالذكور، «الحراك» أو العابر للحدود، كان المهاجر في الغالب شابا، وبالرغم من ذلك، فقد كانت المرأة منذ وقت طويل أيضا تهاجر وتعبّر الحدود بطريقة غير شرعية) ؛

- ثانيا، مازال المغاربة والمغربيين يغادرون البلد، على عكس ما كنا نقنع أنفسنا به (وأنا أتحمّل جزء من المسؤولية كباحثة وعضو في المجتمع المدني، لأنه في الآونة الأخيرة، اشتغلنا كثيرا على المهاجرين الأفارقة المنحدرين من جنوب الصحراء الكبرى، والذين يستقرون في المغرب، ولم يتم تسليط الضوء بما يكفي على الهجرة المستمرة للمغاربة والمغربيين نحو أوروبا) ؛

- ثالثا، لعل موت هذه الشابة يكشف لنا أيضا عن ظهور فاعلين جدد، معظمهم خريجي المعاهد، والذين يحاولون الهجرة ليس فقط بسبب المشاكل الاقتصادية والفوارق الاجتماعية، ولكن أيضا بسبب ضعف هامش الحريات.

لقد ناقشنا ظهور فاعلين وفاعلات جدد، والمسارات المعقدة والطويلة للهجرة السرية، وبالرغم من هذا التفاوت العالمي والخيالي، مع عالم مترابط على نحو متزايد، يشرح لنا هذه الموجة المتدفقة من المهاجرين. وعلاوة على ذلك، فالعديد من الباحثين يتحدثون الآن عن مهاجرين متصلين في ما بينهم، بسبب الهجرة، لأنه من أجل أن تهاجر لا يكفي أن يكون لك رأسمال اجتماعي واقتصادي فقط، وبالطبع فهذه الأمور مطلوبة، بل يجب أن تكون لك خبرة ودراية بكل ما يتعلق بالهجرة، الأمر الذي مكن بعض الباحثين من تبسيط هذا التصور الجديد الذي يعتمد على شبكة عالمية للهجرة.

عبد الله الترابي

عندما تقول «الشبكة المتصلة»، هل تقصد بها شبكة بشرية أم شبكة الإنترنت ؟

شادية أعراب

الاثنين معا.

عبد الله الترابي

لاحظنا أن بعض المهاجرين يقومون بتصوير أنفسهم أثناء مغادرتهم، وأيضا يقومون بإنشاء صفحات على الموقع الاجتماعي «فيسبوك»، من أجل مساعدة من يريدون المغادرة من مكان معين إلى مكان آخر. هل في هذا السياق ؟

شادية أعراب

نعم، بهذا المعنى، هؤلاء المهاجرون مرتبطون اليوم في جميع أنحاء العالم من خلال شبكات التواصل الاجتماعي. كلنا نعرف ما يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية أو في فرنسا، حتى عندما نأتي من منطقة جغرافية مهمشة للغاية. اليوم، لدينا الإنترنت في كل مكان ولكن لدينا أيضا شبكة للهجرة وأرقام المهربين. أنا عن نفسي أعيد تشكيل دفاتر عناوين المهاجرين لفهم كيف ينتقلون اليوم.

لديهم شبكات للهجرة في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا وأحيانا حتى في الولايات المتحدة الأمريكية. ليس فقط عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية هي وحدها التي تفسر هذه الهجرات. أدعوكم لقراءة أعمال الأستاذة كاثرين ويتول دو ويندن، وهي خبيرة في الهجرة الدولية.

لقد وضعت كتابا خرائطيا للهجرة حيث ترى، أن أهم مظهر لانعدام المساواة اليوم في العالم، هو الحق في التنقل. إذ أصبح الكل يسعى لهذا الحق، اليوم أفغانستان هي الدولة الأضعف من حيث تنقل أفرادها، لأن الأفغان بحاجة إلى تأشيرة لدخول كل الدول تقريبا. ومن الواضح أن رعايا البلدان الغنية والصناعية في الشمال يمكنهم التحرك في جميع أنحاء العالم، في حين أن رعايا بلدان الجنوب الأكثر فقراً وتهميشاً يجدون أنفسهم قيد الإقامة الجبرية بسبب سياسات الهجرة.

دعونا نقرأ بعض الأرقام، إذ في عالمنا اليوم، نواجه ازدواجية ذات دلالة مهمة، حيث انتقلنا من 75 مليون مهاجر دولي في عام 1965 إلى 165 مليون مهاجر في سنة 1990. واليوم، بلغ العدد حوالي 240 مليون مهاجر في الخارج. وفي الواقع، يمثل هؤلاء المهاجرون 3% فقط من سكان العالم، مما يعني أن الكوكب مستقر نسبياً. ويريدوننا أن نؤمن بأن هناك مد هائل للمهاجرين.

هنا كان من الضروري تفكيك فكرة الغزو التي يعرضونها كل يوم على شاشات التلفزيون. حيث نجد أنه في فرنسا مثلاً، لا يمر يوم دون أن نتالعنا مقالة عن غزو المهاجرين. إننا نواجه سياسة الحمائية للهجرة، سياسة غير مسبوقة في تاريخ البشرية : جدران يتم تشييدها، وهي في تزايد يوماً بعد يوم، إذ تتم الاستعانة بجهات خارجية لحماية الحدود وذلك من خلال نهج سياسات الهجرة، وأيضاً من خلال توقيع اتفاقيات جديدة لمزيد من طرد المهاجرين، وإبعادهم نحو الحدود، الخ. إنها سياسة تعتمد أساساً على المقاربة الأمنية، وتظهر لنا تدفقات المهاجرين هذه حالة الخلط التي تحدثت عنها في بداية مداخلتني : بمعنى أن بلدان الانطلاق تصبح بلدان هجرة وعبور. لكن على الصعيد العالمي، تستضيف ثمانية وعشرون دولة ثلاثة أرباع المهاجرين الدوليين، وهي نسبة قليلة نسبياً، في حين المهاجرين من كل البلدان موزعين تقريباً على كل الكوكب.

عبد الله الترابي

أدعو محمد العمرتي لمناقشة تصوره حول قضية الهجرة : المغرب نفسه انتقل من بلد عبور إلى بلد هجرة. وفي الواقع، فقد أصبح واضحاً بشكل متزايد عدد المهاجرين الأفارقة المنحدرين من جنوب الصحراء الكبرى الذين انتقلوا إلى المغرب للبحث عن عمل ودراسة... ويبدو لي أنه منذ عام 2013، اعتمد المغرب على سياسة للهجرة، فما هي أهم معالم هذه السياسة وما هو دور المجلس الوطني لحقوق الإنسان في هذا المضمار ؟

محمد العمرتي

أعتقد أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً للتحديث بالتفصيل عن سياسة الهجرة المغربية المعتمدة في سنة 2013، والتي تظهر من خلال «الإستراتيجية الوطنية للهجرة واللجوء». وسأركز في مداخلتني على عمل المجلس الوطني لحقوق الإنسان في حماية حقوق المهاجرين. ولكن قبل ذلك، أود الرجوع إلى بعض الأرقام والإحصائيات، وأيضاً الصورة التي رسمتها شادية أعراب عن الهجرة العالمية. ويجب التأكيد على أن القارة الإفريقية تعتبر واحدة من أقل المناطق المهاجرة في العالم. فهي تمثل 2% فقط من عدد المهاجرين في جميع أنحاء العالم، وعندما يهاجر الأفارقة، تكون الوجهة أساساً إلى بلدان إفريقية، عكس ما يروج بأن الوجهة الأولى للأفارقة هي أوروبا. ويعد هذا السيناريو السيئ في حد ذاته خطر وهمي، موجود في كل وسائل الإعلام الأوروبية أو بعض الخطابات السياسية والأيديولوجية، في محاولة لإثارة مشاعر ومخاوف الرأي العام.

فيما يتعلق بقضية الهجرة في المغرب، فقد دخلت منذ بضعة سنوات، ضمن قضايا الساعة. ولكن من الناحية التاريخية، فقد كان المغرب منذ فترة طويلة أرض هجرة، ومصدراً للهجرة، وأرض استقبال ولجوء. إن الخطاب، الذي يركز على المهاجرين الأفارقة المنحدرين من بلدان جنوب الصحراء الكبرى العابرين منهم والمستقرين في المغرب، ليس حقيقة تاريخية. بحيث يمثل حالياً الأجانب في المغرب 0,25% من السكان وفقاً لإحصاء سنة 2014.

مقارنة مع مجتمعات أخرى، فهذه ليست نسبة كبيرة. وفي تقرير حول حقوق الأجانب في المغرب وعن السياسة الجديدة للهجرة واللجوء، فقد أخذت اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان في الاعتبار تاريخ المغرب على المدى الطويل لفهم ظاهرة الهجرة وقضية المهاجرين.

عبد الله الترابي

عندما نقول على المدى الطويل، فهل تقصد قرون، وعقود... ؟

محمد العمرتي

إنني أقصد قرون : الأندلس، والعلاقات التاريخية مع إفريقيا، إلخ. ومؤخراً، فهناك أيضاً مثال للجائرين المتواجدين في المغرب خلال فترة الاستعمار الفرنسي. وقد عرف المغرب منذ وقت طويل تدفقات الهجرة. كما أخذ هذا التقرير بعين الاعتبار التغييرات الأخيرة لكي نتمكن من فهم التطورات التي تريبنا ببلدان أخرى في مجال الهجرة واللجوء وإزاء هذا الوضع، والذي وصف في التقرير على أنه غير مسبوق تاريخياً، صحيح أنه منذ سنة 2000، هناك وجود أجنبي ظاهر للعيان ولاسيما مصدره المهاجرين القادمين من بلدان جنوب الصحراء الكبرى. كيف كانت سياسة الهجرة والسياسة العامة آنذاك ؟ أجرؤ على القول أنه منذ فترة طويلة لم تكن هناك أية سياسة. وقبل سنة 2013، شرعت الحكومة في اتخاذ خطوات متتالية، وبعض التدابير والمبادرات الخاصة، حسب الحالة. لكن لم تكن هناك سياسة عامة في حد ذاتها.

عبد الله الترابي

هذا يعني، أننا كنا نعتقد دائماً أنهم سوف يغادرون ؟

محمد العمرتي

بالطبع، لم نكن نفكر أنهم سيبقون، في حين أن هناك بعض المهاجرين استقروا بشكل تلقائي في المغرب، بعدما تقطعت بهم السبل. وفي ظل هذه الحقيقة، فرضت على المغرب هذه السياسة العامة المتماسكة. لا يمكنني بالطبع، تقييم جميع الأعمال حول حقوق المهاجرين، ولكن تجب الإشارة إلى بعض الأعمال والأنشطة التي توضح المقاربة التي ينفجها المجلس الوطني لحقوق الإنسان بشأن قضية المهاجرين والأجانب عامة. فهي مقاربة شاملة ومستقلة عن الوضع الإداري المتعلق بإقامة الأجانب والمهاجرين، سواء كانوا في وضع نظامي أم لا.

أما الإطار المرجعي، كما نعلم جميعاً، فهو إطار دولي والذي يتمثل في الاتفاقيات التي صادق عليها المغرب والتي تلزمه دولياً، وهناك أيضاً الدستور المغربي لسنة 2011، وما جاء في ديباجته ومبدأ عدم التمييز بين المواطنين والأجانب. حيث أن المادة 2 من الدستور تكرس الحقوق والحريات الأساسية، والمادة 30 تطرقت لمسألة تسليم المجرمين، والحق في اللجوء وحق الأجانب في التصويت في الانتخابات على أساس المعاملة بالمثل. لذلك كان هناك بعض التقدم في الوجود الأجنبي في المغرب من الناحية الدستورية. هناك أيضاً العديد من التوصيات الصادرة عن بعض هيئات الأمم المتحدة، والمتعلقة بحقوق الإنسان بشكل عام وحقوق المهاجرين بشكل خاص.

يتدخل المجلس الوطني لحقوق الإنسان في قانون المهاجرين على عدة مستويات مختلفة : كرسد وحماية حقوق الأجانب في المغرب، وإعداد التقارير بشراكة مع اللجان الجهوية لحقوق الإنسان للمجلس الوطني لحقوق الإنسان. كما يتم استغلال هذا الرصد على مستوى سياسة الهجرة بشكل عام، والتي تتمثل في مشاركة المجلس الوطني لحقوق الإنسان في اللجنة الوطنية لإستراتيجية الهجرة واللجوء التي تم تبنيها سنة 2014. وترأست اللجنة الوطنية لتتبع العمليتين الخاصتين بتسوية وضعية الأجانب في حالة غير قانونية. ويمكن ملاحظة أيضا هذا الرصد على مستوى الإطار القانوني التنظيمي وعلى مستوى التشريعات والاجتهادات القضائية، فيما يتعلق بالأجانب بشكل عام في المغرب.

على سبيل المثال، نجد آراء المجلس الوطني لحقوق الإنسان حول القانون المتعلق بالاتجار بالبشر، والتعليقات على الاحتجاز في السجون، وقانون تنظيم العمل المنزلي، وكذلك رأينا حول المسودة النهائية لقانون اللجوء وشروط منحه. أما بالنسبة للحملة المتعلقة بحصول المهاجرين الأجانب على الحقوق الأساسية، فإن المجلس الوطني لحقوق الإنسان والمجلس الاستشاري للحقوق، يعملان على رصد ومعالجة طلبات المهاجرين الأجانب المتعلقة بانتهاكات حقوقهم، ولكن أيضا تتبع ورصد سير العمليتين الاستثنائيتين والمتعلقتان بتنظيم أوضاع الأجانب في المغرب. ونذكر أيضا، عددا من الإجراءات المتخذة بناء على قدرات الجهات الفاعلة التي تعمل في مجال الهجرة، وإقامة شراكات جديدة.

في سنة 2007، اعتمد المجلس الوطني لحقوق الإنسان خطة عمل، تستهدف مجالات ذات أولوية، والتي تستند على جرد الصعوبات التي تعيق حصول المهاجرين على حقوقهم الأساسية. وقد تم اختيار بعض المواضيع، والتي يشغل عليها حاليا المجلس الوطني لحقوق الإنسان والمجلس الملكي الاستشاري لحقوق الإنسان. وتشمل أيضا، حصول الأجانب على دفتر الحالة المدنية وتدريب أطفالهم، والحصول على السكن، وإدماجهم في سوق العمل، وأيضا استفادة الأجانب من الرعاية في ظل نفس الظروف التي يتمتع بها المواطنون. على نطاق أوسع، يواصل المجلس الوطني لحقوق الإنسان التدخل في إطار اختصاصاته من خلال مهامه المتعلقة بالحماية العامة لحقوق الإنسان، وسوف ينشر قريبا تقرير تقييمي حول إستراتيجية الهجرة واللجوء، وذلك بمناسبة الذكرى الخامسة على تأسيسه.

عبد الله الترابي

لنناقش الآن وضعية اللاجئين مع جون بول كافاليري، الصورة التي لدينا الآن هي عن اللاجئين السوريين الذين يهاجرون إلى أوروبا، وكذلك فئة لا نعرفها جيدا في المغرب، وهم اللاجئين بسبب ظروف مناخية، وهؤلاء الناس يفرون من الجفاف والمشاكل الأخرى الناتجة عن تغير المناخ. هل يمكنك الحديث عن خريطة اللاجئين في العالم وكذلك في المغرب ؟

جون بول كافاليري

نظم الشاعر عبد اللطيف اللعبي في إحدى قصائده : «تاه القطار، كان على متنه الشاعر». لقد ذكرني هذا البيت الشعري بهذا المعرض المغاربي للكتاب. في البداية أود أن أجيء على سؤال حول ترتيب الدول التي تم تجاوزها : بلد النشأة وبلد الاستقبال وبلد العبور، ولكن من زاوية الاختلالات التي تعرفها الدول، ما سأقوله سيكون تفاعل جزئي مع ما قالته شادية أعراب، ولكن أيضا يتناقض معه في بعض النقاط. لأنه موضوع معقد وليس هناك ما هو أسوأ من التوافق عليه.

من وجهة نظر دول نشأة اللاجئين (السوريون والفلسطينيون والعراقيون...)، فإنه عندما نفكر في صراع مثل ما يقع في سوريا الآن، والتي بالمناسبة تشهد اليوم الذكرى الثامنة لاندلاع الأزمة، وننظر إلى البلدان الرئيسية في العالم والتي تصدر اللاجئين : كأفغانستان، والصومال... وهو ما يعادل حوالي 8 سنوات، و30 سنة و20 سنة من الحرب. لذلك، نرى أن شيئا ما قد انكسر.

عندما كنت شابا، كنت أعمل في الإغاثة الإنسانية بالبوسنة، وكنا محاصرين في أحد المناطق المعزولة بدون كهرباء. ومن وقت لآخر كان هناك صوت أزيز الطائرات : كان الأمريكيون هم من يلقون السلاح للبوسنيين في انتهاك كامل لمقتضيات القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة، وحظر الأسلحة. يمكننا استحضار ما قاله آنذاك الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران : «لن نصيف الحرب إلى الحرب». ولكن ماذا يعني عندما تكون جهة ما مدججة بالأسلحة - الصرب مثلا في هذه الحالة - والجهة الأخرى شعب أعزل يذبح ؟



في ظل هذا الانتهاك الكامل لمقتضيات القانون الدولي، أوقف الأمريكيون هذه الحرب. وبعد ست سنوات، قامت نفس الدولة والتي مازالت تنتهك المقتضيات الدولية، بفتح صندوق باندورا بالعراق، دون أن تتمكن من إغلاقه. لذلك فإن هذا الفشل يتحمل مسؤوليته مجلس الأمن التابع لمنظمة الأمم المتحدة. ويبدو أن الحوار انقطع بين الروس والأميركيين وأن آلة صنع السلام توقفت في مكان ما. وبالنسبة للبلدان الأصلية الأخرى، أو بالأحرى في دول منطقة إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، فهي تصدر بشكل رئيسي المهاجرين، وحتى اللاجئين أيضا. نحن في المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين نعين هؤلاء الأشخاص، من خلال زيارات شهرية، حيث نقوم بتسجيل طلباتهم ومعالجة ملفاتهم. ومعظم الطلبات تأتي من المهاجرين، لذا فهم ليسوا فارين من الحرب أو الاضطهاد. فهم يفرون من الفقر على الرغم من أنهم لا يأتون بالضرورة من البلدان الفقيرة. هنا، أشعر بتفاوت وفرق بين خطاب المنظمات غير الحكومية وأوروبا، الذين يتحدثون من أعلى أبراجهم العاجية، وما يقوله لنا هؤلاء الناس. إنهم يشعرون بأن ثروة بلادهم مصادرة، وأنه لا توجد عدالة اجتماعية وأنه ليس لديهم مستقبل ولا أمل. ليس بالضرورة أفقر الناس هم من يفرون ؛ إنهم غاضبون جدا، خصوصا من النخب الحاكمة. ويتساءلون لماذا لا يتحدثون عن هؤلاء الفرقى (نحن نتحدث عن ذلك في الصحف الأوروبية وليس في صحف بلدانهم). وبالتالي فهناك تضارب بين ما يتضمنه الخطاب الأوروبي والخطاب المعادي له، وأيضا بين خطاب دول منطقة إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، والذي غالبا ما ينتقد بشدة نخبها الحاكمة. دعونا نواصل الطريق ونذهب مباشرة إلى بلدان الاستقبال في أوروبا : هناك تركيز إعلامي كبير على منطقة البحر الأبيض المتوسط، والمأساة الإنسانية المروعة التي تحدث هناك، مثل ما حصل مع الشابة المغربية التي لقيت حتفها. مثل هذه الحادثة المفجعة، توجد الكثير منها في دول إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وفي كل من الصحاري والمحيطات، إلخ.

مع ذلك، أعتقد أنه إذا أردنا أن نحكم على سياسة الهجرة الأوروبية - وأنا لست هنا للدفاع عن أوروبا - لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار، أنها تمنح 3.5 إلى 4 ملايين تصريح إقامة جديد في السنة، ناهيك عن التجديدات. وهي تصاريح تتعلق إما بالعمل، أو جمع شمل الأسرة أو الدراسة بالنسبة للطلاب. وهذه مسألة مهمة. إذا، هل يكفي ذلك أم لا؟ وهل هناك ما يكفي من الهجرة الدائرية؟ أعتقد أن هذه هي الأسئلة التي يتعين على الباحثين والصحافيين طرحها على أنفسهم عوض التساؤل عن مصير الأشخاص الذين هم في وضع غير شرعي، ماعدا اعتبار أنه لا توجد حدود وهنا سوف ندخل في نمط آخر...

اليوم، هناك حدود ويفترض بنا أن نشكك في سياسة الهجرة المتبعة من قبل الدول. ويبدو لي أن مسؤولية أوروبا في الهجرة لا تتعلق باللاجئين فقط. أين هم اللاجئون؟ دعونا نفكر في بلدان مثل لبنان، التي تستضيف 1.5 مليون لاجئ بالنسبة لدولة يبلغ معدل سكانها بحوالي 4.5 مليون نسمة، والأردن، وإيران التي تستضيف 3 ملايين من اللاجئين الأفغان. نحن لا نسمع ذلك في وسائل الإعلام. هناك تركيز إعلامي كبير على الأحداث المفجعة والمأساوية التي تقع في عرض البحر الأبيض المتوسط، وهو أمر مفهوم لأنه عرض مثير. لكن دعونا نرى البؤس اليومي لهؤلاء اللاجئين في هذه البلدان بتضامن جد محدود للغاية خصوصا من قبل الدول الأوروبية التي تزداد ثراءً يوما بعد يوم. وينبغي أيضا أن نستحضر أن من بين كل عشرة أشخاص نازحين، يبقى 9 منهم في بلدانهم الأصلية، مثل العراقيين أو السوريين، أو في البلدان المجاورة التي لجؤوا إليها منذ بداية الصراع. إذا هناك إخفاق واضح لأوروبا، إذ يمكنها إنقاذ الكثير من الأرواح. واللاجئون هم بشر مثلنا، لكن ليست لهم بدائل أخرى. ومن الضروري التأمل في هذا التحول في غياب تصور واضح وشفاف للدول لحل هذه الظاهرة. ويمكننا أن نتحدث عن أزمة القيم في أوروبا، لاسيما عندما نؤمن بفلسفة كانوا هم من وضع أسسها ولبنتها الأساسية. أخيراً، نتحدث عن بلدان العبور، فلنأخذ مثال المغرب. رأينا مؤخرا أنه يتم مؤخرا إعادة المهاجرين إلى ديارهم جوا. ومن هنا أدرك المغرب مدى أهمية تحديد الفئات: اللاجئين والمهاجرين الشرعيين والمهاجرين غير الشرعيين.

هذا الصباح، ذهبت إلى الكنيسة المتواجدة بمدينة وجدة لأنه كان هناك برنامج لمساعدة المهاجرين. ولقد تأثرت كثيراً بمبادرة الكاهن الذي وضع سجاد الصلاة لمهاجرين جميعهم مسلمين. وهذا يدل على أنه بعيدا كل البعد عن الاختلافات الدينية، ويمكن للناس مد يد المساعدة وأعتقد أن هذه إشارة أمل للمستقبل. أود أن أضيف أن سياسة الهجرة هذه قد تكون بها إخفاقات، ولكن يبدو لي أن هذه بادرة سياسية شجاعة للمغرب تبدأ في التمييز بين المهاجرين واللاجئين الذين يعانون من الاضطهاد والموت في بلدانهم الأصلي.

عبد الله الترابي

من هو اللاجئ؟ وما هو الفرق بينه وبين المهاجر؟

جون بول كفاليري

اللاجئ هو من يفر من بلده لأسباب تتعلق بالحرب أو النزاعات وحالات الاضطهاد التي يتعرضون لها. أما المهاجر فهو من يغادر بلده لأسباب اقتصادية أو لمصلحة شخصية. ويمكن أن تكون هذه الأسباب مشروعة تماماً: للدراسة، أو لتحسين ظروفه الاقتصادية، أو للالتحاق بأسترته...، المغرب يضع الفرق بين الاثنين، وهو أمر مشروع وجدير بالثناء. يتمتع اللاجئ بحماية خاصة تسمى الحماية الدولية، لأنه فقد الحماية الوطنية. أخبرني أحد المهاجرين الذين قابلتهم صباح هذا اليوم في الكنيسة عن رحلتهم بهذه العبارات: «انتهى الأمر، لقد كسرت أظافري على سياج مدينة مليية. الآن يجب أن أعود إلى وطني، وسوف أحاول أن أستفيد من برنامج إعادة المهاجرين إلى الوطن». عموماً، هؤلاء هم أشخاص تعني العودة بالنسبة لهم فشلاً، وهي أحسن من أن يتم إرسالهم إلى سجن مدى الحياة. لذلك من المهم التمييز بين هاتين الحالتين، وإلا فإننا نخاطر بتشكيل مزيج يمكن أن يكون متناقضاً وقاتلاً.

نحن نرى ذلك في بعض الخطابات التي تنم عن كره الأجانب في بعض الدول الأوروبية. وفي المغرب أيضاً، تمكنا من قراءة مثل هاته الخطابات في الصحافة. لقد رأينا أن كلمة «لاجئ» قد استخدمت بدلاً من كلمة «مهاجر». أعتقد أنه من المهم القيام بهذا التمييز حتى لو لم يكن صحيحاً كل يوم بالمنطق السياسي. قد يكون من المؤلم إعادة المهاجرين غير الشرعيين إلى بلدهم، وهذا ما يجب أن يشكل بالنسبة لنا تحدياً، ولكن ربما قد يكون هو الثمن المطلوب للحفاظ على حق اللجوء لأشخاص يعتبرونها مسألة حياة أو موت.

عبد الله الترابي

يوسف أمين العلمي، أنت كاتب وروائي ومهتم بقضايا الهجرة في رواياتك : «مغربي في نيويورك» و«السيرة الذاتية» و«المهاجرون غير الشرعيين»، بماذا توحى لك مفاهيم من قبيل الحركية والهجرة والحدود ككاتب وروائي ؟

يوسف أمين العلمي

يسعدني أن أشارك في هذا النقاش، لأن هذه القضايا تهمني بشكل خاص، وليس بالضرورة أن تكون لي وجهة النظر نفسها مع الباحثين أو ممثلي المؤسسات. وهذا بالنسبة لي موضوع للكتابة والإبداع. بالطبع، من نافلة القول أن الإبداع لا يمكن أن يتم دون عمل بحث مسبق. لقد استقيت من هنا وهناك معلومات مفيدة بالنسبة لي على وجه الخصوص. لقد كنت سعيداً للغاية بمقابلة جون بول كفاليري للمرة الأولى، بينما كنا نعيش معا في مدينة الرباط، على بعد أمتار قليلة من بعضنا البعض لسبب بسيط وهو أنني أعمل حالياً على مسألة اللاجئين المنحدرين من دولة غانا. بالنسبة لي، فإني أهتم بشكل خاص، بقضية المهاجرين والمهاجرين غير الشرعيين، لكني أريد أن أتحدث من وجهة نظر الأدب.

لطالما كنت مهتماً بهذه المسألة، ومن هنا جاء عنوان أحد كتبي. في البداية ، عثرت على خبر في صحيفة مغربية. حيث ينقل الصحفي خبر اكتشاف جثث قبالة شاطئ في شمال المغرب، وعلى الفور، قام هذا الصحفي بإحصاء عدد الوفيات منذ بداية السنة : تطرق للأمر بشكل قاسي واقتصر فقط على سرد الإحصائيات. لقد صدمتني هذه المقالة، على الرغم من أنني أفهم أن هذا الصحفي لديه قيود تتمثل في ضيق المساحة المخصصة للنشر، وعنصر الوقت لكتابة مقالته ونشرها. ولذلك قلت مع نفسي أن الكاتب محظوظ جداً لأنه قادر على استثمار وقته بدون تلك القيود. ثم تساءلت عن ذلك الشيء المفقود في هذه المقالة. في رأيي، كان يفترق للجوهر : وهو البعد الإنساني لهذه الفاجعة. من الجيد التحدث عن الأرقام، حوالي مليوني مهاجر ولاجئ، وما إلى ذلك. ولكن من المهم التعامل مع هذا الموضوع. ومناقشة كل الأمور التي لا نتحدث عنها أو المسكوت عنها، والنظر في هذا البعد الإنساني. وهذا يعني أن هذه الجثث التي تم انتشالها ليست مجرد أرقام، بل هو ابن، زوج ، عشيق ومن يدري ماذا بعد... هؤلاء الناس تركوا خلفهم أمهات... لقد سمح لي سحر الأدب بالتعبير عن هؤلاء البشر الذين تقطعت بهم السبل على الشاطئ. حيث يسمح لنا الأدب ويجعل من الممكن إعادة الحياة لهم ليخبرونا عن تجربة عبورهم وفشلهم.

في كتابي، أعطيت الكلمة أيضاً لكل من بقي في البلد الأصل، أولئك الذين فقدوا أحبهم في هذه الرحلة. علاوة على ذلك، أعتقد أننا لا نستطيع الحديث عن الهجرة دون الحديث عن الحدود والتحديات الأكبر يكمن في هذا المفهوم. توضع الحدود دائماً بين بلدين، لكن ما ننساه هو أن هناك حدوداً في نفس البلد. وهو ما تحدثت عنه في كتابي : ما الذي يدفع بالفرد ليخاطر بالغرق ويغادر بلده ؟ حسناً، هذا الشخص يغادر لأنه يعيش داخل الحدود. وقد تكون تلك الحدود داخلية للبلد، مما يجعل وضع المرأة أدنى من وضع الرجل. وهذا ما يمكن أن يفسر لماذا تحاول بعض الشابات تجربة هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر. الحدود هي أيضاً في المناطق الحضرية. وعلى سبيل المثال المدينة الخضراء في بوسكورة : إنها جميلة. لكن هل سمعنا عن حي عشوائي أخضر ؟ ولماذا لا يكون للحي العشوائي الحق في الخضرة ؟

لذا اخترت دفع هذه المسألة أكثر قليلاً في روايتي. ومن بين الشخصيات التي غرقت، هناك جعفر الذي جاء من الهجرة الجماعية الريفية، مثل العديد من سكان مدينة الدار البيضاء. عندما وصل، قام ببناء كوخه العشوائي الصغير. ويتبعه الآخرون ويستقرون أيضاً. هم هناك، وليست أية مشكلة في ذلك، إلى حين ذلك اليوم الذي يصل فيه المسؤولون ويقومون بتفتيش المكان من دون التحدث إليهم. في هذه اللحظة، يصل العمال ويبدؤون العمل. كل سكان هذا الحي الصفيحي يناقشون ويتساءلون عن ماهية هذه البناية. يعتقد البعض أنها مدرسة، والبعض الآخر مستشفى، أو مسجد... وبعد حين، يدركون أنها في الواقع جدار. لا توجد به نوافذ أو أسقف. إنه جدار لتطويق حيهم الصفيحي، حدود إذاً، بهدف الحفاظ على راحة ورفاه الأجانب والزوار وسائقي السيارات... لكي لا يكونوا مضطرين إلى مشاهدة ذلك الحي الصفيحي. لا يمكن لشخصية جعفر أن تتنفس خلف تلك الجدران. ومن ثم قرر تجاوز تلك الحدود الأولى. نحن لا نتحدث عن هذه الحدود ولدينا انطباع أننا قادرون على الحركة كما نريد. لكن البعض قرروا أن يكونوا أكثر حركية من الآخرين، وبالتالي عبور تلك الحدود الأخرى، حدود بلادهم.

عبد الله الترابي

لقد ذكرت المدينة الخضراء في بوسكورة. وهي محاطة أيضاً بجدران ورائع فيها هو شعارها الإعلاني : «هنا تكون لوحداً معا ذاتك».

يوسف أمين العلمي

يغيب البعد الإنساني بشكل رهيب، خاصة في التغطية الإعلامية لهذه الظواهر، هذه الأحداث الدرامية المفجعة. وهو ما دفعتني إلى معالجة هذه القضية الشائكة جداً : قضية لاجئ الحرب. يجب أن نتحدث بالفعل عن هذه الحروب، ثم النزوح ورحلة العبور ومجموعة من القضايا. بالإضافة إلى ذلك، من بين الحدود الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والحضرية... هناك أيضاً حدود إنسانية، لأن هؤلاء اللاجئين والمهاجرين الذين تنتقلوا، يجدون في غالب الأحيان أنفسهم محاصرين. وهذا نوع آخر من الحدود لأن الوجود الهائل لهؤلاء المهاجرين، الذين سيجمعون ويقيمون في مكان ما، هي حدود. على سبيل المثال، في شمال المغرب، ستكون هذه الحدود غابة بوخالف الشهيرة. إنها حدود بمعنى أن قليل من المغاربة يذهبون إلى تلك الغابة، ربما باستثناء هؤلاء الذي يعملون في الخدمة الإنسانية. ويمكن قول الشيء نفسه عن «غابة كاليه» في فرنسا : اسأل السكان المحليين ما إذا كانوا يذهبون إلى تلك المنطقة ؟ لا أعتقد ذلك. هذه الأماكن صارت حدوداً.

عبد الله الترابي

شادية أعراب، لقد ذكرت قصة الشابة حياة، الطالبة التي تنحدر من مدينة تطوان، والتي لقيت مصرعها على إثر إطلاق النار من قبل جنود البحرية المغربية. لقد اشتغلت على موضوع النساء المغربيات في إسبانيا. كيف تحتل المرأة مكاناً مهماً في الهجرة ؟ وبماذا تتميز هجرة النساء ؟ وما هو الفرق بينها وبين هجرة الرجال التي كانت الهجرة الوحيدة المتعارف عليها والسائدة في سنوات السبعينيات والثمانينيات ؟

شادية أعراب

سؤال مهم، ويحتل مكانة خاصة في نفسي. حيث أن من بين 240 مليون مهاجر يعبرون الحدود، نصفهم من النساء. وفي الواقع، هذا ليس جديداً. بل هي ظاهرة كانت قل ما يتم الانتباه إليها في الأبحاث ووسائل الإعلام، إلخ. غالباً ما كنا نقوم «بتجسيدها» من خلال دراسة مسارات النساء اللواتي يتبعن أزواجهن من أجل لم شمل الأسرة، النساء اللواتي لا يتحدثن جيداً لغات دول الاستقبال، لذا لا يمكننا مساءلة النساء اللواتي لا تعملن. وهذه مسألة أخرى تستدعي التفكيك بغية الفهم الصحيح للظاهرة.

لقد اشتغلت عالمة الاجتماع الأنثروبولوجيا نسيمه مجود في أطروحتها على المغريات اللواتي هاجرن لوحدهن إلى كل من فرنسا وإيطاليا. وعندما قدمت موضوعها للمشرفة على أطروحتها، اعترضت ونفت وجود هؤلاء النساء. كان عليها أولاً إضفاء الشرعية على موضوع أطروحتها. كل هذا من أجل القول أن هؤلاء النساء موجودات فعلاً منذ زمن طويل. تحدث يوسف أمين العلمي عن إضفاء الطابع الإنساني وجعل تلك الأرقام واضحة.

في النهاية، اشتغلت على ما أسميه «سيدات الفراولة»، كانت أيضاً طريقة لجعلها مرئية ولإظهار ما يختفي وراء ما يسمى بالهجرة الاختيارية أو الهجرة الدائرية، المعروضة كمثال اليوم بين دول أوروبا، وهن أيضاً نساء يهاجرن. نساء فقيرات وغير مستقرات ومهمشات، والتي فرضت عليهن قواعد دقيقة للغاية. حيث يتم توظيفهن مباشرة من بلدهم الأصلي، وفق شروط ومعايير محددة من قبيل ضرورة التوفر على أطفال، مما يضمن عودتهن إلى بلدهم الأصلي في نهاية موسم حصاد الفراولة. وقد عملت هاته الخطة بشكل جيد لعدة سنوات، مع أزيد من 17 000 امرأة مغربية في موسم 2009-2010، مما يجعلها أكبر مجموعة من النساء الموسميات في إسبانيا.



عبد الله الترابي

«سيدات الفراولة، أصابع خرافية»، عنوان كتابك الأخير، هل هؤلاء النساء اللاتي يهاجرن إلى جنوب إسبانيا للعمل في حقول الفراولة، أليس كذلك ؟

شادية أعراب

نعم ؛ على مدى عشر سنوات حتى الآن، كنا نبحث عن هؤلاء النساء في المغرب للعمل بضعة أشهر بعقود موسمية. يطلب منهن العودة إلى ديارهن بعد ذلك. إنها يد عاملة لينة ومطبعة تعمل لفترة زمنية محددة في السنة. وهذا الأمر موضع تساؤل في سياق «برنامج إدارة أخلاقيات الهجرة الموسمية في إسبانيا». بطبيعة الحال، يجب تفسير مصطلح «أخلاقيات» بكل معانيها، خاصة وقد برزت ظاهرة الاعتداءات الجنسية داخل تعاونيات الفراولة. لقد كانت هاته الظاهرة بدون شك، موجودة منذ فترة طويلة جداً، ولكن تم تداولها كثيراً في الأشهر الأخيرة ، مما طرح الكثير من التساؤلات. أمل أن يساعد هذا أيضاً على إعادة صياغة سياسة الهجرة التمييزية. بالإضافة إلى ذلك، خلق هذا البرنامج أيضاً هجرة سرية في حين كان هدفه الحد من الهجرة غير الشرعية. وهكذا، قد يصبح البرنامج الذي يموله الاتحاد الأوروبي فاسداً دون جدوى ويستجيب بطريقة متناقضة لهدفه.

عبد الله الترابي

سؤال آخر لجون بول كافاليري : كيف يبدو مسار اللاجئين في المغرب ؟ لدينا رؤية مجردة ونحن لا نعرف بشكل ملموس كيف يبدو الأمر. أعتقد أنك حصلت أيضاً على قصص شخصية ؟

جون بول كافاليري

في هذا الصدد، يمكن أن نذكر كتاب جليل بناني «مسار جد طويل»، أحاديث اللاجئين بالمغرب مصحوبة بمجموعة من الصور التي التقطها المصور محمد كيليطو، بغية عرض مسارات اللاجئين. في المغرب، يأتي اللاجئين بشكل رئيسي من سوريا والعراق وفلسطين واليمن (بمعدل 60%)، و40% من ينحدرون من دول أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، غالبا من وسط أفريقيا، مالي وجمهورية الكونغو الديمقراطية). حيث تعد جمهورية الكونغو الديمقراطية واحدة من أغنى الدول في أفريقيا، ولكن هناك مشاكل على مستوى الإدارة، مما دفع الكثيرين من الكونغوليين إلى سعي وراء تحسين ظروفهم المعيشية في أماكن أخرى. كما ينتج اللاجئين بسبب الصراعات التي تحدث هناك. وطرق اللاجئين متنوعة للغاية. وهناك أيضا سعر لكل طريق. 70% من اللاجئين الذين يمرّون عبر مكاتينا يصلون بشكل غير شرعي إلى الجزائر عبر طريق مالي-تمنراست-شمال في الجزائر، ثم عبر مدينة وجدة لدخول المغرب. ويدخل الآخرون بانتظام عبر مطار الدار البيضاء الدولي، ثم يطلبون اللجوء على الفور.

يجب القول إن الحدود مع الجزائر تمثل تحدياً كبيراً للمغرب من أجل التدبير والتعاون على مراقبة الحدود بطريقة سليمة. إن المغرب يبقى وحيدا في هذه المسألة وهو يخشى أيضاً أن يتم تحويل محور ليبيا-إيطاليا، حيث أن هناك حوالي 30 إلى 40 000 لاجئ سوري تسمح لهم الجزائر بالمرور إلى المغرب. وفي الواقع، فالمغرب قام ببادرة طيبة عندما سمح لهم بالدخول لأراضيه، حيث بمجرد وصولهم إلى مدينة وجدة أو الناظور، يمكنهم التقدم بطلب للجوء لدى مكاتب المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. يلتزم المغرب بالتزاماته الدولية المتعلقة بحماية اللاجئين من خلال سماح لهم بتقديم طلب اللجوء لدى المفوضية. إذا هذه هي المسارات.

عبد الله الترابي

السيد العمرتي، لدي سؤال أخير حول سياسة الهجرة في المغرب. وقد أثّرت انتقادات بشأن بعض الممارسات مثل تسليم المطلوبين للعدالة وكذا نقل الأشخاص، وما إلى ذلك. إذا ما هي برأيك مشاكل سياسة الهجرة في المغرب ؟

محمد العمرتي

فقط لتوضيح الوضع ولضبط المصطلحات المستخدمة، لم يكن هناك أي تسليم للمطلوبين، بل هو مجرد نقلهم من طنجة إلى مدن مغربية أخرى. ويمكن مناقشة هذه المسألة على المستوى القانوني لكنها لا تتعارض مع إدارة شؤون الأجانب في البلاد. ولعل التحدي الرئيسي يتجلى في إدماج هؤلاء المهاجرين المتواجدين بالمغرب في إطار سياسة قطاعية متكاملة. ويتعين علينا ضمان حصولهم على الحقوق والحريات الأساسية بنفس الطريقة التي يمتلكها المواطنون : كالحصول على الرعاية الصحية، وحصولهم على دفتر الحالة المدنية، والإدماج بسوق الشغل وأيضا الحق في التعليم. لكن هذا الإدماج لا يعني منعهم من المغادرة. بالمناسبة، جون بول كافاليري يعرف جيدا : أن من بين أولئك الذين يتمنون الذهاب إلى أوروبا، هناك أيضا أشخاص طلبوا الحق في اللجوء إلى المغرب. وهكذا، فإن مسار الهجرة موجود، ولا يمكننا أن نمنع أي شخص من الذهاب إلى مكان آخر، على الرغم من كل الجهود المبذولة لمحاولة إدماجهم. ويظل التساؤل المطروح هل المغاربة مستعدون لدمج هؤلاء الأجانب ؟

إن المغرب بالكاد يكتشف هذه القضايا الجديدة المتعلقة بالهجرة. وهي مسألة أيضا جديدة بالنسبة للسلطات العمومية التي يجب أن تديرها بأكثر قدر ممكن من الارتياح مع الالتزام بالمواثيق الدولية وأكثر إنسانية كما قالها بوضوح السيد العلمي.

عبد الله الترابي

دعونا الآن نعطي الكلمة إلى الحاضرين معنا بالقاعة.

مداخلة

استمعت لجميع المداخلات وتابعتها باهتمام كبير. إن مسألة الهجرة تهمني بصفتي فاعلا في المجتمع المدني وكذا على المستوى المهني أيضا، لأنه على مدى عقود، رأيت العديد من المهاجرين المحتملين إلى إسبانيا والذين مروا من خلال مكثي، ولاسيما النساء اللواتي يذهبن للعمل في حقول الفراولة. في البداية، قررت إسبانيا أن تستقطب مهاجرين من المغرب شريطة أن يكن نساء شابات ومتزوجات ونشطات وأمّهات، وذلك لضمان عدم بقائهن في إسبانيا. الآن، أود أن أطرح بعض الأسئلة. أولا، أنا أشاطر كل ما قيل حول التغيرات التي تعرفها الهجرة. في التسعينيات، شاهدت الدفعة الأولى لأطفال مغاربة صغار ببيطاليا، عندما كنت منخرطا في برنامج لمساعدة القاصرين غير المصحوبين في مدينة تورينو. لكن في ذلك الوقت، لم نكن نعرف التعبير الصحيح لتلك الظاهرة. والتي لاحقا نتحدث عنها كل الصحافة. لذا، هل هناك حقا ارتفاع في نسبة هجرة الأطفال؟ سؤالي الثاني أتوجه به لعالم الجغرافيا : لدينا المزيد والمزيد من الأشخاص القادمين من دول إفريقيا جنوب الصحراء إلى شمال القارة. ومن المتوقع، أن تصبح إفريقيا واحدة من أكثر القارات اكتظاظا بالسكان على هذا الكوكب. بالإضافة إلى ذلك، ومع تغير المناخ وارتفاع درجات الحرارة، يحصل انخفاض مستمر في كمية إنتاج الحبوب. ولذلك من المحتمل أن تحدث هناك صعوبات غذائية حقيقية. فهل يشكل ذلك خطرا في تدفق المزيد من المهاجرين إلى أوروبا ؟

مداخلة

لقد جئت من الشمال الشرقي وأنا أوافق على أن التغيير قد حدث منذ عقود. قبل ذلك، كانت لدى العائلات في المنطقة مشروع إرسال أبنائها إلى الخارج. وقد بدأت هذه الفكرة تختفي واليوم فإن العكس هو الصحيح تماما : فقد أصبحت العائلات تنتظم في إرسال بناتها. والسبب بسيط للغاية : اليوم، أصبح لدى الفتيات أيضا فرصة للعمل والزواج في أوروبا. هذا التغيير يمكن أن نلمسه أيضا في إسبانيا، حيث يغادر العديد من الناس ويعود عدد قليل جداً منهم. فهل سنأخذ اليوم هذا الواقع في الحسبان ؟ ثانياً، هل أصبحت الهجرة اليوم استراتيجية يتم اللجوء إليها لتحقيق أهداف مالية وسياسية... ؟

مداخلة

عندما نتحدث عن حقوق الإنسان، لا يتعلق الأمر بالرجل أو المرأة فقط. هؤلاء المهاجرين الذين ذكرتهم يبحثون عن ظروف معيشية أفضل ومأوى وحقوق أكثر. هل هناك منظمات أو جمعيات غير حكومية تهدف إلى مكافحة ظاهرة الهجرة ؟

مداخلة

فيما يتعلق بهجرة الشباب المغربي، من حولنا كثيرون يذهبون إلى كندا وفرنسا... هل لديك فكرة عن مواصفات هؤلاء الشباب الذين يغادرون ؟ كم عددهم ولماذا يغادرون ؟ هل توجد أبحاث بخصوص هذا الموضوع ؟

مداخلة

كيف يمكن الوصول إلى التوازن والعثور على الأسباب الحقيقية لظاهرة الهجرة ؟

مداخلة

لماذا عندما نأتي من الشمال إلى الجنوب يتم وصفنا على أننا مغتربين وعندما يكون في الاتجاه المعاكس، نصبح مهاجرين ؟

شادية أعراب

لم أتحدث عن هاته الهجرات التي تنطلق من الشمال إلى الجنوب، ولكن هناك أيضاً هجرات من الجنوب إلى الجنوب، ويجب أن نتحدث عنها أيضاً. أضف إلى ذلك، أن السيد العمرتي، ذكر على نحو ملائم جداً أولئك الأفارقة الذين هاجروا إلى بلدان إفريقية أخرى. مفردات ومصطلحات الهجرة هي أيضاً مهمة جداً. في الواقع، عندما يتعلق الأمر بالهجرة بين الشمال والجنوب، لم نعد نتحدث عن المهاجرين لأنه مصطلح قديم. في حين أن هؤلاء المغتربين هم أيضاً مهاجرين وفقاً للتعريف المتداول. وبالعودة إلى ما سيحدث مستقبلاً في إفريقيا، لا أعرف هل بعد 10 أو 15 أو 20 سنة، لكن على أي حال، هناك عدد معين من علماء الديموغرافيا يتحدثون عن القنابل الديموغرافية في إفريقيا، إذ يزعمون بأن موجات للمهاجرين ستندفق نحو أوروبا وأمريكا الشمالية، وهي وجهة نظر قمت بتفكيكها هنا. وحسب رأيهم، في غضون بضع سنوات، سيكون الوضع أكثر سوءاً. وسيكون هناك أيضاً لاجئي المناخ، والذين يقدر عددهم بالملايين بعد بضع سنوات. لا أستطيع الإجابة حقاً لأنني لا أعرف ما الذي سيحدث بالفعل.

محمد العمرتي

صحيح أن خبراء الديموغرافيا يقدمون ببعض التقديرات الاستقرائية. وبرأيهم، فإن عدد السكان في إفريقيا سيفوق سقف المليار نسمة في عام 2050، والذي سيمثل نحو 13% من سكان العالم. أنا لست خبيراً، لكنني رأيت بعض الدراسات التي تشرح أن نفس العوامل ستستمر خلال الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين عاماً القادمة فيما يتعلق بالهجرة. وأعتقد أننا لم ننته بعد من سماع المزيد من السيناريوهات الكارثية التي قد تحدث في السنوات القادمة.

جون بول كفاليري

من حيث المصطلحات، أنا شخصياً مهاجر اخترت المغرب وأعتقد أنها عبارة عن شراكة وفق مبدأ «رابح-رابح». وهذا يعني أنه لا يمكننا القول أن الدول الأوروبية تمنح تأشيرات الدخول فقط للأشخاص الذين يمتلكون الموارد المالية، وعلى الجانب الآخر دون الحديث عن حقيقة أننا نسمح للأشخاص ذوي الدخل المنخفض الذهاب للعمل في أوروبا ثم العودة. وإذا تم تدبير الأمور بشكل جيد، فقد تكون أيضاً شراكة وفق مبدأ «رابح-رابح».

المتوسط : بين الثقافة والمجهول

رئيس الجلسة : ميلود الوكيل
المشاركون : مصطفى الحسني الإدريسي، إغناسيو غوتيريز دوتيران، فرانسوا لاربر
فضاء : القدس
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 17 : 30 - 18 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

أشرف على تسيير هذه المائدة المستديرة الأستاذ والباحث الجامعي ميلود الوكيل، المتخصص في قانون البحار. وقد اتخذ من أبيات قصيدة «المتوسط» التي غناها ابن الإسكندرية «جورج موستاكي» مدخلا لعرض الإشكالية موضوع الجلسة. وذكر الوكيل، المنحدر من مدينة أحفير، نواحي وجدة، على أن الفضاء المتوسطي شهد ميلاد الفلسفة، أم العلوم، والذي يؤثّر مخيال كل من استوطنوا ضفافه. حيث أن هذا البحر، (بحرنا) «ماري نوستروم»، أصبح يعيش على إيقاع قوارب الموت والتي أصبحت مصيدة لأرواح العابرين، ارتأى المسير الرجوع إلى التاريخ لفهم هذا التحول من خلال المداخلة التي قدمها البروفسور مصطفى الحسني الإدريسي الحاصل على دكتوراه الدولة في علوم التربية. وقد أشرف البروفسور على تنسيق مؤلف مشترك تحت عنوان «البحر الأبيض المتوسط، تاريخ للتقاسم»، يزاوج في كل فصل من فصوله بين رؤى كتاب من الشمال والجنوب.

تتمحور فكرة هذا العمل حول نشر وتدريس تاريخ مشترك بين الضفتين في المغرب وإسبانيا، بعيدا عن الصراع والتناقض المجالي. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب يغطي أربعة قرون من تاريخ المتوسط، تمتد من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. وحسب الأستاذ منسق هذا العمل، فقد تميز النصف الأول من هذه الحقبة بالتكافؤ بين الضفتين، ثم شهد القرنان المواليان اتساع الهوة بينهما نتيجة للتطور الكبير والسريع الذي عرفته مختلف المجالات في الضفة الشمالية، لا سيما مجال الفكر والإبداع. وهذا يعود من جهة لضعف المغرب آنذاك وللاضطرابات التي عرفتتها الدولة العثمانية والتي أصبحت آنذاك أكثر انغلاقا وبعدا عن الحداثة بسبب تأثير المتدينين. أما «فرانسوا لاربر»، المستشار الثقافي الأسبق لدى السفارة الفرنسية بالمغرب، فيترأس جمعية تعنى بجمع الوثائق الخاصة بالفرنسيين الذين عاشوا وعملوا في الدول المتوسطية إبان أوج الإمبراطورية الفرنسية والفترة التي تلتها في إطار اتفاقيات التعاون. وتهدف هذه الجمعية إلى إعادة رسم المسار الشخصي لهؤلاء الأفراد وتفاذي ضياع أرشيفاتهم المهنية والتي حملوها، في الغالب، معهم إلى فرنسا. وعزز «فرانسوا لاربر» ما قدمه بأمثلة عن عمل الجمعية خاصة تلك المتعلقة بالمغرب، وهو البلد الذي يكن له ودا كبيرا.



كما بين البروفسور «إغناسيو غوتيريز دوتيران»، المترجم وأستاذ اللغة العربية بجامعة مدريد أن أسلوب التعبير، أي باختصار البعد اللغوي، لا يفتأ يخلق تباعد تكذبه في الواقع المودة التي يكنها الإسبان لدول الفضاء المغربي، وبشكل خاص المغرب. كما يراهن بدوره على إعادة كتابة تاريخ واضح من أجل تسليط الضوء وإعادة بناء وترميم الذاكرة المضطربة في حاضرتنا هذا، بسبب مصالح قصيرة المدى. ولعل الطابع الاستعجالي لقضية الهجرة، والتي هي إنسانية بالدرجة الأولى، تحجب الضرورة المطلقة للعمل معا على عمق الأشياء وتثبيت ذاكرة مشتركة. كما أن هذه القضية تحظى بالإجماع بخصوص الحاجة إلى تعليم يعتمد الثقافة والتثاقف في كلتا ضفتي المتوسط، على اعتبار أن مستقبل هذا البحر لا يمكن أن يكون إلا حضاريا.

مداخلات المائدة المستديرة

ميلود الوكيل

مرحباً، نفتح الآن أشغال هذه المائدة المستديرة. اسمحوا لي بداية أن أعرف بنفسني، أنا من أبناء هذه المنطقة، أنحدر من مدينة صغيرة تبعد سبعة وثلاثين كيلومتراً عن مكاننا هذا وتدعى أحفير أو «مارتينبري دي كيس» كما كان يسميها الفرنسيون. ويقع منزل عائلتي على بعد خطوات فقط من مقابر إخواننا وأصدقائنا الجزائريين. أنا أستاذ القانون الدولي، قانون البحار على وجه التحديد، وأنا أيضاً رجل بحر. في الحقيقة، أنا اليوم جد سعيد بمقابلة زملاء لم تسنح لي فرصة لقائهم من قبل. وبصفتي رجل بحر، سأستخدم مصطلحات البحر، إذا لقد قمت للتو بصيد رائع، فقبل عشر دقائق فقط، التقيت بشخص لم أره منذ فترة طويلة وسيسرني أن أقدمه لكم بعد قليل. تدرج هذه المائدة المستديرة ضمن فعاليات الحدث الكبير الذي تستضيفه مدينة وجدة بمناسبة انتخابها «عاصمة الثقافة العربية». وبينما كنت منهمكاً في التفكير في موضوع اليوم، استحضرتني أغنية لأحد أبناء الفضاء المتوسطي، والذي رحل عنا قبل بضع سنوات، سنة 2013، على ما أعتقد، ولد في الإسكندرية من أصول يونانية وتوفي في «نيس». لعلكم عرفت من يكون، إنه «جورج موستاكي» صاحب أغنية «المتوسط». اسمحوا لي أن أقرأ عليكم مقطعاً من هذه القصيدة :

«على ضفاف المتوسط

تفوح رائحة الموت،

على ضفاف المتوسط

دول تحتضر في صمت

وتبتن تحت وطأة الجروح،

على ضفاف المتوسط

جزر مسجونة

خلف أسلاك شائكة»

في الحقيقة، إن هذا المقطع بمفرده يلخص موضوع المائدة المستديرة التي تجمعنا اليوم، والتي أنشرف بتسيير أشغالها. ويعتبر المتوسط منذ القدم مهداً للإنسانية والحضارات وملهماً للفلاسفة؛ واسمحوا لي بالمناسبة أن ألقى التحية على صديق عزيز وفيلسوف كبير يحضر معنا اليوم، هو السيد علي بنمخلوف. البحر الأبيض المتوسط، «ماري نوستروم» (بحرنا)، الذي ما انفك يؤثث مخيلتنا كمتوسطين، هو اليوم يتحول ويتغير ليصبح «ماري مونستروم» (البحر الوحش)، وليصبح بحراً يحتضر ومصيدة للموت. وهذا يبرر اختيارنا لعنوان هذه المائدة المستديرة. فقد أصبح المتوسط مقبرة بحرية مفتوحة، بل هي المقبرة البحرية الأكبر في العالم. سوف نعود للحديث عن موضوع الهجرة لكن بعد أن أقدم لكم السادة المشاركين في هذه المائدة المستديرة. السيد «فرانسوا لاربر»، رجل يعرف المتوسط حق المعرفة، والمغرب على وجه الخصوص، فهو الذي اتخذه مقاماً لعدة سنوات. حيث كان مستشاراً ثقافياً لدى السفارة الفرنسية بالمغرب، وهو اليوم فاعل جمعي ورئيس جمعية «إكس-أون-بروفانس» التي تهتم بقضايا الذاكرة، وبالذاكرة المتوسطية خاصة، وبكيفية الحفاظ على هذه الذاكرة لأجيال الحاضر والمستقبل.

السيد «إغناسيو كوتيريز دوتيران»، وهو شخص تجمعنا به قرابة. جاءنا من بلد نحبه، لا يبعد سوى بضع كيلومترات، هو مدرس للغة العربية بجامعة مدريد وسيحدث إليكم بالعربية. قام السيد «إغناسيو» بترجمة العديد من الكتب والمسرحيات من العربية إلى الإسبانية، وهو حالياً باحث في كل ما يتعلق بالمتوسطي والقضايا المتوسطية والعالم العربي خاصة.

الآن، أقدم لكم الشخص الذي أسعدني لقاءه كثيرا، الأستاذ مصطفى الحسني الإدريسي. هو زميل في قسم الآداب والعلوم الإنسانية ويدرس التاريخ في كلية علوم التربية بالرباط. قام بنشر العديد من الكتب، من بينها الكتاب الذي سنتناوله اليوم تحت عنوان «البحر الأبيض المتوسط، تاريخ للتقاسم». أستاذنا كم أن أعطي الكلمة أولا للسيد مصطفى الذي سيحدثنا عن موضوع يهمنا بشكل مباشر وقد عنون مداخلته «مفهوم الحداثة بين الضفتين الشمالية والجنوبية خلال الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر».

مصطفى الحسني الإدريسي

شكرا. أود أن أقدم توضيحا بخصوص هذا الكتاب حول المتوسط، فهو في الحقيقة عمل مشترك ساهم في كتابته عدة كتاب مؤرخين وأساتذة التاريخ من أوروبا ومن دول جنوب المتوسط. وقد أشرفت شخصيا على تنسيق العمل كما ساهمت في إنجاز هذا الفصل المتعلق بالعصر الحديث. السؤال الذي اعترضنا : هل ينطبق مفهوم العصر الحديث على كل مناطق المتوسط ؟ في الواقع فإن الحدود الزمنية المعتمدة في الشمال لهذه الحقبة ليست نفسها في الجنوب. فبينما يعتبر عام 1492 بداية العصر الحديث في الشمال والثورة الفرنسية عام 1789 نهايته، فإن تأريخ بداية هذا العصر في الجنوب، إبان حكم الدولة العثمانية تحديدا، يعود لعام 1453 ونهايته لعام 1798 مع الحملة الفرنسية على مصر. إذا، فالحدود الزمنية ليست متطابقة. لكن السؤال الذي كان يراودني حول هذه الحقبة هو: هل ينطبق مصطلح «الحديث» على المنطقة المتوسطية كلها ؟ في الحقيقة هناك فهمين مزدوجين مختلفين. حيث يرى البعض أن مفهوم الحداثة لا ينطبق إلا على الضفة الشمالية من المتوسط والتي عرفت آنذاك انتقالا من العصور الوسطى إلى فترة تجديدية في مختلف المجالات الثقافية والعلمية والتقنية وغيرها. ويعتبر أصحاب هذا الطرح أن الضفة الجنوبية عرفت جمودا وركودا تاما في ذلك الوقت. في المقابل، يقدم آخرون تفسيراً مغايراً، لاسيما الأمريكي «هوبسون» الذي يعتبر أن الحداثة سيرورة تهم كل مناطق العالم وأن أوروبا كانت متقدمة بضع خطوات في هذا المجال، لكن هذه السيرورة الحداثية لم تكن حكرًا عليها.

كيف يمكننا إذا أن نحلل هذه الحداثة ؟ بداية، يجب أن نميز بين حقبتين في الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. فقد عرف القرن الخامس عشر والسادس عشر تكافؤا بين الضفتين الشمالية والجنوبية بينما بدأت الفروقات والتباعد وعدم التكافؤ تطفو على السطح خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد شهد النصف الأول من هذه الحقبة بوادر الحداثة مع ظهور الحركة الإنسانية التي أطلقت النهضة الفكرية في أوروبا. حيث كانت أهداف الحركة الإنسانية تتمحور حول إصلاح المجتمع وإحداث تغيير سياسي وتحفيز البحث العلمي. كما عرفت تلك الفترة نهضة فنية مقارنة بالعصور القديمة موازاة مع أزمة دينية، حيث بدأت الكنيسة تواجه الانتقادات وانفصال الكثيرين عنها والتشكيك في دورها، كما اتجه الناس للبحث عن طريق الخلاص الفردي والتخلص من وساطة الكنيسة. ثم جاءت الاكتشافات العظيمة التي ساهمت في توسع الأوروبيين، لاسيما اكتشاف القارة الأمريكية (والتي كانت معروفة قبل ذلك بالفعل). إذا، يمكننا القول بأن الضفة الشمالية جسدت تأكيد الفرد على استقلاليته وحريته في تقرير مصيره من خلال هذا التقدم الإنساني والفني والجغرافي وغيره. وهو في الحقيقة أمر جديد إذا ما قارناه بالوضع في العصور الوسطى. وبالنسبة للضفة الجنوبية للمتوسط، نلاحظ وجود شيئين مختلفين، من جهة، التدهور الكبير الذي عرفه المغرب والمغرب الكبير في الغرب بعد احتلال مدينة سبتة عام 1415، ثم احتلال السواحل المغربية من طرف البرتغال وإسبانيا في الشمال، ومن جهة أخرى، التقدم الذي أحرزه الشرق في الجانب التركي والذي نجح في غزو امبراطورية شاسعة وما تلا ذلك من سقوط القسطنطينية في يد الأتراك. واستمر احتلال السواحل المغربية رغم الانتصار فيما يعرف بمعركة «الملوك الثلاثة» (معركة وادي المخازن). وفي الواقع، فإن هذه المعركة تحجب نقاط ضعف المغرب بتصويرها إياه كدولة قوية في حين أنه لم يكن كذلك إذ لم يتمكن حتى من تحرير سواحله آنذاك.

في المقابل، منيت الإمبراطورية العثمانية بهزيمة كبيرة في معركة «ليبانت» عام 1571. غير أن ذلك لم يمنع الأتراك من مواصلة غزوهم لأراضي جديدة لا سيما في البلقان والأقاليم العربية في مصر وصولاً إلى حدود المغرب. وبخصوص المغرب، يميز عبد الله العروي على المستوى الثقافي بين مغرب ما قبل القرنين الخامس عشر والسادس عشر وما بعدهما. حيث يعتبر أن الثقافة المغربية كانت ثقافة علمانية أو بالأحرى حضرية نتيجة للعلاقة الأفقية التي كانت تربط المدن المغربية بنظيرتها في العالم العربي الإسلامي. لكن الترابط الثقافي تحول فيما بعد إلى علاقة عمودية بين الحواضر والبادي. فتخلّى المجتمع المغربي عن الثقافة العلمانية وتمركزت النخبة الثقافية، التي أصبحت تتكون بالخصوص من المدرسين ورجال السلطة والتربية، في البوادي والجبال المحيطة. وقد تأثرت الإمبراطورية العثمانية كثيراً بالثقافة الأوروبية بحكم انفتاحها وعلاقتها الوطيدة مع أوروبا خلال القرن السادس عشر. سأسرد لكم اقتباساً من «فرنان بروديل» يصف فيه بعض مظاهر الحداثة التي عرفتها الإمبراطورية العثمانية، حيث يقول إنها كانت إمبراطورية تسودها بيروقراطية متعددة، دقيقة، تقدمية، وقادرة على إنجاز إحصاءات مفصلة، وتصميم سياسة داخلية متماسكة، وجمع احتياطي هائل من الذهب والفضة، وقادرة على شن استعمار ممنهج من خلال توطين البدو، وإرساء نظام العمل الجبري، وحشد جيش مذهل يخضع لتدريبات قاسية. في الحقيقة فقد كانت تعرف مظاهر حداثة غربية وكان البلقان يرون أن أوروبا تميل نحو الإمبراطورية.

إذا، كيف يجب أن ننظر لهذه الحداثة؟ هل هي بالفعل نتيجة لقرب الإمبراطورية العثمانية الجغرافي أو أن الأمر، كما يقول «هوبسون»، يكمن في أن الحداثة ليست ظاهرة أوروبية فقط بل تمتد لباقي مناطق العالم؟ علماً أن الأتراك لطالما أبانوا عن قابلية أكبر للتأثر الثقافي بأوروبا، إضافة لاستفادتهم من الثروات المادية والنمو الديموغرافي، حيث قاموا ببناء منشآت معمارية مهمة. لكن رغم أن الحياة الفكرية كانت تعرف حركية، فقد كان هناك عوز في الإبداع الفكري. وبالنسبة للجزء الثاني من هذه الحقبة، أي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، سوف تبدأ الهوية في الاتساع بين الضفة الشمالية التي واصلت التقدم نحو الحداثة والضفة الجنوبية التي عرفت تأخراً متزايداً. فقد شهدت الضفة الشمالية خلال القرن السابع عشر حركة فلسفية وعلمية مهمة تميزت بظهور مفكرين مثل «كأليلي» و«لوك» و«هوبز» و«باسكال» و«سبينوزا» و«ديكارط». وقد كانت هذه الفترة ذات أهمية كبيرة في المرحلة ما بين عصر النهضة وعصر الأنوار في القرن الثامن عشر والذي سيعرف بدوره بزوغ شمس «فولتير» و«مونتيسكيو» و«ديدرو» و«روسو» وغيرهم. كما أنه عصر اتسم بالفصول وال اكتشافات العلمية التي ساهمت في ظهور الآلة البخارية وتقدم الثورة الصناعية. موازاة مع ذلك، عرفت الساحة السياسية ثورتين مهمتين في إنجلترا، وهي بلد غير متوسطي، لكن هاتين الثورتين الأوليتين في الفترة 1642-1649 والفترة 1688-1689 أدتا لإنهاء الحكم المطلق والنظام الملكي القائم على الحق الإلهي. ثم جاءت الثورة الفرنسية التي تجاوز صداها المستوى الوطني ليطال كل القارة الأوروبية من خلال تأكيد حق الشعوب في تقرير مصيرها. كما كان لهذه الثورة آثار أخرى أدت لاندلاع حروب لاحقة بقيادة «نابوليون بونابارت». لكن، ما الذي سيؤدي لتزايد تخلف الضفة الجنوبية والإمبراطورية العثمانية خاصة؟ في الحقيقة فإن تداعيات التقليد الأعمى للغرب الذي ساد القرنين الخامس عشر والسادس عشر ستبدأ في الظهور خلال القرنين المواليين لاسيما مع الضغط الذي كان يمارسه المتدينون على السلطة والتي أصبحت أكثر تأثراً بالجانب الديني بعد غزو المناطق العربية باستثناء المغرب. حيث عرفت الإمبراطورية العثمانية تعزيزاً للبعد الديني وهو ما أدى لمنع استعمال المطابع باستثناء الأرمنيين الذين سمح لهم باستعمالها فقط في طباعة اللغات التي لا تكتب بالحروف العربية. وبالتالي فحتى اللغات الفارسية أو التركية لم يكن مسموحاً بطباعتها. وقد استمر هذا الحظر حتى بداية القرن الثامن عشر. كما يمكن تفسير هذه السمة الدينية المترسخة في الإمبراطورية العثمانية بصراعها ضد الشيعة، ما أدى لانغلاق المذهب السني العثماني على نفسه وإعلاء شأن المتدينين. وبذلك انتقل المجتمع العثماني من تقبل الثقافة الغربية إلى احتقارها، وهو ما لم يكن موجوداً قبل ذلك.

بالطبع كان هناك انفتاح على المجال التقني خاصة فيما يتعلق بالأسلحة، نظرا للاعتقاد بضرورة التسلح لمحاربة الكفار. لكن يمكن تفسير هذه العزلة والانغلاق أيضا بتزايد هيمنة الجماعات الإسلامية على مراكز السلطة في الدولة العثمانية، بينما كان غير المسلمين يلعبون دورا مهما في السابق. كما شكل حاجز اللغة وعدم الانفتاح على اللغات الأجنبية عاملا أساسيا في تفاقم الوضع. كما أن احتقار الغرب كان ينبع من القناعة بأن الإسلام هو أفضل الأديان. صحيح أن باقي الديانات كانت معترفا بها، لكنها كانت تعتبر أدنى مرتبة من الإسلام. وهو ما سيؤدي للتشكيك في تفوق العثمانيين خاصة مع توالي هزائمهم منذ مطلع القرن السابع عشر، رغم استمرارهم في التواصل مع أوروبا. ولم ينجل هذا الانغلاق إلا خلال فترة ما يعرف بـ «حقبة التوليپ» التي امتدت من عام 1718 إلى عام 1730. حيث تم السماح خلالها باستعمال المطابع عام 1727 في كل المجالات عدا المنشورات ذات الطابع الديني. في الواقع، لم يكن يسمح حتى باعتماد الحساب الميكانيكي للزمن لأنه قد يمس بمكانة المؤذن. وبالتالي فقد كان الأمر محاولة من المتدينين لحماية مكانتهم الاجتماعية. ختاماً، أعتقد أن حملة مصر سنة 1798 كانت حدثاً محورياً لأوروبا، حيث مثلت بداية التوسع نحو جنوب المتوسط وما تبعها من احتلال الجزائر عام 1830، وأيضاً للمتوسط، الذي عرف تراجعاً خلال العصر الحديث. لكنها بالمقابل كانت فترة مهدت لإنشاء قناة السويس التي ستعيد بعض الحيوية للمتوسط.

ميلود الوكيللي

شكرا جزيلا زميلي العزيز على هذه اللحة التاريخية المتكاملة. بالاستماع إلى حديثكم ندرك أن التاريخ يعيد نفسه، فنحن ما زلنا اليوم نتخبط في نفس الإشكاليات. لقد أشرتم في عرضكم إلى فترة من التكافؤ بين الضفتين الشمالية والغربية للمتوسط، خاصة خلال القرنين السادس عشر والثامن عشر، ثم الفترات التي عرفت فيها الضفتان تباعدا وعدم تكافؤ حقيقي بدءا من القرن الثامن عشر. وتكمن أهمية الطرح الذي قدمتموه في أنه يمكننا من فهم ما نعيشه اليوم. كما أنني أجد خاتمة عرضكم مهمة جدا، لأن حملة «نابوليون» عام 1798 شكلت بالفعل بداية الغزو المتوسطي والذي عرف أوجه بدءا من عام 1830 مع احتلال فرنسا للجزائر. أعطي الكلمة الآن للسيد لاربر.

فرانسوا لاربر

سوف أتحدث عن كيف يتغير التاريخ عندما نجعله جزءا من الذاكرة. لقد تنقلت بين مهن مختلفة ثم قضيت بضع سنوات في المغرب أمارس وظائف جعلتني أتعلق بهذا البلد. وقد أصبحت بمحض الصدفة رئيس جمعية في «ايكس-اون-بروفانس»، ربما بسبب ترددي الدائم عليها. وهي جمعية تابعة للدار المتوسطية لعلوم الإنسان التي يعرفها بعضكم، خاصة من خلال معهد البحث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي، وتهدف أيضا لحفظ الذاكرة التي تم تجميعها خلال القرنين الماضيين من العائلات أو من الفرنسيين الذين سنحت لهم فرصة العيش في حوض المتوسط، سواء في المغرب الكبير أو في المشرق أو حتى في الجانب الأوروبي. كان هذا الهدف وليد الظروف، فبعد وفاة العديد من المثقفين والباحثين والعسكريين والإداريين الذين عايشوا الحقبة الاستعمارية الفرنسية في حوض المتوسط، وربما فترة التعاون التي تلتها، لا ندري ما الذي يحدث للأرشيفات والأوراق والأعمال التي قاموا بتطويرها، ومجموعة الأعمال الفنية، والمخطوطات ومختلف الوثائق التي يخلّفونها وراءهم. إذا، هدف الجمعية الحفاظ على هذه الذاكرة وتحويل ذاكرة العائلة لذاكرة جماعية حقيقية. وبالتالي نقل مجموع هذه الأعمال من العائلات إلى أعمال عمومية داخل مؤسسات حفظ الأرشيفات والمكتبات والمتاحف. يمكنني أن أسرد بضعة نماذج عن الأعمال التي قمنا بها، أحد هذه الأعمال أثر في نفسي بشكل خاص لكونه يتعلق بالمغرب. أعتقد أن بعضكم قد شاهد معرضا عن الفنان الفرنسي «تيوفيل-جون ديلاي» الذي كان عسكريا، فنانا ورسام الخرائط الذي رسم خرائط المغرب في سنوات الحماية؛ والذي أقيم في المكتبة الوطنية للمغرب بمدينة الرباط منذ حوالي سبع أو ثمان سنوات.

كما أن «ديلاي» كان يرسم ويصور كل ما يراه وكل ما يكتشفه. حتى أنه أصبح واحدا من المغاربة. وكانت عائلته تقيم في المغرب ولم تغادره إلا مؤخرا. لقد ترك مجموعة مهمة من الأعمال تتضمن أكثر من ألفي لوحة بالألوان المائية والغواش أنجزت على مدى أكثر من أربعين عاما قضاها في المغرب. إضافة إلى مئات الخطاطات الأولية للخرائط وخرائط مرسومة يدويا رسمها تدريجيا أثناء تنقله في أرجاء المغرب. كما أن «ديلاي» كان يلتقط صورا من الجو مستعينا بنظام صممه لتحويل الصور إلى خرائط. في الحقيقية إنه عمل جبار سواء على المستوى العلمي أو الفني، وهو ما حاولنا تقديمه في معرض الرباط. وكان من المحتمل أن يضيع هذا العمل بين أفراد عائلة «ديلاي»، لأن أقرباءه بدأوا يرحلون تباعا، ولم يكن أبناء عمومته على وفاق، وبالتالي كان هذا العمل سيضيع بين الأجيال. كانت هذه الكميات الهائلة من الوثائق موزعة في ثلاثة منازل للعائلة.

بفضل عملنا، نجحنا في تحقيق إنجاز، يتم في هذا الوقت بالذات، وهو أن متحف حضارات أوروبا والمتوسط في مدينة مارسيليا تسلم جزءا كبيرا من إرث «تيوفيل-جون ديلاي»، فأصبح بذلك إرثا محفوظا للأبد وسيتم إلحاقه بمجموعة أعمال عمومية. ويسعدني أن أكشف لكم خبرا جديدا، لم يعلن عنه رسميا بعد لكن ذلك سيتم قريبا، وهو أن عائلة «تيوفيل-جون ديلاي»، في شخص حفيده الأكثر نشاطا في هذا المجال، قرر التبرع للمغرب ببعض أعمال جده تكريما للحب الذي كان «ديلاي» يكنه للمغرب ومكانة البلد المهمة للعائلة. لم يتم تحديد الشكليات بعد ومازال الأمر مجرد تعبير عن النوايا، لكنني أعتقد أن هذا سيتحقق خلال الأشهر القادمة.



كانت هذه نبذة عن الأعمال التي تقوم بها جمعية الذاكرة المتوسطية بفضل شبكة العلاقات العامة التي نجحت في تكوينها. حيث تضم الجمعية حوالي مائة من الأعضاء والأنصار، جميعهم جامعيون سابقا أو حاليا وباحثون ومتخصصون في دراسة العالم العربي والمتوسط واللغة البروفانسالية وغيرها من لغات المنطقة المتوسطية، يحاولون معا منع اندثار هذه الذاكرة التي تكونت خلال سنوات الوجود الفرنسي في حوض المتوسط. وهذا ليس سوى جزء بسيط من القضايا التي تشغلنا. لكن كما قال المتدخل الذي سبقني، أعتقد أن صياغة عنوان هذه الجلسة «المتوسط : بين الثقافة والمجهول» ليست بريئة. حيث أن التاريخ قد يجعلنا ندرك نسبة الكثير من الأشياء.

هناك حملات تحسيسية واسعة اليوم حول الوفيات التي تحدث في عرض البحر المتوسط. لكنني أتساءل : ألا تعرف هذه الوفيات في الحقيقة أدنى مستوياتها اليوم ؟ ألم تكن أعداد الوفيات في المتوسط أعلى إبان معركة «ليبانت» التي ذكرت قبل قليل أو معركة «سلامين» أو عندما فقد «داريوس» جيشه في معبر البوسفور أو عندما غرقت سفينة ملك فرنسا أو داي الجزائر حاملة معها ثلاثمائة من الرجال المكبلين نحو قعر المتوسط ؟ إن المتوسط هو بالفعل عبارة عن مقبرة شاسعة. وربما هذا سبب آخر يجعلنا نحترمه ونعطي قيمة لكل ما من شأنه المساهمة في حفظ ذاكرته.

ميلود الوكيللي

شكرا السيد لاربر على هذه المداخلة المهمة حول الحفاظ على الذاكرة. في الحقيقة، أجد أن منهجيتكم مهمة للغاية وأعتبر جمعيتكم وشخصكم صلة وصل بين الضفتين. فيفضل عملكم بتواضع ولكن بفاعلية، أنتم تسعون لعقد صلح بين الذاكرات. كيف يمكننا الحفاظ على شعلة الذاكرة متقدة ؟ كيف نقبض على الجمر، بالمعنى الإيجابي للكلمة، لتبقى الذاكرة حية ؟ هذا ما نحتاجه بالفعل، إنه أمر في غاية الأهمية للأجيال القادمة على وجه الخصوص. أتفق معك في أنه يجب إدراك نسبة الأشياء، لكن علينا أيضا أن نؤكد على أن أوروبا التي عرفناها، والتي سرد زميلي تاريخها ببراعة قبل قليل، أوروبا التي شهدت عصر الأنوار والقيم العالمية كحق الشعوب في تقرير مصيرها والمساواة والأخوة والحرية وغيرها، بدأت الآن تتطوي على نفسها. فهناك للأسف حركة شعبية حقيقية تقوم على نبذ الآخر. ولهذا، فعندما نتحدث عن كون المتوسط مقبرة، يجب أن نحدد الأسباب الحقيقية للمشاكل. سوف نعود لاحقا لمناقشة هذه الإشكالية. أجدد شكري لكم على ما تقومون به من مجهودات، وأؤكد أن مداخلتكم تشكل قيمة مضافة لأشغال هذه المائدة المستديرة. والآن، اسمحوا لي أن أعطي الكلمة للسيد إغناسيو غوتيريز دوتيران الذي قدم من إسبانيا، البلد الشقيق والصديق. شخصيا، أعتقد أنه علينا إعادة النظر في علاقاتنا بروية. لقد تحدث السيد الحسن قبل قليل عن الغزو واحتلال السواحل المغربية من طرف القوى الأجنبية، خاصة إسبانيا. وأعتقد أنه علينا الآن التخلص من العقد والحديث بصراحة عما يجرحنا لكن بنية تأسيس مستقبل أفضل لبلدنا. أخي وزميلي، لكم الكلمة.

إغناسيو غوتيريز دوتيران

شكرا، أولا أريد أن أشكر اللجنة المنظمة على هذه الدعوة الجميلة، سوف أتطرق إلى الموضوع ثم أتحدث بعد ذلك عن الاحتلال والغزوات التي جرت في المنطقة. فما الذي خلق هذا التباعد بيننا على الرغم من المسافة الجغرافية البسيطة التي تفصلنا ؟ كيلومترات فقط تفصل جبل طارق عن الساحل المغربي، لكننا متباعدون. هذا أمر مؤسف للغاية، ولا بد أن نقر به. لماذا وصلنا إلى هذه المرحلة ؟ هذا سؤال كبير. ولماذا نولي ظهرا بعضنا لبعض، وكأننا نتجاهل بعضنا، وكأن هناك حاجزا كبيرا بيننا علما بأن المسافة بسيطة ويمكن أن نقطعها في غضون ثلاث ساعات على متن سفينة سريعة. إنها المسافة الأقرب بين قارتين في العالم. ولكن أكرر هذه المقولة الحبلية بمشاعر الحزن والأسى : نحن متباعدون على الرغم من قربنا الجغرافي. كانت هذه قراءة نظرية للموضوع، أما في الواقع، فأنا أقول دائما للإخوان المغاربة والجزائريين والتونسيين، إنني كإسباني وكالكثير من الإسبان، أحس بقربة وبود متصل عندما أسافر إلى المغرب، على الرغم من أننا جئنا في يوم من الأيام كمحتلين. هناك علاقة متينة تجعلنا نؤمن بأننا أقرب إلى المغرب والجزائر وتونس منا مثلا إلى دول أوروبية لا أريد أن أذكرها حتى لا أشير إلى بعض الأمور الحساسة. ولكن هناك دول أوروبية لا نحس اتجاهها، نحن كإسبان، بهذه القربة وبهذه العلاقة التي تربطنا بالمغرب. ولكن يبقى هناك إحساس بوجود فوارق كثيرة. وهذا يقودنا إلى مفارقة أخرى كما تحدث الأستاذ مصطفى عن تطور المتوسط تاريخيا وتواتر «الخلافت» والدول التي سيطرت عليه، وخصوصا الخلافة العثمانية.



في وقت من الأوقات، كنا ننظر للمتوسط كحوض مشترك، لذلك كنا نسميه «ماري نوستروم». لكنه تحول الآن إلى بحر احتلته الحدود والقيود والموانع. هذه مسؤولية تقع في المرتبة الأولى على عاتق ما يسمونه بالضفة الشمالية، والتي لم يكن لها وجود كما لم تكن هناك ضفة جنوبية، فقد كان في البحر المتوسط ضفة واحدة في السابق. واليوم، تقودنا اللغة أيضا إلى تبني مثل هذه التسمية، وهذا مما يؤسفنا. هناك مفارقات عديدة تتعلق بالمتوسط. مثلا، فيما يتعلق بعنوان هذا اللقاء، حيث يقول العنوان باللغة الفرنسية شيئا وبالعربية شيئا آخر. لا أقول إن هناك تناقضا ولا أريد أن أقول بأن سوء فهم وقع عند ترجمة العنوان. ولكن هذا الخلاف مفيد لأنه يقودنا، ربما، إلى أحد المشاكل التي يعاني منها البحر الأبيض المتوسط. فالعنوان باللغة العربية يتحدث عن «الثقافة والمجهول»، بينما يتحدث باللغة الفرنسية عن «الثقافة والمقبرة». في الحقيقة فإن العنوانين يحيلان على موضوع الهجرة بطرق مختلفة: المجهول، لأننا أصبحنا نتجاهل بعضنا البعض، ثم نتناسى تاريخنا المشترك، وهذا أحد الجوانب الأساسية في هذه الكارثة، لم نعد نتذكر التاريخ الذي يمكن أن يعلمنا الكثير فيما يخص علاقتنا كلنا كمتوسطين. هناك أيضا مفارقة أخرى، أنا لا أعرف هل هذه الفكرة صحيحة، ولكنني أعرف أن المغاربة يطلقون على المضيق مصطلح «البوغاز»، أليس كذلك؟ لطالما استوقفني هذا الأمر لأن المغرب هو الدولة العربية المتوسطية الوحيدة التي لم تكن جزءا من الخلافة العثمانية ولكن هذه العبارة تستخدم في الدولة وفي المجتمع والمسميات العامة. هذا يؤكد لي أهمية الخلافة العثمانية والوجود العثماني في المنطقة. وهذا ما تفضل به أيضا الأستاذ مصطفى فيما قاله عن تأثير الخلافة العثمانية في المنطقة. البحر الأبيض المتوسط لم يصبح مقبرة فحسب وإنما مزبلة. وهذه قضية أخرى قليلا ما نتحدث عنها ولا بد أن نشير إليها. هناك مواطنون يموتون على الضفة وحتى في عرض البحر، ولكن هناك أيضا حياة بحرية تموت في البحر الأبيض المتوسط. إذا استمرت الأمور على هذه الوتيرة فلن يكون هناك بحر متوسطي حي بعد عقدين أو ثلاثة عقود من الزمن، هذا أمر مؤكد. هناك مؤسسات وجمعيات انتبعت إلى هذه المسألة، وبدأت تعمل على تنقية مياه البحر الأبيض المتوسط وإعادة بعض أنواع السمك إليه ومحاربة المشكل الرئيس ألا وهو ارتفاع درجات الحرارة في البحر الأبيض المتوسط. للأسف الشديد فهذه الهموم وهذه الاهتمامات لا تصب في معالجة المشكلة الأكبر التي هي مشكلة إنسانية بالأساس. وأحيانا يبدو وكأننا نستغرق في هذه الأمور، التي هي في غاية الأهمية أيضا، ولكننا نغفل المسألة الإنسانية التي هي المسألة الرئيسية. كما نعلم جميعا، فقد مر تاريخ المتوسط بمراحل كثيرة، لا داعي لسردها مرة أخرى.

لكن بالنسبة لي، فأحد المشاكل الأكثر تأثيراً في تطور الأوضاع في البحر الأبيض المتوسط هو أن بعض الدول في فترات زمنية معينة انفصلت بطريقة أو بأخرى، ولم تعد تولي اهتماماً رئيسياً للبحر الأبيض المتوسط كإسبانيا على سبيل المثال. كما نعلم، فقد توجهت إسبانيا إلى أمريكا بسبب وجود الخلافة العثمانية، التي كانت تهيمن على المسالك البحرية في البحر الأبيض المتوسط. وعندما وصل الإسبان إلى أمريكا واستوطنوها لمدة قرون، كان كل اهتمامهم منصبا على القارة الجديدة وأهملت إسبانيا إلى حد ما البحر الأبيض المتوسط. كذلك الأمر مع فرنسا، والتي لم تظهر بكل ثقلها في المنطقة إلى حدود القرن التاسع عشر مع بداية مشروعها الاستعماري في المتوسط، نفس الأمر ينطبق على باقي دول الضفة الأوروبية. كما أن الخلافة العثمانية أيضاً اهتمت بالبحر الأبيض المتوسط، ولكن بعد القرن الثامن عشر كانت اهتماماتها موجهة إلى قضايا أخرى تهمها أكثر: الشرق الأوسط أو المناطق التي أصبحت روسيا مثلاً تهيمن عليها تدريجياً، لدرجة أن الخلافة العثمانية أصبحت في خطر كبير، ولكن ليس من ناحية الغرب وإنما من ناحية الشرق. ومن ثم حدث هذا الاندفاع الفرنسي نحو المنطقة.

لقد أصبح هذا البحر الآن كأنه مقبرة أو منطقة تقطعها حدود في كل مكان. وهذا غريب ومؤلم بالنسبة لنا جميعاً، خصوصاً لبعض الدول الأوروبية التي تناست التاريخ وتناست كيف كان البحر الأبيض المتوسط حوضاً فيه حركية بكل الاتجاهات، من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب. فكلنا نتحدث عن الغزوات الإسبانية، فلماذا لا نذكر الحركات والغزوات التي جاءت مثلاً من جنوب إفريقيا وقرطاج وغيرها؟ إذا كنا سنستخدم عبارة الاحتلال بمفهوم ينطبق فقط على الفترة الاستعمارية، فلا أعرف لماذا لم توصف تلك الأخيرة بالاحتلالات. فلم أسمع أحداً يقول إن القرطاجيين أو الفينيقيين احتلوا منطقة قرطاجنة، هذه المنطقة الصغيرة على الساحل الشرقي الإسباني، وهذا أمر لا يجوز. وأنا لا أقول مثلاً إن الموحدين احتلوا إسبانيا عندما جاؤوا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية لمساعدة الأندلسيين، وقبلهم المرابطين. ونعلم جيداً أن ممالك الطوائف وبعض الحكام العرب والأمازيغ في الأندلس اشتكوا كثيراً من وجود المرابطين أولاً وخصوصاً الموحدين، لدرجة أنهم كانوا يعتبرون وجودهم إشكالاً أكثر منه حلاً.

أريد أن أقول إنه حتى وقت قريب، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت هناك حركة ذهاب وإياب، ثم بعد ذلك بقيت هناك حركة فقط من الشمال إلى الجنوب، وهذه إشكالية كبرى. لمدة أربعة قرون، كانت هناك حركة ذات اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب، ولم نر رد فعل من قبل البلدان العربية التي تمثل الأغلبية في الضفة الجنوبية. وهذه مشكلة لم تحل ولم نعالجها بالطرق المناسبة. والآن نرى حركة إنسانية بشرية تريد أن تعيد المعادلة إلى مكانها الصحيح، هي أن نعود من الجنوب إلى الشمال. والشمال يرفض هذا الأمر لأسباب مادية أنانية وكاذبة في بعض الأحيان. وهذا يعود بنا إلى التاريخ، ومرة أخرى نتحدث عن التاريخ، فكيف تناسينا هذا التلاحق وهذا الوجود المشترك، خصوصاً وأن دولاً أوروبية كإيطاليا وإسبانيا على رأسها، كانت تصدر المهاجرين إلى الدول الأخرى إلى وقت غير بعيد، وقد رحلت إسبانيا مئات الآلاف من المواطنين الإسبان، اليهود أولاً ثم المسلمين ثانياً وفرضت عليهم المنفى والرحيل إلى الجهة الأخرى، إلى إسطنبول ومناطق أخرى. ثم بدأ الإسبان بالهجرة إلى أمريكا اللاتينية وكذلك الإيطاليون إلى القارة الجديدة في شمال أمريكا. فكيف تناسينا كل هذه الأمور؟ لأننا تناسينا التاريخ وتناسينا دراسته وأصبحت المصالح المادية تفرض نفسها على المصالح الأخرى، وعلى الشراكة الإنسانية.

أنا أريد أن أختم هذه المداخلة البسيطة بإشارتين. فبالإضافة إلى هذه الأسباب التاريخية والجيوسياسية، هناك أسباب تتعلق بالشعارات. فأحياناً نستخدم كثيراً مصطلح المتوسط، نحن متوسطيون، وبصراحة لا أعتقد أن الكثير يعرف جيداً ما معنى المتوسطية، ونحن نستخدم عبارات كثيرة من هذا النوع. ولكن ربما الشعار أخفى كثيراً من الواقع ومن الحقيقة الملموسة فيما يتعلق بالعلاقة بين الأشخاص الذين يسكنون والذين يقطنون في هذه المنطقة. هذا أمر خطير جداً، لأنه في إسبانيا مثلاً، لدينا مشكلة مع مصطلح المتوسطي، وهو ما أثار مشاكل مع بعض الأقاليم المطلة على المحيط الأطلسي، وهي مناطق شمالية.

هناك أناس مثلاً في إقليم الباسك بالمناطق الشمالية يقولون «نحن لسنا متوسطيين ولا علاقة لنا بالمتوسط لا في طريقة ولا في نمط حياتنا. نحن لا نعرف لماذا تجبروننا على استخدام مثل هذه الألقاب وهذه التصنيفات». وربما فشلنا أيضاً في خلق مفهوم ديناميكي لما هو المتوسط. وبدأنا بشعارات مثلما بدأنا في وقت من الأوقات بشعار العروبة والعالم العربي، ربما لم يكن هناك وعي بوجود مشاعر وأحاسيس لدى فئات لا تؤمن بمثل هذه القضية أو المقولة. وكلما كانت المقولة مفتوحة ومنفتحة، كانت المقولة أكثر فعالية. أنا أريد أن أختتم بالإشارة إلى أغنية أخرى.

هناك أغنية مشهورة جداً في إسبانيا، من المؤكد أن كل من يعرفون إسبانيا يعرفون أيضاً هذه الأغنية، وهي أغنية اسمها «ميديتيرانيو». وغناها «جوان مانويل سيرادا»، المطرب الكتالاني. وهذه الأغنية بالمناسبة اعتبرت، في هذه المسابقات السخيفة التي تنظم بين الفينة والأخرى، على غرار مسابقات مشابهة نظمت في بريطانيا، أفضل أغنية إسبانية منذ 30 سنة. وهي أغنية جميلة، ولكنها للأسف تكرر شعاراً لم يتطور، وهي تقول بخلاصة: «نحن شعب واحد يمتد من الجزيرة الخضراء إلى إسطنبول، إذا مت أريد أن أموت وأنا أسبح في بحر المتوسط». للأسف الشديد، أصبحت هذه الأغنية تمثل مفارقة محزنة، هناك أناس كثيرون يموتون وهم يحاولون الوصول إلى الضفة الأخرى التي لا يمكن أن تكون ضفة أخرى، والتي نتمنى لو كانت ضفتنا جميعاً.



ميلود الوكيل

أشكر كثيراً الأخ العزيز إغناسيو كوتيريز دوتيران على هذه المداخلة التي اعتبرها مساهمة قيمة في أشغالنا وتستشرف آفاق واعدة، وأنا أشاطرك الرأي حول الكثير مما قلته. أنا شخصياً بصفتي رجل بحر، ودرست البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، أعتبر أنه بقدر ما أن شعبينا وبلدينا قريبان جغرافياً، وقد أشرتم إلى مضيق جبل طارق الذي لا يتعدى مده 14 كيلومتر، مسافة قد يقطعها شاب سباحة بين الضفتين، بقدر ما هناك جهل كبير لبلدينا وقراءات متناقضة لتاريخنا. لذلك قلت بأنه حان الوقت كما قال الزملاء للانكباب على دراسة التاريخ وخصوصاً بالنسبة لبلدين شقيقين. ليست مجاملة حين أقول إنكم أشقاؤنا، فذلك مثبت بالرجوع إلى المنطق وإلى الوجهة القانونية والتاريخية. ولا ننسى أن الجغرافيين العرب القدامى كانوا يسمون مضيق جبل طارق بحر الزقاق، أي بحر السلم.

فكيف نصف الآن هذا البحر، سواء تعلق الأمر بجبل طارق أو البحر الأبيض المتوسط في مفهومه الشامل ؟ مقبرة ومزلة من الناحية الإيكولوجية البيئية، أم واحة للسلم والتعايش والرفاهية المشتركة بين مختلف السكان ؟ ملاحظة أخيرة إذا سمحتم انطلاقاً من المداخلات الثلاث، وخصوصاً من مداخلتك الشخصية التي تدرج ضمن تقارب الحضارات. فالمشكل ليس كما قال «هنتنغتون» أن هناك نفورا وتضاربا بين الحضارات، بل هناك عدم فهم للآخر. لقد آن الوقت بالنسبة إلينا جميعاً وخصوصاً بالنسبة للإسبان والمغاربة للانكباب على التاريخ. ولذلك اقترحت في البداية أن تكون هناك قراءة رزينة وغير عاطفية. نحن كنا عندكم أكثر من ست قرون، وأنتم كنتم ولا زلتم عندنا، وأن الوقت لتحدث بعقلانية عن هذه الصفحة من تاريخنا. وأنا شخصياً أنه بما تقوم به كأستاذ للغة العربية بجامعة مدريد لأنك تساهم بصفة مستمرة في تقريب الشعبين. شكراً جزيلاً على هذه المداخلة وكما قلتم، أن الوقت لتجاوز الشعارات الرنانة وتبني مفهوم عريض ومفتوح لاستقطاب أقصى عدد ممكن من المساهمين في هذا المشروع المجتمعي الحضاري، الذي هو مشروع البحر الأبيض المتوسط.

عبد الفتاح الزين

لقد أعجبني طرح الأستاذ كوتيرييز. وأنا أؤمن بأن التاريخ مهم. فجودة المعرفة من جودة المفاهيم. وكلما كانت المفاهيم جيدة ومتفقا عليها، كلما كان الإنتاج المعرفي مشتركاً وذي جودة عالية. فالمؤكد أن قضية فتح الأندلس والنمط الاستعماري تشكل موضوع نقاش مهم على المستوى الأكاديمي. لكن المعرفة بشكل عام، لا يمكن تفعيلها إلا من خلال المد الجماهيري، أي عن طريق اكتساب المواطنين لهذه المعرفة من جهة، والسياسات التي ترافقها من جهة أخرى.

على مستوى الأبحاث، فقد اشتغلت في مرحلة معينة مع البيت العربي في غرناطة كمتخصص في علم الاجتماع ومؤرخ. وفي الحقيقة فإن الباحثين يعتبرون الدولة المغربية دولة ناشئة وطائرة على الجغرافيا. من جهة أخرى فإن الاحتفالات الشعبية في إسبانيا مثل «كريستيانوس إ موروس» تغذي صراع الذاكرة. وهنا يكمن الخطر الحقيقي، وليس في التاريخ. لأن التاريخ قد ينضوي عن صفقات. وهنا أشير إلى الاحتفاء الكبير الذي لاقته أغنية «أنطونيو غالاً» المعنونة «الولع التركي»، وهي نقيض الأغنية التي ذكرت أنفاً. إذا، هذا إشكال كبير يستدعي تدخل المثقفين أولاً، ثم صناع الرأي في إطار العمل البناء. وكنا قد قمنا بتجربة سابقة مع الإخوة الإسبان حول الذاكرة المشتركة، كيف يمكن تفعيلها، وهل لدينا قاسم مشترك متوسطي. فعلى مستوى الرمزية بين الضفة الشمالية والجنوبية تجسد مغارة هرقل في طنجة أسطورة هرقل الذي قسم العالم لقارتين، كما يقف جبل طارق في الضفة الأخرى شاهداً على هذا الترابط.

في الواقع، فإن مصطلح البوغاز يمثل مفهوماً إعلامياً عاماً، لكننا في المغرب، في كتب التاريخ نجد عبارة مضيق جبل طارق. لذا فالسؤال الذي يتبادر لذهني هو هل من مدخل لبناء هذه الذاكرة المشتركة والمتقاسمة بين المغرب وإسبانيا في إطار ما يمكن أن نسميه بالتربية بين ثقافتين ؟

قد اشتغلت على موضوع بناء الأندلس وكيف ينظر الأندلسيون إلى المغربية، والمغاربة إلى الأندلسيين. وفوجئت بردة فعل باحث إسباني عندما سألته عن الموضوع، حيث دعاني لصرف النظر عنه لأنه لا يعني. هو ربما نفس الموقف الذي تعرض له الطاهر بنجلون عندما كان يخاطب الإيطاليين كمرشح أوروبي فكان ردهم في منتهى الصلابة. وهذا الإشكال يصور فكرة كون البحر الأبيض المتوسط أشبه بالمقبرة. فمثلاً عندما قامت إيطاليا في إطار محاربة الهجرة باستخدام عملية «ماري نوستروم» التي تعني «هذا بحرنا»، فالضحايا هنا هم دائماً أولئك الحالمون بهذا المتوسط. إذا، فالسؤال المطروح هو كيف يمكننا أن نؤسس مشاريع من أجل الأجيال المقبلة دون توريث هذا المنطق التصادمي وبالعامل على مصالح الذاكرات. وكيف يمكن أن نؤسس لتربية بين ثقافتين، لأنني في الحقيقة لا أؤمن بما نسميه التعاون الأورو-متوسطي بين أوروبا والبحر. فهذه شراكة لا تعيننا، ربما ستكون الشراكة الأورو-إفريقية أكثر ملاءمة.

ميلود الوكيللي

لقد أسعدتني مداخلتك حول الجالية بالخارج (الدياسبورا)، وإنني أشاطرك نفس المنطق. لكن الإشكالية ملخصة في جملة واحدة تكمن في كيفية تخطي النظرة والمنطق التصادمي لنصل إلى مقاربة أخلاقية وتضامنية. لذلك يجب التدقيق وإعادة النظر في المصطلحات، فالمصطلح يجب أن يكون دقيقا حتى يصيب الهدف. في الحقيقة، فإن ما أسميته التربية البين ثقافية مهم جدا. حيث يجب علينا أن نتحدث في مدارسنا عما فعلناه في الأندلس كما يتوجب على الكتب الإسبانية ذكر ما فعلناه في الأندلس وما فعله الإسبان في المغرب وفي إفريقيا. هذا أمر بالغ الأهمية. يجب أن نتصالح مع الذات ومع الذاكرة حتى ننجح في تكوين ذاكرة مشتركة. سوف أترك الفرصة للزميل ليجيب على سؤالك.

إغناسيو غوتيريز دوتيران

هناك صراع طويل فيما يتعلق بالذاكرة الإسبانية إزاء ما يمثلته الأندلس، أعتقد أنني تحدثت عن الأمر في جلسة اليوم والجلسة السابقة ولكن ليس بطريقة معمقة. شخصا، أنا أيضا أستغرب هذه الاحتفالات التي تقول لنا «نحن انتصرنا على المسلمين الأجانب، وبنينا دولتنا بعد سقوط الأندلس». كما أستغرب هذه الكتب والمقولات المنتشرة. ونحن كمثقفين، إن اعتبرنا نفسي مثقفا فاعلا، فلا بد أن نتصدى لمثل هذه الموجة بطريقة حضارية حجاجية، بأن نقدم النصوص والأدلة عبر الحجج بالبراهين والدلائل. في الحقيقة، إن الأمر يتوقف على المقاربة التي نستخدمها، فالأندلس بالنسبة للكثير من الإسبان لم تكن دولة محتلة وإنما جزءا من تاريخ إسبانيا. فنحن ننظر للأندلس وكأنها مرحلة من مراحل تاريخنا. ولكن هذه الفئة التي انتعشت في الآونة الأخيرة، تنظر للأندلس وكأنها قطيعة. حيث كانت هناك سيرة مستمرة منذ عهد الرومان ثم القوطيين، ولكن جاء المسلمون وخرّبوا كل شيء، ثم عدنا إلى دولتنا وتخلصنا من الإرث الأندلسي. من المفارقات أن بعض القوميين الإسبان في غرناطة يقولون: «نحن لا علاقة لنا بالأندلس، ولكننا نريد أن ندير الأمور المالية في قصر الحمراء، لأن قصر الحمراء قصر يدر علينا أموالا طائلة». وكذلك الكنيسة الكاثوليكية، فهي أيضا تقول: «إن الوجود الإسلامي كان عنيفا ونريد أن نمحو الآثار الإسلامية، ولكن دعونا نتصرف في مسجد قرطبة لأنه ثالث أو رابع أو خامس المباني الأثرية الأكثر زيارة في إسبانيا»؛ وهذا في الحقيقة يخلق نوعا من التناقض. بعض القوميين الإسبان يقولون «لا علاقة بالأندلس» أو «المغاربة يحتلوننا، نحن لا نريدهم»، ولكننا في نفس الوقت نقول: «ما أجمل قصر الحمراء وما أجمل غرناطة». الكل يتباكى على غرناطة، لكن عندما تكون هناك مصلحة اقتصادية فالكل يتغنى بجمال الأندلس. هذا مؤسف.

يكمن المشكل في أن المبادرات التي تحاول التصدي للحركات المقابلة متشرذمة وغير مستمرة، وليست هناك مدرسة أو منهج مستديم في هذا المجال. لكنها ليست مهمة صعبة في الحقيقة، فالتاريخ يقف إلى جانبنا. إذ يمكن أن نعود إلى التاريخ وإلى النصوص ونستخدم المنطق، فهناك حجج كثيرة من السهل الاستعانة بها. نحن عندما فتحنا غرناطة، قمنا بطرد اليهود في غضون أيام أو أشهر ثم طردنا المسلمين في عقود من الزمن. ولكن الدولة الأندلسية العربية أو الأمازيغية، أو كما يريدون أن يسموها، سمحت للنصارى وللإهود بالبقاء، وهذا يظهر الفرق الكبير. لا بد أن أذكر بهذه الأمور، لأنها في نظري من الأساسيات. هذه موضوعية لا يمكن أن نناقشها لأن هذه حقائق مسلمة، لكن، من الممكن أن نؤولها ونفسرها، وهذا أمر آخر. فتبني التفسير الذي يخدم المصلحة هو من سمات هذه التيارات القومية. حيث لدينا للأسف الشديد تيارات سياسية تلعب دائما على هذا الوتر وتعود إلينا بمثل هذه المقولات. وبالتالي، أصبحنا الآن نرى عودة إلى الخطاب القومي الوحدوي كما هو الشأن في بلدان أوروبية أخرى. ودائما ما يبنني هذا الخطاب على حساب الخطابات الأخرى وعلى تحميل المسؤولية للغير في كل البلايا والكوارث التي تصيبنا. هذه النقطة خطيرة جدا لكننا للأسف عدنا إليها.

من المشاريع التي يمكن أن تخدم قضية الإصلاح تشكيل فرق من مؤرخين ومثقفين، وخبراء عرب وإسبان، خاصة من المغرب العربي، من أجل أن نصل سوية إلى كتابة مشتركة للتاريخ. هناك محاولات فردية، أعرف أن هناك ثنائيات من مؤرخين ومستعربين إسبان ومغاربة حاولوا العمل معا، وهو شيء محمود، لأنه يسمح بمقابلة الأفكار الخاصة والتفكير الأحادي للطرفين حتى يتأكد لهم الصواب من الخطأ. وهذه الجهود تتطلب مساعدة من المؤسسات وتمويلا وتنسيقا، وهو ما يغيب في الواقع. كما كنا نتمنى من الطرف الآخر، أي دول المغرب والجزائر وتونس، المساهمة في هذه الجهود، ودعم نشر هذه الكتب ومساعدة الكتاب الإسبان الراغبين في كتابة هذه المسائل. ولكن أين يتجلى دور هذه السفارات والمراكز الثقافية المغربية والمشرقية؟ فما بالكم بالخليجية، التي تعتبر كارثة لأنها تسيء إلى الحضارة العربية والأوروبية. كيف نستطيع توفير هذه الجهود؟ هذا هو السؤال الكبير. للأسف الشديد، ما زلنا نقف عند هذا الطور ولم ننتقل بعد إلى تفعيل هذه الأفكار في الميدان وعلى الأرض.



مصطفى الحسني الإدريسي

أود أن أضيف كلمة بخصوص مؤلف «المتوسط، تاريخ للتقاسم». فهو كتاب مشترك موجه لكافة دول المتوسط. حيث ساهم في صياغة كل فصل مجموعة من الكتاب من الشمال والجنوب بهدف عرض نظرة محايدة للتاريخ، وتجاوز النظرة الأحادية للشمال أو الجنوب. كما يروم العمل تجاوز الكينونة الوطنية أو الحضارية عند التعرض للتاريخ. لا يجب أن نستعمل لفظ «الآخر» عند التطرق للصفة المقابلة، فلا وجود لآخر. وهذا ما قمت به عند تقديم الصفتين، فقد ارتأيت أنها النظرة الأكثر موضوعية من أجل تيسير فهم الشمال للجنوب والعكس صحيح. في الحقيقة، لم يتم التطرق لتاريخ المتوسط بشكل شمولي قط، لذا عمدنا في هذا الكتاب إلى إبراز مدى تعقيد التاريخ المتوسطي. أتمنى أن يجيب هذا على سؤالكم. أعتقد أنها وسيلة لتجاوز المقاربة الصراعية الحالية.

فرانسوا لاربر

في الحقيقة، إن مقارنة المتوسط التي أشرتم إليها هي التي سادت لقرون طويلة في العصور الوسطى خلال القرن الثامن عشر، وكانت تتجلى في تمثيل البحر الأبيض المتوسط على ما كان يعرف بخرائط الموانئ، وهي خرائط مرسومة يدويا حيث لم يتم وصف البحر الأبيض المتوسط على أنه فاصل، بل جزء لا يتجزأ.

ولم تظهر تلك الخرائط سوى السواحل دون المناطق الداخلية، حيث كان البحر وشواطئه أهم عنصر في الخرائط وكانت باقي العناصر ثانوية فقط.

ميلود الوكيللي

شكرا جزيلا. أعتقد أن ما تفضلتم به مبشر بالأمل. بالفعل، هناك رؤيتان للمتوسط : أن نرى المتوسط كحدود وحاجز وسور وأبواب وفضاء للتحكم، وفي هذه الحالة يغيب الحوار وتتبادل النظرات دون أن نستطيع فهم بعضنا البعض ؛ أو أن نرى المتوسط جسر تواصل كما وصفه «أليير كامو»، وختاما لهذا اللقاء، سأستشهد بما كتبه في مجلة «ضفاف» سنة 1938 : «المتوسط مجموعة من الحقائق المتباينة، لكنها تتضمن في كنهها ما يميز وحداتها من مناظر وثقافات من أجل خلق شخصية مميزة». كخلاصة فعملنا اليوم يصب في البحث عن فكر متوسطي متجدد يكون مرجعا للعالم كله. ومن المهم تجاوز الصراعات والخلافات الدينية والمذهبية. وقد تطرق المتدخلون لرؤية جماعية لتاريخنا الإسباني المغربي. بما أننا الآن في وجدة، وبما أن جزءا كبيرا من عائلتي يقطنون على بعد أمتار، في الجزائر، أعتقد أنها رسالة لإخواننا في البلد الشقيق. فقد أن الأوان أكثر من أي وقت مضى لإعادة النظر في تاريخنا الذي شابه الفئور وتجاوز الأنا. وهذا أمر أساسي لخلق مستقبل مشترك.

سيداتي، سادتي، كانت هذه خلاصة لما جاءت به التدخلات المتميزة خلال هذا اللقاء. فالمتوسط إذا صلة وصل. ومن أجل خلق متوسط الغد وفكر متوسطي وعلاقات إنسانية متوسطة للأجيال القادمة، يجب أن نبدأ العمل من اليوم على تغيير العقلية، لا سيما لدى الشباب، وتعزيز ثقافة تقبل الآخر كما هو لا كما نريده أن يكون. لقد عملنا في الصويرة على إنشاء مؤسسة قانونية تعنى بالدراسات العبرية بهدف إعادة النظر في تاريخنا من مختلف الجوانب. فما يميزنا في المغرب هو هذا التنوع الثقافي الذي نعتبره ثروة وطنية. فنحن عرب وأمازيغ، متوسطيون وأطلسيون، كما أنه عندنا أيضا حضور عبري يهودي، كما أننا منفتحون على الآخر في الغرب، فنحن إخوة وأصدقاء، نحن غرب المشرق. نشكركم مرة أخرى على حضوركم هذا اللقاء. وأريد باسمكم أن أتوجه بالشكر لكافة المتدخلين وأضرب لكم موعدا في القريب. لقد كان لقاء مهما جدا.

رئيس الجلسة : الحسين المجاهد
المشاركون : عبد القادر الرتتاني، فاطمة بوخريص، ادريس أزود
فضاء : سيمون ليفي
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 18 : 30 - 17 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

خصصت هذه المائدة المستديرة لتقديم ثلاثة كتب أصدرها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. وقد افتتح المسير الحسين المجاهد، الأمين العام للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الجلسة بتحديد إطارها العام، مبينا أنها تأتي بعد جلسة أخرى ناقشت مسار المعهد الملكي وحصيلته منذ التأسيس وبرامجه وأهدافه المستقبلية. اعتمد المعهد استراتيجية تواصلية، خاصة في مجال النشر، إذ سعى من خلالها للتعريف بإنتاجاته التربوية والديداكتيكية والفكرية. ويعمل المعهد على إنتاج كتب ذات جودة عالية، ولهذا أبرم عقد شراكة مع دار النشر المعروفة ملتقى الطرق. كل الكتب الجيدة تعتنى بجودة صورها ؛ وكتب المعهد الجديدة ليست استثناء، علما أن الاشتغال على صور هذه الكتب تطلب مجهودا إكونوغرافيا كبيرا على مستوى التجميع والاختيار.

هكذا، كتبت نصوص الكتابين الأول والثاني من طرف ثلة من الخبراء ؛ أما نصوص الكتاب الثالث فهي بالأساس أشعار. نتحدث هنا عن ثلاثة كتب لاقت نجاحا كبيرا إثر تقديمها في معرض فرانكفورت للكتاب، وهو أكبر معرض للكتاب في العالم. الكتابين الأولين هما «الفنون والعمارة الأمازيغية» و«الثقافة اللامادية للمغرب : التعبيرات الفنية الأمازيغية». يتضمن الكتابان الكثير من الصور التوضيحية، كما يتضمنان أيضا نصوص تحليلية عميقة، تستند على مجهود توثيقي كبير، استرجعت التاريخ وأطر الإنتاج وسياقات التعبير المتعلقة بإبداعات كثيرة تدعونا إلى تأملها اليوم.



يتحدث الكتابان عن الكثير من التقنيات والأدوات، ويلقيان الضوء على الكثير من التعبيرات اللامادية التي توجد في كل القطاعات. ولقد ثمن الكتابان هذه العناصر الثقافية بالصورة وشرحها بالكلمة. كما سبقت الإشارة، يمتاز كتاب «المغرب، نظرة استشرافية» عن الكتابين الأولين بطابعه الشعري. إنه يثمن التراث الطبيعي والمادي بالمناطق المعنية ويبرز جمالها وطاقاتها وحيويتها... من خلال صور رائعة وخطاب شعري عاطفي. هدف الكتب الثلاث هو تبليغ رسالة واحدة : حماية الثقافة التي تنتمي إليها هذه التعبيرات الثقافية المادية واللامادية والاحتراس من تحويلها إلى مجرد فلكلور يتاجر فيه لا أقل ولا أكثر.

مداخلات المائدة المستديرة

الحسين المجاهد

مرحبا بكم معنا في هذه المائدة المستديرة التي تناقش التراث الأمازيغي، والمغربي أولا، الممتاز بتنوعه وتعدديته وحضوره في كل أنشطتنا وفي لغتنا وبيئتنا. يشكل هذا التراث رهانا وتحديا كبيرا للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية: تتمين هذا التراث وحمايته والرقى به إلى مستوى تراث عالمي، مع الاعتراف بكل أبعاده واستثماره في نهاية المطاف. وسعيا منه إلى تحقيق هذه الأهداف، فتح المعهد الملكي مجموعة من الأوراش الهادفة إلى خدمة هذا التراث ذو الطابع اللامادي أساسا: أي أن قوامه الأساسي هو مجموع عناصر الشخصية الفنية والتعبيرية الأمازيغية.

في الواقع، عندنا تراث مادي كبير يشمل النقوش والخزف والخشب والعمارة... وعندنا أيضا تراث لامادي يتعلق بالمنظر الطبيعية والوجوه والروائح والألوان والأشكال والنبات والحيوان والأهاليج... كل هذه التعبيرات الثقافية تحظى باهتمام المعهد الملكي من خلال مشاريعه البحثية المتكاملة مع مشاريع بحثية تشرف عليها جامعات ومعاهد أخرى. كما يهتم المعهد الملكي أيضا بالمووروث اللغوي. وقد ناقشنا في لقاء سابق أوجه هذه الاهتمام: الأدب والتعبيرات البصرية. كل هذه العناصر تخضع للدراسة الأكاديمية والبحث الميداني والبحث الإجمالي.

إضافة إلى ما سبق، يهتم المعهد الملكي بعنصر مهم جدا يكمل العناصر سالفة الذكر ويمنحها روحا وصورة يراها الناس، ويتعلق الأمر بالنشر. لن أتحدث عن هذا الموضوع لأن خبير صناعة النشر عبد القادر الرتقاني موجود معنا، وسيحدث عن الموضوع. ولطالما اعتمد المعهد الملكي سياسة تحريرية مكنته من طبع ونشر كتب تعرف بإنتاجاته الفكرية المختلفة. وقد أصدر المعهد فعلا مئات المؤلفات.

بفضل شراكته مع دار النشر «ملتقى الطرق» التي يديرها صديقنا عبد القادر الرتقاني باقتدار كبير، يتوفر المعهد الملكي اليوم على إصدارات من نوع «الكتب الجميلة». وكما تعلمون، تحظى الصور في الكتب الجميلة باهتمام كبير جدا مقارنة بالنص. ولقد أصدر المعهد الملكي حتى اليوم ثلاثة كتب جميلة بإخراج فاخر يسعدنا أن نقدمها لكم اليوم.

سيبين لنا عبد القادر الرتقاني، مدير دار النشر «ملتقى الطرق» ورئيس اتحاد الناشرين المغاربة، أوجه التكامل بين هذه الكتب والعمل الأكاديمي المنجز داخل المعهد الملكي. أما إدريس أزود، الباحث والمدير السابق لمركز الدراسات الأدبية والفنية والإنتاج السمعي البصري بالمعهد الملكي، فسيحدثنا عن عمله داخل المعهد مع تقديم آخر إصدار المعهد من الكتب الجميلة. وتحضر معنا أيضا فاطمة بوخريص، اللسانية والباحثة في الفنون والثقافة والموروث الشفهي، خاصة الفنون الكورغرافية (فن الرقص والتعبيرات الجسدية) والموسيقية الأمازيغية.

عبد القادر الرتقاني

بدأت عدة مؤسسات بالمغرب، ومنذ سنوات الآن، في بذل مجهود بحثي معتبر في المجال الثقافي. نتحدث هنا عن ستة مؤسسات بالتحديد. وأحد هذه المؤسسات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الذي بادر إلى عقد شراكة مع دار النشر «ملتقى الطرق». تحقق هذا التعاون بين دار النشر والمعهد بفضل المهنية العالية التي يتميزان بها والعلاقة الوطيدة بين مدير دار النشر ومدير المعهد اللذين يعرفان التزام وجدية بعضهما ويتقاسمان شغف الكتاب والتراث منذ سنوات. هكذا جاءت فكرة التعاون على إنتاج كتب رفيعة المستوى. وأنا أود أن أوجه تحية تقدير للمعهد، لأنه في سنة 2018 فقط، ورغم الظرفية الصعبة التي ميزت هذه السنة، تمكن من إصدار ثلاثة كتب فاخرة.

لقد اشتغلنا مع مجموعة من الخبراء والباحثين بكل الجدية الممكنة، مع كل ما يعني ذلك من تنقل دائم بين الرباط والدار البيضاء ومشاورات واختيارات، لنحصل في نهاية المطاف على هذه الكتب المعروضة أمامكم الآن. في الحقيقة، تقتخر دار النشر والمعهد معا بهذه الكتب التي لاقت ترحابا كبيرا عند الناشرين والقراء الألمان إثر تقديمها بحر الأسبوع المنصرم ضمن فعاليات أكبر معرض للكتاب في العالم : معرض فرانكفورت. واليوم، يسعدنا تقديم هذه الكتب ضمن فعاليات المعرض المغربي للكتاب.



الحسين المجاهد

إن لم يكن هناك مانع، سنبدأ بالكون اللامادي في الثقافة المغربية مع الأستاذة بوخريص.

فاطمة بوخريص

يسرني أن أشارك في تقديم هذه الكتب الفاخرة الصادرة عن المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. عندنا اليوم ثلاثة إصدارات، ونتوقع المزيد في المستقبل. ولابد هنا من التنويه بالمعهد الملكي لأجل سياسته في نشر الكتب الفاخرة ومهنية الأستاذ عبد القادر الرتاني.

مهمتي في هذه المائدة المستديرة هي تقديم كتاب «الثقافة اللامادية للمغرب : التعبيرات الفنية الأمازيغية» الصادر سنة 2016. هذا كتاب جماعي يطمح إلى تقديم جزء مهم من الثقافة المغربية، خاصة التعبيرات الفنية الأمازيغية الغنية والمتنوعة حسب اللغة الأم والمناطق، التي قد تكون غالبية سكانها عربا أو أمازيغ. يضم الكتاب بين دفتيه ثلاثمائة وعشرون صفحة مقسمة على خمسة فصول. يهتم كل واحد من هذه الفصول بفن معين : «فن الرسم والتصوير» و«فن الموسيقى» و«فن الكوريفيا» و«فن المسرح» و«فن السينما». صاغ الأستاذ أحمد بوكوس تصدير الكتاب، بينما صاغ الأستاذ أزدود مقدمته. تحدثنا في الفصل الأول عن فن الرسم والتصوير في أشكاله المختلفة : النقش والرسم والطرز (سواء على الخشب أو الحجارة أو الجلد...).

في الحقيقة، يشكل هذا الفن كنز ثمين للمغرب خاصة، والمغرب الكبير عامة. أشرف على هذا الفصل فؤاد لحبيب، فنان تشكيلي وهو خطاط شهير حاصل على عدة جوائز دولية. ولقد تتبع السيد فؤاد تاريخ فن الرسم والتصوير بالمغرب ابتداء من عصر النقوش الصخرية حتى بروز الهوية الأمازيغية عبر الفنون التقليدية (الوشم والطرز والخزف...). ويحدثنا الكاتب أيضا عن فنانين مغاربة كبار، على غرار فريد بلكاهية وفاطمة ملال، كما حاول تمييز الأساليب والمدارس الفنية المختلفة حسب تاريخها وإنتاجاتها.



الثقافة اللامادية للمغرب : التعبيرات الفنية الأمازيغية

يناقش الفصل الثاني فن الموسيقى ؛ وهو فصل غني جدا يحدثنا عن الإيقاعات والأهازيج والآلات الموسيقية. وكتب هذا الفصل الخبير الموسيقي المغربي أحمد عيدون صاحب كتاب «موسيقى المغرب». ويرسم عيدون صورة واضحة عن الموسيقى الأمازيغية، ويتحدث عن روادها من أمثال محمد رويشة وعموري امبارك وفاطمة تبعمرانت. ويختم الكاتب هذا الفصل بمسرد للعبارات الأمازيغية ذات الصلة بفن الموسيقى.

يتحدث الفصل الثالث، الذي سررت بالإشراف عليه، عن فن الكوريغرافيا. وهنا ركزنا على نقطة مهمة وهي أن الرقصات الأمازيغية التقليدية رقصات جماعية في الغالب. عموما، عندنا ثلاث رقصات رئيسية : أحيدوس وأحواش وإمديازن. ولقد وصفنا هذه الرقصات الثلاث حسب المنطقة وما يرافقها من كلمات وموسيقى وآلات وحركات... تحدثنا أيضا عن تاريخ الكوريغرافيا الأمازيغية وتجلياتها الحديثة من خلال الاستعانة بصور توضيحية قديمة وحديثة. وبطبيعة الحال، أجمل مثال في هذا الباب هو الراحل موحى الحسين أشيبان الذي أضفى على رقصة أحيدوس هيبة وعظمة ليس لها مثيل. ولقد أبرزنا التجانس التام والإيقاع الموحد في هذه الرقصات.

كما تعلمون، مهما بلغت جودة النص، تبقى الصورة خير واصف لهذا الإبداع. يحدثنا الفصل الرابع عن فن المسرح، والذي أشرفت عليه الأستاذة نوال بنبراهيم، باحثة بالمعهد العالي للفن المسرحي والتنشيط الثقافي. ولقد رسمت الكاتبة صورة واضحة عن الفن المسرحي (حالة المسرح القديم والمسرح التقليدي وميلاد المسرح الحالي). في الواقع، يمكننا اليوم الحديث عن سينما أمازيغية مع تزايد عدد الإنتاجات وبروز مجموعة من الممثلين وتنظيم مهرجانات تعنى بالسينما الأمازيغية. وفي الحقيقة، جاء هذا الكتاب في الوقت المناسب، لأنه يحفظ هذا التراث الثقافي الغني والمتنوع، الذي يعد جزء لا يتجزأ من ذاكرتنا، أقصد الذاكرة الجماعية المغربية.

الحسين المجاهد

يدعونا هذا الكتاب لاكتشاف وإعادة اكتشاف أجزاء مهمة من هذا التراث بغية تعزيزه والرقى به. ويتجلى التراث المادي واللامادي أيضا في المناظر الطبيعية والجغرافيا والمجال بكل ما فيه من تنوع للوجوه والتضاريس الألوان والروائح والأصوات... قبل أن أعطي الكلمة للأستاذ أزود، أحياه على إنتاج تسع رسوم توضيحية من أصل عشرة استعملناها في الكتاب الأول.



ادريس أزود

يسعدني أن أقدم بين أيديكم قراءة عامة في ثلاثة كتب صادرة عن المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. عنوان الكتاب الأول «الفنون والعمارة الأمازيغية». وهو كتاب يعتمد على النص ويستخدم الصورة معا في انسجام تام. ويحتوي هذا المؤلف على ستة نصوص تناقش ستة مواضيع مختلفة : الخشب والخزف والزرابي والنقوش والمجوهرات والألبسة. ولم يكن الموضوع الأخير مدرجا في الطبعة الأولى، فأدرجناه في الطبعة الثانية كي نقدم الجديد. وهكذا، جاءت نصوص الكتاب عبارة عن مقالات تحليلية من إنجاز باحثين في الأنثروبولوجيا وخبراء في الميادين الستة المشار إليها. أما الكتاب الثاني فجاء تحت عنوان «الثقافة اللامادية للمغرب : التعبيرات الفنية الأمازيغية» ؛ وهو نفسه الذي قدمته الأستاذة بوخريص قبل لحظات.

في حين أن الكتاب الثالث تم إصداره تحت عنوان «المغرب، نظرة استشرافية». وكل من له معرفة وإلمام بفن التصوير يدرك أن العبارات الموظفة في عنوان هذا الكتاب مستعارة من الفنون البصرية. ولقد شدد الأستاذ أحمد بوكوس في تقديم هذا الكتاب على فكرة مركزية مفادها أن المغرب «واحد» في شخصيته و«متعدد» في تعبيراته وعاداته وتقاليدته وسكانه. المغرب بهذا المعنى ملتقى ثقافات وحضارات عديدة. يعرفنا هذا الكتاب على الوجوه وقسماتها والأرض ومناظرها والعادات والتقاليد الموروثة والتوجهات المستقبلية. ولا يتضمن هذا الكتاب مقالات تحليلية، بل يعطي أهمية قصوى للصور، دون أن يهمل النص. يناقش الكتاب ما لا يقل عن مائة وثمانية وثلاثين تيمة، يوجد في واحد وثلاثين منها نصوص شعرية. وهو يتضمن خمسمائة صورة وصورة اختارتها اللجنة العلمية المشرفة على المشروع من بين ألف وخمسة مائة صورة. قسم الكتاب إلى أربعة أجزاء تراعي التقسيمات الجغرافية الأساسية في المغرب : الصحراء والجبل والسهل والساحل. ويضم فهرسه ثلاثة وأربعين مصدرا، من بينها سبعة مواقع إلكترونية. وتحدث عضو اللجنة العلمية محمد أيت حمزة في مقدمة الكتاب عن الموقع الجغرافي المميز للمغرب، مؤكدا على أهمية سلسلة جبال الأطلس والتي بفضلها ننعم «بأحد أجمل بلدان العالم».



الفنون والعمارة الأمازيغية

انعكس الغنى الجغرافي والتنوع الطبيعي المغربي في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب. وحسب الأستاذ أيت حمزة، تعزى بعض المؤثرات الثقافية والحضارية التي عرفها المغرب إلى موقعه الجغرافي الفريد، كما أن بعضها الآخر مرتبط بطبيعة سكان المغرب أنفسهم. وفي الغالب، ترفق الصور بنصوص قصيرة أو أبيات شعرية.

على سبيل المثال، وضعنا بيت شعري صغير بجانب صورة شجرة «كورو» بغابة الأرز بأزرو - شجرة ميتة منذ زمن بعيد، لكنها مازالت شامخة - بدل التحدث عن الشجرة وتاريخها في مقالة: «لا ماء يسري في عروقي، لم أعد أعرف سوى فصل واحد يفقدني توازني ويملؤني رعشة وخوفاً».

توجد في الكتاب أيضاً صورة مقبرة معبرة للغاية - تعرفون أنه لنا علاقة خاصة بعض الشيء مع المقابر - : رجل يدخل إلى المقبرة ويسلم على أهلها. بدل الحديث عن المقابر في نص يقدم الكثير من المعلومات، وضعنا أبيات شعرية بديعة نظمها شاعر أمازيغي كبير يقول فيها :

«الكل سيموت ؛

حسم الأمر ؛

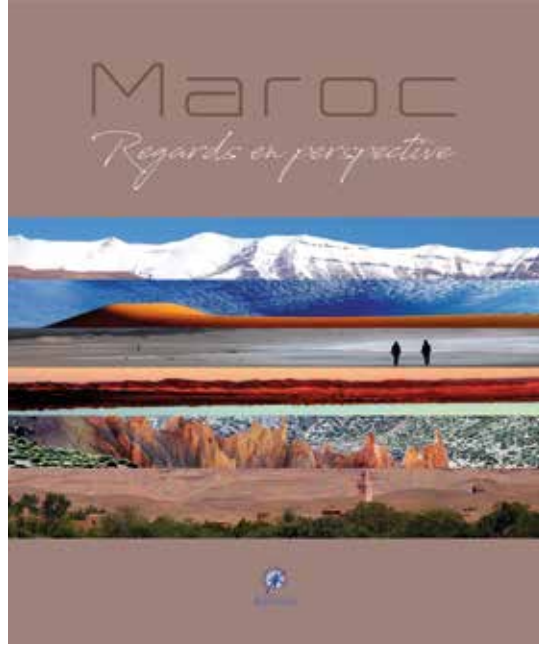
لا مفر ... لا مفر ؛

يا أرض منك خرجنا ... وإليك ولا ريب راجعون ؛

هذه الحياة الدنيا لحظة قد انتهت ؛

ومازال زائر المقبرة يدخلها كأن لم يدخلها على أجساد كثيرة طحنتها الأرض».

تكريماً منا لكل من الفنانة «حادة أوعكي» والفنان «بناصر وخويا»، الثنائي الخالد في تاريخ الأغنية الأمازيغية بالأطلس المتوسط، تم وضع كلمات إحدى أغانيهما إلى جانب صورة أطلال منزل منهار :
«إن غادرتي الديار، فعلت مثلك وماذا أفعل هناك إن لم تكوني».



المغرب، نظرة /استشرافية

الحسين المجاهد

لم يكن هدف كتاب «الفن والعمارة الأمازيغية» أن يحتوي مضمونا أكاديميا بالمعنى الجدي للكلمة، بل أريد له أن يكون مرآة تعكس الجمال بالكثير من الصور المعبرة والقليل من الكلام الرقيق المعبر أيضا. ولقد تمكن هذا الكتاب من بعث روح ثقافة ضاربة جذورها في التاريخ كما أنه من خلال صفحاته يدعو القارئ للسفر بين دفتيه لاكتشاف الثقافة الأمازيغية المادية واللامادية.

هكذا، يحتفي الكتاب بفنون وعمارة المغرب كجزء من ثقافتنا المادية. وتجدر الإشارة إلى أن النصوص التي يتضمنها هذا الكتاب من إنجاز باحثين مرموقين تعرفونهم بلا شك.

إضافة إلى الباحث عبد الله جلوك، الذي كتب تقديم الكتاب واشتغل على تيمة العمارة الأمازيغية، خاصة المخازن الجماعية «إكودار» و«القصبات»، شارك في إنجاز هذا الكتاب كل من نور الدين النعيمي، الذي اشتغل على تيمة النقوش، وكاثرين أمهان، التي اشتغلت على تيمة المجوهرات، وعلي أمهان، الذي اشتغل على تيمة الزرابي، أما الأركيولوجي والأنثروبولوجي حفيظ المقدم، فقد اشتغل على تيمة الخشب، في حين اشتغل أفولاي أبو القاسم على كل من تيمة الخزف والألبسة.

في الواقع، كل نص من نصوص الكتاب عبارة عن نداء استغاثة، لأنها تحدثنا عن فنون عريقة تعكس الجمالية البدوية والتي يجب تمييزها باستثمارها في الإنشاءات الهندسية وفن العمارة - ويعتبر مقر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مثال جميل على هذا التمييز والاستثمار الذي يتجنب التوظيف الفلكلوري - مع تطويرها من خلال مدارس الهندسة والفنون الجميلة. هذا الكلام ينطبق على فن العمارة والخشب والخزف والمجوهرات والألبسة... تدعونا الكتب الثلاث إلى حماية الفنون البدوية التي تستغل تجاريا فقط والمساهمة في المحافظة على الإرث المعماري وتحديث كل أشكال التعبير الأمازيغية.

رئيسة الجلسة : زكية داوود
المشاركون : أحمد بوكوس، ماجد معز
فضاء : ليلي العلوي
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 17 : 00 - 18 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

تسعى هذه المائدة المستديرة إلى تعميق النقاش حول موضوع إشكالي قديم لم تدرس كل أبعاده بشكل كامل بعد في تخصصات علمية مختلفة كاللسانيات لما يميزه من تعقيد وتضارب بين المقاربات المطروحة في معالجته. مناقشة موضوع بهذا التعقيد والأهمية (يرتبط أيضاً بهوية الكاتب من خلال طريقة تعبير هذا الأخير عنه في كتاباته) استوجبت مسيراً بشخصية قوية يتميز بعقل متفتح وثقافة عالمية.

وقد راهنا على زكية داوود كرئيسة لهذه المائدة المستديرة، فكان رهاننا رهاناً رابحاً. فالأستاذة تمتاز بشخصيتها الجذابة وثقافتها الواسعة وقدرتها الفريدة على الإبحار بسفينة أي نقاش بسلاسة وإيصالها إلى بر الأمان. تنحدر زكية من أصول فرنسية (كان إسمها جاكين كما ذكرها بذلك بعض أصدقائها أثناء النقاش) وهي صحافية وكاتبة حصلت على الجنسية المغربية سنة 1959.

يحضر معنا في هذه المائدة المستديرة أيضا الباحث في اللسانيات وعلم الاجتماع أحمد بوكوس، مدير المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. يقدم هذا الباحث المرموق قراءة عميقة في مجموعة من الإشكالات المرتبطة باللغة والإبداع.

ضيف مميز آخر يشرفنا بحضوره هو رجل الأعمال والكاتب والشاعر التونسي ماجد معز. من جهة، ينشر معز تأملاته الفكرية عبر مقالات غالبيتها مكتوب باللغة العربية. ومن جهة أخرى، ينظم قصائده باللغة الفرنسية، في تجسيد حي لازدواجية لغوية واعية وهادئة تثير الدهشة منذ الوهلة الأولى.



تبين من خلال النقاش مدى المعرفة الكبيرة للمتدخلين بالأدب المغربي بغض النظر عن لغة الكتابة، حيث تم استحضار أسماء ثلة من الأدباء. وقد أفضى النقاش إلى مجموعة من الخلاصات القيمة. وتجدر الإشارة إلى أن لا أحد من المشاركين اعتبر الازدواجية اللغوية أمرا سلبيا، بل اعتبروها عامل إثراء تجب المحافظة عليه وتطويره، بما في ذلك اللغات المرتبطة بفكرة المهيمنة. وقد شدد المتدخلون على أن علاقتهم اليوم مع هذه اللغات علاقة هادئة، رغم تعقدها وغموضها.

ومن ناحية أخرى، حاول المتدخلون اقتفاء أثر المتخيل في فجوات الإنتاج الأدبي وفي المسكوت عنه والساكن في أعماق المفاهيم.

وقد تم التأكيد على أن اللغة نفسها التي يستخدمها هذا الشخص أو ذاك، والمرتكزة على أسس من بينها المتخيل الصادر عن ثقافة لها تجاربها وخصائصها ومقوماتها الفريدة، ستقدم إنتاجات مكتوبة، أي كان مجالها، بألوان مختلفة من كاتب إلى آخر ؛ وهذا أمر جميل في اللغة نحتاجه جميعا.

مداخلات المائدة المستديرة

زكية داوود

يسعدنا أن نستضيف في هذه المائدة المستديرة الكاتب والشاعر التونسي ماجد معز. أصدر معز خمسة دواوين شعرية بالفرنسية - آخرها «أناشيد الضفة الأخرى» الصادر سنة 2014 عن دار النشر Fata Morgana - كما أنه كتب العديد من المقالات الثقافية باللغة العربية. ويشرفنا أن يحضر معنا أيضا الباحث المخضرم ومدير المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية أحمد بوكوس الذي كتب مؤلفات عديدة أهمها في نظري «اللغة والثقافة الشعبية في المغرب» الصادر سنة 1977 و«بعث اللغة الأمازيغية» الصادر سنة 2012 ومؤلف ثالث حول موضوع السياسة والتهبئة اللسانية له ارتباط وثيق بموضوع هذه المائدة المستديرة. وحتى لا أطيل عليكم، أعطي الكلمة الآن للأستاذ أحمد بوكوس.

أحمد بوكوس

أشكر الأستاذة زكية داوود على تحملها مسؤولية تسيير هذه الجلسة، كما أحيي الجمهور والأصدقاء والزملاء الحاضرين معنا اليوم قصد مناقشة قضايا متخيل اللغات. وأنا هنا لا أدعي إتقان جميع اللغات بالطبع. أعتقد أن أول خطورة يجب القيام بها هي الاتفاق على معنى مفهوم المتخيل (متخيل اللغة، والمتخيل اللساني الذي يمثل). المعنى الذي أقبله شخصيا هو ذلك المتداول في اللسانيات الصرفية واللسانيات الاجتماعية. وللإشارة فقط، يتم تناول مسألة متخيل اللغات بطرق مختلفة من قبل اللسانيين : مثلا، ينصب الاهتمام بالولايات المتحدة وكندا على موقف المتحدثين من اللغات بينما يركز الباحثون في دول أخرى على جوانب أخرى.

يهتم علماء الاجتماع أكثر بالتمثيلات الاجتماعية عند ناطقي لغة معينة حول لغتهم بينما يهتم علماء النفس بالتمثيلات الفردية للغة، خاصة اللغة الأم. مع بداية السبعينيات، نشأ في اللسانيات الفرنسية تيار جديد بقيادة أندريه مارتيني وأن ماري هودبين التي ناقشت في أطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه موضوع المتخيل اللغوي في بيئة فرنسية عبر دراسة دقيقة لأوجه تمظهر المتخيل في اللغة الفرنسية وهي في حالة اشتغال. وقد اهتم باحثون آخرون بمتخيل اللغة عند الناطقين باللغة الفرنسية على المستوى المعجمي والنحوي والتلفظي أيضا. إذا ماذا تقصد أن ماري هودبين بمتخيل اللغة ؟ ما تقصده أساسا هو موقف ناطق اللغة اتجاه لغته ولغة الآخر، وكذا البيئة التي يعيش فيها.

سأطرق في مداخلتي إلى موضوع التمثيلية اللغوية في مجتمع معين (الأفراد المنتمون إلى بيئة لغوية معينة). هذه قضية مهمة في المغرب الذي له خصوصيات لغوية وثقافية تميزه عن بلدان أخرى كثيرة معروفة بتنوعها اللغوي الكبير كإندونيسيا مثلا. توجد في المغرب مجموعة من اللغات هي الأمازيغية بمختلف لهجاتها والعربية الفصحى بمختلف درجاتها وتلاوينها المحلية المعروفة باسم «الدارجة». بالإضافة إلى هذه التشكيلات اللغوية محلية الصنع، تستعمل بالمغرب لغات أجنبية منذ عقود مضت. وتجب الإشارة هنا إلى أن أسر مغربية كثيرة كانت تحمل الثنائية اللغوية عبرية-عربية أو عبرية-أمازيغية. ما قدمته الآن أيها هو ملخص للوضع اللغوي بالمغرب. ولابد أن يتساءل المرء هنا كيف تعامل المغاربة مع هذا التنوع اللغوي الكبير.

ماجد معز

سأستحدث في مسألة متخيل اللغات من منظور الكاتب الأدبي. حالنا مع اللغة محير فعلا. شخصيا، أختار في كتاباتي الشعرية والفكرية اللغة الفرنسية بينما أختار في كتاباتي الصحافية اللغة العربية.

سأركز في مداخلتي على أشكال الازدواجية اللغوية التي تواجه الكتاب الذين يكتبون بلغة الآخر ولا يتفاعلون مع ثقافة بلدانهم الأصلية كما حول ببلدان المغرب الكبير وإفريقيا وأقاليم ما وراء البحار الفرنسية. يتمثل الإشكال في أن مجرد قبول الكتابة بلغة الآخر يعني التفريط في جزء منا وضياعه في فجوات اللغة وتشعباتها الدقيقة. والنتيجة هي أن الكاتب يتخلى بين كل صفحة وأخرى عن قطعة صغيرة منه أي كانت اللغة الأجنبية المستعملة. وتتبخر ذاته بنسق أسرع إذا اختار الكتابة بلغة الآخر الذي يمثل المركز والهيمنة والاستعمار. ولهذا من الضروري التزام الكاتب المقيم في لغة الآخر بتمحيص ما هو مقدم على كتابته بتلك اللغة أشد التمحيص. وهنا أستحضر مقولة للأستاذ إدوار غليسون قال فيها «كتب وأنا مستحضر كل لغات العالم، حتى وإن لم أحدثها». هذه مقولة عظيمة تفتح باب الكونية على مصراعيه، وهي ترجمة نثرية لببيت شعري يقول فيه الشاعر «سنغزو الحرية يوما ما من أجل الإنسانية جمعاء». في الحقيقة، أجدني منخرطاً في هذا النوع من الفهم للغة، وأنا لا أقصد هنا الفهم بالمعنى الفكري بقدر ما أقصد تملك اللغة وتطويعها لأنني أنتمى إلى جيل كتاب تختلف طبيعة علاقته باللغة الفرنسية مقارنة بالأجيال السابقة. أنا لم أعيش الاستعمار الفرنسي في تونس، وبالتالي فعلاقتي باللغة الفرنسية سلمية للغاية. وحتى أكون واضح أكثر، لا أعتبر الفرنسية لغة مهيمنة علي بقدر ما أراها لغة تتري رصيدي اللغوي إلى جانب لغتي الأم التي أتقنها.

زكية داوود

هل لي أن أسألك أستاذ معز ما سبب اختيارك للكتابة الشعرية ؟

ماجد معز

في الواقع، أردت التطرق لهذا الاختيار في مناقشة مسألة هيمنة اللغة الفرنسية، التي أعتبرها غير صحيحة. فاللغة الفرنسية لم تمنعني مثلاً أن أكون أنغلو فونيا وأقرأ كتابات اللورد بايرون أو والت ويتمان أو إدغار آلان بو بالإنجليزية، خاصة أنني قضيت فترة بين بوسطن ولندن. على هذا الأساس، أرى أنه إذا كانت هناك أي ثقافة مهيمنة فهي ربما الثقافة الأنغلو ساكسونية. في الواقع، اختيار الكتابة يعني اختيار ثقافة معينة ولغة معينة. لكن الاختيار ليس سهلاً لاعتبارات خاصة وشخصية. شخصياً، كتب لي أن يكون والدي شاعراً مشهوراً بتونس (ربما بالمغرب أيضاً) يحظى بمتابعة إعلامية واسعة منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود. وأعتقد أن عندي ما يكفي من الأسباب لأقول اليوم إنني لاجئ في اللغة الفرنسية لأسباب أوديبية بالدرجة الأولى. فقد كان لزاماً علي قتل الأب في لحظة معينة، وربما كان اختيار الكتابة بالفرنسية إعلان حرب. لكن حتى أكون صريحاً، لست متيقناً إن كانت هذه الحرب قد وقعت فعلاً، لأنني أنا ووالدي نظمنا أشعارنا في عوالم مختلفة. علاقتي بلغتي الأم ولغة الكتابة وأي لغة أخرى أتقنها لم تكن متوفرة عند أجيال سابقة من الكتاب. على سبيل المثال، بعض الكتاب لا يجيدون سوى لغة واحدة كإدوارد غليسون أو كتاب جزائريين كثر أتقنوا اللغة الفرنسية فقط. ما أريد قوله هو أن لغة الكتابة سواء كانت لغة المهيمن أو المستعمر أم لم تكن، فهي في بعض الحالات الخيار الوحيد أمام الكاتب المجرى على التعايش معها.

زكية داوود

أسعدني اكتشاف إحدى أشعارك الجميلة المكتوبة باللغة الفرنسية حيث تقول : «هناك على أرض من الصلصال الدافئ يحيا شعب من الملوك، حذار من غضبه ! إذا أردنا أن نستضيف العاصفة، لا بد من طقوس كبيرة ومن أسرار غامضة، لا بد أن نرعى، على مهل، غضب الآلهة، أن نبذل حياض الظلال، لا بد من خيانة ما». هل لك أن تحدثنا عن الجانب التخيلي في هذا النص ؟

ماجد معز

بصراحة، لن يجيبك أي شاعر على هذا السؤال. لكن سأشارككم بعض مفاتيح قراءة هذا النص. كتبت قصائد الديوان «أناشيد من الضفة الأخرى» بين سنتي 2011 و2013، وكلنا يعلم حجم التحولات التاريخية التي عرفتتها تونس في هذه الفترة. لقد كان هذا النص تفاعلا من الشاعر مع بيئته في تلك اللحظة الفارقة. لقد كان سؤالا موجها للمجتمع المشار إليه في المطلع : «هناك على أرض من الصلصال الدافئ، يحيا شعب من الملوك، حذار من غضبه». لن أذهب أبعد من هذه النقطة لأنه ببساطة ليس لدي أي تفسير.

زكية داوود

يمكنك على الأقل التعليق على ربط التونسيين بالملكية.

مداخلة

إنهم شعب من الملوك.

ماجد معز

مرة أخرى، لابد من استحضار السياق التاريخي.

أحمد بوكوس

هذا الموقف المسالم والمهادن الذي عبر عنه الأستاذ ماجد معز اتجاه لغة الآخر هو عكس موقف معظم كتاب المغرب والجزائر وتونس الذين تبنوا موقفا متشنجا ومعاديا للغة الفرنسية وصل إلى حد اعتبارها «غنيمة حرب»، كما لاحظ الجزائري كاتب ياسين وغيره. وعكس هؤلاء، كان الكتاب اللاحقون ممن كتبوا بالفرنسية دائمي الشكوى من معاناتهم مع الازدواجية اللغوية. والتفسير الأقرب إلى الصواب عندي هو أن هؤلاء الكتاب ليسوا مرتاحين في لغة الآخر، خاصة من يجد صعوبة في الإبداع بلغته الأم. اسمحوا لي أن أشير في هذا المستوى من النقاش إلى الدراسات والأبحاث المهمة بموقف الفرد من اللغة في الكثير من الأبعاد المهمة.

ومن الأبحاث التي أجريت في المغرب بحثٌ طُلب فيه من المستجوبين التعليق على موقف المغاربة من اللغة العربية الفصحى واللغة العربية الدارجة والفرنسية والأمازيغية. وقد كانت النتائج مثيرة للاهتمام حقا. حسب هذا البحث، عبر 41% من المستجوبين عن موقف إيجابي اتجاه اللغة العربية الفصحى، وهذا ليس رقما كبيرا. أما نسبة المواقف الإيجابية اتجاه اللغة العربية الدارجة فلم تتجاوز نسبة 7%، وهذا رقم أجده مثيرا للفضول.

بينما لم تتل الفرنسية سوى 6% من مجموع المواقف الإيجابية. بالنسبة للأمازيغية، كانت مواقف معظم المستجوبين سلبية حيث بلغت النسبة 50%. أجريت هذه الدراسة في المجال الحضري، والإشارة إلى هذا المعطى أمر في غاية الأهمية إذا علمنا أن هناك حضورا قويا للناطقين باللغة الأمازيغية في هذا المجال لعدة أسباب أهمها الهجرة القروية القوية. حسب آخر إحصاء للسكان والسكنى، أكثر من 60% من المغاربة يعيشون داخل المجال الحضري وأكثر من 80% منهم يتحدثون الدارجة، ما يجعلها التشكيلة اللغوية الأكثر استعمالا في المغرب.

أخذا بعين الاعتبار كل هذه المعطيات، يصعب حقيقة تفسير نسبة 6% التي ذكرت بمنطق إحصائي صرف. ومن هنا تأتي أهمية استحضار البعد التخيلي. فقد يكون موقف المرء إيجابيا للغاية من تشكيلة لغوية معينة كالدارجة، لكن سلوكه اللغوي شيء آخر ؛ لدى أرى أنه من المهم جدا ملاحظة السلوك اللغوي للفرد ودراسته لحظة اشتغاله في البيئية الاجتماعية.

زكية داوود

عندما أسمع كلمة متخيل، يتبادر إلى ذهني عالم الشعر. أستاذ بوكوس، ضمننت مقدمة مؤلفك الأخير ذي الطبيعة العلمية المحضة أبيات من الشعر، فما القصد من ذلك ؟ اختيارك فيه احتفال بالشعر والمتخيل، هل لك أن تحدثنا قليلا عن هذا المتخيل.

أحمد بوكوس

هذا الموضوع الذي أثاره سؤالك سيكون محور نقاش مائدة مستديرة مبرمجة غدا ستقابل - مقابلة تصادم أو تبادل، من يدري - بين الخطاب الأكاديمي العلمي والخطاب الأدبي. شخصيا، بت مقتنعا - ومن قبل لم أكن - أن القدرة التخيلية في الخطاب الأدبي تفوق بسنوات ضوئية القدرة التخيلية في الخطاب العلمي. لهذا أضفت تلك اللمسة الشعرية إلى مؤلفي.

زكية داوود

ما رأيك أستاذ ماجد معز في متخيل اللغتين العربية والفرنسية، وما الفرق بينهما ؟

ماجد معز

مرة أخرى، أرى من وجهة نظر الكاتب الملتزم بخلق اللغة وتطويرها أنه حتى وإن كنا نكتب مستحضرين كل لغات العالم، فلن نتجاوز حقيقة مفادها أن نفس الفكرة تكتب بطرق مختلفة بعدد لغات العالم. فاللغة بكل ما يميزها من موسيقى وبني ومفردات وحمولة تاريخية وثقافية وشعائرية أيضا لها أثر عميق على ما نكتب. بمعنى أنه في لحظة كتابة قصيدة مثلا، لا تكون لديك فكرة واضحة، وكل ما تفعل هو أنك تطلق زمام نفسك فتراها سائحة في عالم الخيال. وهذا ما يميز الشعر.

على سبيل المثال، ترد على الكاتب في لحظته الإبداعية أفكار مرتبطة بالخبز والنبذ. فإذا عبر عن هذه الأفكار بالفرنسية، فسيجدها منتظمة ضمن سياقات محددة سلفا بعوامل لغوية وتاريخية وثقافية ودينية معينة. وبالتالي قد تتسرب إلى نصه معاني غير التي كان يقصدها. وإذا وردت عليه نفس الأفكار وهو يكتب بالعربية، فبلا شك سيدج نفسه في جو مختلف تماما من حيث الدلالات والسياقات اللغوية والتاريخية والثقافية والدينية. مثلا، قد نتقلنا كلمتي خبز ونبذ عند الكتابة باللغة العربية إلى عوالم الصوفية.

أحمد بوكوس

في نفس السياق، ربما في هذا الكلام ما يفسر معاناة ترجمة المؤلفات وثقافاتهما، خاصة الإبداعات العظيمة.

ماجد معز

تماما أستاذ بوكوس.

زكية داوود

هذا أمر مهم حقا.

ماجد معز

في الحقيقة، لا أرى أن هناك تفاوت في مكانة وقيمة الإبداعات المختلفة في اللغة والمنتمية لنفس البلد، كما هو الحال في المغرب الكبير حيث قد يعتقد البعض أن المؤلفات المكتوبة باللغة الفرنسية أقل درجة أو تشكل أدبا منعزلا.

على كل حال، مازال النقاش متواصلاً بخصوص موقع المغاربة بين الشرق والغرب، أو ما أسميه أنا «التمشرق» و«التمغرب» وليس الاستشراق بكل تأكيد. وما لا شك فيه هو أن كتابة الأديب المغربي باللغة العربية لا تعني أبداً أنه معترف به من الجسم الإبداعي العربي؛ وستكتشف ذلك بمجرد وصولك إلى أحد مراكز الأدب العربي الكلاسيكية كدمشق أو القاهرة أو بغداد. ماذا يقال للمبدع المغربي في المشرق؟ يقال له إذا كان يكتب بالفرنسية إن ما يكتبه أدب مغربي وفرنسي. والواقع هو أن توفر الأدب المغربي على مؤلفات مكتوبة بلغات مختلفة أمر إيجابي يميزه عن غيره ويثريه ويؤكد جزءاً مهماً من هوية الكاتب المغربي دون مركب نقص.

في الحقيقة، توصلت إلى بناء هذه الأفكار والقناعات بفضل كتابي الأخير الذي أشرف على نشره دار برونو روي، وهو رجل حاد الطباع قال لي في إحدى الجلسات «أتعرف، ما كنت أنوي نشر هذا الديوان لولا أنه حقا غريب. عندما نقرأ قصائده، تصدمنا اللغة الصافية من أي بعد عجائبي نجده في الشعر عادة، وهذا يصعب على القارئ دخول مملكة الخيال من أبواب لغة هي أصلاً ليست لغته الأم، فتجده يخاطب نفسه قائلاً هذا ليس نصاً فرنسي؛ فالفرنسي لا يكتب هكذا».



زكية داوود

نعم، لهذا تماماً قرأت ذلك المقطع الصغير من قصيدتك أستاذ معز. سؤالي الموالي أوجهه للأستاذ بوكوس: قلت لنا، وأنت من يتقن العربية والفرنسية والأمازيغية والإنجليزية، إن كل ما هو شعري وعاطفي مهم. فهل لك أن تقول لنا في أي من اللغات الأربع تجد راحتك؟

أحمد بوكوس

هذا سؤال دقيق. بالنسبة إلي، إذا قلت إن الشاعر هي كذا وكذا وإنها تفعل كذا وكذا فلن تسمعوا مني إلا لغة الخشب. لكن ببساطة شديدة، اخترت الكتابة باللغة الفرنسية لأسباب مرتبطة بمساري الدراسي والمهني. درست الفرنسية في الجامعة ثم درّستها مدة من الزمن قبل البحث فيها من داخل علم اللسانيات، ولهذا أرى أنني أنقن اللغة الفرنسية أكثر من اللغات الثلاث الأخرى. لكن، إذا أردت التعبير عن نفسي ومشاعري، استعنت بلغتي الأم الأمازيغية، وزوجتي التي توجد بين الحضور يمكنها تأكيد كلامي. قبل أن أترك الكلمة، أريد التفاعل مع ما قاله الأستاذ ماجد: لقد بينت لنا التجارب التاريخية أن بعض الشعراء والكتاب الكبار قادرون على الكتابة بلغتين أو أكثر حد الامتياز عن من عداهم من كتاب الضفتين، كالكاتب اللبناني جبران خليل جبران الذي برع في نظم شعره بالعربية والإنجليزية.

ماجد معز

أُتفق معك أستاذ بوكوس في أن خليل جبران كتب وأبدع في اللغتين معا. كنت أريد التحدث عن هذا الرجل فيما بعد لأن أغلب كتاباته باللغة الإنجليزية بينما كنت أنا أتحدث عن العربية والفرنسية، لكن لا بأس أن أؤدي رأبي فيه الآن. كتب جبران نصوصا غاية في الروعة باللغة العربية، لكنها لم تكن لغته الأقوى حتى أنه كان يتلقى الدعم في بعض التفاصيل الدقيقة. ولكن من يجروء على القول بأن جبران ليس شاعرا عربيا رغم أن أغلب كتاباته بالإنجليزية ؟ لا أحد. أتعرفون لماذا ؟ لأن جبران فرض إسمه على الجميع وأحكم قبضته على اللغتين والثقافتين العربية والإنجليزية.

أحمد بوكوس

أعتقد أن ما يميز جبران هو مستواه البلاغي وسيره أغوار الروح والنفس في استقلال عن متطلبات اللغة وحدودها.

ماجد معز

لقد استطاع الرجل أن يضبط إيقاعات اللغة العربية والإنجليزية وأن ييث روحه المشرقية من خلالهما. وقد ساعده اطلاعه الواسع على الأدب الأوروبي ومؤلفات إدغار باو وأمثاله من كتاب وشعراء الولايات المتحدة على إنتاج نصوص أصيلة أهداها في الآن نفسه للأدب الغربي والعربي كل بلغته. وهذا تماما ما قصدته عند الحديث عن أدب وأديب واحد بلغات متعددة كما في الحال ببلدان المغرب الكبير.

أحمد بوكوس

حالة أخرى شدت انتباهي تهم الكاتب والمفكر أدونيس. أولا، لا أحد يختلف في كون الرجل شاعرا لا يشق له غبار في الأدب العربي المعاصر. ثانيا، إلى جانب اللغة العربية، يتقن أدونيس الفرنسية وربما الإنجليزية. قد لا نتفق جميعا على أن لغته الفرنسية أقل فخامة من لغته العربية، لكن نتفق جميعا على أنه قادر تماما على نظم شعره باللغة الفرنسية. وبلا شك، جبران متفوق في هذا الباب على أدونيس. يمثل هذان المبدعان نخبة مميزة في العالم العربي ككل. ففي المغرب مثلا، من الصعب إيجاد مبدعين من هذه الطينة. مثلا، الكاتب المغربي مزدوج اللغة عبد اللطيف اللعبي له كتابات غاية في الروعة بالفرنسية، لكن كتاباته بالعربية أقل شاعرية وتوفيقا.

ماجد معز

مثال آخر يمكن استحضاره هو المبدع المغربي عبد الفتاح كيليطو.

أحمد بوكوس

أولا الأستاذ كيليطو كاتب ناطق بالفرنسية، ومتخصص فيها، له مسار مشابه لمساري. لكن للأمانة، الرجل أقوى من أن أقارن نفسي به. بدأ كيليطو الكتابة باللغة الفرنسية فكتب نصوصا بديعة. ثم ترجم بعض كتب الأدب العربي الكلاسيكي. شخصا، أعتقد أن فرنسيته أقوى من عربيته.

ماجد معز

أنت بلا شك تعرفه أكثر مني.

زكية داود

تمنيت لو نسمع رأي الأساتذة الكرام في محمد خير الدين. حسب علمي الرجل لا يكتب باللغة العربية، لكنه من أعلام الشعر بفرنسا.

أحمد بوكوس

بالنسبة للأستاذ محمد خير الدين، أعتقد أنه ظاهرة أدبية مغربية تتجلى عبر اللغة الفرنسية. دائما ما أستحضره أنا وزملائي لأننا ننتمي إلى نفس اللحظة اللغوية والثقافية. وبكل أمانة، خير الدين مبدع استثنائي من حيث ضبط حدود مفردات اللغة الفرنسية. وإذا تأملت عناوين رواياته مثلا، ستجد فيها مفردات صعبة تضطرك إلى الاستعانة بالقاموس حتى وإن كنت ضليعا في اللغة. وقد أكد لي من عرف خير الدين من أصدقائي أنه تمتع بذاكرة قوية مكنته من حفظ القاموس عن ظهر قلب وهو لا يزال شابا. وقد كتب خير الدين نصوصا عديدة لا أشك أنكم تعرفونها.

آني ديفيرناس

شخصيا، عرفت عنه لإمامه الشديد بمعاني المفردات حتى إنه كان يعرف الأسماء العلمية لكل أنواع السمك أحسن ما يكون خبير الأحياء البحرية. وقد كانت له معرفة عميقة بمصطلحات علم الجيولوجيا أيضا. أنا أفضل وصفه بالموسوعة لأنه تجاوز القاموس بمراحل.

أحمد بوكوس

أتفق معك تماما. والأمر الرائع أيضا بخصوص هذا الرجل المميز هو أنه عصامي صنع نفسه بنفسه رغم أنه لم يلتحق بالدراسات العليا في اللغة الفرنسية وآدابها. كان خير الدين موظفا بسيطا بعد كارثة زلزال أكادير في وزارة الفلاحة البعيدة كل البعد عن المجال الثقافي والفكري. ورغم ذلك، ناضل الرجل حتى أصبح كاتباً كبيراً ليس فقط من خلال إقناعه الفرنسية ولكن أيضا من خلال قدرته على تحريك الجامد وقرع الأجراس وطرح أفكار ومواضيع ثورية لم يجرأ عليها آخرون في وقتها.

زكية داوود

ألتبس من الأستاذ معز أن يعرفنا على شعر تونس وشعرائها ؛ شخصيا معرفتي هي هذا الباب محدودة، إذ لا أعرف سوى أبو القاسم الشابي.

ماجد معز

... صراحة، لم أعرف أننا في حاجة إلى تحديث للبيانات في هذا الجانب...

زكية داوود

أنا من جيل قديم، فما العمل.

مداخلة

بصراحة، أنا لست مع استغلال اللغات في غير محلها، لأننا سنعيش تشنجات هوياتية كما هو الحال بكندا وبلجيكا. في الكيبك مثلا، يجب أن لا تستعمل كلمة «mail» بدل «Courriel»، وإذا فعلت تصبح خائنا لأنك حسب البعض تنفي هوية الإقليم الفرنكوفونية. إذا واصلنا السير في هذا الاتجاه، فسندخل متاهات يصعب الخروج منها.

في الواقع، أسعدني جدا أن الجميع هنا يتكلم فرنسية رائعة، لكن ما لم يعجبني تماما هو أن الجميع يبهر اختياري الحديث بالفرنسية ؛ لماذا هذا الإحساس بالحرَج ؟ إنها لغة طوع ألسنتكم وجزء منكم ولكم الحق في استعمالها دون أي مركب نقص. الأستاذ معز قال فكرة رائعة. قال إننا اليوم نمثل جيلين من المبدعين والمسافرين في عوالم الأدب بالعربية، لكن بالفرنسية أيضا.

مداخلة

نعم هناك جيلين اثنين من الكتاب، واللغة الفرنسية التي يتكلم بها معز هي لغة الجيل الثاني. فبلا شك، اللغة الفرنسية أو العربية التي كتب بها الجزائري كاتب ياسين قبل خمسين سنة ليست هي نفسها السائدة الآن. والمبدع العربي الشاب ذو العشرين ربيعا الآن ليس هو نفس المبدع العربي الشاب ذو العشرين ربيعا قبل خمسين سنة من الآن. شخصيا، أرى أن التطبيع مع اللغة وصبر أغوارها أمر صحي للغاية عوض توظيفها بشكل غير سليم. في نظري اللغة هي أمثن جسر يتواصل من خلاله الناس، فإذا هدمناه نجلب الضرر على أنفسنا وعلى الغير.

مداخلة

أردت بدوري استحضار الأستاذ كيليطو الذي قال مازحا «أنا، في كل اللغات، أتحدث العربية.»

مداخلة

أنا بدوري أستحضر مقولة للأستاذ عبد اللطيف اللعبي قال فيها «فرنسيتي تسكنها الدارجة». في الحقيقة هذا من أبرز ما يميز الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية والذي ولد ونشأ وكبر متحررا من الهيمنة الفرنسية. بالنسبة إلي، فرنسية فرنسا ما هي إلا نموذج واحد ممكن من بين كل نماذج اللغة الفرنسية الموجودة في البلدان الفرنكوفونية عبر العالم.

مداخلة

البعض يفكر بلغته الأم ويكتب بلغة أخرى ؛ وهذا يخلق مشكل.

آني ديفيرناس

أنا شخصا لا أعرف، لكنني أتساءل بأي لغة يفكر المرء أولا ؟

ماجد معز

أنا أفكر بالفرنسية ؛ لكنني أفكر حينها في ذاتي.

آني ديفيرناس

تماما، هذا هو بالتحديد. لا توجد ترجمة في رأس المرء، بل يعيش ما بداخله فقط. وهذا أمر رائع لدى الكتاب الناطقين بالفرنسية، أولئك الذين يفكرون ويكتبون بالفرنسية. أردت بدوري الحديث عن الشاعرة أمينة سعيد التي تملك روحا رائعة وفرنسية استثنائية... سنحت لي فرصة تقديم هذه الشاعرة للجمهور الفرنسي في إحدى المناسبات حيث ألفت بعض قصائدها. إنها شاعرة رائعة، لكنها ليست معروفة بالقدر الكافي.

من ناحية أخرى، قادني اشتغالي على الأدب المغربي الناطق بالفرنسية والصادر خلال الخمسين سنة الأخيرة إلى التعرف على محمد خير الدين الذي أيقنت من خلال محادثاتي معه في أمور عدة كالطبيعة أن بعض الناس يمتلكون اللغة الفرنسية ويحكمون زمامها أفضل من الفرنسيين أنفسهم.

مداخلة

أسعدني الاستماع إلى مداخلتك القيمة أستاذ أحمد بوكوس. أريد الحديث في نقطتين اثنتين. أولا، ما الهدف من كل النعوت التي يوصف بها الأدب ؟ هذا أمر لطالما أغاظني فقررت كتابة نص بعنوان «لغتي هي أدبي» قلت فيه أن الكاتب في الحقيقة يكتب الأدب... نعم الأدب وليس شيء آخر.

صحيح أنه يكتب بلغة لها قواعد ومفردات وتراكيب تجد أصلها في لغة إنسانية معنية، لكنه يضيف إلى كل هذا أهم شيء وهو الروح الإبداعية التي ليست لدى أي كان من الناس. فتجد الكاتب يفرغ في قوالب تلك اللغة أحلاما ومشاعر وآملا وانكسارات وأثر من كيانه.

عندما يقرأ المرء كتابات من ثقافة أخرى، فهو يمنح نفسه تأشيرة السفر إلى عوالم مختلفة، وهنا لا تبقى اللغة النص أهمية سواء كانت العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية... بل ما يهم حينها هو تلك اللمسة الإبداعية التي كما قلت تُفرغ أحلاما ومشاعر وآملا وانكسارات وأثر في القوالب اللغوية الجامدة فتبعث فيها الحياة. ولهذا أنزعج عندما أسمع البعض يصر على الجوانب الهوياتية في الأدب بدل الحديث عن الأدب وكل ما فيه من منطلق أنه أدب دون اعتبارات ضيقة. من ناحية أخرى، عندما يمر نص من لغة معينة إلى لغة أخرى، فهو يثريها ويستفيد منها أدبيا فقط ولا يخون أحد.

النقطة الثانية لها علاقة بنشاطي ككاتب مسرحي. أعتقد أن اللغة في المسرح تصبح طاقة كبيرة، وهذا ربما يشمل الشعر أيضا، يفجرها الممثل المسرحي على الركح حيث تسود روح الخطابة واللحظية، بل تصبح سيدة الموقف. وإذا أراد الكاتب المسرحي تحقيق هذه التفاعلات لابد له من تخيل لغوي واسع ولغة خاصة ينحتها.



حميد بناني

أعمل ككاتب سيناريو ؛ وأنا حاليا منكب على أول رواية لي بعنوان « Le dernier chant des insoumises ». كلامي موجه بالدرجة الأولى للأستاذ أحمد بوكوس لأن له نوعا من السلطة : ألا تعتقد أن تحقيق صحوّة ترجمة قوية جدا سيساعد في إثراء اللغة الأمازيغية ؟ شخصيا، أؤمن أن أي لغة تتطور بفضل ما تنتجه من أعمال إبداعية وما لها من كتاب وأن أي لغة تسعى - لما لا ؟ - إلى العالمية ؟ العالمية ليست حكرا على اللغات أوروبية، فالأمازيغية يمكنها تحقيق ذلك أيضا بشرط أن يكون هناك عمل قاعدي. بمعنى أن تتوفر هذه اللغة على ثلّة من المبدعين القادرين على خلق اللغة. وحتى يكون الكاتب قادرا على الإبداع، يجب أن يكون منفتحاً على الثقافات الأخرى وتكون اللغة الأمازيغية نفسها منفتحة عبر آلية الترجمة التي سنثريها. وبطبيعة الحال أنا وكثيرون ننتشوق للسفر في عوالم الإبداعات الأمازيغية من خلال نصوص مترجمة.

مداخلة

أشكر السادة المتدخلين والمسيرة التي كانت في المستوى. لدي ثلاث أسئلة أتمنى عليكم التفاعل معها. سؤال الأول للأستاذ ماجد معز، ويتعلق بمسألة تخيل اللغات.

أحاول أن أفهم ما كتبه إدوار غليسون عندما قال «كتب وأنا مستحضر كل لغات العالم، حتى وإن لم أحدثها». أجدني غير مستوعب تماما للمعنى المراد التعبير عنه لأن الصعوبة، كما أشرت وكما يعلم المتعامل مع الترجمة، تتمثل في الانتقال من لغة ونظام مفاهيمي ورؤيا كونية معينة إلى لغة ونظام مفاهيمي ورؤيا كونية أخرى مختلفة. إذا ما العمل إذا كان المرء لا يتقن كل اللغات الحاضرة في ذهنه لحظة الكتابة ؟ لهذا أجد الأمر صعباً استيعابه. ربما تساعدني في بلوغ فهم أفضل أستاذ معز. وأتمنى أن توضح مثال النبيذ والخبز بشكل أكبر.

أما سؤالي للأستاذ بوكوس، الذي لي بأعماله معرفة جيدة جداً، فيهم نسبة 20% التي قال إنها نسبة ناطقي اللغة الأمازيغية في المغرب. لمعلوماتكم فقط، بدأت أبحث في اللسانية منذ ما يزيد عن الثلاثين سنة، ويمكنني أن أؤكد لكم أن النسبة التي ذكرتم هي نفسها منذ تلك الفترة. وعليه، ألا تعتقدون في ظل ارتفاع نسبة التمدرس والتأثير الإعلامي والتفاعل الاجتماعي بين مختلف مكونات الشعب ولغاتها أن هذه النسبة أقل مما كانت عليه في الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ؟ سؤال آخر إذا سمحت يتعلق بمعية اللغة الأمازيغية : صراحة استفزني حال هذه اللغة وذكرني بحال اللغة العربية الفصحى عندما قلت إن المعيرة حتى وإن تحققت ستهم التعبير الكتابي فقط. وصراحة، يبدو لي صعباً تدوين الفوارق بين اللهجات الأمازيغية الثلاث في ظل هذه الشروط. بناء على ما ذكرت، هل لك أن تبين لنا الغاية من وراء المعيرة ؟ ألن تكون اللغة الأمازيغية بعد المعيرة لغة للمدرسة فقط ؟ ألا تتفق معي على أننا سنضع الأمازيغية في أزمة ازدواجية لغوية كالتّي تعيشها اللغة العربية الفصحى في علاقة بالدارجة ؟

ماجد معز

بصراحة، أنا لست متخصصاً في أعمال الأستاذ غليسون، لكن يمكنني القول إن القصد من مقولته هو ربما إبراز مفهوم «الكل-عالم» الذي طوره في كتابه «Traité du Tout-Monde». يقول غليسون إنه يلج العالم في لحظاته الشعرية من بوابة اللغة ؛ بمعنى أنه في تلك اللحظة يتحرر من حدود لغة الكتابة فتصير اللغات في عينه لغة واحدة.

أحمد بوكوس

أولاً، أشكرك على حسن الإصغاء والمتابعة والتفاعل. وأحيي الأستاذة زكية على الطاقة والروح التي بثتها في نقاش اليوم ولكن بالأساس على الاستمرار في العطاء وإنتاج نصوص أدبية جديدة ؛ وهذا أمر رائع. في الحقيقة، لا أدري هل يمكننا الحديث عن استياء وبغض لغة والثقافة الفرنسيين أم ببساطة عن حالة من التفاضل بين أجيال المبدعين على مستوى الإلمام العميق بتلك اللغة والثقافة. الأجيال الصاعدة من أبنائنا وبناتنا اليوم مرتبطون بالعالم الرقمي والثقافة الجديدة والأدب الحديث الرقمي أكثر من ارتباطهم بالكتابات الإبداعية المطبوعة على الورق.

قليلة هي المرات التي تراهم فيها يقرؤون كتاباً ورقياً، لكن في المقابل تراهم يقضون ساعات طويلة أمام الشاشات يقرؤون ويتعلمون ؛ وهذا أسلوب جديد في التنقّل والتعلّم نابع من روح العصر وثقافته، ولا بد من التأقلم معه. بصراحة، لا أتفق مع ما قيل بخصوص الهوية المنغلقة والقائلة والحاقة.

شخصياً، أميل إلى تبني فهم منفتح لمفهوم الهوية بحيث تكون هذه الهوية إضافة مفيدة. ما أقصده هو أنني أضيف هذه الهوية إلى تلك ثم أضيف ثالثة فرابعة وهكذا دواليك... لكنني لا أتخلص من أي منها لأنه فقط باجتماعها كلها تتشكل هويتي.

بالنسبة للسؤال الآخر، كلنا متفقون على أن اللغة نظام يتركب من وحدات صغيرة : نضم الحروف بعضها إلى بعض فتعطينا الكلمات التي نضم بعضها إلى بعض فتعطينا جملاً ففقرات فخطاب... كل هذه التفاصيل تمثل مستوى واحد في لغة الكتابة، وهو أبسط مستوى.

شخصيا، أفضل استعمال مصطلح اللغة «Langage» كما عرفه دوسوسير عندما أوظف لغة ما مجازيا وهو المعنى الذي ذكرته أنت. سأحدث عن اللغة «Langage» ميز دوسوسير - الذي أدين له بالشيء الكثير - بوضوح بين اللغة «Langage» واللسان «Langue». وإذا استثنينا هذه النقطة، أرى أن النقاط الأخرى التي ذكرت مهمة وتثري النقاش.

فيما يخص مسألة الترجمة، نحن نبذل جهدا ترجميا كبيرا، لكن يؤسفني إخبارك أننا نفتقر إلى مترجمين جيدين. المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية يخصص ميزانية محترمة للترجمة: تتوفر اليوم على ترجمة رباعيات الخيام باللغة الأمازيغية، لكنني بكل صراحة لا أعرف مدى جودتها لأنني لا أتحدث الفارسية. ترجمنا رواية «Fleurs du mal» إلى الأمازيغية لكن ترجمتها ليست من الأدب في شيء. لكنها على كل حال أفضل من لا شيء. علاوة على ما ذكرت، نسعى إلى ترجمة كتاب بودلير «Le spleen de Paris» ورواية أخرى كتبها. لكن لا أتوقع نتائج كبيرة. ومن باب الإنصاف أقول إنه من الصعب جدا ترجمة النصوص الأدبية، خاصة إذا كانت اللغة الهدف ذات طبيعة شفوية وتحتاج أن تثري نفسها بالنهل من اللغات والثقافات الأخرى. وأما الإحصائيات القديمة فيرجع تاريخها إلى سنة 1960: بلغت حينها نسبة الناطقين بالأمازيغية 60% مقابل 40% من الناطقين بالعربية. بعد ذلك توفرت نتائج إحصاء 1971/1972 التي بينت أن النسبتين أصبحتا 50%. في سنة 2004، لم تتجاوز نسبة الناطقين بالأمازيغية 40%. ثم في سنة 2014، تراجعت إلى 26%.

في الواقع، هذا ليس تراجعا بل سقوطا حرا لم نفهمه. وأمام هذا الوضع، كنا مجبرين على مراجعة منهجية المندوبية السامية للتخطيط في وضع أسئلة استمارة إحصاء السكان والسكنى، والآن أصبحنا نعرف سبب هذه النتائج الكارثية. بحسب المنهجيات والأساليب المتبعة في عمليات الإحصاء بالدول المتقدمة الديمقراطية التي لا تتخوف من تنوع مكونات شعوبها، يجب أن يكون السؤال الأول في الاستمارة هو: «ما هي لغتك الأم؟».

أما في المغرب، فاستمارة إحصاء السكان والسكنى الذي تشرف عليه المندوبية، لا يتضمن هذا السؤال أصلا ويعوض بأسئلة مثل «هل تكتب الأمازيغية بحروف تيفيناغ؟» بطبيعة الحال، سيكون الجواب بالنفي. ربما يكون الجواب بالإيجاب من الأطفال الذين يتعلمون حروف تيفيناغ في المدرسة حاليا، لكنهم غير معنيين بالإحصاء. وهذا هو أصل الرواية. في الختام، أشكركم على حسن الإصغاء والمتابعة.

الكتابة على الجدران : تحية لغزة

رئيس الجلسة : سامح درويش
المشاركون : يحيى عباد، كارل شمبيري، سيبيليو سيموني، هيفاء زنكنة
فضاء : أحمدو كوروما
التاريخ : يوم الجمعة 19 أكتوبر 2018
الساعة : 18 : 30 - 17 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

تم تنظيم هذه المائدة المستديرة لتكون بمثابة تحية لغزة خاصة وللقضية الفلسطينية بشكل عام. ولقد أشرف عليها الشاعر والكاتب المغربي سامح درويش، والذي قدم للحضور ضيف المائدة، الباحث والكاتب الفلسطيني يحيى عباد، والذي منعت روايته الأخيرة «جريمة في رام الله» التي نشرت سنة 2017، من طرف السلطات الفلسطينية. ذكر يحيى عباد بأن الفلسطينيين متحدون ويشكلون شعباً واحداً على الرغم مما يلاحظ من تشتتهم ورغم كل ما تم القيام به للفصل بينهم، سواء كانوا في مخيمات اللاجئين أو في الضفة الغربية أو في غزة وحتى الذين هاجروا إلى أماكن أخرى في العالم. وبالنسبة له، فإن الثقافة هي المشروع المشترك الوحيد الممكن حالياً والفضاء الوحيد الذي يمكن اقتحامه : أي الفنون والكتابة والموسيقى... وجميع أشكال التعبير الثقافي. إنها أداة للمقاومة ضد الاحتلال، ولكنها أيضاً تعتبر بمثابة اسمنت الوحدة الفلسطينية.

علاوة على ذلك، إنها أداة حية للنمو والتطور معاً. وهكذا، يجب أن تساهم هذه الإنتاجات في ولادة ونمو صورة الفلسطينيين حتى لا يتم تصويره فقط كمجرد ضحية ضعيفة لا تنفك تعاني، أو في المقابل كبطل أسطوري كما قدمته وصورته الكثير من الأعمال. وأضاف بأن السبيل الوحيد لمحاربة الراديكالية يمر بالضرورة عبر بناء ثقافة متجددة. من جهتها، أكدت الكاتبة والرسامة العراقية هيفاء زنكنة على مسؤولية المثقف وواجبه في بناء وزرع بذور الأمل. إنها تؤمن بنوع من المقاومة الثقافية، والتي طورت من خلالها مثلاً ساهمت فيه بشكل شخصي ومباشر. وأضافت أنه في الوقت الراهن تعتبر شبكة الإنترنت عاملاً مساعداً بهذا الشأن. كما ذكرت ذات الكاتبة بأشكال أخرى من النضال مثل مقاطعة منتجات المستعمرات.



أما سيبيليو سيموني، أستاذ وباحث إيطالي في اللغة العربية وآدابها، فهو يقارب الموضوع بشكل شمولي، مهتماً في هذا الصدد بالکیفية التي يمكن أن يؤثر بها التعبير الإبداعي الفلسطيني اليوم على العالم وبالتالي على الوضع في فلسطين. وبالنسبة له دائماً، عندما تكون السياسة في أزمة، تظل الثقافة هي السبيل الوحيد لانتزاع الاعتراف بفلسطين كشعب. كما أنها الأداة الوحيدة القادرة على كسر الخطاب السائد في وسائل الإعلام الدولية، وتأكيد الوجود الفلسطيني في التاريخ والأخبار وبالتالي التصدي للنسيان. أما تجربة الصحفي المالطي كارل شمبيري، وهو أيضاً كاتب وشاعر وناشر وعالم اجتماع، فيستمدّها مباشرة من التجربة الميدانية، حيث قضى أشهر طويلة في رام الله. ويروي هذا الصحفي الظروف المعيشية المهينة مندداً بحصار العار الذي يفرضه الاحتلال، مؤكداً على أن هذا الموقف لا علاقة له بأي شكل من أشكال معاداة السامية. ودائماً بالنسبة له، يعتبر كارل شمبيري الاحتلال جريمة يجب على الفنانين، في المقام الأول، التنديد بها، ليس فقط من خلال العمل الصحفي، ولكن أيضاً من خلال الشعر وكل أشكال التعبير الفنية الأخرى. إنها حسب قوله، طريقة قد تجعل من الثقافة حركة إنسانية جديدة.

مداخلات المائدة المستديرة

سامح درويش

تعد هذه الندوة أو الجلسة بمثابة تحية واحتفاء بغزة. واختيار هذا العنوان أو هذه التحية ضمن فعاليات المعرض المغربي للكتاب تعبر عن ذلك الانتماء المغربي والمغاربي للقضية الفلسطينية برمتها بعيدا عن الخلاف والتنافر هنا وهناك. إن القضية الفلسطينية ظلت وما تزال قضية وطنية بالنسبة للمغرب والمغاربية. فلقد نشأنا وترينا في ظل هذا الجرح العربي الذي يسمى فلسطين وعندما يتعلق الأمر بالحديث أو بفتح هذا الجرح نجد إلى جانبنا فعاليات إنسانية عبر العالم تؤمن بالحريات وتؤمن أيضا بحق الشعوب في أن يكون لها وطن. هذه الرمزية في هذا المساء جمعت في هذه الندوة أسماء متنوعة من حيث مجالاتها وجغرافياتها لكنها تلتقي عند نقطة فلسطين. معنا في هذه الجلسة اسم فلسطيني وهو الباحث والروائي يحيى عباد الذي ينتمي إلى هاته التربة التي نلتف حولها هذا المساء، معنا أيضا من العراق الكبيرة هيفاء زنكنة، ومن مجالات تربية أخرى معنا من إيطاليا سيبيليو سيموني وأيضا كارل شمبيري. إذا مرحبا بضيوفنا الكرام ومرحبا بكم جميعا.

بالطبع، عنوان هذه الندوة هو «العوالم المعزولة أو الكتابة على الجدران : تحية لغزة» بما يوحي به هذا العنوان من وجع ومن آلام ومن عزلة ومن غيرها من الكلمات المنتمية إلى قاموس المكابدة الإنسانية. فالموضوع الذي هو العوالم المعزولة لابد وأن ضيوفنا الكرام لهم علاقة بهذه العوالم نظرا لما أسسوه من بناء في كتاباتهم ومشاريعهم الأدبية وأيضا ما عاشوه ربما في حياتهم المختلفة. قلت إن ضيوفنا لهم قاسم مشترك وهو فلسطين أو الانتماء إلى هذه القضية بشكل من الأشكال سواء من جنسيات عربية أو غير عربية أي في أفقها الإنساني.

فالأستاذ والباحث والروائي يحيى عباد الذي يحضر معنا وهو جيل جديد من الأصوات في الرواية العربية وفي الأدب العربي، أيضا روائي ناشئ وواعد جدا، صاحب أربع روايات بدأها بـ «رام الله الشقراء»، و«هاتف عمومي» ثم «القسم 14» إلى روايته الأخيرة «جريمة في رام الله». هذه الرواية الأخيرة صدرت منذ 2017، أي أنها حديثة الصدور عن دار المتوسط. هذه الرواية، ربما الخيط الذي سيقود الحديث إلى ما نحن بصدد هذا المساء الذي هو العوالم المعزولة أو الكتابة على الجدران. فمعلوم أن هذه الرواية قد منعت من طرف السلطات الفلسطينية نظرا لما يقال أنها تخل بالأداب والحياء العام، فطبعا هذا هو مدخل الوجع وهذا هو المدخل المؤلم للكتابة في العوالم المعزولة أو الكتابة على الجدران. أستاذ يحيى عباد، يكفيني أن أقدمه بأعماله هاته علاوة على رصيده في البحث والانتماء إلى مؤسسات بحثية ذات قيمة عالية، أستاذ يحيى عباد، رام الله، هذا الاسم الذي له طامته وهو يتكرر في عناوين من عناوين رواياتك من رام الله الشقراء إلى جريمة في رام الله، ما سر هذا الحضور لرام الله في كتاباتك وما هي الدعايات التي يمكن أن توجي بها هاته الكلمة، يعني هذه المدينة باعتبارها جزء من هذا الفضاء الفلسطيني الذي يمكن أن نقول عنه إنه معزول بشكل من الأشكال ؟ لك الكلمة.

يحيى عباد

شكرا الأستاذ سامح على هذا التقديم، أنا سعيد بوجودي في المغرب للمرة الأولى وبوجدة. في الحقيقة سأحاول الإجابة على السؤال المطروح من طرف الأستاذ سامح، ولكن من خلال نقطتين رئيسيتين أود الحديث عنهما، ونحن نتحدث مع الزملاء في اليومين الماضيين على هذه المداخلة كنا نتساءل ماذا يمكن أن نضيف وأن نقول اليوم وكان السؤال البسيط : ماذا تقدم الثقافة لفلسطين ؟ بما تشمل الثقافة من فنون وآداب لفلسطين ؟ وماذا تعني للفلسطينيين أولا وماذا يمكن أن تقدم لفلسطين الثقافة العربية بشكل عام ؟

سأحاول الإجابة على هاذين السؤالين باختصار كامل، إننا نتابع أو نطلع على أحوال فلسطين اليوم، وأعتقد أن المغرب من البلدان كدولة و كمجتمع حيث القضية الفلسطينية حاضرة فيه بشكل كبير ونشعر بامتيازنا كفلسطينيين عندما نعرف أنفسنا كفلسطينيين هنا، وليس الحال سواء في كل الدول العربية الأمر مختلف من بلد لآخر، متابعة القضية الفلسطينية على مدار نشأة سؤال القضية الفلسطينية حتى اليوم، عبارة عن مشهد متعدد. هناك فلسطينيون في ساحات وميادين مختلفة وهناك فلسطينيون يعيشون داخل إسرائيل وأصبحوا جزءا منها بعد وقوع النكبة سنة 1948، بعد ذلك تم احتلال الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء في سنة 1967، أثرت النكبة في خروج عدد كبير من الفلسطينيين الشباب، منهم من استقر في المخيمات والملاجئ، ومنهم من تشتت حول العالم أجمع، ثم بعد ذلك، جاءت السلطة الفلسطينية لتدير أو لتحكم الضفة وغزة حيث تمت اتفاقية السلام.

ثم بعد ذلك استجذت الانتفاضة وعاد أو تأكد الحكم العسكري الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، ثم سحب الإسرائيليون من غزة كتاب المقاومة. واليوم غزة كما تعلمون تخوض حصارا مع الحكم المستدرك عليها، حركة حماس والضفة أو بعد المناطق التي تطبق عليها حركة فتح. هذا المسار الطويل جعل الفلسطينيين في كل ساحة من هاته الساحات يعيشون قصة نضالية أو تجربة مختلفة.

تعدد الفلسطينيون هم شعب واحد بالمعنى الافتراضي أي بالمعاناة اليومية بالسؤال النضالي بتفاصيل الحياة المعقدة أصبحوا أكثر من شعب وأكثر من جماعة. وبات اليوم حتى معرفة الفلسطيني عن أحوال الفلسطيني الآخر، معرفة الفلسطيني الذي يعيش في غزة عن الفلسطيني الموجود في لبنان أو في سوريا أو حتى في العراق باتت صعبة وتحتاج إلى كمية كبيرة من عملية التكيف والمتابعة والتعريف بما تغير على الفلسطينيين في كل هذه الساحات، فكيف الحال بالنسبة للعربي أو للأجنبي، وهو يحاول فهم هذه القضية التي صارت من أعقد القضايا وأكثرها تشابكا. لماذا يختلف وضع الفلسطيني في الأردن عن وضع الفلسطيني في لبنان ؟ وبماذا تختلف أوضاعهم عن الفلسطيني في الضفة ؟ ولماذا الفلسطيني في الضفة يعيش في ثلاث مناطق A و B و C وماذا يعني تأثير هذا على شكل حياته اليومية أو نضاله اليومي ضد الاحتلال الإسرائيلي ؟

هذا الواقع المركب والمعقد الذي أدى إلى تشتت في المجتمع الفلسطيني بشكل كبير، وساهم الفلسطينيون أو بعضهم أو قادتهم في مراحل تراجع المجتمع الوطني، في تأكيد هذا التشتت حيث خرجت بعض الحلول والمساومات تتعلق بجزء من الفلسطينيين وليس بهم جميعا، وأدى هذا الأمر إلى تعدد التواريخ أيضا، لكل مجموعة فلسطينية ظروف معاناة ونضال مختلفة وبالتالي سلبيتها الخاصة عن نضالها، اليوم لا يوجد في ظل تراجع مشروع الوطن الفلسطيني انقسام الفلسطينيين، لا يوجد مشروع واحد من جانب الفلسطينيين يُعرفهم بالفلسطينيين في كل مكان، تراجع المشروع السياسي واختفاؤه جعل الملاذ الأخير أو المساحة الأخيرة لوجود فضاء فلسطيني مشترك يجمع بين كل هؤلاء هو الثقافة وهو الفنون بشكل أساسي سواء كانت بكل أنواعها وأيضا الكتابة من شعر ورواية، هذه المساحة تسمح للفلسطينيين اليوم وهذا الإنتاج الفني أو الأدبي أو الثقافي يمكنه أن يعامل الفلسطينيين كمجتمع واحد يعيد توصيل هذه الأجزاء من التقطع أو التشتت. يمكنه أيضا أن يعيد ترميم ما تهدم من الماضي عبر تأكيدات السلبات المشتركة والتي هي محل نزاع وتهديد مستمر. إن كان بيد إسرائيل أو بيد الأمة العربية أو بيد الفلسطينيين أنفسهم. الأمر الآخر أنه يمكنه أن يصور الواقع اليوم الحاضر بشكل دقيق.

حين أقرأ أدبا يعالج حياة الفلسطينيين في المخيمات أو يتحدث عن تجربة الفلسطيني في المخيمات الأردنية أو في سوريا، أشعر أنني أقرب إلى هذا الفلسطيني. ويمكن اختصار الكثير حين نتأمل في الموسيقى، في الشعر والأدب لأنه هو الذي يكون هذه الهوية الواحدة التي من الصعب اليوم تجميعه بطريقة أخرى والأمر الأهم الذي يكتسب أهمية كبرى في هذا السياق أنه يُمكن فلسطين من تخيل مستقبل مشترك للفلسطينيين جميعا، مستقبل نأمله مستقبلا عزيزا متحررا ينشد الحرية بكل هذه المعاني.



تخيل هذا المستقبل لا يكون اليوم في ظل حالة اليأس الموجودة والمعطيات السياسية الواقعية الصعبة إلا من خلال الأدب أو من خلال الفنون بمجموعها، لذلك فالثقافة أو الفنون هي ما تبقى لهم. وهي وسيلة للبدء في تصور وجود فلسطين أو هوية فلسطينية تتعرض كل يوم للاستهداف، هذا ما تمثله الثقافة بالنسبة للفلسطينيين اليوم حسب رأيي، الأمر الآخر الذي ينتظره الفلسطيني من الثقافة العربية أو القادم من الخارج.

الأمر المهم هو أنه نحن كفلسطينيين عانينا طوال فترات نضالنا من تيارين فلسطينيين وعربيين مشتركين، فالأول لا يرى في الفلسطيني إلا ضحية، ضحية ضعيفة مستسلمة تتعرض دائما للاعتداء ولا يمكن التعامل معها إلا بمنطق التعاطف والتباكي والنحيب. شيء يشبه التعامل مع حيوانات منقرضة، وتعيش في مراحل مهددة بالانقراض. وتيار آخر لا يرى في فلسطين إلا البطل، البطل الذي يذهب إلى المعركة وبالتالي يجب أن يكون أسطوريا، ومن الجيد لن يموت لأنه يحقق الصورة الأسطورية التي يتخيلها العرب عنه أو غير العرب أو الفلسطينيون أنفسهم، هذان التياران طاحنان. طحنا الفلسطينيين بشكل كبير، التيار الأول يدمر بتخلله أي إمكانية للمواجهة وللصمود والتيار الثاني لا يرى الإنسان، بلحظات ضعفه الإنساني الأساسية البسيطة وهو يواجه الاحتلال ويواجه الاستعمار. أعتقد أن ما يمكن أن تقدمه الثقافة هو أن تعيد تعريف الفلسطيني بين هاذين التيارين كضحية غير مستسلمة. التنازل عن موضع الضحية اليوم أو رفض أن نكون نحن ضحايا هذا المشروع مخالف لأبسط البديهيات ولكن تصويرنا كضحايا سلبية، كضحايا ليس لديها أي مشروع مناهض هو جناية كبرى على هذه الضحية التي لا تزال تقاوم وتقاوم وتحاول بمساحتها المتوفرة أن تفعل شيئا. يصح أن نقول أن الفلسطينيين أبطال ولكن لا يعني هذا أن البطل ليس لديه هذا الجانب الهائل من الضعف الإنساني من المواقف المتداخلة، من لحظات الانكسار الأساسية، لا يمكن لشيء أن يقارن بهذه الصورة الدقيقة الفلسطيني اليوم، مثل الفنون والآداب لأنها تستطيع إمساك هذه اللحظة الإنسانية المهمة جدا. فأنا أنحاز لنوع الكتابة الذي يصوره الفلسطينيون في هذه المساحات، هذا النوع من الكتابة يجربه كثير من الفلسطينيين، فلسطينيون يريدون أبطال فقط، أو يريدون ضحايا فقط، وكذلك عرب لا يريدون أن يرون أو لا يعتبرون الأدب أدبا فلسطينيا أو الفن فنا فلسطينيا ما لم يكن متصلا بصورة الضحية الصرفة أو البطل الصرف، توصلنا إلى بيئة عربية ثقافية تستطيع تعريف الأدب الفلسطيني مع التحفظ على هذا المنفذ «الأدب أدب» بغض النظر عن جنسية ما يكتبونه.

يمكن أن أتحدث اليوم مع كارل شميري قصيدة قد تكون مكتوبة على شاطئ في مالطا تعبر عن غزة أكثر من قصيدة كتبت تحت القصف في غزة. هذه قيمة الأدب، فأتمنى دائما أن لا نجادل حين نكتب نصا يربط بين هذا البطل والضحية، أن لا نجادل بهذا الانطباع كأننا نحن لسنا بفلسطينيين أو نكتب شيئا غير فلسطين، هاته التوقعات المسبقة تقتل روح الإبداع عند الفلسطينيين.

برأبي وهي نقطة توصلنا إلى رام الله وأنهى بها تدخلي، بقناعاتي الشخصية أن هذا النضال الفلسطيني الطبيعي أفرز الكثير من الإكراهات سببها الفلسطينيون أصلاً. هذه الإكراهات أو أنواع الرقابات المتعددة تغطي دائماً أو تتدثر بدثار الجذرية المبدئية والتمسك العنيف بحقوق الفلسطينيين والدفاع عنهم. ولكن في رأبي هذه الجذرية معقدة لا تمكن الإنسان من إدراك إنسانيته وبدأ نضال حديث : نضال معقول سياسي يمكن أن يوصله إلى شيء.

إن فهمي للأدب أو للرواية كأني من فلسطين هي محاولة كشف زيف هذا الخطاب الجذري الذي هو في الحقيقة إعادة التفكير في النظر إليه، غير الجذري مشكلة الرقابة ومشكلة السلطة أو أحياناً الإيديولوجيا الوطنية السائدة في فلسطين أنها تريد خطاباً معيناً عن الفلسطينيين لا تكبر غيرهم. مما يعبر عن الضعف الفلسطيني الإنساني أو تعدد نماذج أو أوجه حياته المختلفة، فأنت تشوه هذه الصورة التي يراد بها أن ترسم بعناية أو يعتقد أنها مرسومة بعناية. أنا مقتنع تماماً أن الميزة الأساسية للرواية هي قدرتها على التشكيك بهذه الروايات الجذرية، هذا الأمر أشبه في رسم الحروف على الجدران وليس مجرد الكتابة على الجدران، إذ يمكننا أن نتحدث عن صعوبة هاته العملية. العوالم المنعزلة هي المنطق الذي يمكن لنا من خلالها رؤية الفلسطيني بالشكل الطبيعي الحقيقي، الفلسطيني الذي يجادل تحت الاحتلال إلى اليوم لا ينكسر، لا تزال لديه القدرة المستمرة على المواجهة، ولكن هو أيضاً ضحية وضعيف وخاضع لهذا الظلم التاريخي. ولا يجوز لنا أخلاقياً أن نسعى دائماً إلى حشره في زاوية هذا البطل العائد إلى موطنه أو الضحية المستسلمة. فهذا تصوري لما يمكن أن تقدمه الرواية، وهذا تصوري للنعاطي أفضل عربياً أو حتى عالمياً مع الأدب المنتج في فلسطين.

سامح درويش

شكراً أستاذ يحيى عباد على هاته الإضاءة. إن الإعلام يقدم صوراً باستمرار، وكل من موقعه، لكن أن نستمتع لمثل هاته الإضاءات من الداخل، من كاتب وروائي وباحث، فأعتقد أنه يمكن أن نثق في ذلك. فنحاول أو حاولنا أن نكون الآن صورة بحثاً عن ذلك الفلسطيني الذي ليس هو بالضحية السلبية ولا هو بالبطل الخيالي. إننا بصدد البحث عن منتجنا الأدبي. وفي الواقع، يعني النضال في البحث عن ذلك الفلسطيني المتوازن الذي يمكن أن يكون ضحية ولكن ضحية إيجابية ليس فقط في الواقع الذي يتعامل مع معطيات الواقع وحيثياته. شكراً أستاذ يحيى عباد، إذ نستكمل هذه الرحلة التي نلتقي فيها جميعاً عند فلسطين مع قامة أدبية وقيمة نسائية ونضالية.

تحضر معنا الأستاذة هيفاء زنكنة، إذ لي الشرف أن أقدم قامة من مستواك وأيضاً أنت أكبر من أن نقدمك، إذ أن اسم هيفاء زنكنة بالنسبة لنا اسم له قيمته. فهيفاء هي كاتبة وأيضاً رسامة عراقية وربما من أصول كردية. في البداية اختارت طريق الصيدلة وهذا اختيار ربما لا أدري إن كان مصحوباً بالأدب أم أن الأدب قد جاء فيما بعد، ولكن على الأقل هذا التخصص في الصيدلة قد قاد هيفاء إلى منظمة التحرير الفلسطينية، ومن هنا دخلت هيفاء إلى صلب القضية الفلسطينية، وبطبيعة الحال هذا الموقع قد سبقته معاناة أيضاً كي تتم دعوتها لجلسة مثل هذه في موضوع مثل الذي ناقشه الآن. فهي قد خبرت الجدران المغلقة من خلال مرورها بتجربة السجن في العراق وأيضاً من خلال انتمائها إلى القضية الفلسطينية وأيضاً من خلال المنافي الكثيرة التي مرت منها.

إنها في الواقع تجربة غنية ويمكن أن تكون للكتابة على الجدران معنى في حياة هذه الكاتبة والرسامة التي خلفت عندها تراكماً إبداعياً مهماً. يمكن أن نذكر من ذلك : «مفاتيح مدينة»، «نساء على سفر»، إلى غير ذلك من الزوايا، واهتمامها أيضاً بقضية المرأة سواء في العراق أو تونس أو المغرب، هذه كلها مداخل فيها نوع من المكابدة، إذا، كيف تعيش هيفاء هذه المكابدة الإبداعية والأدبية في كل هذه الأشياء ؟ كيف تنظر إلى هذه الكتابة عندما تكون في عالم معزول ؟

هيفاء زنكنة

شكرا جزيلاً على هذا التقدير وأتمنى أن أكون عند حسن ظنكم. أحاول الآن الخروج من هذه العوالم المغلقة والمعزولة. في رأيي أنه بإمكان أن يمر الكاتب أو المثقف أو الإنسان العادي بتجربة صعبة، ولكن بالنسبة للمثقف، فإن المسؤولية تختلف ؛ يجب أن يمتنع عن جعل حياة الآخرين مأساوية، حتى لو كانت حياته مأساة. نحن صناعتنا الأمل، نبث روح التحدي، إزاء الظروف التي نعيشها، هذا هو واجبنا ومسؤوليتنا، مسؤولية المثقف والكاتب، فانطلاقاً من هذه النقطة لن أتحدث عن عوالم مغلقة وإنما أتحدث عن عوالم تحمل في داخلها الأمل. وأنا رأيت هذا الأمل في فلسطين كما كنت أراه في العراق.

في فلسطين، عملت وكنت محظوظة جداً أثناء تواجدي هناك ضمن احتفالية فلسطين للأدب، إذ سئلت لي الفرصة أن ألتقي بالأسيرات المحررات وهن مجموعة من النساء اللواتي قضين سنوات في معتقلات المحتل الصهيوني. أقل واحدة كانت 5 سنوات وأكثرهن امتدت على ما يزيد عن 15 عاماً. كن فخورات أيضاً، لم يكن هناك داعياً أن يقدمن أنفسهن على أنهن ضحايا إطلاقاً، كن جريئات وفخورات لما قمن به، ومعظمهن فعلاً قمن بعمليات حقيقية ضد المحتل وهي مسألة قانونية وشرعية. من حق الشعوب أن تقاوم وأن تحارب المحتل وليس كما يقال لنا وهو شائع هذه الأيام، أن هناك العنف الموجود في داخلنا، ويجب أن نتجنب ذلك، هناك أنواع وهذا النوع كان حقيقي بالنسبة للأسيرات وهن فخورات به، وهذا الاعتزاز بما قمن به انتقل إلي، وهذا هو ما دفعني إلى أن أعمل معهن على مدى أكثر من عام. ومن زيارتي إلى رام الله إذ توفرت لنا فسحة في مكان صغير وجلسنا فيه وتحدثنا وحكيانا، لكن المهمة الرئيسية كانت أن تكتب هؤلاء النساء التجربة الرئيسية بأنفسهن، هناك العديد منهن طبعاً من أدلين بشهادتهن في المقابلات الصحفية، وفي بعض المؤتمرات أيضاً. لكن ما رغبت فيه هو أن يقمن بأنفسهن بكتابة تجربتهن كما أعلم أن الكتابة عبر الوسيط تختلف عن الكتابة الفورية باستخدام مفرداتهن وتجاربهن، النقطة الأخرى التي اهتمينا بها وركزنا فيها عبر نقاش أن يتم الإمساك باللحظة الإنسانية، التي عاشتها النساء سوياً أو بشكل منفرد، اللحظة الإنسانية هي ليس أن تقول أو تكتب أنه تم اعتقالني بالتاريخ الفلاني وأطلق سراحني بالتاريخ الفلاني وتعرضت للتعذيب، وكذا وكذا، لا، هنا توصلنا إلى فهم المتلقي، القارئ هل هي تكتب له يومياتها الخاصة وفي دفتر مغلق ومعزول ؟ أم نحن نريد نقل هذه التجربة التي تعتبر هي شكل من أشكال المقاومة إلى القارئ العربي، القارئ الفلسطيني ؛ الفلسطيني طبعاً يعرف يعيش هذه التجارب يومياً، هذه المسائل، ومن تم ترجمتها إلى أوروبا ودول أخرى، ومن هنا بدأنا الكتابة وهن كاتبات رائعات وناقشنا وحاورنا بعضنا البعض.

طبعاً النقطة الإيجابية الأخرى التي لاحظتها، هي أنه كما قال الزميل يحيى عباد، الذي حكى عن الاختلافات بين الفلسطيني، فلسطيني من الداخل وفلسطيني من الخارج، هناك تقسيمات متعددة بالإضافة إلى وسائل المقاومة نفسها، هناك اختلافات ؛ ما حدث أنه في تلك الغرفة التي جلسنا فيها لم يكن هناك غرباء كن فلسطينيات وكل واحدة منهن تحمل الأمن الفلسطيني بجوانبها وكن ينتمين إلى منظمات مختلفة من حماس إلى الجهاد إلى الجبهة الشعبية إلى الديمقراطية وكن ينظرن إلي باعتباري كنت من منظمة التحرير السابقة. وما أعطاني مجال أن أكون محايدة إلى حد ما في هذا الوسط رغم عملي في هذه المنظمة، النتيجة كانت كتاب، مجموعة قصص قصيرة أو خواطر، شهادات، ولكن شهادات كتبت بشكل فني، كان هذا هو الاختلاف عن الشهادات المباشرة أن تكتب بشكل فني، وكان هذا هو دوري، التجربة موجودة، هن عشن كل هذه الحالات ومهمتي كانت أن أوفر بعض أدوات الكتابة : آلية الكتابة، تحسينها إلخ. وكانت النتيجة هو هذا الكتاب، الكتاب هو «حفلة تائرة» والعنوان أخذناه لأن هناك طفلة لإحدى الأسيرات المحررات، ولدت في السجن وسميت تائرة، وهذه الطفلة كان لديها 25 أما، فتمكنت وهي في عمر سنتين أن تتحدث بطلاقة لكثرة كلام النساء واحتضانها وجهن لها بحيث تعلمت كيف تتعامل مع السجينات، كانت تفهم كلام النساء، كانت تعطي الإشارات وتركض وتنبه حين قدوم السجينات.

علمت فيما بعد أنه حين تم إطلاق الكتاب في بيت لحم - وأنا لم أستطع الذهاب إلى هناك - أنها حضرت إطلاق الكتاب، ثائرة نفسها إذ كانت موجودة مع الأمهات. هاته التجربة تبين أنه فعلا ما تحدث به الأخ يحيى للثقافة والكتابة هو عمل توحيد الكتابة. قد لا يكون تأثيرها أني وفوري مثل السياسة والقرارات السياسية وقرارات الجهات المسؤولة أو غيرها ولكن لها عمق. وفيما بعد أنها أيضا بعد إصدار الكتاب، فهو كتاب صغير بالمناسبة ليس كتابا كبيرا جدا أو ضخما، أنه صار للكتاب حياته الخاصة، صارت هناك عدة ندوات في مدن مختلفة في فلسطين يتحدثون فيها وأنا حضرت أثناء إضراب الأسرة عن الطعام أيضا، وقرأوا في الخيمة الكبيرة التي نصبت في داخل رام الله، قرأت أحد النصوص لواحدة من النساء هناك، والشئ الآخر الذي هو مختلف بالنسبة لطبع الكتاب اخترت أن يطبع الكتاب إلكترونيا باستثناء بعض النسخ القليلة لذلك لا يرى أنه متوفر، ولكن إذا كان عندكم وقت وهذا ما أتمناه فعلا، أنه موجود ومتوفر مجانا بإمكانكم تحميل الكتاب، لتفادي هذه الحدود ولتفادي أي صعوبة في النقل والبحث ؛ وبلغني الناشر أنه من خلال الشهر الأول من وجود هذا الكتاب أنه تم تحميله 35 000 مرة، هذا رقم مذهل بكل مقاييس الطباعة والنشر العربية. أنا أعتقد أن كل كتبي الباقية لم يتم قراءتها من قبل 35 000 مرة، ممكن تكون 10 أو 20 معقولة بالنسبة لهذا الرقم.

إن للمقاومة أشكال متعددة، ومستويات مختلفة وفلسطين أنا لا أعتقد أنها وضعت جانبا وإنما كل ما نحتاجه أن نعثر، أن نبتكر، أن نبذل في كيفية المقاومة، ولا أعتقد أن أي منكم عاجز على هذه المسألة. النقطة الأخرى التي أعتمد عليها دائما وهي على مستوى آخر، ليست الكتابة لكنها قريبة منها وهي حملة المقاطعة وعدم الاستمرار والحصار، هذه حملة كبيرة جدا، أنا مقيمة في لندن وأعرف مدى تأثيرها في العالم الغربي، هذه حملة كبيرة جدا وإذا ما استطعتم بأي شكل من الأشكال التواصل معها والاطلاع عليها ومعرفة الجوانب وأعتقد هي أيضا بالمغرب موجودة، قد تكون هي خارج نطاق الكتابة ولكن هذا هو شكل آخر من أشكال المقاومة لأننا كجيل تربينا أن تكون فلسطين جزء منا، وسنواصل هذا وشكرا.

سامح درويش

شكرا أستاذة هيفاء على هذا الكلام، بعد الحديث بكل هذه المشاعر، ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع مع نساء أخريات تونسيات ومغربيات وغيرهن فأتمنى أن يتاح لنا المزيد من الوقت لكي نستمع إليك وإلى مشروعات في هذا الجانب، من المؤكد أيضا أن الثقافة ليست سقفا فقط لتوحيد شعب ما، بل أنها أيضا إمكانية وسقف لإنسان عام يمكن أن يجمع كل شعوب الأرض. إذا، يبقى الاستمرار الفعلي للثقافة هو خدمة الإنسانية بشكل عام. من هذا الباب يحضر معنا من إيطاليا صديق خبير باللغة العربية سيبيليو سيموني ومن الصدفة أن اللغة العربية وربما الشعر هو الذي قاده إلى القضية، فهو تفاعل مع الشعب العربي وبالتحديد مع تجربة محمد درويش، وحبه للغة العربية جعله ينتمي للقضية الفلسطينية، لكي يختار نصوصا من الأشعار الفلسطينية ويترجمها، وأن يقوم بعدد من الأنشطة في هذا المجال، هو شاعر وكاتب، له مجموعات شعرية وله رواياته ويهتم بالقضية الفلسطينية. وهو سيتحدث باللغة العربية. إذا، انتماء لهذه القضية جعله أيضا من المدعوين هنا للحديث عن الكتابة على الجدران أو العوالم المعزولة. لك الكلمة.

سيبيليو سيموني

شكرا جزيلاً لكم وللمشاركين في هذه الندوة وشكرا على هذه الدعوة. أعتقد أن هذا شيء مهم جدا أن نتحدث نفس اللغة. أريد أن أطلق من السؤالين المحورين المطروحين في هذه الندوة. السؤال الأول فيما يخص الثقافة الدولية في دعم المقاومة واليوم بشكل خاص في حدث غزة، أما السؤال الثاني يتساءل عن دور الفضاء الخائفي في غزة ويتسلل رمزية كما قيل سابقا الكتابة على الجدران وأسس الكتابة تحت الحصار، وسأعود إلى هذه النقطة المهمة فيما بعد.

بالطبع نعتقد أن سؤال جوهري كيف للفن والتعبير الإبداعي بشكل عام الفلسطيني أن يساهم في ترك أثر قوي في توسع المنطقة الفلسطينية إلى العالم ؟ إذا، التركيز على أهمية دور الثقافة اليوم، تأثير على الرأي العام العالمي وتعادلاته على المطالب العادلة أو المشروعة الفصلين منذ أكثر من 70 سنة. سأواصل مع ما قيل سابقا، السؤال يجزني بدياتي الأولى، مساري المهني كمدرس للأدب العربي المعاصر، باحث أو مترجم للأدب العربي بشكل عام والفلسطيني بشكل خاص فهذا هو أمر مسلم به، أعتقد أنه يمكن أن يعتبرها الوسيلة الوحيدة في أيادي الفلسطينيين في سبيل التحرير، ويمكن للثقافة أن تلجأ لما فشلت فيه السياسة، إذا كانت الثقافة السياسية في أزمة كبيرة وهذا منذ عدة سنين ما بعد اتفاقية أوسلو، فإن الثقافة الإبداعية ما زالت حية ومتعصبة في فلسطين اليوم.



في مختلف الجامعات الفلسطينية في الأراضي المحتلة في غزة، نجد أن المفكرين والمبدعين والمثقفين الفلسطينيين لهم دور أساسي لأجل سد الفراغ السياسي الفلسطيني الذي يأتي نتيجة اتفاقية أوسلو. وأعتقد كذلك أن وفاة عرفات تركت أثارا مهمة جدا ؛ إذ كانت محطة تاريخية جد مهمة بما فيها من تناقضات وآراء مختلفة عن هذه الشخصية.

لكن، وفي المخيل الجماعي إذا جاز التعبير في المخيل الفلسطيني، الشاب الفلسطيني كفرد ليس فقط كرجل سياسي يلجأ في الإبداع الفني لخلق حضوره في العالم هذا حدث مهم جدا، هذه النقطة يجب أن ترتبط بنقطة أوسع لهيمنة الخطاب الصهيوني الإسرائيلي في المشهد الدولي اليوم، هذه النقطة أنا كأجنبي تجبرني بصفتي باحث إيطالي يدرس وينظر لهذا العالم من الخارج هذا مهم جدا. من الواضح أن الصمت والغياب الفلسطيني على الساحة العالمية يعقدان على حقيقة الأدوات المادية وغير المادية والبوادر المادية وغير المادية ؛ الصهيونية والإسرائيلية كانت دائما تمنع وستواصل منع الفلسطينيين لإيصال أصواتهم وانتشار رواياتهم كمفهوم معرفي. أعتقد أن التعبير الثقافي والفن الإبداعي اليوم بمثابة رواية مضادة أو جزء من ذاكرة مضادة كما تشهد عدد كبير من أعمال اليوم تعيد النظرة أو تقوم بمراجعة أحداث النكبة في كل مجالات الإبداع الثقافي والأدبي والروايات والشعر. نجوان درويش كتب كثيرا عن هذا الموضوع، الفن التشكيلي والسينما بهدف تعقيد الوجود الفلسطيني في التاريخ وفي الحاضر ومحاربة النسيان في الرد على الهامشية في الحروب الفلسطينية.

سامح درويش

شكرا لك سيموني على هذه المداخلة المثمرة. وأكد أنها نظرة لعين من الخارج على الداخل. وكل من ينتمي للقضية الفلسطينية يصبح من أهلها فأكد أنه التفكير في تطوير أساليب وطرق المقاومة عبر المنتج الثقافي فهو أمر إنساني وبالتالي فإنه مدخل لنعتبر أنه يمكن تكوين مفهوم الثقافة وجعلها مهمة إنسانية لشعوب الأرض كافة. إنما كان هناك قضية من عيار القضية الفلسطينية يمكن أن ينتمي إليها كتاب وباحثون وشعراء من كل بقاع الأرض كما يفعل سيموني الآن بانتمائه لهذه القضية وللغة العربية. أهنتك سيموني على نجاحك الكبير في الإلقاء باللغة العربية وكما قلت لك قبل أن ندخل إلى الجلسة أننا نحن العرب نتلذذ حينما يتكلم لغتنا الآخرون، الدور يأتي إلى صديقنا كارل شمبيري الذي هو كذلك سيبدل مجهودا ليجدنا باللغة العربية وهذا أيضا يدل أننا نريد أن نتلذذ كثيرا بسماعكم. كارل شمبيري هو كاتب وشاعر وصحفي وناشر في العدد الإنساني.

إذا، هذه كلها مهام يمكن أن تجعل له تجربة غنية يمكن أن نستفيد منها، وتجربته مع اللغة العربية كانت أيضا عبر الشعر، إذ لديه مختارات شعرية نشرها تضامنا مع الشعب الفلسطيني فلاحظ أن طريقة التضامن والمقاومة يمكن أن تكون بصيغ مختلفة. الترجمة أيضا هي سلاح يمكن أن يعتمد على نصرة القضية الفلسطينية وعنوان هذا الديوان : «الدم ينزل كما مطر»، فله روايات أيضا «تحت قبعة الشمس» و«البيان القاتل» وهذه الأخيرة أيضا كانت قد تحولت إلى حلقات إذاعية على ما أظن تم منعها لأن فيها أيضا تمسك بشيء ما.

ينتمي كارل أيضا إلى علم الاجتماع، هذا الجانب أيضا يجعلنا نستفيد من تجربته، إذ أن علم الاجتماع يقترب من القضايا، أعتقد أنه يقترب من هذه القضية بالذات من منظور يمكن أن يكون مفيدا جدا، إذن مرحبا بك وشكرا لك، سوف نسمعك باللغة العربية.

كارل شمبيري

شكرا لك الأخ سامح، أنا زرت فلسطين كصحفي سنة 2009، فأول 9 شهور كانت في رام الله، كان يزورنا يحيى عباد وكنت في ذلك الوقت أنتظر البطاقة الصحافية من حكومة إسرائيل لتمكيني من الدخول إلى غزة عبر الطريق الرسمية. لكن لكوني أشتغل كصحفي مالطي مع شركة فلسطينية، كنت أحكي مع زملائي في رام الله، صحفيين ومصورين واستغربت لما كنت أحكي معهم أن واحد من زملائي سألني : «لماذا تريد أن تدخل إلى غزة، فهي مليئة بالإرهابيين والجهاديين؟» وكان رجل فلسطيني من رام الله، استغربت ولكن بعدها فهمت أن هذه نتيجة سياسة إسرائيل، سياسة الاختلاط التي وصلت للانقسام لمحاصرة غزة، سياسة تقسم الفلسطينيين بين أنفسهم.

في النهاية، ذهبت إلى غزة عبر الطريق المصرية وهناك رأيت أن حصار غزة ليس بحصار إسرائيلي فقط، وإنما فيه حصار مصري أيضا، فالمصريون هم أيضا يغلقون الحدود. ممكن إنها سياسة بكونها جزء من فلسطين ومن الواجب أن تربط بين الضفة وغزة. لكن في النهاية، نتيجة هذه السياسة أن مصر لا تزال في حدود غزة. ورأيت كيف تعمل معهم في الحدود في «معبّر رفح» : فهو معبر مقرف لا يوجد فيه أي شيء يدل على الإنسانية إطلاقا أي انعدام كرامة الفلسطينيين.

دخلت غزة وجربت شخصيا معنى الحصار، إذ رأيت أطفال في سن 10 و 11 سنة تحت الحصار وتفاعلات بالأسئلة البسيطة التي سألوني مثل : «كيف هي الحياة خارج غزة، في رام الله، في القدس؟ كيف هو شكل الأقصى؟» كانوا يريدون فقط رؤية المسجد الأقصى. واحد منهم قال لي : «من أين أتيت؟ ما هو عمك ولماذا تتكلم باللغة العربية؟ ما هو راتبك الشهري؟» هذه كلها عبارة عن أسئلة طرحت علي من طرف جيل من شباب فلسطيني يعيشون تحت الحصار 24 ساعة كل يوم إذ أن ليس من عادتهم رؤية أجانب في مدينة غزة أو في كل قطاع غزة.

بالنسبة للأخ عباد تكلم عن نقطتين، الفلسطينية الضحية والفلسطينية كيطل خيالي، أنا أقول أن هناك نقطة ثالثة التي عليها أن تصور فلسطين وبالصبط غزة كمنطقة إرهابية، مجرمة وهذه صورة تتداول بين الفلسطينيين أنفسهم لأن سياسة إسرائيل تعتبر ناجحة في هذا الموضوع، إذ توصل الفلسطينيين بين غزة والضفة الغربية والقدس أنهم من بلد ثاني، إذ هم خائفين من بعضهم ولا يعرفون كيف يكونون وطن واحد كفلسطين. أنا رأيت أيضا أن حصار غزة هو تنفيذ جماعي بدون جريمة. الجريمة الوحيدة هي وجود 2 مليون فلسطيني في غزة هذه هي الجريمة. إن سياسة إسرائيل تسعى إلى نسيان هذا الأمر وعدم التكلم، أن هناك 2 مليون (أطفال، نساء ورجال) موجودين هناك. وأي شيء قلناه أثبت هذه السياسة الصهيونية الإسرائيلية. وأطلب الدول من العرب الذين هم جزء من هذا التحالف الصهيوني، الذين يترجمون كل ما نقوله، إلى المعادلة السامية مثل : عندما نقول أننا كفلسطينيين ضد الحصار والاستعمار هم مباشرة عبر الحكومات ومواقع التواصل الاجتماعي يقومون بنشر «نحن ضد اليهود». أنا أفكر أننا كفنانين يمكننا أن نستمر في الحديث ونكمل مشوارنا مع فلسطين سواء كان بالفن والموسيقى والشعر، بأي طريقة يمكننا فعل ذلك، عندما تعيش كل فلسطين بالحرية، أي واحد منا سيكون مرتاحا وإنسانا كاملا، لأن ذلك سوف يقع في حياتنا ومسؤوليتنا تكمل في أن نتكلم في الموضوع ونمنع هذه الجريمة ضد فلسطين، وهذا هو دوري إن كنت صحفيا أن أوصل الحقيقة «ماذا يقع في غزة مباشرة؟» لكن كشاعر بعدما رأيت تلك المشاهد المؤلمة، أكتب شعرا وهذا أكثر أهمية من التقرير الصحفي، لأنه عن طريق الشعر يمكن أن أوصل صوت إنساني. لما تسأل فلسطيني يعيش تحت الحصار والدمار وتقول له ماذا تريد ؟ يجيب بكل حصرة : «أنا أريد أن أعيش، أن أسافر، أريد أن أرى لندن واليونان، وآخر يقول أريد أن أشتغل» يتمنون أشياء بسيطة محرومين منها. فيما قبل كنا نقول نريد فلسطين وتحيا فلسطين، الآن نقول نريد غاز، قنينة غاز لأن هناك انعدام للكهرباء : 14 ساعة يوميا بدون كهرباء في غزة.

سامح درويش

شكرا على هذا الإلقاء الجميل، كانت جلسة ممتعة.

رئيسة الجلسة : سمية نعمان كُسوس
المشاركون : بهاء الطرابلسي، فاليري موراليس-أتياس، سميرة النقروش،
أنيسة بلفقيه
فضاء : القدس
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 11 : 00 - 09 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

انطلقت مسيرة هذه المائدة المستديرة الأستاذة الجامعية والكاتبة والباحثة الاجتماعية سمية نعمان كُسوس من سؤال محوري مزدوج تكرر عدة مرات خلال النقاش : هل كان قرار برمجة مائدة مستديرة بعنوان «كتابات نسائية» قرارا سليما أم لا، وأي تعريف لهذه الكتابات ؟ في الواقع، كل المشاركات تقريبا أبدن تحفظهن من هذا المصطلح وقلن إنهن لا تعرفن معناه ولا تستطعن ربطه بأي سياقات اجتماعية.

حضرت معنا أشغال هذه المائدة المستديرة ابنة وجدة أنيسة بلفقيه، وهي أستاذة جامعية وكاتبة أصدرت ثلاث روايات حتى الآن. تبرز بلفقيه في مداخلتها مدى حاجتها إلى الكتابة كبهجة وتفرغ ولكن أيضا كمنارة تنير الطريق للناس ونقول كل المسكوت عنه، لاسيما معاناة المرأة في مجتمع يشهد تحولات عميقة.

ضيقة أخرى أسعدنا حضورها معنا اليوم هي الكاتبة الجزائرية وخريجة كلية الطب سميرة النقروش، التي عبرت عن سعادتها الكبيرة بزيارة وجدة، رغم أنها اضطرت للسفر جوا من الجزائر العاصمة إلى الدار البيضاء بسبب استمرار إغلاق الحدود البرية. أكدت الأستاذة النقروش حرصها على اكتشاف مواقف الناس من النساء الشاعرات والكاتبات في المجتمعات التي تزورها. كما تحدثت عن صعود نجم الكتابة النسائية في الجزائر بعد الاستقلال والدور المهم الذي لعبته قرية عائلتها ونواحيها في هذا الباب. وفي نفس السياق، استحضرت المتدخلة بعض الأسماء التي طبعت تاريخ الأدب الجزائري ؛ كما أنها استعانت بالحالة الجزائرية والبرازيلية والمكسيكية والجنوب إفريقية في إبراز مجموعة من الظروف والحيثيات التي تساهم في إيصال الكتابات النسائية إلى القراء والترويج لها أو العكس.



من جهتها، نفت الكاتبة الروائية والصحافية المغربية بهاء الطرابلسي أي دور للنوع في الكتابة، واعتبرت المائدة المستديرة بمثابة «غيطو» تسود فيه لغة واحدة. لكنها اتفقت والمسيرة على أن النساء المغربيات قويات وأن أقلامهن حرة لا تهاب شيء، وعلى أن هذا لا ينفي ضرورة النضال النسوي في سبيل تقويم الاختلالات الاجتماعية. أما سميرة نعمان كُسوس فقد تحدثت عن خصائص الكتابات السوسيولوجية، وعرجت بإيجاز على طبيعة عمل الباحث الاجتماعي الذي ينطلق من ملاحظة الواقع. أما الخلاصة التي خرجت بها فهي أن الباحث الاجتماعي يستطيع النضال بالكتابة. كانت المداخلة الأخيرة من نصيب الصحافية والكاتبة الروائية فاليري موراليس- أتياس المزداة بوهرا. وقد أكدت موراليس، شأنها في ذلك شأن باقي المشاركات، أنها تتخذ مسافة من مفهوم «كتابات نسائية» ؛ لكنها استدركت بالقول أن إثارة الموضوع هي على كل حال أفضل فرصة للتعبير عن موقف معين وتسليط الضوء على بعض الأمور التي تذهب التوازن في علاقة الرجل والمرأة. أجمعت المتدخلات على ضرورة استمرار النضال في سبيل تحرير المرأة وتبويئها المكانة التي تستحق، وأكدن أهمية الكتابات النسائية وإضافتها النوعية في الأدب. من جهة أخرى، تباينت آراء المشاركة عندما طرح السؤال التالي : ما الذي يغلب على الكتابات النسائية : التقدمية أم المحافظة ؟ اختلفت المواقف واحتدم النقاش واستطال إلى أن وضعت له المسيرة نقطة النهاية بالتأكيد على صحة جميع المواقف المعبر عنها.

مداخلات المائدة المستديرة

سمية نعمان غُسوس

مرحباً بالجميع وشكراً جزيلاً للجنة المنظمة وكل من ساهم من قريب أو بعيد في انعقاد هذه المائدة المستديرة. في الحقيقة، تسير مثل هذه الجلسات أمر رائع حقاً، لأنك كمسير تمتلك السلطة وتكون الأمر النهائي. وأنا اليوم سأستغل هذه السلطة. يسعدني أن أقدم لكم خمسة نساء مميزات. وأنا هنا سأؤسّس أنني مسيرة : نحن خمس نساء رائعات سنتحاور فيما بيننا بحميمية. يسعدني أن أقدم لكم كل من بهاء الطرابلسي التي ستحدثنا عن نفسها ومسارها وكتاباتنا وفاليري موراليس-أتياس. أما أنا، فإنني «باحثة اجتماعية كبيرة»، استعملت هذه العبارة لأن هذا ما يقوله الناس عادة عند تقديم أحد ما في مثل هذه المناسبات. العرف عندما يقدم المرء نفسه هو أن لا يقول : «أنا الروائي الكبير» أو «أنا الشاعر العظيم» مثلاً. لكنني اليوم سأعمل بنصيحة الشاعر الذي قال «ما حك جلدك مثل ظفرك، فتول أنت جميع أمرك» وسأقدم لكم نفسي بالقول : أنا سمية نعمان غُسوس ؛ وأنا باحثة اجتماعية كبيرة. تحضر معنا أيضاً أنيسة بلفقيه وسميرة النقروش. سنتحرر في نقاش اليوم من الشكليات الأكاديمية.

قبل أن أعطي الكلمة لأنيسة، أريد أن أقول لكم إن مشاركتي في هذه المائدة المستديرة حول موضوع «كتابات نسائية» تشعرني بالانزعاج، لكنني قبلت المشاركة مادام هذا اللقاء فرصة لفتح نقاش حول هذه المسألة. شخصياً، لا أعتبر أنني منتمية لأي توجه أو حركة أدبية قد نسميها «كتابات نسائية». أكثر من ذلك، أنا لا أعرف ما هي الكتابة النسائية : ربما نستفيد من المشاركات في فهم معنى هذا المصطلح ؟ هل المقصود هنا الكتابات التي تتطرق إلى مواضيع متعلقة بالنساء ؟ إذا كان الأمر كذلك، فهناك كتاب رجال هم أيضاً يكتبون في هذه المواضيع. وعليه، لا أجدني منتمية لأي نشاط أدبي يسمى «كتابات نسائية». نحن نكتب فقط ! قد نكتب عن النساء كما قد نكتب عن الرجال أو أي موضوع آخر. في الوقت الحالي، أشعر أن الناس يصنفونني وكتاباتي في خانة ضيقة. ألفت كتاباً حول موضوع النساء العازبات عنوانه «حمل العار» بالتعاون مع الطبيب والباحث السوسيو-أنثروبولوجي الدكتور شبيب غُسوس، والذي هو أيضاً، وبإلها من مصادفة شريك حياتي العزيز. ولهذا أنا أتساءل : إذا قرأ أحد «حمل العار» الذي يناقش إشكالاتاً تعاني منه النساء وعلم أن الكتاب ألفه رجل وامرأة، فأين سيصنّفه ؟ هل سيعتبره كتابة نسائية أم لا ؟ هل يكفي ارتباط هكذا نص باسم رجل معين كي لا يصنف كتابة نسائية ؟ هذه نقطة أردت التطرق إليها سريعاً. والآن أعطي الكلمة للأستاذة أنيسة بلفقيه.

أنيسة بلفقيه

يندرج المعرض المغاربي للكتاب في إطار الاحتفال بمدينة وجدة كعاصمة الثقافة العربية خلال سنة 2018. وجدة هي مدينة التلاقي والتلاقح الثقافي والحضاري التي انخرطت في المعاصرة دون أن تفقد أصالتها. وأنا دائماً جد مسرورة بالعودة إلى مدينتي الحبيبة، التي ستسكن روحي وتطبع ذاكرتي أبداً ما حييت بفضل الذكريات الجميلة مع العائلة وفي أيام الدراسة، ولكن بفضل ما زرعت من قيمها الفريدة التي ساهمت في تشكيل أسلوبتي في الحياة والتعامل مع الناس في ميدان التدريس الذي قادني بشكل طبيعي إلى الكتابة التي أحيها من أجلها اليوم. حتى الآن، أصدرت ثلاث روايات تدور حول مسار ومصير امرأة اسمها ياسمين بن حمو. عناوين هذه الثلاثية هي «ياسمين والتعويذة» و«لن أرى الخريف الملتهب» و«السمندر الناري». الرواية الأولى هي ببساطة سحر كلام ومعاني- لا أجراً على وصفها بالكتابة النسائية - وهذا الوصف يتماشى مع عنوان النسخة العربية «سحر الكلمات». موضوع النقاش هذا اليوم يدعونا إلى استحضار مجموعة من القضايا والاهتمامات التي تطرقت إليها الكتابات الملتزمات.

هذا معناه أننا بصدد الحديث عن إبداع نسائي في مختلف الأشكال الإبداعية كالرواية والشعر... أريد أن أستعرض بإيجاز السياقات التي رأت فيها كتابات النساء النور. في البداية، كانت المرأة حبيسة عالم الحريم الذي خلقه لها الرجل. واقتصر دورها على حفظ ونقل قيم متوارثة إلى الأجيال الصاعدة دون أي زيادة أو نقصان. لقد كانت المرأة معزولة ومنغية في فضاء خاص جدا. لكن هذه الأسيرة أرادت أن تكون أسرة كما كانت شهرزاد : وباستثناء أنوثتها، لم تملك المرأة إلا ذكائها وكلامها الساحر كي تفرض وجودها كإنسان له الحق في التعبير. كان أول عهد المرأة بالكلمة الساحرة المبدعة في بستان القصة وواحة الشعر وحلقة الطرب. ثم بعد ذلك، نجحت، رغم أنف العقلية الكارهة للمرأة، في اقتحام عالم الكتابة. وهكذا، حققت المرأة قفزة كبيرة إلى الأمام لما أصبحت قادرة على إسماع صوتها والتعبير عن ما يراودها من أفكار ويخالجها من مشاعر. أول ما احتقلت به النساء الكاتبات حينها هو تلك اللعبة الجديدة التي لم يلعبنها من قبل والتي نسميها اللغة. لقد كسرت الكلمات جدار الصمت وأعادت إلى النساء أصواتهن المقموعة. وبسرعة كبيرة، أطلقت هذه الأصوات صرخة تحرر مدوية : رغبتني في الكتابة تعبير عن حاجتي إلى التفرغ والإبداع والبهجة التي تعبر عني وتربطني بالعالم. وهذا أيضا يتماشى مع المبدأ الديني «أضعف الإيمان» : فقد أصبحت المرأة الكاتبة بتملكها اللغة والكلمة قادرة على إنكار المنكر باللسان. وعليه، فالكتابة تمنحني أنا والقارئ فرصة تقاسم مجموعة من الانشغالات في مجتمع يشهد تغيرات عميقة. وكما أشرت من قبل، تحكي رواياتي الثلاث قصة امرأة تحاول إيجاد معنى لحياتها.

يكشف القارئ لحظات السعادة التي تعيشها البطلة ياسمين كامرأة، ويكتشف طفولتها ومغامراتها العاطفية وصادقاتها وحياتها كأم. لكن الروايات تقدم أكثر من ذلك بكثير : إنها تلقي الضوء على نضال ياسمين في سبيل التحرر والاستقلال وفرض وجودها في الحياة المهنية والخاصة ومواجهة عقلية التمييز بناء على النوع في الميدان السياسي ورفع الظلم عنها في الميراث عندما لا يكون لها ولد ذكر. باختصار، حياة ياسمين تجسيد للنضال اليومي الذي تخوضه المرأة ضد واقعها المرير. لكن قد يتساءل البعض هنا : أليست ياسمين مثال لامرأة أمس واليوم وامرأة هنا وهناك في آخر المطاف ؟ بالموازاة مع البحث عن حبكة درامية مضبوطة وجدية وأسلوب بديع، ألتزم مع نفسي أن تكون كتابتي لعبة إغراء للقارئ : والتحدي هو أن أدفعه إلى طرح أسئلة معينة على نفسه وأن يخرط في مجتمعه بدل الاكتفاء بدور المتفرج. لقد باتت النساء الكاتبات تعبرن باسم النساء الصامتات بسبب الأغلال الاجتماعية والهيمنة الممارسة عليهن. وبالتالي، يمكننا القول إن النساء الكاتبات أصبحن مسؤولات عن معالجة واقع النساء المرير واستنكاره والعمل على بناء مستقبل أفضل. لقد سكن هؤلاء النسوة هم تعرية واقع النساء الأليم ومقاومته وتحرير النساء ويعتفن من قبورهن التي دفن فيها قبل الممات. لقد أصبحن منبر من لا منبر لهن، تعبرن عن همومهن وآلامهن وتقضض بأعلى صوت كل الطابوهات المسكوت عنها وتحمل شعلة تنير الطريق. هذه الجملة الأخير ذكرتني بشعر قاله إيمي سيزار : «سوف أذهب إلى بلدي وأقول له : احتضني ولا تخشى شيء. وإذا لم أعرف فيما أتكلم، فعنك تكلمت، وسأقول له أيضا : سيكون لساناني لسان الآلام التي لا لسان لها وطريقي إلى تحرير الألسن التي غلتها قيود اليأس».

سمية نعمان غسوس

شكرا جزيلا على تقربينا من كتاباتك والتزامك ككاتبة والتأكيد على ضرورة أن تكون الكتابة عامة ونسائية في نفس الوقت، بناء على التجارب التي خاضتها الكاتبة المعنية. عزيزتي سميرة، هل تريدان أخذ الكلمة ؟

سميرة النقروش

مرحبا بالجميع، في البداية، أود أن أشكر اللجنة المنظمة على الدعوة الكريمة. وأنا مسرورة للغاية بالحضور معكم في مدينة وجدة التي قدمت إليها من الجزائر العاصمة.

لكن العجيب حقا هو أنني سافرت بالطائرة إلى الدار البيضاء أولا ثم قطعت مئات الكيلومترات قبل أن أبلغ وجدة التي هي في الحقيقة بعيدة عن الجزائر ببضعة كيلومترات فقط. هذا العجب يعيشه كل الفنانين الملتزمين بوصل المنفصل وجمع المفرق في أعمالهم الأدبية وحياتهم الواقعية. ولا أخفيكم أنني منذ وصلت وجدة وأنا أشعر بسعادة غامرة وصدري منشرح. أنا لا أنتمي إلى جيل عاش الحرب أو جيل عاش في فترة كان فيها المرء يحمل حقيته في لحظة هكذا تم يعبر الحدود في دقائق ليستقل سيارة أجرة صفراء إن جاء من المغرب أو حمراء إن جاء من الجزائر. هذه الأمور عاشها أصدقاء أكبر مني سنا ويحكون لي عنها. هذا فقط شعور اتجاه وجدة وقصة الحدود المغلقة أردت أن أخرجه من صدري، رغم أنه لا يرتبط بموضوع النقاش. أنا لست من غرب الجزائر ؛ بل من الجزائر العاصمة : ولدت في هذه المدينة وترعرعت فيها. وقد نشرت أول كتاباتي في بداية سنوات الألفين. في سنة 2001، نشرت أول ديوان شعري بتعاون مع دور نشر جديدة في الجزائر حيث قتل شاعرين اثنين على الأقل هما الطاهر جعوط ويوسف السبتي. وهذا المعطى لابد أنه يعنى شيء غير جيد بالنسبة لأي مبدع.

أنا دائما أدرج نفسي في خانة الشعر والكتابة الجزائريين والمغاربة والأفارقة وأبعد من ذلك. نحن نتحدث عن مسارات فردية تختلف من شخص إلى آخر حسب تجاربهم ومعارفهم في هذه الآداب المختلفة التي ندخل في دوائرها. أفضل وصف هذا الوضع بالقول إن تاريخنا متداخل ومركب من أشياء كثيرة تخرج بالكاتب والشاعر عن حدود جزائريته أو مغربيته... وتلقي به في عوالم لا جنسية فيها. نشأت في الجزائر العاصمة، حيث درست وتخرجت من كلية الطب. لكنني أنتمي في الأصل إلى منطقة جبلية ترتفع فوق سطح البحر بتسع مائة وخمسين مترا. تسمى قريتي تاويريت موسى، وأنا أعرف أننا قريبون من مدينة مغربية اسمها تاويريت لم تتح لي بعد فرصة زيارتها. قصة قريتي جميلة جدا ؛ أولا لأن أهلها مرابطون أتوا من جنوب المغرب حاملين معهم علما ونورا ؛ ثانيا لأنها قرية المغني معطوب الوناس المغتال سنة 1998 وقرية المبدع مولود فرعون، لمن له إطلاع على الأدب الجزائري ؛ ثالثا لأنها قرية فاطمة آيت منصور، صاحبة أول رواية نسائية في الجزائر بعنوان «قصة حياتي»، والدة المبدعين جون وطاووس عمروش. بدأت قصة هذه الأسرة المبدعة بزواج عينة آيت لاربي برجل من قرية تيزي هيبيل المجاورة لقرية تاويريت موسى. بعد وفاة زوجها، وجدت هذه السيدة نفسها مطالبة، بحكم الأعراف والتقاليد، بالزواج من شقيقه لما تبين أنها حامل قبل انقضاء العدة. وقد كانت الوليدة هي فاطمة آيت منصور التي نشأت في دير قبل الانتقال إلى قرية أخرى حيث ستلتقي زوجها المستقبلي. أنا أحدثكم عن قصة هذه المرأة لأن كثيرا من النساء، بما في ذلك النساء الأميات، تفتخرن بهذه المرأة العظيمة التي كسرت حاجز الصمت فأسمعت المجتمع صوت النساء وأنارت الطريق لأجيال من الكاتبات جاؤوا بعدها. أكثر من ذلك، خاضت هذه المرأة معركة قضائية ضد أسرة زوجها كي تحصل على نفقة لها ولأولادها... بعد أن تولى عنها زوجها الثاني وأنكر ابنه طمعا في مصاهرة عائلة ميسورة. يقودوني الحديث عن فاطمة إلى الحديث عن امرأة أخرى. قبل بضع سنوات من الآن، شاركت في مؤتمر بجنوب إفريقيا التقيت فيه على الخصوص كاتبتين إفريقيتين عظيمتين هما الكاتبة الأمريكية الإفريقية دجين بورتس المستقرة بجزيرة غوريه السنغالية منذ السبعينيات، والكاتبة الجنوب إفريقي نادين غورديمير الحائزة على جائزة نوبل للأدب سنة 1991. وقد حضر فعاليات هذا المؤتمر عدد من الكاتبات الإفريقيات المميزات حقا. ما لاحظته هو أن الفضاء الأنغلو ساكسوني يفهم جيدا الغاية من تنظيم مؤتمرات وندوات متعلقة بالنساء الأمريكيات الإفريقيات.

يمتاز هذا الفضاء بتنوع كبير وعدد هائل من الكتاب. عندما أزور بعض أصدقائي الكتاب بالولايات المتحدة، أجد نفسي في عمارات كلها فنانون وفي كل طابق فنان كبير واحد على الأقل. وأنا هنا لا أقصد فنانني السبب والأحد. أما في بلادنا، فالفنانون عشرات أو مئات في أحسن الأحوال يخرج منهم فنان وحيد بعمل نعتبه الأكبر والأبدع والأجود في مشهدهنا الإبداعي. هل من المعقول أن نستمر منفصلين عن بعضنا البعض في سياق أصبح فيه التمازج والتلاقح الثقافي والإنساني مهدد ؟



عندما وصلت إلى جوهانسبورغ الجنوب إفريقية بمناسبة ذلك المؤتمر، وجدت المنظمين في استقبالي بالمطار. وكانت معي امرأة من ناميبيا علمت منها أنها أول روائية في بلدها. قدرت أنها تكبرني بثلاثين أو أربعين سنة، ما يعني أنها كانت في حدود السبعين سنة. وربما ألقت كتابها الأول في نهاية الثمانينيات أو بداية التسعينيات. وهنا نصطدم بالواقع. صحيح أننا مبهجات بكسر سجن المرأة وتحريرها من الولايات التي كانت تعيشها وأنا سأمنا بعض الشيء من كوننا نساء ومغاريبين وسودا وهذا وذلك من كل تلك التصنيفات الممكنة. نحن نرفض هذه التصنيفات. فنحن لم نصل أصلا إلى ساحة أدبية فيها الآلاف والآلاف من الكتاب والشعراء كي نتحدث عن التصنيفات والكتاب المتخصصين ؛ نحن نعبر عن ثقافات مجتمعات كاملة نحتاج أن نسمع فيها أصوات فردية دون تصنيف.

لكن من ناحية أخرى، ذكرتني هذه المرأة الناميبية بحقيقة إفريقية مرة مفادها أن التعبير والكتابة في بعض البقاع الإفريقية مازال مغامرة خطيرة تحتاج من يضحى ويفتح الطريق. لدى أرى أن علينا أخذ المسألة بحلم وروية لأن مثلا عدة كاتبات جزائريات من أجيال مختلفة استطعن هن أيضا إسماع أصواتهن بفضل فاطمة آيت منصور وابنتها طاووس عمروش التي سمحت لنفسها بنشر مذكرات أمها التي حكّت قصتها الغرامية مع جان جيونو بشاعرية وحس مرهف يصعب علينا حتى تخيل حدوثهما في بلداننا. في نهاية المطاف، التنوع والتعددية شيئان يساعدان على التطور. أنا دائما حريصة على اكتشاف مدى تفاعل مجتمعات البلدان التي أزورها مع الكتابات النسائية الصادرة في ذلك البلد.

منذ سنوات طويلة الآن، عندما تجتمع بكتاب أو كاتبات في الولايات المتحدة، تجدهم يذكرون لك أسماء كاتبات يعيشون أعمالهن لا لأنهن نساء بل لأن ما كتبنه غير شيء ما فيهم وفي حياتهم وتكوينهم ككتاب وفنانين. أما في الأرجنتين، فكل الشاعر يؤمنون أن أليخاندرنا بيتارنيك غير حياتهم وأثرتها. وفي البرازيل، يحدثونك عن كلاريس ليسبيكتور. كنت مؤخرا بالمكسيك ؛ وقبل سفري اقتنيت مختارات شعرية صادرة عن دار النشر الفرنسية «غاليمار» خيب أملني وأفقدت المشرف عليها الكندي كلود بوصولاي احتراممي ؛ لم يدرج في تلك المختارات إلا شاعرة واحدة ! لكنني قلت في نفسي ربما لم يوجد نساء شاعرات لأننا عندما نقرأ، على سبيل المثال، مختارات جان سيناك لا نجد أي شاعرة أيضا. وقد كان سيناك يتمنى بروز شاعرات جزائريات على الساحة من فرط ما كان صعبا، عند استقلال الجزائر، العثور على نساء قادرات على إنتاج نصوص نعتبرها نحن الشعراء شعرا مقبولا يمكن نشره. على سبيل المثال، نظمت مريم بان قصائد شعرية، لكنها لا ترقى إلى ما نظمته جان سيناك أو جون عمروش وشعراء آخرون.

لقد نظمت بعض النساء أشعارا جيدة لولا أن موضوعها السجن، فنحن لا نريد أي نقص كيفما كان في مسيرتنا التحررية فقط كي نقول إن عندنا نساء شاعرات. وقد وجهت سيناك نداء في مقدمة المختارات الشعرية التي أشرف عليها بضرورة أن تبرز على الساحة الأدبية الجزائرية شاعرات. لقد قال سيناك هذا الكلام سنة 1971. لهذا قلت في نفسي أن كلود بوصولاي ربما لم يلتق شاعرات يمكنه إدراج شعرهن في مختاراته، تماما كما حدث للشاعر المكسيكي أوكتافيو باث.

التقيت في زيارة إلى المكسيك قبل سنتين أو ثلاث سنوات شاعرات استثنائيات. ورغم أن إسبانيتي متوسطة، حاولت ترجمة الشاعرة سارة ماريأ أوريب سانثيز. إنهن تنتجن نصوص بديعة حقا. ولذلك كنت أسأل الشاعرات والشعراء الذين ألتقيتهم لماذا لم يكن هناك أي شاعرات في جبل أوكتافيو باث، وهي نفس الفترة التي وضع فيها كلود بوصولاي مختاراته (مختارات من ثلاث مائة صحيفة ختمها بفصل من خمس عشرة صحيفة سماه «كتابات نسائية»، أي موضوعنا لهذا اليوم، وضمنه بعض الأشعار اللطيفة) وقد كان هؤلاء الشاعرات والشعراء يقولون : «وجد في تلك الفترة شاعرات بمستوى أوكتافيو باث نفسه، لكنهن انكفن وتراجعن إلى الوراء لما كان صاحب المختارات هو باث الذي يعده الجميع أب الشعر والأدب المكسيكي» (أعده بقرينة فذة وفرت كل الإمكانيات التي سمحت اليوم للشعر المكسيكي المعاصر أن يكون شعرا مزدهرا ينبض بالحياة). الخلاصة من كلامي هي أنه لابد من الانتباه إلى السياقات التاريخية والاجتماعية والثقافية... التي نعيش فيها وأن لا نقلل من شأن التمازج والتلاقح، خاصة في بعض السياقات. والهدف هو أن نلح في مطالبنا وسعينا كأفضل طريقة نعبر بها عن احترامنا للنساء والكتاب والفنانين الذين سيقروون مؤلفات ومختارات كتلك التي أشرت إليها، لأن ما يمنح الكاتبة هويتها الأدبية المميزة وأسلوبها الشعري أو الروائي هو مسارها وتجاربها الخاصة من جهة وكونها امرأة من جهة أخرى. وبلا شك، كونك رجل أو امرأة فذلك يؤثر عميقا في تجاربك وطبيعة وجودك وكيانك. وعليه، أرى أن كل ما نحتاجه حقا هو بروز روايات وشاعرات من الطراز الرفيع في الساحة الأدبية ؛ أما الباقي فهو تحصيل حاصل.

سمية نعمان كسوس

شكرا لك سميرة على أخذنا معك في جولة عبر العالم. شكرا لسميرة الشاعرة وأحاسيسها الرقيقة. تفضلني عزيزتي بهاء ؛ لك الكلمة.

بهاء الطرابلسي

شكرا سمية ؛ وأنت بلا شك باحثة اجتماعية كبيرة. أتذكر لك كتاب «ما وراء الحشمة» الذي سحرني وكان له أثر كبير في حياتي. ولكن في المقابل لا أشكر اللجنة المنظمة لهذا المعرض. ما معنى «كتابات نسائية؟» هل نحن الآن ككاتبات نجلس في «غيطو» ؟ ربما في هذه اللحظات التي أخطبكم فيها تشارك نساء كتبن في قضايا تهتم المرأة في موائد مستديرة أخرى غير هذه التي أجد أنها «غيطو» بمعنى الكلمة. لقد اجتمعنا كنساء فيما بيننا وكلنا يقين أننا نجهل معنى عبارة «كتابات نسائية».

الكتابات لا جنس لها أنتجها ذكر أم أنثى. عندما ننخرط في نضال معين، نتوجه إلى الجمعيات والشارع. لكن عندما نكتب، فنحن حينها إنسان ونحن حينها نساء وكل شيء نرغب أن نكونه، لكن قطعاً لسنا قضية تدافع عن قضية. وعندما نقرر الدافع عن قضية معينة، نتجاوز الكتابة إلى عوالم السحر والخيال في الرواية والشعر. الكتابة والنضال لا يتماشيان كثيرا، خاصة في المحكيات. وعليه، لا أريد أن أشكر اللجنة المنظمة. هذا هو السبب الأول كي لا أشكرهم، أم السبب الثاني فهو متعلق باللغة ؛ عندنا نساء تكتبن بالفرنسية والعربية أيضا. وقد تمنيت حقا أن تدعو اللجنة المنظمة كاتبات تكتب بالعربية. كنت سأشعر بالسعادة، حتى وإن وضعتمونا في هذا «الغيطو».



كنا سنحصل على كتابات بلغتين وطاوله مستديرة ثنائية اللغة نتحدث فيها عن الكتابات اللاتي اخترن اللغة العربية بدل اقتصارنا على أولئك اللاتي اخترن اللغة الفرنسية. فاجئني حقا كيف أن نقاش موضوع «مقاربة الكوني» أصبح نقاش حول «كتابات نسائية». هل هذه هي الكونية ؟ وأين هي هذه الكونية ؟ هل الكتابات كونية أم نسائية ؟ هل نحن في منطق مسرحية «الحوار الباطني للفرج» أم أننا في منطق كتابات كونية دون اعتبار جنس الكاتب ؟ شخصا، أو من أن هذه هي الأسئلة الواجب طرحها في الوقت الراهن. هنا أشكر صديقتنا الجزائرية التي سارت في هذا الاتجاه. أنا ككاتبة أرفض أن أصنف وأضع في وضعيات لا علاقة لي بها، لأن رواياتي لا تتحدث بالضرورة عن النساء. كتبت قصص كثيرة عن الرجال بصيغة المتكلم واندمجت في الروح الرجالية التي تطلبتها تلك القصص. هنا لا بد من التأكيد على أن الرجالية والنسائية هي رموز قبل كل شيء. في المرأة شيء من الرجل وفي الرجل شيء من المرأة. وبالتالي، لا يمكننا أن نصف الأشياء بهذا الأسلوب الفج المتهافت. نحن اليوم مطالبون بمناقشة الكونية وكونية الكتابة بدل مناقشة جنس المؤلف. أنا روائية كتبت روايات عديدة آخرها الرواية التشويقية «كرسي البواب» التي تحكي قصة قاتل متسلسل إسلامي يوقع مسرح جريمته بآيات قرآنية. وكما ترون، القصة لا علاقة لها بالنساء. كتبت هذه الرواية في مواجهة الظلامية والنزعة السلفية في بلدان المغرب الكبير.

سمية نعمان شسوس

اسمحي لي عزيزتي بهاء أن أختلف معك بعض الشيء. قلت أننا لا نكتب كي نناضل ثم مباشرة بعد ذلك قلت يجب أن نكتب كي نستنكر بعض الأشياء غير السليمة.

بهاء الطرابلسي

لا يا عزيزتي سمية. «كرسي البواب» رواية تشويقية، الشخصية البطلة فيها مميزة للغاية لأنها قاتل متسلسل إسلامي يوقع مسرح جريمته بآيات قرآنية. لكن هذه الشخصية مجرد ذريعة وقنطرة كي أستنكر أشياء غير سليمة في المجتمع.

سمية نعمان شسوس

لكن من الذي يستنكر ؟ ومن الذي يكتب ؟ إنها بهاء.

بهاء الطرابلسي

أتفق معك ؛ لكن بهاء لم تستنكر ما استنكرت لأنها امرأة مسجونة أو مقيمة. من يوم اكتسبت اللغة عربيت، ولم يستكنني أحد يوما. أنا لا أدعي النضال، بل ناضلت فعليا من داخل عدة جمعيات.

سمية نعمان خُشوس

عندما تقولين إنك خلقت شخصية كي تستنكري واقعا معين من خلالها فهذا يعني بشكل من الأشكال أنك تناضلين.

بهاء الطرابلسي

في جميع الأحوال، أنا لست منخرطة في نضال الحركة النسوية.

سمية نعمان خُشوس

أتفق معك في هذه النقطة.

بهاء الطرابلسي

نتحدث عن النوع ؛ لكن بالنسبة إلي، ليس في الكاتبة نوع. النضالية شيء والكتابة شيء آخر. ما كنت يوما امرأة مقيمة ولا كانت أمي، ولا كانت جدتي. النساء المغربيات أقوى من أن يكن مقيمات. ولطالما لعبن أدوارا مهمة في العائلة والمجتمع أيضا. لقد ناضلت النساء المغربيات مع الرجال في سبيل تحرير الوطن ؛ وكان عندنا شخصيات وطنية قوية. فلماذا سنقول اليوم إننا مقيمات ومسجونات. نحن لسنا كذلك. وإذا كنا اليوم قادرات على إسماع أصواتنا والكتابة تماما كما يفعل الرجال، فنحن نفعل ذلك كي نروي قصصا وحكايات فقط. وبعد ذلك، تجد هذه القصص والحكايات نفسها في سياقات معينة في المجتمع. ونحن لسنا هنا كي نستنكر ؛ التاريخ سيجعل الناس، من خلال قراءته وتفسيره، يفهمون أن هناك أمورا غير سليمة في المجتمع ؛ والكتابة خطاب من إنسان إلى إنسان بعيدا عن اعتبار النوع والجنس. وأنا أرى أن من المهم فتح نقاش معمق بهذا الخصوص ؛ هل توجد كتابات نسائية مقابل كتابات رجالية ؟ كتبت روايتي الأولى «امرأة بكل بساطة» في التسعينيات. وفي تلك الفترة قال عدد من الكتاب الرجال (سرحان وكيليوطو وآخرون) إن كل هؤلاء السيدات اللطيفات اللاتي ولجن عالم الكاتبة الأدبية سيصرخن صرخة واحدة في كتاب واحد ثم سيختفن كإن لم يكن لهن وجود يوما، لأنهم مجرد نساء مصابات بالهستيرية. والحال أن القوم أبدوا ازدياء كبيرا اتجاه نصوص كثيرة لمجرد أن كاتبها امرأة ؛ وجميعهم بلا استثناء قالوا هذا الكلام. هل تتذكرين ذلك عزيزتي سمية ؟ لكن كما تعلمون جميعا، لم يمنعنا قولهم وموقفهم والكثير من العراقيل الأخرى من التقدم إلى الأمام وكتابة روايات جديدة وأشياء أخرى متنوعة.

سمية نعمان خُشوس

هل أوقفك ذلك عن التقدم إلى الأمام ؟ لا بد أن هذه العراقيل كانت مصدر طاقة لك، أنت التي تحبين رفع التحديات...

بهاء الطرابلسي

ولا حتى في الأحلام. كل ذلك الكلام والعراقيل لم تحرك شعرة واحدة في نفسي. بالنسبة إلي، الكتابة فعل يتجاوز النوع والجنس والنضالية والاعتبارات الضيقة التي تنحو إلى تصنيف الكاتبة وكتاباتها. في حوزة الكتابة، لا يسود إلا الكوني، موضوع هذا المعرض. ولهذا أرى أن وضعنا في هذا «الغيطو» سبة في حقنا.

سميرة النقروش

لا بد من توضيح نقطة مهمة : السؤال الواجب طرحه حقا لا يتعلق بالكتابات الأدبية النسائية، بل يتعلق بإقصاء هؤلاء النساء الكاتبات في بعض السياقات. هذه ممارسة خطيرة في جميع الأحوال، وتزداد خطورتها في السياقات التي تغيب فيها الرؤيا الواضحة في الأدب عموما والكتابة النسائية خصوصا، كالمجتمعات التي لا تساهم نساءها في الحياة العامة بالقدر الكافي والمجتمعات التي تميل إلى ازدياد النساء الكاتبات والشاعرات وعدم الاعتراف بهن. لهذا السبب قدمت المثال المكسيكي وتحدثت عن سياق تاريخي محدد انتهى. كما قلت من قبل، التقيت كتابا وشعراء مكسيك رائعين ينتمون للأجيال التي جاءت فيما بعد. وعليه، أرى أن القضايا الحقيقية هي أن نناقش إقصاء الكاتبات وأن نساء أنفسنا في كل مرة : كيف يمكن أن نرد على هذه الممارسة ومثيلاتها ؟

سمية نعمان شسوس

شكرا لك بهاء على صراحتك المعهودة. أما أنا فأشكر المنظمين مرة أخرى لسبب بسيط للغاية : لولا هذا العنوان ما كنا نتناقش اليوم. لكن بطبيعة الحال أفهم وأتفهم ما رميتي إليه عزيزتي بهاء. قد فتحت معك ذلك النقاش المقتضب بهدف توضيح وتحليل وتفصيل بعض المفاهيم، وفي مقدمتها عنوان هذه المائدة المستديرة. أنا سعيدة للغاية لأن من داخل فقاعتنا الصغيرة هذه نكسر الحواجز. وكإضافة إلى ما تفضلت به، أود أن أقول، رغم أن المناضلات في الحركة النسائية المغربية دائما تهاجمنني بسبب هذا، إن عندنا في المغرب نظاما أموميا مقنعا : تملك النساء والأمهات سلطة كبيرة على الرجال. لكن، حرصا منهن على حفظ هالة الرجولة للرجال، اختارت النساء ممارسة السلطة بالمرء والكيد : تظهر المرأة للعالم الخارجي أن الرجل هو من يقرر، لكن في الحقيقة هي من يقرر من خلال قوتها الاقتراحية النافذة. ونحن المغربية عندنا عبارة «حديث الوسادة»، أي تلك اللحظات التي تسبق الخلود إلى النوم والتي تتخذ فيها قرارات مهمة تكون الكلمة الأخيرة فيها للمرأة غالبا. هذا في البيت ؛ أما أمام العالم، فالمرأة تقول إن زوجها فعل هذا وقرر ذلك وأمر بذلك. إنه ببساطة مكر المرأة وكيدها العظيم. وأنا كباحثة اجتماعية كبيرة أؤكد هذا الكلام : في المغرب، لدينا نظام أمومة قوي، لكنه يحب أن يبقى وراء الستار. عزيزتي فاليري، تفضلي؛ لك الكلمة.

فاليري موراليس-أتياس

في الحقيقة، صعب أن يتكلم المرء بعد سمية وبهاء، لكنني سأحاول أن أكون في المستوى. أنا صحافية وكاتبة. بصراحة، عندما اطلعت على عنوان المائدة المستديرة، شعرت بصدمة قوية. لقد فكرت في الموضوع، ووجدت أننا سنكون في سياق سياسي غير سليم بتاتا، لأن العالم اليوم، خاصة في الدول الغربية، يرفض رفضا باتا أي نقاش حول النوع. نحن جميعا متساوون في الذكاء والفكر والفن... وقد قلت في نفسي : ربما أفضل ما يمكننا فعله هو البحث عن تعريف «كتابات نسائية» من منظور كوني، وهذا ربما سيقودنا للحديث عن أنوثة صاعدة في كل الثقافات والمجتمعات عبر العالم بدل حصر أنفسنا في فضاء ضيق يجبرنا ضيقه على مناقشة النوع والجنس. هل هذه هي حقيقة وجودنا كنساء ؟ هل يتعلق الأمر بانبعث النساء عبر العالم ؟ وبماذا يمكن أن نربط هذا الانبعث ؟ أعتقد، أن النساء ستحققن هذا الانبعث الأنثوي في الأدب العالمي. أنا عليمية بالنساء الفرنكوفونيات، خاصة الفرنسيات منهن. في سنوات الخمسينيات، طغت على الساحة الأدبية مؤلفات هدفها تحرير المرأة وفتح الأفق أمامها. ومن الكاتبات اللاتي قدن هذا التوجه سيمون دي بوفوار التي كانت تمتاز بالأنوثة والالتزام الراسخ والنسوية القوية والكثير من الأصدقاء الرجال أيضا. نحن هنا نتحدث عن أنثوية جميلة لا تمارس الإقصاء ؛ بل على العكس من ذلك تماما، إنها أنثوية تناضل بحماسة في سبيل الاستيلاء على السلطة الرجالية قبل أن تلبسها عذب الكلام وتحليتها بحلي الرقة والأنوثة والجمال. ما يشدني وما يزعجني كثيرا في نفس الوقت في الكتابات النسائية هو خطاب المظلومية.

أنا حقا مصدومة من تبني هذا الخطاب. بعد أن أصبحنا قادرات على التعبير والكتابة، سنتكلم كالمظلومين المظلومين على أمرهم ؟ أيعقل هذا الكلام ؟ شخصيا، لا أرضى بتبني خطاب المظلومية في كتاباتي لأنني لا أنا لا وصديقات ضحايا بأي شكل من الأشكال. أنا أيضا كتبت كتاب نسائي لأنني تحدث عن بطلية في الغربية وجدت أن فيها شيء مني. لكنها لم تكن سوى تنويع في النص وجسرا عبرت من خلاله. ولدت البطلة في وهران وعاشت في الجزائر قبل الانتقال إلى فرنسا التي غادرتها نحو المغرب حيث عاشت مدة عشرين سنة ؛ كما أنها غيرت معتقدها الديني مرتين أو ثلاث مرات ؛ وهذا الحال فهو فعلا حال الكثير من الناس في عصرنا، ما يجعل الشخصية أكثر واقعية. هذا هو نوع الأنثوية التي تهمني، وليس تلك التي تقصي الرجال أو تريد أن تجعل المرأة كالرجل في كل شيء.

أما الآن فسانتقل إلى الحديث عن وضع فيه الكثير من التناقض. أتابع على القنوات الفرنسية حركات نسوية عديدة مثل «أنا أيضا». وبكل صدق، أنا أتفهم كليا منطلقات هذه الحركات وأعرفها تمام المعرفة. لكن، لا بد أن ننتبه للهستيرية المجنونة التي تلفنا. وبصراحة، لا أريد أن أكون مكان الرجال في الدول الغربية. و لا أريد أن أكون رجلا يركب المصعد مع أي امرأة لأنني لا أعرف أي ورطة قد أجد نفسي فيها بعد ثلاثة طوابق أو أقل ؛ ربما أجد نفسي متهما في أمام إحدى المحاكم، من يدري ؟ أنا هنا لا أقطر الشمع على النساء ولا أحاكمهن. فأنا امرأة، وأنا أحب النساء. ولكن، أقول دعونا نهذا قليلا ! يجب أن نقطع مع خطاب المظلومية. يبدو لي أن الثقافة الشرقية، كما قالت سمية، تعطي المرأة فعلا نوعا من السلطة الأمومية. قولوا لي بالله عليكم، ماذا بقي للغربيات غير الحرب الصريحة المباشر مع الرجال ؟ والواقع يقول إننا نتوجه نحو عالمية كونية يكون فيها النوع غير ذي اعتبار ويكون فيه الرجل والمرأة متشابهان. لا حق لنا كنساء حينها في الورد ولا في أن يفسح لنا وتفتح لنا الأبواب وتغلق من ورائنا كالمملكات. أنا أنتقل كثيرا بين المغرب وفرنسا، وفي كل مرة يخاطبني فيها أحد بفرنسا أشعر أنهم يصيحون في وجهي.

سمية نعمان خُشوس

شكرا لك فاليري. لقد تطرقت إلى موضوع دقيق وملح : أين يجب أن تتوقف الحركة النسوية ؟ هل يجب الحفاظ على توازن ما كي تصبح العلاقة بين الرجل والمرأة متناغمة لا مختلة ؟ في الحقيقة، هذا خطاب أسمع بين الفينة والأخرى سواء بالولايات المتحدة أو كندا أو فرنسا. أعطى محاضرات حول العلاقة بين الرجال والنساء في بلدان عديدة. وعندما أقدم محاضرة في إحدى الدول الغربية تقول النساء في حواراتي الجانبية معهن : إنتبهى ؛ ينبغي أن تحافظي على التوازن، لأننا أصبحنا أقرب ما يكون إلى التظرف ! هناك توازن يجب الحفاظ عليه ؛ وأنا لا أعرف هل مازلنا نحافظ على هذا التوازن في المغرب أم أننا كسرنا الميزان. شخصيا، لا أعقد أننا كسرنا أي ميزان. تقول لي فرنسيات كثيرات ممن أحاورهن بعد هذه المحاضرة، إن الرجل المغربي رائع جدا وراقي ومحترم ويعرف كيف يهتم بالمرأة ؛ بينما في فرنسا، وهنا أنقل إليكم ما قالته لي امرأة فرنسية حرفيا، «لم تعد النساء عندنا تتذوقن ذلك الإحساس الحلو الجميل عند الاعتماد على الرجل : لا تفقدنه أنتن أيضا !» علاقتي بالكتابة علاقة خاصة ؛ أنتن الأربعة تكتبن الشعر والرواية، أما أنا فأكتب مقالات بناء على إحصاءات وأبحاث أجريها في الميدان. وبالتالي، فأنا أبحث عن الحقيقة أينما وجدت، وأحاول تحليلها والخروج منها بنوع من الفهم قبل نشر النتائج بهدف إخبار المجتمع وتوعيته وإدائته بالدرجة الأولى. وعلى عكسك سيداتي، لا أعتقد أنني ألعب دور الضحية في كتاباتي. كيف ذلك ؟ أنتن تخلقن واقعا لكن حرية مطلقة في تشكيله وجعله قبيحا أو جميلا. ولكن سلطة خلق شخصيات هذا الواقع، حيث تخلقن الصالح والطالح والرومانسي... أما أنا فلا أحظى بهذه الحرية عندما أكتب مقالاتي. كباحثة اجتماعية، أنا ملزمة بتتبع الحقائق والوقوف عليها كما هي في الميدان ؛ وللأسف، عندما نكتب، لا نكتب دائما كي نقول إن كل شيء على ما يرام. الباحث الاجتماعي أصلا يفترض فيه التركيز على العاهات والأمراض التي يعاني منها المجتمع وكشف الآلام والمعاناة والخلل.

نادرا ما تجد في كتاباتنا شيء إيجابيا، ولا أحد يقرأ هذه الكتابات من العامة. هذا فرق مهم بين كتابات الروائية والباحثة الاجتماعية التي يجب عليها التعامل مع هذه الحقيقة الملمة يوميا.

في الحقيقة، كلنا فينا شيء من السذاجة ؛ على سبيل المثال، عندما تكتب معتقدا أنك ربما سائر في اتجاه إعادة تشكيل الكونية. وحتى إن لم تعد تشكيلها، تقول في نفسك، فسأشعل شمعة أرى بنورها الحق حق والباطل باطلا وأضيف لبنة باسمي في صرح الكونية العظيم. ربما هذا هو الجانب المؤلم في الأبحاث والكتابات الاجتماعية. تجربتي الأولى كانت فريدة للغاية. كنت حينها أحضر بحث نيل شهادة الماجستير حول موضوع مميز جدا : فطام الرضع في الوسط التقليدي المغربي. لقد عرفت خلال اشتغالي على هذا الموضوع أمورا عجيبة وتقاليدا وطقوسا. وعرفت أن المسألة ليست مجرد عملية فطام فقط، بل بنية رمزية فريدة. يأتي مع الفطام جو احتفالي وشبقي أيضا، لأن المرأة تكون أقرب إلى رضيعها منه إلى زوجها خلال فترة الرضاعة. يحتفل الزوج والزوجة بعودتهما إلى بعض على نحو رائع. أجريت بحثي الميداني في منطقة أبي الجعد الواقعة بين واد زم وبني ملال. لقد كانت تحدوني رغبة قوية في خوض التجربة في الوسط القروي ؛ وأنا سعيدة بهذا الاختيار لأنني تعلمت منه الكثير. وقد عاينت المغاربة يفتحون أبوابهم لغرباء يريدون البحث في حياتهم الخاصة، بل ويكرمونه غاية الكرم.

عاينت أيضا أن النساء القرويات يتمتعن بحرية التعبير عن ما يجول في خاطرن. بعد ذلك، التحقت بالبعثة الفرنسية ودرست في باريس. وعندما أخذتني أبحاثي إلى البادية، ذهبت امرأة حرة وعصرية ولا أضع اعتبارا لأي طابوهات. أحاول طرح أكبر عدد ممكن من الأسئلة على النساء القرويات التي تتاح لي فرصة مجالستهن. ولما تبين لي أن هؤلاء النسوة تتكلمن بحرية، قررت البدء في بحث ميداني حول الجنس ؛ وكما يقول المثل : إذا هبت رياحك فاعتنقها. إذا، هذا هو الوضع الذي وجدته فيه : شابة عائدة من باريس إلى أبي الجعد في قلب البادية المغربية. لقد كنت أتوخى الحذر في طرح أسئلتي ؛ فتجدي ألف وأدور كي أشير للواحدة من أولئك النسوة إلى علاقتها الحميمة مع زوجها لأنني قدرت أن الموضوع حساس يتطلب أخذ الأمور بروية. لكن وبينما أنا ألف وأدور في كلامي أجد المرأة تقول لي ما أريد أن أسمع بهدوء مباشرة لا تلميح فيها. لقد تعلمت من هذا البحث أيضا أشياء مهمة كثيرة بخصوص الحرية وما يمكن أن نسميه السخاء اللغوي. ما إن عرفت النسوة اللاتي قصدتهن أنني طالبة وأحتاج مساعدتهن، فتحن لي قلوبهن وتحديث بحرية وسخاء لغوي كبيرين لم أكن أملكهما. وأقول لكم وكلي يقين أن هؤلاء النسوة حررنني : كلمتي ولغتي كلها تحررت بفضلهن. وقد شجعني هذا التفاعل الكبير على مواصلة الكتابة وكسر الطابوهات واكتساب الجرأة شيئا فشيئا. إن بيوت المغاربة مفتوحة لنا، والمغرب ميدان فريد للتجارب الاجتماعية الفريدة. وبالتالي أنا لا أعاني كي أصل إلى المعلومات والشهادات الحية من الناس المضيافين. عندما أقوم ببحث في المجال القروي، أواجه مشكلتين اثنتين. أولا، الكلاب ؛ كلما اقتربت من دوار معين أجد أمامي مجموعة كبيرة من الكلاب. مع الوقت، تعلمت أن أضع حجر في يدي وأتقدم إلى الأمام. لكن في البداية، كانت هذه الكلاب تسبب لي مشكلا حقا. المشكل الثاني، هو أن معدتي المسكينة كانت تعمل فوق طاقتها لأن علي كلما دخلت بيت أن أكل وأشرب مما يتقاسمه الناس معي ترحيبا بي. وهذه حفاوة وكرم لا بد لي من الإشادة بهما عاليا.

في الواقع، عندي مشكلة ثقة مع المتعلمين. كلما كان الفرد متعلما، كان عنده شواهد أعلى ؛ وكلما كانت شواهد أعلى، كانت مناصبهم أسمى ومسؤولياتهم أكبر وأصبحت محادثتهم أمرا صعبا بسبب الرقابة الذاتية والمكانة الاجتماعية. دائما ننجح في جعل النساء المستجويات في أبحاثنا يتكلمن بكسب تعاطفهن. أما الرجال فيستطيعون الحديث في كل المواضيع : الرياضة والسياسة والاقتصاد... لكن ما إن نكلمهم عن حياتهم الحميمة أو زوجاتهم، لا نسمع أصواتهم لبضعة ثواني ثم يطلقون العنان للخيال. ولكن دعونا نتفق جميعا على أن النساء تتكلمن عن حياتهن الحميمة مع النساء الأخريات أكثر مما يفعل الرجال مع بعضهم البعض. هذه حقيقة معروفة، فالرجال كتومون ومحتشمون أكثر.



لقد واصلت الكتابة لأنني في لحظة معينة انتبهت إلى أن هناك الكثير من المواضيع التي لم يتطرق لها الباحثون الاجتماعيون. لقد كان كتاب «ما وراء الحشمة» الذي أشارت إليه بهاء مدرسة حقيقية تعلمت فيها الكثير. فقط كطريقة سريعة : كان كتابي الصادر سنة 1989 أول بحث اجتماعي ميداني حول الجنس في المغرب. وفي تلك السنة، صدر كتاب واحد حول نفس الموضوع للكاتبة فاطمة المرينسي. ولا أحد كان يتكلم في تلك المواضيع. أما اليوم، فوسائل الإعلام المغربي تتكلم عن الجنس بموضوع عادي. والمضحك حقا هو أن بعض الناس يستوقفوني في الشارع وينادوني «ما وراء الحشمة». وبالتالي، يمكننا القول إن هذا الكتاب أصبح هويتي بمعنى من المعاني. أحيانا، يقول لي بعض الأشخاص : «أنت هي الاختصاصية في الجنس» فأجيبهم : «لا، معذرة : الجنس تخصص في حد ذاته. أنا مختصة في فرع صغير من الدراسات الجنسانية».

من الأمور التي تجعل البحث الاجتماعي مؤلما حقا هو أنك كباحث اجتماعي تعيش معاناة الإنسان وتكون شاهدا عليها. في البداية، يكون الأمر صعبا : تفقد شهيتك ويهجر النوم جفحك. وتكون في حالة تعاطف قد تؤدي إلى الطلاق وتمنعك حتى من أن تبتهج من شدة صعوبة معاينة معاناة الإنسان. بعد أن تقضي فترة من الزمن مع شخص معين وترى ما يعانيه، يجب أن تنقل تلك المعاناة وتحكي للعالم عنها. ولكم أن تتصوروا حجم القوة التي يحتاجها الباحث في هذا المسار وكم من الدروع يحتاج كي يقي نفسه إشعاعات ما شاهده ويحكي عنه. هل فعلا يتمكن الباحث الاجتماعي من حماية نفسه ؟ لا أعتقد ذلك.

في سنة 2006، تكون عندي انطباع أنني انفصلت عن الحياة بعض الشيء. في أحد الأيام، تلقيت اتصالا علمت من خلاله أن رب أسرة بمدينة أكادير اغتصب ابنتيه وتسبب في حملهما. ركبت سيارتي أنا وزوجي، وذهبت لزيارة تلك العائلة. كنت أظن من قبل أنني حلت هذا المشكل العاطفي وأني اكتسبت مناعة ضد التعاطف المفرط مع معاناة الآخرين. كنت بجانب الأخت الكبرى لما أنجبت مولودها : أما الأخت الصغرى فأسقطت في الشهر السادس. بعد الولادة انتبهت إلى أنه ليس في استطاع الإنسان فصل ذاته عن معاناة الناس من حوله. أردنا أن نضع الرضيع في حضن أمه، وفي تلك اللحظة رأيت في عينيها تمزقا بين غريزة الأمومة وشعور عميق بالذنب. في تلك اللحظة لم أتمالك نفسي فانفجرت باكية بدمع منهمر وأنا التي سافرت إليها بنية أن أواسيها. هذا مثال عن المعاناة التي يمكن أن يعيشها الباحث الاجتماعي. تساءلت بهاء قائلة : «هل يمكننا حقا النضال عبر الكتابة» البحث الاجتماعي فيه ادعاء ساذج ساعدتكم عنه من خلال تجربة عشتها : علمت مرة بوجود سوق نواحي قلعة السراغنة حيث يعرض وسطاء فتيات كخادמות ونساء كزوجات. قمت أنا وزوجي بتحقيق في الموضوع. ونشرنا مقالنا باللغتين العربية والفرنسية. وقد قررت المواطنة المثالية زينب العلوي، الناشطة في جمعية تعنى بالتمدرس في العالم القروي، نسخ المقال في ثلاث مائة وخمسة وثلاثين نسخة أرسلتها لكل البرلمانيين.

ختمت زينب مراسلاتها بسؤال البرلمانيين : «والآن، ماذا بوسعنا أن نفعل؟» لكنها لم تتلق ولو جوابا واحدا. ولهذا حدثكم عن السذاجة. من جهة أخرى، فيما يخص وعينا بذواتنا، هناك عدد من الاختلالات التي نحاول كباحثين اجتماعيين إدانتها. ولكن ما هي النتائج التي نحققها؟ أنا شخصيا لا أعرف. ربما ما نفعله هو تكسير الطابوهات. لا نصل دائما إلى الأهداف والنتائج المرجوة؛ أي إصلاح ما يمكن إصلاحه. لكن الشيء الأكيد هو أننا بفضل مساهماتنا الصغيرة ونشاط المجتمع المدني والتزام الرجال والنساء، سنصل على كل حال إلى إصلاح قانوني كحد أدنى.

بهاء الطرابلسي

أردت فقط التنويه بالتواضع الجم الذي تتحلى به الأستاذة سمية التي توجد في طليعة الكتاب والباحثين الاجتماعيين الذين أحدثوا تغييرات عميقة في الكثير من الأشياء وساروا بها إلى الأمام. سمية امرأة ثورية غيرت أشياء كثيرة. وهنا يمكننا الحديث عن النضالية. شخصيا، أقول للأستاذة سمية إنني ممتنة لك وأنت سجلت اسمك بحروف من ذهب في تاريخ الأدب وعلم الاجتماع. وأنت لم تبليغي هذا المقام الرفيع بفضل كتبك فقط، بل أيضا بفضل مقالاتك وكل ما تفعلين كإنسانة. وهنا يمكننا الحديث عن النضالية: نضال وتعبير من خلال الكتابة. وفيما يخص الكتابة الإبداعية، أعيد ما أسلفت من أن الكتابة الإبداعية مختلفة تماما عن الكاتبة في المجالات الأخرى، بما فيها علم الاجتماع. الكتابة الأدبية تبحث عن الكونية. وأكرر مرة أخرى على الرسالة تصل بوضوح للجميع، إن تنظيم مائدة مستديرة بهذا العنوان وفي معرض للكتاب عنوانه «مقاربة الكوني» معناه بلا شك أننا الآن في «غيطو».

سمية نعمان غسوس

أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب كي نفتح نقاشا بيننا جميعا. هل أناديك بالشاعرة أم الشاعرية؟ الشاعرة، جيد جدا. ماجدولين تقول إنها تتفق تماما مع ما قالته سميرة وبهاء وتعتقد أنه كان من الأجدر الحديث عن الكتابة النسوية لأننا مازلنا نحتاج النضال في سبيل تحسين ظروف عيش المرأة. يضم تيار الكتابة النسوية الآن كاتبات وكتابا، لأن الكتاب الرجال هم أيضا لهم كتابات نسوية. وفي الواقع، لم يسبق لنا أن نظمنا أي نقاش حول موضوع الكتابة الرجالية. هذه فكرة جيدة، وينبغي أن نطبقها. لم نسمع يوما بأي دعوة باسم «الكتابة الرجالية». وسيكون الانخراط في هذا التمرين مفيدا بلا شك. علاوة على ما سبق، تعتقد ماجدولين أن من التمييز والحيث وصف ما أنتجته النساء الكاتبات في البدايات بالشكاوى والصراخ الهستيري. عندما اقترحنا على ماجدولين المشاركة في هذه المائدة المستديرة، رفضت لأنها رأت في هذه المائدة شيء من التمييز، وقالت قولا نفسيا: «نحن نكتب بأرواحنا والروح لا جنس لها». الكلمة لك ماغي.

ماغي

جوابا على ما قالته بهاء، أعتقد أن حجز فضاء وزمان من أجل مناقشة الكتابة النسائية هو في الحقيقة تكريم واعتراف بهؤلاء الكاتبات. لا أرى أن هناك أي عزل أو فصل لهن وأرى أن هذه المائدة المستديرة أبعد ما تكون عن «الغيطو». وبصراحة، أنتن كاتبات وروائيات. هناك تقدر أنثوي؛ ونحن نحس بالصفاء. جل ما أتمناه هو أن تواصلوا المسيرة ويكون لكن فضائكن الخاص المميز كالرجال. حتى الأمس القريب، كانت كل الجوائز واللجان ولجان التحكيم في الغرب، وخاصة بفرنسا لأننا قرييون جدا من هذا البلد، خاضعة لسيطرة الرجال. أما الآن، فقد تكون مجتمع أنثوي في هذا الباب أيضا (لا أحب كلمة النسوية). يجب أن لا ننسى أن المغرب له سياقات خاصة جدا أشرت لهن: مجتمع أمومي تحظى فيه المرأة بحضور قوي؛ وهي من يقرر في الأسرة. وبالتالي، يتوجب علينا اليوم التفكير بشكل أعمق في سبل حفظ التوازن لأن النساء أخذنا فضاء أكثر من اللازم وباتت الأسرة تتضرر من ذلك.

أنا أطرح هذا السؤال لأنني امرأة توجد في الميدان. أنا أزور المناطق القروية وهوامش كل المدن، وأؤكد لكم جميعاً أن النساء انفجرن انفجاراً ما كنت لأتصوره قبل فترة يسيرة من الآن. لقد أصبحت معدلات الطلاق تشهد ارتفاعاً مستمراً. ولهذا، أعتقد أن من الضروري إعادة الأسرة إلى صلب النقاش.

بهاء الطرابلسي

أنا لا أحتاج أي تكريم لأنني أكرم نفسي شخصياً. وتكريمي لا يعني لي أي شيء. أنا إنسانة كاتبة قبل أي شيء آخر. وكوني امرأة صدفة لا أقل ولا أكثر. وبالتالي، تكريمي لا يضيف إلي الشيء الكثير. وأنا ألعب دوري المجتمعي بطرق مختلفة. فأنا أيضاً مناضلة، لكن نضالي يكون في الميدان من داخل الجمعيات التي تعنى بأشياء ذات معنى ومردودية. وحتى على المستوى الجماعي، كثيراً ما أسمع مداخلات لا تتماشى وما أومن به. نحن اليوم نعيش في عالم معولم حيث كل الدعاوى تنشُد إنتاج نماذج لا أجدني متفقة مع الكثير منها من منطلق أنني إنسانة لا من منطلق أنني امرأة. إذا أردت النضال، ناضلت في الميدان. ولكن عندما أمسك قلبي بين يدي لا أكون حينها إلا إنساناً، فأنا إنسانة قبل أن أكون امرأة. وكما جاء في القول البديع الذي أشارت إليه سمية، أنا روح لا جنس لها. وقد كان من الأنسب لو حضرت في هذه المائدة المستديرة الازدواجية اللغوية لأننا في جميع الأحوال وضعنا في «غيطو» : على الأقل اجعلوه «غيطو» مزدوج اللغة. وعليه، لا أتفق بتاتا مع فكرة التكريم. فنحن لا حاجة لنا في أي تكريم. أنا كلي وجود ولا أحتاج أن يكرمني أحد بخصوص أي شيء أو كتاباتي.

مداخلة

رغم أنني لست مسيحية، أحب فكرة مسيحية تقول إن النوايا الحسنة تقود أهلها إلى نار جهنم. ولهذا أريد التحدث بخصوص السياق. فعلاً، توجد سياقات حيث يحمل الشيء المعنى وضده. وعندما تمت الإشارة إلى النساء في لجان الجوائز والمهرجانات، تذكرت خطاب ميريل ستريب القوي جداً بمناسبة تسلمها جائزة الأوسكار. تطرقتن إلى هذه النقطة في سياق الحديث عن «ما وراء الحشمة». وعن النساء القرويات غير المتعلّقات اللاتي أخذن سمية إلى عالمهن الخاص الحميمي متجاوزات حاجز الحشمة الذي يبقى قائماً عند نساء أخريات متعلّقات وصلن إلى مناصب سامية وحققن مكانة اجتماعية راقية. لماذا ؟ لأن من الخطر علينا تبني خطاب المظلومية، لأن مجتمعات الجنوب تمر بمرحلة تاريخية نحتاج فيها إلى تأكيد روح التكافل والتضامن والمساواة التي لا يجب تتأذى على حساب الأسرة والمجتمع. لا ضير في أن يسود الإنصاف والتعادل في حوارات الرجال والنساء. حركة «أنا أيضاً» التي تمت الإشارة إليها لها معنى مختلف في السياق الغربي حيث توجد موجة ثورية هدفها حرية الجسد والجنس. وما زال هناك أيضاً جهد نضالي يركز على المساواة في الأجور بتلك البلدان.

أما في سياقنا المحلي، فأمامنا شوط طويل قبل الوصول إلى هذه القضايا. وقانونياً حتى، تبقى أجور النساء أدنى من أجور الرجال حتى في الدول الإسكندنافية. وبالتالي، أمر جيد وصحي أيضاً أن ترفض امرأة في واشنطن تعيين رجل معين على رأس المحكمة العليا للولايات المتحدة لأنها تنتمي إلى جيل أو بيئة متشعبة بالحرية. لم تعد الحرية الجنسية تحراً كافياً. فالحرية الحقيقية تكتسب من احترام الآخر. وعلى هذا الأساس، بدأ الجميع يتحدثون عن مشكلات أخرى كالاغتصاب الجماعي في المجتمعات العصرية التي يتوفر فيها الإنصاف بين الرجال والنساء، لأن النساء في هذه المجتمعات لهن نوع من السلطة ولا أحد يستطيع ازدرائهن رغم كل شيء. لا أعرف إن كنتم مطلعين على فيلمنا وثائقياً بعنوان «ثورة فن النساء» (Women art in revolution) ؛ لكنه إنتاج رائع يستحق المشاهدة. لقد شاهدته سنة 2011 وتعلمت منه أشياء كثيرة. يتحدث هذا الفيلم الوثائقي عن حركة الفن المعاصر في سنوات السبعينيات وكيف أن نساء فنانات، هن الآن من رواد الفن المعاصر، ناضلن في سبيل انتزاع الحق في الولوج إلى المتاحف.

عندما تكون أسودا أو امرأة، فأنت بطبيعة الحال لا تناضل كي تبقى في الهامش، بل تناضل كي تكون مع الجميع وكالجميع، لأن النضال الحق يكون بالاتحاد مع الآخر ومواجهة الآخر، حتى ولو كان ذلك يعني وضع بعض الحواجز. لكن فائدة هذه الحواجز هي أنها تخلق النقاش وتدفعنا إلى التكتل واللقاء. في اعتقادي، لا خطر بالمغرب، ووجدة الحدودية، في الاستجابة لدعوة هذا المعرض، الذي يرفع شعارا ذكيا جدا، إلى الوعي بالحاجة الملحة إلى إعادة ترتيب البيت المغربي والانخراط من جديد في الدينامية الإفريقية وفتح حوار جديد مع الشرق الأوسط. وقد تتبعنا البارحة النقاشات التي دارت حول موضوع «المغرب والشرق و»أن تكون عربيا اليوم» وأهمية تقبل تنوع وتعددية المغرب الكبير والشرق والعروبة. هذه هي التحديات التي يمكن لأي واحد منا العمل على رفعها. وقد تكلمت فاليري عن تاريخ الأسرة في الفترة الاستعمارية وأبناء الأقدام السود وراثنا -العربي-البربري-اليهودي-المسيحي-الإسلامي وعلاقتنا بالاندلس التي تمت الإشارة إليها في نقاشات الأمس. هناك الكثير من التحديات التي سيتوجب علينا رفعها عاجلا أم آجلا والتي تهم المرأة بلا شك.

مداخلة

شكرا لكن على كل هذه التوضيحات وهذا الالتزام الراسخ اتجاه كل ما من شأنه حفظ كرامة المرأة وتبويئها المكانة التي تستحق كفاعل مجتمعي لا غنى عنه. وأنا لا أدعو إلى استبدال الكونية القائمة بكونية جديدة وإنما أدعو إلى إعادة تشكيلها. لكن عن أي كونية نتحدث أصلا ؟ إذا رجعنا إلى الكونية الغربية، سنجد أن فيها الكثير من التصدعات والكثير من البنى الكبيرة المتصارعة الباحثة عن ذاتها والمتخبطة... أعتقد أن المرأة مهمة جدا في مسيرة البحث عن أفضل سبل إعادة تشكيل الكونية. لكنني أتهم المرأة بأنها بدل الإطلاع بهذا الدور تتبنى المحافظة وتعيد إنتاج البنى القديمة. هذا يعني أن دور المرأة كبير سواء في تحقيق النماء أو استمرار المحافظة. وفي حين أن المرأة يتملكها الخوف من السير إلى الأمام، يكاد الرجل أن لا يعرف للخوف اسما ولا معنى. وإذا دققنا في موقف المرأة بين التقدمية والمحافظة، ن نجد أنها تضع قدما ونص في أرض المحافظة.

سمية نعمان خُيسوس

شكرا لك أستاذ. بصراحة، أنا أسمع صليل السيوف ؛ لدى أنصحك بالبحث عن حراسة شخصية. في الواقع، أتفق معكم على أن النساء تتحملن جزءا من المسؤولية باقتصا رهن على دور الأم فقط. وهن أحيانا تعدن إنتاج نفس الأنساق ونزعة المحافظة. حسنا، سؤال أخير قبل أن نختم.

مداخلة

لا شك عندنا أن مسيرة التغيير معلن عنها ومرغوب فيها، لكن كيف نحقق أي نتائج بينما الوعي النقدي الجماعي ضعيف ؟ وبالتالي، أرى أن من الضروري إحداث تغيير في علاقات القوى والوعي النقدي الجماعي كي نرى الناس يقدمون مساهماتهم في النماء والتقدم والإصلاح.

مداخلة

يجب أن نخرج من منطق علاقات القوى ؛ لأننا غير مجبرين على الدخول في أي ثنائيات. أنا لست ضدك وأنت أيضا لست ضدي ؛ هذا هو المنطق الذي يقودنا إلى الإنصاف والتوازن حيث لا ضرر ولا ضرار والاحترام التام. وبالتالي، لا نستطيع أن نقول إن المرأة حاضنة للمحافظة، لأن هذه المحافظة مسؤول عنها الرجال كما النساء. صحيح من الناحية التاريخية، خاصة ما يتعلق بالتراث الشفهي، أن بعض الدراسات أكدت مسؤولية المرأة على تمرير المحافظة عبر الأجيال. لكن يبقى كل شيء نسبيا.

سمية نعمان خُسوس

المرأة هي حاملة لواء التغيير، لكن أي امرأة نقصد ؟ الشيء الأكيد هو أن الأم تلعب سلطة مهمة يجب الاعتراف بها : إنها سلطة الرقابة. على سبيل المثال : تسهر الأم التي لها ولد وبنت مراقبين على أن يحظى ولداها بتجربة جنسية قبل الزواج تساعد على ترسيخ وتطوير رجولته ؛ لكنها في نفس الوقت تفرض رقابة صارمة على جسد ابنتها كي تسلمها عذراء إلى زوجها. ولو اكتفينا بهذا المثال لكفانا كي نتيقن أن المرأة في مجتمعات عديدة كمجتمعات منطقتنا تستعمل أدوات السلطة الأبوية في ترسيخ وتمرير بعض العناصر الثقافية غير السليمة التي عانت منها هي بنفسها.

عزيزتي أنيسة، قلت إن النساء تحملن أيضا بدور النماء. وهذا معناه أن الأم التي منعت ابنتها من تملك حياة عاطفية وجنسية قبل الزواج وشجعت ولداها على ما حرمت ابنتها منه هي نفس الأم التي ستفعل المستحيل من أجل ضمان تلمس ابنتها وستبذل الغالي والنفيس في سبيل مدها بأسباب النجاح... وبالتالي، أنا أُنق معك في أن نساء مجتمعا والمجتمعات المشابهة تزرع بذور النماء والمحافظة في نفس الوقت.

رئيس الجلسة : خالد الزكري
المشاركون : فوزية الشرفي، علي بنمخلوف، محمد الناجي
فضاء : سيمون ليفي
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 09 : 00 - 11 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

افتتح الأستاذ الجامعي والباحث المغربي خالد الزكري النقاش حول الإسلام والحداثة، بوضع هذين النموذجين جنبا إلى جنب، بحيث لا يبدو أنهما يشكلان نوعا من التناقض اللفظي. فوزية الشرفي، الاختصاصية في الفيزياء، قوبلت أفكارها بالشك وبعدها بالرفض من قبل طلبتها في الجامعة، الذين تنكروا لمعارف علمية وحقائق دامغة بسبب تأثير أفكار التيارات الظلامية التي تتحكم بعدة منابر إعلامية خاصة على الإنترنت. هكذا يتم هجر الموروث العلمي العربي بشكل مضاعف، رغم أهميته في رسم معالم الحداثة العلمية الحالية، فهذا الموروث تتم محاربته والتنكر له في الدول العربية الإسلامية ويحتقر ويتم تجاهله في الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط. وهكذا، يحيلنا منهجها الفكري إلى حقيقة أن العلم هو لب الحداثة. ومع ذلك، يبقى الولوج إلى الحداثة رهينا بعلاقة العلم بحقائقه.

يؤكد الفيلسوف المغربي علي بنمخلوف على ضرورة الفصل بين التغريب والحادثة، مستندا في ذلك على نموذج اليابان، الذي لم يتنكر للبوذية أو الشينتو، في حين وفر لشبابه تعليما يرقى لأعلى مستويات الحداثة. فهذا المثال المعاكس لنموذج اليابان في مقابل الماضي العلمي للبلدان العربية المسلمة هو خير نموذج لإثبات أن أي تأخير يعزى للإسلام أو للثقافات المحلية هو بمثابة عبث تاريخي، على خلاف الانزلاقات الفكرية والدلالية التي أصبحت شبه مهيمنة في عالم الأفكار التي تتناقلها وسائل الإعلام، إذ أن إشكالية الولوج إلى الحداثة هي إشكالية سياسية وليست روحية أو بالأحرى ثقافية.



لقد قام المؤرخ وعالم الاجتماع والاقتصاد محمد الناجي بتوضيح هذه المقاربات، بحيث أشار إليها بشكل واضح في انزلاقات هذه المدرسة، وكيف يمكن التخلص منها. كما يذكر في هذا السياق بأن الزاوية شكلت إحدى نقاط القوة المهيكلية في مواجهة الاستعمار، والتي سمحت بالحفاظ على الشعور بالانتماء إلى أمة واحدة داخل البلدان المحتلة، مثل بلدان المغرب العربي. واقترح الناجي خلال النقاش أربع خصائص للحداثة والكفيلة بتعزيز الحوار. وبما أن المسألة تعتبر سياسية في المقام الأول، فإن موضوع المائدة المستديرة يحيل في نهاية المطاف إلى الحاجة الملحة للحوار والنقاش داخل المجتمعات الجنوبية، وبالتالي يجب توفر الشروط اللازمة لتحقيق ذلك، لاسيما الفضاءات المناسبة. ومن هذا المنطلق، فإن المجتمع المدني يصبح نافذة أمل إذ يعتبر بلا منازع الإطار الوحيد الذي يسمح بحوار حر وهادف.

مداخلات المائدة المستديرة

خالد الزكري

«الإسلام والحادثة»، يبدو أنه من الصعب الإلمام بمعاني هذين المصطلحين، بيد أننا سنحاول فهمهما في النقاش بحضور ثلاث شخصيات بارزة. السيدة فوزية الشرفي القادمة من تونس، عالمة فيزياء، كتبت مؤلفاً حول الإسلام وهو كتاب مثير للاهتمام، صادر عن أوديل جاكوب، تحت عنوان : «العلم المحجب». ومعنا، الفيلسوف علي بنمخلوف، الذي اشتغل على هوسرل، مونتين، ابن رشد والفارابي، إلخ. إنه خبير في الفلسفة العربية. يفضل أن يوظف عبارة الفلسفة العربية عوض الفلسفة الإسلامية في كتاباته، سوف نحاول فهم المغزى من هذه التسميات. نستضيف أيضاً، محمد الناجي، كاتب غزير الإنتاج، تلقى تكويننا في الاقتصاد، كتب عدة مقالات شيقة جداً ومحفزة، تدفعنا للتدبر في الإسلام والرسول والعبودية. أفتتح النقاش بتوجيه سؤال عام لكل واحد منكم، ولكن أبدأ بالسيدة الشرفي.

نهتم في نفس موضوع «الإسلام والحادثة» بمسألة العلم أيضاً، التي تحظى بمكانة جوهرية داخل مفهوم الحادثة. كلنا نعلم أن القرن السابع عشر شكل طفرة في مجال العلوم. فكيف ترون هذه العلاقة بين الإسلام والحادثة ؟ بكل تأكيد كل واحد منكم يقارب المفهومين من نافذة مجاله، دون أن نبقى حبيسي هذين المفهومين.

فوزية الشرفي

في الواقع، هذا اللقاء مهم بالنسبة لي، وأنا سعيدة بوجودي معكم اليوم. لقد بدأت أولي اهتماما كبيرا لهذه الأسئلة جراء ردة فعل طلبتي في كلية العلوم بتونس، في نهاية السبعينات، عندما اعتبروا أن النسبية الخاصة لم تكن نظرية صحيحة وأن أينشتاين أخطأ التقدير. الشيء الذي يدفعنا للتساؤل : كيف آل بنا المال إلى ما نحن عليه اليوم، في حين كان العلم مزدهرا في جميع البلدان الإسلامية لقرون عدة ؟ يشرح الأستاذ رشدي راشد بوضوح أن العالم العربي الإسلامي لم يكن دوره مقتصرًا فقط على ترجمة النصوص القديمة، ولكن ساهم أيضا بشكل كبير في بروز ما يسمى بالعلم الحديث. وبالنسبة لي الحادثة في العلوم تعني العقلانية والتجريب...

يبدو لي أنه من المهم الاستناد إلى أسماء بارزة مثل ابن الهيثم، مؤسس علم البصريات، وهو علم يهتم بشرح ماهية الضوء. فالضوء لا ينبعث من العين. فقد ميز إذا بين نظرية الرؤية ونظرية البصريات. إننا بصدد خلق مجال له أهميته في الوقت الراهن. أعتقد أنه من الواجب على أطفالنا وشبابنا في تونس أو أي مكان آخر، أن يعرفوا بأن الحادثة في العلوم لها باع طويل، بل كثيرا ما نتحدث عن تراث منسي. إن هذا التراث تم نسيانه من كلا الطرفين. لقد أهمل عندنا، بما أن كبريات الجامعات مثل الزيتونة بتونس وأخرى لم تكن وفيه لتراث أسلافها الثقافي، وعلى الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، تم نكران مساهمة العلوم العربية. ويقصد بالعلوم العربية كل العلوم المدونة باللغة العربية. أعتقد أنه من الضروري إعادة قراءة هذا التاريخ، ليس بهدف الغوص في الماضي، بل من أجل أن نبني معا تاريخا آخر لحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط. الحادثة شيء جوهري وسوف أعود لمناقشة هذه النقطة في محاولة لفهم الأحداث الحالية.

خالد الزكري

لنفهم الموضوع الآن من وجهة نظر فلسفية أو بالأحرى من زاوية فلسفية، والتي تعتبر حيزا للعقل بامتياز، فكيف نتصور العلاقة بين الإسلام والحادثة ؟

علي بنمخلوف

شكرا على استضافتكم لي. عندما رأيت عنوان «الإسلام والحداثة» تساءلت لماذا أصبحت هذه العبارة مسكوكة، ولما لا نتحدث عن المسيحية والحداثة أو اليهودية والحداثة، ولكن نقول دائما الإسلام والحداثة. حاولت أن أفهم السبب وراء ذلك، وخلصت في نهاية المطاف إلى أن هذه العبارة تعد جزءا من التشنجات العقلية التي يمكن أن نصاب بها. ماذا نقصد بالتشنج العقلي؟ هو أن لا تنال ما تضع نصب عينيك. ينبثق التشنج العقلي المتصل بهذه العبارة من التمثلات المشتركة، والتي تنبثق على سبيل المثال من «رونان» في القرن التاسع عشر، الذي كان له تأثير قوي في فرنسا. فحسب قوله، فإن العرب المسلمين يكررون منذ ستمائة عام أن: «الله هو الله». بحيث أصبحوا في حلقة مفرغة وبالتالي خارج عجلة التاريخ السريعة. ولقد كرس هذه الفكرة التي انتعشت من جديد في الضفة الأخرى، أي في العالم العربي الإسلامي، الذي عرف الحداثة عن طريق الحملة على مصر.

أجد صعوبة كبيرة في استصاغة هذا التمثيل المزدوج: من جهة، فكرة مجتمع جامد لمدة ستمائة عام، ومن جهة أخرى، فكرة أن الأمور تغيرت إثر الحملة على مصر. وبغية التخلص من ذلك التشنج العقلي ارتأيت أن أقوم بالمقارنة مع اليابان على سبيل المثال، التي تسبح في بحر الحداثة دون السقوط في التغريب. أعتقد أن إحدى التشنجات العقلية تكمن في الاعتقاد بأن الحداثة تستلزم السقوط في التغريب. يجب الفصل أولا بين الحداثة والتغريب. لقد تأخرنا وفرض هذا التأخير نفسه بقوة الآن، عندما نقول «الإسلام والحداثة»، نولد انطباعا بأن القطار قد ذهب إلى مكان ما في الغرب وأننا بحاجة إلى هذا التغريب. لا! يجب أن نميز بين التغريب والحداثة.

إنها مسألة جوهرية بمجرد أن نقيم هذا التمييز، فما هي الحداثة إذا؟ سوف أقدم أربع سمات لها: تتجلى الفكرة الأولى في الاستقلالية والتي يرافقها الفصل. أي تمكين بعض القطاعات من قبيل تقسيم السلط التنفيذية والتشريعية... وتتجسد الفكرة الثانية في عنصر التسارع الزمني. وتتمثل الحداثة في فكرة أن الزمن يعاش بطريقة متسارعة. أما النقطة الثالثة، كما يقول هوبز، «الحاكم، الإله الفاني»، بمعنى آخر، حتى لو احتفظنا بقدسية السلطة فلن يكون هناك أي تجاوز خارجي. وتتجلى الفكرة الرابعة في المقارنة، النابعة من حقيقة أن العالم قد اتسع بفعل العولمة المتعاقبة ابتداء من القرن السادس عشر. والاتساع يخلق المقارنة. إذا أخذت هذه الخصائص الأربع: التوسع، الاستقلالية والفصل، التسارع والتجاوز الذي أصبح جوهريا، أفهم أن هناك الكثير من الحداثة في كل النصوص الفلسفية التي أطلعها، دون وجود التغريب فيها. سوف أتوسع في مراجع الفرابي وابن رشد في وقت لاحق.

خالد الزكري

يمكننا أن نتوقف عند مسألتين. أن نتساءل عن الحداثة في النصوص ونقول: ألم تبق الحداثة حبيسة الإطار المفاهيمي فقط؟ ما هي آثار وتداعيات هذه الحداثة المفاهيمية على الحياة اليومية والواقع المعاش؟ بلغة أخرى، من ناحية، تلك الفكرة الدنيوية عن الحداثة بصورة مبتدلة، ومن ناحية أخرى، ذلك الخلاف بين رونان والأفغاني. إذ يرى رونان أنه لا وجود للعلوم الإسلامية. حتى إنه ذهب في التصور الاستشراقي للقرن التاسع عشر قائلاً: أولئك الذين كتبوا بالعربية ليسوا عرباً. مضيفاً بأن ابن رشد كان أندلسياً -إسبانياً. نشر هذا النقاش في مجلة «الحوارات» في نهاية القرن التاسع عشر.

هنا تطرح مسألة المناظرة المبنية على الحجج الدامغة. أدلى رونان بحجج لغوية وتاريخية لها من القيمة ما لها. في حين اكتفى الأفغاني بردة فعل اعتيادية وانفعالية. هذا ما لوحظ خلال حوار دار بينهما، نشر سنة 2005، إن لم تخني ذاكرتي، تحت عنوان: «الإسلام والعلم»، بينما كان العنوان الأولي «الإسلامية والعلم»، الإسلامية على نمط المسيحية. أتوجه إلى عالم الاقتصاد وأستاذ العلوم السياسية، كيف ترون قضايا الإسلام والحداثة من زاوية الاقتصاد الاجتماعي والتاريخي؟



محمد الناجي

لقد أحسن الأستاذ علي بنمخلوف صنعا بحديثه عن اليابان، إذ يعتبر هذا البلد مثالا استثنائيا يوضح مدى النفاق وقصر نظر مقاربة إشكالية الإسلام والحداثة. لقد أحرزت اليابان تقدما أكثر من بعض البلدان الغربية، رغم أنها لا تملك نفس الخلفية الثقافية. تكمن المشكلة في أن اليابان، البلد الوحيد في العالم، خارج الغرب، الذي لازال ينتهج طريقة إنتاج إقطاعية، وهي نسخة طبق الأصل عن النظام الأوروبي في العصور الوسطى. كما يقول بعض المؤلفين، فإن الإقطاع هو أسلوب الإنتاج الرأسمالي بامتياز. لم تكن الثقافة هي المسؤولة عن ظهور الرأسمالية في اليابان بل البنيات الاقتصادية والاجتماعية. أدى التوسع الكبير الذي بدأ في أوروبا خلال العصور الوسطى إلى التقدم فتلتته الثقافة. وهذا هو الأساس. فلماذا يخلق الإسلام عندنا المشكلة فجأة؟ لماذا يصبح الفكر والثقافة هما العقدة؟ لم يزعجني هذا السؤال بتاتا، إذ عندما كنت أسير مؤسسة الثقافات الثلاث لوضع سنوات باسبانيا، كنت أعيش مسألة الثقافات الثلاث وحوار الثقافات. لذلك أعتقد أنها مسألة خداع، لماذا؟ لأنه وبدون سابق إنذار، عكست المشاكل، حيث كان النقاش الدائر عند الاقتصاديين في السابق - كلكم تعرفون كتاب أرغيري إيمانويل بشأن التبادل غير المتكافئ - حول العلاقات غير المتكافئة بين الاقتصادات والتسلسل الهرمي لتقسيم العمل. وفجأة انعكست الآية، فوضعنا المشاكل في الثقافة، كما هو الحال الآن. توجد أمم بربرية تعارض ثقافتها التقدم والآخرين. إنه تحول كبير في المجال. لقد سجلنا تأخرا مؤسفا! ما زلت أتذكر كتابا عظيما - أشيد به مرة أخرى - لمكسيم رودنسون عن «الإسلام والرأسمالية». عندما بدأ علماء الاقتصاد بالحديث عن الإسلام كعامل تخلف، جاء هذا الكتاب المبني على شروحات أهل الذكر ليثبت على أن الإسلام لم يقف يوما عقبة في طريق التقدم. ولا أدرج في هذا الصدد التقدم الفلسفي أو غيره. أتحدث عن التقدم من وجهة نظر الحداثة الاقتصادية التي تعد أم الحداثات الأخرى. الإسلام دين تجاري، كما كان محمد تاجرا. أرى الإسلام كبنية تحتية، لأنه في منطقة صحراوية، قاحلة، عديمة الموارد، خلق هذا الدين أسس التوسع المبنية على التجارة، وفي صيغة الإمبراطورية التي نعرفها. عندما استولى الأوروبيون على الطرق التجارية أخذت الأمور في التدهور. فلنضع النقاش في محله. إذا كنا نتحدث عن الحرية والديمقراطية، ذلك أمر. أما إذا كنا بصدد الحديث عن الاقتصاد، فذلك أمر آخر. يكمن المشكل المطروح لدينا في أن الاقتصاد والمجتمع شهدا تحولا، بيد أن الدين لم يتغير. لماذا؟ لأنه لا يوجد سبيل آخر. على سبيل المثال، وهذا أمر يصعب تفسيره للمفكرين الغربيين، لقد عاش المغرب من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر تحت وطأة التوسع الأوروبي.

لقد عاش وضعا مريعا، حالة من الموت. لقد تم الحفاظ على الأمة والإقليم، بواسطة الدين والزواية. لقد تم تنظيم الأقطاب الصناعية والزراعية الفضاء المحلي والإقليمي في أوروبا. في حين لم يكن للمغرب آنذاك مبادلات ولا أنشطة صناعية. الأقطاب الوحيدة التي استطاعت أن تتولى زمام أمور هذا الإقليم هم الزاوية والأقطاب الدينية. يجب أن نتوقف عن اعتبار الدين نقطة سوداء. من يزعم ذلك فهو ملحد. لا مشكلة عندي في إخباركم بأني لا أصلي ولا أؤمن، ولكنني أشتغل على النصوص وأحمل نظرة مختلفة. لا يتقاسم المفكرون نفس شواغلنا عن الإسلام. إنهم منشغلون بالهوامش. إذا كانت لديهم مشكلة في إصلاح الإسلام، فتلك قضية أخرى. أما عندنا فهي مسألة تقدم أولا. وحتى في العالم الإسلامي اليوم للأسف، لا تخلف الدراسات والكتب أصداء لأنها ليست «مثيرة». يقوم أناس بعمل دؤوب في فك رموز النصوص، وفي العودة إلى الأشياء التي تسكننا... لنعد النقاش إذا إلى مكانه.

خالد الزكري

يمكننا أن نقول إذا بأن الشخص المسلم هو إنسان اقتصادي. فوزية الشرفي، لقد قال علي بنمخلوف شيئا يبدو لي من المهم أن نقف عنده : قال بمفهوم «لا مركزية الحادثة» إذ تصبح تعددية. لقد أسأل المفكرون القادمون من الهند مدادا كثيرا في هذا الصدد من قبيل تشاكرابارتي، والذي اعتبر في مؤلفه «إضفاء الطابع الإقليمي على أوروبا - فكر ما بعد الاستعمار والفوارق التاريخية»، أن الفكر الأوروبي، مهما كان جوهريا، فهو غير كاف لفهم تجربة الحادثة السياسية في الدول غير الغربية. هل تلاحظين مظاهر الحادثة في العالم العربي والإسلامي ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي ؟ ثم كيف يمكننا تعريف الحادثة بشكل مختلف ؟

فوزية الشرفي

توجد مظاهر الحادثة. إلا أن هناك أيضا نقطة انطلاق تبدو لي غاية في الأهمية، والتي أشار إليها علي بنمخلوف، وتتعلق بمسألة الاستقلالية. بالنسبة لي، لا يمكن تصور حادثة دون استقلال الفكر. في بلادنا، نتحدث عن استقلالية الفكر وما يسمى بالحقيقة في العلم. وفي العلم، لا وجود لحادثة دون التساؤل حول ماهية العلم. فالعلم لا يقدم الحقيقة المطلقة، بل يقترح حقيقة هشّة وقابلة للدحض، رؤية مؤقتة ومضطربة لحقيقة الوحي. إذا عدت اليوم إلى قضيتي الأولى، ما يحدث للأسف في بلادنا، كلها محاولات للعودة إلى الحقيقة التي هي حقيقة الوحي. ونتيجة لذلك، فإن العلم يواجه تحديا حقيقيا، إذ نريد ربط العلوم بالنص المقدس بشكل مطلق. توجد تيارات شتى تدعي أن كل الحقائق موجودة في النص القرآني، الانفجار العظيم، الثقب الأسود، إلخ. وهذه ليست بظاهرة صغيرة. أولئك الذين يهتمون بقضية العلم هذه في البلدان الإسلامية ينشرون العديد من الكتابات، خاصة على الإنترنت، هناك مواقع مكرسة بالكامل لهذه المواضيع، وهناك بالفعل تشكيك في الفكر. والخطر في الأمر أن هذه الظاهرة أصبحت تكتسي أهمية كبيرة. أنشأت في المملكة العربية السعودية لجنة الإعجاز العلمي للقرآن سنة 1983 وقدمت منح دراسية، بالإضافة إلى تشجيع جميع الأبحاث التي تصب في منحى هذا التوافق الذي ذهب بعيدا. يجذب الطلاب والشباب إلى حد كبير لهذه الصيغة من العلم... عندما نتحدث عن التأخير، فإننا نعود إلى رومان لا محالة. وبصرف النظر عن بضع المحاولات في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فنحن في فترة تقهقر مقلق للغاية. أخشى أننا نبتعد عما يسمى بالحادثة.

خالد الزكري

نبقى في نموذج الاستقلالية الذي يقودنا إلى التمييز، والذي يعتبر مكونا تركيبيا أساسيا للحادثة. هل هناك شروط للاستقلالية واستقلال الفكر في العالم العربي الإسلامي ؟



علي بنمخلوف

لأجيبكم، أود أن أبقى على التفاعل مع زملائي، أبدأ بالحديث أولاً عن اليابان ثم أكمل بعد ذلك بخصوص الحقيقة العلمية. لقد راقني كثيراً ما قاله محمد الناجي. عندما قام وزير الخارجية الياباني بجولة في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، عاد إلى بلاده وقال ما مضمونه : ما يميز البلدان الأوروبية عنا هو التعليم، لنطور إذا نظامنا التعليمي. فلم يطعن أبداً في النظام الثقافي، والشتنتو والبوذية. وبعد جيل واحد، في سنة 1913، نشرت اليابان - التي كانت أفقر من المملكة المتحدة والولايات المتحدة - أعمالاً أكثر منهما. يعاني العالم العربي الإسلامي من عجز تعليمي حقيقي، لكنه غير مرتبط بالنظام الثقافي الإسلامي، بل مرتبط باختيارات سياسية ضارة تعطل هذا العجز في التعليم. ويحيلنا ذلك إلى الرابط مع الحقيقة العلمية. كما قالت بالفعل السيدة الشرفي، في كل المحاضرات التي ألقيتها في المغرب والجزائر ومصر... أجد أيضاً تلك الفكرة التي اعتبرها تشنجا عقلياً، والتي تتعلق بالبحث عن العلم في الكتاب المقدس. في هذا الصدد، يقدم الماضي التاريخي والفلسفي هامشاً لتوضيح الجواب. سوف أجيب بـ«نعم» في هذا الشأن، والذي يميز بين «الحق»، مصطلح ذو دلالة دينية، وبين «الحقيقة»، المرتبطة بالتفسير المقدس. كما يتحدث أيضاً عن «الحجج» و«البراهين» (الحجج والبراهين والإثباتات). ويقول بوضوح في «فصل المقال في ما بين الحكمة والشرعة من اتصال»، أن هناك استقلالية وفصل ما بين «الصحيح» و«الحقيقي». فالصحة العلمية لا تتصل بالحقيقة. أضف إلى ذلك أن كتابات ابن رشد شكلت لبنة أساسية لتحقيق ما وصل إليه العلم الأوروبي الكوبرنيكي.

لم يتحدث كوبرنيكوس أبداً عن الحقيقة وإنما عن ملائمة الفرضيات وصحتها. عندما قرأت «مقدمة أوسياندر» لكتاب كوبرنيكوس، وكأني أقرأ تماماً مصطلحات ابن رشد، بمعنى أننا سوف نقدم، بصرف النظر عما تقوله النصوص المقدسة، لأن هناك صحة علمية والتي تختلف عن الحقيقة الدينية، والتي لاتجسد بدورها الحقيقة كلها. يمكننا استخدام العلم كوسيلة، من خلال وضع الفرضيات كأدوات من دون التفكير في أنها معزولة عن الواقع أو حتى عن الحقائق. أجيب الأشخاص القائلين «بأن العلم يوجد في القرآن» بقول : «إذا، تريد أن تشرح القرآن لأن العلم قابل للخطأ والقرآن صالح لجميع الأزمنة، وإذا ترغب في قراءة القرآن، فابتعد عن العلم، لأنه قابل للتغيير على خلاف القرآن». وبما أن الخطأ وارد في العلم فإن الدين معصوم من الخطأ. يجب أن نتوقف عن تقييم المعرفة بأصولها. وجب تقييمها وفقاً لصحتها. لا توجد العلوم وحدها.

عند السؤال عن الاستقلالية، انظروا إلى الشريعة : إذ لا تملك حصانة ذاتية. فهي دائماً ما ترتبط بالفتوى، أي الفتوى في قضايا معقدة تروق الناس. مرة أخرى وللأسف، نسقط في النموذج الاستعماري الفرنسي الذي أزال الشريعة في القرن التاسع عشر في الجزائر، باعتبارها متجاوزة، عفا عليها الزمن ولا تعرف التغيير. بيد أن الفقه يتغير دائماً بتغير الزمن. والتغيير هنا بمفهوم الحداثة، بعيداً عن كل تغريب، منصوص عليه في الشريعة، وليس للشريعة حصانة.

خالد الزكري

هناك مفهوم «المصلحة»، وهو مفهوم جدا يستشف عند قراءة القرآن فيما يتصل بالواقع والحياة اليومية. هل توجد مظاهر الحداثة في حياتنا اليومية ؟

محمد الناجي

نعم، يكفي مشاهدة ما يطرأ في المجتمعات. لنأخذ مثال المجتمع المغربي الذي أعرفه جيداً : إنه متقدم جداً في ممارسته، في عيشته مقارنة بالدين. نبتعد في العديد من الممارسات الاجتماعية عن الأحكام الدينية. أعتقد أن ما يحدث للمدينين في مجتمعاتنا، هو هذا الوعي بالتمزق الذي يدخل في الحياة، مما يولد محاولة للانغلاق. وفي المقابل، لمعرفة العلاقة بين الدين والعلم يكفي تصفح الانترنت. يتوفر الإسلاميون على أدوات تحدث جلبية وضوضاء حول هذا الموضوع. لكن الناس لا يكثرثون لذلك، بل يسخرون منه. منذ البداية كانت حالة انغلاق المتدينين حاضرة، إذ لم يتم تأويل النص القرآني دفعة واحدة، لقد تم الاشتغال عليه لفترة طويلة. استغرق الأمر قروناً لخم النص بأمانة وبإخلاص مع القراءات السبع. لأنه كان هناك وعي واضح بأن الأمور لم تحدث داخل القرآن، وإنما في الخارج. إذا لم تكن هناك حداثة اقتصادية في دول الإسلام، فيعزى ذلك إلى كونها منطقة صحراوية عانت الكثير من شح حاد في الموارد المائية، وهي منطقة لم تكن فيها الزراعة قادرة على فك عزلة المجتمعات القبلية. لنعد قراءة «دوبي»، المؤرخ العظيم للعصور الوسطى. لم يتحدث هذا الأخير قط عن الديانة في وصفه للمجتمعات الغربية، كيف اندثرت القبائل وكيف ظهر الفرد ودور الاقتصاد... تحدث عن الكنيسة مرة واحدة عندما لعبت دوراً إيجابياً في التنمية الاقتصادية. لماذا يجب التفكير في مستقبلنا على أساس ما هو ديني ؟ لا تكمن المشكلة هناك. السيد بنمخولف، لقد قلت أمراً في غاية الأهمية مفاده أن الأسس الاجتماعية شكلت أساس التنمية في اليابان. ولقد كان السلطان مولاي الحسن قد أرسل طلاباً إلى اليابان لكنهم لم يعودوا. لعب التعليم دوراً في تقدم اليابان، وبعده نموذج كوريا. في الحقيقة، القضية سياسية وليست دينية. فلماذا دمرت السلطات العمومية منظومة التعليم بالمغرب ؟

بدأت المدرسة في تشكيل نخبة منذ الستينات والسبعينات، وذلك خلق تحدياً كبيراً. لم تكن تطرح مسألة الدين أصلاً في الحركات اليسارية في السبعينات : لقد كنا جميعاً ملحدين بالفترة، وكنا مخطئين. لأننا لم ندرك أهمية الجانب الديني. كانت السلطة واعية بدور المدرسة فدمرتها. فكيف نتوقع أن يتطور الفكر الحديث في جحور القرآن ؟ اليوم، لم تعد هناك مناقشات ولم تعد هناك كليات بالمعنى الدقيق للكلمة. نجهل حتى من أين جاء الجيل الجديد من المعلمين. تكمن المشكلة في تدمير المدرسة. لا يمكن المضي قدماً في غياب نخبة لا تملك فرصة التعبير عن فكر فردي لتكون فعلاً نخبة بما للكلمة من معنى.

خالد الزكري

حتى لو أردنا نزع المركزية عن الحداثة بالنسبة للغرب، فهناك مجال للتفكير الديني من أجل الجميع. هل توجد فضاءات مستقلة معدة لتفكير حر فعلي. إذ يجب التوفر على مساحة مستقلة للتفكير من أجل خلق نمط حياة جديد. هل يوجد في العالم العربي الإسلامي فضاءات معدة لاستقلالية التفكير ؟

علي بنمخلوف

تحدث عن فضاءات مستقلة للتفكير. وأرى أنه من الضروري التمييز في هذه البلدان بين المناطق الساحلية والمدن الكبرى، المناطق الداخلية والمناطق القروية. حيث تتطور التجمعات في المناطق الساحلية والمدن الكبرى. تتاح إمكانية وجود فضاءات صغرى للمناقشة، ولو أن هناك عجز حاد في تنظيم المناقشات مع وجود طلب قوي. يلجأ الناس كثيرا لوسائل الإعلام من أجل المناقشة، لاسيما الصحافة المسموعة حيث يطلقون العنان للتعبير عن الأفضل والأسوأ، كما يلجؤون في غالب الأحيان للإذاعات الخاصة للتعبير عن المشاعر الجياشة. لكن، وبشكل أعم، أعتقد أنه رهان كبير جدا. وما نتحدث عنه اليوم يهم النمو الشامل للجميع، ويرتبط بالتنمية وليس فقط بنمو رأس المال. بيد أنه عندما تطور التكنولوجيا الرقمية، رونو بطنجة، بيجو بالقنيطرة، الخط فائق السرعة... كلها إنجازات عظيمة، لكنها تتعلق بحالات فردية لا تستطيع إخفاء الفقر المدقع للبنى القروية، وعجز المنتجات المغربية على الارتقاء. نريد صنع السيارات لتصدر من المغرب في اتجاه بلدان عربية مثل مصر. إلا أن فرنسا تستغل المغرب كبلد للتصنيع والتنفيذ. يبدو لي أن البلدان العربية قادرة على الابتكار وليس فقط التصنيع. كان ذلك وارد الحدوث لو لم يكن التعليم عاجزا...
أركز على الفوارق في المناطق القروية، يحدد سن الزواج في الثامنة عشر، بيد أن هناك استثناءات للفتيات البالغات ثلاثة عشر وأربعة عشر سنة في مناطق بالأطلس المتوسط. تقوم الجمعيات بالكفاح : وأشير بصفة خاصة إلى مؤسسة يطو. يكفي ثلاثمائة أورو لإنقاذ الفتاة من هذه المحنة : زواج في سن الثالثة عشر وإنجاب طفل في سن الرابعة عشر وطلاق في سن الخامسة عشر ثم العودة إلى بيت الأهل بمأساة ضياع فرصة حياة طبيعية. توجد حالات كارثية مرتبطة ارتباطا وثيقا بحقيقة أن مناطق التجمعات السكنية والساحلية حظيت بأفضلية النمو أو ما أطلقتم عليه فضاءات خاصة بحرية الفكر.



فوزية الشرفي

أعود إلى مسألة العلم. أنشأت في القرن التاسع عشر أكاديميات ومؤسسات يدرس فيها العلم الحديث في تونس وطهران ومصر. كانت عبارة عن أكاديميات عسكرية. ولم تستمر هذه التجربة مع أنها شكلت انطلاقة مهمة. أود أن أشير إلى أنه طوال القرن التاسع عشر، ونحن نسعى لتدارك التخلف العلمي، لكننا ارتبطنا بالعلوم التطبيقية أكثر من العلوم نفسها. وهنا مربط الفرس.

من أجل صناعة السيارات والهواتف النقالة اليوم... نحتاج إلى العلوم البحتة ونظرية الكوانطا. سوف يبقى حالنا على ما هو عليه، إذا لم نقر بأن مسألة التعليم هي من تقف وراء ذلك وبأن المعرفة هي مفتاح التقدم. عندما نتحدث اليوم عن العلم فذلك أمر معقد، لأننا لا نتوفر على قواعد رصينة للعلم في بلداننا، ونحتاج إلى وقت طويل من أجل إدراك ذلك. سوف يكون من المعقد جدا أن أشرح لكم نظرية الكوانطا على أن أقول أن هذا النص المقدس يعني الانفجار العظيم. أظن أن هناك فعلا نقاش حول التدريس والمدرسة... لقول كيف نكون أقوى في عالم لا يريد إعطاء التلاميذ سوى أشياء سهلة وجذابة، وكيف يميزون بين المعرفة العلمية والمعتقدات ؟ أرى أن هناك مشكل أكثر تعقيدا تعاني منه بلداننا، إذ لا نملك تقاليد علمية بقواعد رصينة. يجب أن ندرك ذلك جيدا. فكل ما نقوم به في مجال البحث العلمي يعتمد بشكل كبير على الخارج. هناك أشياء كثيرة مبنية على أساس الرياضيات ولدينا تقاليد قوية لكنها لا تستغل كفاية. وفيما يتعلق بقضية الحريات والفضاء، في تونس هناك تطور فعلي لما أسميه بالحادثة، أي الاعتراف بالفرد، أي المجتمع المدني. ولقد تم، منذ سنة 2011، طرح جميع القضايا وكل الطابوهات، بما فيها تلك المتعلقة بوضع المرأة والمثلية الجنسية، وهي قضايا صار يناقشها المجتمع المدني وليس السلطة السياسية. ويطرح هنا أيضا سؤال كبير : كيف يمكن أن نجعل من هذا المجتمع المدني الخلاق مجتمعا قادرا على الفعل ؟

محمد الناجي

في رأيي إن شروط الانفصال متوفرة ولكن هناك حاجة إلى الأدوات. سوف أقدم لكم أمثلة من صلب تجربتي. لقد دعيت إلى إقليم بني ملال من أجل تقديم قراءة حول سورة الفاتحة. وكان هذا في إطار أحد المواسم آنذاك. ولقد قدمت نصي وأنا أرتجف من ردود الأفعال التي قد تنجم عن قراءتي، إلا أنني دهشت بروعة النقاش وجودته، وحقيقة أن الناس اليوم يتقبلون فرضيات تسعى لمساءلة مكانة القرآن في المجتمع. إنني مقتنع بأن الماضي قدما في النقاش، على قول بوتيرو، مرتبط بالتعاطف في التعامل مع المشكل وليس الخضوع للتعاليم الدينية. لا يمكن أن نناقش الإسلام بينما نحن أعداء له. علينا معالجته بصفتنا أشخاصا نطمح إلى التقدم لأن مشكلتنا تكمن في الفهم وفك الرموز من أجل التقدم. يمكننا الاستعانة بالمفسرين العظماء مثل الطبري في فتح عوالم خفية، إذ لا يمكن الحديث بلسانهم في تمديد نقاشهم. هؤلاء الأشخاص قدموا لنا ولا يستطيعون إخبارنا. الانفصال موجود، لكن المدرسة لا تضطلع بدورها في تكوين الشباب، فلن يمتلك هؤلاء الأدوات اللازمة للتفكير بشجاعة. فالسياسية ليست ما هو ديني. في المغرب، نجح الحزب الإسلامي العدالة والتنمية في الظفر بالمركز الأول في الانتخابات السابقة : لم ينجح لكونه حزبا دينيا، وإنما لأنه تحدث عن الفساد في ظل احتضار الأحزاب اليسارية. أولئك الذين صوتوا لصالحه هم في الغالب من العالم الحضري وليس لديهم نفس المبادئ. هناك بعض التقدم، ولكن السلطة أغلقت جميع جسور التواصل في الفضاءات العمومية.

رشدي راشد

بعيدا عن الحشو واللغو هذه مائدة مستديرة ممتازة، يضبط فيها المتدخلون موضوع نقاشهم، كما أنها موجهة ومسيرة بشكل جيد. لا وجود للحادثة. تكون الحادثة أساسا علمية وفلسفية. هناك أربع أو خمس حداثات مرت في تاريخ البشرية. هناك حادثة القرن الرابع قبل الميلاد وقد استمرت لقرون. وهناك حادثة القرن التاسع والعاشر. كما أن هناك حادثة القرن السادس عشر والسابع عشر، وقد استمرت بدورها لعدة قرون. وأخيرا هناك حادثة اليوم، والتي تتسم بالاختلاف. يشكل موضوع الحادثة بصفة عامة مشكلة حقيقية للصحف في هذه الحالة، وليس للعمل العلمي. إنكم على حق تماما، الإسلام ليس هو القضية. تمت الإشارة إلى ابن رشد وأنا أضيف ابن تيمية، ويعتبر أكثر عقائدية من الآخرين. ويقول في شأن العلوم على أنها شاملة للجميع وليس للدين علاقة بها.

يعد التفسير الحالي لابن تيمية هراء، لأسباب سياسية نعلم من يقف وراءها. أعرج على اليابان واسمحوا لي بإنعاش ذكرى شخصية : لقد اشتغلت كأستاذ في جامعة طوكيو. وقد درست وتابع كيف أن الأشياء تطورت في اليابان. لقد كانت البداية مع العسكريين، إلا أنهم قاموا بشيء مهم للغاية لم تقم به مصر. إضافة إلى الأمور العسكرية، أرسلت اليابان عددا أقل من البعثات إلى الخارج. لقد فضلوا استقدام الأشخاص من الخارج إلى جامعة طوكيو لاسيما جامعة كيوتو وكان جلهم من ألمانيا ويقومون بتكوين الأفراد محليا. وهذا هو الفرق الأساسي، أولئك الذين أرسلوهم في وقت لاحق، أرسلوهم إلى أهم المراكز في أوروبا، وليس في المناطق الخاضعة للسيطرة الاستعمارية مثلا. بالنسبة للرياضيات، أرسلوا مباشرة عند هيلبرت، أي إلى غوتنغن، ولم يرسلوا تحت تأثير الوجود الاستعماري في المنطقة. المشكل ليس في الإسلام إطلاقا. قضية الإسلام هذه تستحوذ على الكثير من المساحة بسبب دول الخليج. يجب أن نعالج الموضوع بشكل ملموس.

السيد داران

ترتبط أسباب غياب المناقشة، أو القدرة على خلق نقاش في الفضاء المغربي بالسلطة. لماذا هناك رغبة في المناقشة ولكن تحول دون ذلك في نهاية المطاف ؟ نخاف من التشكيك في أفكار أو أنماط تفكير جامدة في العالم الديني والعالم غير الديني. وبما أن هناك وعي مكتسب، أين تكمن الصعوبة في الغلو أكثر في المناقشات ؟ بالنسبة لي، يتطور المجتمع جيدا عندما تدور فيه المناقشات باستمرار.

علي بنمخلوف

أشكركم جزيل الشكر على إثارة قضيتين مهمتين. بخصوص إدلاء رشدي راشد، فأنا أتفق معك كليا. في الواقع، يقول أفلاطون أنه لا ينبغي القيام بالأمور بسرعة كبيرة. ويجب إقامة التمييز وأعتقد أن المحطات الأربع التي أشرت إليها تسير إلى حد كبير في اتجاه لحظات التسارع الزمني التي يمكننا أن نحددنا كلحظات من الحداثة. ما يلفت النظر في المحطات الأربع التي اخترتها وهو القيام بالعديد من الترجمات خلالها. الترجمة تجعلنا نثري لغتنا عن طريق الإسهامات الخارجية وهذا شيء مهم. والفهم هو الأساس على حد تعبير السيد محمد الناجي وكلمة «فهم» جوهرية. أردد دائما أننا نترجم لفهم ؛ ولا نترجم لإعادة معاني قائمة : نترجم لفهم. بالتالي فالترجمة والفهم في ظل لحظات التسارع الزمني عمليات جوهرية. أقدر الإشارة إلى ابن تيمية. وأقول دائما أنه هو الغزالي لم يعارض الفلاسفة أبدا كما هو متداول، أبدا، على الإطلاق، لكونها تيارات منفصلة. وهذا يعني، أنه لطالما اعتقدنا، في القرون الوسطى، أن الفلسفة تساوي الفكر «الأرسطوطاليسي». صحيح أن لدينا الكندي، ابن سينا، الفارابي، ابن رشد، أرسطو. لكن هناك تيارات تجريبية أخرى، «شكوكية» وذاتية، وهي تيارات فلسفية مهمة. وكل ما طوره ابن تيمية من «شكوكية» تجاه المنطق الكوني جدير بالثناء : إنه تقليد «سيكستوس إمبيريكوس» و«الشكوكية» اليونانية العظيمة، التي لطالما سخرت من القياس المنطقي لأرسطو وطالما أثار هذا الأمر نقاشا وجدالا حقيقيا. الغزالي فيلسوف عظيم مثل باسكال. عندما يقول باسكال : «ديكارت قابل للشك وبلا فائدة»، لن نقول إن باسكال يعارض الفلسفة، وإنما يصدد تطوير شيء آخر. وعندما يقول الغزالي «الفارابي وابن سينا قابلين للشك وبلا فائدة»، نقول حينئذ إن الغزالي يعارض الفلسفة : ولعل هذا أمرا سخيفا. فهناك العديد من الفلسفات. ما راقني في مداخلتك بالتحديد هو التعددية والتمييز، لأنها قضية جوهرية. لقد تحدثت سيد داران عن الرغبة والخوف. لقد كنت أملك رغبة المناقشة، ولكن يزعجني الخوف منها. مع تقديمي في السن، أحب المجتمع الذي أحذر منه، إنه المجتمع المغربي. أعيش منذ أربعين سنة في فرنسا، لأن «الرغبة والخوف» يولدان شدة قوية. أرتاح في أوروبا من المغرب : إنه الاستقرار. كما أحب المغرب حقا، لأنه يمثل الشدة، التي تعج في كل مكان، في التوترات، في التناقضات. يوجد الاثنان فعلا «الرغبة والخوف».

اسمحوا لي أن أكون متفائلاً، إن الخوف يتبدد أمام الرغبة. لقد قالها السيد خروز : هناك في بعض الأحيان أشكال من المرافقة، حتى داخل الهياكل الإدارية للدولة. صحيح أنه في بعض الأحيان، عندما تذهب إلى مركز الضرائب، تشعر وكأنك تدخل إلى السجن. نجد ذلك التناقض باستمرار. دائماً ما أكون حذراً ويقظاً، بينما في أوروبا أنعم بسبات فكري.

محمد الناجي

لسوء حظنا أننا أمام أوروبا. لقد كانت اليابان بعيدة ولكن تم احتلالها. كانت مصر - التي يقول الاقتصاديون الكثير من الخير عنها في القرن التاسع عشر - الدولة الوحيدة التي عرفت ظهور بوادر النهضة، إلا أنها أجهضت بسبب تواجد الأوروبيين.

مداخلة

سؤال يتعلق بشبكة القراءة المكونة من أربع نقاط. قد تكون قضية معرفية. لقد تحدثت عن العقل بدلاً من سبب استقلالية العقل. لقد تحدثت عن تسارع الزمن والعالم الأخذ في التوسع، والذي يقدم عناصر مقارنة أكثر أهمية. أتفق مع النقاط الثلاث الأولى، أما بالنسبة للنقطة الرابعة فقد أشرت إلى «ذكرى إله البشرية الفاني». أسأل نفسي هذا السؤال : أليس هذا النموذج مستعاراً من الغرب ؟ ألا ينبغي التفكير في نظام مفتوح إذا ما أردنا إعادة التفكير في مجتمعاتنا ؟ أنا لا أقول بالتفكير في نظام مع إله حي، ولكن على الأقل في إطار يتعايش فيه كلاهما.

علي بنمخلوف

بخصوص النقطة الرابعة، فقد ذكرت «الليفياتان» لهوبز، «الحاكم، الإله الفاني». أعتقد أن التقديس ينتقل. لذا، فعندما لا يتم وضعه في السلطة الدينية، فإن السلطة، على كل حال، ستعيد إضفاء الطابع المقدس عليها. نحن نطيع القوانين لأنها قوانين. أقتبس من مونتيني قوله «طبيع القوانين ليس لأنها عادلة بل لمجرد أنها قوانين». إن استعادة القوانين لا تعني الإشارة إلى تجاوز مباشر، بل لأنها قوانين، أي أن تقوم بإيقاف نظام التبرير تلقائياً. وهنا تجد نفسك في خانة الإيمان. وينص البند الخامس للإعلان العالمي لحقوق الإنسان على : إيمان الإنسانية بالحقوق الأساسية. لذلك فعندما لا يكون التقديس دينياً فهو ينتقل.

مداخلة

لدي سؤال للسيد الناجي. هل يرجع ذلك إلى حقيقة أن العالم العربي والإسلامي، وخاصة المغرب الكبير، كان يعتمد منذ ستين سنة - أي جيلين - على كون المجتمع اليوم يأخذ منعطف الحداثة وقوى مختلفة تعارضها ؟ وعلى حد قولك، تلقينا صفعاً في السبعينات، كنا نظن أننا نسير على الطريق الصحيح. بالنسبة لنا، نحن الذين نعيش في فرنسا، هناك تأخر حقيقي. على سبيل المثال، نجد في المدارس الثانوية أن بعض الآباء لا يريدون لأطفالهم أن يأخذوا دورات في العلوم الطبيعية. هناك شيء راسخ بطريقة فهمنا للحداثة.

محمد الناجي

بالنسبة للسلطة، من الواضح أن لدينا هنا سبب للنقاش : السلطة ستبذل جميع الاستراتيجيات الممكنة للدفاع عن مصالحها. ولكن بالنسبة لمسألة عودة المتدينين، بالنسبة لي، فهي ليست مسألة القوة، إنها مسألة التمزق. ذلك لأنهم يشعرون بأن المتدين يخسر، وأن نمودجه لم يعد قائماً، ولم يعد قادراً على الإقناع. هذا أيضاً علامة على التقدم، لكن للأسف، لا يوجد لدى المجتمع الوسائل لمواجهة نظراً لضعف التعليم والتمدرس.

فوزية الشرفي

أود أن أضيف شيئاً عن التعليم ودروس العلوم الطبيعية ونظرية التطور على وجه الخصوص. هذه ظاهرة حديثة تمت ملاحظتها منذ الثمانينات، ومن الواضح أنها مرتبطة بصعود الإسلام السياسي. لقد بدأت أشتغل في ميدان التدريس سنة 1964 ولم يكن هناك أي رفض لدراسة العلوم على الإطلاق، بالنسبة لأساسيات العلوم في الستينات. وبشكل تدريجي، في السبعينات، عندما انحرف التعليم عن مساره، لأن الأنظمة السياسية فضلت اختيار المشروع الإسلامي بدلاً من اختيار اليسار. وقد حدث هذا في عدد من البلدان، وفي هذه المرحلة بدأ الانحراف على مستوى المدرسة. أعتقد أننا لا نعطي أهمية كافية لذلك، لأنه عندما نرى اليوم تطورات علم الأحياء في العالم، لا يوجد شيء غير العلم في الواجهة. من المخرج للغاية أن نرى الطلاب يرفضون الاستماع إلى علم البيولوجيا ونظرية التطور. وهذه نظرية وليست حقائق. ويطول الحديث في هذا الصدد لأننا لم نعد نعرف حتى ما هو العلم بعد الآن. في الواقع، يجب أن يكون الآباء أكثر وعياً وأن يفهموا أن مستقبل أطفالهم هو حضور الفصول الدراسية والفهم. هناك تجربة مشوقة في تونس بخصوص تأطير التلاميذ بخصوص نظرية التطور، وخلق الجدل حول الموضوع، إلخ. أعتقد أن هذه التجربة يمكن تعميمها. إذ هناك الكثير من الأبحاث حول كيفية محاربة هذه الرؤية السائدة عند عدد من المغاربة، ولعل هذا الخلط بين المرجعية العلمية والإحالات اللاهوتية، يطرح تساؤلاً حقيقياً. يجب أن نأخذ أيضاً بعين الاعتبار وجود رؤية مركبة لتطور الحياة. وهذا سؤال جاد يستحق المناقشة.

علي بنمخلوف

أنت على حق، تزداد التوترات عندما تكون هناك تغييرات. منذ الثمانينات، أصبحت المرأة تتواجد بشكل متزايد في الفضاء العام. إنها حقيقة لا تقبل الجدل. هذا الوجود العام للمرأة - سواء كانت محبة أو لا - يعطل فعلياً القوى الرجعية والقوى المعادية للنساء. أنت تعرف أن النساء هن من يعاني من التمييز العالمي بغض النظر عن المجتمع. انظروا إلى الهند والصين ونقص مائة مليون أنثى، حيث يتم الإجهاض عندما يتحدد جنس الجنين. لذا، فإن قضية المرأة مسألة كبيرة وحارقة. ثم تحدثت عن التأخر في العلوم البيولوجية، لن أقول تأخر، وإنما حصر. في الولايات المتحدة، الإنجلييون يؤسسون الجامعات التي تؤمن بالخلق ضد التطور، الأمر ليس مسألة الإسلام وحده. إنها حركة كاملة، نجد في كل مكان، مقاومة وحصر وليست مسألة تأخر، كما قالت الأستاذة الشرفي.

يجب علينا أن نجد باستمرار وسائل النشر لندافع بفعالية. لعل سذاجة رجل العلم الحقيقي تتمثل في اعتقاده أن العلم سيسود لوحده. لنستعرض لحظة جاليليو : لم يكن الأمر كذلك. خلق كوبرنيكوس وكبلر علماً ولم يواجهها أية مقاومة. استغرق الأمر ثمانين عاماً بعد 1543، محاكمة غاليليو، الذي يقول في الأساس، هذا يكفي، لا بد لنا من تغيير أشكال التعليم، ووقف الكليات اليسوعية والدومينيكان الذين يعلنون فكرة ثبات الأرض في مركز العالم، هنا واجه غضب الكنيسة. كبلر أيضاً أرسل له كلمة جارحة، قائلاً أنه قد بالغ وتحمس كثيراً، كيف لا وهم يعملون دون ضوضاء حتى ذلك الحين بفرضيات كوبرنيكوس. في سنة 1616، تم إدانة استخدام فرضية كوبرنيكوس بعد استخدامها لثمانين عاماً. لذلك، هل نحن على استعداد لمناقشة العلم كما فعل غاليليو ؟ هذا هو السؤال الحقيقي.

محمد الناجي

يتمتع المغرب بقدر محترم من الحرية الفكرية يسمح لك بكتابة ما تريد من أفكار ؛ حتى لو كانت نصوصك ضد الله والرسول والأنبياء. ولا تبدأ المشاكل إلى عندما تصل هذه الأفكار إلى العموم عبر وسائل إعلام والسياسيين. وبالتالي، كلما اقتصرت النقاشات على أهل الفكر والثقافة بعيداً عن الإعلام والسياسة، فلن نواجه أية مشاكل.

مداخلة

أنتم ولا ريب من النخبة ؛ وأنتم مفكرون رائعون حقا، وعلمكم، بحر بلا ضفاف. لكن ألا ترجحون أن هذا الوضع ربما يتسبب لكم في نوع من الفصام عند مقارنة موضوع التقليد مقابل الحداثة ؟ أستاذ خالد، تساءلت حولت انتماء ابن رشد للأندلس وانتمائه إلينا، فرجحت أنه أقرب إلينا. شخصا، أعتقد أنه أندلسي وينتمي إلينا أيضا. فلا تناقض بين انتماء ابن رشد للأندلس وانتمائه إلينا ؛ يمكن أن نكون «نحن» في أشياء كثيرة. ما تفضلتم به هو ما دفعني إلى طرح هذا السؤال. وفي الحقيقة، مشكلتنا ليست في الحديث ببراعة عن الماضي، لكن في مناقشة كيفية تجاوزه عبر مناقشة مثمرة. ويبدو لي أن هذا مشكل مشترك بين المغاربة والجزائريين والتونسيين... خاصة الشباب منهم.

كيف نخرط في الحداثة ؟ بصراحة، لدي انطباع مفاده أنكم بشخصيتين اثنتين : شخصية أولى تبرز عندما «تكونون على حقيقتكم» وشخصية ثانية عندما «تكونون بيننا». أتفق تماما معكم عندما تحدثتم عن إمكانية اتباع نموذج اليابان، خاصة منذ بدء انخراطها في الحداثة. لكن، هل نحن فعلا قادرون على الاحتذاء بهذا المثال ؛ لا أعتقد ذلك. أعتقد أن مشكلتنا تكمن في علاقة القوى «مهيمن ومهيمن عليه». كانت اليابان ترسل سفيرها كي ينظر كيف تسير الأمور في الإمبراطورية الروسية المهيمنة بقيادة بيتر العظيم الذي كان يرسل بدوره سفيره في نفس المهمة إلى اليابان المهيمنة منذ نهاية القرن التاسع عشر، قرن «الخدونية الجديدة». سعى بعض المنخرطين في «الخدونية الجديدة» إلى إضفاء صبغة علمية على تكوين جامعة الزيتونة بتونس. لكن هذا المشروع فشل لأسباب عديدة، أحدها أنه كان يسير عكس اتجاه تسير التجربة الفرنسية المستوردة. وأختم بسؤال : أليس المجتمع المدني، الذي لا يواجه الدولة بشدة ولا يبحث عن السلطة بقدر ما يبحث عن الحلول، هو السبيل الوحيد المتاح أمامنا في مسيرة البحث عن الحلول الملموسة ؟

خالد الزكري

لست أنا صاحب فكرة إعادة تملك ابن رشد : لقد استعرتها من إرنست رينا، الذي يبين في كتابه «ابن رشد والرشدية» أن ابن رشد أندلسي لا عربي. وبطبيعة الحال، يجب أن نفهم هذا الكلام في سياقه التاريخي، لأنه يندرج في إطار الجدل الاستشراقي. ولعل الكلمة التي أجدها مثيرة للاهتمام في مداخلتك هي «الفصام». المشكلة ربما هي أننا لسنا واضحين بالقدر الذي ينبغي أي لبس عما نقول. وقد أبلى الأستاذ علي بنمخلوف البلاء الحسن لما تطرق لهذه النقطة، ونفس الشيء بالنسبة للأستاذ محمد الناجي لما تحدث عن تعددية الحداثة. عندما نقول إن علاقتنا بالحداثة علاقة فصامية (سكيزوفرينية)، فنحن نضع أنفسنا في خندق المعارضين للحداثة ؛ وبالتالي، نعجز عن فهم وتفسير واقعنا دائما بالتعقيد. ألا ترجح أنت بدورك أن يكون هناك نوع من الازدواجية الإيجابية الكفيلة بمساعدتنا على فهم عالمنا وتحديد موقفنا فيه بعيدا عن ثنائية التقليد-الحداثة ؟ شخصا، أرى أن هذه الازدواجية تعتبر حجر الزاوية فيما يمكننا تسميته الحداثة العربية. وأرى أن علينا الابتعاد عن كل الغيبيات المعارضة كيف نفهم، ولو جزئيا، الترابطات القائمة بين مختلف العناصر.

رئيس الجلسة : جون زكنياريس
المشاركون : عبد القادر بنعلي، سليم الجاي، ماجد معز، مامون الحبابي، عبد الله بيضا
فضاء : ليلي العلوي
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 09 : 00 - 11 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

أشرف على هذه المائدة المستديرة جون زكنياريس الأكاديمي وعالم الاجتماع الفرنسي المعروف بشكل خاص بمقالاته الأدبية ومداخلاته الإذاعية. ولقد قسم مسير الجلسة العنوان إلى قسمين اثنين، «المغرب الكبير» و «الصورة عند الآخر»، داعيا المتدخلين إلى تحديد تصورهم وتعريفهم لمفهوم المغرب الكبير.

أما بالنسبة لعبد القادر بنعلي، الكاتب والصحفي الهولندي، من أصول مغربية، المكان موجود بأولئك الذين يعيشون فيه، لكن فكرة الحدود تسكن أعماله الأدبية، وهو يقر بأن فكرة الوحدة المغربية هي بالأحرى فكرة جيل والديه، الذين هاجروا إلى هولندا، حيث لم يحسوا أبدا بأي اختلاف بين سكان البلدان المغربية المجاورة. وعموما، يظل خطابه متناسقا عندما يتحدث عن الأدب المتوسطي بدلا من الأدب المغربي لأنه يدرك الحساسيات المشتركة في الحوض المتوسطي.

أما الروائي والباحث والناقد المغربي عبد الله بيضا، فهو لا يرى المغرب الكبير إلا من خلال منظور الأدب. إذ أن الحركة التي تشهدها المنطقة قادته إلى نسج أحداث وتفاصيل رواياته داخل فضاء متعدد، بل عالمي. لأن المغرب الكبير يبدو له اليوم فضاء ضيقا للغاية. ولعل هذه المقاربة تسمح له بنقل محكيات القرية أو الحي لفضاءات أوسع، خلافا لمجموعة من الكتاب المغاربة الذين حصروها لفترة طويلة في هذا الفضاء الضيق. كما يعتبر بأن مفهوم «الأدب المغربي» لا يعدو أن يكون مصطلحا أطلقتها الجامعة الفرنسية على هذا النوع من الأدب.



بالنسبة لمامون الحبابي، الروائي المغربي، فيعتبر المغرب الكبير في نفس الوقت كيانا جغرافيا ومشروعا. ولا شيء آخر. وأن الأدب المغربي هو مرتبط فقط ببلد المنشأ، لأن الأدب كوني بطبيعته ولا يحتاج لجواز سفر لكي يعبر الحدود. مضيفا أن الكاتب نفسه هو الذي يصنع الأدب أكثر من المكان الذي تدور فيه أحداث العمل الأدبي. الكونية لا تعني أن تحقق السعادة لكل الناس، ولكن تعني المساهمة في سعادة كل واحد منهم : فهي مسألة أفراد، وليست أبدا مسألة كلية. إذا، فالأدب المغربي كوني مثل جميع الآداب العالمية. أما سليم الجاي، صاحب «معجم الكتاب المغاربة»، ولاحقا «معجم الكتاب الجزائريين»، فهو يهتم بالأعمال الأدبية التي تنقل الواقع المغربي بكل حيثياته. وبالنسبة له، قضية إغلاق الحدود تعتبر مأساة صامتة ومعاناة. وقد مكنته تجربة انتقاء مختارات من الأدب المتوسطي من تحليل ذلك اللقاء الفريد بين مختلف هذه الآداب. وباعتباره عارفا ومدركا لخبايا الأدب الجزائري على سبيل المثال، فقد لاحظ أن دور النشر الباريسية لا تسمح بتثمين الأدب الجزائري ولا تعطيه حقه وبأن نشر بعض المؤلفات لثلة من الكتاب الجزائريين من طرف دور النشر الفرنسية يخفي غنى أدبيا غير معروف، فقط لأنه لا أحد يتحدث عنه. وأخيرا وليس آخرا، سيمسك الناشر والشاعر التونسي ماجد معز الضوء على الشحنة العاطفية الإنسانية للكتابات الأدبية، لاسيما من خلال مقارنتها مع كتابات المؤرخين، والتي تنقل بالضرورة الأحداث الواقعية.

مداخلات المائدة المستديرة

جون زكنياريس

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم في هذه المائدة المستديرة حول المغرب الكبير وصورته عندنا وعند الآخر. في هذه الجلسة، سوف يتحدث لنا الكاتب والناقد الأدبي سليم الجاي، والذي نشر مؤخراً كتاباً بعنوان «معجم الروائيين الجزائريين»، الصادر عن «منشورات ملتقى الطرق» (La croisée des chemins)، وهو باحث لديه معرفة عميقة بالأدب المغربي، ضيفنا معروف أيضاً بمؤلفه «معجم الكتاب المغاربة». نسعد أيضاً باستضافة مامون لحبابي، أحد أهم المؤلفين بالمغرب، الذي نشر لحد الآن ستة عشر رواية إن لم تخني الذاكرة، وإذا أخذت بالحسبان روايته قيد الإعداد، وهو مؤلف كتاب «ظل الكوخ»، كما نشر مؤخراً روايته «لا مكان يبعدني عنك»، الصادرة كلها عن دار «الشرق» (Orient). كما يحضر معنا عبد الله ببيضا الذي نشر مؤخراً روايته الثالثة الصادرة عن دار النشر «مرسم». ومعنا كتاب آخرون لم أعرفهم من قبل، ولكن هذه فرصة سعيدة لاكتشافهم، مثل ماجد معز، الشاعر التونسي، ومؤلف ديوان «حقل الضفة الأخرى»، ولقد أعجبت بإحدى قصائده عندما قرأتها في هذا الصباح. وأخيراً وليس آخراً، معنا عبد القادر بنعلي، أنت تعيش في هولندا وأنت أيضاً روائي. ستكون لدينا متعة اكتشاف أعمالك والحديث عنها. بعد مداخلاتكم، سنأخذ مجموعة من أسئلة الحضور. وفي الحقيقة، الموضوع مثير للاهتمام، إذ أنه يحتوي كلمتين اثنتين: «المغرب الكبير» و«صورته عند الآخر». إذا ما هو المغرب الكبير؟ هل هو مجرد كلمة واحدة، مثلما كلمة «الشباب» التي هي مجرد كلمة، أو مثل الكثير من التعبيرات التي نعتبرها مجرد كلمة واحدة؟ أما بالنسبة لكم، أيها الكتاب الحاضرين معنا اليوم، ما الذي تعنيه لكم كلمة «المغرب الكبير»، وماذا تمثله بالنسبة لكم وبالنسبة لأعمالكم. إذا ما الذي يمثل المغرب الكبير في أعمالكم الأدبية؟ كيف ترون المغرب الكبير من موقعكم الشخصي؟ أقصد الموقع الجغرافي والثقافي، وحتى الموقع الوجودي... الكلمة الآن للسيد بنعلي.

عبد القادر بنعلي

أشكر اللجنة المنظمة، السؤال هنا يعيدنا في النهاية إلى ما المقصود بالمكان؟ المغرب الكبير هو منطقة وبلد ومكان انتماء. وفي الواقع، وبمجرد أن نقول ذلك، نتساءل حول ما يعنيه ذلك بالضبط؟ من الصعب رسم حدود بين المكان وأولئك الذين يعيشون فيه. ومن الصعب أيضاً التحدث عن المغرب الكبير ككيان مجرد. وحقيقة الأمر، المغرب الكبير موجود من خلال السكان الذين يعيشون فيه.

عبد الله ببيضا

أما بالنسبة لكلمة «المغرب الكبير»، فلا يمكنني أن أتعامل معها إلا من خلال منظور الأدب، بمعنى شيء آخر غير المغرب الكبير كما نعرفه جغرافياً، إذ نعدم إلى تبني هذه الكلمة ودمجها في عمل أدبي تخيلي، وفي هذه اللحظة بالضبط، تصبح شيئاً آخر، أي ليس تحت مسميات تونس والجزائر والمغرب، بل تصبح كل هذه الفضاءات مغرباً كبيراً يتم اكتشافه من جديد، إذ يصير مكوناً للنص ولتن الرواية خدمة لأغراض أخرى. لذا، فإن العلاقة مع الواقع تظل تقريبية، حيث لا يمكن القول إن أي عمل تخيلي قد يكون قادراً على تصور حقيقة الوضع الراهن للمغرب الكبير أو ما سيكون عليه مستقبلاً. على سبيل المثال، يمكنني أن أتعمد مدينة في المغرب الكبير كفضاء في رواية تخيلية، لكنني سأركز فقط على جوانب معينة وفقاً للعالم الروائي الذي أقوم بتأنيته. كما يمكن التعامل مع نفس الفضاء بشكل مختلف في عمل آخر. وفي هذه اللحظة، سيكون شيء آخر. بالفعل، توظيف هذه الفضاءات في بعض رواياتي يخضع لخيارات، فمثلاً «وصية كتاب». اخترت تشظي وتعدد هذا الفضاء، أي الخروج من المغرب.

دائماً ما تحتاج شخصيات الرواية إلى الانتقال إلى فضاءات أخرى ألا تبقى محصورة في مكان معين. وهذا ما تجسد في رواية «اسم كلب» وهي قصة شخصية تدعى «ابن كلب». و«بنو كلب» هو أيضاً اسم قبيلة عربية، وي طرح هذا الاسم الذي يرجع أصله إلى فترة الجاهلية، مشكلة في المغرب المعاصر الحديث، حيث أن كلمة «كلب» تكتسي دلالة قذحية أي أنها شتيمة، في حين أن هذا الاسم يعتبر الاسم الحقيقي للشخصية في الرواية، إذ أنه نفسه مسجل في بطاقة هويته. سوف نطلب منه أن يثبت أن هذا الاسم يسيء له ويضر به حتى يتمكن من تغييره. لقد كان بحاجة إلى البحث وطرح العديد من التساؤلات حول دلالات ومعاني هذا الاسم، بدءاً داخل بيته ثم بعد ذلك في محيطه. وعندئذ، تبدأ علاقته بالخارج، وبحكم عمله كمهندس إعلاميات، كان لابد أن يحضر إحدى المؤتمرات. هناك، ستتكون لديه نظرة أخرى على هذا النوع من الكلاب. وتنعكس هذه الشخصية في الرواية، نمطنا في الحياة والذي يقتضي التنقل من فضاء إلى آخر، وهو انتقال سهل في عالمنا المعاصر. وبالتالي، فنجد على سبيل المثال، أنه في الأدب المعاصر، لدينا مساحة أكبر بكثير على خلاف الحقبة التي حصرت فيه الرواية في فضاءين على أبعد تقدير، أولاً منزل للعيش بالنسبة للمغاربة الذين يقطنون في المغرب الكبير. لقد تحدث جيل كامل فقط عن قريته على سبيل المثال، أو عن حياته، في لحظة معينة، وفي فضاء آخر، الذي هو فرنسا. لكن الآن، هناك تعدد للفضاءات والرؤية المغاربية ربما تكون أضيق نظراً إلى أن التنقل أسهل بكثير. لهذا السبب نجد في روايتي الأخيرة «رواية كتاب»، أن الشخصية تنقلت بين كل من بوغوتا وبغداد والبصرة والإسكندرية وفاس... لذلك فهذا التعدد في الفضاءات يبقى ضروري في الوقت الحاضر، ويعد الفضاء المغاربي فضاء ضيقاً للغاية.

جون زكنياريس

نعم بالتأكيد، إنه أمر مثير للاهتمام، في رواية «شهادة كتاب»، حيث نرى أن المغرب الكبير لا ينظر إليه فقط من أوروبا، بل هو جزء من عالم متعدد. ونجد في روايات مامون الحبابي، هذا التداخل بين هذا المكان ومكان آخر، خصوصاً في الرواية ما قبل الأخيرة حيث عالج قضية الأزواج المختلطين في عهد الاستعمار. إنه شيء مثير للاهتمام. هؤلاء أشخاص يلتقون في باريس، ويعودون إلى المغرب في الخمسينيات من القرن الماضي. هذه الشخصية التي تأتي من مكان آخر في رواية «بين يديك» والتي نشرت عام 2015 في دار النشر «مرسم»، هذا ما ينطبق على حالة الأمير الجذاب الذي يأتي من مكان آخر، وهو يشبه نوعاً ما رواية «يوم ليس كمثله من الأيام». كيف تتموقع شخصيات روايتك في هذا المكان البعيد؟

مامون الحبابي

شكراً جزيلاً على هذا العرض. أود أن أقول كلمة عن مفهوم المغرب الكبير، الذي هو بالنسبة لي كياناً جغرافياً فقط ولا شيء آخر. من المهم التأكيد على ذلك. سوف أذهب أبعد من ذلك. المغرب الكبير إنه طموح ومشروع. المشكلة في مفهوم المغرب الكبير هو أنه يحمل دلالة سياسية، ولا ينظر له المواطنون المغاربة إلا ككيان سياسي. بالنسبة لي، ما يهمني في المغرب الكبير هو بعده الثقافي والأدبي. هناك صلات بين كتاب المنطقة المغاربية. لدينا نقاط مشتركة، وروابط ثقافية ولغوية، وهي التي تجعلنا ننتمي في نهاية المطاف إلى فضاء متجانس نسبياً. هذا لا يعني أنه يزيل فردانيتنا وأن الأدب في مختلف البلدان المغاربية هو أدب لمؤلفين ينتمون إلى هذه البلدان. إن الأدب المغاربي هو مغاربي فقط من حيث بلد المنشأ: الأدب المغربي أو الجزائري أو التونسي هو فقط من حيث بلد المنشأ. يجب أن نتذكر شيئاً أساسياً: لا يحتاج الأدب لجواز سفر. عند كتابة رواية، لا تكون مصحوبة ببساطة هوية أو جواز سفر. هناك روايات يمكنك قراءتها دون أن تتعرف على جنسية المؤلف. هذه هي أهمية الأدب: أن يكون كونياً. ويجب التأكيد في هذا الصدد على أن هدف وغاية الأدب هو بلوغ الكونية، ونقل ووصف كل ما يخالج الإنسان ومعيشه. وفي نظري إذا خرج الأدب عن هذا المجال، فإنه يفقد قيمته وأهميته.

الأدب عندنا، أدب كوني خال تماما من أي دلالة قومية، خلافا لما كان يمكن أن يكون عليه في أعقاب الاستقلال، في الخمسينات والستينات. عندما تقرأ الآن أعمال المؤلفين المغاربة، فهم مؤلفون عالميون لا تُعرف جنسيتهم بشكل مباشر. الكتب تتجول في جميع أنحاء العالم وتحكي الواقع المادي والجغرافي للمؤلف وهذا أمر طبيعي، مثلما هو طبيعي عندما نحكي عن حياتنا الخاصة. هذه ليست خصوصية. عندما نقرأ للكاتب باتريك موديانو، فإن معظم وقائع كتبه كانت تحدث في سان جيرمان دي بري، وهذا ليس كتاباً قومياً. وهو يغترف من الخيال ليلتقي بشخصياته. وطبيعي جداً أن نكتب قصصا حدثت في الدار البيضاء أو في مكان آخر، وهي لا تحمل أي دلالة سوى إفادة الكاتب في زمنه. والكاتب هو شاهد على وقته. وهنا الأدب يحكي لنا عن حقبة وزمن. للعودة إلى سؤال جون زكنياريس، في رواياتي، الأمر يشبه ذلك قليلاً. بعض تلك الروايات تقع أحداثها في الدار البيضاء، مثل الروايتين الأخيرتين : «لن نبرح مكانا بدونك» و «أين تذهب لتكون بعيد». الرواية الأولى تحكي قصة حب إبان فترة ما بعد الحقبة الاستعمارية، وبالضبط في الخمسينات. ولا تكمن فائدة الرواية في سرد أحداث تلك الحقبة، بل إنها تحاول الوصول إلى داخل تلك الفترة بغية استعادة سلوك الأفراد في سنوات الخمسينات، وبالتالي تصبح شاهدا في حقبة انتهت، وبدون تحيز. في رأيي، إن الأدب لا يكون مثيراً للاهتمام إلا إذا تخطى الإيديولوجية وتجاوزها. بالنسبة للرواية الأخرى، إنه نفس الشيء. تقع الأحداث في الدار البيضاء، وهي أيضا قصة حب - لا أعرف أي شيء آخر لأقوله - بين مراهقين في مدرسة ثانوية. أحاول إنقاذ أرواح الناس في ذلك الوقت : كيف يشعرون بالعواطف، وكيف يعيشون الصراعات العائلية، وكيف يتم حل النزاعات داخل الأسرة ؟ هناك رواية تتناسب تماما مع هذا النقاش : «ألم للعيش». إنها قصة شخص سافر بالطائرة من الدار البيضاء ووصل إلى هانوي هناك تبدأ أطوار الرواية التي لا علاقة لها بالفضاء المحلي، بل تروي قصة بين الهند والصين وتايلاند... أدبنا عالمي، يمكن قراءته في جميع بلدان العالم، إنه يحكي قصتنا ويحاكي مشاعرنا. ويمكن ترجمة كتب عبد الله إلى أي لغة. ونفس الشيء بالنسبة لروايات جون زكنياريس. إن القصة بين شخص يعاني من أمراض القلب وأخصائي أمراض القلب هي قصة عالمية. وأدبنا عالمي مثل كل آداب العالم.

جون زكنياريس

شكرا لك، من الجيد قول ذلك. في روايتي «قلب مغربي»، الشخصية هو رجل يوناني يعيش في الرباط ويخبرنا كيف يرى اليوناني الرباط في مسيرته. ويقع في حب مغربية تعمل كأخصائية أمراض القلب. تأثرت كثيراً عندما قرأت رواية زكية داوود الأخيرة، والتي اقتبست عن سليم الجاي. لقد كتبت عن فرانسواز كزيناكيس وزوجها الذي سجن عام 1967 إبان سيطرة الديكتاتورية العسكرية. حيث قمت باستشراف هذا الوضع في سنة 1967 وفترة سنوات الرصاص في المغرب.

سليم الجاي

آخر رواية للكاتبة زكية داوود هو عبارة عن كتاب بعنوان «آيت شيرس». لقد قمت بتصفح الصفحات الأخيرة من الرواية. ويتبين لنا أن رولاند بارتز يدعونا لتحرير أنفسنا من الإكراه. وأتمنى من المغاربة الحاضرين معنا في هذه القاعة قراءة «آيت شيرس» إنه كتاب رائع جدا. في البداية، يبدو وكأنه رواية من مجموعة «هارليكين»، ثم تنزلق في روايتها بتاريخ المغرب بين عامي 1955 و1973، ببراعة كبيرة واستراتيجية للكتابة جد رائعة، حيث تعطي المعلومات السياسية والتاريخية بشكل مباشر، لأنها كانت مراسلة لجون أفريك في الرباط عام 1958. إنه كتاب مدهش للغاية. إنه تعبير عن شجاعة استثنائية للغاية في إظهار الواقع المغربي كما تراه. لقد أخبرتها منذ قليل أنه لا يوجد تقريبا أي مغربي يمكنه أن يكتب تشخيصا للمغرب المعاصر مثل الصفحات الثلاث الأخيرة من كتابها. لقد استمتعت حقا بذلك المكر اللاوعي الذي غلفت به بعض الحقائق التاريخية المدهشة في رواية تدخل في خانة سلسلة هارليكين. إنه أمر مدهش للغاية.

بما أنك تحدثت عن مرافقين اثنين في مدرسة ثانوية، أود أيضاً أن يستفيد الناس من إعادة طبع، أخيراً وفي المغرب، تحفة من أعمال الروائي الراحل محمد لفتح بعنوان «سقطه بلا قرار». هذا كتاب صغير بقيمة أربعين درهماً، وهو أحد أجمل الأشياء التي يمكن قراءتها بالفرنسية وبقلم كاتب مغربي. بقيمة أربعين درهماً، تصبح لديك تحفة فنية ستجذبك إلى أشد الإعجاب. ولديكم فرصة حقيقية لقراءة العديد من أعمال الكاتب محمد لفتح، ولكن مع الأسف الشديد، سيتم في المغرب إعادة طبع أربعة كتب فقط في السنوات القادمة. وتبقى رواية «سقطه بلا قرار» عملاً استثنائياً...

جون زكنياريس

أود أن أطرح عليك سؤالاً حول ما يمثله المغرب الكبير بالنسبة لك ولمسارك الأدبي، أتجراً على قول كلمة مسار كاتب نصوص ومقالاً رأي.

سليم الجاي

على الأرجح لم تقرأ رواياتي...

جون زكنياريس

نعم... نعم لقد أشرت إلى كتاب «صورة الوالد».

سليم الجاي

أنا أدعوك وبإلحاح لقراءة روايتي «لن تعبر المضيق»، الذي تدور أطوارها حول مأساة لم تنته بعد. لكن يمكنك أيضاً أن تستمتع بقراءة روايتي الأخرى «الثراء الفوري» والتي تنتهي فصولها بزيارة لأحد السجناء السياسيين المغاربة، والذي كان يقبع في أحد السجون بمدينة المحمدية في ظروف جد قاسية لعدة سنوات. يمكنك أيضاً قراءة «انتصار مشترك».

جون زكنياريس

إنه مهم جداً بالنسبة لي. لقد استمتعت حقاً بكتابتك «صورة الوالد» وحبك للكتب، والذي ينعكس بشكل خاص في كتاب «معجم الروائيين الجزائريين». ووددت أن نخبرنا، من خلال موقعك كروائي وكاتب مقالات، عن وضعية كلمة المغرب الكبير بالنسبة لك ؟ وماذا تمثله تلك الكلمة في عملك الأدبي ؟

سليم الجاي

لا أعتقد أنني أنا من يجب أن يقول ما تعنيه بالنسبة لي هذه الكلمة. على أي حال، إنها تمثل بالنسبة لي معاناة بسبب إغلاق الحدود. إنني أرى المغرب الكبير الحالي كمأساة صامتة نظراً لعمى هؤلاء وأولئك وعمانا نحن أيضاً، ووطأة هذا العمى على حاضر ومستقبل الأفراد : إنها معاناة سياسية، حتى لو كانت هذه الكلمة يمكن أن تثير سخط بعض الروائيين.

جون زكنياريس

سيكون مثير للاهتمام إعطاء الكلمة للجمهور الذي قد تكون لديه أسئلة. قبل ذلك، قد نتحدث عن رواياتكم، ونعرف بها. لم يكن لدي الوقت لأذكر كل شيء. قد يكون من المهم، إذا كنتم تريدون التحدث عن رواياتكم، أن تذكرنا لنا بعض التمثيلات الاجتماعية، وبعض المواقف المعينة، أو التلاعب بالكلمات، أو حتى استخدامات معينة للأنماط الأدبية في عملكم، والتي تثير موضوع «هنا والمكان آخر».

عبد القادر بنعلي

نشأت في أسرة مغربية بروتيرام. أكتب باللغة الهولندية، وليس باللغة العربية، أو الأمازيغية، أو الفرنسية. أكتب عن التجربة الثقافية التي يحملها المهاجرون في أوروبا. لدي روايتان حول هذا الموضوع مترجمتان إلى الفرنسية: «زفاف في البحر» و «ما طال انتظاره». هاتان الروايتان تذهبان إلى صلب هذا الفصام الذهني عندما نتحدث عن الحدود. بالنسبة لي، أعرف أن المغرب يعني لهذا الجيل العطفة. لكن بالنسبة للجيل القديم، فإن المغرب الكبير له معنى، يعيش في قلوبهم. أنا من هذه المنطقة، ولدت بجانب البحر، في الناظور. أجدادي هاجروا في الأربعينات من القرن الماضي للعمل. بالنسبة لهم، لا توجد الحدود: إنها خيالية. تزوج والدي من والدتي، امرأة مغربية ولدت في الجزائر. أتذكر لحظة مؤثرة للغاية. كنت هنا، في المنطقة، مع والدي في السعيدية. هذا مدهش. قرب الحدود المغربية-الجزائرية، يقولون: «هنا، لا فرق، كلنا متشابهون». لقد أثر في نفسي هذا الأمر كثيرا. هذه القيمة كوننا واحدة في المغرب الكبير لا وجود لها في جبلي. هي فكرة عند الجيل الذي عاش خلال تلك الفترة. لقد تأثرت بهذا، وقادني هذا إلى طرح فكرة «الحدود»، ماذا تعني هذه الكلمة للناس؟ أحمل هذه التجربة في كتابتي. عندما أكتب عن موضوع اللاجئين السوريين والعراقيين القادمين من حلب أو الموصل أو أوروبا، أعلم جيدا ما تعنيه لهم كلمة «الحدود» بفضل موروثي الثقافي. وهذه المواضيع دائما حاضرة في أعمالي.

أما في الموضوع الجغرافي، عندما نتحدث عن الأدب المغربي، يجب علينا أن نتحدث دائما عن أدب البحر الأبيض المتوسط. هناك شيء مشترك في حوض البحر الأبيض المتوسط، فكرة المنفى، البحر، فكرة الحدود بين الأرض والبحر، وما الذي يعنيه أن تكون إنساناً... لدينا مشكلة في أوروبا. فالحديث عن أوروبا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، يبدو كما أنه لا يوجد سوى شمال البحر الأبيض المتوسط، دون الحديث عن شمال إفريقيا. يجب أن نفهم لماذا نحن في الوضعية السياسية والاجتماعية الحالية.

سليم الجاي

أتفق مع السيد عبد القادر بنعلي. في الواقع، لقد نشرت مختارات تحت اسم «أدب البحر الأبيض المتوسط وأفاق الهجرات» والتي أصف فيها وأتبع على مدار مائة سنة مؤلفين البحر الأبيض المتوسط، سواء منهم المصريين أو اليونانيين أو الجزائريين أو السوريين أو التونسيين أو المغاربة... وفي الواقع، يعتبر تضافر هذه الكتابات الأدبية هو جد فريد. ليوناردو سكياشيا، هذا الكاتب الإيطالي الكبير، ألف قصة قصيرة يبرز فيها في إيطاليا، بداية القرن العشرين، المرشحين للهجرة إلى أمريكا، حيث يتم نقلهم من طرف مهربيين إلى جزيرة صقلية، ويتركون في مكان لا يعرفونه داخل الجزيرة، إذ يتصل هؤلاء بعد ذلك بالعائلة، ويقولون إن أمريكا تشبه إيطاليا، وبأن سيارات من نوع «فيات» متواجدة في كل مكان. إنها قصة كوميدية ومأساوية في آن واحد. لقد تم نشرها منذ عدة عقود مضت وتتوافق مع الأعمال الدرامية العظيمة التي نعرفها اليوم حول محاولات الهروب من الموت في البحر الأبيض المتوسط للمرور إلى الجهة الأخرى.

جون زكنياريس

ربما سنستمر في طرح هذا السؤال مع الكاتب ماجد معز. عنوان مجموعة من قصائدك هو «نشيد الضفة الأخرى»، وهو الآخر يشير في نفس الوقت إلى الحماس والرغبة والإنسانية. نحن ننتمي إلى تعددية مشتركة ولكن أيضاً إلى عالم مشترك. ملاحظة سليم الجاي جميلة جداً، عندما نمزج هذه الإنسانية، نحصل على هذه الأعمال الدرامية مثل لامبيدوزا. قوة الأدب هنا تكمن في تقديم وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر السياسي وعالم الاجتماع، ولعل هذه هي الغاية من الأدب، غاية الأدب التعبير عن الكونية وعن الأحاسيس، وهذا كل بأسلوبه. قلتم شيئاً قوياً جداً. قد يكون من الضروري العودة إلى ذلك. ونجد في رواية «هنا والمكان الآخر»، لمسة إنسانية للأدب. ربما تريد أن تقول شيئاً عن ديوانك الشعري؟



ماجد معز

فيما يخص علاقة الكتابة بمفهوم المكان بكل أبعاده التي ذكرتها، فإن الكتاب الذي نتحدثون عنه هو في الحقيقة عبارة عن قصيدة واحدة، تمت كتابتها دفعة واحدة ما بين سنتي 2011 و2013. وبالنسبة لتونس، كانت هذه الفترة جد مميزة بعد أحداث الثورة التونسية. حصل لي في وقت ما أنني كنت في حوار مع مؤرخ تونسي معاصر. وفي سنة 2012، أراد الجميع التحدث بعد فترة طويلة من القمع، حول دور الواحد والآخر بالنسبة للحدث في البلد، ولل سكان، أخبرته أنه من خلال أدوات المؤرخ - بمعنى تحليل حقائق الأحداث، استنادا إلى الوثائق، وتحليل خلفياتها التاريخية والاجتماعية والثقافية - تصبح إذا واقعية. ما يكتبه المؤرخ هو للقارئ. أفهم الأحداث التي جعلت الأمور تسير في منحنى آخر : أفهم ولكنني لم أحس بذلك. إذا أردت أن أحس، أن أعيش، وأفهم حقاً في كياني ما يمكن أن يكون اختبره الناس، فذلك من خلال الأدب. فقط هو الشاعر من يستطيع أن ينقل ويقبض الشحنة العاطفية الإنسانية للسكان الذين ينتمي إليهم، وفي مكان ما، وضعها في كبسولة ليرسلها إلى المستقبل. هذا هو موقع العمل الشعري الرومانسي.

جون زكنياريس

إن ما نقولونه عن الشحنة العاطفية يعيد إلى الأذهان عمل «قسطنطين كافافيس»، الذي كتب أشياء رائعة عن البحر الأبيض المتوسط. يمكننا أن نقرأ عن المؤرخين والجغرافيين حول البحر الأبيض المتوسط، لكن القصيدة بالفعل شيء آخر. عبد الله بيضا، ربما يمكنك العودة إلى هذا السؤال في عملك حيث تشير إلى مفهوم «الهناء والمكان الآخر». هل تستطيع تمديد هذا التأمل ؟ بدا لي أن لديك قلقا لاستعادة كون ما. هل هناك أي شيء حول العالم المتوسطي في روايتك الأخيرة «وصية كتاب»، بالتأكيد انطلاقا من المفهوم الذي يقصده السيد بنعلي، بعيداً عن الانتماء إلى المغرب ؟

عبد الله بيضا

بالطبع، لأننا لا يمكن الإفلات من الفضاء الذي نعرفه جيداً. ولكن عندما نتموقع، كما قال مامون لحبابي، في المنظور الكوني، فإن الانطلاقة تكون من مجال جغرافي، ومن خصوصية معينة. ما يلفت النظر هو العلاقة مع كلمة «المغرب». كيف التقينا بهذه الكلمة «المغرب». أولاً في علاقتها مع الأدب. في الواقع، أعتقد أن ذلك لم يبدأ من المغرب الكبير، بل من الخارج، من فرنسا. هناك بدأنا بدراسة الأدب المغربي مع جاكولين أرنولد وآخرون. بعد ذلك، دخل هذا المفهوم إلى الجامعة المغربية، مع امتداد صغير : «الأدب المغربي الناطق باللغة الفرنسية»، التي يجب فصله عن الأدب المغربي باللغة العربية. لقد خلقنا فئة ثانية، وفي الواقع، لا نتحدث أبداً عن الأدب المغربي باللغة العربية.

جون زكنياريس

بالفعل، لم نتحدث عن ذلك بما فيه الكفاية.

عبد الله بيضا

لم نتحدث أبداً عن ذلك. ما هو ممتع أيضاً، وفي نفس الوقت يدفع لطرح التساؤلات، هي تلك الفئات، التي هي مصنعة. بعد ذلك، سننتقل من الأدب المغربي الناطق باللغة الفرنسية إلى اسم «الأدب الفرنكفوني». هذا جديد بالنسبة للمفهوم المغربي. بدأنا في المغرب التحدث أكثر فأكثر في الدراسات الجامعية (الأنطولوجيات والدكتوراه) عن الأدب المغربي الناطق بالفرنسية. للعودة إلى ما قاله عبد القادر بنعلي حول مفهوم الحدود، لاحظت نوعاً من التطور فيما يخص هذا المفهوم في المجال الأدبي، لأنه في وقت ما، كانت هناك داخل المغرب نفسه حدود. كنا نتحدث عن كاتب من الجنوب، كاتب من فاس، كاتب من طنجة... مع تطور الأشياء، أصبحت هذه الحركية، هذا الفصل الجغرافي للكتاب من هنا ومن هناك أصبح بشكل نسبي متجاوز. وهذا ينعكس على المستوى الدولي. كما أن ذلك مفيد للأدب. هذه الفئات، وهذه الفضاءات المغلقة، هي قاتلة. أقتبس مثلاً عن محمد خير الدين، كاتب مغربي عظيم عانى من هذا التصنيف. ولد محمد خير الدين في تفراوت، جنوب المغرب. عاش شبابه في الدار البيضاء. كتب روايته الأولى بعد زلزال أكادير. والمغرب، على أي حال، كان قد اهتز بصيغة أخرى، أي أنه كان يعاني من نوع من الزلازل في ذلك الوقت، في أوائل الستينيات، وكان خير الدين حساساً جداً لهذا الوضع. وسوف يكتب رواية مستوحاة بالتأكيد من الهزة، لكنه سيشير إلى كل الهزات التي عرفها المغرب في ذلك الوقت، لا سيما الصدمات السياسية. ولننشر هذه الرواية، سيغادر المغرب لأنه كتب أشياء غير مقبولة من قبل السلطات في ذلك الوقت. لقد كان ليخطر بخله لو نشر روايته الأولى بالمغرب. وضعها في حقيبته وترك المغرب. تحمل هذه الرواية عنوان «تحقيق». عندما وصل إلى عالم النشر الباريسي وقام بتقديم مخطوطه، وافقت دار النشر «لوسوي» على نشره، ولكن لأسباب تسويقية، ولأسباب مرتبطة بالتمثيلات حول كل المنطقة المغربية، تم استبدال عنوان «التحقيق» بـ «أكادير». لكن في رواية «أكادير»، لا نجد، في أي وقت، كلمة أكادير. لقد حققت الرواية نجاحاً كبيراً، لكن ما سيثير الإشكال هو تسلسل الأحداث، فخير الدين سيرتبط بهذا الفضاء. عندما نشر لاحقاً «النباش»، «هذا المغرب!»، كانت هذه الأعمال لا علاقة لها بالجنوب. ومع بروز مطالب الهوية، وهي في رأيي مشروعة تماماً، فإن السؤال الأمازيغي، على سبيل المثال، سيجذبه إلى هذا الجانب. إنه كاتب من الجنوب، وهو كاتب أمازيغي... سوف يكتب عن غير وعي عن الجنوب أو في اتجاه الجنوب. سيعطي في نهاية حياته روايتين أصبحتا حبيستا هذا الفضاء والتي ستكونان مرتبطتان أكثر بهوية مقيدة. ستكون روايات فاشلة لا تملك أي شيء من قوة الروايات السابقة. نجد قصة شخص ولد في جبال تفراوت. في رواية «كان يا مكان زوجان سعيدين»، سنجد زوجان يموتان. هو نفسه سيكتب في يومياته أنها رواية نهاية الحياة، حيث كان يريد أن يستريح. ربما ليست رواية فاشلة، ولكن عندما تضعها إلى جانب الآخرين، فهمنا سجلان مختلفان تماماً.

سليم الجاي

أود أن أختم بذكر جملة محمد ديب والتي قالها أمامي وتم تسجيلها بحكم أن الأمر كان يتعلق بحوارات أدبية كنا نجريها لفائدة «فرانس كلتير» كما يلي : «محمد خير الدين هو الأفضل منا جميعاً». والله يعلم كيف أن محمد ديب كان كاتباً استثنائياً.

عبد الله بيضا

لكل شخص قراءته الخاصة...

جون زكنياريس

سوف أعطي الكلمة لمامون وكذلك لسليم جاي إذا كنتم ترغبون في العودة للحديث عن الروائيين الجزائريين. مامون، كيف يظهر لك الأدب العالمي ؟ وما هو الواقع على الأرض ؟

مامون الحبابي

البحث عن السعادة كما قال الكاتب ستندال : كل صباح، يفتح باب صيد السعادة. ولعل السعادة ما هي إلا إرضاء لرغبات المرء. وكما قال أرسطو، نحن مدفوعون فقط بالرغبة. هكذا أرى الأدب، كما يقولون : إعادة اختراع العالم، إضفاء البهجة والسرور على العالم، إعطاء المتعة للقارئ، والتقاسم معه، وسردنا له ما لم يرهب نفسه، وهذا يعني حمل الفضائل وحمل المشاعر والاستجابة لها، وإعطاء الجميع الفرصة لاكتشاف الآخر. من الواضح أن الأدب يسمح بالتقاسم. يمكنك السفر إلى جميع دول العالم بفضل الأدب. نفس الشيء بالنسبة للتقاسم أي تمرير المشاعر، العالمية. قلت الأدب، لكن كان بإمكانني أن أقول الرسم والفن بشكل عام والثقافة. للعودة إلى الموضوع الرئيسي لهذا المعرض، «مقاربة الكوني»، يمكننا إعادة خلق العالمية من خلال الثقافة. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يدمج الرجال هو إعطائهم سبباً مشتركاً للعيش، إنه الثقافة، هو الأدب. بعبارة أخرى، ترحيل حياة كل فرد إلى الكل. الأدب له شكل فردي، يسمح للأفراد بالتعبير عن أنفسهم على هذا النحو في حين أن المجتمع يفضل الكلية التي ينفخس فيها الجميع، يتم التهامها وابتلاعها من قبل الكل. الفردية تبرز مشاعر كل واحد. لا أريد سعادة الناس بصيغة إجمالية، بل أسعى لسعادة كل واحد منهم. هذا ما هو المقصود بـ «حمل» الأدب.

جون زكنياريس

عبد الله بيضا كان يصنف الكتاب المغاربة جغرافياً بالنسبة للكتاب الآخرين. ربما في يوم من الأيام، سيقوم جون زكنياريس بإعادة إصدار قاموس للكتاب المغاربة. أ طرح هذا السؤال، دعوني أقول بمكر، لسليم الجاي. هل يمكن لشخص مثل جون زكنياريس أن يكون يوماً ما في قاموس للكتاب المغاربة ؟ ولكي أكون أكثر جدية، أ طرح سؤالاً آخر، قبل إعطاء الكلمة للجمهور، حول «معجم الروائيين الجزائريين» : كيف جاءت فكرة التحدث عن ذلك ؟ أنت شاهد مهم على الأمر إذا طرحت سؤالاً جدياً وسؤالاً مأكراً.

سليم الجاي

بالنسبة للسؤال الماكر، لن أتحدث علانية في الوقت الحالي. في الواقع، لقد لاحظتم عدم وجود مؤلفين أوروبيين في «معجم الكتاب المغاربة». يجب أن أعترف لكم أنه، بعد ذلك مباشرة، فكرت عن صواب أو خطأ أن القراء المغاربة كانوا غير مستعدين للاعتراف بهذا وكنت أحترم، ربما بأسف أو دونه هذا التردد من طرف الجمهور المغربي. ومن جهة أخرى أيضاً، لم يكن معجم للكتاب المغاربة موجوداً، لذلك حاولت أن أقوم بذلك. أما بالنسبة إلى «معجم الروائيين الجزائريين»، فهذا الأمر مختلف جداً. بالتأكيد، قمت بنشر أول مقال عن «أكادير» في جريدة «لوبنيون» عندما كان عمري خمسة عشرة سنة، مع كل الاحتياطات التي كانت تسمح بها تلك الفترة، ولكنني عرفت بأن هذا الكتاب موجود. كان الأدب في المغرب، جزء منه، أدب الكفاح من أجل الحق في حرية التعبير. بالنسبة للباقي، كان في الغالب أدب فولكلوري. حاولت استكشاف كل هذا بوسائلتي الخاصة، وبرغبة معينة وبنزعة خفيفة للجدل الذي لا أستطيع التخلص منه. لكن بالنسبة إلى «معجم الروائيين الجزائريين»، فهي قصة مختلفة. بالفعل كانت لدي اتصالات مع الروائيين الجزائريين أكثر من الروائيين المغاربة، الذين رأيتهم في باريس، فمع إغلاق الحدود بين المغرب والجزائر، نجد بشكل أكثر سهولة الكتاب الجزائريون في باريس من المغرب. التقيت في «مقهى باليما» بالرباط، مؤلف النشيد الوطني الجزائري. ثم جاء رشيد بوجدره للتدريس في المغرب. التقيت به في تلك الفترة.

ثم بدأ نبيل فارس في كتابة الكتب ونشرت ذلك عبر الصحافة المغربية. لم يتوقف ذلك... التقيت بالكاتب ياسين في الشارع وعقدنا علاقة جد طيبة لسنوات طويلة. حتى أنني التقيت محمد بودية، الكاتب المسرحي الجزائري الذي اهتم بالقضية الفلسطينية بشكل ملتزم ربما، التزم أكثر مما يجب بهذا الموضوع، وللإشارة، فقد تم اغتياله في هجوم نفذته الموساد. وأتذكر أنني كنت قابلت بودية بينما كان في باريس سنة 1969. وأحس بنوع من العلاقة العاطفية مع الأدب الجزائري بسبب اللقاءات، ولكن أيضا بسبب القراءات التي بدأت في سن السادسة عشر. ثم أدركت في النهاية أنه في باريس، تمت مصادرة صورة الأدب الجزائري عبر تسليط الأضواء فقط على خمسة أو ستة مؤلفين، ووجدت أنها خدعة لأنه يوجد العديد من المؤلفين الجزائريين الآخرين، وبعض أعمالهم منشورة في فرنسا، لكن لا أحد يتحدث عنهم. لم يسمع أحد منا عن سميرة سديرة، فيريل أسيم... رأيت في باريس ظلماً. وأريد أن أسمع صوت شرعية وجودة عدد كبير جدا من الكتاب. إذا قمت بإدماج الفرنسيين المزدادين في الجزائر، فذلك لأنهم ولدوا في الجزائر وأن الجزائر كانت خلال مائة وثلاثين سنة مستعمرة فرنسية، بينما كان المغرب تحت الحماية، وأن هناك مآسي في الجانبين معاً، جانب الأوروبيين الذين ولدوا في الجزائر وجانب الجزائريين الذين عانوا الكثير. لا يمكننا التحدث عن الجزائر دون أن نسمع جميع أصوات هذه المعاناة. هذا هو السبب في وجود هؤلاء الناس. هناك أيضاً يهود الجزائر، ولسوء الحظ، في ضوء وجود معاداة سامية خفية، كنت جد سعيد بإدماج الكتاب اليهود المولودين في الجزائر. وفي هذا القاموس، هناك مداخل مطعنة بمقالات منشورة قبل خمسة وأربعين سنة. إنه أدب أكثر إثارة من ذلك المؤلف من طرف أربعة أو خمسة مؤلفين. وليس لدي أي عداوة تجاه أي من هؤلاء المؤلفين.

جون زكنياريس

سأفتح المجال لثلاثة مداخلات.

مداخلة

تم التطرق لبناء المغرب الكبير. المشكل الكبير هو الصحراء المغربية. ما دامت الجزائر تخلق هذا المشكل، المغرب الكبير لن يقام أبداً. هناك أيضاً الذاكرة بين المغرب والجزائر، لأنه عندنا مشاكل عالقة بين الدولتين : الصحراء المغربية، المغاربة المطرودون من الجزائر سنة 1979. وهناك مشاكل عدة. يجب معالجة هذه المشاكل للمضي قدماً. أتمنى ان تكون رسالتي قد وصلت.

مداخلة

لدي بعض الملاحظات. الأولى هي متعلقة بالحدود. قرأت كتاباً قبل سبع سنوات، تحت عنوان «المغرب ما وراء الحدود». أعتقد أنه عند الحديث عن المغرب والجزائر، لا توجد مشكلة. المشكلة هي ما قبل الإسلام. هذا الالتباس : المغرب، باللغة العربية «المغرب». ليس لدينا مشكلة في كلمة «المغرب» (المغرب العربي) باللغة الفرنسية. يمكن الحديث عن تعبير فرنسي، عربي... لكن المشكلة الكبرى تنشأ بمجرد انتقالها إلى لغات أخرى.

ربما تكون قد ذكرت المغرب على أنه شيء، ولكن من جهة الضفة الجنوبية، فإن الشخص الوحيد الذي فكر في المغرب بطريقة متقدمة جداً هو عبد الكبير خطيبي، بشكل إجمالي، في كتابه «Penser le Maghreb»، المغرب هو بالنسبة له الأفق. يطرح المشكل بمجرد ترجمة الكتاب : «المغرب العربي أفق التفكير» وهذا يؤثر أولئك الذين يشاركون عن قرب أو عن بعد أفكاره في الكتاب الفرنسي. ثم لدينا رولاند إيتين الذي للأسف لم يكمل كتابه المذكور في محاضرة خطيبي. من المثير للاهتمام، مثل هذا المصطلح الذي اختفى «علم دراسة المنطقة المغاربية» (La maghrébologie).

لوضع حد للامبالاة وللغيرية وللإقطاعية، ولهذا السؤال الماكر، ولإجابة سليم عندما ننتقل إلى اللغة العربية، يصبح شيء آخر، التفكير في الذات كمغربيين، بشكل عام. ونجد أن المغاربة يتحدثون وبشكل أكثر (علال الفاسي، الحبابي) عن مصطلح «الانسية». وهو مصطلح يصعب ترجمته للغة الفرنسية. بالنسبة للجزائريين، فهو يعني «الشخصية» أدعوكم لقراءة رواية «النمل المفترس» التي توضح كيف كان النسيج الاجتماعي نفسه ولا أحد يعرف من هو الجزائري أو من هو المغربي. لذا، كما قال السيد مامون، السياسات لا تؤخذ بعين الاعتبار سعادة الجميع. وهي ليست سعادة الجميع، بل أولئك الذي في السلطة هم المسؤولون عن استمرار المشكلة اليوم في المنطقة المغاربية، ليس فقط هنا ولكن أيضا في أماكن أخرى.

مداخلة

أنا شاعر وروائي من أصل كامبيروني. هذه مدة وأنا معكم في المغرب. بالنسبة لي، الأدب المغربي هو الذي كتبه المغاربة أو كل الكتابات التي تشير إلى حياة المغرب العربي.

جون زكنياريس

لم يبق لنا إلا أن نشكر الكتاب الحاضرين وكذلك المنظمين.

جنوب-جنوب : اللحظة الشعرية

رئيس الجلسة : عبد الحق ميفراني
المشاركون : فكتور رودريغيز نونيز، رشا الأمير، نجوان درويش، باسم النبريص
فضاء : أحمدو كوروما
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 09 : 00 - 11 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

أشرف السيد عبد الحق ميفراني على تسير هذه الجلسة المنعقدة تحت عنوان «اللحظة الشعرية : جنوب-جنوب»، ولأنه شاعر أيضا، دعا السيد ميفراني المشاركين للحديث عن مدى قدرتهم أن يعيشوا «لحظتهم الشعرية» مع الأخذ بعين الاعتبار للبعد الكوني. وهل ستساهم الهويات الشعرية القوية للجنوب في إثراء الكتابات التي تفتح أبواب العالم مشرعة أمام الإبداع ؟ أما رشا الأمير، وهي ناشرة وناقدة وروائية لبنانية، فتري أن الشاعر يخاطب العالم في لغته، وبأنه هكذا يتمكن بعض المبدعين من بلوغ نطاق العالمية. وبالنسبة لها، فإن الشاعر الفلسطيني محمود درويش، على سبيل المثال، يتحدث عن ضمير عالمي. وبالمنااسبة يجيبها شاعر عربي آخر، من أصل فلسطيني، نجوان درويش، وهو أيضا صحافي وناقد، من خلال تعريفه للشعر على أساس أنه «فن الصمت». وبالنظر إلى الهوس الحالي بالشعر، يشير فكتور رودريغيز نونيز، وهو شاعر وكاتب ومترجم كوبي، إلى أن الشعر يسبق الأدب، ولاسيما من خلال النقل الشفوي.

ولعل الانتشار الحالي للنوادي الأدبية المخصصة حصرا للشعر في أمريكا اللاتينية والنجاح الذي حققه بعضها ومدى إشعاعها المحلي والجهوي دليل على ذلك. ومما لا شك فيه أن هذه النوادي تسهم في ظهور الشعراء الشباب، حيث أقاموا جسورا مع إنجازات الشعر العربي، إلى درجة يمكن الحديث فيها عن الاختلاط والامتزاج بين التجارب الشعرية. ويبدأ هذا الارتباط الذي يعود للفترة قبل الاستعمارية، لماهية الكلمات نفسها حيث أن كل كلمة من أصل خمسة كلمات من اللغة الإسبانية يعود أصلها وجذورها إلى اللغة العربية. ويؤكد فكتور رودريغيز نونيز بأنه تأثر بدوره بالشعر الأندلسي الذي ساعده على صياغة رؤيته الخاصة للعالم.



من ناحية أخرى ، يبدو أن القصائد الأوروبية الأنجلوساكسونية تبدو جامدة ومنفرة في مقابل دينامية كل من الثقافة الإسبانية-الأمريكية والثقافة العربية-الإسبانية، كما أكد ذلك نجوان درويش. ويعتقد الكاتب والشاعر الفلسطيني باسم النبريص أن هويته تتفوق على إنتاجه الشعري الذي يتجاوز ويتخطى انتمائه القومي. وفي المقابل، يعتبر أنه ينتمي لمدرسة شعر الجنوب، بما في ذلك إسبانيا. حيث يشعر بتأثيره معتبرا بأن الترجمة لا تغير شيئا أثناء الانتقال بين اللغتين، وهو ما سمح له بالتقارب مع شعراء أمريكا اللاتينية. من جانب آخر، تستحضر رشا الأمير الشعر الأمازيغي من خلال بحثها عن ديوان شعري أمازيغي، حيث أكد لها الشاعر ومندوب هذا المعرض، السيد جمال الحكماوي أن هذا الديوان كان في البدء عبارة عن مجموعة من القصائد المنقولة شفاهيا، حيث ترجمت في وقت لاحق إلى الفرنسية. وهكذا كانت هذه المائدة المستديرة فرصة لتعزيز التبادل الثقافي جنوب-جنوب، ولاسيما التبادل الشعري. ولذلك، فإن التعاون الوثيق والمستمر بين المبدعين من الجنوب يعتبر حاجة ملموسة، إذ يجب أن تساهم تظاهرات من قبيل المعرض المغاربي للكتاب في تعزيز هذا التعاون.

مداخلات المائدة المستديرة

عبد الحق ميفراني

صباح الخير. نحن اليوم في جلسة مركزية، ضمن فعاليات المعرض المغاربي للكتاب، من خلال موضوع «اللحظة الشعرية: جنوب-جنوب». في البداية، اسمحوا لي أن أقف عند كلمة دالة للشاعر جلال الحكماوي، يقول فيها: «اختيار محور مساءلة الكوني جاء لمساءلة العلاقة المهيمنة بين المركز الغربي والقيم العالمية ومن ضمنها العالم العربي».

ربما المطلوب من خلال هذا المنتدى المفتوح ليس أن نفكر شعريا فقط. ولكن نفترض أن الغرض من هذا المحور هو تفكير في هذا المشترك كفاعلين ومتقفين. وربما حان الأوان لصياغة لحظتنا الشعرية الإنسانية من داخل العمق الجنوبي، بكل حمولته الأنثروبولوجية والرمزية وكذا حمولته المادية واللامادية، بالإضافة إلى كل تاريخه العميق. هذا الجنوب المحمل بكتلة غير مطلوب منه أن تكون متجانسة، فهو غني بهويات وثقافات ورموز تمتد من عمق المتوسط إلى صحراء إفريقيا، وإلى أهرام مصر وعمق الخليج العربي ومن أطلس المغرب إلى صحاري أمريكا اللاتينية، كما أن في الجنوب أيضا إحالة إلى تاريخ الاستعباد والاستعمار. وإلى أي حد يستطيع الشاعر البانامي والكوبي والبرازيلي والمغربي والتونسي والفلسطيني صياغة لحظته الشعرية انطلاقا من الهم الكوني؟ كيف يمكن أن يجعل من هويته المفتوحة، هوية متعددة حوارية، قادرة على صياغة المشترك الإنساني؟ هل يمكن لشاعر الجنوب أن يساهم، وهو المؤهل دائما لإنقاذ العالم، في صياغة لحظته الشعرية للجنوب الذي يسكنه؟ دعونا نوزع هذه المداخلات على محورين أساسيين. ما معنى أن تكون مبدعا في هذا العمق الميثولوجي الأسطوري الجنوبي؟ كيف تستطيع صياغة لحظتك الشعرية من هذا المسار الجنوبي؟ كيف يمكن أن تجعل من هذه الهوية أكثر من أن تكون شعرية؟ وتجعل لها موطئ قدم في العالم؟ كم تمنيت لو تم إصدار نداء وجدة الشعري من أجل عالم أكثر إنسانية يصوغه الأدباء والشعراء الحاضرين معنا وتكون بذلك مبادرة لها أكثر من دلالة.

بالعودة لموضوع جلستنا، لدينا أربع صياغات حول المحور. بدون تحديد اتجاهات لحوارنا بقدر ما نطمح لمداخلات تصب اتجاه اللحظة الشعرية التي نريد صياغتها اليوم.

رشا الأمير

كمواطنة تعيش في الجزء الجنوبي من العالم، نحن في أمس الحاجة إلى كثير من الشعر ومن الصمت ومن الدعاء لكي نستمر في ربط علاقاتنا مع الآخر. كما أسمع من رفاقي الشعراء المتواجدين بشمال العالم الذين يكتبون بلغاتهم الحية والحرّة، عكس لغتنا المقيدة والمغلوبة على أمرها، شعراء الشمال يعيشون أيضا محنة اليوم، حيث أصبح ينظر إليهم على أساس أنهم غير مهمين.

أما بالنسبة لي، فالشعر أقرب للصلاة، وإلى بلسمة الجراح، الشعر هو ما يكتبه الإنسان ليوجه عشقه، لموقف، لامرأة، لبلد، الشعر لحظة لا تحددها الملايين أو الإعلانات أو القنوات التلفزيونية، لذا قد يبدو عددا قليل هذا الصباح. وكما يقول شاعر أنا جد معجبة به، كتب معلقة أقرأ منها مقتطف: «سمعوا حبيد، إن الكرام قليل». وأظن أن الشعراء قليلون أيضا لأنهم «يبحثون عن ما لا يلزم». الناس مغلوبة على أمرها أكانوا في «الجنوب» أم في «الشمال». كلنا اليوم مغلوبون على أمرنا من «الأسواق» و«الرأسمالية» و«الحروب». لكن كل إنسان عندما يستيقظ كل صباح ويسمع لأغنية مؤلفة من شاعر كبير قد يتبدل مزاجه. هذا الإنسان إن استيقظ كل صباح على كلمات محمود درويش، قد يعتدل مزاجنا ويسهل علينا ما سنواجه من ألم في مدينة معذبة ومعذبة مثل بيروت. وفي ظل نمط العيش هذا، نحتاج للموسيقى والشعر، نحن في حاجة «لا لا يلزم» إلى ما يعتبر بلسما لجراحنا. الشعر أقلية وسيبقى أقلية فهو كالصلاة.

فالسيرة النبوية تقول أن «لإسلام جاء غريباً وسيعود غريباً». فالشاعر كذلك هو كائن غريب في الشمال كما في الجنوب، لأن لا علاقة له باللزام. الشاعر يكتب بشغف وبحب كبير ولا يفكر إلا في إعطاء ذاته للآخرين. أتوجه بالشكر لكل الشعراء والشعراء الذين يعطون من نواتهم بأي لغة كانت. لا أود الخوض في مشكلة ترجمة الشعر. هناك ترجمات للشعر ولكن لكل لغة خصوصياتها وأبجديتها. أنا أعشق الشعر واللغات. أكتب بلغة عربية عاشقة، عاشقة للقرآن، للمتنبّي، لكل شعراء الكون. الشعر أكبر من الشاعر، إذ أن في كل شاعر إله وموهبة. مثل محمود درويش أبحث عن الله في الكائن الآدمي. من هنا تحية لكل الشعراء...

عبد الحق ميفراني

من موقعك كناشرة سهرت على إخراج عدد من الإصدارات الشعرية. هل يمكن الحديث عن وجود لحظة شعرية بعمق «الجنوب» ؟

رشا الأمير

الشاعر يخاطب العالم عن طريق لغته. قد تكون هذه اللغة في زمن ليس منتصرا لمخاطبة الضمير الكوني. الإنسان يخاطب الإنسان بغض النظر عن اللغة المستعملة. بطبيعة الحال، هناك شعراء كمحمود درويش يعبرون عن الضمير الفلسطيني ولكن أتمنى أنهم يتجاوزونه للتعبير عن الضمير الكوني. وهناك شعراء استطاعوا الحديث عن البعد الكوني. هناك شعراء قامت أعمالهم حول تسويق هائل وكان لهم صدى كبير وآخرون لهم صوت خافت...

نجوان درويش

طبيعة الشعر أنه أريد له أن يكون فنا خافتا. الشاعر مطلوب منه أن يكون مواطنا خفيا. هناك رغبة في أن يكون لا مرئيا داخل المجتمع.

عبد الحق ميفراني

نشكر نجوان على هذه المداخلة المباحثة. وستكون لنا الفرصة لعودتنا إليك للحديث معك بالتفصيل. الآن نعطي الكلمة من أجل أخذ وجهة نظر لاتينية مع فكتور رودريغيز نونيز في محور جنوب-جنوب والمشارك الإنسان. سؤالنا الأولي : ما معنى أن تكون مبدعا في هذا العمق الجنوبي ؟ وأن تصوغ هذه اللحظة الشعرية مع هوية مفتوحة على الآخر ؟

فكتور رودريغيز نونيز

أشكركم على دعوتكم. أنا قادم من كوبا. أريد الإشارة أولا أنه نادرا في معارض الكتاب ما يتم إدراج مادة شعرية. وأنا سعيد جدا بحضور مثل هذه المبادرة وأنا سعيد أن يكون الشعر ممثلا بهذه الطريقة. هناك في نظري تمييز يجب أن نقوم به حول الشعر والأدب. لا بد من الإشارة إلى أن الشعر سبق الأدب النثري كالرواية التي لم تظهر كاختراع إلا في بداية القرن 18 الميلادي. الشعر كان سابقا للرواية وحتى للكتابة. فالشعر كان شفويا بامتياز. وإذا عدنا لتعريف الشعر فممكن اعتباره ناقصا وثقيلًا بل خاطئًا. فالشعر يعرف بأنه «جنس أدبي» وفي نظري العكس هو الصحيح. فالأدب هو جنس شعري. ما يميز الشعر أيضا هو طابع الشفوي. ولواجهة طغيان الأدب المكتوب أصبح الشعراء يستعيدون المبادرة وخلق فضاءات لعرض الشعر بطريقة شفوية. صحيح أن هذه المناسبات لا تتميز بشراء الكتب ولكنها تسمح بسماع الشعر من طرف الجمهور.

عبد الحق ميفراني

هذه المهرجانات ذات الصيت العالمي، هل يمكن أن تساهم في تقارب بين أصوات شعرية من داخل الفضاء الجنوبي من العالم مثلا من جغرافيات شعرية من إفريقيا أو العالم العربي ؟



فكتور رودريغيز نونيز

أولا هذه المهرجانات ساهمت في ترويج وتطوير الشعر. أسرد مثال مدينة «ميدلين» بكولومبيا التي تنظم منذ عقدين مهرجان كان في بدايته لا يثير اهتمام الكثيرين من الساكنة. وبعد هذه البداية تحول المهرجان وشعراء المدينة والمنطقة احتكوا بالشعر العربي وبدؤوا يستمعون للشعر من المنطقة. ولنا اليوم فريق من الشعراء والمترجمين يقومون بترجمة هذه القصائد من أكثر من مائة لغة وخلق جوا جديدا بالمدينة. بظهور جيل جديد من الشعراء كانت لهم قدرة التفاعل والاستفادة من هذه المدرسة الشعرية. مثل هذه المهرجانات تساهم في تقاسم التجارب إضافة للانعاشة الاقتصادية التي تخلق داخل المدن. نعم، الشعر يمكن أن يكون مرحبا به في المدن التي تستضيف مظاهر ثقافية وليس هناك ما يسيء للشعر إن قلنا هذا الكلام. الشعر ملك للناس وللمواطنين ونحن كشعراء لنا مهمة أن نعيد الشعر للناس، لأصحابه الأصليين. وفي «ميدلين» يمكن أن تسمع الشعر في الأماكن العامة كوسائل النقل مثلا.

عبد الحق ميفراني

نذهب الآن إلى تجربة نجوان درويش وهو شاعر وصحفي. وهو اليوم من الأصوات المهمة والجديدة ليس فقط في الشعر الفلسطيني بل العربي أيضا. له رؤية خاصة للأشياء أو نظرة مثالية لبعض القضايا. داخل هذه العزلة التي نتحدث عنها اليوم والتي يعاني منها الشاعر، كيف يمكن أن يخلق لحظته الشعرية في هذا العمق الجنوبي ؟

نجوان درويش

نحن سكان «الجنوب» أصبحنا نبذل جهدا هائلا لاكتشاف جنوبيتنا. نحن في منطقة من العالم عانت من الاستعمار خلال فترة ليست بقصيرة ويفترض أن العدد الأكبر من البلدان العربية نالت -نظريا- استقلالها. إلا أنه على مستوى الواقع، مازالت المفاهيم الاستعمارية صاحبة نفوذ وتأثير. نحن نترعرع بنوع من الافتتان والاستلاب بالثقافة الغربية (غرب أوروبا وأمريكا). كثر من بيننا يعتبرون أن هذا الغرب هو العالم، وبأن الشعر هو الشعر الأنجلوساكسوني أو الفرنسي، في حين تغيب علينا، أجزاء كبيرة من الثقافة العالمية.

لعل الذي حصل معي وبعض زملائي، أننا بدأنا ننتبه أن هناك أجزاء من العالم بدأنا ننتمي لها وتنتمي لنا أكثر وتكتمل بها شعريتنا وإنسانيتنا أيضا ومن بينها ثقافات أمريكا اللاتينية. ومن هنا تم اكتشاف شعراء هذه المنطقة كنصوص وأيضا كأشخاص. على المستوى الشخصي، هذه التجربة كانت مؤثرة جدا في كتابة الشعر.

وبدون هذه اللقاءات ما كنت لأكون ما أنا عليه اليوم. على سبيل المثال لقاء شاعر مثل فيكتور أو راوول وآخرون من تشيلي، ومن الهندوراس وبلدان أخرى سمح لي بتطوير الوعي الشعري. كان مفيدا ولاسيما في اعتقادي أفضل شعر يكتب بالعالم هو شعر هذه المنطقة الإسباني. هذا الشعر في أفضل حالاته، شعر بتقاليد عريقة. لها منابع عربية وهذه مسألة مهمة. «تجربة إنسانية ضخمة ورهيبة وحية». الشعر في هذا الجزء من العالم يتميز بالحياة، بالطاقة، وهو خلاصة تجارب. وهو يخالف التجربة الشعرية الأوروبية أو الاسكندنافية والذي يمكن أن يوصف بكونه شعر «ثقافي»، أي يبنى على إعادة إنتاج قراءات ثقافية.

عبد الحق ميفراني

هل أفادت الترجمة كوسيط من أجل خلق هذا المشترك ؟



نجوان درويش

أكيد، بدون ترجمتها فإن الثقافات تموت. ولكن لأكون صريحا معك. عن طريق الترجمة، سافرت النصوص الجيدة وكذا الرديئة. هناك قضية ضمنية تخص موضوع «اللحظة الشعرية جنوب-جنوب» وهي تخص الشعر العربي الإسباني. نحن نكتشف أنفسنا عن طريق اكتشاف هذه الجغرافيات الثقافية. وهذا صحيح بالنسبة للثقافة التركية والإيرانية واللاتينية. هذا الاكتشاف للذات هو خروج من هيمنة المركز الغربي. وهنا لابد أؤكد أنني ضد هذا المركز لكن ضد هيمنته على المستوى الثقافي. أنا أعارض السياسة الأمريكية ولكن أحب الأدب الأمريكي. السياسية الثقافية الفرنسية أعتبرها متعالية وعنصرية ولكن أحب الأدب الفرنسي. هذا لا يعني أن لي موقف «شوفيني» من هذه الثقافات الغربية. لكن كان من الضروري اكتشاف جغرافيات أخرى.

عبد الحق ميفراني

باسم النبريس له رؤية أخرى : رؤية الحكيم. مثل نجوان أنت من شعراء فلسطين، هل تفيد أحيانا أن تكون شاعر فلسطيني ؟ أم تشعر بصوتها أن يسمع أكثر من أن يكون فلسطيني ؟

باسم النبريس

«فلسطينيتي» هي أنا، لو لم أكن فلسطينيا كنت سأكون شخصا مختلفا. من جانب آخر، أحيانا أخرى الشعر أكبر من الشاعر. أما في ما يخص جبة «الحكيم» فأنا أفضل أن أكون «صعلوك».

عبد الحق ميفراني

إن اتفقتم أقترح أن نمر للمحور الثاني لجلستنا. نريد أن نقرب أكثر من هذه اللحظة الشعرية وفي علاقتها مع الشعر العربي في تعدده. وأقترح أن نستمتع لفكتور في الموضوع من خلال لقاءاته مع هذه التجارب الشعرية العربية.

فكتور رودريغيز نونيز

العلاقة بين الأدب العربي وأمريكا اللاتينية تكونت قبل الفترة الاستعمارية. كان هناك تواصل بين الثقافة الإسبانية التي أسست ثقافة أمريكا الجنوبية. ويمكن أن نقول أن الأدب الإسباني تشعب من الأدب العربي ويمكن أن نعود للموشحات أو الأشعار المكتوبة باللغتين الإسبانية والعربية. حتى يمكن القول أننا من شعب واحد. فأستاذي في اللغة الإسبانية كان دائما يكرر أن 20 في المائة من كلمات الإسبانية هي من أصل عربي. هناك علاقة سابقة وتاريخية. هناك شعراء أثروا في تكويني ونظرتي للعالم خاصة في فترة الأندلس. هناك إذن علاقة تاريخية وثقافية تربط بين المنطقتين. التجربة الاستعمارية السابقة أو الحالية، تؤسس أيضا لقواعد حوار أدبي «جنوب-جنوب». هناك مظاهر الاستبداد التي تخلق حوارا أيضا بين شعوبنا.

عبد الحق ميفراني

كيف يمكن للمهرجانات واللقاءات والترجمة من اكتشاف الجغرافيات الشعرية بالجنوب ؟

باسم النبريس

قبل ست سنوات انتقلت للعيش في إسبانيا بالضبط ببرشلونة. وبالنسبة لي إسبانيا أيضا جزء من الجنوب على الأقل جغرافيا، بالإضافة إلى المشترك بيننا هائلة. عند بداية الاستقرار أصبحت أقترب كل يوم من الروح الإسبانية والكاتلونية. وفي نهاية هذا انتقال من جنوب إلى جنوب. في مرة، كان عند لقاء مع أديب من هولندا وكان يتكلم بتعالي عن إسبانيا فكان طبيعيا أن أدافع عن إسبانيا كجزء من «الجنوب». فأنا أسبح في نفس بيتي، مع خصوصيات بطبيعة الحال بين فلسطين وإسبانيا. أكيد أن التواصل مع هذه الثقافة وكل الثقافات يتم عبر الترجمة. اللقاءات لها دور في نجس علاقات. فلقائي المباشر مع شعراء أمريكا اللاتينية ببرشلونة سمح لي بالتعرف المباشر عن أعمالهم ومنهم من أصبح أصدقاء شخصيين. في شيء يجعلني أقرب للشعراء اللاتينيين منه إلى زملائي الإسبان. ربما مرد ذلك هو التاريخ الطويل من الاضطهاد بأمريكا اللاتينية. حتى أنني أقول أن منجم الشعر العالمي هو أمريكا اللاتينية وليس إسبانيا. وبدون أدنى شوفينية، فقد هجرت الشعر الأنجلوساكسوني منذ فترة، أحس أنه شعر «ثقافي» حيث أصبح يخلو من التجربة الحية، وكأنه يكتب بالرأس وليس بكامل الجسد. لهذا أظن، أن مستقبل الشعر يوجد في جنوب العالم. وهذا يجعلنا محظوظين لتواجدنا وانتماؤنا لهذا الجزء من العالم.

رشا الأمير

أبحث عن كتاب لشاعرة أمازيغية تدعى «نيردا أيت عتيق» من المغرب. كتبت بالعامية قصائد قصيرة منذ سبعين سنة خلت. ثم ترجمت نصوصها إلى الفرنسية من طرف عشيقها وهو معلم فرنسي. للأسف، في بيروت أستطيع أن أطلع على أعمال شعراء من أقاصي الأرض، ولكن لم أجد أعمال هذه الشاعرة المغربية «الهامشية»، والتي أبحث عنها منذ سنوات. فيا أهل المغرب ساعدونا على الوصول لأعمال هذه الشاعرة المدهشة على كل الأصعدة حتى نحمل شعرها للعربية والعالم العربي.

جلال الحكماوي

أهمية هذه اللحظة الشعرية هي التفكير في الصيغ العملية للتفاعل. لأن الشاعر ليس مؤسسة. أعتقد أن الجهد الأساسي هو التعرف على بعضنا البعض. ففي المغرب نعرف من السودان، الطيب صالح أو فقط من ينشرون ببورتو. مسألة اكتشاف الأفراد هذه مسألة ضرورية. ويجب تجاوز فكرة حاجز اللغة أو الفكرة التي تروج بكوننا في المنطقة المغاربية لا نتواصل بالعربية وتهيمن علينا الفرنسية. بطبيعة الحال هناك مشكل سياسي له علاقة بالدعم والإشعاع الأكبر الذي يحظى به الأدب المغربي المنشور باللغة الفرنسية. عمليا، يجب أن نتعرف على بعضنا البعض أولا، ثم التعرف على جغرافيات شعرية أخرى مثل أمريكا اللاتينية والصين. لأن المركز الأوروبي فقط تجاوز. المهرجانات يمكن تساهم في هذا التقارب.

مداخلة

بالنسبة للعمل الشعري «نيردا أيت عتيق» فهو متوفر في مكتبات الرباط باللغة الفرنسية وليس الأمازيغية، لأن القصائد كانت شفوية مما يطرح مدى كون هذه القصائد هي لصاحبيتها فعلا أم لا، أم كانت إضافات من صديقها الفرنسي. هذه الحالة تحيل على «الغرائب» التي تطبع علاقتنا مع الأمازيغية.

فكتور رودريغيز نونيز

هناك كثير من الأشياء يجب القيام بها من أجل تكثيف التنسيق والعمل بيننا. الشاعر يجب أن يكتب الشعر من أجل الشعر. أما بالنسبة للمهرجانات، فلدينا 50 مهرجان شعر بالمكسيك. وعدد المجلات 4 ملايين، ولا بد من التفاوض. ليس هناك أزمة بل نمو مستمر.

عبد الحق ميفراني

قبل الانفتاح على الجغرافيات الأخرى، دعونا نكتشف غنى ثقافات الجنوب الأمازيغي، الكوبي، الطوارق، والعمق الإفريقي. شكرا لكم.

رئيسة الجلسة : أمينة برواضي
المشاركون : ليلي أبو زيد، هدى بركات، هيفاء زنكنة، صباح سنهوري
فضاء : القدس
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 15 : 11 - 12 : 45



موجز مداخلات المائدة المستديرة

مسيرة هذه المائدة المستديرة هي الكاتبة المغربية صاحبة القلم العربي أمينة برواضي، والتي استضافت، بدورها، الروائية والناشطة السياسية والرسامة العراقية هيفاء زنكنة. هذه الأخيرة تتفادى مقارنة البحث عن العالمية كنتيجة لحالة الخوف التي من الممكن أن تثيرها سلطات بلد ما. فهي تفضل أن تركز قلمها لمعالجة مسألة مكانة المرأة في المجتمع أي من داخل مجتمعها. وبالفعل استطاعت العراق التغلب على الأمية منذ السبعينيات من القرن الماضي، وأنتجت كاتبات. على الأقل، بضع عشرات من النساء اللواتي عُرفن بإنتاجهن الأدبي. لكن الأمية سرعان ما قلبت أوراق اللعب، وغيّرت النتيجة لصالحها بسبب الاحتلال الأجنبي. فقد عادت بقوة لتنتشر انتشار النار في الهشيم، ولاسيما في صفوف النساء. فانشغال هؤلاء النساء بالحفاظ على حياة عائلاتهن، وخصوصاً، أطفالهن، لم يترك لهن المجال ليتخذن من القراءة و الكتابة الإبداعية أولوية ضرورية.

بصفة عامة، فإن الأمية للأسف نقطة ضعف مشتركة بين دول العالم العربي، حيث لا يتعدى معدل قراءة الفرد ربع رواية كل عام ؛ وهو معدل يلخص كل شيء. تتباين الظروف وتختلف من بلد إلى آخر، ولعل ما يشكل حلقة وصل بين هؤلاء الكاتبات العربيات هو حبهن للكتابة واللغة العربية. فعلى الرغم من ثقل التقاليد والصور النمطية، فالكتابة النسائية مرتبطة بوضعية المرأة ؛ والرجل بعيد عن أن يكون السبب الوحيد في ذلك ؛ بل يلعب أحيانا دورا مساعدا. بالنسبة لهدى بركات، رأت النور في لبنان وتعيش في فرنسا، اللغة العربية تخول لها التعبير بصدق عما يختلج خاطرها، وتسمح لها بالإفصاح عما تحمله بداخلها، ولو كتبت بلغة أخرى، لما احتفظت كتاباتها بالحمولة نفسها، ولربما اتخذت منحى معاكسا. بطبيعة الحال، هناك حدود لا ينبغي تجاوزها، ولا ينبغي المقامرة بذلك إلا إذا تعلق الأمر بالترجمة إلى لغات فئة القراء الأكثر هيمنة. لكن في نظرها، هذا نوع من التسويق. فهي لا تنفك تؤكد اختيارها للغة العربية كقالب كتابي ثابت ونهائي.



أما الروائية والصحفية ليلي أبو زيد فقد سُئِلت عن المسار الذي سلكته نحو الرواية في الثمانينيات من القرن المنصرم. فأول الروايات العربية لكتاب مغاربة تعود إلى سنوات الستينيات. في الوقت الذي كانت فيه النساء بالكاد تناقشن الأدب في الجامعات، كانت المفاجأة أنهن لم يكتفين فقط بكتابة قصص عاطفية، لكنهن تجاوزن ذلك إلى معالجة مشاكل المجتمع. وسرعان ما أبانت الكتابة بالعربية عن الدور الرئيسي للجامعات كأداة والترجمات كقراءن دالة على ذلك. وأخيرا، الكاتبة السودانية صباح الصنهوري التي حققت إحدى شهرة واسعة في بلدها السودان منذ الأربعينيات من القرن الماضي من خلال رواية بالعربية طبعا. وفي نفس السياق، تناولت ضيفتنا تقاليد الشاعرات المكلفات بحفظ تاريخ القبائل. وعلى الرغم من الاضطهاد الذكوري، فقد استطاعت الكتابة النسائية السودانية أن تبين عن كثير من الجرأة والتحرر. ورغم اختلاف المداخلات والمقاربات إلا أنها تتلاقح وتنصهر لتكشف لنا عن أن التطرق إلى موضوع الكتابات النسائية هو، أولا وقبل كل شيء، مناقشة وتقييم مكانة المرأة داخل المجتمع.

مداخلات المائدة المستديرة

أمنية برواضي

الروائية والمفكرة هيفاء زنكنة، انطلاقاً من تجربتك ونظراً للظروف العصيبة التي مرتت منها في الماضي، هل الخوف الذي يساور الإنسان المبدع من السلطة يكون دافعا للبحث عن الكون ؟

هيفاء زنكنة

أولاً، هذا السؤال لم أكن متهيأة له، ثانياً، لا أريد أن أزعج الحضور بقصة «المأساوي» في حياتي لأنه هذه ليست مهمتي. أنا أعتقد أن مهمة الكاتب هي أن يشيع الأمل ومسؤوليته أيضاً، وبالتالي سأبتعد عن قص هذه التجارب التي ربما الحافز الاساسي الذي دفعني إليه هو الاهتمام بمراجعة دور الكاتبة مثلاً، ما أهمية دور الكاتبة ؟ هل نحن فعلاً كما يقال عنا، نعمل على التغيير ؟ كيفما كان المستوى، هل هذا صحيح أم لا ؟ هل هي مهمة ذاتية، إنسانية أو أخرى ؟ المهم، التحول الاساسي الذي جرى لي خصوصاً بعد فترة الاحتلال الأمريكي للعراق، أنني توقفت عن الكتابة الأدبية بشكل شبه كامل، ليس لأنني لا أرغب في الكتابة بالعكس فأنا أفتقدها بشكل كلي، فلقد، انخرطت في تشكيل لجان لتوثيق جرائم الحرب المرتكبة في العراق سواء من قبل الغزو الأمريكي أو البريطاني أو أي قوة أخرى، وأنا في لجان متعددة تعمل على ذلك. هذا بعيداً عن الكتابة، ولكن في الوقت نفسه كأني الكتابة نوع من الفيروسات لا نعرف مصدرها ولا يمكن التحكم فيها، فتحول إلى مجال آخر هو محاولة ديمقراطية الكتابة، فالكتابة بالنسبة لي ليست فقط للنخبة، وهذا ليس صحيحاً، وأن تكون مقتصرة على عدد محدود من النساء كما نراه الآن في الوطن العربي.

الوطن العربي فيه 300 مليون شخص وإذا تحدثت عن العراق يوجد بها 38 مليون شخص ونفاجاً بمن يكتب، بأن المرأة العراقية تقتحم مجال الرواية والكتابة وتتصدرها. ثم نقرأ في إحصائيات حقيقية أنه منذ سنة 1994 إلى 2011 لدينا 20 كاتبة فقط، وإذا عدنا للمائة عام الأخيرة نجد أنهن لا يتجاوزن 100 كاتبة فقط، فما معنى هذا ؟ ما الذي نقوم به نحن ؟ في هذه الحالة أنا توجهت نحو التشجيع على الكتابة، وحاولت قدر الإمكان أن أجعل من الكتابة عملاً للجميع، وهذا لا يمكن بل يعد شبه مستحيل. النقطة الأساسية هي أن البلاد العربية تعاني، ليس من قلة الكتاب، لكنها تعاني من الأمية أيضاً، نسبة الأمية في بلادنا عالية جداً، خاصة في صفوف النساء، ونحن نطالبهن بامتهان الكتابة والإبداع والتغيير، وكل هذه المسائل، وهن لا يعرفن القراءة والكتابة.

في العراق حالياً الجهل يعود، كيف نقرأ وكيف نبذل ؟ هذه المسائل الأساسية غالباً ما يتم تجاهلها والتركيز على ذكورية النصوص مثلاً، هي موجودة ولكننا نتجاهل المبادئ الأساسية، فالمواطن العربي يقرأ ربع كتاب في العام فقط، هذا هو معدل القراءة، ربما ليس لأنه لا يهتم ولكنه لا يعرف القراءة أيضاً، هذين الجانبين أصبحا جزءاً من عملي الصغير جداً، تشجيع القراءة والكتابة. وإذا تمكنت من إدارة ورشاً للكتابة للاستفادة من تجربتي السابقة سواء على صعيد الكتابة البسيطة أو الجوانب الأخرى ؛ أعتقد أن تشجيع المرأة على الكتابة أمر ضروري جداً، وعلينا أن نهتم به ولا أن نضع كل الكاتبات العربيات في سلة واحدة، فهناك اختلافات من بلد إلى آخر. فالمرأة الموجودة في بيروت مختلفة عن المرأة في العراق، رغم أن المرأة العراقية متقدمة جداً، إذ وصلنا إلى محو الأمية في السبعينات، والآن عدنا إلى الوراء. هذه الجوانب أيضاً تنعكس على المواضيع التي نكتب فيها، فمن نكتب في السعودية تختلف عن نكتب في اليمن. كما أن هناك الدول المحتلة، فالمرأة في فلسطين لديها هم آخر في الكتابة، وأعتقد أن ما يجمعنا هو أننا نعتبر الكتابة فناً حقيقياً وحياً وعشاقاً، ونحاول أن ننقله للآخرين، أما كيف ذلك ؟ هنا تختلف الأساليب، وهنا كما ذكرت هدى بالأمس، نعبر عن عشقنا للغة العربية أيضاً.

نحن في حالة وله باللغة العربية، نبحث فيها ونقرأ، والاهتمام باللغة مصدره القراءة بالأساس لذا يجب أن نركز على هذا الجانب ونبحث فيه وأن يكون لدينا دورنا ككاتبات ومبدعات، ولا أنكر أن الكاتبات الموجودات لهن موقع على المستوى العربي والعالمي أيضا، أن يكون لدينا هذه النظرة الواقعية.

أمينة برواضي

شكرا أستاذة على هذه المداخلة الغنية التي تشكي من الجهل الذي يسيطر على عقول الذكور خاصة، وأنه لو اتجهت المرأة إلى الكتابة لكان حال المجتمعات العربية أفضل. لو سمحت أستاذة سأضيف سؤالا مرتبطا بنفس الموضوع، إلى أي حد يعتبر فعل الكتابة النسائية مسؤولا عن تغيير العقليات من الموروث، أم أن المشكلة تكمن في المتلقي، أقصد الآخر الذي يحمل على عاتقه هم التغيير، لأنه لو قرأ الرجل ما تخطه المرأة وما تكتبه لأحس بما تعانيه من ظلم وقهر، و لتقدمت المجتمعات وبالتالي نضمن تحقيق العدالة في العالم ؟



هيفاء زنكنة

أعتقد أننا أحيانا نظلم الرجل أكثر مما يجب، فأنا مع الأسف لا أتفق معك، هناك عدد كبير من الكاتبات، لو قرأت سيرة حياتهن وهن معروفات، لوجدت أن من شجعهن على الكتابة هو الأب وليس الأم أحيانا، فالأم تريد منها البقاء في المنزل والزواج، والرجل هو الذي يدفعها. أنا في حالي كان والدي هو من دفعني، فأنا لم أكن أرغب إطلاقا في أن أكون مثل أمي. هل بإمكان المرأة الكاتبة أن تغير، بطبيعة الحال يمكنها ذلك، لكن ما هو حجم التغيير ؟ ربما مواصلة الكتابة والعمل بالاتجاه نفسه، والمعروف في النظرية الماركسية بالتراكم يؤدي إلى تغيير نوعي، فتراكم الكتابة والمثابرة والعمل، ليس فقط على أنه هذا الوجود النخبوي أحيانا الذي لا نتحدث فيه إلا بلغة واحدة، وكوني ناشطة أحاول أن أقرب من الناس بلغة بسيطة ومن خلال العمل اليومي، فالمرأة قادرة على التغيير طبعا والرجل كذلك، فنجد كثيرا من الرجال يكتبون ضد السلطوية، وبعض الرجال متحمسين أكثر. التقاليد المجتمعية تحتاج أن يتم فيها تغيير عضوي داخلي من المجتمع، من قبلنا جميعا. مع الأسف الشديد ما حصل أنه بالإضافة إلى نواقصنا، ونحن نعترف بها، هناك دائما تهديدات من الخارج، فهي موجودة، وإذا أخذنا نموذج العراق الذي اعتبره من أكثر النماذج وضوحا، حول كيفية تحويل المرأة في العراق، ليس من قبل السلطة الذكورية، ولكن من طرف الاحتلال. قوات الاحتلال التي غزت البلد وأعادته إلى القرن الماضي على جميع المستويات، وتم خفض مستوى أمل وطموح الناس والمرأة بشكل خاص إلى مستوى المحافظة على حياتها وحياتها أبنائها والحصول على الطعام فقط، هذا هو المستوى الذي انخفضنا إليه.

في هذه الحالة أتكلم ربما بخطاب يختلف عن بلدان أخرى آمنة وتتمتع بحياتها الطبيعية لذلك. ربما أتحدث بحدة عن هذا الموضوع، فأبتعد عن أهمية الكتابة ومنظور الكتابة. بابلو نيرودا الشاعر الشيلي الكبير، يقول حين سئل مرة لماذا لا تكتب عن الجمال، وعن الحب، لماذا تكتب عن البراكين في الشيلي ؟ فأجاب، «أرى رماء الأطفال في الشوارع». ومعذرة حتى لا أكون مخيبة للآمال.

أمينة برواضي

شكرا جزيلا لك أستاذة. راهن على موهبتها الكثيرون، كتبت كل مؤلفاتها باللغة العربية ورفضت أن تكتب بأية لغة أخرى، قامت بترجمة مؤلفاتها إلى عدة لغات : الانجليزية، العبرية الإسبانية، الفرنسية الإيطالية التركية الألمانية واليونانية، ومن مؤلفاتها «حجر الضحك»، «أهل الهوى» و«ملوك هذه الأرض» وهي رواية كانت ستتحول إلى فيلم، إنها الإعلامية والروائية هدى بركات، مرحبا بك سيدتي. الروايات التي كتبت بغير اللغة العربية تجاوزت حدود أقطارها، وكتب لها الانتشار الواسع ونالت حظا أوفر من النقد والدراسات انطلاقا من تجربتك هل كان للنص العربي المترجم نفس الحظ الذي نالته الروايات الأخرى الناطقة باللغات الأخرى غير اللغة العربية ؟

هدى بركات

شكر لسؤالك، لأنك لم تورطيني في أنني لا أكتب مباشرة عن المرأة، أو لأن أبطالي رجال، هو فعلا موضوع محير لأنه فعلا ليس هناك طريقة واحدة للتعبير عن شجون المرأة. بالنسبة للكتابة بالعربية أو بلغة أجنبية مباشرة، هناك فارق كبير جدا وهو ليس في النوعية أبدا بل هو في الحاجة إلى التسويق، يعني الكتاب والرواية بشكل خاص المكتوبة مباشرة بلغة أجنبية تلقى من الدعم ومن التغطية النقدية ومن الجوائز ما قد لا يجده كتاب مترجم ؛ فأنا ربما أكون محظوظة أكثر من غيري لأن التغطية التي نلتها يعني لا أستطيع أن أشكو من الموضوع، لكنني أعرف الهامش المتاح لي ولا أطمح في الخروج منه لأن الثمن غالي جدا، يعني عليك أن تكتبي باللغة المطلوبة من هذا البلد، وأن تكتبي أشياء مطلوبة. مثلا اللغة الفرنسية، أنا أعتقد أن اللغة هي الكتابة، فأنا كتبت بالفرنسية حين طلب مني وأعرف أنني لو حاولت أن أكتب رواياتي بالفرنسية لكتبت كتبا مختلفة. اعتماد اللغة العربية هو اعتماد النص بالكامل، يعني اللغة ليست وعاء كما كان يقال، فاللغة ليست أداة حين يكون الهدف خارج هذه الأداة.

أنا مقتنعة أن ما تكتبينه باللغة التي تختارينها هو نوع الكتاب ومادته الأولية، يعني ليس هذا الخيار سهلا. أنا أعلم تماما بأن الطريق إلى الترجمات أو إلى الجوائز أو الاستحقاقات العالمية تبقى في هامش ما يطلبه السوق الكبير، يعني أنا لا أربح أولا، ولا أستطيع أن أعتمد على مصدر عيش من كتبي مهما نلت من جوائز، ومهما وزعت من كتب لأنني أبقى في هامش هذه الثقافة. أنا في فرنسا كاتبة مترجمة من العربية لن أكون في حياتي كاتبة فرنكوفونية تسوق في الجوائز التي تقتصر لوائحها على بعض الكتابات وبعض الكتاب والكاتبات.

هذا هو الثمن يجب أن نقبل بأننا أكثر حضورا في هامشنا من حضورنا في مركز الآخرين، لن أذكر أسماء أو عناوين كتب أو مواضيع تسمعون لربما بها ها هنا أكثر من كتب مكتوبة مباشرة باللغة الفرنسية أو الانجليزية أو بالإسبانية أيضا. الفارق كبير جدا ليس ثانويا ولا بأي شكل من الأشكال وخيار اللغة العربية تدفعين ثمنها بشكل من الأشكال، ولكن في النهاية هذه روجي لن تستعيري، مع أنني كتبت كما ذكرت باللغة الفرنسية كتبا أخرى طلبت مني كما أنني ساهمت في كتب مشتركة وقدمت نصوصا بالفرنسية للصحافة، لكن هذه ليست كتابتي الأصلية، يعني ليست روايات، لأنني لا أستطيع أن أكتب الرواية بلغة أخرى، كما أنني لا أدرج كتاباتي باللغة الفرنسية ضمن سيرتي الذاتية، وأحرص على أن يكون مبنيا على ما أكتبه باللغة العربية.

أمينة برواضي

شكرا لك أستاذة ولهذا الفائض من الحب للغة العربية، وهي أيضا تحبك والدليل أنها سلسلة بين يديك وتكتنين بها. سأمر إلى ضيفة أخرى عزيزة وهي غنية عن التعريف، ذاع صيتها في أمريكا حيث درس كتابها «عام الفيل» في الجامعة الأمريكية، وروايتها «عودة إلى الطفولة» مقررة في المرحلة الإعدادية في المغرب، من أعمالها أيضا، «بضع سنبلات خضر» و«أمريكا، الوجه الآخر» و«الفصل الأخير» و«الغريب والمدير». إنها الروائية والإعلامية ليلي أبو زيد ؛ مرحبا بك ضيفة عزيزة في عاصمة الشرق وعاصمة الثقافة العربية. أنا فخورة بتواجدي إلى جانبها، فنحن نشترك في نبع واحد وهو مدينة صفرو التي جمعت بيننا طفولة الأستاذة وطفولتي. في الحقيقة أود أن أطرح عليك أسئلة متعددة لكنني سأحاول أن أقتصر فيها. هل أفادتك مهنة الصحافة في كتابة الرواية ؟ في رأي ليلي أبو زيد، ما هي السبل التي على الكاتبة أن تسلكها للوصول بأدبها إلى الكوني ؟ هل الأمر يتعلق بالموضوعات التي يجب أن تجسد كأسئلة الحداثة ومعضلات العصر المطبوع بالخوف والقلق والعنف، كونها سمات مشتركة بين الشرق والغرب أم أن الترجمة وحدها كافية بغض النظر عن التيمة محور النص ؟

ليلى أبو زيد

شكرا على الأسئلة، والجواب سيكون ضمن الورقة التي حضرت وهي تجيب على هذه الأسئلة، كأنني قرأت أفكارك. ما من سؤال أجد الجواب عليه سهلا كسؤال عم يتحدث كتابك ؟ لأن الكتاب لا يجيدون الحكم على أعمالهم كما لا يجيد النقاد كتابة الروايات، لأن القدرة على الكتابة لا تعني الوعي بالتقنية، ومعرفة التقنية لا تعني القدرة على الكتابة، كما شهد بذلك منذ خمسة قرون ابن خلدون، في قوله «لكة الكتابة لا تحصل بمعرفة القوانين التي استنبطها أهل صناعة البيان، فإنها إنما تفيد علما ولا تفيد حصول الملكة»، وهو ما يطرح السؤال حول مصداقية ما بات يعرف اليوم بأوراش الكتابة الإبداعية. أنا لست ضد قدرة جميع الناس على الكتابة كما تفضلت ولكن القدرة على الكتابة الإبداعية لا يمكن تعلمها كما يمكن تعلم التجارة والصناعة. لذلك سألقي في مجال اختصاصي وأتناول الموضوع من خلال تجربتي ككاتبة وليس كناقدة. عندما بدأت كتابة الرواية في ثمانينات القرن الماضي لم تكن هناك رواية مغربية مكتوبة باللغة العربية سوى «دفنا الماضي» لعبد الكريم غلاب، و«النار والاختيار» لحنانة بنونة، اللتين صدرتا في ستينيات القرن الماضي، وهي الفترة التي بدأ فيها في المغرب انطلاق الرواية والقصة القصيرة، وباقي وسائل التعبير الحديثة كال مسرح والسينما والأغنية العصرية ؛ ذلك أن الثقافة في المغرب كانت حتى ذلك الحين تقليدية لأن التعليم كان أصيلا، فكان الشاعر والكاتب والمفكر والمؤرخ هو الفقيه خريج المدارس العتيقة وجامعة القرويين، لذلك لم تكن هناك كاتبة واحدة في تاريخ المغرب ؛ في الوقت الذي كانت مجتمعات الثقافة العربية الإسلامية من الجزيرة إلى الأندلس تسمى الخنساء وولادة جواهر العرب وتعترف لهن بالتفوق على الرجال كما في شهادة بشار بن برد حين قال : «ما قالت امرأة شعرا إلا ظهر الضعف فيه»، قيل له، وكذلك الخنساء ؟ فقال «تلك فاقته الرجال». أما المرأة المغربية فلم تظهر في الأدب إلا في ستينيات القرن الماضي ضمن الدفعات الأولى من خريجي الجامعة المغربية الحديثة، وشاءت القدرة الإلهية أن أكون من خريجي الدفعة الثالثة في اللغة الإنجليزية وآدابها، وأن أكتب روايتي الأولى «عام الفيل» في الثمانينات، عندما لم يكن هناك لا نقد في المغرب سوى ما كان يعرف بمثقفى الأحزاب أو النقد الأيدلوجي. فكتبت للقارئ دون أن يخطر ببالي لا ناقد ولا مجتمع ثقافي ولا نظريات.

صدرت «عام الفيل» في سنة 1983 فاحتفى بها الإعلام المغربي المكتوب والسمعي البصري ؛ ورحب بها القراء لاسيما وقد كان لي جمهور واسع من خلال عملي في الإذاعة الوطنية والتلفزيون، وعلى رأس هذا الجمهور قارئان من نوع خاص هما الشاعران المغربي أحمد عبد السلام البقالي، والعراقي صلاح نيازي، الذي كان يشرف حينذاك على برنامج ثقافي بالقسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية.

كتب في جريدة الميثاق الوطني المغربي : «الأسلوب شاعري ممتع جذاب ينم عن حس عال ورقة متناهية في التعبير لا تتوفر إلا لأنثى ذات عقل مثقف ومدرّب على الملاحظة الدقيقة، وهي تكتب بتطيرز متناهي الدقة تتشابك فيه العواطف الدافئة، والتعاليق اللاذعة بلطف ونعومة». وقال الثاني «بدأت قراءتها بعد حين من عودتي من العمل وعندما انتهيت كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل»، وقال واحد من عموم القراء : «عندما وصلت إلى النهاية تمنيت لو كانت ما تزال هناك صفحة أخرى».



بعد ذلك عندما ترجمت الرواية إلى الإنجليزية، وبدأت ألتقي بطلاب أمريكيين فوجئت بهذا السؤال : كيف كان رأي النساء المغربيات فيها ؟ ولم أجد جوابا لم يكن هناك أي رأي نسائي يمكنني استحضاره، كل ما قالته النساء في الوسط المحيط بي إنها جميلة. الذين رأوا ما وراء الشكل أصيبوا بالدهشة قال لي أحدهم : «واه كيفاش، هاد شي كاين مالي عمري ما شفتو» يقصد وضع المرأة المغربية في ذلك الوقت ويستغرب أنه لم يره إلا من خلال الكتاب، وقال لي أحد الصحفيين لماذا تكتبين في مواضيع جدية وأنت امرأة ؟ لأنه كان كسائر القراء العرب آنذاك يعتقد أن الموضوع الطبيعي المنتظر من المرأة أن تكتب فيه هو الحب. كانت الجامعة المغربية العصرية قد بدأت تدرس الرواية العربية الحديثة بالمناهج النقدية الغربية وتتكون فيها نواة نقد أدبي أكاديمي لكن أعضاؤها حصروا أنفسهم وطلابهم في درس وتدريس الرواية المصرية بوصف مصر كانت حينذاك مركزا للثقافة العربية، ونسوا أو تناسوا ما كان قد بدأ ينشر من روايات في المغرب. ثم بدؤوا يكتبون الرواية أيضا وهو أمر غير مسبوق، أن يكون الناقد ناقدا وروائيا ففقدوا المصداقية. وما زلت أذكر ما قاله الدكتور محسن مهدي أحد الأساتذة الأمريكيين الزائرين في كلية الآداب بالرباط في التسعينات، قال باستغراب في المغرب الناقد هو الروائي، لذلك لم أكن أفكر إلا في القارئ ثم الإعلام. ولكن عندما ترجمت عام الفيل إلى الإنجليزية بعد ست سنوات من صدورهما، ونشرهما في أن واحد ناشران أمريكيان وبدأت تدرس في الجامعات الأمريكية في نطاق الأدب المغربي والعربي والإفريقي، وبدأت تطبق عليها نظريات رواية ما بعد الكولونيالية والكتابة النسائية، وما أصبح يعرف بـ «Schema Theory» أي الخريطة الدلالية، وبدأت تكتب عنها رسائل جامعية وتصدر دراسات في منشورات أكاديمية أنجلوساكسونية، لباحثين من الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا والأردن والجزائر والمغرب، وبدأت تترجم إلى الألمانية والإسبانية والهولندية والأردية (لغة باكستان) وحتى الفرنسية، حينذاك أدركت مدى أهمية الجامعة في تقييم الرواية، وأن ذلك هو دورها وأن الجامعة المغربية تظل به.

كان أكثر ما نهبت إليه الترجمة الإنجليزية هو مسألة لغة الكتابة كما ذكرت الأخت هدى، أهمية الكتابة في رواية ما بعد الاستعمار حيث ورد على ظهر الترجمة الفرنسية لعام الفيل أنها أول رواية كتبتها امرأة مغربية باللغة العربية لترجم إلى الفرنسية وأنها تفتح منظورا جديدا على الكتابة النسائية المغربية، وكتبت لي قارئة فرنسية عن طريق الناشر الأمريكي تقول، إنها كانت تعتقد أن الرواية المغربية كلها فرنكوفونية وأنها وجدت في روايتي مغربا آخر، وهو ما يتبع إلى طرح السؤال حول دور وأهمية الترجمة في إطار الرواية المغربية والمغربية بعد الاستعمار. اكتشفت أن الجامعة الأمريكية هي من يدل الناشر الأوروبي على ما يجري في العالم العربي، والناشر الفرنسي على ما يجري في مستعمراته السابقة. خلاصة القول أننا في العالم العربي لا نحتاج إلى خصوصية في الرواية ولكننا نحتاج أيضا إلى خصوصية في النقد حتى لا نبقى صدى متأخرا للغرب ويبقى نقادنا يرددون جونه وبارت ولوكاتش في متاهة من المفاهيم والمصطلحات دون أن يضعوا يدهم على الجرح.

أمينة برواضي

شكرا لك، في الحقيقة كانت هناك إضافات في هذه الورقة تسرد لنا طريقة تطور الكتابة النسائية في المغرب والمراحل التي اجتازتها ؛ وبما أنها من الرائدات فإنها تعرضت في البداية إلى أن القدرة على الكتابة الإبداعية ليست في متناول أي واحد وإنما تحتاج إلى الموهبة والإبداع والملكات التي تؤهل الفرد ليكون مبدعا. بقيت ضيفة شابة تحضر معنا في هذا اللقاء الباذخ وهي قاصة من السودان درست الانجليزية وتتفوق في الكتابة بالعربية وتفوز في سن الثامنة عشرة بجائزة عن مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي في دورتها الأولى سنة 2009. وفي سنة 2016 فازت بمسابقة الطيب صالح في القصة القصيرة بنص «الغلة» الذي تحول إلى فيلم سينمائي، إنها صباح الصنهوري، هنيا لك بهذا الفوز المستحق ومرحبا بك.

صباح سنهوري

قبل الحديث عن الكتابة النسائية في السودان، يثير حيرتي مصطلح الكتابة النسائية، وأتساءل لماذا كتابة نسائية، هل هي كتابة من قبل كاتبات نساء ؟ أو هي أية كتابة تخص مواضيع نسائية ؟ وماذا تعني مواضيع نسائية ؟ حتى الكتابة الموجودة الآن سواء لكتاب ذكور أو إناث هي مبنية على قواعد وحمولات ثقافية رجالية، فلو دخلنا غوغل مثلا وكتبنا من هي أول كاتبة عربية أو أول كاتبة ألفت كتابا، نجد أسماء بسيطة جدا مثل لبيبة هاشم، زينب فواز، عفيفة كرم، ماريا تيريزا أسمر، ملكة الدار محمد ؛ لكن لن تجد سيرتهن الذاتية ولا أحد يعرف عنهن الكثير. بالنسبة للسودان، أول أدبيات، إذا أمكن إطلاق هذا اللقب عليهن هن نساء يقال عليهن الحكامات، وهن نوات مكانة إعلامية كبيرة في القبائل قديما، يعني الحكامة يمكن أن تشعل حربا بين القبائل بقصيدة واحدة، ويمكن أن تطفئ الحرب بقصيدة أخرى، وكان يتقرب إليها كبار الشخصيات في القبيلة كي تكتب قصيدة عنهم تتحدث عن كرمهم وشجاعتهم في المعارك... والحكامة كانت تحفظ سيرة القبيلة وتاريخها، رغم أن معظمهن كن أميات لكن كان في قصائدهن من البلاغة والروعة ما يكفي، ولأنهن أميات فكان يمكن أن تحس بمصادقية كبيرة في قصائدهن.

أما بالنسبة للقصة والرواية، فأول من كتب القصة والرواية في السودان هي كاتبة اسمها ملكة الدار محمد عبد الله، كتبت القصة قديما لكنها اشتهرت بروايتها «الفراغ العريض» التي كتبتها في أوائل الأربعينيات، وكتبت العديد من القصص قبل ذلك مثل «حكيم القرية» و«المدنونة» و«متى تعودين». رغم كتابتها لرواية «الفراغ العريض» في أربعينيات القرن الماضي إلا أنها لم تطبع إلا في بداية السبعينيات من قبل المجلس القومي للادب والفنون، لكنها كانت قد توفيت ولم تر روايتها مطبوعة. في هذه الرواية تحدثت ملكة الدار عن حياة المرأة السودانية المتعلمة وغير المتعلمة، وغاصت في المجتمع متناولة مناخ القمع الذكوري ووصفت تفاصيل البيت السوداني وكيف أن المرأة السودانية كانت وقتها منهمكة جدا في الأعمال المنزلية فقط.

كما نجد الحديث عن الجنس في إشارات عامة وغامضة، وهذا متوقع في مجتمع يقوم على التقسيم النوعي وتسود فيه السلطة الذكورية. كانت الكاتبة تحرص جيدا في استخدام عبارات الغزل والهيام فما بالك عن عبارات الجنس، نجد أنها وصفت اللقاء بين الرجل وزوجته بعد غياب تسع سنوات في أول ليلة لهما، وقالت : «وفي هدأة ليل التقى الزوجان، إن الرجل لا يزال يكن لزوجته تلك، ذلك الحب ويغدق عليها الفيض الكثير من الحنان والتقدير». بعد ملكة الدار تحررت المرأة السودانية في كتاباتها وتحدثن بجرأة عن قضايا كثيرة تخص المرأة والأسرة مثل ختان الإناث، والقمع.

أمينة برواضي

ما هو دور التكنولوجيا وانتشار ثقافة الصورة في المساهمة لتجاوز الأدب للحدود ووصوله للكون ؟



صباح سنهوري

كانت فكرتي أنه قبل الوصول للكوني، أردت أن أعرف بالكاتبة السودانية التي هي أصلا غير معروفة.

أمينة برواضي

شكرا لك مداخلتك أغنت النقاش وتعرفنا على الكاتبات السودانيات لأننا فعلا لا نعرفهن جيدا. وسنفتح المجال للضيوف إذا كانت هناك إضافات أو أسئلة لضيقاتنا، شكرا لكم.

هدى بركات

بما أنني أجلس بجوار مخرج سينمائي سألني من سوف يخرج قصتك القصيرة ؟ صور الفيلم سنة 2013 وأخرجه المخرج الأردني برهان سعادة ومن بطولة حسن الشاعر وهو ممثل أردني، للأسف هو فيلم روائي قصير والنسخة المتوفرة خاصة بالمهرجانات وهي غير موجودة في يوتيوب، لكن يمكن أن أرسله بصفة شخصية.

مداخلة

المفروض أننا في جلسة تناقش موضوعا محددا هو الاقتراب من الكتابة النسائية، لدينا أربع رؤى لهيفاء، هدى، ليلي وصباح، أربعة أجيال ربما في جلسة واحدة، السؤال المفترض هو سؤال الكتابة في مجتمعات ذكورية، أظن أن النضال القبلي الذي واجهته هؤلاء الكاتبات أساسا هو أن يفرضن كتاباتهن الإبداعية داخل مجتمعاتهن أولا، قبل التفكير في ترجمة النصوص أو الذهاب إلى جغرافيات ثقافية أخرى.

عند الحديث عن الكتابات النسائية أتذكر ليلي أبوزيد ؛ كنا ننظم في مدينة أسفي ملتقى دولي حول الكتابة والمرأة، وكنت أستاذة ليلي عروس إحدى الدورات، وكان النقاش طيلة الدورات الثمانية حول هذا السؤال هل نتحدث عن الكتابة النسائية أم عن الكتابة أساسا. والخلاصات التي خرجنا بها هو أن الحديث عن الكتابة النسائية يفترض أولا الحديث عن حضور المرأة في المجتمعات العربية، ما لم نستطع أن نغير تلك الصورة النمطية للمرأة داخل مجتمعاتنا لا يمكن الحديث عن إنتاجاتهن الإبداعية، هدى بركات لم تعرف لأنها هدى بركات لكنها عرفت من خلال نصوصها، وهي التي رسخت اسمها ؛ فهي لا تحتاج أن تعلن بطاقة جنسها لتعبر عن نصوصها. أظن سؤال الكونية مغلوطة وأنه من الأفضل طرح سؤال آخر عن الكتابة والنص، ماذا تعني بالنسبة لي أنا ككاتبة في مجتمعات لازالت محكومة برؤية تقليدية نمطية حول حضور المرأة في المجتمع، ماذا يفيدني هذا النص الإبداعي كي أعبر به ؟ عن ذاتي أنا كامرأة أم أنا منشغلة بنص إبداعي لأنني مبدعة ومشغولة بهوس الكتابة.

أمينة برواضي

موضوع الجلسة هو الكتابة النسائية والكوني، باعتبار أن مسألة الكتابة والإبداع النسائي متجاوزة بالنسبة للحاضرات معنا، لما لهم من باع في الكتابة، إذن السؤال الذي كان يفترض طرحه هو مقارنة الكوني وشكرا.

إلهام الصنابي

أنا دكتورة وباحثة وأستاذة اللغة العربية. شكرا على هذه الإضافات النوعية التي أغنت هذه الجلسة. أعتقد أن المداخلات جاءت من ناحية متكاملة ومن ناحية ذات خصوصية، لأن كل مبدعة حاولت أن تقارب مفهوم أو اهتمام الكتابة من منطلق وجودها الجغرافي ومن منطلق الانشغالات التي تعتبرها هي فعلا تقارب الكوني. عندما تحدثت هيفاء زنكنة عن تجربتها مع الفلسطيينيات الأسيرات المحررات يوم أمس وكانت التكملة اليوم عن طريق الرجوع أو الانتكاسة التي حصلت في العراق على مستوى الأمية التي وصلت إليها النساء، وعندما تحدثت هدى بركات عن قضية الترجمة هنا تساءلت، هل اللغة التي نكتب بها الإبداع هي التي تحدد موضوعه ؟ ديمقراطية الكتابة كما أرادت هيفاء، فعلا أتحدث عن هذا المنطلق وربما نتجاوز المصطلحات التي وجدنا أنفسنا نتحدث عنها، وهي الكتابة النسائية، هل نحن لا زلنا في حاجة للحديث عن الكتابة النسائية ؟ هو أمر لم يعد موجود الآن، لأنها تجاوزت هذه المرحلة وانخرطت في عملية الكتابة باعتبارها إبداع.

رئيس الجلسة : عبد الرحمان رشيق
المشاركون : عبد المجيد الشرفي، فؤاد بن أحمد، محمد موهوب، صخر بنحسين
فضاء : سيمون ليفي
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 15 : 11 - 12 : 45



موجز مداخلات المائدة المستديرة

أشرف عالم الاجتماع المغربي عبد الرحمان رشيق على تسيير هذه الجلسة حيث تساءل عن المخاوف الفكرية التي هيمنت على الفكر الإسلامي المعاصر وكذا على معنى الحداثة. ولمقاربة هذه المواضيع، توجه المسير بالسؤال أولا للأستاذ التونسي عبد المجيد الشرفي الذي لم يفته التمييز بين المستويين الذين يتواجه فيهما كلا المفهومين : أي من جهة دين ومن جهة أخرى نموذج الحضارة. ويلاحظ أنه منذ حقبة المدينة المنورة، تطورت المعتقدات مع مرور الوقت وأنها تتغير أيضا بتغير الفضاء. ويتجلى هذا المفهوم في الطبيعة المتغيرة لعلاقة الدين بالنظام الاجتماعي. وبالتالي، قد تكون الحداثة نتيجة مباشرة لصيرورة تاريخية بسيطة، أي واقعا نعيشه.

أما محمد موهوب، الأستاذ الجامعي المتخصص في الفلسفة، فيلاحظ صراعاً بين نموذج بصيغة عالمية، لكنه يبدو عتيقاً، ونموذج آخر يجب أن يجد فيه النموذج الأول مكانه. وحسب رأيه، تطورت هذه الحادثة وفقاً لمنطق تاريخي وعلى أساس الكوجيطو الديكارتي. ولعل السبيل لوضع النقاش على مساره الصحيح هو طرح السؤال التالي : كيف نجعل ما هو قديم يعيش فيما هو حديث ؟ ويعتبر الماضي جزءاً من قوة الإسلام، لكن جزء من الصعوبة يكمن في أن النصوص المؤسسة غنية بالمعاني المتعددة. ويشير الأستاذ المغربي فؤاد بن أحمد، في هذا الصدد، إلى أن الحادثة تعددية بل وغامضة. ومن هنا، على الأقل جزئياً، ظهر جدل بين هدف تحديث الإسلام وأسلمة الحادثة.



تقوم هذه المقاربة أيضاً بمساءلة العلاقة بين الحادثة والغرب، وهي علاقة غير واضحة. ويمكن للجامعة أن تلعب في هذا الإطار دوراً خاصاً إذ أنها فضاء فكري مستقل مناسب وقادر على خلق إنسان جديد ؛ ولعل هذه إحدى مهامها، بل أبرزها. لكن الملاحظة هي أن الجامعة لازالت بحاجة إلى مزيد من الجهود لمواجهة التحدي. إذ من الضروري عند التحدث عن الجامعات التفكير فيها بصيغة الجمع، لأن الإسلام في تنوعه اليوم، يعتبر من الناحية الديموغرافية ديناً أسويوا بالدرجة الأولى، إذ أنه على سبيل المثال يلاحظ أن المسلمين في الصين أكثر من جميع مسلمي العالم العربي. أما صخر بنحسين، الباحث الجزائري المتميز والمختص في فكر بن عربي إذ أنه ترجم مجموعة من نصوصه وعلق عليها. ومن خلال هذا الموضوع قام الباحث بتحليل العلاقة مع الزمن بالنسبة للمسلم والتذكير بأن الوقت يشمل الحدث الذي يجري فيه، مبرزاً أن الوقت في النص القرآني هو حاضر الناس ومؤكداً أن الحادثة ما هي إلا الواقع وظروف الحاضر. أي أن الحادثة هي ببساطة ما يحدث الآن.

مداخلات المائدة المستديرة

عبد الرحمان رشيق

الموضوع معقد للغاية، لكن كل واحد سيتطرق له من زاويته الخاصة. فكما تعلمون كتب الكثير حول هذا الموضوع، ونود أن نتساءل في هاته الورشة عن طبيعة الهواجس الفكرية التي سيطرت على ساحة الفكر الإسلامي المعاصر، ونتساءل حول معنى الحداثة، كما هو الحال صباح اليوم. هل هي مشروع مجتمعي نسعى لتحقيقه في البلدان الإسلامية، أم هي عبارة عن صيرورة تاريخية، ونمط حضاري قائم في الغرب؟ كما جاء في بعض مداخلات هذا الصباح، يمكن أن نذكر بعض القيم والمبادئ، كحرية المعتقد أو الضمير، حرية الفكر والكلام، المساواة بين الجنسين، عزل الدين عن الدولة، تهذيب الأخلاق، نبيذ العنف، إلى غير ذلك من القيم المتصلة بالحداثة. دون أن أطيل سوف أعطي الكلمة أولاً للأستاذ عبد المجيد الشرفي، وهو باحث في الفكر الإسلامي، ويعتبر من أبرز المفكرين التونسيين في دراسة الفكر الإسلامي وعلاقته بالحداثة، اشتغل ويشغل حول قراءة الموروث الديني الإسلامي اعتماداً على مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، وله عدة مؤلفات سوف أذكر البعض منها، لأن مؤلفاته كثيرة، سواء باللغة العربية أو المترجمة إلى الفرنسية، وهناك كتاب قدمه عبده الفيلاي بالإنجليزية. بعض المراجع فقط، والكتب الأخيرة «مرجعية الإسلام السياسي»، «الإسلام بين السياسة والتاريخ»، «الإسلام والحداثة» وأخيراً «تحديث الفكر الإسلامي».

عبد المجيد الشرفي

شكراً، هذا اختبار صعب، حين المرور حول نفس الموضوع من لغة إلى لغة أخرى، وهذا اختبار صعب لأن اللغتين لا تحملان نفس الشحنة التي تحملها اللغة الأخرى. على كل، سأحاول أن أكون في نفس الاتجاه الذي هو نظرة نقدية إلى هذا الموضوع، أو نظرة تفهمية على الأقل. الملاحظة الأولى التي أود أن أبدأها هي الإسلام والحداثة، مفهومان ينتميان إلى حقلين دلاليين مختلفين، الإسلام باعتباره ديناً، والحداثة باعتبارها نمطاً حضارياً، ولهذا يمكن أن نتساءل ما العلاقة بين الأمرين، هنا لا بد من أن نعود إلى ما يختص به الإسلام بصفته ديناً، وما يشترك فيه مع الديانات وخاصة الديانات التوحيدية. ففي كل دين هناك ثلاث ركائز أساسية، هناك العقائد، هناك العبادات أو الطقوس، وهناك الصلة بالشأن العام أو الحياة الاجتماعية ونظامها. حين نأخذ العقائد، فإن الرأي الشائع عند عموم المؤمنين، سواء في الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو غيرها من العقائد الموجودة في عصرنا، والعقائد الموجودة منذ بداية هذه السنة الدينية، هذا ما كان يعتقد الناس إلى عهد قريب جداً. تدخل الحداثة حين تبين بالحجة والبرهان أن العقائد التي يؤمن بها الناس في فترة ما، ليست هي نفس العقائد التي كانوا يؤمنون بها في فترة سابقة، وبالأخص عندما تتغير الظروف الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تؤدي إلى هذا التغير. أعطيك مثلاً بسيطاً، الفرق بين العقائد الموجودة في المجتمع الإسلامي الأول في المدينة إثر وفاة الرسول، لم يكن يطرح فيها نوع من تقديس الصحابة الذين كانوا مختلفين فيما بينهم، ونشبت بينهم معارك، وأحياناً حروب، وحين ننظر في الاعتقاد القادري، في بداية القرن الخامس الهجري، نلاحظ أن العقيدة التي أريد فرضها تقتضي عدالة كل الصحابة، كلهم عدول أي أنهم منزّهون عن الكذب وعن الخطأ، هناك تطور إذاً، وحين نقرأ كتب علم الكلام بصفة عامة، نلاحظ أن هناك قضايا كانت محورية في زمن ما، وأصبحت غير مفكر فيها في زمن آخر. إذاً هذا الواقع الذي تخضع له العقائد تأثر، ولا يمكن ألا يتأثر بما أنتت به الحداثة، لأن الحداثة ليست مادية فقط، ولكنها أيضاً فكرية ومعنوية. بالنسبة للعبادات أو الطقوس، نفس الشيء، المؤمنون يتصورون أن أسلافهم كانوا يؤدون هذه الطقوس بنفس الطريقة، لكن لنا شواهد مثل نص شهير للرازي، ونص آخر للنظام قبله، تبين هاته الوثائق أن المسلمين منذ البداية كانوا مختلفين في أمور جوهرية.

لأن أداء الصلاة بالفاتحة مثلاً، باعتبارها أمر لاصلة له بإجماع سابق، بما أن أحد الصحابة الكبار، وهو ابن مسعود لم يكن يعتبر الفاتحة من المصحف، وكذلك الشأن بالنسبة لكيفية أداء الصلاة، واختلاف المذاهب، فيما يتعلق بالطقوس، يدل على أن هناك تطوراً في هذه الطقوس، بالإضافة إلى التغيرات التي تنشأ في الاختلاف من قطر لآخر، ومن مكان لآخر، فالطريقة التي تؤدي بها الطقوس في المغرب الكبير، ليست هي بالضرورة نفسها في المشرق العربي مثلاً، أهمية الصلاة في المشرق أكثر من أهميتها بالنسبة للمغرب، والعكس بالنسبة للصوم، إلى غير ذلك من الشواهد بالنسبة للطقوس أو العبادات وهي كذلك تخضع للتطور. أما الركيزة الثالثة وهي علاقة الدين بالنظام الاجتماعي، إن الديانات كلها في القديم كانت تصفي المشروعية على المؤسسات المجتمعية، كانت تشرعنها وتبررها، وكان هذا يعتبر أمراً بديهيًا، لأن النظام الاجتماعي لا يقبل في ضمير الناس، إلا إذا ما كان يستند إلى قوة غيبية، إلى قوة تتجاوز الإنسان، وكان هذا الشأن في الإسلام عن طريق الفقه، لأنه ينظم العلاقات الاجتماعية، ولكنه يبررها دينياً، وفي الأديان الأخرى نفس الشيء، بتفاوت ربما، ولكن الظاهرة هي نفسها، حاجة المؤسسات المجتمعية إلى تبرير ديني، انظروا إلى العلاقة بين الدين والدولة، إلى مسألة نظام الحكم، فإن الخضوع للحاكم إنما كان دوماً باعتبار أن هذا الحاكم يتمتع بسلطة إلهية، بسلطة غيبية، هو يفوق البشر، ولذلك فالناس يطيعونه لأنهم يطيعون هذه القوة التي تتجاوزهم، وكان هذا حتى قبل الديانات التوحيدية، موجود عند الفراعنة وعند غيرهم.

الجديد الذي أتت به الحداثة في هذا الشأن، هو أنها نزعَت القناع عن هذا التبرير الديني للمؤسسات المجتمعية، سواء فيما يتعلق بالحكم، أو ما يتعلق بنظام الأسرة والعلاقات الجنسية، أو ما يتعلق بالأخلاق أو بالاقتصاد وما إلى ذلك. الحداثة جاءت لكي تعري عن هذه المؤسسات لتبرزها على حقيقتها على أنها مؤسسات بشرية وتاريخية، وإذا فهي مؤسسات نسبية، أي قابلة لكي تتحسن باستمرار. وهذا الإقرار بأن الركائز الثلاث للدين، أي العقائد والعبادات، والطقوس وتنظيم العلاقات الاجتماعية، هذا الأمر غير مقبول في الضمير الديني التقليدي، والحداثة هي التي رسخته أو بصدد ترسيخه، حيث يمكن أن نعتبر أنه بصفة عامة غير مقبول هذا التغير، غير مقبول نظرياً، لكنه عملياً في كثير من الأحيان نلاحظ تأثيره، لأن المجتمعات المعاصرة رغم إنكار الكثيرين لهذا الأمر، هي مجتمعات قد غزتها العلمنة، وأهم ظاهرة في هذه العلمنة هي أن القوانين لم تعد تسن باسم الله، أو باسم ما هو غيبي، إنما أصبحت تسن باسم الشعب، أنها أصبحت قوانين وضعية، والقوانين التي تنظم المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية هي قوانين وضعية، وإن استندت إلى بعض القيم الدينية التقليدية، وهذا هو الفرق الكبير بين الماضي والحاضر. نحن لا نتحدث عن الحداثة باعتبارها نمطاً أمثل، ولا نعتبر الحداثة مثلاً أعلى، ولكن نعتبرها إنجازاً تاريخياً استفاد من تراكم التجارب البشرية عبر التاريخ، ومن الحضارات السابقة، ولكنه تجاوزها، بالمشاكل التي أحدثتها هذا النمط الحضاري، والتي لا يمكن لنا أن ننكرها.

حين نتحدث عن أن الحداثة من مقتضياتها العقلانية، عقلنة التفكير وعقلنة العلاقات الاجتماعية إلى غير ذلك، وعندما نتحدث عن الاستقلالية الشخصية، أو ما يسمى الفردانية، فهذا هم أساسي، فحين نحفر بعض الشيء، فإننا نلاحظ هذه الفردانية رغم مزاياها، تؤدي في بعض الأحيان إلى الظلم، لأن اعتبار المجرم أو الجاني الذي يرتكب جريمة، مسؤول بمفرده، فإن هذا في الحقيقة، يحجب حقيقة أخرى، وهي تأثير الظروف التي يعيشها ذلك المجرم، ولذلك فنحن لا نعتبر أن الحداثة كلها خير، أو أنها كلها شر، ولكنها واقع نعيشه، وتأثيره عند المسلمين هو مثل تأثيره في الديانات الأخرى، لكنه يختلف من حيث المظاهر.

عبد الرحمان رشيق

شكراً للأستاذ الشرفي، سأعطي الكلمة للأستاذ محمد موهوب، رئيس شعبة الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، من منشوراته «ترجمان الفلسفة» وترجم كتاب «واحدية لغة الآخر»؛ فالترجمة عنده وسيلة فقط لقراءة الأسئلة الكبرى للفلسفة والإشكاليات التي تطرحها الهوية والدين والسياسة والمجتمع...

إن المسألة صارت تقريبا عرضا، كنت أنتظر أن تكون تبادل للآراء، وأنني مطالب بأن أتدخل تباعا في نقطة معينة، وأكد أنها لن تكون الترجمة، ولا حتى الفلسفة، أريد أن أذكر بالعنوان الأساسي، إعادة خلق الحداثة، الإسلام والكوني، أريد أن أنبه إلى شيء أساسي، المسألة الأساسية التي تهمني هو انطلاقا من العنوان الأساسي، هناك تدافع كوني أو نموذجين للكون، نموذج أقل، الإسلام كان كونيا، ونموذج قائم، لا يفتأ يقوم، الكوني بتصورنا الحديث، كيف ينزع الكوني الأقل إلى أخذ مكانة داخل هذا الكوني القائم، ما سنقوله عن الكون الأقل، هو واحد من اثنين، استبطن داخل وصار جزءا لا يتجزأ من الكون القائم، وإلا فما نقوله عنه لا يعدو أن يكون استحضارا لكوني أقل أو في مساره للأقول. ما نحن متأكدون منه هو ما سنقوله عن حاضرننا، عن حدثنا نحن. لا يمكننا أن نتحدث عن الحداثة، وإلا أن نستحضر أن الحداثة تشكلت تاريخيا. عندما رفعت الحداثة إلى ديكارث مثلا، فلا يمكن إلا أن نستحضر أن هيكل هو الذي رفع شجرة نسبة في القرن التاسع عشر إلى فلسفة ديكارث عندما قال : مع ديكارث نحن في أرضنا، البحار الذي تلاطمته أمواج التفكير، أمواج التاريخ، ليرسو على مكان ثابت، هذا المكان الثابت الذي كانت تبحث عنه البشرية بالنسبة لهيكل، الفكر، وجده في الكوجيطو الديكارتي باعتباره أرضا صلبة يمكن أن نقيم عليها شيئا أساسيا ذي جدوى، وهو الذي نسميه منذئذ بالحداثة.

إذا القرن التاسع عشر يقيم لنفسه شجرة نسب، يرفعها ويرفع بوابة الحداثة إلى ديكارث، نحن معنيون بهذه الحداثة. ما يميز هذه الحداثة، حتى نبقى في هذا الأفق الهيجلي، هو ما سيكتشفه القرن التاسع عشر، هو التاريخ ونسبية الأحداث، ما سيميزنا كحداثة في مقابل هذه الحقيقة، هذا الكون الأقل، هناك مطلقة الحداثة، تصور مطلق عن الحداثة وعن الوقائع في مقابل تصور نسبي عن هذا النسبي. إذا النسبية تقابل (الحديث بالفرنسية) وليس من الغريب أن الحديث تم قبل قليل من طرف الأستاذ، عن إنشأتين وذكر اسم إنشأتين والنسبية المحدودة. إذا تضارب بين نسبية مرتبطة بالحداثة، وتضارب بين إطلاقية في جهة الكون الأقل، ما يهمني كواحد من المحدثين، عندما أطرح هذا السؤال، أن أخرج من هذا التضارب الميتافيزيقي بين مطلق ومطلق، وأن أقف وأوقف على شكل بزوغ الكوني، لأنه كلما كان هناك كوني إلا وكان هناك تضارب بين أقل وصاعد، والمراحل الصعبة هي المراحل الانتقالية الموسومة بعنف التضارب. بالنسبة لي عندما أطرح السؤال عن علاقة الحداثة بالإسلام، هو كيف أتجنب التضارب الميتافيزيقي بين هذين الزوجين، لأمكن للحداثة من أن توسع رقعتها، وكيف وأنا أستحضر هذا الكون الأقل، ألا أبخسه حقه، كيف يمكننا أن ننتصر لهذا القديم ضد غرور ودعوى الحديث والحاضر ؟

إذا ما أصبو إليه وما أسعى إليه، هو كيف أن أقف على توسيع رحبة الحاضر والحديث والكوني، ليسع أقصى ما يمكن من هذه المحليات التي كان بعضها حتى الأمس القريب كونيا، كحالة الإسلام، حتى الأمس القريب وهو كوني، لغة الكون، لغة العالم، علم العالم وفلسفة العالم، إلخ. كيف أفسح المجال، كيف أوسع رحبة الوجود الحاضر، أخرجه بمعنى من المعاني من ضنك تصوره لوجوده الإقصائي، ليفسح المجال لكوني في أفول، يبدو لي أننا ونحن نتحدث عن القديم، عن الإسلام، يطرح سؤال كما طرحه المؤرخ، كيف تشكل المتن، لأننا عندما نتحدث عن الإسلام، لا نتحدث عن إسلام في السماء، نتحدث عن إسلام وقد تشكل تاريخيا ؛ الإسلام مجموع تجلياته على مستوى الطبق على مستوى الدولة، على مستوى الجمال، أدبياته وسياساته وجمالياته، وما أنتجه، يطرح السؤال انطلاقا من تصورنا الحاضر، وهنا يطرح السؤال : أو استنفذ هذا المتن إمكانياته ؟ هل ما تحقق من هذا المتن تاريخيا في تشكله، استنفذ إمكانياته ؟ هذا سؤال يطرح ضد التصور التاريخاني لهذه القضايا، وهو مع كامل الأسف التصور السائد عن علاقتنا سواء بالحاضرنا أو بالماضي، الإسلام. لهذا قلت أن كلما أسعفنا أنفسنا بتوسيع رحبة حاضرننا، كلما استطعنا أن نلقي الضوء أكثر على هذا الماضي، عن أماكن الظل في هذا الماضي، لأنها هي التي تتلاعب بنا في آخر المطاف.

قال الأستاذ الناجي أماننا قبل قليل : في السبعينات كنا ملحدين بالبداية تقريبا، ولم نكن حتى نطرح السؤال حتى صفعنا بأن هناك حضور قوي للمسألة الدينية (الحديث بالفرنسية)، الجميل في الخروج من هذا التضارب الميتافيزيقي بين الإسلام والحداثة، هو أن تسعفنا في توسيع رحبة وجودنا الآن في الحاضر القائم الحديث الكوني، ولكننا لا يمكننا القيام بهذه العملية إلا إذا ألقينا الضوء على أماكن الظل التي تشكلنا تاريخيا، فيما يتعلق بهذا الإسلام، وتشكله التاريخي، أعطي مثال، (الحديث بالفرنسية)، أعطي مثال، كلكم تعرفون الآية : «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن مات أو قُتِلَ...» سورة العمران» الآية طرحت في سياق معين، ويقال إن عمر، العقل الراجح النموذج، هذا العقل الراجح عندما مات النبي، أشهر سيفه وقال : من قال محمدا قد مات...، لم يعتقد ولم يصدق، ما يهمني في هذا الكلام كله هو عندما أتى صحابي، وهو أبو بكر أظن، وقرأ الآية، يقول وكأنني أسمع هذه الآية لأول مرة، لدي سؤال استفساري استنكاري. كم مرة قرأ عمر هذه الآية، وكم مرة أقرأها للناس الآخرين وفسرها لهم، وكم من هؤلاء الذين قرؤوها تفرقوا في الآفاق، وظلوا على فهمهم الأول قبل أن يتدارك عمر ما تدارك على نفسه، الأساس وما يهمني في هذه المسألة، أن هذه النصوص المؤسسة، نصوص غنية ولا تتحقق، ضدا على الفكر السلفي، أنها لا تتحقق مرة وإلى الأبد، لا تقفأ تحضر، لا تقفأ تتجدد (عبارة بالفرنسية)، وشكرا.

عبد الرحمان رشيق

أعطي الكلمة لفؤاد بن أحمد وهو أستاذ التعليم العالي تخصص الفلسفة ويشغل في دار الحديث الحسنية بالرباط، من منشوراته «منزلة التمثيل عند ابن رشد».

فؤاد بن أحمد

مسألة الإسلام والحداثة، يعني أن يأتي طالب دكتوراه عند أستاذ مشرف ويقترح عنوانا كهذا، وأتصور الرجل المشرف رجل يحترم العمل الأكاديمي، سيرفض عنوانا كهذا لسبب بسيط، أول ملاحظة سيقول له إنه (عبارة فرنسية)، يمكن لك أن تقول ما تشاء. واقع الأمر أننا بإزاء إسلامات، كما أننا بإزاء أحداثا، حتى وإن تحدثنا عن الإسلام بصيغة المفرد، فإننا عندما ندخل في التفاصيل، نحن بصدد إسلامات، وسأحدث لماذا أقول هذا، كما نحن بصدد أحداثا. من ثلاثة سنوات، سألتني أحد الصحافيين المصريين لقائدة قناة معروفة، قال لي ما رأيك في حركة «داعش»، آنذاك كان نجمها قد صعد، هل تمثل الإسلام، طبعا أفق انتظاره كما أخبرني فيما بعد، كان ينتظرني أن أقول له : إنها لا تمت بصلة للإسلام. أجبته بطريقة بخلفية نيتشوية إلى حد ما، قلت له من تكون أنت حتى تحدد هل ينتمي هذا إلى الإسلام أو لا ينتمي ؟ فالأمر يتعلق بصراع تأويلات بخصوص مرجعية واحدة، إذا نحن من زاوية معينة حكمنا على أن هذه الطائفة بأنها ليست مسلمة، لعلنا عندما ننصت إليهم نصبح نحن خارج الإسلام، فالأمر يتعلق دائما بالصراع على من يثبت أن هذا هو الإسلام أو هذا ليس الإسلام. في نهاية المطاف ثنائية غير مفيدة، الحداثة نفسها مصابة بالغموض. قد تكون الحداثة في القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين واضحة على العموم، لكن شيئا فشيئا أصبحت الأسئلة تطرح على الحداثة ومن الداخل، إذا كانت الحداثة في البداية مسارا واضحا تمثله الأمم الغربية إلى آخره، وأنه حتى تلك الحركات أو النزاعات الموجودة، فإنها في النهاية سرعان ما تزول إذا نحن عالجنها بطريقة من الطرق، فالحداثة كمنظومة قائمة بذاتها وهي الطريق القويم، لكن الأمر أصبح موضع شك شيئا فشيئا حتى من داخل المنظومة. فعلاقتها بالإسلام، هناك عدة مقاربات وعدة زوايا، أقول طيف من الزوايا، هناك من يدخل في سياق أسلمة الحداثة. عالج هذا الموضوع السيد عبد المجيد من سنوات، في كتابه المعروف «الإسلام والحداثة»، وهناك من يتحدث عن تحديث الإسلام. إذا، هناك من يوجه نقدا إسلاميا للحداثة، ويمكن الإشارة إلى كتابات طه عبد الرحمان، وهناك من يتحدث عن الفصل بين الحداثة والغرب، وأننا إن كنا مع الحداثة فلسنا مع الغرب.



نقاشات كثيرة جدا لن أركز عليها في حديثي، باختصار لأنها تدخل في باب المطالب، وفي باب الدعوات، وليس في باب التحليل الذي أتصوره لنفسه. ما سأركز عليه هو الوجه الأكاديمي الجامعي للحادثة، وانعكاس هذا الوجه الأكاديمي الجامعي للحادثة على فهم الإسلام، لن أدخل في تفاصيل، هناك عالم ألماني معروف «هومبولت» في القرن الثامن عشر، أهم ما دافع عنه، الجامعة باعتبارها فضاء مستقلا للفكر، وباعتبارها مجالا للفكر غير المغرض الذي لا أغراض له، ودافع أيضا عن ما يسمى بالتكوين والتنشئة الأخلاقية للإنسان.

إذا، معنى هذا أن الجامعة تنشئ لك فضاء جديدا لميلاد إنسان جديد، لعله من العبث أن أسأل هل فعلا الجامعة اليوم في العالم الإسلامي توفر هذا الفضاء، لكن أتصور أن أخطر أمر حصل على مستوى انعكاس هذه المقاربة الجامعية على الإسلام، هو أنها أكثر هدوءا وأكثر اتزاناً، على الرغم من خطورتها. سأعطي بعض الأمثلة، هناك كتاب صدر من سنة ونصف أو من سنة، أثار ضجة ضخمة على الرغم من ضعف باع صاحبه العلمي، وعلى الرغم من أن الكتاب كتب بطريقة عشوائية، لكنه أثار ضجة كبرى لسبب بسيط هو أنه دخل إلى حلقة الإعلام، والعادي والبادي يتحدث عنه، ألمح إلى كتاب «أسطورة البخاري». بينما كتب أخطر منه وأكثر اتزاناً وأكثر رصانة، في نفس الآن أكثر أهمية، إما أصحابها ذوي أصوات خافتة، هادئة، إما الإعلام لم يسلط، أو لأنه من الصعب أن تقرأ خمسة مجلدات وتناقشها، لأن الأمر يتعلق بمجهود ظل خارج ساحة النقاش، ليس فقط العمومي، بل خارج ساحة النقاش الجامعي. أتصور أنه في المغرب كاملاً، أتحدث عن الجامعات، لم تعقد حلقة واحدة لكتاب «المصحف وقراءاته» الذي أنجز في تونس، هذه أمور كلها تعطينا دلالات وإشارات، لكن أتصور، وهذا مجرد تصور يمكن مراجعته، أن التحديث في مقاربة الإسلام هو دائماً يحصل في الجامعات الغربية تكملة لتصور «هومبولت»، لأنها فضاء للفكر المستقل، وتضمن المجال المناسب للتفكير.

من أهم الكتب في تقديري والتي أود أن أشير إليها، هما كتابان في الحقيقة، كتاب صدر في السبعينيات «دو فانتير أوف إسلام» لصاحبه «مارشال هودسون» في أكثر من 1500 صفحة، إلى اليوم لم يترجم منه إلا بعض الشذرات، ولم يناقش، إلا على شكل عرضي، الكتاب لأول مرة، مقارنة حديثة بمناهج حديثة، لكنه يضعنا أمام مقارنة متفهمة للإسلام، وفي نفس الآن مقارنة تاريخية، لأنه يضع الإسلام في سياق تاريخي داخل ما يسمى بالتاريخ العالمي، ليصبح للإسلام مكانته، ولكن أيضاً حدوده، ومن أهم الحدود التي يشير إليها، التربية، أو مؤسسات التربية.

يعتبر الفارق الكبير بين الغرب الذي سيتقدم أكثر، وبين المؤسسات في الإسلام، من أخطر الاستنتاجات التي ذكرها «مارشال هودسون» في كتابه الذي صدر في سنة 1974، وبالمناسبة الكتاب صدر بعد وفاته بست سنوات ؛ من أهم النتائج أولاً الكف عن التركيز عن العالم العربي عند الحديث عن الإسلام، لأنني لاحظت في نقاشات منذ أمس، ونحن نتحدث عن الإسلام والحداثة، أننا ننزلق لا شعورياً في الحديث عن العرب والعالم العربي والحداثة، عدديا مجموع المسلمين في الصين يفوق عدد سكان العالم العربي، ثم التمييز بين أمرين، الإسلام كدين والإسلام كثقافة.

الكتاب الثاني «What is Islam ? The importance of Being Islamic» وصدر لصاحبه أيضاً الذي توفي شاباً للأسف وهو «أحمد شهاب» باكستاني الأصل لكنه يشتغل في هارفارد، كما كان «مارشال هودسون» يشتغل في برينستون. خطورة الكتاب تكمن في إثارة انتباهنا إلى ما يلي. الإسلام ليس هو لا العبادات ولا العقائد، ألخص بشكل مختزل الكتاب في عدد صفحاته 609، توقف أحمد شهاب عن الحديث عن العرب نهائياً، ليصبح لديه هاجس آخر اسمه مركب بلقان البنغال، لي طرح أسئلة من قبيل، ما الإسلامي من شعر الخمریات ؟ ما الإسلامي في الفلسفة ؟ ما الإسلامي في التصوف ؟ عندما يعتقد المتصوف أنه إذا بلغ اليقين سيتوقف عن العبادة، فهل هذا إسلام ؟ في نفس الوقت، عندما ننصت لابن القيم الجوزية لن يغدو الأمر متعلقاً بالإسلام إلخ. يثير انتباهنا إلى الإسلام مجموعة من المعايير والقيم، والأعراف المتناقضة إذا نحن جمعناها إلى طاولة واحدة، المنسجمة إذا نحن جمعناها محلياً، والذي حصل مع العولة لسوء الحظ، أنه حصلت عولة المحلي، لسبب من الأسباب، ليصبح هو الممثل للإسلام، باختصار حتى أختتم، لأن هذه كانت مجرد رياضة بدنية وليست ورقة، الكتابات الصادرة وخاصة في المجالات الغربية مع بعض الاستثناءات الموجودة في العالم العربي، تعلمنا ما يلي، تعلمنا الكف عن النظر للإسلام كدعوى، أيضاً الكف عن النظر للإسلام كمثّل أفلاطونية، وأنه بقدر ما الممارسات التي تبدو لنا غير مقبولة أنها غير إسلامية، لا الكتابات الحديثة تعلمنا على النظر للإسلام في التاريخ، وهنا يجب أن أشير إلى كتاب أحد الأصدقاء الذي كنت أتمنى أن أراه في هذا اللقاء «Les Musulmans face à l'Histoire» لعبود الفيلاي أنصاري، عندها سألتها كان الأولى بك أن تسميه «L'Islam face à son histoire» وهذا يعطينا إشارة واضحة إلى الفرق بين السياقات الجامعية في العالم العربي والسياقات الجامعية في العالم غير العربي وشكراً.

عبد الرحمان رشيق

أعطي الكلمة للأستاذ صخر بنحسين ناشر جزائري وباحث في التصوف، آخر إصداراته «تجربة لروح القدس» لابن عربي... وعنده كتاب آخر «فهم الصلاة في الفقه» فليفضل مشكوراً.

صخر بنحسين

شكراً، قد تكلم عن الحداثة من المنظور الأنثروبولوجي والسياسي والاجتماعي والحضاري إلخ، بما يكفي لهذا اليوم، أمام أنا فسألني بعض الضوء، تلبية لنداء محمد موهوب على التضارب الميتافيزيقي بين الإسلام والحداثة، وبهذا الصدد لدي نص للبحث في موضوع الإسلام والحداثة، ولكن في ضوء سورة العصر، وهي سورة من القرآن، إذا سنتطرق بدءاً لمفهوم الحداثة من المفهوم اللغوي والفلسفي، ثم نعتمد على سورة العصر لبيان قيمة الوقت في الإسلام، فنقول الحداثة من (ح د ث)، حدث الشيء بعد أن لم يكن، أي خروجه من العدم إلى الوجود، ومنه (الحديث) أي الكلام الذي يظهر من فم المتكلم، ثم ينعدم إبان حدوثه، الكلام عند صدوره يسمى حديثاً لأنه يحدث، ثم ينمحي أي ينعدم، أي في اللحظة نفسها ولقد سمى الله القرآن حديثاً في مواضع كقوله تعالى : «لله نزل أحسن الحديث...»، «فمن هذا الحديث تعجبون...»، «فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا...»، «فذرني ومن يكذب بهذا الحديث...»، وذلك لأن القرآن محدث، قد جاء بعد أن لم يكن ثم ارتفع بارتفاع الوحي، وبقيت عبارة القرآن.

هذا نص قرآني آخر «ما يأتيتهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون...»، «وما يأتيتهم من ذكر الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين...»، ولكن ليس هذا موضع خوض في مسألة كلامية يعرفها الكثير منا، وإنما هو تمهيد لما نحن بصدد، وهو الإسلام والحداثة كما هو عنوان هذا اللقاء. خاصية الحدث كونه بين عدمين، أولهما وجودي والثاني ثبوتي، لم يوجد قبل أن يحدث، ثم لم يثبت بعد حدوثه، والحدث أو الحداثة نقيض القدم، أي ما كان ويبقى على مدى الدهر القديم، في الاصطلاح عند المتكلمين هو ما كان وما سيبقى، وليس ذلك إلا الله، لذا وصفه المتكلمون بالقديم، فإنه لا بداية ولا نهاية له تعالى، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فالحداثة حقيقة بين عدمين، بين ما لم يكن، وما لن يكون، فهي الآن هنا، نجد للحداثة مرادفا، وهو لفظة العصرية، لأننا في الجزائر نفصل استعمال العصرية على الحداثة، وهو موجود في بلاد العرب، والعصرية هي العيش وفق حقيقة العصر، ووفق الواقع، وهذه اللفظة وإن لم تكن مستعملة من قبل، أو من قبل الأوائل، يعني لا نجد كلمة العصرية لا في «لسان العرب» ولا في غيره من المعاجم، إلا أنها موافقة تماما لأصول اللغة العربية مثل «رهب» التي أعطت رهبنة، ولكن شريحة من علماء الدين في العصر الراهن يرفضون هذه اللفظة لما يشتهى لهم أنها خاصية غربية منافية للدين والتراث الإسلامي. إلا أن أصل هذا المصطلح قرآني، وهو من قول الله تعالى: «والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»، العصر هو الحقيقة الراهنة التي تظهر فيها الأحداث، العصر هو الذي يحتوي الحدث، وكأنه عصارة الزمان، أي ما يتمخض ويحصل منه كما يحصل الزيت من عصر الزيتون والخمر من عصر العنب، فالعصر خلاصة الدهر، وكما أن الدهر لا بداية له ولا نهاية فالعصر له أول وآخر، وهو ما يعيشه الناس بين الماضي الذي انقضى، والمستقبل الذي لم يأت بعد. فإذا لا مفر من العصرية ولا من الحداثة، لأنهما لفظان لحقيقة واحدة ألا وهي وجود الناس في حين وجودهم، والعصرية وجودنا في حين وجودنا، لذا أقسم الله به فقال «والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»، فقله «والعصر» قسم، والله يجوز له أن يحلف بما شاء، أما الإنسان في الإسلام فإنه لا يحلف إلا بالله، جواب القسم «إن الإنسان لفي خسر» ومستثنى منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

إذا المطلوب من المسلم في عصره هذا أن يوصي نفسه، قبل غيره، بالحق والصبر، لأن سورة العصر مهمة لأنها تحت الإنسان أولا على العبادة، وهي عمل الصالحات، الذين آمنوا يعني الإيمان والعمل بما يتطلبه الدين الإسلامي، والشطر الآخر هو المعاملة بين الإنسان والخلق. فالمطلوب منا أن نوصي أنفسنا، أن يوصي المسلم نفسه، قبل غيره، بالحق والصبر، أي بإيتاء كل ذي حق حقه، والصبر على ذلك، على المسلم أن يبيت الأخلاقيات، هذا المنتظر من المسلم في هذا العصر، أن يبيت الأخلاقيات المثالية في قلبه وعقله وجوارحه، ثم في بيته، ثم في مجتمعه وفي كل مكان يحل به، فمعلوم أن التكنولوجيا بين أيدي الغربيين، ولكن لا يمنع ذلك من أن يستعملها المسلم ولكن بلا إسراف، وأن يري الغربيين أن الإسراف أمر يؤدي إلى الخسران «والعصر إن الإنسان لفي خسر».

الربا مثلا، من أبشع مظاهر العالم الغربي، ونحن لسنا بعيدين عنهم، وأضراره لا تحتاج إلى بيان، لما عليه من ظهور في حقيقة المجتمعات والأفراد الذين صاروا عبيدا لأصحاب الأموال. جاء الإسلام، وعلى غرار ما سبقه من الأديان السماوية، لتحرير الناس من رق أنفسهم ورق غيرهم من الناس، فمن ذلك أن ابن والي مصر، عمر بن العاص في التحري، مسألة مهمة جدا، ضرب قبطيا ظلما لمجرد أنه غلبه في سباق، ضربه وهو يقول: «يغلبني مثلك وأنا ابن الأكرمين» فقصد القبطي المدينة يشنكي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اعتداء ابن الوالي المسلم عليه، فاستدعى الخليفة الوالي وابنه، وأعطى السوط للقبطي، وهو يقول «أضرب ابن الأكرمين» فلما انتهى من ضربه، قال له عمر بن الخطاب: «أدر السوط على صلعة عمر بن العاص، فإنما ضربك ابنه بسلطانه» فقال له القبطي: «إنما ضربت من ضربيني»، فالتقت عمر بن الخطاب لعمر بن العاص وقال كلمته الشهيرة: «يا عمر، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

هذه هي روح الإسلام وبضاعته التي كلف الله المؤمنين بتسليمها للناس كافة، والله يعلم أن الغربيين والعرب والشرقيين وكل الناس) بحاجة إلى قيم السلم والتسامح والتحرر في هذا العصر أكثر من أي عصر مضى.



عبد الرحمان رشيق

سنواتل النقاش، وهو نقاش مفتوح، في وجه المتدخلين أيضا.

مداخلة

أود أن أتحديث بعد مداخلة السيد الشرفي عن مسألة التطور الروحي وتطور مفاهيم ممارسة الشعائر الدينية. وأعتقد أن هذه المسألة مهمة للغاية. إذ عندما نعود إلى فترة الوحي بحد ذاتها، وعلى الرغم من أنها قصيرة نسبيا، إلا أنها تسمح بملاحظة جدلية التغيير المستمر. إنها الرغبة في التغيير التي تحكم العلاقة بين المجتمع والنص، وهو ما يبرر اللجوء إلى التخلي عن بعض الآيات التي لم تعد ملائمة للسياق المجتمعي آنذاك من خلال عملية النسخ. وهكذا، فالنص القرآني لن يكون مفهوما إذا لم نقرأه من خلال منظور نشأته وتطوره. أما أولئك الذين يتصورون النص كمسند سقط من السماء، فهذا موقف يعينهم. أما فيما يخصني، أعتبر أن التغيير ميزة مكونة للنص القرآني نفسه. لكن هذا التغيير لا يفتأ يواجه اليوم مجموعة من العقبات لعدة الأسباب. وبالعودة إلى الملاحظات حول كتاب «صحيح البخاري»، نلاحظ، للأسف، عدم وجود فضاء علمي نقدي قادر على تفكيك هذا النص، مما يجعل أن كتاب البخاري يخرج معززا من هذا النقاش. والأسوأ من ذلك، أن الكتب العلمية التي ألفها علماء ومتخصصون مثل تلك التي أشرف عليها الأستاذ الشرفي حول القراءات القرآنية لا يطلع عليها عامة الناس. في الواقع، فإن أي نقد لإحدى النسخ القرآنية محفوف بالمخاطر طالما أنه يمكن تأويل الأمر على أنه دعوة للتشكيك في الطابع الإلهي للنص القرآني. ولعل هذا العمل كان ممكنا في القرون السابقة، رغم أن مؤلف «كتاب المصاحف» خاطر بحياته، ولكن رغم ذلك يظهر أنه خلال القرون الأولى للإسلام، كان النقاش ممكنا، دون إثارة أية مشاكل، إذ أن مقارنة النص القرآني لم تكن تعني بأي حال من الأحوال تساؤلا حول الطابع الإلهي للنص القرآني. إلا أننا اليوم، لا نجرؤ التطرق لإشكاليات من هذا القبيل، بينما في الماضي، تحدث بعض المؤلفين عن وجود العديد من المصاحف، بعضهم يتحدث عن سبعة، وآخرون عن عشرة، ويرتفع العدد إلى أربعين نسخة.

مداخلة

بسرعة أشكر الأساتذة على هاته المداخلات، الملاحظة موجهة للأستاذ موهوب. في المغرب أو البلدان العربية الإسلامية، عندما نفكر في الحادثة، نفكر فيها كعوض عن الدين باعتباره شكل تاريخيا رؤية للإنسان للعالم، إذا هذا التعارض يجعلنا نغفل أن للحادثة سيرورة تاريخية ارتبطت أولا بالثورة العلمية التي أدت إلى تغيير رؤية الإنسان للعالم، قادت هذه الرؤية إلى اكتشاف مفهوم الإنسان مع ديكارت في الكوجيطو المشهور «أنا أشك، أنا أفكر إذا أنا موجود» هذا الكوجيطو سيتطور في مرحلة تاريخية أخرى إلى سؤال عند كانط. إنها جرأة الإنسان على استخدام فهمه الخاص، في حين في مجتمعاتنا عندما نريد أو نجرؤ على استخدام الفهم الخاص، ننتع تاريخيا بالزندقة، وهذه إشكالية تاريخية الكل يعرفها، إذا المشكل، هو كيف يمكننا أن نتمثل الحادثة كثورة علمية أولا، ثم كيف يمكننا أن نبني مفهوم إنسان جديد يستطيع أن يتشرب هذه الحادثة لتتحول إلى سلوك ؟ ثم لا ننسى أن التفسيرات الدينية التي وصلتنا كلها طغى عليها الإسلام الثقافي، بمعنى أنها غيببت الفردانية، في حين تمت بعض النصوص الدينية التي زكت فردانية الفرد باعتباره مسؤول عن أفعاله، مثلا «كل نفس بما كسبت رهينة...» إذا، كيف يمكننا أن نستغل هذه النصوص دون أن نحدث تعارض يمكن أن يخلق لنا ازدواجية في الشخصية على مستوى الممارسة الدينية، أن نتمثل الحادثة أولا كمفهوم يعيد للإنسان تموضعه في الوجود ؟

مداخلة

لدي ملاحظة استخلصتها من العروض، كنت أنتظر أن يطرح الموضوع في شكل إشكالية وسيطرح كل واحد منكم فهمه لهذه الإشكالية، ويطرح حلولاً. ملاحظتي هي أنكم تفاديت ما أمكن أن تطرحوا ما يدخل في إطار الصراع الفكري، ولكن نشرتم مجالات متعددة يمكن أن نتلمس فيها مسارات متعددة لمعالجة أو تناول أو الحديث عن العلاقة بين الإسلام والحادثة باعتبار هذا الموضوع أحيانا قد يثير صخباً وصراعات وعداوات.

عبد الرحمان رشيق

شكرا لك، سوف أعطي الكلمة للأستاذ الشرفي.

عبد المجيد الشرفي

قضية تطور العبادات والطقوس في أي دين ينبغي في نظري أن نربطها بأنماط الإنتاج الموجودة في المجتمعات القديمة، والتي غيرتها الحادثة وقلبتهأ رأساً على عقب، فأنماط العبادات والطقوس الموجودة عند القدماء كانت تستجيب لطرق العيش المعتمدة على الزراعة والرعي والتجارة، ولم تكن فيها نفس الضغوط الموجودة في المجتمعات الصناعية التي يكون فيها التوقيت، لا على أساس طلوع الشمس وغروبها، وإنما بحسب أوقات أخرى وتنظيم آخر للزمان لا صلة له بهذه الطقوس، هذه من جهة، ومن ناحية ثانية، أعتقد أن توحيد الطقوس قد تم لضرورة سوسولوجية، يعني أن ممارسة الطقوس في الإسلام، كما في غيره من الديانات الأخرى في بدايتها، كانت تتمتع بكثير من المرونة، لكن مع مرور الزمن ومع ضرورات مقتضيات المؤسسة، فإن هناك توحيدا تدريجيا لهذه الطقوس، وهذا أيضا مما لا يقبله المؤمنون العاديون الذين يعتبرون أن هذه الطقوس لم تتطور، ولا تقبل التطور. أولا لم تتطور في الماضي، وغير قابلة للتطور والتغير في المستقبل، ولذلك فإنكم تلاحظون أن جل الأدبيات التي تتعلق بالنقاش حول تطبيق الشريعة، إنما تتعلق بالمعاملات لا بالعبادات ؛ العبادات من غير المفكر فيه، لأن الخوض فيها محرج للضمير الديني التقليدي. ولذلك يقال العبادات لا تمس، أما الشريعة في المعاملات، فهذه قابلة للتغيير، ولكن في الحقيقة ما حصل تاريخيا وما ينتظر في المستقبل يهم العبادات والمعاملات معا.



الملاحظة المتعلقة بصلة الحداثة بهذه النظرة الجديدة إلى الإنسان، الفرق الجوهرى في نظري، بين النظرة القديمة والنظرة الحديثة هو في أن الله كان محور الكون وأن الإنسان هو الذي أصبح محور الكون في القرون الأخيرة، قبل أن تتكفل العلوم الحديثة بتنسيب هذه المحورية. الإنسان كان يتمتع بمحورية في عصر الأنوار، في القرن الثامن عشر بدون إشكال، لكن مع الاكتشافات الفضائية والعلمية الحديثة، هذه المحورية أصبحت تثير إشكالية حقيقية، ولذلك فإن الإنسان هو دائم البحث عما يميزه وما يحقق به إنسانيته، سواء كان بالتبعية للقوة الغيبية، أو في استنثاره بهذه المكانة الفريدة في الكون، أو كذلك اليوم مع تطور النظرة إلى الإنسان وإلى الكون، لا بد له أن يبحث عن هذه المكانة التي يحق بها كرامته فقط.

عبد الرحمان رشيق

شكرا للأستاذ عبد المجيد الشرفي، أعطي الكلمة للحضور.

مداخلة

كيف يمكن أن نمثل الحداثة لتتحول إلى سلوك ؟ أذكر بشيئين اثنين، وأهم من يعتقد معظم الناس أن المسألة تعليمية، هذه تحولات مجتمعية معقدة. غالبا ما أعطي مثالا للطلبة، الممارسة والتمرين ثم التمرين، ليصبح ذلك التمرين «صحيحاً». هذا الجانب الثقافي، التكويني التعليمي نجده في مجتمعاتنا. المسألة الأساسية أنه كلما حصرنا الصراع مع النص الديني مع الإسلام في مواجهة بين النص وبيننا، إلا ورسبنا في هذا الأمر، اللازم أن نتحايل على أنفسنا، مثال بسيط، كل آية من القرآن سلبت مضامينها معنى اجتماعيا، ثم تجاوزها مجتمعيا، كالرق إلخ من الأشياء التي بقيت كنصوص، وتجاوزت واقعا، ولكن كلما أردنا أن نحل المشاكل، أكيد أن النصوص غنية، ولا تفتأ تحضر، وإلا ما معنى النصوص المؤسسة عموما، كيفما كانت عند اليونان، ولماذا نفتأ نقرأ أرسطو وأفلاطون وشعراء اليونان، لا تفتأ تعطي نفسا بقدر أهمية الحاضر، إذا أن تتجاوز حاضرا، ولكن أن يتم التعامل معها بغير تعنيفها، لأن التعنيف، هو ما حصل في مرحلة تاريخية، هو ما جعل هذه النصوص أن تخرج من بعبها «sous forme de diables».

عبد الرحمان رشيق

شكرا لك.

مداخلة

شكرا على الملاحظة، حتى أذهب مباشرة للموضوع. الاستفادة من الوجه الأكاديمي الجامعي للحادثة، مكانه هو الجامعة، بدرجة أخص، مكانه هو شعب الدراسات الإسلامية، لا داعي للتفاصيل، شعب الدراسات الإسلامية ضحية أمور، لا أتصور أننا سنخرج منها بطريقة سهلة من المغرب، لا أعول نهائيا على ما يسمى بالقطاعات الخاصة، التي تكون وراء بعض النشرات أو شيء من هذا القبيل لا، أتحدث عن القطاع العمومي، وهنا أعود للنقطة التي أشرت إليها، والتي كانت لدى أصحاب القرون الوسطى التي نلمسها في بعض الكتابات، مثلا كتاب «المصاحف». ابن رشد نفسه، أتصور اليوم لو قال أحد ما قاله ابن رشد في مالك سيدخل السجن مباشرة، ابن رشد الحفيد وليس ابن رشد الجد، لكن نحن في القرون الوسطى، نحن في مجال لم يكن بعد قد خلق ما يسمى بالفضاء العمومي، ففي المجال الخاصة يحق لك أن تقول ما شئت، يعني يكفي العودة للنصوص للوقوف على هذا الأمر.

الآن، ما هو المهرب، يعني وسأمثل بما تفعله أنت. لكي تشعر بحرية أكبر، إما تعبر بلغة غير اللغة المتداولة، أو تلجأ إلى التخيل لتشعر على الأقل بنوع من الحرية. مجال تجديد الدراسات الدينية، وأتحدث عن المغرب، حتى لا أعمم، يحتاج الكثير من الشجاعة والمغامرة، ويحتاج الكثير من الاستفادة مما حصل في التجارب الغربية، وأهم استفادة هي تعويد أنفسنا على النظر للإسلام داخل التاريخ، والتحرر من مأزق القرن التاسع عشر، الذي خلقه الاستشراق من جهة، والنهضة من جهة أخرى. هذه اثنين من الكوارث نحن ضحاياها، وشكرا لكم.

مداخلة

ما أريد قوله هو أن الإسلام يحض المسلم على العيش في زمانه، أن يعاصر ويواكب أحداثه، هذا هو المطلوب من المسلم، أما أن يتملص الإنسان من هذه المسألة بأن يفهم أن العصرنة هي إنكار الوحي وإنكار الدين، وإنكار الله، وإنكار الشريعة، هذا شيء آخر لا يهمني. أنا الذي يهمني، أن أرسخ الإسلام في الواقع، المسلم المؤمن راسخ في واقعه، النبي أو الأنبياء كلهم لم يأتوا ليتكلموا عما سيحدث، بل عما هم يعيشونه مع قومهم، لما يقول موسى لفرعون أخرج معي بني إسرائيل، المسألة سياسية طبعا، هذا الذي أريد قوله، يعني حرمت من بسط المسألة لأنها طويلة، ولكن هذا القصد، أنا في ذهني ليس هناك تضارب لا ميتافيزيقي ولا سياسي ولا غيره، بين الإسلام والحداثة، وكأنك تقول إن المسلم خارج عن وقته لا، المسلم في وقته، يعيش، يدفع ضرائب، ويدفع كذا، وإذا كان هناك ضبط فيضبطه وهكذا، يعني المسألة مسألة واقع، يعني لست أنا بالذي يقول يجب أن أفكر في الحداثة، فالحداثة واقع نعيشه كلنا.

عبد الرحمان رشيق

أشكر كثيرا السيد عبد المجيد الشرفي، السيد فؤاد بن أحمد، السيد محمد موهوب والسيد صخر بنحسين.

رئيسة الجلسة : مريم لحلو
المشاركون : حبيب السالمي، محمد علاوة حاجي، سكيبة حبيب الله
فضاء : ليلي العلوي
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 12 : 45 - 11 : 15



موجز مداخلات المائدة المستديرة

افتتحت مريم لحلو هذه المائدة المستديرة ببسط موضوع النقاش المتمثل في تأثير علاقة «شرق-غرب» على الأدب المغربي وتجلياتها فيه. لقد سعدنا حقا باستضافة الروائي التونسي حبيب السالمي، الذي يكتب باللغة العربية والذي حدثنا من خلال أحداث روايته عن علاقة الشرق والغرب، وتصوره لهذه الثنائية من منظور الأدب. ضيف آخر سرنا حضوره معنا هو الصحافي بإذاعة الجزائر الدولية والروائي محمد علاوة حاجي، وهو كاتب جزائري، يكتب بالعربية، ومعروف برواياته الثورية التي تكسر القوالب وتتمرد عليها من خلال اختراق الإطارات الأدبية التقليدية. كما تطرق حاجي لموضوع أدب الطفل وشاركنا تصوره بخصوص أفضل السبل للتعامل مع هذا الجمهور الخاص والفريد. وفي نفس السياق، يقربنا حاجي من صعوبات النشر التي تواجهه في الجزائر والتي تنبئ عن نشر بعض كتاباته هناك.

من جهتها، أكدت مريم لحلو أن الجوائز التي يراد منها تشجيع الكتاب الشباب، أصبحت كثيرة بل صارت تعرف تضخما كبيرا في قيمتها المالية. ومن ناحية أخرى، لم يتفق المشاركون مع الرأي الذي يربط حصول الكتب على الجوائز بجودتها، وأكدوا أن الكاتب الحقيقي لا يكتب ابتغاء الجوائز. ومع ذلك، اتفق المشاركون على أهمية هذه الجوائز من الناحية المادية، خاصة بالنسبة للكاتب الذي يعيش في سياق اقتصادي صعب، مثل ما هو الحال بالنسبة لدول المغرب الكبير. وخلال مناقشة موضوع اللغة، تطرق المشاركون لمسألة الحضور القوي للغة الفرنسية في الأدب المغربي. بالنسبة إلى الأديب الفرنكوفوني محمد حاجي، تعتبر اللغة آلة وأداة خطيرة وأكثر تعقيدا مما قد يتصور البعض : إنها لا تعبر عن الأفكار وفقط بل تعبر عن بنية فكرية وقيمية تدرج ضمن رؤية كونية.



أما الشاعرة المغربية الشابة سكيمة حبيب الله التي تكتب قصائد نثرية باللغة العربية والتي تتوفر على حس لغوي مرهف، فتري أن لكل أدب مميزاته التي لا علاقة لها باللغة. من ناحية أخرى، تؤكد حبيب الله أن اللغة الفرنسية أثرت في الداريجة المغربية أيضا. وهي ترى أن كل شاعر مختلف عن غيره ؛ لكنها لا تعتبر أن للشعراء المغاربة سمات خاصة توحدهم وتميزهم عن غيرهم. وفي المقابل تعتقد حبيب الله أن مقارنة صغيرة بين شعراء المغرب الكبير وشعراء المشرق ستيين، في أقل تقدير، أن شعراء المغرب الكبير يعتمدون على الكلمة أكثر من الخيال وأن شعراء المشرق يعتمدون على الخيال أكثر من الكلمة. ومن شدة اهتمامها بهذه القضايا الهوياتية، قررت حبيب الله كتابة رواية تعالج هذه القضايا من خلال أقلية مغربية لطالما تقاذفتها أحداث التاريخ. في الختام، تحدثت حبيب الله عن تداخل كل من عالم الشعر وعالم النثر عند المبدع، متسائلة حول مسألة هل يمكن اعتبار إنتاجات المبدع مؤلفا واحدا أو مؤلفات منفصلة ومستقلة بعضها عن البعض الآخر ؟

مداخلات المائدة المستديرة

مريم لولو

قرأنا عن علاقة الشرق بالغرب في أعمال كل من الكاتبين الطيب صالح وسهيل إدريس. هل هي أيضا موجودة في إبداعك يا أستاذ حبيب ؟

حبيب السالمي

طبعا هذه العلاقة موجودة لأنني أعيش في أوروبا منذ فترة طويلة ويظهر أنها موجودة أكثر في رواية «روائع ماري كلير»، لأنني أردت أن أقارب هذه العلاقة بطريقة مختلفة. أعتقد أن المبدع يجب دائما أن يبحث عن شيء ما مختلف. هذه تيمه قديمة : علاقة الشرق بالغرب، بدأت مع رواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، ورواية «الخدق العميق» لسهيل إدريس وأعتقد في نظري أن أشهر رواية هي للطيب صالح. أنا أيضا أدلوت دلوي في هذا الموضوع وفيه فعل آخرون نفس الشيء وسيفعل كتاب عرب هكذا، لأن الموضوع قديم جديد. الكل ينظر إليه بطريقة مختلفة لأن الثقافة العربية تتغير ووعينا يتغير. مثلا روايتي «روائع ماري كلير» كما لو أنها تعقيب وليست إجابة. أنا أحب كثيرا الطيب صالح وأحترمه كثيرا. أردت أن أكسر صورة العربي الفحل (الطيب صالح ومصطفى سعيد مثلا). الطيب صالح خلق هذه الشخصية في الفترة الإيديولوجية بعد خروج الاستعمار.

صحيح الغرب الأبيض هزمننا بذباباته وثقافته وإستراتيجيته، نحن نهزمه من خلال الجسد ونمتلك جسده. عند مصطفى سعيد، النساء يمررن حوله وهو يضع البخور، ثم يكتسح هذه الأجساد وتلتذذ تماما. أنا أردت أن أكسر هذه الصورة لأنني أنتمي لعصر آخر خف فيه الصراع الإيديولوجي. محفوظ ليس فحلا إطلاقا بل على العكس ماري كلير هي التي تعلمه كيف يكتشف جسده. قلبت الآلة رأسا على عقب. وعلى فكرة، فقد تعرضت لانتقاد لاذع في الخليج العربي على إثر تقديمه بهذا الشكل. محفوظ أقدمه كشخص متردد لا يعرف جيدا الجنس وهذا طبيعي، لأن جيلي أنا لم تكن لدينا التربية الجنسية. بصراحة أول علاقة بالمرأة في جيلي تكون من خلال المواخير. ولكني أحكي عن علاقة عميقة. في حين أن الأوروبي في سن السادسة عشر، عندما لا يأتي بصديقه للبيت، يبدأ الأبوان بطرح الأسئلة، ربما يكون مثلي جنسي ويظنون خائفين وعندما يشاهدون الفتاة يرتاحون. وهذا ينطبق كذلك على الفتاة أيضا. ليست لدينا تربية جنسية. الكثير من شباب جيلي يمارسون الجنس مع الحيوانات وأنا وضعت هذا في روايتي «روائع ماري كلير». هذه حقيقة مازالت قائمة.

وبالتالي كيف تريد من شخص قدم من الريف التونسي يعقب بروائع الشيخ والعرعار ويلتقي بفتاة باريسية ذات تجربة عندها على الأقل عشر سنوات من النضال ومن الإرث، ويريد هو أن يعلمها ويكون فحلا. سأكذب على نفسي، لذا أقدمه دائما مرتبكا. والناس أحبوا الرواية ولا يعرفون لماذا. بعد ذلك انتبهوا لهذه الفترة، لأنني أقدمه كشخص متردد، متذبذب. فهي تقف أمامه عارية تماما لأنها تحبه وهو يرى أنه عري فاضح ويدير رأسه. شيئا فشيئا تعلمه أن يكتشف جسده ويتأقلم مع هذا العالم. أريد أن أثير شيئا آخر : كل الرواية مبنية على علاقتنا بالنبات، بالفضاء.

أنا صياد الحقائق الصغيرة، أراكم الأشياء الصغيرة لكي أخلق المعنى الكبير. دائما أذهب بطريقة جانبية. لا أحب الإيديولوجية إطلاقا لأنها تشوه العمل الأدبي، لا أحب الحنين بل أفضل الذاكرة عن الحنين لأن الحنين دائما يجمّل. فبالتالي قصة الشرق والغرب حاضرة في أعمالي بعقم خاصة في هذه الرواية ولكن بطريقة مختلفة. أناس كثيرون رأوا فيها صراع حضارات، حتى بالفرنسية فهي ترجمت للفرنسية والألمانية ولاقت نجاحا، ربما هذه قراءتهم.

مريم لعلو

شكرا الأستاذ حبيب. عودة إلى الأستاذ محمد حاجي. لديك اهتمام بأدب الطفل، لديك قصص للأطفال ومسرحيات قصيرة للأطفال وجدت من بينها «مجلس الدمى» و«طفل في محفظة». حبذا لو تحدثنا قليلا عن أدب الطفل.

محمد علاوة حاجي

بالنسبة لأدب الطفل، لم أصدر أي كتاب في هذا المجال. وهي نصوص جاهزة منذ سنوات. كان يفترض أن تقدم على خشبة المسرح لكن لم يتم تقديمها وهناك رواية جاهزة منذ 2011. معنا هنا صديقة روائية أمل بوشارب كتبت نصا للأطفال. وفي حديث خارج القاعة تحدثنا عن خصوصية الكتابة للطفل وشعرت بمدى حسرتها بعد صدور روايتها لأنها لم تنشر بالشكل المطلوب. وهذا ما يجعلني أتردد في نشرها. صحيح أنني ما زلت في اشتغال متواصل عليها ولكن في حال وجدت دار نشر تتفهم وتلبي خصوصيات النشر للطفل أكيد سأنشرها، ولكن في الجائز هذه الشروط غير متوفرة، يمكن أن تخرج بشكل رديء وهذا أحيانا يجعلني أفضل أن تبقى في الدرج على أن تنشر بشكل غير جيد.

مريم لعلو

هل الكتابة للطفل مختلفة عن الكتابات الأخرى ؟

محمد علاوة حاجي

طبعاً. لا أحب التنظير كثيرا عن خصوصيات الكتابة للطفل لأن ليس عندي كما كبيرا من الكتب. هما كتابان وبعض النصوص. رغم ذلك أقول أن الكتابة للطفل طبعا صعبة جدا ويجب أن تراعي هذا القارئ المختلف. ما يهمني هو أن تكون اللغة جميلة وأيضاً أبعد عن الوصاية التي تفرض على الطفل. ليس هناك الجانب الأخلاقي وكأنها موجهة للكبار وأعتقد هذا ما ينقصنا كثيرا في أدب الطفل العربي، لأن غالبا ما يتعامل الكاتب مع الطفل وكأنه من الواجب تتبعه بالنصائح والإرشادات. أعتقد أن هذا التصور متجاوز.

مريم لعلو

سؤال أخير عن الأدب والجوائز خصوصا بالنسبة للشباب. أبدأ من اليمين. هل الجائزة تضيف شيئا للأديب أم هي قتل لهذا الأديب الصاعد خصوصا إذا كان في بدايته ؟

محمد علاوة حاجي

طبعاً تضيف الجائزة للكاتب إذا لم يكن الجانب المعنوي على الأقل الجانب المادي. ممكن قيمتها المادية تريحه سنة أو سنتين ليسير أموره. رغم ذلك، بعض الكتاب يأخذون جوائز ولكن بعد ذلك ينتكرون لها ويقولون أنهم لم يكونوا بحاجة لهذه الجوائز. أعتقد إذا لم تكن الحاجة للجائزة والافتتاح بها لماذا المشاركة من الأصل. ليس هناك إجبار للمشاركة. تحدد الجائزة أحيانا خيارات القارئ وتختصر الطريق وكأنها قائمة صغيرة. ولكن ليس هذا دائما صحيحا لأن أحيانا تكون الجائزة مغلوطة. لا يمكن أن نتفق أن كل الأسماء التي أخذت جوائز هم كتاب جيدون.

حبيب السالمي

الحديث عن الجوائز موضوع طويل. فهي شيء جميل أعتقد أن أغلب الناس يتفقون في ذلك، لكن لا أتصور أن هناك كاتباً حقيقياً يكتب من أجل الجوائز. قد أكون مثاليا. قد يكيف الكاتب كتاباته حسب لجنة معينة.

الكاتب يكتب وقد يشارك في الجوائز وأنا لست ضد الجوائز. ولكن لا يجب أن يجعل منها شيئا أساسيا. إذا حصل عليها فها حبذا. الشيء الجميل في الجوائز كما قال الصديق هو الجانب المادي. الكاتب العربي ظروفه صعبة. هناك مؤخرا جوائز مهمة في الشرق العربي تكاثرت في السنوات الأخيرة ولها مبالغ محترمة. لا أتدخل في موضوع لجنة التحكيم وقضية الاستحقاق. أنا لا أدري إن كنت محظوظا أم لا، لأنني أصل مرتين للقائمة القصيرة للبوكر. كنت أول مغاربي يصل لهذه القائمة. طبعاً فرحت ولو لم أفز بالجائزة، فاز بها مصري ثم لبناني. لكن الشيء الأساسي عدا الربح المادي هو أن هذه المشاركات سمحت لكتبي أن تروج خاصة البوكر. يقال أن الجوائز الأخرى يبدو أن لا تأثير لها على التوزيع. ربما البوكر بدأت تنحدر، ولكن فعلا بعنا كثيرا. وطبعاً الناشر العربي لا يعطيك الأرقام الحقيقية لكن يعترف لك بطبعة ثالثة على الأقل ليس كما ما قبل.

سكينة حبيب الله

لا أختلف كثيرا عما قاله محمد حاجي وحبيب السالمي. لدي نفس الرؤية للجوائز. على الأقل تضمن القليل من الكفاف.

مريم لحلو

الأستاذ محمد، حبذا لو حدثتنا قليلا عن روايتك «في رواية أخرى».



محمد علاوة حاجي

«في رواية أخرى» صدرت في 2013 عن دار نشر جزائرية. كما ذكرت أصدرت مجموعة قصصية. هذه الرواية تحديدا لا أستطيع أن أحكيها. قال الأستاذ السالمي أنه لا يحب الرواية التي فيها تلاعب. هذه الرواية بالذات ليس فيها حبكة وخطة أحداث واضحة. لا أجد شيئا معينا أحكيه.

مريم لحلو

قصت التجريب. هناك تجريب في هذه الرواية.

محمد علاوة حاجي

نعم.

مريم لحلو

بالنسبة للغة الرواية، قرأت أنها كانت مختلفة، مكثفة لا تحتفل بالجمل الطويلة الإنشائية...

محمد علاوة حاجي

اللغة مسألة أساسية في أي نص أدبي. هذا سيأخذنا للغة الصحافة ودعيني أحكي لك هذه الحكاية. في الجزائر، عادة ما يقول الكتاب الصحفيون الذين أصبحوا يكتبون الرواية. وهذا وصف خاطئ، وكأنهم يتصورون أن مجموعة من الصحفيين قرروا فجأة أن يصيروا كتابا أو شعراء. هذا يجعل أنه ينظر إليك كمطفل. بالنسبة إلي، استفدت من الصحافة كثيرا في لغتها. تعلمك الصحافة أنه أي كلام غير ضروري يمكن الاستغناء عنه. ربما «في رواية أخرى» مارست هذا التقشف. ولكن في أعمالي الحالية التي أكتب فيها، أطبع الأوراق وأحذف الكلمات وأفقد في نهاية الأمر العديد من الكلمات والصفحات، ولكن أشعر أن العمل سيكون أجمل لأنه كلما نقصت الشرح كلما يبدو العمل أجمل من ناحية اللغة.

مريم لحلو

شكرا الأستاذ محمد على هذه الجولة في عالمك الإبداعي. الآن مسك الختام، سكينه حبيب الله، صاحبة الغارات الشعرية الجميلة... تمتلك لغة مؤثرة بالأناقة والتكثيف والبحث عن مكان الجمال، لذلك تراها تنتقي ملفوظاتها انتقاء ذكيا وتهندس نصوصها بتلقائية كبيرة. لها في الشعر ربع قرن من النظر، وفي الرواية لها «بيت القشلة». ربما نفس الأسئلة، نفس الهموم تتشاركونها أنتم الثلاثة. لا أظن أن هناك هجرة من الشعر للرواية ولكنها متزامنة عند سكينه، ثم جانب اللغة والتكثيف لاحظته في قصائدك القصيرة. إذن أعطيك الكلمة بدون إطالة.

سكينه حبيب الله

أريد أن أبدأ برد على الصديق محمد عندما تكلم عن الأدب الموريتاني والأدب الليبي وكيف أننا في المغرب العربي الذي أصبح يقتصر على ثلاثة دول نهتمش الأدب الموريتاني والليبي. في الحقيقة، لم نهتمش لأننا الآن صرنا نتعامل أكثر مع أرضية أكثر ديمقراطية وهي مواقع التواصل الاجتماعي «الفيسبوك» وأظن أنني بحثت عن كتابات موريتانيات في إطار بحث ما ولم أجد للأسف. ربما الأمور عندها علاقة بترسبات سياسية أكثر التي كانت تركز لطيف الواحد، فمثلا نحن في المغرب بشكل عام لا نعرف عن ليبيا سوى إبراهيم الكوني. لا نعرف شيئا عن الأسماء الشابة، هذه المعلومة لم تصلنا. رغم أن الفيسبوك أصبح خارج أية رقابة. بخصوص الكتابة المغاربية، هناك العديد من الأشياء المتشاركة تاريخيا وحتى على مستوى اللغة نتشارك ولكن رغم ذلك، كل أدب له خصوصياته. لا يمكن أن نتحدث عن أدب مغربي. في النهاية الطبيعة هي من تصنع كتابها. نحن في النهاية إفريقيون. هناك حرارة أكثر من المشرق.

في المغرب نكتب ربما بالنفس الروحانية. حين نتكلم عن المغرب نتحدث عن كتابتين: الكتابة بالعربية والكتابة بالفرنسية. بالنسبة للكتابة بالفرنسية، لن نتحدث على كونها لغة الاستعمار لأن في المغرب كان هناك استعمار إسباني في الشمال ورغم ذلك ليس هناك أي كاتب أو شاعر مغربي يكتب بالاسبانية. علاقتنا بالفرنسية هي أعمق. نحن عندما نتحدث الدارجة هناك كلمات فرنسية صارت جزء من لهجتنا، ليس لأننا نريد البقاء في هذه اللغة، فلغة المغاربة في الأصل ليست هي العربية. في رؤيتي الخاصة، الأدب المغربي تأثر أكثر بالأدب المشرقي وكان هذا خطأ كبيرا لأن الكلمات تتنفس هنا في المغرب، فيما المخيلة هناك في المشرق. فمثلا في الجزيرة العربية، الشعر الذي كتب فيها لا يمكن أن يعبر عن حالة شعورية للإنسان في المغرب. رأيت هذا بشكل واضح عند شاعرة جزائرية أصلها فرنسي «نا كريك»، كان لديها ديوان عنوانه «Alger, capitale d'Algérie».

حين ترجم في السبعينات كانت الترجمة الجزائرية «حلوتي» وترجمت القصائد عموديا وقتلت روح الشاعرة نفسها، ومؤخرا ترجم من طرف الشاعرة الجزائرية لميس السعيدى بروح الجزائر وأصبحت الجزائر عاصمتها الجزائر، وأصبح القارئ يشعر بما تريد الشاعرة أن توصله. حين أردنا الاجتثاث من التأثير المشرقي حصل لدينا تنوع كبير، فلم نعد كلنا نكتب نفس الأدب. كل كاتب وكل شاعر شق طريقه بنفسه. لا يمكن أن نجزم أن هذا شعر مغربي لأن كل شاعر لديه قطيعة خاصة مع شاعر آخر أو موروث آخر. أصبح لدينا تنوع. هذا التنوع بقدر ما هو يشئت بقدر ما هو غنى للأدب المغربي.

مريم لولو

أظنك تقصدين ثقافة الشاعر أو الكاتب بصفة عامة... في حديثك عن اللغة الفرنسية وتأثيرها لاحظت أن بعض الكتاب أصبحوا يكتبون أيضا بالانجليزية وليس فقط بالفرنسية، لأن كما قلت هناك غنى في المشارب.



سكينة حبيب الله

هناك بالفعل ليلي علمي تكتب بالانجليزية وكتاباتنا وصلت للائحة البوليتزر ونحن لا نعرفها هنا في المغرب. أؤكد ما قاله نجوان، هي تكتب بالانجليزية، لو كانت تكتب بالفرنسية ربما اعتبرناها منا، ولكن طالما تكتب بالانجليزية اعتبرناها كاتبة في أمريكا رغم أنها كتبت عن شخصية مغربية لم توف حقها وغنية جدا. قالت أنها اختارت الكتابة بالانجليزية. كان بإمكانها الكتابة بالفرنسية ولكنها لم ترد أن تؤكد التبعية لأنها مغربية.

مريم لولو

حدثنا عن تجربتك في الكتابة بصفة عامة في الشعر ثم في رواية «بيت القشلة» أيضا.

سكينة حبيب الله

الرواية تحدثت عن جيل من المغاربة وهم قلة لم يلق عليهم الضوء، ولدوا من أمهات فييتناميات وآباء مغاربة.

في حرب الهند الصينية، أخذت فرنسا بعض الجنود المغاربة ليحاربوا في الفيتنام. البعض منهم انشق حينما وصلهم خبر نفي فرنسا للملك محمد الخامس إلى مدغشقر وانضموا إلى قوات هوشيمين. فأصبوا كالمغضوب عليهم، منعوا من العودة للمغرب فعاشوا في الفيتنام وتزوجوا من فيتناميات وأنجبوا أطفالا نصف فيتناميين نصف مغاربة. لكن في السبعينيات تم العفو عنهم وطلب منهم العودة. حين عادوا للمغرب لم يندمجوا تماما. ظلوا في قرية صغيرة في بلدة لأنهم حوصروا نظرا لقدمهم من دولة لها فكر شيوعي. ظلوا في «كيتو». أنا أحكي عن رجل من هذه البيئة وعن صعوبة التأقلم في المغرب واضطراره إلى هجرة أخرى إلى فرنسا. ثلاثة أجيال تحكي قصة الاندماج الذي هو في النهاية تشظي لهوية المغاربة أنفسهم. نحن لا يمكن أن نقول أن لدينا هوية محددة.

مريم لعلو

وبالنسبة لتجربتك الشعرية وغازاتك الشعرية الجميلة القصيرة...

سكينة حبيب الله

لم أكتب قصائد قصيرة فقط. ربما تتابعيني على صفحتي بالفيسبوك، حيث أكتب قصائد قصيرة. لدي ثلاث كتب شعرية. «ربع قرن» وهو الكتاب الأول و«لا لزوم لك» و«خمس فراشات منزوعة الأجنحة». أستطيع القول أن كل القصائد التي كتبت تحت مشروع واحد وكأنها كتاب واحد وزع على ثلاث أو أربع سنوات.

مريم لعلو

هذه الإجابة كنت أود أن أطرحها على الأستاذ حبيب السالمي. حصيلتك الروائية هي عشر روايات وهل هي رواية واحدة أم هي فعلا عشر روايات ؟

حبيب السالمي

قبل أن أحيب عن هذا السؤال أريد العودة إلى قضية الأدب المغربي. عندما تحدثت عن الأدب المغربي داخل الأدب العربي، لم أتحدث عن شق الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية. هذا موضوع آخر طويل متعلق باللغة. تحدثت عن الكتاب المغربيين الذين يكتبون باللغة العربية وحضورهم وعلاقتهم بالأدب العربي الأم. دعينا نكون واضحين في هذا الأمر. سأقول شيئا ربما أصدم به البعض ولكن لا يهم. كتبت كثيرا في هذا الموضوع. الكاتب هو شخص، إنسان ولكن هو كاتب وهويته تتحدد من خلال اللغة. أقصد أن كاتباً عربياً كمواطن يعيش في عالم عربي ويكتب بلغة فرنسية هو في تقديري ينتمي للأدب الفرنسي. صحيح أنه مواطن عربي ولكن كتاباته ولو تلوّنت ونقلت مناخات عربية يظل في النهاية كاتباً فرنسياً ينتمي للأدب الفرنسي. اللغة شيء خطير جداً. عندما تغير اللغة، كل شيء يتغير. أنا شخصياً جربت هذا. عندما أكتب باللغة الفرنسية، هذه اللغة بما فيها من تاريخ وحضارة تحملني من معان وفوارق نوعية إلى حيث لا أريد أن أذهب، إلى مناطق أخرى لا أذهب إليها عندما أكتب باللغة العربية. هذا التعريف القائل أن اللغة هي مجرد وسيلة للتعبير هو في رأيي سخي جداً وضعيف. اللغة هي كل شيء، هي الفكر أصلاً. نحن نسكن العالم لغوياً. كل شيء يتغير بتغير اللغة. كل كلمة لها ماضٍ كامل، وهي كالحصاة عندما ترمى في البركة كلها دوائر. هذا يحملك إلى سياق آخر. هذا لا يعني بأن المغربي الذي يكتب باللغة الفرنسية يشبه تماماً الفرنسي الذي يكتب بالفرنسية ولكنه ينتمي إلى القوس الواسع الذي يسمى الأدب الفرنسي. الآن هل الروايات رواية واحدة ؟ أستطيع أن أقول نعم ولا. لأنها فعلاً صادرة عن ذات كاتبة واحدة لها حياة واحدة وإن تغيرت وتنوعت. في النهاية هي تصدر من لا وعيي وحياتي. فمن الطبيعي أن يكون هناك تقارب. وهذا ما يسمى العالم الروائي، أنا أخاف من هذه الكلمة.



الكاتب الأوروبي لا يطرح هذه الأسئلة، هو يكتب فقط ويكون حقيقيا مع ذاته لأن هذا العالم سيظهر من تلقاء نفسه. نحن في العالم العربي، لديه مشروع منذ البداية. كيف يكون لك مشروع وأنت بدأت في أول رواية وعمرك خمس وعشرون سنة. المشروع يتضح فيما بعد لأن الأعمال أيضا تضيء بعضها البعض. أحيانا الرواية الأولى قد تتخذ بعدا عندما تكتب الرواية السابعة أو تلك التي تليها. هناك تنافس في الإبداع. ليست هناك قواعد في الحقيقية، ونحن نميل أن هناك قواعد في حين أن عملية الإبداع هي عملية غامضة ونحن نحب هذا الغموض ومن حسن الحظ أنه غامض ويجب أن يكون غامضا. ممكن نصل إلى سؤال خطير : لماذا نكتب ؟ هناك إجابات عدة على هذا السؤال. صحيح لدي عالم ما ولكن هذا العالم يتشكل كما يقول النقاد وأنا داخله وقد لا أعيه إلى حد ما. ولكن النقاد يقولون إنني أميل إلى الاختصار. ناقد لبناني كتب عني مقال أعجبنى يقول : العالم الكبير في العالم الصغير. وهذا يعني أنني أذهب إلى الأشياء الكبرى من خلال التفاصيل الصغيرة. الرواية بالنسبة إلي ليست حكاية، هي ما وراء الحكاية. أختار حدثا أو اثنين وأنسج حولهما باستمرار وأحاول أن أولد حولهما حدا أقصى من الأفكار والأحاسيس والانطباعات والرؤى. مثلا في «عشاق بيّة» التي اشتهرت كثيرا نتحدث عن أربع شيوخ جالسين تحت زيتونة وهي أصلا شخصية، ويتحدثون عن حياتهم بين الحياة والموت ولكن اقترابهم من الموت يجعلهم يعودون للحياة، هم في قلب الحياة لأنهم كانت لديهم استيهامات حول امرأة. يمكن أن نتحدث كثيرا في مثل هذه المواضيع. في رواياتي، هو كتاب واحد ولكن متعدد.

سكينة حبيب الله

بخصوص قضية الكتابة باللغة الفرنسية، أريد أن أضيف أن هناك شيء اسمه لغة القلب. فإذا كانت لغة قلبك هي العربية فحين تكتب بالفرنسية لن تعبر عن نفسك. أتذكر حوارا للكاتب أنطونيو تابوكي، قال : «أنا بدأت الكتابة بالبرتغالية حين تسلمت هذه اللغة إلى أحلامي». حين كتب باللغة البرتغالية لم يكتب أدبا برتغاليا بل أدبا إيطاليا. الشيء نفسه بالنسبة لأتشبيبي الذي ظل كاتباً نيجيريا، لن نقول أنه كاتب أمريكي لأنه كتب بالانجليزية. نحن لدينا اللغة العربية، هناك من لديه لغات أخرى.

رئيس الجلسة : إدريس جعيدان
المشاركون : أحمد بوكوس، مهند تلماتين، كاثرين فيليبون
فضاء : أحمدو كوروما
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 15 : 11 - 12 : 45



موجز مداخلات المائدة المستديرة

تقيم هذه المائدة المستديرة مقارنة بين مؤلفين من مجالين مختلفين يتقاطعان في المحتوى ؛ وهذا اختيار جديد لم يجرب في أي من الموائد المستديرة التي سبق تنظيمها ضمن فعاليات المعرض المغربي للكتاب بوجدة. النص الأول هو رواية تحمل في طياتها فكرا وأطروحة وعنوانها «تراتيل تانيت الأسيرة» للباحث السوسيولوجي المرموق ومدير المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية أحمد بوكوس. أما النص الثاني، فهو مقالة جماعية بعنوان «المطالب الأمازيغية في دوامة الربيع العربي». شرحت مسؤولة التوثيق في مركز جاك بارك الأستاذة كاثرين فيليبون الهدف من تنظيم هذه المائدة المستديرة قبل أن تترك الكلمة للكاتب والفيلسوف المغربي إدريس جعيدان الذي سير النقاش. تكلم أحمد بوكوس عن معاناة المرأة الأمازيغية الأرملة المحرومة من أي حق في الإرث، خاصة عندما تكون من قرية أخرى غير قرية زوجها المتوفى. وقد اعتمد في كتابته نصه على تجربته الشخصية.

من ناحية أخرى، أبرز الكاتب الجانب المساوي في وضع الأم الأمازيغية وأطفالها على نحو يؤكد هشاشة وضع المرأة في العالم الأمازيغي. يحكي بوكوس في روايته حكاية تانيت، المرأة الأمازيغية الذكية والمتقفة والمناضلة التي اغتصبها مجموعة من السلفيين. قبل أن يصل القارئ إلى حل العقدة الروائية، سيتابع صراع تانيت ونضالها في سبيل تخطي ما أَلَم بها، معتمدة على أقاربها وعلى صمودها. وقد كانت القضية الأمازيغية تطفو على السطح كلما طرح بوكوس تيمة الإهانة. وقد أشار إلى أن القضية الأمازيغية عادت بقوة بسبب سياسية الكيل بمكيالين في باب حقوق الإنسان بالمغرب الكبير، وأنها بشكل ما، استفادت من الربيع العربي.



عملية ربط الرواية مع كتاب «المطالب الأمازيغية في دوامة الربيع العربي» قام بها الأستاذ مهند تلماتين، الذي ساهم في كتابة هذا المؤلف والإشراف عليه. عرض المتدخل نتائج دراسة أنجزت بتعاون من المجتمع المدني حول مجموعة من الحقائق والتواريخ والنصوص القانونية؛ وأكد أن النصين يسيران في نفس الاتجاه، وأن رواية بوكوس تناقش بشاعرية وأسلوب أدبي جميل مجموعة من المواضيع التي يشغل عليها باحثون من جامعة قادس حيث يعمل هو كباحث وأستاذ جامعي. وقد نفى المتدخل أي ارتباط بالطموحات الاستعمارية الفرنسية. كما أكد أن كتابات الباحثين الفرنسيين القديمة مازالت مهمة ويمكن اعتبارها «غنيمة حرب»، تماما كاللغة الفرنسية عند كتاب مغاربة من الرعيل الأول حسب الجزائري كاتب ياسين. وهذا الوضع يحررهما، في تصورهما، من أي عقد اتجاه نصوص الفرنسي ولغته وثقافته. ومن ناحية أخرى، بين المتدخل أن المواقف ومسارات النضال ليست واحدة وأنها تختلف من بلد إلى آخر وأنها مرشحة للتطور في المستقبل. وهذين المؤلفين مساهمة في هذا التطور.

مداخلات المائدة المستديرة

إدريس جعيدان

مرحبا بكم جميعا في هذه المائدة المستديرة التي نطمح من خلالها إلى تقديم كتابين متقاطعين في المحتوى هما «المطالب الأمازيغية في دوامة الربيع العربي» ورواية «تراتيل تانيت الأسيرة». نحن اليوم نجرب شيئا جديدا لم يسبقنا إليه أحد في كل الموائد المستديرة التي نظمت ضمن فعاليات المعرض المغاربي للكتاب بوجدة، لذا ستقدم لنا الأستاذة كاثرين الخطوط العريضة واتجاه النقاش كي نحصل على أفضل النتائج الممكنة.

كاثرين فيليبون

مرحبا بالجميع ؛ أنا مكلفة بمهمة في مركز جاك بارك للدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية بالرباط. وأنا سعيدة بتدشين سلسلة من الموائد المستديرة التي ستقدم وتناقش بين مؤلفين اثنين يتقاطعان في محتوى معين، علما أن مجموعة من إصدارات المركز ستقدم في هذه الجلسات. أشكر الأستاذ إدريس جعيدان، الكاتب الموهوب، على قبوله تفسير هذا التقديم المزدوج الذي، رغم أنه قد يبدو اعتباطيا وغير مدروس في الوهلة الأولى، سنرى من خلاله أن تمرين التقارب والتواصل مفيد جدا ؛ ومن أفضل من الكتاب والمثقفين لفعل ذلك ؟ أتوجه بالشكر أيضا إلى الكاتب مهند تلماتين القادم إلينا مباشرة من مدينة قادس الإسبانية حيث يشغل أستاذا جامعيًا. ساهم الأستاذ الفاضل في كتابة وتنسيق «المطالب الأمازيغية في دوامة الربيع العربي».

وأشكر أيضا الباحث السوسيولوجي المرموق ومدير المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية أحمد بوكوس، مؤلف رواية «تراتيل تانيت الأسيرة» الصادرة عن دار النشر «ملتقى الطرق». حاولنا خرق الحدود المفاهيمية عند التحضير لهذه الجلسة، ومبررنا في ذلك هو سعينا إلى إبراز المشترك بين النصين بعيدا عن النظم الفكرية وأساليب الكتابة المتباينة والمعارف والمواقف. وأنا أعتقد أن كل مبدع يكون في لحظة معينة باحثا بالدرجة الأولى قبل أن يبدأ الحكيم ؛ تماما كما يفعل الباحث الاجتماعي عندما يتقفى أثر الحقيقة ويكشف الأمراض المجتمعية ويحللها كي يخرج منها بفهم ونتائج يكتبها في نص ينشره بهدف التنوير ولفت الانتباه لما يقع في المجتمع. ونحن في مركز جاك بارك، أسسنا ورشة أسميناها «العلوم الاجتماعية من خلال الأشكال الفنية»، على أمل أن يساهم هذا المجهود في تحريرنا من النزعة الانفصالية والانعزالية التي تخلق مسافة بين الفن والبحث العلمي.

والغاية هي مناقشة قضايا العلوم الاجتماعية بطريقة جديدة نستثمر فيها رؤى وأدوات فنانين من مختلف الأشكال الإبداعية. والتحدي الذي نريد رفعه من خلال هذا النقاش هو الوقوف على إضاءات جديدة بخصوص الواقع الاجتماعي بالمغرب. وفي نفس الفترة التي قدم فيها المركز عرضا حول العلوم الاجتماعية بعنوان «فن وروايات»، تم الإعلان عن مشروع جديد هدفه الانكباب على مفهوم الحدود وقضايا حرية الحركة والتنقل في الفضاء. وقد أطلقه كل من الأستاذة العزيزة فاطمة المرينسي ومنظمة اليونيسكو. وتوجد في وثيقة الإعلان عن هذا المشروع فقرة لها علاقة قوية جدا بما نريد فعله اليوم : «إثراء المعارف من خلال الجمع بين الفن والبحث العلمي».

والهدف العام هو خلق روابط بين الممارسات الفنية المعاصرة والبحث الأكاديمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية وبلورة مقاربات مبدعة قادرة على دراسة الظواهر الثقافية المعاصرة. فقط كإشارة أخيرة، كتاب «المطالب الأمازيغية» غير متوفر في المكتبات المغربية، ويمكن الحصول عليه من منصة «OpenEditions Books» الإلكترونية.

إدريس جعيدان

شكرا لك كاترين ؛ أيها السيدات والسادة الكرام مرحبا بكم مرة أخرى في هذه المائدة المستديرة. الكتاب الأول هو رواية الأستاذ أحمد بوكوس «تراتيل تانيت الأسيرة» ؛ وهي روايته الأولى. في الحقيقة، هناك أشياء كثيرة يمكن قولها بخصوص هذا النص الرحب الذي يناقش الكثير من القضايا. وفقط كتوضيح قبل أن أواصل، أنا لا أحضر اليوم بصفتي ناقدا أدبيا. فنقاشي لن يتطرق إلى الأسلوب وأي جوانب أدبية أخرى. ما سنحاول فعله جميعا هو البحث عن أوجه الشبه بين النصين : وهي موجودة بلا شك. ولكن هذا لا يمنع من أن أبدي رأيي كأبي قارئ آخر، وأن أقول إنني عندما أقرأ كتابات الأستاذ أحمد، غالبا ما أشعر بإغراء وإعجاب كبيرين. وأنا أقول هذا الكلام بجدية تامة. توجد في الرواية عوالم خارقة تمتد في الزمن من اليونان القديمة إلى عصر الحداثة المطبوع بالبصمة الأوروبية-الأمريكية. وإذا كان أي واحد منكم يريد قراءة كتاب ينضج بالتاريخ والثقافة والمراجع... فأنتم الآن تعرفون أين تجدون ضالتكم. لقد تدبرت في هذه الرواية ولخصتها، فوجدت أنه علاوة على ما فيها من نفيس مخفي، فهي تضيق بالكثير من المواقف والمطالب المعبر عنها بلغة واضحة وبكل شجاعة. وسوف نتطرق خلال النقاش إلى هذه المواقف والمطالب. أما بطلان الرواية تانيت، فهي امرأة مثقفة وذكية وأكاديمية من الطراز الرفيع تتحدث لغات عدة وتعيش في عالمها الخاص الكوني. هذه المرأة الشابة يلاحقها صوت يتهمها بكونها امرأة حرة وذكية ومتعلمة وبكونها تتعاطى ممارسات شيطانية، فقط لأنها تدرس وتنشر المعرفة وفقط لأنها امرأة حرة ومتعلمة. مع تقدمنا في النص، تطرح تانيت في عالمها الداخلي نقاشات حول قضايا المرأة وحقوقها... لكنها في لحظة معينة تتعرض لحادث مفعج : مجموعة من السلفيين يغتصبونها في جنح الظلام.

نحن بصدد رواية حول قيم المقاومة والصمود المسددة في مواجهة تانيت آثار هذا الحدث التراجيدي على جسدها وقليلها مدعومة في ذلك بأصدقاء من أيام الجامعة. بعد ذلك، ستقرر تانيت الالتحاق بهؤلاء الأصدقاء. لقد سافرت إلى كندا ؛ وهي تسافر كثيرا. ثم تتطور الأحداث رويدا رويدا. ومع مرور الوقت ستجد تانيت في رفيقها أمين الدعم والحب الكافي كي تتجاوز ماضيها الأليم. أما نهاية القصة فكلها أمل. رغم أن القصة تضمنت لحظات غضب وألم قوية، فقد كانت النهاية سعيدة. وهذا لا يعني أننا بصدد قصة من قصص الخيال الحالم الجميل حيث تكون النهايات وردية دائما. «تراتيل تانيت الأسيرة» رواية تتضمن لحظات من الشجاعة أيضا، حتى يكاد الواحد منا يقول جازما إن بعض مقاطعها مقالات رأي صريحة حول القضية الأمازيغية. في نظركم، هل هذا كافي كي نعتبر «تراتيل تانيت الأسيرة» رواية فكرية ؟ على كل حال، ما نعرفه بلا شك هو أن الرواية فيها البعد الفكري.

الكتاب الثاني الذي سنناقشه اليوم هو «المطالب الأمازيغية في دوامة الربيع العربي» وهو كتاب جماعي نسقه كل من مهند تلماتين الحاضر معنا اليوم وتيري ديري. كثيرة هي النصوص البحثية التي تطرح رؤى متقاطعة تهتم في الوقت نفسه بمسارات تاريخية وأخرى حديثة في مطالب الحركة الأمازيغية بالجزائر والمغرب وتونس وليبيا. عندما اندلعت شرارة «الربيع العربي» سنة 2011، عادت القضية الأمازيغية بقوة إلى الساحة في البلدان المغاربية. وقد كتبت نصوص بديعة تتكلم عن طبيعة علاقة الأمازيغية بالأنظمة الدكتاتورية والعالم العربي وعن بعدها الأخلاقي القيمي المتعلق بالعدالة وحقوق الإنسان كما نص عليها الإعلان العالمي. والآن بعد أن حددنا الإطار العام لهذه المائدة المستديرة، أنوجه إلى الأستاذ بوكوس وأقول له إنك بدأت تمرينا ليس بالسهل أبدا. وبطبيعة الحال، كل واحد من المتدخلين له تجاربه الحياتية الخاصة. لو أمكنكم أستاذ بوكوس، أتمنى أن نبدأ بقضية المرأة التي طرحت من خلال بطلان روياتك تانيت.

أحمد بوكوس

شكرا على هذا التقديم، وشكرا على محاولة تجريب هذا النوع الجديد من الموائد المستديرة. لطالما تعاملت مع قضية المرأة بحساسية واهتمام خاص منذ كنت طفلا صغيرا.

هذه القضية تعني لي الكثير، خاصة أنها تذكرني بالظروف الصعبة التي عاشتها أُمِّي الأرملة - مات أبي في حادث على الطريق - بعد أن شردتها أسرة زوجها. منذ اليوم الموالي لموت والدي، افتُحمت عليها دارها هي وأولادها وجنيها. «أنت لا تنتمين إلى قريتنا، أنت لا تنتمين إلى قبيلتنا ؛ أنت تنتمين إلى قبيلة أخرى على الجانب الآخر من الجبل ؛ هيا التحقي بأهلك»، هذا ما قاله عمي لأُمِّي. وبالفعل، تم طردها وإخراجها من دارها دون موجب حق. لقد تشردنا جميعا. ولم يعد لنا الحق في أي شيء وإن تركه لنا والدنا. لم يكن أمام والدتي حل آخر سوى أن ترسل في طلب أمها. جاءت جدتي على ظهر حمار، فتبعناها إلى قريتها حيث لقينا المعاملة السيئة مرة أخرى. فقد سمعت أُمِّي من أخ لها كلاما جارحا : «ما الذي جاء بك إلى هنا ؛ هذا المنزل لم يعد بيتك. لا مكان لك بيننا. عودي إلى أسرة زوجك». لقد نبذنا مرة أخرى. قصة كهذه كان لابد أن تترك أثرها في شخصيتي. قصة أُمِّي هي قصة النساء في دنيا الأمازيغ. وإن قال لكم قائل إن وضع المرأة الأمازيغية جيد، فهو لا يقول الصدق.



إدريس جعيدان

سأقرأ لكم مقطعاً صغيراً من الرواية : «واضح أنك لا تعرفين الرجال. إحدى صديقاتي أرغمت على العودة للبلد، بعد عشر سنوات من الزواج، عشر سنوات من الأشغال الشاقة والتضحية من أجل لا شيء. لم يكن لديها سنتيم واحد. أما السيد زوجها، فقد تزوج فتاة من المدينة شغفته حباً ووضعت يديها في جيبه : لقد أذهبت عقله. وبعد سنتين من الزواج، أفلس وأغلق محله التجاري وأصبح يعمل عند الآخرين. لا نعرف ما تخبئه لنا الحياة.» ألا تتفق معي أستاذ بوكوس أن هذا المقطع يعكس ضعف المرأة وقلة حيلتها ؟

أحمد بوكوس

أنتفق معك ؛ هذا واقع المرأة. يجب أن ننتبه دائماً إلى العمق الاجتماعي والوجداني والعاطفي عند الشخصية الرئيسية. عندما نفعل هذا، سنجد أن تانيت شخصية بهوية متعددة. فهي من أصول أمازيغية بلا شك مع نفس عربي بسيط. وسيرى القارئ أن تانيت وهي في القرية كانت تحاول التوفيق بين مكونات هويتها بالعمل على خلق أكبر قدر ممكن من التجانس بين العناصر المتنافرة في هويتها التعددية. نقطة مهمة أخرى تجب الإشارة إليها هي أن تانيت لا تتكلم الأمازيغية نهائياً.

إننا نتحدث عن امرأة تعمل على تحسين ظروف عيش النساء. وهي تقوم بذلك وفق تصور كوني يتجاوز الطائفة والمجتمع. بشكل عام، تانيت امرأة منخرطة في النضال الاجتماعي والسياسي الهادف إلى خدمة قضايا المرأة.

إدريس جعيدان

صراحة أستاذ بوكوس، في روايتك شيء ما يلمس قلب القارئ مباشرة. شخصية تانيت ترسخ فينا احتراما كبير لذكاء المرأة. أستاذ مهند تلماتين، هل لك أن تخبرنا في البداية عن الدافع وراء إصدار كتاب «المطالب الأمازيغية في دوامة الربيع العربي»؟

مهند تلماتين

أشكر المنظمين على الدعوة الكريمة ومنحي فرصة تقديم كتاب «المطالب الأمازيغية في دوامة الربيع العربي» ضمن فعاليات المعرض المغاربي للكتاب بوجدة. هذه ليست المائدة المستديرة الوحيدة التي ناقشت قضايا متعلقة بالثقافة الأمازيغية والإنسان الأمازيغي ؛ فقد برمج المنظمون مائدتين مستديرتين في هذا الباب. وبلا شك أنا سعيد جدا أن أرى الحضور الأمازيغي يتعزز يوما بعد يوم في فضاءات مختلفة. وأومن أن الطريق مازال طويلا، لكن أنا على يقين أن الدورات القادمة من هذا المعرض ستشهد حضور أقوى للإنتاجات الأمازيغية. من المهم أيضا أن نقول إن القضية الأمازيغية لم يكن لها وجود عند مجموعة من المفكرين في سبعينيات القرن الماضي لأنهم اختزلوا المسألة في اختلافات لغوية رأوا أنها ليست كافية لبناء هوية أمازيغية أو قيام حركة ثقافية أمازيغية، خاصة في منطقة يسطير فيها الفكر الإسلامي.

بلا شك، أنا مسرور بتقاسم هذه المائدة المستديرة مع كل المشاركين، وعلى رأسهم الأستاذ أحمد بوكوس - نحن نعرف بعضنا منذ ثلاثين سنة قبل الآن - الذي أكتشفه اليوم في ثوب الروائي. لم أتوصل بالرواية حتى الساعة، لكنني حصلت على النسخة الرقمية. وفي الحقيقة، فكرة مقابلة ومقارنة كتابين من مجالين معرفيين مختلفين ينقاطعان في الموضوع فكرة الملية حقا. أكثر من ذلك، أرى أن هذه الرواية تحمل الكثير من المشاحنات وتقدم لنا تلخيصا أدبيا لواقع المطالب الأمازيغية ببلدان شمال أفريقيا و - مهم جدا - المسارات المختلفة المتبعة في البلدان حيث يعيش الناطقون بالأمازيغية. الكتاب يعبرون عن هذا الواقع وتلك المسارات بوضوح. والوضعيات تختلف من بلد إلى آخر ؛ فالوضع في المغرب ليس كالوضع في الجزائر أو تونس أو ليبيا أو مصر والعكس صحيح. وقد خضعت المسارات المتبعة في كل بلد للدراسة من قبل باحثين كثر من مناطق مختلفة وبلدان مختلفة. زيادة على هذا، عندنا منظور ودراسات الباحثين الأجانب، ومن ذلك البحث الذي أجراه مركز جاك بارك الحاضر معنا اليوم ويحث دكتوراه بجامعة قانس عنوانه «ظروف حرمان المرأة القبايلية من الإرث».

في منطقة القبائل الجزائرية، لا حق للمرأة في الإرث. وبالتالي المرأة القبايلية لا يمكنها حتى التفكير في حق الإرث الذي نفاه واقعها وسياقها. وتعلمون أن الإسلام أعطى المرأة نصف ما ترك زوجها. لكن قبائل منطقة القبائل اتفقت سنة 1749، أي قبل الثورة الفرنسية بسنوات، على ميثاق مكتوب يقضي المرأة من أي تركة. وهذا النص مهم لاعتبارين اثنين : أولا، كتب نص الميثاق باللغة العربية التي ليست لغة أهل القبائل ووقعه شخصيات دينية في سياق تغلب عليه الثقافة الشفهية وطبقت بنوده في منطقة أهلها ناطقون باللغة الأمازيغية. ثانيا، تأثر شمال إفريقيا الحالية سلبيا بتطبيق أنظمة قانونية مختلفة في الماضي : العرف والقانون البربري التقليدي والقانون الجنائي. فبعد الاستقلال، تداخلت هذه القوانين في حدود بعضها البعض وأصبح الوضع معقدا. وهذا يأخذني للحديث عن قضية المرأة. في الواقع، ليس من السهل بتاتا الحديث في هذا الموضوع، لأنه رغم كل شيء هناك بعض التحسن. فقد تشكلت جمعيات تعنى بقضايا المرأة في كل بلدان شمال إفريقيا منذ سنوات، الآن ورغم أن هنالك جمعيات قوية، فنحن لا نتحدث عنها كفاية لا في أوروبا ولا في شمال إفريقيا. تخوض النساء الناشطات في هذه الجمعيات نضالا مستمرا على جبهات مختلفة : حق المرأة في الإرث وحقوق المرأة الأساسية وقضية النوع... ألا يمكننا تفسير قرار القبائل القاضي باستثناء المرأة من التركة بحرصهم على وحدة أراضيهم وعدم تميزيها، قد يقول البعض محاولا تفسير الوضع. وهنا لابد من الحيطة والحذر في التفسيرات التي نقدمها.

هذا من بين الصعوبات التي تكلم عنها بحث الدكتوراه المشار إليه، أي صعوبة تبني مقاربات وتصورات تنتمي للعصر الحالي في دراسة قضية تندرج ضمن سياق يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر. بمعنى أنه من الصعب النظر في قضية المرأة من خلال نظرية النوع كما هي معرفة اليوم، لأن الوضع خلال القرن الثامن عشر مختلفا تماما. بلا شك، إجراء دراسة بهذا الشكل، أمر ممكن، لكن لابد من اتخاذ احتياطات عدة، لأن استثناء المرأة القبائلية من الإرث له تفسيرات مختلفة منها الاجتماعي والأنثروبولوجي والاقتصادي... يجب أن يعرف الباحث الكثير من المعلومات وأولها أن الأراضي في مناطق القبائل أراضي جموع. أي أن أهل القبائل كانوا يحرمون الزوجات المنتميات إلى قبائل أو مناطق أخرى من الإرث بهدف المحافظة على أراضيهم المشتركة بينهم بحيث لا تخرج ملكية أي شبر من بين أيديهم، لأن عكس ذلك يعني تمزق القبيلة وانفراط عقدها ودخولها في الكثير من المشاكل الاجتماعية. نقطة مهمة أخرى سأختم بها تتعلق بما يسمى «الربيع العربي»؛ وقد تلقيت هذه الملاحظة من قبل أحد الأشخاص في إحدى المقاهي الأدبية. بلا شك، أنتم تعرفون أن مناضلي الحركة الثقافية الأمازيغية يرفضون عبارة «الربيع العربي»؛ فهم يشعرون أن هذه التسمية تلغيهم تماما من الوجود وتلغي الأدوار التي يلعبها عدد منهم في النضال التحرري.

إدريس جعيدان

أجد أن هناك علاقة شبه عضوية بين الكتابين في الجانب المتعلق بحقوق الإنسان، كمبدأ كوني. لم تتأخر أنت وتيري في الإشارة إلى البند 13 من الإعلان العالمي لحقوق الشعوب الأصلية الذي يقول: «لشعوب الأصلية الحق في إحياء واستخدام وتطوير تاريخها ولغاتها وتقاليدها الشفوية وفلسفاتها ونظمها الكتابية وآدابها ونقلها إلى أجيالها المقبلة، وفي تسمية المجتمعات المحلية والأماكن والأشخاص بأسمائها الخاصة والاحتفاظ بها. على الدول أن تتخذ تدابير فعالة لضمان حماية هذا الحق وكذلك لضمان إمكانية فهم الشعوب الأصلية للإجراءات السياسية والقانونية والإدارية، وضمان تفهم وضعهم في تلك الإجراءات، حتى لو استلزم ذلك توفير الترجمة الشفوية أو وسائل أخرى ملائمة». هل لك أن تبين لنا وجه الترابط الوثيق بين حقوق الإنسان والأمازيغية في هذه المعركة النضالية؟ هل نحن بصدد مسار سياسي وفكري، أم أننا بصدد شيء سابق الوجود له حضور قوي في الثقافة نفسها تعبر عنه عبارة «الحكّرة» التي كانت السبب الرئيسي في بداية أحداث «الربيع العربي»؟ بالنسبة إليك أستاذ بوكوس، الجهد النضالي يلبس لبوسا أدبيا، فبطلة الرواية مناضلة حقوقية تمارس فعل الاستقطاب.

أحمد بوكوس

كان هدفي هو كتابة رواية وليس مقالة. يمكننا تقسيم تاريخ المطالب الأمازيغية إلى ثلاث مراحل: أولا، مرحلة ما يسمى الوعي المادي. ولقد هاجر القرويون الأمازيغ المتضررون من حالة الفوضى في الاقتصاد التقليدي إلى المدن حيث اشتغل بعضهم كعمال والبعض الآخر كجنود... وأول شعور اختبره هؤلاء المهاجرون هو شعور العيش في بيئة عدائية. لقد عانوا فعلا من التهمك والسخرية (الشلح، الشليح، الكريوز) والمضايقات لدرجة أنهم أصبحوا يضعون مغربيتهم موضع السؤال والشك؟ لا ريب أن الأمازيغ مغاربة؛ ولا ريب أنهم قاوموا العدو وساهموا في تحرير الوطن. بل لقد كانوا في طليعة المقاومين والرافضين لأي شكل من أشكال مهادنة المستعمر. لقد حاربوا في الريف وجبال الأطلس المتوسط والجنوب الشرقي وسوس كمغاربة مسلمين. لكنهم بعد الاستقلال وجدوا أنفسهم في مجال حضري يهيمشهم ويتهمك عليهم كي لا نقول شيء آخر. هذا هو المستوى الأول من الوعي. أما في المستوى الثاني من الوعي فقد كان للأمازيغ دور ليلعبوه. في جيش التحرير الوطني، كانت مهمة تفجير القنابل والأعمال الشاقة مسجلة باسم القرويين الأمازيغ الناطقين بالعربية والأمازيغية.

لكن بعد التحرر، تم استثناء هؤلاء من المشاركة في فرحة انتزاع الاستقلال، لأن هذا الأخير استحوذت عليه البورجوازية الحضرية المتمدنة والإصلاحية... التي وصلت إلى السلطة. أما القرويون الذين ألقوا بأنفسهم في الأخطار فلم تتحسن ظروفهم المعيشية.

المرحلة الثالثة في وعي الإنسان الأمازيغي المغربي تتعلق بظهور نخبة مثقفة أمازيغية فنية قوامها المعلمون والأساتذة والمحامون والموظفون... الذين وعوا بمغربييتهم ولكنهم وعوا أيضا باختلافهم. فبدأت مجموعة من الأصوات تنادي بجملة من المطالب وأسست جمعية تلتها جمعيات أخرى كثيرة كلها بدأت ترفع تلك المطالب. وحتى طرق وأشكال طرح القضية الأمازيغية عرفت تطورا؛ الطرح في البدايات الأولى كان محصورا فيما هو ثقافي؛ فقد كان المناضلون يسعون إلى نيل الاعتراف بالثقافة الأمازيغية؛ أراد الناس أن يرقصوا رقصة أحيديوس أينما كانوا وأن يستمعوا إلى أغاني رويشة والحاج بلعيد أينما كانوا... مع مرور الوقت، تطورت هذه المطالب إلى مطالب سياسية صرفة. ومع توالي خيبات الأمل - من الحركة الوطنية نفسها والأحزاب اليسارية التي كان يفترض فيها تبني هذه القضية - أصبحت المطالب مرتبطة بحقوق الإنسان. هذا باختصار هو تاريخ الحركة الأمازيغية. نحن نطالب بالاعتراف باختلافنا؛ نريد المحافظة على اختلافنا من داخل إطار الهوية الموسعة. والبعض ذهب أبعد من ذلك، وأصبح يماهي بين الحقوق الثقافية الأمازيغية وحقوق الإنسان العالمية.

إدريس جعيدان

هل تتفق أستاذ تلمتين مع الرأي الذي يقول إن جميع التكتلات النضالية والأقليات الساعية إلى نيل حق ما أصبحت توظف حقوق الإنسان؟ هل هذا أمر ضروري، حتى إنه صعب من حيث المضمون، أن يقول الواحد منا إنه كيان أمازيغي خالص أو عربي خالص له قضية واحدة حدودها واضحة؟ هل نحن نتحدث عن حتمية لا مفر منها أم ماذا بالضبط؟

مهند تلمتين

كل ما في الأمر هو أن لنا مرجعيات عامة مشتركة نقودنا إلى تبني نفس وجهة النظر، سواء في كتابي أو في رواية الأستاذ بوكوس. مرجعياتنا هي القانون وحقوق الإنسان والفرد... وأعتقد أن هذا واضح في الكتابين معا. في الواقع، عندنا نموذجين اجتماعيين، كما قال الكاتب الراحل الطاهر جعوط، الذي اغتالته الجماعة الإسلامية المقاتلة سنة 1993: «لا يوجد سوى عائلتين: العائلة التي تتقدم والعائلة التي تتأخر». نحن اليوم عندنا نفس الوضع الذي وصفه جعوط. في كتاب الأستاذ بوكوس نقف على هذا الوضع من خلال مسار ثانيت. أما في كتابنا، فنقف على نفس الوضع مع الجمعيات والتكتلات التي بنت هويتها على الانتماء الأمازيغي وتطالب بحرية التعبير والحق في الحياة الكريمة... وبالتالي فأوجه الشبه بين النصين واضحة للغاية. بالنسبة لبطل الرواية، أفترض أن اختيار اسم ثانيت ليس اعتباطيا. توجد في منطقة القبائل أسطورة إلهة تجسد الأم الإفريقية والأم النشيطة غير الخاضعة لأي أحد... وهي أسطورة نجدها في الثقافة المتوسطية. هذه المرأة الشابة تواجه مجموعة من الأفكار والتصورات المحافظة في بيئة عدائية، ثم تتعرض لاعتداءات وحشي: بالنسبة إلي هذه القصة مثال بسيط على معاناة أهل منطقة القبائل من الاعتداءات الشنيعة التي يتعرضون لها. خلال أحداث سنة 2001، قتل الجيش الجزائري مائة وسبعة وعشرين وأصاب آلاف الشباب من أبناء المنطقة. ولا شيء تغير، بل استمرت الاعتداءات. وضعية أخرى مهمة برزت في الرواية هي الأمل الذي صنعه البطله بنضالها من أجل استرجاع حقها وكرامتها عبر العدالة. نقطة أخرى أريد الإشارة إليها: لقد تشكل الوعي الأمازيغي رغم كل العراقيل - لكم أن تتصوروا منها ما تشاؤون - التي تفصلنا عن تحقيق أهداف الحركة الثقافية الأمازيغية، فنحن نتقدم. الرواية والكتاب عندهما «عدو» مشترك هو السلفية والسلفيون. في الواقع، هم أعداء الحقيقة بالدرجة الأولى.

الجميع يعرف أن الحركة الأمازيغية تستمد مبادئها وأفكارها حول الحرية الدينية والتعددية اللغوية والحرية الشخصية من العلمانية. وعليه، يمكن القول إن المرجعيات الثقافية والسياسية والفكرية الأمازيغية هي نفسها عند كل الأمازيغ.

سافرت مؤخرا إلى الولايات المتحدة، وفي الطريق خطرت لي فكرة مقارنة النصين، فخرجت بخلاصة مفادها أن بإمكانني أن أجد لكل فقرة من كتابي أو فقرة أو جملة تقابلها في رواية الأستاذ بوكوس. أولا في المقدمة، كلانا نقول بوضوح أننا مهتمون بمسارات معينة ونشدد على اختلاف الوضعيات باختلاف البلدان. وهناك توازي واضح في المضمون على مستوى الجزء الثاني، حيث، مثلا، ناقش كل بطريقته الانتماء الأمازيغي في الزمن والتاريخ. وهذه إضاءة أخرى تبين أن المرجعيات هي نفسها واضحة تماما. ويستمر هذا الترابط مع الرواية في الفصل الثالث الذي اخترنا له عنوان : «الانتماء الأمازيغي من خلال الزمن العالمي : التطورات الأخيرة في الحركات الهوياتية». الفعل النضالي حاضر وفعال ؛ وتأتي بعد أن خرجت من أزمته تريد مساعدة الآخرين على الخروج من أزماتهم.

لقد ركزت في الفصل الذي وضعت له عنوان «مطالب لغوية في مشاريع الحكم الذاتي : حالة القبائل» على تحليل تطور مطالب الشعب القبائلي، التي انتقلت من مطلب الاعتراف بالثقافة واللغة الأمازيغية فقط إلى مطلب الحكم الذاتي. هذا يبين أن المسارات مختلفة وأن النضالات متنوعة - فردية وجماعية - وأن المسألة في آخر المطاف مسألة مقاومة ودفاع عن الحق في الوجود. وفي الرواية، نالت تانيث الاعتراف، لكنها نالته بعد الألم والمعاناة. لا أعرف كم من مرة ذهبت إلى المحكمة كي تدافع وتتاضل وتقاوم وتنال الاعتراف. نفس الشيء يمكن أن يقال عن الحركة الثقافية الأمازيغية. حتى في الفصل الأخير من كتابنا الذي وضعنا له عنوان «الانتماء الأمازيغي والنضالية بين-وطنية»، بينا أن الحركة الأمازيغية لم تكن منعزلة. فقد مكنتها التواصل الدائم مع الجالية المقيمة في الخارج من تحقيق عدة أشياء، في مقدمتها بناء شبكة دولية تدعم القضية الأمازيغية.

إدريس جعيدان

أرجو منكما أن تحدثا عن العلاقة بفرنسا والثقافة الفرنسية. على المستوى الجمعي، بلا شك هناك علاقة مع المستعمر القديم، أي فرنسا. و بلا شك، سنة 1830 مختلفة عما عداها من السنين. نبدأ بالأستاذ أحمد بوكوس.

أحمد بوكوس

علاقة تانيث مع اللغة والثقافة الفرنسية فيها أبعاد مختلفة. فهي مكونة تكوينا فرنكوفونيا ؛ وعندها علاقة تعاطف وصداقة قوية مع زملائها الفرنسيين وزميلاتها الفرنسيات. بل تشعر أن اللغة والثقافة الفرنسييتين جزء من بيئتها الطبيعية. لكن من ناحية أخرى، تصاب تانيث بذهول وصدمة جراء حالة عدم الفهم والتفهم من الآخر. ثم بعد ذلك، تجد التعاطف والإنسانية والحب في رفيقها. في الحقيقة، إنه الغموض في العلاقة الموجود في الواقع. إذ نجد أن الكثير من الناس اليوم يمكنهم التحدث بلغتهم الأم حيث يعيشون، لكنهم يفضلون استعمال الفرنسية في محادثة أبنائهم المتدربين في مدرسة فرنسية ضمن فضاء حضري فرنكوفوني. إنهم يشعرون بذواتهم في اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية. وهذا يؤكد وجود حالة التناقض. أريد أن أقدم وجهة نظري كباحث في اللسانيات واللسانيات الاجتماعية ؛ النصوص الأولى التي ناقشت اللغة والأب والثقافة الأمازيغية كتبها باحثون أجانب خلال الفترة الاستعمارية. وقد جُمعت المواد التي تمت دراستها خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من قبل المبشرين والعسكريين والباحثين الأكاديميين. الباحثون المغاربة والجزائريون سعداء جدا بالاشتغال على هذه النصوص التي تعتبر بنك معلومات يمكن استثماره في إنجاز أبحاث جديدة. وقد تقدم الباحثون اليوم خطوات إلى الأمام.

قد يقول البعض إن علينا التخلص من هذه النصوص لأنها تنتمي إلى الحقبة الاستعمارية ولأنها كتبت من طرف الأجنبي الذي يعبر عن أيديولوجيا المستعمر. أقول لهؤلاء : لا نفكر نحن أصحاب هذا الموروث كما تفكرون.

إدريس جعيدان

هناك الكثير من الأشياء التي يمكن قولها.

مهند تلماتين

تماما : أريد الحديث عن مفهوم اللاعنف المعبر عن حالة متحررة من أي عقد اتجاه اللغة والثقافة الفرنسية. وهنا أستمحضر الروائي الجزائري كاتب ياسين الذي تحدث عن اللغة الفرنسية «كغنيمة حرب». أنا أتفق مع هذا الرأي تماما، لأنني أرفض هذه المعارضة التي تدين من يتكلم لغة المستعمر. هذا طرح قديم تجاوزته التاريخ ؛ وتلك «اللغة الغنيمة». ونحن نتحدث عن قيم كونية لا تقتصر على فرنسا. لكن من ناحية أخرى، نحن لسنا بلاء. فنحن نعرف أن فرنسا، وأعني الحكومة الفرنسية لن تتدخل لصالح الأمازيغ. فالحكومات الأوروبية تراهن على حكومات فاسدة يسهل السيطرة عليها والحصول من خلالها على أكبر قدر ممكن من المصالح الاقتصادية، ولا تراهن على حركات تتبنى الفكر الديمقراطي.

إدريس جعيدان

قبل الختام، أريد أن أقرأ لكم نصا قصيرا يربط بين الرواية الفكرية ومطالب الحركة الأمازيغية. ستلاحظون أن هذا النص الذي كتبه باحث في العلوم السياسية مليء بالسخرية : «استقرار النظام، وطبيعته الملكية التنفيذية، ومرجعياته السياسية والدينية، والمبادرة الدستورية لسنة 2011 التي أنتجت أساليب جديدة في الفصل بين السلطات، وضمان حقوق الإنسان، والاعتراف بالتعددية اللغوية والثقافية، وتأسيس مؤسسات الحكامة، وتقوية السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية، والجهوية، والنمو الاقتصادي، وأهمية المجتمع المدني، وتواجد تيار إسلامي قوي ومعتدل، والمبادرات الاقتصادية السياسية في الأقاليم الجنوبية. لكن هناك بعض مواطن الضعف، خاصة على مستوى نخبة السياسة والثقافة والمشاكل الاجتماعية، وبطالة الشباب، والأمية بنسب كبيرة، وأزمة النظام التعليمي، وتأثير التغير المناخي على الفلاحة، والفقر المدقع الذي تعيش فيه الساكنة القروية المعزولة والمهمشة في ضواحي المدن، والفساد، وقمع المناضلين، وقضية الصحراء. الخلاصة إيجابية على العموم». هذا فقط كي نختم هذه المائدة المستديرة بروح مرحة. أيها السيدات والسادة، أسعدنا غاية السعادة بالإشراف على محاولة تقديم كاتبين مناضلين موهوبين. شكرا لكم جميعا.

رئيس الجلسة : محمد علاوة حاجي
المشاركون : سكيمة حبيب الله، خلود الفلاح، أمل بوشارب، إيناس العباسي
فضاء : القدس
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 16 : 30 - 15 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

يسير الكاتب الجزائري محمد علاوة حاجي هذه المائدة المستديرة بمشاركة ثلاث كاتبات مغاربيات. فبالنسبة إليه، كيف، ولمن، ولماذا ؟ هي جميعها أسئلة بوسعها تعليل تعدد صيغ الكتابة الأدبية واختلافها. يبدأ المسير بإثارة هذه النقطة الأولى مع الشاعرة والروائية والمترجمة التونسية إيناس العباسي، وهي أيضا ناشرة متخصصة في أدب الأطفال : فهي لا تجد حرجا في الانتقال بإريحية بين مختلف الأنواع والأجناس الأدبية : فهي تعتبر هذا التعدد في أنشطتها تلبية لحاجيات ملحة، وعلى رأسها ضعف النشر المغربي المخصص للأطفال، وهو القطاع الذي يبدو أكثر إثمارا وانتعاشا في الشرق الأوسط. وبالانتقال إلى أمل بوشارب، نجدها قد بدأت شق مسارها في الكتابة انطلاقا من القصة، قبل أن تجرب فن الرواية. وبما أنها أيضا مترجمة وكاتبة للأطفال، يمكن القول بأنها من أنصار التعدد في الكتابة الأدبية.

رغم أنها تكتب باللغة الأجنبية، إلا أنها اختارت ألا تحكي للجمهور الأوروبي ما يرغب في سماعه ؛ إذ فضلت تقادي تقديم الصورة النمطية للمرأة المغربية، بأصالة أكثر في التعبير. هذا البحث يسير بالتوازي مع المسافة التي اتخذتها إزاء الفضاء الأدبي وورشات الكتابة. فهي على سبيل المثال تفضل الفردانية في العمل، الأمر الذي لا يتوافق مع آراء أخرى. أما منهج الشاعرة والصحافية الليبية خلود الفلاح، فيبدو موسوما ببصمة الواقع المساوي لبلدها. بيد أن الآداب والفنون لطالما كانت ولا تزال منفذا يتسلل منه بصيص أمل. لقد جاءت المأساة لتزيد الطين بلة، وتجعل حالة النشر المتدهورة أكثر تدهورا ؛ فاليوم يكاد النشر يقتصر على الاستعمال الفردي في فضاء الأنترنت. فالورشات، في هذا السياق، تتيح مجالا رحبا وغنيا للتعبير.



على غرار زميلاتها، لم تكف الشاعرة المغربية سكيمة حبيب الله بتبني شكل واحد من أشكال التعبير ؛ فقد كتبت أيضا رواية مبنية على أحداث قصة عائلية. فهي ترى أن الأجناس الأدبية تتداخل وتتكامل فيما بينها، ولا تتعارض إطلاقا. بل هي تنظر إلى الشعر باعتباره مصدر إلهام لكتابتها الروائية. تتشاطر الكاتبات الثلاث الاستنتاج ذاته بأن الجهود المبذولة من لدن الناشرين المغاربة من أجل الترويج للكتب العربية، تظل محدودة جدا ؛ حيث ينبغي في كل مرة اللجوء إلى دور النشر المشرقية، ولاسيما في لبنان الذي يمتلك تاريخا عريقا في هذا المجال. أن تنشر بالعربية في المغرب الكبير، هو في غالب الأمر، إنتاج كتاب مدعوم حكوميا، والذي لن يتعدى توزيعه، إلا نادرا، الحدود المحلية. أما بالنسبة إلى الروائية العراقية هيفاء زنكنة، فقد نبهت إلى خطر الورشات المسيرة إيديولوجيا، لكن هذا لم يمنعها من الإشادة بأهمية الكتابة الإبداعية الجماعية. ويشاطرها الرأي في ذلك مدير المعرض، الشاعر جلال الحكماوي ؛ فهو يرى أن الناشرين المغاربة الذين ينشرون باللغة العربية لا يؤدون دورهم على أتم وجه، ويتساءل أيضا حول مدى مصداقية الجوائز الأدبية وقيمتها المالية الممنوحة من دول الخليج، والتي تبدو بعيدة كل البعد عن الواقع الأدبي لهذه البلدان.

مداخلات المائدة المستديرة

محمد علاوة حاجي

في هذه الجلسة المسائية التي تجتمع فيها ثلاث كاتبات من ثلاثة بلدان عربية ومغربية، معي الكاتبة التونسية إيناس العباسي، الكاتبة الجزائرية أمل بوشارب وأيضا الشاعرة والصحافية الليبية خلود الفلاح. عنوان هذه الجلسة هو سؤال الكتابة. في الحقيقة هذا عنوان عريض، ويمكن أن تتفرع عنه الكثير من الأسئلة، مثل: لماذا نكتب؟ لمن نكتب؟ كيف نكتب؟ أبدأ بتعريف صيفاتي الكريمات، نبدأ بالأستاذة إيناس العباسي هي شاعرة وروائية ومترجمة من تونس، صدر لها في الشعر ثلاث مجموعات «أسرار الريح»، «أرشيف الأعمى كحل»، وفي القصة القصيرة «هشاشة»، وفي الرواية «منزل بركيبة»، كما ترجمت ثلاث روايات إلى اللغة العربية «نهر صغيرة أورو» للكاتبة الفيتنامية «كيم فوي»، «شجرة البرتقال الحزينة» للكاتب البرازيلي «خوسي ماورو»، «صرخة صامتة» للكاتبة البريطانية «أنجيلا مارسونو»، وحازت أيضا على جوائز أدبية في تونس وخارجها. المميز أيضا في تجربة إيناس أنها أسست دار نشر تعنى بالطفل اسمها «دار النحلة الصغيرة للنشر»، وقد أصدرت سنة 2014 عددا من الكتب الموجهة للأطفال. النحلة الصغيرة يمكن أن تكون أيضا صفة إيناس لأنها تتجول برشاقة بين أجناس أدبية كالقصة والشعر والرواية وأيضا الترجمة. لماذا هذا الانتقال إيناس؟ هل تبحثين عن جنس معين لتستقرين فيه، أم تعتقدين أن الكاتب يمكن أن يتواجد في جميع هذه الأجناس دون أن يخل بوجوده ككاتب؟

إيناس العباسي

أنا لا أرى أن الأجناس الأدبية تتعارض أو تتضارب، يعني ممكن أن يكون الإنسان متعدد الاهتمامات أو المواهب، ولكن شخصا حين أكتب الرواية أبتعد عن الشعر، وحين أتوجه لكتابة قصة للأطفال أبتعد عن كل ما يمت للغة الكبار أو ما قد يؤثر في لغة الطفل. أنا شخصية قلقة لا أستقر على حال إبداعية بصفة عامة، كأنه تحدي لنفسي، أحب أن أجرب خاصة في مجال الكتابة للطفل، لأن فكرة النحلة الصغيرة كانت قائمة على تحدي المشرق والمغرب، لأن إخواننا المشاركة لا ينشرون للطفل المغربي، وفي أدب الطفل بالذات، لا ينشرون له أبدا. هناك سوق محتكرة على الكاتبات اللبانيات والسوريات والفلسطينيات، وآخر القائمة المصريين لأن لهم دور نشر مصرية. أنا هكذا، في الصباح جاءتني الفكرة، لأنك أن تكتب قصة ويقولون لك إنها جميلة ولكن نعتذر عن عدم نشرها، أو يتجاهلونك حتى. ما يعجبني في دور النشر الأجنبية، ولو كنت حارسا لعمارة، فهم حين يرفضون طلبك أو كتابك يجيبونك، ويرسلون لك رسالة، بينما العرب عندنا يتجاهلونك تماما. فكانت هذه القدر الأول وانطلقنا في النحلة الصغيرة، وسأتم النحلة الصغيرة لأجيبك عن الاهتمامات الأدبية. دخلت للنحلة الصغيرة مثل «وان مان شو» كنت الناشرة، وحاولت ما أمكن ألا أنشر لنفسي، ليس أن نصدر 20 إصدارا ومنه 19 لإيناس العباسي مثلا، نشرت إصدارين فقط، المهم كنت أنا التي تستقبل النصوص وتجيب وتتعامل مع الرسامين، وتحمل صناديق الكتب. زوجي أهداني عربية لنقل الكتب، فهذا أبعدني تماما عن الكتابة، لقد دخلت لأنجز شيئا لكنه أخذني، لا أريد أن أطيل، لكن أعتقد أن أكثر شيء جعلني أتوقف عن القلق والتنقل من مجال إلى مجال هو النحلة الصغيرة لأنني دخلت إلى مطبخ النشر، ووجدت كيف يعامل الكتاب كسلعة، لأنه سلعة في النهاية، كيف يجب الترويج له. لا أريد أن أطيل...

محمد علاوة حاجي

شكرا إيناس، وأكد أثرت بعض النقاط التي سنعود إليها في خضم هذه الجلسة. أنتقل إلى الكاتبة أمل بوشارب، هذه الكاتبة الشابة التي بدأت بالقصة القصيرة، مجموعة قصصية بعنوان «عليها اثنا عشر».

أعتقد أن الصحافة الجزائرية وصفت تلك المجموعة في بدايتها بأنها كانت دخول، وبداية مدوية كصوت نسوي، وصوت أدبي جديد في الجزائر. بعد سنة فقط، في 2014 صدرت المجموعة. في 2015 قرأنا أولى رواياتك كانت بعنوان «سكرات نجمة»، بعدها رواية لليافعين مرت مرور الكرام لأنها عمل للأطفال، وعمل الأطفال في الجزائر قليل ونادر، في الجزائر نستطيع أن نقول أنه ليست هناك روايات للأطفال، هناك قصص للأطفال، وفي معظمها هي قصص مستنسخة من الأدب العالمي، كقصة ساندريلا والقصص المعروفة التي يتم إعادة تقديمها.

في رأيي الشخصي، في معظم الأحيان يفسدونها، لا يضيفون لها قيم، بل بالعكس يدمرونها. أدب الطفل، خصوصاً الرواية، شيء نادر في الجزائر، ورغم ذلك فالمتوقع أن تكون رواية يحتفى بها وتنتشر، لكن للأسف مرت مرور الكرام ولم تأخذ حقها من التوزيع والاحتفاء النقدي والإعلامي. هذا العام صدرت روايتك الثالثة «شعبة الظلمات»، وأيضاً قصة باللغة الإيطالية «لو دوري» عن دار نشر إيطالية، مقابل كل هذا أنت خريجة جامعة الجزائر في قسم الترجمة، أعتقد تشتغلين على اللغات الثلاث الإنجليزية والفرنسية والعربية. أمل، حدثنا عن هذا المشوار بين الترجمة والأدب والقصة، والرواية العادية والرواية الموجهة للأطفال.

أمل بوشارب

بداية أود أن أشكر المنظمين على هذه الدعوة، اليوم نحتفي بالمغرب العربي، ونحتفي بوجدة عاصمة الثقافة العربية هذه السنة. بالعودة لسؤالك حول سؤال الكتابة، عندما يتعلق الأمر بتعدد اللغات يصبح السؤال دقيقاً جداً، لأنني عندما أكتب، لم أطرح على نفسي في بداياتي هذا السؤال، لماذا أكتب؟ ولمن أكتب؟ لأنني أؤمن بأن الكتابة فعل يجب أن يستند أكثر على التفاني والعفوية، الكتابة عمل يصيغه اللاوعي في جزء كبير منه. اصطدمت بسؤال الكتابة مؤخراً عندما طلبت مني دار نشر إيطالية إعادة كتابة أعمالي باللغة الإيطالية، لم تطلب الترجمة، لكن إعادة كتابتها باللغة الإيطالية لأنني مقيمة بإيطاليا، وهنا شعرت أنه علي أن أمر من الحالة الشعرية، عندما نفكر بالكتابة كحالة روحانية، سؤال بداهي أكثر، هو جزء من أدوات التعبير، شيء فطري بالنسبة لي، وعندما بدأت أفكر في إعادة الكتابة أمر إلى حالة عقلانية أكثر، لماذا أكتب، هل علي أن أكتب بلغة أجنبية؟ بداية أنا عندما أكتب باللغة العربية، أكتب لمتلقي أعرفه جيداً، لمتلقي أعرف همومه وتطلعاته جيداً وأحاول أن أصيغها، لكن مجرد إعادة كتابة نص وجهته لجمهور، لأنه في النهاية عندما نكتب نفكر بشكل أو بآخر، بطريقة لا واعية بالجمهور الذي سيتلقى العمل.

في الحقيقة هذا سؤال طرحته على نفسي، هل المتلقي الإيطالي بحاجة لقراءة أعمالي مكتوبة باللغة الإيطالية، خصوصاً وأن لدينا في العالم العربي مشكل، وهو الكتاب اللذين يكتبون باللغات الأجنبية، الأمور التي يود الأجنبي الأوربي سماعها، هذا الشيء جعلني أخشى، خصوصاً وأنا بنت القصة القصيرة وتاريخي مرتبط بالقصة القصيرة. بدأت مساري بالفوز بجائزة المهرجان الدولي للأدب وكتاب الشباب، والقصة القصيرة تاريخياً عبارة عن انصهار بين الحكاية والسكيتش، الحكاية هي تاريخياً ما كان يكتبه القدماء من داخل الثقافة الواحدة، حتى يواسوا بعضهم البعض بحلول نوابٍ معينة، يعبروا عن تطلعاتهم. أما السكيتش فقد ظهر في القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر، وهو الأدب الذي كان يكتبه الرحالة عن شعوب أخرى، حكايات غرائبية (إيكزوتيكية) ليسلوا بها شعوباً تنتمي لثقافة غير ذلك. وتعتبر هذه القصة القصيرة ابنة هاذين النوعين الأدبيين، وأنا خشيت في لحظة معينة عندما أقوم بإعادة كتابة أعمالي باللغة الإيطالية، أن تنتقل كتاباتي مما أتصور أنه كذلك، قصة نحتفي بها ضمن الثقافة الواحدة، إلى سكيتش، إلى شيء نريد أن نسلي به الآخر، نمتع به الثقافة الأخرى وهو لا ينتمي إطلاقاً لي، لا يشبهني، ولا يشبه مشروعي السردي. لذلك وجدت نفسي أرتطم بهذا السؤال أول مرة، وفكرت هل القارئ الإيطالي بحاجة لقراءة أعمالي؟

حقيقة، عرضت على دار النشر قصة لا تعتبر أنثروبولوجية، وقصة لا تتحدث عن المرأة العربية بوصفها شخصية ضعيفة، وشخصية خاضعة، وكل تلك الأفكار التي يتصور الأجنبي أنها حالة المرأة العربية، الكليشيهات والصور النمطية، بالعكس تحدثت عن المرأة العربية المعاصرة وفكرت أن هذا سيكون تحدي لدار النشر أيضا، فهي إذا كانت تحتفي بالأدب من الناحية الإنسانية أو من الناحية الفولكلورية، والحقيقة أن دار النشر احتفت بالعمل.

محمد علاوة حاجي

سنعود إليك أمل، ننتقل الآن إلى الشاعرة الليبية خلود الفلاح، هي شاعرة وصحافية ليبية. تجمع خلود أيضا بين الشعر والكتابة الصحافية، أنت تديرين مجلة للمرأة في ليبيا، وصدرت لك مجموعة من الدواوين والمجموعات الشعرية «بهجات مارقة» «ينظرونك»، «طاولة عند النافذة» و«نساء»، لأبدأ من هذا العنوان الأخير، من هن نساء خلود الفلاح ؟

خلود الفلاح

كتبت ديوان «نساء» في سنة 2014 حين كانت الحرب قائمة في مدينة بنغازي، كتبت عن نساء عشن انكسار الحلم والخيبة، أنهن يرين بشكل يومي الموت بطريقة بشعة، ممكن أن يكون بقطع الرؤوس، واللعب بها ككرة قدم، أو الخطف أو الاختفاء القسري، كالألعاب. وبما أن عنوان الندوة هو سؤال الكتابة، فأنا سأختار الحديث عن الأسئلة التي تشغلني اليوم ككاتبة ليبية. طبعا أنا كصحافية أعرف أنه من واجبي أن أقوم بالكتابة عن الأماكن التي طالتها الحرب، خاصة الأماكن هي منطقتي ومكان سكني، الذي كنت أعمل به وكانت به جامعة ومدرسة. في الحقيقة لم أستطع أن أكتب شيئا من منطلق الصور التي أراها من كثرة البشاعة، فاخترت أن أكتب عن الصورة الإيجابية لمدينتي، فاهتمت بأن أبحث عن أي شيء، ولو معرض تشكيلي صغير لمجموعة من المواهب، أو أغنية كلماتها مستمدة من واقعنا اليومي، أو حتى مسرحية، أو إصدار. فكنت ما أحكي عنه وأكتب عنه بطريقة توضح أن هذا البلد صحيح فيه حرب ودمار، لكن لازالت فيه أشياء جميلة.

محمد علاوة حاجي

سأبقى معك، وأتمنى أن تجيبيني باختصار. من خلال عملك في الصحافة، مجلة المرأة وهذا الديوان بعنوان «النساء» يبدو لي أن هاجس المرأة حاضر في عملك الصحافي، وأيضا في كتاباتك الشعرية، هذه المرأة الليبية أم أنت في حد ذاتك، ذات الشاعرة.

خلود الفلاح

هو في الديوان، أنا تحدثت عن نفسي، كامرأة ليبية عاشت فترة الحرب، لكن المجلة هي لها علاقة بالمرأة بشكل عام، وهي تعتبر أول مجلة تصدر في ليبيا، كان في البداية اسمها «مجلة البيت»، ثم «المرأة الجديدة»، ثم «المرأة» فقط، لأن المرأة تشمل كل شيء، البيت والأطفال، والديكور والماكياج...

محمد علاوة حاجي

نعم خلود، نبقي في المغرب مع الشاعرة سكيئة حبيب الله، طبعا أنت تكتبين الشعر والرواية أيضا، لديك ثلاث مجموعات «خمس فراشات منزوعة الأجنحة» «لا لزوم لك» «ربع قرن من النظر». واضح أنها عناوين لمجموعات شعرية، «بيت القشلة» هي رواية، أنا كقارئ أرى العنوان، هل القشلة هي كلمة دارجة، حدثنا عن الرواية بشكل عام.



سكينة حبيب الله

القشلة في المغرب هي مجمع سكني، في البداية كان خاصا بالجنود والجنرالات الفرنسيين، ثم حين رحل الاستعمار، سكن من طرف الجنود الذين يشتغلون بالعسكر. الكلمة حين ناقشت مع الأصدقاء تبين أنها مشتركة، توجد بالعراق وفلسطين، وربما جذرها تركي، الرواية استمدتها من قصة حقيقية لجدي الذي شارك في الحرب الصينية في فيتنام، ولأنني لم أعيشه، هو رحل وأنا في سن الخامسة أو السادسة، لكن شعرت أنني مسؤولة عن قصته، لأنه كان دائما يشعر بندم حقيقي لأنه شارك في حرب ليس طرفا فيها. الحرب الصينية في فيتنام، لأنه حمل بندقية ووجهها تجاه أناس ليس بينه وبينهم أي عدا. هذا التفصيل الذي كان في ذهني، لكن من بعد، صنعت حكاية أخرى من هذه الحكاية، وبطريقة أخرى حاولت أن أفهم، أو أتكلم بلسان هؤلاء الناس ربما بشكل أو بآخر، أحمل هذا الدين الذي يجب أن أسدده، لأنني جئت من هذه السلالة التي في عنقها دماء الأبرياء، وبشكل ما ظلت هذه الدماء تؤرقني، ولذلك كتبت هذه الرواية، ولم تكن ولا حتى عشرين في المائة من القصة الحقيقية، ولكن بشكل ما شعرت بالارتياح حين أنهيتها.

محمد علاوة حاجي

سكينة، أصدرت الرواية بعد مجموعتين شعريتين، أنا لن أسألك لماذا الرواية، هل لأن الرواية لون أدبي يعتبر ديوان العصر، أو هي الأكثر ترويجا أو غيره، لكن أسألك هل أخذت معك الشعر إلى الرواية، أم حاولت، كما قالت إيناس، متشددة نوعا ما، «لأنني أكتب بالجنسين سأكتب رواية راديكالية لا توجد بها لغة شعرية»، بالنسبة لك كيف كانت الرواية ؟

سكينة حبيب الله

لا أستطيع أن أجزم أنني فصلت بين الشعر وبين الرواية، لأن الشعر بالنسبة لي ليس أسلوب كتابة، وليس نوعا أدبيا، الشعر هو طريقة لرؤية وقول الأشياء، فبالنسبة لي حين أكتب، الشعر هو النسغ في شجرة، وبشكل ما يتسرب، لا يكون هو الموضوع، ولا يكون هو السيد، ولا يخطف الضوء من الرواية، ومن التقنيات الكتابية، ولكنه موجود بطريقة أو بأخرى، أحب أن ألفت أنني كتبت الرواية ضمن برنامج كتابة الرواية، يعني الكتابة كانت مؤطرة بشكل أو بآخر، لأنني كنت على تواصل مباشر مع المحرر. في روايتي الثانية ترك الأمر لي، فلم تكن هناك عين ثالثة تقرأ معي الكتابة فكان الشعر حاضر.

أنا لا أفصل بين الشعر والرواية، لكن فقط ألا يكون الشعر هو الذي يريد أن يخطف الضوء، أو يكون هو الحكاية نفسها، وهذا الأمر لفت انتباهي إليه صديق مغربي، قرأ الرواية واجتزأ منها مقاطع هي قصائد صغيرة، فقلت لا فرار، الأسلوب هو غير شاعري، ولكن بطريقة أو بأخرى هناك شعر.

إيناس العباسي

تضامنا أو تأبيدا لسكينة، أنا حين قلت أفصل، لم أقصد أن أكون راديكالية، إنني أؤمن مثلما قالت سكينة في تعبير جميل، بـ «نسغ الشعر». كلنا بدأنا بالشعر بشكل أو بآخر، ومستحيل أن يخرج منا، لكن في روايتي الثانية تحديدا كنت أيضا ضمن ورشة كتابة، ولأن هناك أشخاص آخرين ملتصقين بنصك، ويقولون لك أنت تكتبين الرواية قائمة على أحداث وشخصيات، الشخصية تأكل وتتنفس وتنام وتدخل إلى الحمام وليست في حالة ذهول شعري وعاطفي. أنا لم أقرأ بعد روايات سكينة، أعرفها كشاعرة، لكن مثلاً أنا أعشق التشابيه والاستعارات، وبقدر ما حاولت أن أتخلص من هذه الحالة أو الإدمان، يعني رواياتي كلها قائمة على الاستعارات، ليس فيها شعر، ولكن ثمة استعارات وصور، وهي قادمة من الشعر، الشعر يخدمنا في الرواية، أنا لا أعرف الأخوات هل يؤيدننا أم لا ولكن أعتقد أن هذا ما أرادت قوله وأويدها.

محمد علاوة حاجي

نعم إيناس، أعتقد أننا متفقين أنه لا يوجد فصل أو قطيعة، كما قلت أنا راديكالي، لكن أعتقد أنه واضح، بعض النصوص هي سردية، لكن فيها شعرية مفرطة. لكن في النهاية، حتى الكتاب الذين لم يأتوا من الشعر، تجد الشعرية في نصوصهم ؛ يعني أن تحس أنك تقرأ الرواية وليس نصا شعريا. أبقى معك إيناس، بما أننا نتحدث عن الرواية، روايتك كـ «منزل بورقيبة» يعني صدرت عن دار نشر لبنانية وأعتقد أنها كبيرة على الأقل بمعايير دور النشر العربية، لماذا ذهبت للنشر خارج تونس، وهل هي قناعة أو يأس أن دار النشر التونسية لم تقدم شيئا للكاتب التونسي وللكتاب التونسي أيضا ؟ تفضلي.

إيناس العباسي

أعتقد أنه، وحتى الأستاذة حبيب الله تطرقت لهذه النقطة، كلنا في شمال إفريقيا أو المغرب العربي، لدينا مشكلة، الكتاب لا يخرج من بلدنا، لو كان الناشر يشارك في المعارض، العربية لن نتوجه للمشرق العربي، هذه أولا. مثلاً في تونس، لدينا «دار الجنوب» هي من أعرق الدور، هي ليست حاضرة في كل المعارض الدولية والمحافل، برغم أنها دار الجنوب، فكيف سيوزع الكتاب ؟ أنا بدأت في تونس، نشرت كتابي الأول في تونس، فكم من شخص قرأ كتابي أو وجده، الكتاب التونسي يلقي دعماً من الوزارة، والناشر لا يبذل جهداً، يعني يجد الدعم فكفى. كتابي الثاني نشرته في مصر، يعني يجب أن نمر من هذا الجسر بحثاً عن قارئ، فأنت تكتب لتقرأ، وليس لتنشر فقط، ويظل في «كراتين» أو في رفوف المكتبة العامة. فنحن مثلاً في تونس الوزارة تدعم الناشر، وتدعم بشراء الكتاب وتوزعه على المكتبات، ولكن من سيقراً هذا الكتاب، وخاصة الشعر، ونظن نقول أن الشعر نخبوي، ليس بمعنى أرفع من الآخرين، ولكن ليس كل الناس يبحثون عن ديوان شعر، هذه أولا. «دار الساقى» أيضاً ثمرة أو نتيجة ورشة من الورشات، أنا سأسألك سؤالاً، لو أنا أرسلت مخطوط روايتي من دون المرور عبر ورشة من الورشات، هل كانت ستنتشر لي ؟ أنا أرسلت رواية سابقة ونشرت في دار أخرى، والحمد لله أنهم أجابوا «لا يوافق خططهم»، لكنك تتحايل على الوضع. أنا صريحة جداً، أعرف أن هناك تسجيل، مع احترامي لكل دور النشر اللبنانية والعربية، ولكن كما قالت الأستاذة حبيب الله، نحن نفرض نفسنا فرضاً على السوق اللبنانية أو سوق النشر لأسباب تاريخية ممتدة، من هناك ابتداءً نبع النشر، وأول مطبعة زرناها جاءت في ظروف معينة دينية وسياسية، يعني يجب أن نمر من هناك، لم اخترها أنا، لكنني فرضت روحي.

محمد علاوة حاجي

نعم إيناس، للحديث عن الورشات الأدبية يطرح سؤال جوهري. هل الكاتب في هذه الورشات يكتب بنفس الحرية التي يكتب بها أي شخص آخر ببيته، أم أنه يكتب وفق مسطرة معينة ؟ وهذه النصوص هل هي روح الشخصية أم روح تلك المؤسسة أو المجموعة الكبيرة من الأشخاص ؟ هل هناك دور نشر تفرض على الكاتب سمات معينة، هنا يأتي السؤال حول حرية الكاتب، فإذا فقد حريته فماذا تبقى له ؟ هذه الأسئلة سأعود إليها معكم، ولكني سأعود للحديث عن النشر. أمل، أعتقد أن النشر في الجزائر أشبه بالطبع، وأنا شخصيا أحب أن يزيلوا كلمة النشر ويضعوا كلمة الطبع بدلها، لأنه لا يتم النشر ولا التوزيع، وهذا حال معظم الكتب التي أصدرت على الأقل في العشر سنوات الأخيرة. فمذ 2007 إلى 2018، أعتقد أن أعدادا مهولة من العناوين، لكن لو تسألني أي قارئ يخبرك أنه لم ير هذه الكتب ؛ والكاتب بدوره يتساءل عن عدم رؤيته لأعماله ولماذا لم يتم توزيعها. ويبدو لي أن المستفيد الأكبر من العملية هم الناشرين، ولو كان معنا ناشر فالأكيد سنسمع وجهات نظر كثيرة تشكي عن واقع النشر، غير أن الناشر نفسه متهم، لأنه يأخذ الدعم من الدولة، ينشر الكتب، لكنها في النهاية لا تظهر. حدثنا عن تجربة النشر في الجزائر، وعن سبب تحمسك وإصرارك، وبقائك، فبعد نشر روايتك الأولى والثانية والثالثة، لا زلت في الجزائر، فهل دار النشر هاته مختلفة أم ما السبب ؟

أمل بوشارب

مبدئيا، فمنشورات شهاب، وهي من أكبر دور النشر في الجزائر، لدي ثلاثة أعمال مع منشورات شهاب، ولدي عمل مع الدار العمومية «لانا»، العمل الموجه للأطفال الذي تحدثت عنه. بالنسبة لي شخصيا، عرض علي من دار نشر عربية أن تنشر أحد أعمالي، لكن العمل موجه للأطفال، لكنني أصر ألا أخرج دائما من الجزائر، ربما لخصوصية رواياتي، أنا شخصيا أكتب من دون رقابة، لا أمارس رقابة على أعمالي، ولا على نفسي، وطبعا عندما لا نمارس الرقابة، نتحدث عن كل شيء، في السياسة أيضا، ويهمني أنه حينما يخرج العمل يكون رقم التسجيل من المكتبة الوطنية في الجزائر، لأنني لا أريد أن أتهم بأنني الكاتبة التي تنتقد الوضع من الخارج، أود أن أكتب من داخل الجزائر، وهذه الجزئية مهمة جدا بالنسبة لي.

محمد علاوة حاجي

خلود، نبقى دائما في الحديث عن نشرك، هل ممكن أن تعطينا صورة مقربة عن واقع الكتاب في ليبيا ؛ فليبيا تعيش منذ سنة 2011 في وضع سيء جدا، تقريرا الدولة غائبة في ليبيا، هناك نوع من الانقسام السياسي، كيف تنعكس كل هذه الأوضاع على الكتاب وعلى الكاتبات تحديدا، وعلى صناعة الكتاب بشكل عام ؟ وهل يمكن لدور النشر في ليبيا أن تنشر كتب، هل هناك مكتبات مفتوحة للناس، وهل هناك معارض ؟ يعني حدثنا بشكل عام عن واقع الكتاب في ليبيا.

خلود الفلاح

أولا، في ليبيا كانت حركة النشر حتى قبل الحرب، ضعيفة جدا، وليست هناك دور نشر خاصة، ممكن تفتح دار نشر خاصة، يأخذون منك الكتاب، وتظل سنتين، ليخبروك أنهم لن يطبعوه، في فترة كانت فيها حركة النشر واسعة، لكنها كانت تابعة لمؤسسة حكومية، نشرت تقريبا لجميع الكتاب، وكل المخطوطات، وفي المقابل فهي تنشر لك وتدفع لك. لكن لما دخلنا فترة الحرب، توقف كل شيء في ليبيا، الحياة نفسها توقفت. يعني ليس هناك نشر ولا نشاط، وحتى المجالات توقفت. ممكن هناك محاولات بسيطة، المواقع الإلكترونية لا غير، الكتاب ليس له وجود في ليبيا الآن، حتى المكتبات موجودة، لكن كل الإصدارات التي تتوفر عليها، حتى الإصدارات العربية قديمة جدا، والكتاب الليبي أساسا لا وجود له.

طبعاً هناك شاعرات وكتاب، لكنها تظل محاولات فردية، لأن حركة النشر متوقفة، كما قلت ليست هناك مجلات، وليس هناك صحف، بل هناك فقط المواقع الإلكترونية للنشر. وفي ليبيا حدث انفصال، فترة الحرب وبعدها، فترة الحرب التي نعيشها كانت قاسية على الرجل والمرأة والطفل؛ ليس فقط على المستوى الاجتماعي والنفسي والثقافي، كلها أثرت على الجميع، وصار انفصال، يعني المشروع الثقافي آخر شيء يمكن أن يفكر فيه الإنسان. وأي مؤسسة ثقافية ليبية لا يمكن أن تفكر في أن تصدر مجلة، أو تنظم أي نشاط، وحتى الأنشطة التي قامت، فهي تقام بمجهودات فردية. الهجمات مستمرة، وليست هناك أعمال أدبية، الدراسة فقط، لكن ليس هناك أنشطة.

محمد علاوة حاجي

شكراً خلود، سنفتح باب النقاش للجمهور، لكن قبل ذلك نتحدث باختصار عن جزئية الورشات، فحبذا لو أن كل واحدة منكم تحدثنا عن هذه التجربة باختصار، هل تحس أنها مرتاحة في الكتابة، أم هل هناك قيد، وهل إذا أُتيحت لها فرصة إعادة التجربة سترفضها؟



خلود الفلاح

هناك كلمتان عجيبتان تعلمتهما، أول ورشة حضرتها كانت مع الأستاذ الشاعر الليبي خالد مطاوع، وهي أن الإبداع ليس نقاحة نيوتن تسقط على رأسك، فهذا أهم درس تعلمته من خالد مطاوع. الورشات تعلمك العزف الذهني، ليس هناك أحد يكتب محل أحد، فلا أحد يمكن أن يكتب مكانك، وليست هناك كتابة بدون حرية، فأنت علاقتك مع نصك. طبعاً تجربة سكيمة ولو تحدثنا مع بعضنا على نفس الموضوع مختلفة، كانت جلستنا تضم ثمانية كتاب يشتغلون على نصوص ومواضيع مختلفة.

قبل اللقاء الذي كان يتم في بيروت، يتم تبادل جزء محدد، نقرأ على بعض، ونناقش بعض، وهذا جميل، لأنك تكون ملتصق بنصك فلا ترى العيوب أو الهفوات، أو اللغة الشعرية، أو الفكرة الفضفاضة، فهذا كان مهم. لم يكن أي أحد يغير فكرتك أو يفرض عليك شيئاً، كانت لنا الحرية المطلقة في المواضيع، كانت هناك حدة وتنافس، بالرغم من أن كل النصوص أنجزت في وقت معين، وكان هناك تنافس أكثر منه صداقة، لأن هذا أثر على إيقاع الكتابة.

الكلمة الثانية السحرية من هذه الورشات هي الموعد النهائي للتسليم، ليكون لك موعد تنافس وأنه عليك أن ترسل عددا معينا من الكلمات، وموعد نهائي لأفاق أولا، ثم لدار النشر ثانيا، وممكن أن توافق آفاق على النص، ولا توافق عليه دار النشر، فعليك ضغط. أنا في دراستي أشتغل تحت الضغط أفضل من أن تعطيني حرية مطلقة في الوقت، فالتجربة أفادتني، ولم لا أعيدها.

سكينة حبيب الله

أنا وإيناس بالمناسبة كنا في نفس البرنامج، ولكن، أنا كنت في دورة وهي في دورة أخرى، وحتى من يدير الورشة كان مختلفا. هي كان معها الروائي اللبناني جبور الدويهي، وأنا كانت معي اللبنانية نجوى بركات، بالنسبة لي فالعمل في الورشة كان له ما له وعليه ما عليه. بالنسبة لي الآن أفضل أن أنهي الرواية، ثم أرسلها إلى دار النشر، يعني بعد أن أكمل العمل، أتعامل مع المحرر، لكن أن تكون مواكبة المحرر منذ الجملة الأولى فالأمر صعب علي بعض الشيء. الأمر الجيد كان هو اللقاء مع الكتاب من العالم العربي كله. كان معي صديق من السودان ومن سوريا ومصر ولبنان ومن فلسطين، يعني كان هذا اللقاء مع الكتاب من مختلف الأعمار، يعني من 70 سنة إلى 24 سنة، كان غنيا جدا. وبالنسبة لورشات الكتابة ليس لدي أي شيء ضدها، لأنه إذا رأينا في دول أخرى، فإنهم يحضروها، وليس لديهم مشكل، هم يحضروها ليس لتعلم الكتابة، لإيجاد مناخ مناسب للكتابة. بالنسبة لي فقد كان الأمر مناسباً لي من جهة، وغير مناسب من جهة أخرى. لم نكن نقرأ لبعضنا، ولكن كان من الشروط أن كل شخص يكتب مشروعه بمعزل عن الآخر، لا نعرف الآخر ماذا يكتب، ولكن نلتقي ونتناقش في الكتابة، وفي رأيي، فإذا تكلمت عن المشروع مع شخص آخر فإنه يفقد سحره.

خلود الفلاح

أنت لم تكوني في الدورة التي كان فيها أحمد مجدي همام، إنه روائي مصري شارك في الدورة التي بيننا، أحمد مجدي همام أنا لا أعرف فكرته الأصلية، لكنه دائما يقول أنه ذهب بفكرة معينة، وحين أنهى الرواية، لا علاقة لها بالفكرة، اختفت رواية أخرى نهائيا، الميول الأدبي بصفة عامة أن تجد شخص من عمرك أو ليس في عمرك، يفيدك بشكل أو بآخر، وهذه في رأيي أهم شيء يستفيد منه الكاتب.

محمد علاوة حاجي

تفضلني أمل.

أمل بوشارب

نقطة ذكرتها إيناس، أنه في النهاية العمل الأدبي بالمطلق يجب أن يكون فردي، ويدعو لطرح تساؤل، والأمر يتعلق بسؤال الكتابة، فالأمر يتعلق بهم شخصي، هموم مجتمعية تنتشاطرهما مع المجتمع، عندما يتحول الموضوع إلى عمل مؤسساتي عنوانه أدبي، ألا يفقد الروائي حس سحر الإبداع؟ ليس لدي شيء ضد الورشات، لكن الفكرة التي تحدثت بها عن أن هناك شخص يراقب عملية الإبداع لديك، فهذه المسألة أراها إشكالية نوعا ما، وربما تعرقل الكتاب.

إيناس العباسي

لأنك استعملت مفردة المؤسسات.

أمل بوشارب

الورشة هي مؤسسة في النهاية.



إيناس العباسي

ليس بالضبط، لم تكن هناك المراقبة، فأنا أحب الاستعارات، مثلاً الأستاذ جبور أبدى لي ملاحظة لا يمكن أن أنساها لآخر يوم في حياتي. كنا في الجزء الثاني من روايتي وقال لي توجد هناك سلاسة وتطور، لكن يا أختي كتبت سبعة رسائل إحدى الشخصيات، وهناك رسائل قديمة تكتشفها شخصية أخرى، كأن القارئ فتح دولاب ملابس، وسقطت عليه هذه الملابس. أنا لن أنسى ذلك، الأمر ليس فيه رقابة، تضايقت جيداً يومها، فأنت تعرفين أن النص مثل طفلك، فيجب أن تهدئي وتقبلين الكلام، هو لا يفرض عليك، وفي الورشة أنت حرة، كما يقولها من أول إلى آخر يوم، أنت حرة في كتابة ما تريدين، وفقط اسمعي الكلام فإذا أعجبك خذي به، وإذا لم يعجبك فتجاهليه. بالنسبة لي ليست هناك ملاحظة لم أستفد منها، مثلاً كانت معنا كاتبة مصرية نقدنا كان موجه لكل الناس، تأتي وتقول لك أن روايتك، برأيي هي مسلسل مصري. وكانت هي أكثر واحدة كتبت أطول نص روائي، أنا سمعتها ولم أهتم، وضحكت لأنها كتبت 400 صفحة.

أمل بوشارب

ربما هذا هو السؤال إيناس، فعندما نكتب نحن سنتشارك الآراء، فعندما يكتب الكاتب فهو عمل فردي يتحاور مع نفسه. في النهاية، فالمنتج عندما تقرئيه، تتذكرين اللحظات التي عشتها مع نفسك، الأنا الإبداعية، لاحقاً عندما يخرج العمل، نسمع آراء القراء، لكن كل صفحة من الكتاب هي حوار معك ومع نفسك، أنت، الآن إيناس تتذكرين لحظاتك مع أشخاص آخرين معك في الورشة.

محمد علاوة حاجي

يبدو أن هذا الموضوع يأخذ حيزاً كبيراً من النقاش، وأعتقد أنه ليس هناك شيء ثابت في النهاية، الأمور تختلف من تجربة إلى تجربة، وأنا لم أتحدث في البداية عن أن الكاتب يفقد حريته، لا أقصد ذلك بشكل مطلق، ولكن حتى خارج الورشات، هناك كتاب يتعاملون مع دار نشر واحدة، والتي تطلب منه أن يمشي في نسق معين. وهذا في النهاية يجعلني أحس أنه يفقدني حريتي، لأنني لا أستطيع أن أترك دار النشر تفرض علي ما أكتب، أنا أكتب روايتي أولاً ولو لم تنشر فلا يهمني. لا أعتقد أن هناك خط تحريري واضح في دور النشر، وهي في النهاية ليست جرائد، هي دور النشر تنشر لجميع الكتاب أياً كانت توجهاتهم، لأنني في النهاية لست أكتب مقالة سياسياً كي ألزم بدار النشر، بل هو نص أدبي في النهاية.



أمل بوشارب

طبعاً إذا تحدثنا عن الدول التي لها تاريخ عريق في النشر، وحتى أي دار نشر جادة، فهناك دور نشر متخصصة في الأدب، وهناك أجناس وأنواع مختلفة، وأعتقد أن الكاتب الجاد هو الذي يحسن اختيار دار النشر، فمن غير المعقول أن ترسل مخطوطك إلى دار نشر إصداراتها لا تتوافق البتة مع مشروعك الإبداعي، لذلك في سؤال الكتابة، ففكرة الأنا الإبداعية ربما أشعر أنها مهمة بالنسبة للكاتب، ولا علاقة لها بالفكرة الشعرية أو غير الشعرية ؛ لأنني شخصياً أكتب أعمال تشويقية فيها كثير من الشخصيات والكثير من الأحداث، يعني ليست عبارة عن مونولوج وهذيان شخصي بشكل دائم. لكن عندما أكتب، أكتب مع نفسي ولا أطلع أي أحد على أنني في حالة كتابة حتى لا تشوش أفكاري، وحتى إذا أردت أن أستلهم من شخصيته شيئاً ما، لا أود أن يغير أي شيء على الإطلاق، ولذلك أشعر بنوع من الفضول.

سكينة حبيب الله

أنا أوافق أمل لأنني أنا من نفس النوع، لذلك كان تحمل الورشة ثقل، كانت تجربة تطلبت الكثير من الجهد والصبر، وعدم إطلاع الآخرين على أعمالك، هذا لا يعني ثقة مبالغ فيها ولا علاقة لها بالثقة أصلاً، هذا برنامج، نحن لدينا في العالم العربي مهنة التحرير غير موجودة، يعني كانت الورشة مهنة تحرير صرفة.

محمد علاوة حاجي

الأستاذة هيفاء زنكنة لديها مداخلة، تفضلي.

هيفاء زنكنة

أنا أيضاً أدير ورشات، لذلك أعتقد أن هناك أساليب مختلفة لإدارة الورشات، ومثل ما أخبرتنا، هناك فترات زمنية قصيرة وطويلة، تبدأ من ستة أسابيع إلى سنوات، وتحتاج لدراسة معمقة من كل الجوانب، أربع، خمس سنوات. الكتابة الإبداعية مجال واسع هائل جداً ويعتمد على مدى استعداد الكاتب أن ينضم إلى ذلك، ويعتمد على ما الذي يريده من الورشة. طبعاً، أنا أتفق مع أمل، هناك نوعاً من «المؤسسية»، ليس في كل الورشات، لكن ظهرت في الآونة الأخيرة، أو على الأقل في العشر سنوات الأخيرة، منظمات متخصصة في إدارة ورشات، منظمات أحياناً تتبع لمؤسسات دولية.

تقول مثلا نحن نجتمع مجموعة من الشباب من البلاد العربية، ونكتب عن الربيع العربي فقط، بشكل قيمة معينة، مثلا عن السلام ؛ فجأة نلاحظ السلام في فلسطين، وأنهم يدفعون بهذا الاتجاه، هناك توجه إيديولوجي محدد، لكن أيضا بشكل جميل. فكلنا نريد أن نكتب، والشباب مهتمون جدا، خصوصا الشباب الذين يكتبون للمرة الأولى، فلا يمانعون، وبالأخير يوفرون له جو من الحرية فعلا، بحيث تخرج وتقول، لم يؤثر علي أحد، لكن تم التأثير عليك، بطريقة من الطرق الذكية، وهذا لا يعني الكل، أنا أتحدث عن المؤسساتية في الكتابة. بالنسبة أن يكتب الشخص ذاتيته، فأنا أعتقد أن هذه المسألة أحيانا نضخمها، لأن هذه الرواية ومنذ الثلاثينات، يشارك في كتابتها ثلاثة أو أربعة أشخاص، أنا دخلت في تجربة الكتابة السريالية في السبعينات، وكان كل واحد من عندنا يكتب نصف فصل ونسلمه لشخص آخر ويكمل، لكن كان اتفاقنا على الشخصيات، من هم في الرواية والفترة الزمنية، وأنتجنا رواية واحدة، وكان عددنا اثنا عشرة شخصا، فأين الذاتية ؟ يعني التجارب متعددة ومجالات لا تتسع أسود وأبيض، الأساس هو التمكن من الكتابة، وهذا ما تطمحون إليه، كلنا نطمح إليه. الحرفية مهمة جدا، وامتلاكها لأدوات الكتابة، ومن ثمة، كالفنان، فإذا كان لا يعرف أن يرسم بشكل تقليدي، لا يمكنه تجاوز ذلك إلى التجريد، وأعتقد أنكن كلكن متفقات.

محمد علاوة حاجي

أستاذ جلال تفضل.

جلال الحكماوي

شكرا، أنا سأحدث من وجهة نظر تنظيم هذه المائدة المستديرة، لما فكرنا في هذه الجلسة كانت كل المتدخلات نساء، كنا سننحصر في مقاربة ضيقة، مقاربة «الجندر»، لذلك قلنا سيكون هناك محظوظ في هذا المعرض، هو الذي سيسير هذه الجلسة، اخترنا الأستاذ محمد علاوي لسبب بسيط، لأن الفكرة هنا هي تقديم جيل جديد من كاتبات العالم العربي، وأعتقد أنها نقطة أساسية، يعني يلتقون ويتعارفون ويتحدثون بعضهم البعض. الآن، فيما يتعلق بالاحترافية، بالفعل، قد تكون هناك إيديولوجيات تتحكم في مشاريع معينة، لكن الأساسي أننا في العالم العربي، أعتقد، نعاني من غياب الاحترافية. فالناشر لا يصحح ولا يدقق ولا يوزع ولا يروج، فبالتالي الكاتب يكون في الغالب في معركة دائمة للحضور في عالم كأن الكل ضده، سواء كان رجل أو امرأة.

النقطة الثانية إذا أخذت مثال المغرب، نحن لدينا دعم وزارة الثقافة للناشرين، والناشر في الغالب يأخذ الدعم وينام، يطبع الكتاب والكتاب لا يوزع، فقط هناك ناشر أو اثنين أو ثلاثة معروفين يحضرون في المعارض العربية، والكتاب يسافر، لكن بشكل عام يمكننا أن نتحدث عن وضعية خراب، لأن من يكتب بالعربية يكون في معركة مستمرة، بالنسبة للجيل الجديد أعتقد أنه بالإضافة إلى مشاريع الكتابة، التي تكون لها مرجعيات معينة هناك إشكال أنا شخصا ما يزعجني، هو الجوائز الخليجية، وأعتقد أنها قد تكون مفيدة طبعاً، إذا أخذت مثال المغرب، فنحن في جائزة المغرب الكبرى، تخصص 12 ألف دولار للفائز، في المغرب لنا سنويا أكثر من 1500 إصدار، لكن لما نرى لأئحة الناس الذين يقدمون دور نشر وكتاب، لا يتجاوزون 270 في العموم، لما ترى الجوائز الخليجية، أكثر من 700 أو 800 مغربي يقدم. يجب أن نطرح السؤال. الخليج هل لديه ثقافة حقيقية أو أدب حقيقي، وبالتالي يجب أن يكون هناك حوار حقيقي لأن هذا جيل لا يجب أن ينمط، هناك مشاريع قد لا تفيد هويته، لذلك هذا سؤال أطرحه أيضا، وأنتهي بمسألة «القشلة»، عنوان لأن هناك «بيت القشلة» و«منزل بورقيبة» فالقشلة بالنسبة للدارجة المغربية، تعني الثكنة العسكرية، وبالنسبة للعامة المغربية والجزائرية والتونسية، فنحن لدينا اقتراض كثير، لدينا كلمات إسبانية وفرنسية وإيطالية.

في المغرب وفي نواحي الدار البيضاء نقول «الكشينة»، وهي تأتي من «لا كوتشينا» من إيطاليا، ونقول أيضا «طوموبيل»، وهناك أخ أو أخت من العالم العربي، قال لماذا تتوجهون إلى صاحب الفندق وتطلب منه أن يمدك بـ «الشومبر» وبالنسبة لنا فالأمر عاد من أيام المستعمر الفرنسي، فـ «الشومبر» هي الغرفة، إذا، أعتقد أن هذا اللقاء مهم بين مختلف مكونات العالم العربي حتى نتفاهم قليلا، وشكرا.



محمد علاوة حاجي

الوقت لا يسعف، وقبل أن نختم سنسمع بعض المداخلات.

مداخلة

شكرا، أنا فقط أغرتني مداخلة الشاعر جلال الحكماوي. عندما نتحدث أحيانا عن بعض الجوائز التي ليست قيمتها المادية هي الأساسية، ولكن عدد طبعاتها هي الأساسية، يتوج عمل طبعة أولى، ولكن عند الحصول على الجائزة تصل الطبعة 14 إلى 15 وحتى إلى حدود 20. في العالم العربي، إذا أردنا أن نتساءل عن وقع الجوائز الكبرى على تداول الكتاب، وهذا هو الأساس، لأن العمل الإبداعي بالنسبة للكاتب يتم تداوله بشكل أوسع بفضل الجوائز. وتبقى مسألة الترجمة، حيث أنه في الغالب يترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والاسبانية. ورغم هذا يبقى تداول الكتاب محدودا، نحن نتكلم عن قارة معزولة نوعا ما، أقصد العالم العربي، فعندما نتكلم عن الكتاب نتكلم أيضا على وضع وظيفة الكاتب داخل هذا المجتمع، وظيفة المبدع داخل هذا المجتمع، وإذا رغبتنا أن نفهم ما تم تداوله خلال هذه الجلسة علينا أن نقرنه بجلسة الصباح، عندما كانت نتحدث كاتبات عربيات عن أسئلة الكتابة لديهن، ولعل هذه الجلسة تكملة وتنمّة لجلسة الصباح، بمعنى أنه عندما نتحدث عن شجون الكتابة، وعن حضور الكاتبة داخل مجتمعاتنا العربية عموما، لا ترتبط المسألة بكتابة عمل يمكن أن يحقق مبيعات كبرى، أو أن يتم تداوله بشكل لافت، ولكن دعونا نتساءل أولا، ما هي وظيفة الكاتب أو الكاتبة في ظل مجتمعات أقل ما يمكن أن تتشغل به اليوم هو الخبز وسؤال التنمية والعمل. أحيانا كأننا نتكلم عن شيء هلامي في وسط مجتمعي. آخر شيء يفكر فيه هو وضعية الكاتب أو الكاتبة داخله. دعونا نبدأ أولا من الهيكل المريض، نحن نتكلم عن ماركة مسجلة بهيكل قديم جدا ويجب أن يتغير. فلنغير، أولا الهيكل ثم نرى الماركة المسجلة وشكرا.

محمد علاوة حاجي

شكرا لك. الأستاذة ديما لو تحبين أن تتدخلتي، وتعقبني على الحديث.

ديما

تتمة لما قاله الأستاذ هو بعدما أصبحت الفكرة تباع وتشتري، أصبح صعب على الكاتب أن يكتب أي شيء، في الغرب تجد الصحف والجرائد تباع بكثرة، لماذا ؟ لأنه حين أصبحت الفكرة تشتري، أصبح الكاتب صعب عليه أن يكتب. أصبحت المشكلة في مجموعة أشياء منها الكتابة، وبيع الكتب لأن الكاتب ليست لديه الحرية والمساحة التي يكتب فيها، لأنه محاصر بقوة اليومية، وبالدولة التي يعيش فيها، يجب أن يقول ويعرف ما يقول، يجب أن يكتب ويحتاط، وأن يكتب ليفوز بجائزة، فأصبح الكاتب محصورا، فلذلك القارئ يعتبر أيضا محصورا. في الدول العربية الناس لا يقرأون، لكن في الغرب : في ألمانيا وفرنسا دائما الكتب في الباصات، يقرأون في أي مكان لأن الفكرة لا تباع ولا تشتري.

سكينة حبيب الله

بشكل عام، أريد فقط أن أعقب بسرعة عما قاله الأخ عادل، نحن محكومون بظروف اقتصادية خانقة، فكيف سنكتب، أظن أنه ربما أعيد ما قاله «بريخت» أي ألا يقال «كانت أوقات صعبة»، ولكن سيقال «لماذا صمت الشعراء؟».

إيناس العباسي

أنا ربما تعقيبي أيضا على كلام الأخ الذي قال نحن شعوب لا نقرأ، أود أن أدافع عن القراء، نحن شعوب نقرأ إذا أتيح لها الكتاب، ربما يمكن أن نضع اللائمة على الناشر الذي لا يوزع، يحق لنا أن ننتقد أي شيء ما عدا القارئ. بالنسبة لي نحن شعوب تهفو للقراءة وعلينا ألا نجلد أنفسنا لدرجة نعتبر أنفسنا كائنات محكومة جينيا بالجهل، هذا هو تعقيبي.

خلود الفلاح

كل ما أتمناه أن تنتهي الحرب في بلادي فقط لا غير.

محمد علاوة حاجي

شكرا لجميع الكاتب المشاركات معنا في هذه الندوة، نتمنى أنها كانت خفيفة الظل عليكم، ونلتقي في معرض آخر وندوات أخرى إن شاء الله، شكرا جزيلا.

رئيسة الجلسة : كريمة اليتربي
المشاركون : زهور رحييل، محمد حاتمي، بول دحان
فضاء : سيمون ليفي
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 15 : 30 - 16 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

سرعان ما استعادت وكالة جهة الشرق وهج وتنوع تراثها الثقافي اليهودي المادي وغير المادي. علاوة على ذلك، فقد كان لتواجد المواطنين اليهود في الجهة بالغ الأثر من الناحية التاريخية وإنه سيكون من الحماسة نكران ذلك. وكان سيكون ذلك بالفعل بترافق مرفوضا لحقبة من الماضي السعيد الذي يعترف به عدد من مواطني جهة الشرق يهودا كانوا أم مسلمين. وبالتالي فقد أثمر هذا العمل الصبور الرامي لإعادة بناء هذا الماضي وجمع الشهادات إضافة إلى الاستعانة بالخبرات العلمية سواء داخل المغرب أو خارجه، عن نشر مؤلف حول «ذاكرة يهود المغرب الشرقي» وهو كتاب جميل صدر سنة 2013. ومن رحم هذا المشروع ولدت فكرة إنشاء مركز ذاكرة مخصص للتعريف بأسلوب حياة المجتمع اليهودي على مر العصور، كما يليه مشروع آخر يدخل دائما ضمن سلسلة الكتب الجميلة الصادرة عن وكالة جهة الشرق.

يتناول هذا الكتاب جانبا ثقافيا آخر من ماضي التعايش الهادئ بين الأديان : «الشرق المغربي، قرون من فن الطبخ اليهودي». فقد كان التراث الثقافي اليهودي منذ 2017 من بين اهتمامات الموائد المستديرة للمعرض وأعيد التطرق إليه هذه المرة على المستوى المغربي وهو النطاق الطبيعي لروح هذا الحدث. في الواقع، تقتصر المبادرات المغاربية أساسا على المغرب، خاصة منذ إنشاء المتحف اليهودي بالدار البيضاء سنة 1997.



تقدم زهور رحييل محافظة المتحف التي اشتغلت إلى جانب مؤسسه سيمون ليفي، نبذة تاريخية عن المنهجية المتبعة كما تقدم تقييما للتطور الملحوظ على مستوى الاهتمام بالمكون اليهودي المغربي.

خارج العالم العربي هناك أعمال تتعلق بالمتاحف، في اسطنبول مثلا ولاسيما في بروكسيل، والحديث هنا عن بول دحان، العاشق للفن وهو بالفعل مواطن العالم، والذي سيتحفنا بتدخله في هذا الموضوع. ولقد كانت السيدة كريمة اليتربي، المشرفة على هذه المائدة المستديرة، إلى جانب الأستاذ محمد حاتمي قد حصلا آنذاك على منح من مركز الأبحاث حول يهود المغرب في إطار سلك الدكتوراه. وهما من أحسن العارفين بشؤون المجتمع اليهودي بحيث يدرجان في دروسهما المعارف التاريخية الضرورية من أجل استيعاب أفضل لكل أبعاد تاريخ المملكة. ومع مداخلة السيد معاذ الجامعي والتي جهة الشرق، فإن السؤال المطروح حول التشتت الحاصل في جزء كبير لهذا التراث، والمبعثر حاليا في العالم كما هو حال مجتمع اليهود المغاربة منذ السبعينات. ومن الواضح أن رهان المغرب المعاصر يكمن في القدرة على التوفر يوما ما على هذا التراث ووضعه رهن إشارة الباحثين والمهتمين.

مداخلات المائدة المستديرة

كريمة البتري

سوف نناقش موضوع التراث الثقافي اليهودي في المغرب العربي. ولهذا سأقدم لكم الشخصيات الحاضرة معي اليوم. أولا زهور رحييل، والتي كان يناديها سيمون ليفي «زراعه الأيمن» و «امتدادا الرمادية». عندما كنت أتعامل مع الراحل سيمون، كان يقول لي بحزم «تحدثني مع زهور، فهي تعرف كل شيء». لتخليد ذكره، كان من الواجب علي أن أقول ذلك اليوم علانية. أنا سعيدة جدا بتواجدك معنا زهور أو بالأحرى سعيدة بتواجدي معك أود أن أقولها على هذا النحو. زهور هي محافظة المتحف اليهودي بالدار البيضاء، فضاء جميل نزوره في كل مرة سنحت لنا الفرصة بذلك. إنها موجودة دائما لاستقبالنا كما أدعو الوجديين لزيارة المتحف إذا ما أمكن ذلك، إنه موعد بالغ الأهمية. شكرا لك زهور على تواجذك معنا اليوم. أنتقل إلى بول دحان. لقد ولدت بفاس من أم مغربية وأنت محلل نفساني ومحافظ متحف الفن اليهودي المغربي ببروكسيل. عاشق للفن، ويقال بأنك مواطن العالم حقا، بل ورمز للتنوع في أصولك كما في طريقة تفكيرك. محب للترحال، كما قمت بعدة لقاءات وصفتها بالغنية جدا، ولا أقصد هنا الغنى المادي وإنما الثقافي أو حتى الروحي. وسوف تحدثنا عن ذلك لاحقا. وبفضل هذه الرحلات قمت ببناء نفسك وصرت مهتما بما يمكن أن نطلق عليه البحث عن الآخر، وبحث عن الذات أيضا. وهذا ما دفعك لاستكشاف الفن اليهودي المغربي في جميع تجلياته: مخطوطات، أدوات دينية، وصولا إلى المجوهرات ومرورا بالملابس. تمتلك اليوم إحدى أكبر مجموعات المخطوطات اليهودية المغربية، إنه كنز حقيقي تعرضه باستمرار ويعناية في بروكسيل. تقول إن الهوية معقدة وتبنى حسب الوسط الذي نترعرع فيه. هل يمكن أن تحدثنا عن هذا الموضوع؟

بول دحان

يمكن قول الشيء الكثير في هذا الصدد، لأن الأمر يتعلق في هذه الجملة بمسألة الهوية ويكوننا نعيش في عالم تحتل فيه الهويات بالكاد اختلافاتها. فالتشكيك المستمر يجعل البعض يحافظ على حالة التوازن، في حين أن البعض الآخر يمكن أن يفقده. أستدرك: سواء في المغرب أو في أوروبا أو في أي مكان آخر، هناك أناس يعيشون في قرية صغيرة وحين يغادرون تلك المنطقة صوب مدينة كبيرة، يمكنهم أن يفقدوا توازنهم تماما لدرجة تجعلهم في أمس الحاجة للعودة من حيث أتوا. سوف أقوم باستمرار خلال مداخلتي، إذا سمحتم، بتقييم الروابط بين هويتي المغربية والطابع النفسي لهذه الأخيرة. فمئذ أربعين سنة وأنا أمارس التحليل النفسي، فالثبات هو رؤية أناس قادرين على التحرك في الفضاء والحفاظ على حالة التوازن عاليا: إنهم أكثر قوة من أناس إذا ما غيروا أماكنهم فقدوا التوافق مع ذواتهم.

ويسري ذلك على أجسامنا أيضا: إذ يأكل البعض الأطعمة نفسها عادة، وإذا ما تناولوا أغذية مختلفة سوف يرفضها الجسم أو سوف يمرضون. إذا فالجسم والروح وجهان لعملة واحدة: فالقدرة على التحرك في الفضاء أو تناول أغذية جد متنوعة روحية كانت أم مادية، يجعل منك شخصا مقاوما في الزمن أكثر من الآخرين في حالة ما إذا تمكنت من دمج وهضم كل تلك المكونات.

إنها لون من التنوع الكبير الذي اكتسبته والذي يخول لي أن أقول بأن الشيء الوحيد الحقيقي والقوي في هذا العالم هي تلك القدرة على التكيف مع التنوع. نأخذ مثال التطرف، سواء كان دينيا، سياسيا أو إزاء المرأة، إلخ. فالتطرف بحكم تعريفه هو شخص ضعيف داخليا: لا يقبل الاختلاف. بحيث لا يمكنه أن يكون طرفا في نقاش متشعب، بما أنه حبيس عالم محدود للغاية.

سوف أشرح أيضا فيما بعد، ما دفعني إلى هذه المجموعة التي قمت بتجميعها منذ أربعين سنة والتي لم تكن مصممة في بداية الأمر للمعارض، ولكن بالأحرى من أجل ترميم هويتي. لقد غادرت المغرب وأنا في سن الثامنة عشر. فكرت بأن تغيير البلد يرافقه تبني هوية جديدة، وبعد خمسة عشر سنة أدركت أنه من المستحيل جدا فقدان أساس الهوية، سوف تلاحقنا دائما أينما حللنا وارتحلنا. بالتالي فهذه المجموعة سمحت لي أولا بأن أشفي الماضي، وأصلح هويتي.

كريمة اليتربي

شكرا لك بول على هذا التوضيح، أتوجه بالكلام الآن إلى زهور رحييل. لقد تحدثت عنك أثناء استحضار سيمون ليفي. إن من عرفه يعلم جيدا أنه ليس سهل المراس لكنه كان شريفا وعظيما في أفكاره. وفيما يتعلق بك زهور، بعد حصولك على شهادة البكالوريا، تسجلت في المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط، وبعد مضي أربع سنوات، خصصت بحث التخرج في الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا للأقلية اليهودية المغربية. في سنة 1995 أنشأ سيمون ليفي مؤسسة الطائفة اليهودية بالدار البيضاء، وتقلد فيها منصب الأمين العام. وبعد ذلك في سنة 2000، تم تعيينك كمحافظة للمتحف وفي تلك الأثناء سافرت إلى مختلف أنحاء المغرب مع سيمون ليفي. لقد كنتم في رحلة بحث عن شيء معين وكنتم تسعون خلف هدف معين. حبذا لو تطلعينا عن هذا الهدف الذي أفضى إلى كل هذا الغنى الذي نشاهده داخل هذا المتحف.

زهور رحييل

أشكر كريمة وأشكر المنظمين الذين أعدوا هذه المائدة المستديرة في قاعة تحمل الاسم سيمون ليفي، إنه تكريم لهذه الشخصية العظيمة. لقد كان سيمون ليفي بالنسبة لي هرما، منجم معلومات، رجلا استثنائيا ومناضلا كبيرا. وفيما يتعلق بي، فأنا أحمل إجازة من المعهد الوطني لعلم الآثار والتراث، ثم اخترت بعد ذلك شعبة الأنثروبولوجيا. ثم التحقت بالمعهد العالي للصحافة حيث كنت أدرس الأنثروبولوجيا البصرية في محاولة مني لإنجاز أفلام وثائقية عن الحقائق الإثنوغرافية التي تميز الثقافة المغربية. ولقد أتاحت لي الفرصة في هاتين المؤسستين للعمل على المكون اليهودي المغربي، لم أتمكن، آنذاك، من الاشتغال على هذا الموضوع دون لقاء سيمون ليفي. لماذا ؟ لأن هناك فترة ما قبل 1997 وفترة ما بعد 1997. لقد كنا في الواقع قلة من الطلبة المغاربة نشتغل على موضوع الثقافة اليهودية المغربية. وعندما أردنا النزول إلى الميدان الإثنوغرافي والذهاب لمقابلة المسؤولين عن الطائفة اليهودية بالمغرب وجدنا أنه في أغلب الأحيان كانت المؤسسات اليهودية منغلقة على نفسها. لقد كان الأمر في غاية الصعوبة على طالب مغربي من عقيدة إسلامية وما يزال هذا الوضع قائما حتى يومنا هذا، وأوجه كلامي إلى المسؤولين اليهود. لقد بدأت الاشتغال على الموضوع قبل سنة 1997، لاسيما حول الهيلولة : الحج اليهودي المغربي. إنه تقليد مشترك بين اليهود والمسلمين.

ما يطلق عليه اليهود «هيلولة»، يسميه المسلمون «موسم». لقد كان من الصعب جدا النزول إلى الميدان وكان لا بد من الذهاب إلى سيمون ليفي. التقيت به في كلية الآداب بالرباط حيث كان يشتغل أستاذا للغة الإسبانية وأدائها. لقد كان ذلك اليوم بمثابة ثورة في حياتي. لقد بدأنا معا لمدة أربع سنوات. تمكنت خلالها من إنجاز مهام في المعهد الوطني للآثار والتراث ومعهد الصحافة ثم طلب مني المساعدة. لقد كان فتح متحف يهودي نوعا من المغامرة في بداية الأمر، هذا في الوقت الذي كانت فيها المؤسسات اليهودية متفوقة حول ذاتها، بيد أن المتحف أضحى استثناء. وما كان مميزا جدا هو افتتاح المتحف رسميا سنة 1997 حيث صارت المؤسسة الوحيدة التي تحتضن الآخر، والوحيدة التي يمكن للمسلم أن يزورها، أن يستكشفها وأن يعيد ترميم جزء من هويته عبرها، كان هذا نوعا ما شكل من أشكال المصالحة مع الذات.

مرافقة سيمون ليفي كانت بالنسبة لي نوع من المصالحة، في الواقع، اكتشفت أن الكثير من المغاربة المسلمين يحملون أيضا تلك الهوية اليهودية، ويحمل اليهود المغاربة بدورهم تلك الهوية الأمازيغية العربية المسلمة. نعيش داخل المجتمع نفسه ويفعل التاريخ، وقع نوع من التمزق بين الطائفتين عقب رحيل اليهود المغاربة نحو إسرائيل أو إلى وجهات أخرى، خاصة من أبناء جيلي. لقد عاش أجدادنا وأباؤنا جنبا إلى جنب مع اليهود، فحكوا الكثير من الأشياء، أما بالنسبة لنا، فالاشتغال على هذه الطائفة كان مصالحة مع التاريخ. حاولنا إيجاد جزء مفقود منا عن طريق القيام بخطوة أولى نحو الآخر وسبر أغواره. اكتشفت من خلال السفر مع سيمون ليفي إلى عمق المغرب، في مناطق وقرى ومدن، المغرب الحقيقي. وهكذا أتيت لي الفرصة لاستكشاف جزء من ذاتي ومن هويتي.

كريمة البتري

ينضم إلينا محمد حاتمي في الوقت المناسب. أتفق تماما مع كل ما قلته زهور رحييل، أعرفها جيدا كما أعرف المتحف أيضا، واشتغلت بدوري حول كاتب مغربي يهودي (وليس يهودي مغربي، أدق في اللفظ، إذ كان يعني له ذلك الشيء الكثير) : إدمون عمران المالح. لقد خصصت له كتابا «صوت الذكريات»، كتب مقدمته الأستاذ الموقر إدريس خروز والذي لن أوفيه حقه كفاية من الشكر والتقدير، حيث قدم هذا الكتاب للسيد أندري أزولاي، ثم قدمته بنفسه لجلالة الملك، فعندما نتحدث عن تمزق الذاكرة وعن المصالحة مع الآخر، صحيح أن في ذلك حفاظ على التراث المادي وغير المادي، بينما يمكننا أيضا الحفاظ عليه من خلال الأدب. لقد تحدث الكتاب عن هذه الذاكرة، عن هذا الرحيل شبه الإجباري للمغاربة اليهود الذين ذهبوا يوما للاستقرار في مكان آخر.

في نظري أن الكتاب الذي ينقل لنا الصورة بقوة هو مؤلف إدمون عمران المالح «ألف عام بيوم واحد». لقد عاشوا أكثر من ألف عام في المغرب وفي يوم أجبروا على المغادرة قسرا. وما يثير الاهتمام اليوم هو عودة هؤلاء المغاربة : ففي كل مرة تتأتى لهم فرصة العودة فإنهم يرجعون. لا أريد أن أطيل، ولكن أقول ببساطة على أنه كلما دعنتي زهور للدار البيضاء في إطار الاحتفال بالميمونة، أو كل الأعياد الدينية المغربية اليهودية، فأنا ألبى الدعوة بفرح، وأشعر في أعماقي أنه من واجبي كأمازيغية من جنوب المغرب، والتي أتقن جيدا اللهجة الأمازيغية. أشعر في الحقيقة بالتقارب الشديد في مكان ما، داخل هذا المتحف، أشعر بالانتماء. يمكن لهويتنا أن تحمل عدة انتماءات. أدعو الطلبة لقراءة نص جد مهم لأمين معلوف «الهويات القتالة». أدرس هذا الكتاب للطلبة في الجامعة وهناك عدة أبحاث حوله. يعالج الكاتب تحديدا قضايا الهوية والانتماء، فضلا عن سبل الانفتاح على الآخر مع الحفاظ على الهوية الخاصة.

أود أيضا تحية شخصا يوجد الآن بين الحضور، بكل التواضع الذي نشهد له به، السيد معاذ الجامعي. نشكر على حضورك، التي يرتقي فعلا بجودة اللقاء. نعرف أنك مثقف وكما العادة تثبت ذلك بسهولة. أعود إلى محمد حاتمي الذي حظيت بفرصة التعرف عليه. وجب علينا الإعراب عن تقديرنا للمغاربة اليهود كوننا حصلنا على منح دراسية من مركز الأبحاث عن يهود المغرب، وهكذا تعرفنا على بعضنا البعض، إلى جانب السادة روبير أسراف، ميشيل بوطبول وألبير ساسون. لقد رافقونا في بحثنا. إننا نشيد بهم ونشكرهم. اضطلع أباؤنا بمهمة التربية وأسأدتنا بمهمة التعليم، ولكن مول أصدقائنا اليهود المغاربة دراساتنا العليا، وبفضلهم، نتقلد اليوم مناصب إستراتيجية في الجامعة.

محمد حاتمي

بادئ ذي بدء أود أن أشيد بسيمون ليفي، لأنه ترك لنا ذاكرة غنية وموروثة ثريا، لاسيما أنه استطاع أن يثبت أن العيش في الحاضر والتفكير في المستقبل لا تتحقق استمراريته إلا إذا كان هناك اهتمام بما سماه إرث الأسلاف.



كان يقول دائما : «إن الصلاة في الكنيس، أمر جميل. بيد أن الصلاة في كنيس يعود للقرن الثامن عشر في ملاح فاس، ذلك أمر مختلف» من المؤثر دائما زيارة مقبرة، ولاسيما في إعطائها معنى لنسب الأسلاف. وبذلك نجح ليفي في أن يزرع في أنصار دينه الحب، التقاليد، حماية وتعزيز التراث المادي. أرغب في أن أحدثكم عن هذا الاهتمام بالتراث اليهودي. إذ يندرج في إطار إعادة تشكيل الهوية المغربية. لطالما قيل أن المغربي سعيد، لأنه كان عربيا ومسلما من وجهة نظر الهوية. واستمر ذلك منذ الثلاثينات، منذ الظهير البربري، منذ أن قام علماء الدين بوضع قواعد للهوية المغربية.

رحيل اليهود في الخمسينات والستينات أفرز ما أسماه فيكتور مالكا «يهود الصمت». نصل إلى المسيرة الخضراء وما تلاها من إعادة تشكيل الهوية. ثم جاء بعد ذلك إعادة الاعتبار للغة الأمازيغية واكتشاف أن الهوية المغربية متعددة الأبعاد وأن هناك مكونات عديدة في هذه الهوية : الأمازيغية والإفريقية...

حينها، أعدنا الاعتبار للمكون اليهودي. كانت سنة 1977 محطة جد مهمة في تاريخ اليهودية المغربية، لأنه في إسرائيل وصل حزب الليكود إلى السلطة من خلال الفوز على حزب العمل. يعود الفضل لجزء كبير في هذا التغير إلى النخبين السافريديم والذين يشكل المغاربة غالبيتهم. هنا، اليهود المغاربة الذين أرادوا في السابق أن يصيروا أشكناز، أعادوا اكتشاف هويتهم وتراثهم وردوا له الاعتبار، في إسبانيا وأيضا في المغرب. هناك رجل ذكي جدا وجد سبيل الاستفادة من إحياء هذه الهوية : إنه صاحب الجلالة الراحل الحسن الثاني. لقد كان في حاجة إلى هذا اللوبي، ولقد استثمره. نتذكر جيدا انعقاد تلك الندوة العظيمة حول الهوية والحوار في باريس سنة 1977.

وبعد هذه الندوة، أطلقت عدة مبادرات، إذ وضع مجلس الطوائف اليهودية بالمغرب سنة 1986 برنامجا ضخما من أجل إحياء السياحة اليهودية عن طريق تشجيع الهيلولة، تندرج ضمن جولة لمدة خمسة عشر يوما. لا أملك الوثيقة الآن، ولكن نجد ذلك في مقال يتم إرساله لكل الجاليات المغربية في العالم مفاده : «إنها فرصة إحياء اليهودية المغربية».

وعلى صدى هذا البعث والإحياء، تم إنشاء الاتحاد الدولي للطوائف اليهودية بالمغرب برئاسة دافيد عمار، وأعيد النظر في المكون اليهودي لتاريخ المغرب والتعامل مع قضية التراث المادي. لا أدرج في الحديث التراث غير المادي ذلك لأن الجامعات الإسرائيلية تضطلع بالمهمة. يوجد مقال مهم جدا لكتابه سيمون ليفي يعدد فيه مواقع الذاكرة التي وجب إنقاذها، ويؤكد على كونها تراثا مغربيا بالنسبة له، وليس فقط قضية تتعلق باليهود.

لا يمكن للدولة المغربية، بطبيعة الحال، أن تتكلف بالأمر لأن وزارة الثقافة لا تملك من الميزانية ما يكفي لتغطية جميع المصاريف. وبالتالي يقع على عاتق الطائفة مسؤولية إعادة تأهيل هذا التراث. فمزد الثمانينات، بدأ الأمر كله بافتتاح كنيس بفاس، ومازالت أتذكر جدا ذلك اليوم حيث تمت دعوتنا إلى جانب المدير السابق لليونيسكو ألبير ساسون.

يكمن التحدي الاستراتيجي بالنسبة للمغرب في الوصول إلى سقف عشرين مليون سائح في السنة، حيث تراهن بعض البلدان على السياحة الشعبية، بينما يهدف المغرب إلى تطوير سياحة الجودة. لا أعرف الأرقام بالضبط. إلا أن التقديرات التي تفيد بوفود عشرين مليون إسرائيلي إلى المغرب تبدو لي مبالغ فيها. وفي هذا الصدد، فإن التراث اليهودي المدمج في الجولات داخل المدن والقرى ذو قيمة جاذبة كما يعزز هذه السياحة الدينية. السكان يرحبون بهم جدا، أرى ذلك جيدا أثناء القيام بجولاتي في فاس ومكناس وفي الجنوب، لاسيما إذا تعلق الأمر بالسياحة اليهودية، دون طلب الجنسية، لأن هناك صلة تتجدد. بالإضافة إلى ذلك، هناك ذاكرة منبعثة ومعززة، ومن هذا المنطلق، فإن الاهتمام بالتراث اليهودي يعد بمثابة رأس مال بالغ الأهمية في إعادة تشكيل الهوية المغربية، مسلمة كانت أم يهودية.

كريمة اليتربي

أصبحنا نتحدث اليوم عن التراث الثقافي اليهودي، وأعتقد أنه من الأفضل إضافة لفظ «الحفاظ»، إذ أن ما يعيننا هو الحفاظ على هذا التراث. صحيح أن التراث موجود في مكان ما، مخابأ. أتوجه هنا بالكلام إلى بول: أنت عاشق كبير للفن، وتملك واحدة من أجمل المجموعات، ما هو سبيلك للحصول على هذه الأشياء؟ هل للعاطفة الوطنية دور في ذلك؟ عندما يملك شخص شيئا يعود لأسلافه، فإنه يكون من الصعب جدا الانفصال عنه، ولو حتى لعرضه داخل متحف وليس للاستعمال الشخصي. هل يستطيع الناس الانفصال بسهولة عن الأشياء التي احتفظوا بها لمئات السنين، والتي ورثتها أجيال عن أجيال، ونطلبها منهم باسم المغرب والذاكرة؟ إن الأمر أشبه بأن تطلب من أم أن تسلمك ابنتها، أليس في ذلك انتزاع لشيء ثمين استثمروا فيه ذاكرتهم؟ يمكن أن يكون ذلك الشيء عبارة عن ملابس، مجوهرات، أو حتى مخطوطات. كيف تفعل ذلك بول؟

بول دحان

للإجابة عن هذا السؤال، سوف نعود لشيء سبقت الإشارة إليه: مسألة الذاكرة. يتحرك الناس خاصة في مجتمعات منطقة البحر الأبيض المتوسط، بفكرة أن حيثما ذهبوا سيكون أفضل حال من حيث أتوا. فهؤلاء رحلوا في غالب الأحيان تاركين كل شيء خلفهم، لتغيير لباسهم ومجوهراتهم... فإن العلاقة مع الذاكرة هي الأهم. إن السؤال الذي يؤرقني كل يوم فيما يخص المغرب، الذي أعرفه قليلا، لماذا يريد كل اليهود العودة إلى هذا البلد بالذات. يوجد يهود في العالم بأسره، مشتتين في كل مكان. حالهم كحال المغاربة نوعا ما: حيث نجدهم حتى في فنلندا وأماكن أخرى. ينطبق الشيء نفسه على اليهود. ولكن ما الذي يجعل من اليهود المغاربة اليهود الوحيدين الذين يعودون إلى موطنهم، ويرتبطون ارتباطا وثيقا به؟ طرحت على نفسي هذا السؤال: لما يتوفر المغرب على هذا النوع من الجاذبية والرغبة؟ في اعتقادي أن الأمر معقد جدا كما لا أملك جوابا شافيا، ولكن لا نستغل كفاية هذا الإحساس الذي يجعل اليوم، على سبيل المثال، في إسرائيل هناك انتشار الموسيقى الأندلسية والتي تشهد انتشارا أكثر في المغرب على ما أعتقد. إنه لأمر مدهش! حقا، كل يوم، هناك في مختلف مدن البلاد طلبات لحفلات الموسيقى الأندلسية التي تجذب ما بين 300 و3000 شخص. بالتالي فقد اجتاحت هذه الموسيقى هذا البلد المكون أساسا من الأشكناز. لماذا؟ ذلك لأن الموسيقى تأخذك إلى ذاكرة بعيدة وتهدي الروح. من المذهل رؤية ملايين الناس، لم يولدوا حتى في المغرب، يحبون ويذهبون لدراسة الموسيقى العربية، تأديتها كما لو كانت تسكنهم.

إنهم ظواهر الذاكرة وفي تقليد اليهودية، عندما تدخل كنيسا، أبيات معلقة على سبيل المثال مع فتائل صغيرة تضيء هذه النصوص. ليس فقط لإعطاء الضوء للأشخاص الذين يقرأون هذه النصوص، إذ أن هذه الأبيات هي علامات لأشخاص متوفين : إنهم هنا لتذكير مستمر بانتمائك إلى تاريخ، وبكونك حلقة من حلقات التاريخ وبه وجب التذكير بأن أسلافك مروا من هنا. لقد رحلوا جسديا، ولكن في الثقافة اليهودية، فإنك تراهم من الولادة حتى الممات. توجهوا إلى مقبرة تطوان وسوف تجدون على القبور : هناك أنواع من جماعات الضغط (اللوبيات). نجدها على الكفن. تشير إلى أن الجسم يختفي لكنه ينقل إلى الأطفال تقاليد عريقة. والأهم من ذلك، أنها ليست مادة جسمي، لست أنا.



لم تبدأ حياتي بولادتي ولن تنتهي بموتي : مهدي هو أسلافي. من المهم جدا لكل ثقافة أو كل حضارة أن تحافظ على هذه الذاكرة التي تضيق وأعتقد اليوم أن الوضع طارئ في المغرب، بل أيضا في أماكن أخرى. يمكن أن تستهينوا الموسيقى الجديدة ولكن دون أن نهجر الموسيقى القديمة، لأن المسألة لا تتعلق بالطرز وإنما بالحفاظ على التقليد. مهمتي كانت جمع أكثر من 3 000 قطعة، وأكثر من 100 000 مخطوط عن المغرب، بالعربية والعبرية والبرتغالية والاسبانية... إنها وسيلة الحفظ إذ أدرك أن أطفالنا سوف يؤاخذوننا على عدم إطلاعهم بوجود تاريخ من قبلنا بل تاريخ غني. لقد فعلت ذلك لنفسي أولا، ولكن قمت به كذلك للحفاظ على التقاليد.

يعيش اليوم عدة مغاربة في الخارج، يجهلون أصولهم وتاريخهم، فلا يجب أن نتعجب إذا أصبحوا من أنصار التطرف الديني، الأصولية وربما الإرهاب، لأننا لا نشفي غليلهم بإخبارهم من أين أتوا. هذا التناقض مهم جدا وأنا أصر على ذلك لأن هذا عملي منذ ثلاثين سنة، حيث أقيم معارض، وأبين لهؤلاء الشباب المغاربة أن عليهم الافتخار بأصولهم وتاريخهم، شريطة أن يعرفوه، حيث إن الأشياء لا تكون لها قيمة إلا إذا لمس الناظر جوهرها.

الحجر لا تاريخ له، يبقى فقط حجرا، ولكن عالم الآثار يعلم ما ينطوي عليه. لذا وجب بعث الحياة في الأشياء، لأن أناسا قدموا حياتهم في سبيل ذلك، دفعوا دماءهم، فلا يمكننا نسيانهم واعتبار أنه إذا مات شيء فهو لم يعد موجودا. وما يحز في نفسي أنه في المغرب ليست هناك للأسف أصواتا كافية ترتفع لتقول أنه في هذا البلد، عاش يهود وتركوا بصمات ما تزال حية، في غفلة منا.

أنا على سبيل المثال، لست يهوديا مغربيا، أنا أيضا مسلم وأمازيغي كذلك، لأنني شئت أم أبيت، فإن ذلك جزء من تاريخي وبنفس الطريقة التي عشت بها في الدول الاسكندنافية، فلا ينبغي لأحد أن يقرر هويتي. الأنا هو تراكم كل شيء أدرجته.

كريمة اليتربي

أشكرك، لقد هيأت انتقالي. قبل أن أجيبك، أود أن أرحب بحضور عبد القادر الرتتاني، ناشر مجتهد ! أعرفه جيدا كما أعرف كل العمل الذي قام به ليعد معنا ما كان سينشره. نتوجه بالتهنئة له أيضا على الكتب الجميلة حول ذاكرة يهود المغرب الشرقي وحول المطبخ اليهودي لهذه المنطقة. وهذه هي طريقة حفظ الذاكرة.

تحدثت، بول، عن الموسيقى الأندلسية بينما يحضر معنا نواق كبير وهو السيد الجامعي. عندما كنت أشتغل في ديوان وزير الثقافة، كنت أراك تأتي دائما بهدوء وتردد أبياتا. كنت أرى فيك الإنسان ولكن أيضا الفنان. إنه من الجميل جدا أن يعيش شخص عدة هوايات تتكامل فيما بينها. فهناك إذا، الموسيقى الأندلسية، ولكن هناك أيضا أغاني من الموروث الشعبي المغربي. على سبيل المثال، غنى حميد الزاهر أغنية رائعة يرحب فيها بعودة جلال الملك الحسن الثاني إلى مراكش بعد طول غياب أحزن المراكشيين. فأعادت ريموند البيضاوية تأديتها.

ينضاف إلى ذلك المطبخ اليهودي ولن نستطيع أن نشكر زهور كفاية لأننا عندما كنا نزورك في المتحف بمناسبة الميمونة، كان هناك دائما ذلك البوفيه وتلك الجملة التي تتكرر : «تربحو وتسعدو» فننتشارك بعدها الطعام. هذا يعني أن حفظ الذاكرة لا ينحصر فقط على الصعيد المادي وإنما أيضا على الصعيد غير المادي. هناك الغناء والموسيقى واللباس خاصة تلك الأزياء الجميلة الموجودة في المتحف وأدعو الوجديين إلى التوجه إلى الدار البيضاء وزيارة ذلك الفضاء حيث ترقد روح الراحل سيمون ليفي. زهور شديدة الحرص على وجود كل شيء في مكانه.

عزيزي بول، لقد قلت : «أعتبر نفسي مسلما كما أعتبر نفسي أمازيغيا.» توجد فيك إذا كل تلك المكونات التي تجعل منك ما أنت عليه الآن. لا تتوقف أبدا عن الدعوة إلى لقاء الآخر والتقاسم، كما ترفض أي شكل من أشكال الوصم : لا تقول أبدا «يهودي» أو «مسلم» ردءا للوصم. هل يمكنك أن توضح أكثر ؟

بول دحان

أعتقد أنه منذ اللحظة التي نقول فيها «اليهود» و «المسلمون»، فنحن نفصل ما لا يمكن فصله. «اليهود» ماذا يعني ذلك ؟ ليس بالشيء الكثير في حد ذاته. إذ يختلف يهودي من جنوب شرق المغرب عن يهودي من طنجة. سوف يكون اليهودي المنحدر من تافيلالت أقرب إلى الأمازيغي من نفس المدينة على اليهودي من طنجة. أنا معتاد على العمل مع الأفراد ؛ لكل إنسان قصة، قصة معقدة وعليك التحدث إلى كل إنسان حسب تعقيده وتاريخه. وبمجرد أن نقول «اليهود» و «العرب»، فإننا نصنع خلافا، كما لو كنا في ملعب لكرة القدم حيث لا يرتدي المشجعون نفس الوشاح إذا فهم بعضا لبعض أعداء. في رأيي، علينا أن نتعامل مع الاختلاف. تكمن ثروة الإنسان : في قدرته على التعايش بدل الانفصال.

كريمة اليتربي

زهور، في إطار المتحف، لقد نظمت لقاء كبيرا مع تلاميذ ثانوية ديكارت بالدار البيضاء. لقد خصصت اليوم للم شمل المغاربة، مسلمين ويهود، بحضور جوزيف شطريت الذي عرض مجموعة جميلة جدا من المجوهرات الأمازيغية. هل يمكنك أن تحدثنا عن المتحف لكي يعلم الجميع مصير المجوهرات المستعادة باسم الذاكرة ؟

زهور رحيحيل

أود أولاً أن أشيد بحضور السيد الرتتاني لأنه رمز لذلك الشغف الذي نحمله اليوم إزاء الثقافة اليهودية في المغرب. هناك مرحلة ما قبل سنة 1997 ومرحلة ما بعدها. إذ شهدت سنة 1997 إنشاء هذا المتحف اليهودي المغربي، المتحف اليهودي الوحيد المنشأ في العالم العربي. ولا أقصد العالم الإسلامي لأن هناك أيضاً المتحف اليهودي باسطنبول. هناك متحفين يهوديين مغربيين، من بينهم متحف بول دحان ببروكسيل. ولتعليل هذا الشغف، نذكر الجمعيات الناشطة في عدة مناطق المغرب. نجد أيضاً أن كل الجامعات المغربية تشتمل على قسم مخصص للتراث. نستقبل عشرات الطلبة من عقيدة إسلامية في المتحف.



ولد هذا الشغف بفضل متحف اليهودية المغربية، ولكن أيضاً بفضل خلق مؤسسة التراث الثقافي اليهودي المغربي. يجب الإشادة اليوم بأربعة مغاربة والذين أخذوا مبادرة فتح فضاء ثقافي مخصص لشرح تاريخ اليهود لمواطنيهم المسلمين : سيمون ليفي، جاك توليدانو، بوريس توليدانو، ليشملهم الله برحمته، وسيرج بيرديغو. لقد كان المتحف بمثابة مغاربة على قول سيمون ليفي، والذي كان يرغب في أن نناديه «شمعون». كان يقول مثلاً عربياً مفضلاً مفاد «من لم يمر من السبيل الضيق، لن يعرف الطريق العريض» يصور هذا المثل كل الصعوبات التي اعترضتنا لفتح هذا المتحف. فالعمل اليوم في ميدان الثقافة وفتح متاحف، أمر في غاية الصعوبة. بالمناسبة، أشكر بول دحان الذي وهب بين 1997 و2000 مجموعة من القطع التي تندرج ضمن اليهودية المغربية. من حسن الحظ أن بول دحان يملك مجموعة جميلة جداً، وأعتقد أنها فريدة في العالم. سوف نواصل العمل عن طريق تنظيم المعارض وتظاهرات ثقافية، لاسيما بإعادة إحياء التقاليد المشتركة، الهيلولة، الميمونة، وإعادة بناء خيمة السعف في حديقة المتحف. أدعو المدارس لشرح ما هو عيد العرش أو سوكوت (أو ما يطلق عليه المسلمون عيد النواله).

كريمة اليتربي

لقد تحدثت عن التلاميذ من عقيدة إسلامية الذين يترددون كثيراً على المتحف، واستقبلت طلبتنا، وأنا أرحب بذلك إذ كنت قد أرسلت طلبتي بالذكثوراه. ويدخل ذلك في إطار درس حول الأدب المغربي باللغة الفرنسية في جامعة محمد الخامس بالرباط.

لقد كانت صدمتي قوية عندما اكتشفت أنه لا يوجد مؤلفات لكتاب يهود. فأدرجت حينها ولأول مرة مؤلفات إدمون عمران المالح. كما يحضر طالبان في الدكتوراه أعمالا بحثية عن هذا الأدب. أعود إلى دور المدرس والأسناد الجامعي، في طريقة استرجاع وترميم وحفظ هذه الذاكرة عبر الكتابات والأدب. أتوجه بالحديث في هذا الصدد إلى زميلي وصديقي محمد حاتمي، بكونك أيضا أستاذا جامعيا. هل يمكنك أن تحدثنا عن تجربة الإشراف على أطروحات الطلبة التي تهدف إلى حفظ هذه الذاكرة ؟

محمد حاتمي

سأحكي لكم عن قصة عايشتها سنة 1997. قصدتني طالبة من تازة بعرض التسجيل في رسالة الدكتوراه حول موضوع يهود تازة. وقالت لي : «ليس هناك ما يدعي للخوف من الشرطة ؟» مازلت أتذكر جيدا أنه عندما سجلت رسالتي، شن أساتذة جامعة فاس الحرب (اختيار اللفظ ليس مبالغا فيه إذ كادت زوجتي أن تسقط الجنين إذ بصفتي أستاذة للعبرية، اتهموها «بالتطبيع» مع إسرائيل، وهي كلمة مشحونة بالتوترات. بعد مرور بضع سنوات، كان هناك على الأقل بحث من أصل ست بحوث مخصصة لليهودية المغربية في الإجازة كل سنة. وفي بحوث الماستر يوجد على الأقل أربع أو خمس مرشحين من أصل عشرين مرشح. الأطروحات التي تعالج موضوع اليهودية المغربية في أقسام الدراسات الإسلامية أو التاريخ تقدر تقريبا بأطروحة من أصل خمسة. بتنا نتحدث في الوقت الراهن عن اليهودية بصفة أكبر في المغرب. وفي برامج التلفزيون أيضا. وندرج مواضيع جد حساسة، مثل الهجرة الجماعية أو الصهيونية المغربية أو العلاقات بين المغرب وإسبانيا، هناك صحف أسبوعية من قبيل «الأيام» التي تكتب عن هذه المواضيع في صفحاتها والأولى وتحقق مبيعات مهمة. لا يمكن تصفح جرائد المغرب لاسيما تلك التي تصدر في نهاية الأسبوع، دون وجود صفحة على الأقل تحمل مقالا عن يهود المغرب. مما سبق، نستنتج أن هناك رغبة في معرفة هذه الحلقة من تاريخ المغرب. كما كان من اللازم أن يستوعب طلبتنا أنه من المستعصي فهم التاريخ المغربي دون دراسة مكونه اليهودي.

على سبيل المثال لا الحصر، لا يمكن فهم أحداث القرن التاسع عشر علميا أو أكاديميا، دون الأخذ بعين الاعتبار إسهام مدن مثل الصويرة. استنشقت الأطروحات اليوم نفسا جديدا : بالمناسبة سوف نناقش أطروحتين الأسبوع القادم، الأولى بمدينة فاس والثانية بالدار البيضاء، والتي تثبت وجود طبقة بورجوازية صغيرة مكونة في جزء منها من أولئك اليهود الذين أعلنوا عصر الحداثة وبفضلهم تمكن المجتمع المغربي من تخفيف وطأة الامبريالية والاستعمار ومواجهة التحديات التي شهدتها منذ سنة 1912 على نحو رائع.

كريمة اليتربي

شكرا على هذا التبادل رفقة محمد حاتمي وزهور رحييل وبول دحان إلى جانب السيد الرتاني. هل تودين إضافة شيء سيدة رحييل ؟

زهور رحييل

في الواقع، موضوع حلقة النقاش هو التراث الثقافي اليهودي في المغرب العربي. ولكن منذ البداية، لم ننظر سوى للتراث الثقافي اليهودي المغربي لأن الجواب يوجد في المغرب، كما أكد لي مسؤولون في التحالف الإسرائيلي العالمي أن العديد من الطلبة المغاربة يفحصون أرشيفهم، على خلاف الجزائريين والتونسيين. ينصب اهتمام العالم العربي الإسلامي أكثر فأكثر حول ترميم ودراسة واستكشاف وحفظ وتعزيز ذاكرته وهويته اليهودية. عندما نقول إن مسلمين يشغلون على اليهودية المغربية، فإننا نطمئن على المستقبل. نتوفر، اليوم، في المغرب على متحف ونرمم المعابد اليهودية. يعتبر المغرب البلد الوحيد العربي الإسلامي الذي يشهد مثل هذه المبادرات. لقد قمنا بترميم أحد عشر معبدا وسوف نفتتحهم كمآثر.

لقد أصلحنا مائة واثنين وستين من المقابر اليهودية في كل منطقة، وهذه مبادرة فريدة من نوعها في العالم. ويبرهن ذلك على الأهمية التي يوليها المغرب لهذه الثقافة. بالمناسبة، كان يقول لي شمعون في هذا الصدد، إن مستقبل اليهودية هو المغاربة المسلمون.

بول دحان

للمواصلة في نفس الاتجاه، أظن أننا نعيش في عصر له طابعه الخاص ومهم جدا من حيث علاقته مع هذه الذاكرة. يبدو لي أنه ليس من محض الصدفة لأننا نتحدث عن الطائفة اليهودية المغربية ولكن هناك أيضا وبكل تأكيد كل الأمازيغ. أعتقد أن كل طائفة انطوت وظلت حبيسة الطائفية فمالها الموت. إذا فالتنوع هو غذاء التواجد في عالم أشمل بكثير فتنبه البعض في المغرب إلى أهمية هذا التنوع لأنها أنقذت المغرب مما شهدته بلدان عربية أخرى. أظن أننا لا نتحدث عن مغرب واحد، وإنما عن مغرب متعدد، إنها ثروة كبرى. إن حماية التراث والتاريخ أمر في غاية الأهمية.



كريمة البتري

لنقف عند كلمة «التنوع» وعند عبارة زهور «مغرب متعدد». إنها ثروة أنقذت المغرب من عدة أشياء وسوف نواصل الابتعاد عنها ما دمنا تحت جناح التنوع وقبول الآخر رغم الاختلاف. ولهذا الغرض بالذات، قمت بحث الطلبة على قراءة الكتاب الصغير لأمين معلوف «الهويات القاتلة». يوضح الكاتب كيف ولد في لبنان وترعرع في فرنسا وأن انتماءاته المختلفة هي أساس ثرائه. الكلمة للحاضرين في القاعة.

بدر الدين فلالي بابا

أشعر بالغبطة وأنا بينكم وأشكركم جزيل الشكر على ما تبذلون من جهد من أجل الحفاظ على هذا التراث. أخص بذكري زهور التي تعرفت إليها منذ حوالي سنة وذلك عقب وصول أصدقاء إلى مسامعي حول هذا المتحف اليهودي المغربي ثم توجهت لزيارته رفقة عائلتي. لقد استقبلتنا زهور ورافقتنا في جولة في المتحف. لم تكن تعرفنا بيد أنها منحتنا تقريبا ساعة من وقتها. أنصح الجميع بزيارة المتحف : ليس كبيرا في المساحة ولكن غني جدا فتشعر بمغربيك أكثر بعد انقضاء الزيارة. ندرك حجم المسؤولية التي تقع على عاتقنا.

قالت زهور إنه من الواجب الحفاظ على هذا التراث، والذي تم إدراجه الآن في الدستور : لدينا هوية متعددة والمكون اليهودي جزء منها. والجدير بالذكر أنه مكون قديم جدا وعريق : إذ نتحدث عن 3 000 سنة. تم العثور على شواهد قبور لليهود في الأطلس الصغير، والتي قد تعود إلى 2 500 سنة. فعندما نتحدث عن اليهود وعن المسلمين، فإننا نرتكب خطأ ربما، لأنه بالعودة إلى أصولنا العرقية فإننا كنا أمة واحدة. حيث كان جزء منه يهوديا، والآخر مسيحيا ثم أتى الإسلام فاعتنقنا الديانة الإسلامية ولكن، في مكان ما، ما زلنا أمة واحدة. قال بول بأنه مسلم ويهودي وأمازيغي في جزء منه، نحن كلنا أفارقة وأمازيغ وعرب وأندلسيون وحسانيون ويهود ومسلمون. إذا لم نحافظ على هذا التراث الذي يغنيا، سوف نفتقر إلى شيء ما. زهور، لقد أوردت في حديثك مسؤولية المغاربة المسلمين في الحفاظ على هذا الأخير. وقول ذلك أمر مهم جدا إذ لحسن الحظ أننا نسمع الآن عن مبادرات مغربية مسلمة من أجل الحفاظ على هذا التراث. أود أن أتكلم عن أولئك الذين شاب شعر رأسهم، الذين ولدوا بين الأربيعينات والستينات. نتحمل درجة معينة من المسؤولية لأننا عشنا في مغرب عاش فيه مئات الآلاف من اليهود بجوارنا. لقد درسنا معهم وضحكنا معهم ولعبنا معهم... وأنا واحد من الذين خالطوا اليهود في فاس ووزان، تلك المدينة الصغيرة التي كانت تعيش فيها طائفة يهودية كبيرة، وكنا نلتقي بهم كما كنا نتقاسم كل يوم طعامنا. إننا نحمل قدرا من المسؤولية ويجب الاضطلاع بها.

أود أن أشير أيضا إلى القضية الفلسطينية. يدافع المغرب عن حق هذه القضية بما في ذلك اليهود. أعيش في مونتريال حيث ستعقد قريبا الدورة 38 لمهرجان السفارديم. فمزد ثمانية وثلاثين عاماً تنظم طائفة السفارديم، التي تتكون أساسا من اليهود المغاربة، هذا المهرجان مع تواجد دائم للموسيقى الأندلسية. وسوف تغني هناك فتاة مغربية من طنجة تدعى لعبيد. لقد خلقت هذه الطائفة جمعية تسمى «الذاكرة والحوار»، والتي تنشط في مجال الدفاع عن القضية الفلسطينية. أختتم بطرح سؤال عليكم جميعا ولاسيما بول دحان. يقدر عدد اليهود المغاربة حاليا بحوالي مليون، حيث يعيش نصفهم في إسرائيل والبقية في أماكن أخرى. أعتقد أنه من الممكن أن يلعبوا دورا فعالا في إيجاد حل عادل ودائم في الشرق الأوسط، بما في ذلك الشعب الفلسطيني، وهذه الفرصة لا تستغل كما ينبغي. إذا كنت تشاطرنني الرأي، فكيف يمكن استغلال هذه الفرصة ؟

معاذ الجامعي، والي جهة الشرق

اسمحوا لي أن أنزع قبعة الوالي. بادئ ذي بدء أتوجه بالشكر إلى وجدة، إذ بفضل المعرض المغاربي للكتاب تتسنى لنا فرصة القيام بمثل هذه المناقشات، الجد منفتحة. نتجاذب أطراف الحديث حول هذه الإشكالية إلا أنه لا يمكن ذكر يهود المغرب دون الحديث عن دبو. أشعر بالاستغراب إذ أوردنا الحديث عن فاس والصويرة والدار البيضاء والمتحف ولم نذكر الموقع الذي يبعد ببضع كيلومترات. دبو، يأتي إسمها من دافيد بالاسبانية، مدينة تحضر فيها الذاكرة اليهودية بقوة. سوف يكون من المثير جدا القيام بورشة هناك بعد مغادرة هذه القاعة، والحديث عن الحضور اليهودي بالمغرب. إن حظنا وافر بامتلاك هوية قديمة تعود لأكثر من 3 000 سنة. إن الأديان، في صرامتها، لا تهمني : ففي البداية كلنا مغاربة. هل يمكن لشخص أن يحدد لي ما إذا كانت «دورة العروسة» في الزواج المغربي عادة يهودية، إسلامية أم مسيحية ؟ نفس الشيء بالنسبة للحناء. أصبحنا نشاهد اليوم باقة الورود والحلوى، كلها عادات أوروبية. إن حفلات الزفاف عبارة عن مزيج، حتى المصطلح الذي يقال في «دورة العروسة» «عباها عباها» أصله يهودي، دخل في دارجة كل المغاربة. يمكن أن نعود بالتاريخ للحديث عن خروج المسلمين من إسبانيا ونتكلم عن إشبيلية والحرب بين الأديان... إنها قصص يجب تلقينها لنظهر لأطفالنا أن المغرب بلد متعدد وغني. شارك شمعون، في إنشاء متحف الموسيقى الأندلسية، في منطقة الحبوس بالدار البيضاء. لقد ساعدنا كثيرا بخبرته المتعددة المشارب. سجلت ملاحظتين، الأولى تهم المتحف والثانية بول.

إذا أردت أن أشتري اليوم آلة موسيقية من أجل الاحتفاظ بها في المغرب، وليس في مقدوري دفع 80 أو 100 000 درهم للحصول على آلة عريقة. أشعر بالاطمئنان عندما تغادر آلة أو مخطوط أرض المغرب وتكون في حوزة بول. إلا أنني لست واثقا من بقاء كل الآلات في حوزة بول لأن الإنسان بطبيعته زائل. يجب أن تعود هذه الآلات والمخطوطات إلى المغرب. يجب أن نحافظ على ذاكرتنا، وإذا أردنا أن نتشاركها مع الآخر، فالمغرب أولى بالقيام بذلك. تعرفون تلك المكتبة في إسرائيل التي تضم أكثر من 900 قرآن كتبه مغاربة بخط اليد. لا توجد في المغرب لذا أقول : أن هناك خطر. علينا أن ندرك واجبنا في تصدير معارفنا الفنية وتاريخنا، شريطة الحفاظ عليها في أرض الوطن. ليس من الطبيعي ألا تتوفر بنفس القدر من عدد القطع الموجودة في المتحف اليهودي بالدار البيضاء أو عند بول ببروكسيل. يمكن إنشاء ملحق وليس العكس، لذلك أكرر على وجود خطر لأنني فخور جدا بالجانب اليهودي. فعندما نقول إن شمعون، رجل متبصر للغاية، قال إن مصير الذاكرة اليهودية سوف يكون بين أيدي المغاربة : هل يعني أنه في يوم ما لن يكون هناك يهود في المغرب ؟ أعتقد أنه أراد أن يقول ذلك، في الواقع إن حالات العودة ضئيلة جدا، في حين يتعلق الأمر بمغاربة شعورهم جارف. ألاحظ ذلك في المناسبات أثناء الاحتفال بالأعياد أو عندما نستقبل يهودا قادمين من نيويورك ومن جميع أنحاء العالم. يشعرون بمغربيته، يمكن معاينة هذا عبر اليوتوب الذي يمنحنا إمكانية مشاهدة كل هذه الاحتفالات. وإنني أشعر بالأسف لأننا لا نستفيد في المغرب من هؤلاء الناس النوابغ والمنقذين وغيرهم أيا كانت ديانتهم.

كريمة اليتربي

إنها دعوة من القلب، من مغربي يرغب في الحفاظ على هذا التراث حتى لا يضيع ويندثر، صحيح أنه بين يديك بول، نعرف ذلك ولكنني أظن أنه يجب عليك أن تجيب السيد الجامعي.

بول دحان

أجيب أخي، من الواضح أنني عندما اشتريت وقمت بتجميع كل هذا، كان هدفي الأول الحفاظ عليه من الاندثار، هذا ما نسميه بالعبرية «الإصلاح». ما اشتريته، لا أملكه إلا بشكل نسبي، المخطوط ينتمي للشخص الذي كتبه، والقطعة، للشخص الذي صنعها، سواء كانت لوحة لمربراندت أو لأي أحد آخر. الناس الذين يرغبون في الشراء أو يقومون بالمضاربة المالية لا يخرجون عن النطاق الاقتصادي. ما يهمني أنا، هو نقل الذاكرة والحقيقة التاريخية للبشر. أنا مستعد، غدا، أمام الجميع، لإعطاء مجموعة تقدر بالملايين لمؤسسة مغربية، في الوقت الذي سيتبين لي أن هذه المؤسسة قوية بما يكفي لنقلها. لن أأخذ مجموعتي بشكل مؤقت في بلجيكا حيث أعيش وحيث سأعيش مائة وعشرين سنة أخرى، تمنحني وقتا للبحث عن سيحافظ على مجموعتي، سأمنحها لمن هو مقتنع بمثل قناعتي، لأنني أعرف أن كل هذا ليس ملكنا، ولكن ملك صانعيه، وهؤلاء صنعوه مفكرين فيمن سيأتي بعدهم، لا من أجل المضاربين بالأموال.

كريمة اليتربي

كنت طالبة في مركز الأبحاث اليهودي في المغرب. كلما ذهب طلاب الدكتوراه إلى الاجتماعات - بإمكان السيد يتيمي أن يشهد - روبرت الصراف، ميشيل بوطبول وألبرت ساسون، كانوا دوما حاضرين لنقدم لهم تقارير عن مدى تقدمنا في أطروحاتنا. كانوا يقولون لنا شيئا ساكرره اليوم : «منين نكونو كنضحكو خاصنا نكتبو، باش منين نكونو كنتخاصمو نجبدو ونبدو نضحكو»، «عندما نضحك ، علينا أن نكتب، حتى إذا تجادلنا نخرج ما كتبناه ونضحك». أنت تفهم معنى هذه الحكمة يا بول. نحن ننأشذك، أنت وإنسانيتك، -لا أقول بأنه علينا أن نأخذ منك كل شيء ولكن فكر قليلا بهذا المغرب الذي تحمل في قلبك - كن كريما وشاركه معنا.

بول دحان

هناك شاهد هنا، هو إدريس خروز، الذي نقلت لديه خمسمائة قطعة للمكتبة الوطنية المغربية من أجل عرض تاريخ المغرب، سأستمر في القيام بذلك.

محمد حاتمي

أعتقد أننا نسير على الطريق الصحيح، وعلاوة على ذلك، في الآونة الأخيرة، شخص ما - أحبيه لأنني أعزه كثيرا، جامع بيبضا - استطاع استعادة جزء كبير من أرشيفنا المخزن لدى الأمريكيين و يتفاوض الآن مع الحلف الإسرائيلي الدولي من أجل الحصول على العديد من الوثائق، أود أن أقول أن ذاكرتنا اليهودية في أيادي أمانة وأنا واثق في المستقبل. تحدثت مع وزير الثقافة الجزائري السابق حول ما يحدث في المغرب فقال لي : «أنتم تسبقوننا بمائة عام على الأقل مع أن الجزائر بلد نو تاريخ غني جدا». هذا يعني أن حتى ساستنا يدركون الضرورة الملحة، والكثير مما ينبغي عمله وبالتالي فأنا على ثقة. الأكاديميون، الحكومة، المجتمع المدني، والمتحف ... كل هذا يجعل ذاكرتنا اليهودية في الحفظ والصون. بول، عندما تريد كتابة وصيتك، كن كريما !

السيد الشرفاوي

أنتمي للعالم الجمعي، أعتقد أن الهويات ليست مميتة فقط. اليوم ، نقول أن النجاح هو الاختلاط، نتحدث عن هذا كثيرا في الضواحي، كيف يمكن للأكاديميين دراسة العوامل التي تمكن العيش مع كل هذه الهويات ؟

كريمة اليتربي

أعتقد أن الأستاذ الجامعي يعتقد بشدة أن الهوية يجب أن تكون متعددة لأننا نعيش في عالم متعدد. قلت بأنني فوجئت بأن أعمال مؤلف مثل إدمون عمران المالح لا توجد في البرنامج. اليوم، إذا كنتم تريدون الحصول على الترخيص الجديد المقدم منذ أقل من أسبوع إلى الوزارة، ستجدون إسمي مع الشعبة، وستجدون إسم إدمون عمران المالح. يجب على طلابنا والجيل الصاعد معرفة هذا الجزء، ليس فقط لأنه مهم ولكنه مشروع في تاريخ المغرب. اليوم، قد تكون هذه المائدة المستديرة مجرد بداية، هنا أتوجه بالحديث للسادة الجامعي والرتناني، وأيضا منظمي المعرض : لماذا لا نقوم بندوة دولية تكون نقطة انطلاقها بوجدة ؟ السيد الوالي مهتم بالثقافة ويمكن أن يساعدنا أشخاص. الأكاديميون والباحثون مستعدون للمشاركة في هذا النقاش ويجب علينا أيضا التفكير في إشراك الشباب.

زهور رحييل

أود أن أضيف شيئا إلى ما قاله السيد الجامعي : لقد قمت بذكر دبدو، منطقة مهمة تواجدت فيها جالية يهودية كبيرة. نحن نعرف أن تسعة من كل عشرة من سكان هذه المدينة كانوا يهودا والباقي مسلمين. أود أن أعلن أنه في الفترة الممتدة من 27 إلى 30 أكتوبر، ستكون هناك الدورة الأولى لمهرجان دبدو حول اجتماعات التاريخ اليهودي والإسلامي، والتي أطلقتها جمعية محلية. يجب أن ندعم ونساعد جمعيات الشباب المغربية التي تعمل على هذا التنوع الثقافي وتشجع الطلاب الذين يعملون على هذا التراث المتعدد. نحن لا نساعدهم على الالتحاق بالجامعات الدولية الكبرى، بينما بدأ البحث في اليهودية المغربية منذ عشرين سنة مع المدرسة الأمريكية والمدرسة الإسرائيلية. المدرسة الأمريكية تنشر دراساتها بالإنجليزية والمدرسة الإسرائيلية تنشر دراساتها بالعبرية. في المغرب، الجديد اليوم هو أنه عندما نكتب عن الديانة اليهودية، يكون ذلك باللغة العربية.

من الآن فصاعداً، لدينا نسختنا الخاصة من القصة التي تبدأ من الداخل. قالت كريمة إنه يجب علينا تشجيع طلابنا وشبابنا وإعطائهم منحا دراسية. عندما تدرس التاريخ أو علم الإنسان أو علم الاجتماع، لا يكون لديك ما يكفي من مال. إن ملاحظة السيد الجامعي حول هذا التراث المغربي الذي نهب وتناثر في جميع أنحاء العالم، دقيقة للغاية. أقول أنه من مسؤولية الدولة المغربية والمؤسسات مثل وكالة جهة الشرق التي نظمت هذا المعرض، تكريس ميزانية لاسترداد القطع التي تنتمي إلى الديانة اليهودية بجهة الشرق مثلاً. إنه أيضاً دور الرعاية والمؤسسات التي أنشأتها البنوك المغربية، استعادة جزء من هذه المجموعة المغربية الكبيرة الموجودة في الخارج.

عبد القادر الرتفاني

من المهم أن نعرف أنه في المعرض المغربي للكتاب الأول لعام 2017، كانت هناك بالفعل مائدة مستديرة حول تاريخ اليهود في المغرب وأصولهم والمجتمع. وكان هناك أربعة أو خمسة من كبار المتخصصين مثل أرييل دانان، مدير المؤسسة. سأخبركم بشيء مهم، في هذا العام، حرص المنظمون على إعادة جدولة المعرض احتراماً للأعياد اليهودية. هناك القليل من الأشياء التي أود إضافتها : تكلمتم عن 500 000 يهودي، وفقاً لإحصائيات 2016 في إسرائيل، كان هناك 750 000 يهودي مغربي من السفارديم، شيء آخر : ميمونة يحتفل بها في المغرب فقط. في هذا العيد، يفتح اليهود بيوتهم ابتداءً من وقت معين لاستقبال أصدقائهم، وعندما يصل المسلم أولاً، يكون العام ممتازاً بالنسبة لليهودي حسب الأسطورة. تحتفل الجالية بإسرائيل بميمونة، لأنها عيد مغربي مائة بالمائة. في معرض السنة القادمة إن شاء الله، ستكون هناك دائماً طاوولات يهودية.

كلمة أخيرة حول ما قاله الأستاذ الجامعي الذي يملك دائماً أفكاراً مثيرة للاهتمام ولكن صعوبة التحقيق من دون جد ومثابرة. بول، يجب عليك التفكير في هذا، أطلق السيد الجامعي هذه الفكرة اليوم وأنا أعلم أنك رجل التحديات، خلال ثلاثة أشهر سنلتقي في بروكسل، لماذا لا تضع جزءاً من كنوزك في متحف افتراضي، ستكون بداية جيدة، أليس كذلك ؟

بول دحان

أوقع على هذا حالا.

معاذ الجامعي

إذا كان افتراضياً، فسيكون مجانياً. قال بول «وقع» دعه يحتفظ بالافتراض ويجلب لنا الكنوز هنا.

رئيسة الجلسة : مونييل أوغري
المشاركون : عبد الرحمان رشيق، بيوس دبالو، نيمب أونيسفوري
فضاء : ليلي العلوي
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 16 : 30 - 15 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

تعد السيدة مونييل أوغري مواطنة عالمية بامتياز وذلك لاعتبارات مختلفة. فهي شغوفة بالبحث في أدب الرحلة، حيث تتجلى بوضوح فكرة العالمية. تشغل أستاذة بكل من إيطاليا وفرنسا وتشارك في عدة مؤتمرات كما أنها تشرف وتلقي محاضرات ببلدان عديدة. أما كتاباتها الشعرية والقصصية، التي تعاونت في بعضها مع رسامين تمثليين مغربيين، فهي أيضا تعكس روحها العالمية دون أي لبس أو غموض. وبالتالي، فتعيينها على رأس المعهد الفرنسي بالرباط لا غرابة فيه بل يأتي تنويعا لمسار طبيعي. وأخذا بعين الاعتبار لكل ما سبق ذكره، فالسيدة أوغري مؤهلة تماما للإشراف على هذه المائدة المستديرة التي تناقش موضوعا راهنا وشائكا للغاية. كما يشارك في تنشيط هذه المائدة المستديرة الباحث في علم الاجتماع الحضري الأستاذ المغربي عبد الرحمان رشيق الذي طالما درس ظاهرة الهجرة عموما، حيث انكب على الهجرة القروية خصوصا.

يطرح الأستاذ رشيق تصورا دوليا وتاريخيا حول الهجرة، كما أنه يلقي الضوء على خصوصيات الظاهرة بالولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. أما برفقة الأستاذ بيوس دبالو، الكاتب والصحفي والمسؤول عن مديرية الكتاب والمطالعة العمومية بوزارة الثقافة الموريتانية، فسندقف على تصور شخصي لتجربة الهجرة من إفريقيا، حيث أنه خاض تجربتها وعاش تفاصيلها. ويطرح بيوس دبالو تصورا يستحضر فيه البعد القاري، حيث يرى من خلاله أن مجتمعات أخرى وليس فقط المجتمعات الأوروبية لم تعد مستعدة لاستقبال المهاجرين وأصبحت تعاني من «الخوف من الآخر».



من جهته، يحكي لنا نيمب أونيسفوري بطريقة مؤثرة عن تجربته الشخصية كمهاجر انطلق من الكامرون نحو الجزائر ثم إلى مدينة وجدة المغربية بعد معاناة مريرة. ولقد وجد أونيسفوري الشاعر في معاناة أونيسفوري الإنسان الإلهام لنظم قصائده وتخليد اسمه في العالم، أما أونيسفوري المفكر فقد خرج من هذه التجربة بنظرة نقدية حادة، عكس ما يعرف عنه من لطف وحلم، اتجاه دول الانطلاق والاستقبال على حد سواء. لقد أجمع المشاركون على أن ترويج الإعلام الأوروبي المسيطر على الساحة الدولية للموقف الأوروبي دون غيره بخصوص قضايا وأزمات الهجرة لا يلغي إشكالات الهجرة القائمة على أرض الواقع كما لا يلغي حقيقة مفادها أن حل جزء مهم من هذه الإشكالات يستوجب إشراك المجتمعات والدول الإفريقية التي فشلت في تمكين شبابها من مستقبل واعد، يكون حافزا لهم للبقاء في أوطانهم. كما أكد المشاركون أنه مازال بإمكان السياسات الوطنية لعب أدوار طلائعية في معالجة هذه الأزمة، رغم كل ما عرفه العالم من أزمات منذ عشر سنوات على الأقل.

مداخلات المائدة المستديرة

موغيل أوغري

مرحبا بالجميع. يسعدني أن أكون بينكم اليوم وأن أشرف على تسيير هذه المائدة المستديرة. سواء جننا من الضفة الشمالية أو الضفة الجنوبية للمتوسط، فقضية الهجرة قضية شائكة ومعقدة بالنسبة لنا جميعا ؛ نناقشها على صفحات الجرائد وأثير الإذاعات والبرامج التلفزية... والأکید هو أنه لم يعد ممكن غض الطرف عن مأساة تفرق الشعوب وتؤزم السياسات. يحضر معنا لمناقشة هذا الموضوع كل من عبد الرحمان رشيق وبيوس ديالو ونيمب أونيسفوري. شكرا لكم على تلبية الدعوة. أرى أنه من المفيد أن تقدموا أنفسكم للحضور قبل بدأ النقاش.

بيوس ديالو

جنئكم من بلد الشعراء موريتانيا حيث أعمل صحافيا وكاتبا. عينت مؤخرا على رأس مديريةية الكتاب والمطالعة العمومية بوزارة الثقافة الموريتانية. وأنا مهتم أشد الاهتمام بقضية الهجرة لأنني عشت بدوري كمهاجر بفرنسا بين سنتي 1995 و2006، حيث اشتغلت كصحافي متعاون مع وسائل إعلام مختلفة منها مجلة «Jeune Afrique» وإذاعة «RFI». وأقد أتيت لي فرصة الاشتغال على موضوع الهجرة بشكل أعمق من خلال المشاركة في معرض بعنوان «لا نسافر كما الآخرين».

عبد الرحمان رشيق

أنا باحث في علم الاجتماع الحضري. حاصل على ماجستير في علم الاجتماع من جامعة ليون بفرنسا والتي عشت فيها لمدة تسع سنوات. نشرت مؤلفات عديدة منها «المدينة والسلطة بالمغرب» الصادر سنة 1995 و«المجتمع مقابل الدولة : الحركات الاجتماعية واستراتيجية الشارع بالمغرب» الصادر سنة 2016. لا أعتبر نفسي مختصا في قضايا الهجرة حتى وإن عشت التجربة ؛ لكنني بكل تأكيد كنت أجدها أمامي عند اشتغالي على تيمة المدينة في ظل صيرورة التمدن الكثيف التي خلقتها موجات الهجرة القروية القوية. وهكذا قادني عملي للاشتغال على الهجرة القروية ليس فقط بالمغرب وبعض بلدان ما يسمى بالعالم الثالث بل أيضا ببعض الدول الغربية منذ بداية القرن العشرين ؛ فوقفت مثلا على واقع غيتوات اليهود ومشكل تكدس المهاجرين البولنديين بمدينة شيكاغو الأمريكية إلى حد أن وليام توماس ألف واحد من كلاسيكات علم الاجتماع الأمريكي بعنوان «الفلاح البولندي» الذي ناقش فيه قضية الهجرة والعلاقات بين الإثنيات، معتمدا بشكل خاص على الرسائل المتبادلة بين المهاجرين وعائلاتهم ببولندا.

نيمب أونيسفوري

أنا من أوصول كاميرونية. نشرت عدد من المؤلفات. ومنذ طفولتي، ظل سؤال واحد يسكنني طوال الوقت : كيف أترك بصمتي في هذا العالم ؟ وكلما اجتاحتني حقيقة أنني سأغادر هذه الدنيا عاجلا أم آجلا، وجدت السؤال يطرح نفسه بحدة أكبر. كل شيء يبدأ صغيرا، وكذلك كانت مسيرتي في الإجابة على هذا السؤال. منذ نعومة أظفاري، أردت أن أكتب مذكراتي اليومية. فعرفت لاحقا أنني سأكتب شيئا مميزا للعالم أخلد به إسمي. وهكذا، كلما اغتنى رصيدي من المفردات والمصطلحات، قلت في نفسي إنه ربما يكون يوم البداية أو الإنطلاق ؛ لكن اليوم المناسب لم يكن سوى ذلك الذي شهد وفاة قريبتي ذات الخمس وعشرين سنة ربيعا، والتي كنت أكبرها بشهر وأسبوعين فقط. لقد كان حزني على فراقها دافعي لكتابة أول أشعاري بعنوان «موت الزهرة».

كانت قصيدة جد مؤثرة حتى أنني حاولت، في اليوم الموالي للجنائز، أن أكتب قصائد أخرى عنها، فكانت النتيجة ولادة نيمب أونيسفوري الشاعر. ومنذ ذلك العهد، كتبت قصائد كثيرة منها قصيدة سنتشارك معا، وهاهنا في إلقاتها سريعا. أريدكم أن ترددوا كلمة «أسود» كلما توقفت عن الإلقاء.

الليل

(الجمهور) : أسود

التراب

(الجمهور) : أسود

الفحم

(الجمهور) : أسود

توجد أشياء لونها

(الجمهور) : أسود

فلما لا يوجد رجل

(الجمهور) : أسود

ليون الإفريقي سيفضل أصله

(الجمهور) : الأسود

نعم، سيفضل أصله

(الجمهور) : الأسود

سانغور سيفاخز بالإنسان

(الجمهور) : الأسود

بكل فخر، أعلن سعادتي بأنني لم أكن يوما إلا رجلا

(الجمهور) : أسود

من ذا الذي يكرهني لأنني ولدت

(الجمهور) : أسود

من ذا الذي يحبني فقط لأنني إنسان

(الجمهور) : أسود

لم أطلب حبكم فقط لأنني رجل

(الجمهور) : أسود

يوما ما، سأصبغ العالم

(الجمهور) : أسود

يوما ما، لن تصبغ

(الجمهور) : أسود

تحت هذه السماء، وتحت كل سماء، لن أكون يوما إلا إنسانا

(الجمهور) : أسود

بورك لون رماد الموت

حالة الرجل المتكلم في القصيدة هي حالتي إلى حد ما.

موغيل أوغري

شكرا جزيلاً على هذه المقدمة الشعرية. سؤالني لضيوفنا الكرام : هل اهتم أي منكم بموضوع الهجرة في الماضي، علما أن موضوعنا هو الهجرة في الوقت المعاصر ؟

عبد الرحمان رشيق

كما أشرت، سرع التمدن الكثيف خلال القرن العشرين من وتيرة النمو الديموغرافي بالبلدان الصناعية كما بالبلدان المستعمرة حينها. وهذا ما يفسر نشوء تكتلات بشرية حضرية كبيرة ومدن كبيرة إبان عهد الاستعمار، حيث طبق المستعمر سياسة سكانية جديدة شجعت على هجرة الأوروبيين، وهنا أقصد بالدرجة الأولى الفرنسيين ثم الإسبان ثم الإيطاليين، نحو مدننا بأعداد متزايدة. أبرز مثال في هذا الباب هو الدار البيضاء؛ حيث شكل الأوروبيون ما يزيد عن 30% من مجموع المهاجرين بين 1930 و1940. وخلال مدة إقامتهم، شيد المستوطنون جدران فصلتهم عن باقي سكان المدينة الآخرين. هذا الكلام ليس حكرا على المغرب وحده، بل يشمل الجزائر وتونس وجزيرة لارينيون والعديد من البلدان الإفريقية الأخرى. لقد وضعت جدران لا مادية قسمت المجال بين الساكنة الأوروبية، قروية أو حضرية، والساكنة المسلمة التي استقرت على هوامش المدن. هكذا، وخلال قرن واحد، تحولت الدار البيضاء وتغيرت بوتيرة سريعة للغاية وانتقل تعداد ساكنتها من عشرين ألف نسمة إلى ما يزيد عن ثلاثة ملايين نسمة. لم تشكل باقي المدن المغربية (فاس ومكناس ومراكش...) أي استثناء، حيث عرفت توسعا عمرانيا كبيرا تحت ضغط الهجرة القروية.



نيمب أونيسفوري

لا يمكن أن نكون مهاجرين اليوم دون أخذ ماضينا بعين الاعتبار. وصلت إلى المغرب قبل تسع سنوات، ويمكنني القول أن الكثير من الأشياء قد تغيرت منذ ذلك العهد. عندما وصلت كان أهل البلد كرماء، مضيافين وودودين للغاية في تعاملهم وكلامهم؛ أما اليوم فقد بت أحس منهم ودا وترحيبا أقل. فمثلا لم يعد لي في كسكس جيران المغاربة نصيب بعد أن كنت ألتقي منه أربعة أطباق يوم الجمعة. صحيح أنه تحول صغير لكن معناه كبير. هذا يعني أن المهاجر اليوم لا يحظى إلا بالقليل من الاحترام. لقد تغير تعامل الناس مع المهاجر دون أدنى شك. كان المهاجر في الماضي يتلقى بطاقة الإقامة فينتلقى معها أملا في مستقبل أفضل. أما اليوم فالمهاجر معرض للضيق وانتزاعه من جذوره أكثر من أي شيء آخر. يكفي اليوم أن يفشل المهاجر في توفير عقد إيجار كي يصبح مهددا بخسارة كل شيء، بما في ذلك بطاقة الإقامة كما حدث فعلا للكثيرين. أن تكون مهاجرا، فذلك يعني من بين كل ما قد يعنيه أنك قد انتزعت من جذورك وانفصلت عنها. مازلت أتذكر سنواتي الأولى بالمغرب، لقد كانت بحق سنوات طويلة من المعاناة.

في غالب الأحيان، كنت أتصل بأمي فأحكي لها عن معاناتي وخوفي من «الآخر». وفي مرة من المرات، سألتها إن كانت غرفتي ما تزال شاغرة لأنني بدأت أفكر في العودة من حيث أتيت، لكنها أقتعتني بالتخلي عن هذه الفكرة لما قالت لي : «لقد سكن الغرفة أخوك الصغير من قبل والآن يسكنها ابن عمك الذي هاجر إلى المدينة رفقة زوجته... والغرف الخمسة الأخرى كلها مستعملة». كلمات أمي لم تحكم علي بالهجرة، لكنها حكمت علي بالعيش بعيدا عن بلدي والسعي بكل ما أتيت من قوة في إيجاد موطئ قدم لي هنا حيث أعيش. وهذا ما أحاول فعله منذ أنهيت تلك المكالمات مع أمي. أن تكون مهاجرا معناه أنك من ينتظر حب واحترام الآخر... لكن للأسف، هذا لم يعد ممكنا في ظل هيمنة التطرف بكل ألوانه عبر العالم. أن تكون مهاجرا معناه أن تواجه الموت وتتحدى شكك في مستقبل أفضل : لأن قتل الشك وإحياء الأمل هو سبيلك الوحيد نحو هذا المستقبل مادمت لا تملك شيء سوى الأمل. أن تكون مهاجرا معناه أيضا أن تبكي أو تصلي أو تموت، ففي نهاية المطاف لن يبقى معك أحد سوى الرب إلهك ورباطة جأشك وإقدامك أمام كل ما قد ترمي به الحياة في طريقك. أن تكون مهاجرا، فذلك يعني الصعاب، المأسى والآلام : لكن التجربة لها جانبها الساحر الذي لا يعرفه إلا المهاجر : متعة وثناء إنساني و لقاءات لا تنسى وخاصة الأمل والسعي المتواصل نحو حياة أفضل في عالم لطالما تقدم وازدهر بفضل الهجرة والمهاجرين، رغم أننا ننسى ذلك في كثير من الأحيان.

بيوس دبالو

سأحاول التركيز في مداخلتي على المهاجرين في وقتنا الحالي بما أن متدخلين قبلي أحاطوا بالبعد التاريخي للهجرة من زوايا مختلفة. من الثابت أن المجتمعات تشكلها في نهاية المطاف طيور مهاجرة. وعلى هذا الأساس، يصعب على أفراد أي مجتمع كيفما كان القول : «نحن السكان الأصليون هنا، ونحن من أسس هذا البلد». وفي اعتقادي الخاص، لا أحد أي كان يملك أي أرض، هذه الملكية بدعة. جميعنا جننا من مكان ما : وكلنا غادرنا مكانا ما. هذا حالنا منذ القدم : نربط أطراف الأرض بعضها ببعض. أتيت لي خلال اشتغالي على مؤلف بعنوان «من الولادة حتى الزواج عند الشعب الفولاني» فرصة الاطلاع على مسار الشعب الفولاني المتواجد بالكامرون والنيجر ومالي وغامبيا والسنغال وموريتانيا ودول أخرى. يرجح أن الانطلاقة الأولى لهذا الشعب كانت من مصر. واللغة القبطية والفولانية ربما فيهما ما يرجح هذا الطرح. حيث تتوفران على مشترك لفظي معناه في اللغة القبطية «الفعل والتحرك» ومعناه في اللغة الفولانية «اكتشاف أراضي وفضاءات جديدة». لقد استمرت رحلة الفولانيين من فضاء جديد إلى فضاء أكثر جدة، وفي كل مرة كانوا يجتثون جذورهم من حيث رحلوا ويبثونها في تربة الأرض التي يرحلون إليها.

استمرت رحلة الشعب الفولاني عبر صحراء المغرب وإمبراطورية غانا وموريتانيا. وبما أن الفولانيين هم رعاة قبل أي شيء آخر، فقد كانوا يقتفون أثر المراعي أينما كانت. وهكذا عبر الفولانيون أراضي كثيرة لا يملكون فيها شبرا، كلها كانت محطات قبل الرحلة الموالية حتى عبروا نهر السنغال وصاروا على الجانب الآخر من هذا البلد. أما الحديث عن الهجرة في أيامنا هذه فيدفعني دائما إلى طرح جملة من التساؤلات. الجميع يلاحظ أن قضية الهجرة دائمة الحضور في النقاشات السياسية وعلى وسائل الإعلام، حيث تسيطر المواقف المتحيزة والنقاشات المتشنجة. ترى ما السبب وراء ذلك ؟ هل تشكل الصعوبات الاجتماعية أو الاقتصادية التي قد يمر منها مواطنو بلد معين تفسيراً لما يواجهه المهاجر في هذه البلد من رفض ؟ وهل من المعقول رفض المهاجر بدعوى أن مواطني البلد أنفسهم ما عادوا يتمتعون بأساسيات العيش على نحو كافي ؟ ينضاف إلى هذه التساؤلات البعد الديني، فتصبح الأمور أكثر تعقيدا. عندما أشتغل اليوم بنواكشوط ، كما كنت أفعل بفرنسا، على قضايا الهجرة، أحس أن المشكل حقيقي ويطرح نفسه بقوة على السلطات، خاصة أن موريتانيا باتت اليوم بلد عبور نحو المغرب ثم أوروبا. كلما التقيت بالمهاجرين، رأيت في أعينهم الخوف والقلق، الهوان والضعف : البطالة والبؤس في البلد الأصلي والحواجز والمراقبة على حدود أوروبا. لقد وقفت على هذا الوضع المعقد بفرنسا ببيوت المهاجرين حيث بدأت تأليف أول كتيبي.



في يوم من الأيام، سنحت لي فرصة حضور فعاليات افتتاح شارع سانغور بمدينة إيفري من قبل مانويل فالس كعمدة آنذاك. كنت قد فرغت آنذاك من نشر ديواني الشعري الجديد «بكاء البوابة». وقد لاحظت بإيفري اهتماما كبيرا بقضايا الهجرة على مستوى المؤسسات الرسمية والمجتمع المدني من خلال منظمات مثل «CIMADE» أو مجلة «Cause commune» المهتمة بقضايا المهاجرين واللاجئين. هنا لا بد من التمييز بين الفئتين، لأنه في لحظة معينة اختلطت الأمور ولم نعد نعرف المهاجر اللاجئ من المهاجر الباحث عن العمل. المهاجر القادم إلى أوروبا اليوم ليس مرحبا به بتاتا؛ أما الغربيون، الأوروبيون والأمريكيون، فهم دائما محل ترحاب بالمغرب وموريتانيا والسنغال وغيرها من البلدان حيث يقضون عطلهم أو يبرمون صفقاتهم. معنى هذا أن الشمال يحل بديار الجنوب والعكس غير صحيح. وهنا تخطر بالبال أسئلة كثيرة وتتناسل: ما معنى أن يكون المرء مهاجرا؟ وما معنى أن يكون المرء لاجئا؟ ما معنى أن يكون الواحد منا مجرد مواطن في هذا العالم يتمتع بالحق في السفر، لأن من طبيعة الإنسان أن يسافر ويتنقل؟ لطالما سعى الإنسان إلى اكتشاف فضاءات جديدة. فلماذا سنقبل اليوم برؤيا الغرب التي تحد فضاءات الهجرة؟ من يتكلم اليوم عن الهجرة بالشكل المطلوب؟

كل ما نراه اليوم من صور وسياسات وتغطية إعلامية إنما هي نتاج حالة الرعب التي أنتجها الغرب من «الآخر» بترويجه كذبة المهاجرين الغزاة. عندما يحل الأوروبيون علينا، نستقبلهم على أنهم يمدون يد العون، أما عندما نحل عليهم، فنحن مهاجرون وعبي فقط. فلما سياسة الكيل بمكيالين ونحن بشر لا نبحت سوى عن فرص عمل وحياة أفضل هناك إلى حيث نهاجر؟ لماذا يواجه المغربي أو الجزائري أو التونسي الراغب في الذهاب إلى أوروبا أو الولايات المتحدة كل أنواع الصعوبات الممكن تخيلها بحجة أن راتبه الشهري غير كافي في بلده إلى حد يجعلهم يتقنون فيه؟

موغويل أوغري

شكرا للأستاذ دبالو الذي وضع النقاط على الحروف في مجموعة القضايا بالغة الأهمية، ولاسيما الفرق بين مصطلحات «مهاجر» و«لاجئ» و«مواطن عالمي» وفكرة الخوف. سأكمل النقاش من حيث انتهى، وأسأل ضيوفنا الكرام عن إسهاماتهم، كل من موقعه، في سبيل محاربة الخوف والتخويف من الآخر؟ وما الأفكار التي تروجون لها في هذا الباب؟ نبدأ بمدير مجلة «Afrique Progrès» السيد نيمب أونيسفوري. هل لكم أستاذ أي مساهمات في هذا الجانب تودون مشاركتها معنا؟

نيمب أونيسفوري

كانت مجلة «Afrique Progrès» تقدم إفريقيا على أنها قارة الحروب والأمراض الفتاكة. لكننا غيرنا هذا النهج، فأصبحت المجلة تناقش حصريا أمور التنمية. أما بالنسبة للهجرة، فقد تعاملنا معها في المجلة كأَن لا وجود لها، حتى وإن قدمنا في العديد من الأحيان نماذج مهاجرين ناجحين. أما فكرة الخوف فكنتم أنناقشها في مؤلفاتي... ما زلت أتذكر يوم دخلت المغرب عبر وجدة قبل تسع سنوات من الآن. قدمت من الجزائر ومشيت ليلا مسافة خمس عشرة كيلومترا. لم أكن أرى أي شيء أمامي. مررت في طريقي بالكثير من العراقيين والتهديدات والمخاطر كالكلاب الضالة والأشخاص العدائين... اختبأت وتسلكت عبر الحواجز إلى أن بلغت وجدة التي لم تكن تقدم أي فرص عمل للمهاجرين حينها. كان المغرب أول أرض كتب علي فيها أن أمد يدي للغير. لم أعد أتذكر في أي مدينة تسولت لأعيش، لكنها لم تكن وجدة. بعد ذلك وجدتني في محطة القطار حيث تسلكت إلى قطار سريع كاد أن يقتلني لولا الألفاظ الإلهية. الخوف... لقد انتابني هذا الإحساس حتى كاد أن يقتلني. لقد سارعت إلى تأليف كتب تنقل ما خالجني من أحاسيس ومشاعر خلال رحلتي الطويلة والعصيبة رغبة مني في منح الناس من بعدي لمحة عن كل تلك المخاوف التي عشتها وسط الصحراء والمغرب الذي لم يكن بالنسبة لي حينها سوى صحراء أخرى. سجلت هذه المخاوف ؛ ولم أندم يوما أن صارحت المهاجرين وقرائي بأنني كثيرا ما نمت بعد ليلة بيضاء ولا أمل لي في رؤية شمس الغد. في كل المؤتمرات التي أشارك فيها، أبين أن الخوف أمر طبيعي، وأنه يتطلب الكثير من الشجاعة للتغلب عليه. ذلك ما فعلته أنا شخصا عندما استجمعت قواي وشجاعتي في مواجهة مخاوفي من أن تكون حياتي بلا معنى أو أكون مجرد مهاجر فظ يقضي وقته وهو يمد يده متسولا في الشوارع. لقد قاومت، واللّه وحده يعلم كم قاسيت. المهاجرون اليوم يجدون صعوبة في تصديق ما أقصه عليهم من مآسي الهجرة في الماضي. لكن عندما أقول أن بمقدورهم هزيمة هذا الخوف والتغلب عليه، فإنهم يؤمنون بذلك ويسعون في تحقيقه.

موغويل أوغري

حديثك عن «الخوف من الآخر» كان حديثا مميذا. شكرا.

عبد الرحمان رشيق

أفضل عدم الحديث عن الخوف بقدر ما أحبذ الحديث عن الشعور بعدم الثقة. فكل ما هو مجهول لدينا، وهنا لا نقصد فقط شخصا غريبا في بلد ما بقدر ما نقصد حرفيا كل شيء لا معرفة لنا به، يثير فينا شعورا أوليا بانعدام الثقة. يسود جو انعدام الثقة أساسا بالمدن الكبرى حيث لا يكاد أحد يعرف الآخر. ولقد عرف عالم اجتماع ألماني المهاجر أو الغريب على أنه الفرد الذي يأتي اليوم ويبقى غدا ؛ أي أنه يترك مكانا ما اليوم ويستقر نهائيا بمكان آخر غدا. قد يهاجر الإنسان خارج بلده فتكون الهجرة دولية أو يهاجر من القرية نحو المدينة فتكون هجرة قروية. يوجد نوع آخر من الهجرة أسمى الهجرة الوطنية، بمعنى الهجرة بين مدن البلد الواحد، كأن يستقر شخص من الرباط نهائيا بمدينة أخرى كالدار البيضاء أو طنجة. نوع آخر من الهجرة هو هجرة القرى نحو المدن. تتوفر لدينا مكتبة دولية ووطنية غنية تناقش هذين النوعين الكلاسيكيين من الهجرة. نوع آخر من الهجرة تجب الإشارة إليه يهم العائدين نهائيا من أرض المهجر إلى بلدهم الأصلي. يقضي المهاجر في مهجره عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة، وبالتالي من الطبيعي أن يعود محملا بثقافة ومعايير وقيم ولغة ولهجة والكثير من الأشياء الأخرى. توصلت دراسة للمندوبية السامية للتخطيط حول عودة المغاربة نهائيا إلى المغرب إلى مجموعة من النتائج أهمها أن 40% من العائدين متقاعدون ؛ وأن 80% من هؤلاء المتقاعدين «عزاب»، أي أن أزواجهم وأبناءهم لم يغادروا المغرب. أظهرت الدراسة أيضا أن العائدين لم تكن لديهم أية مشاريع، وأنهم عادوا نهائيا إلى بلدهم الأصلي مباشرة بعد بلوغ سن التقاعد بعد أن تركوا أزواجهم وأبناءهم بالمغرب. يبدو أن حلم العودة النهائية يوما ما لا يفارق الإنسان المهاجر طوال حياته.

نحن هنا نتحدث بالدرجة الأولى عن متقاعدين عادوا إلى بلدانهم لأسباب صحية أو اجتماعية كالطلاق أو موت أحد الأقارب. ما أثار انتباهي أيضا هو أن نسبة العائدين جراء تردي الأوضاع الاقتصادية ببلدان المستقبل في ظل الأزمة الاقتصادية بين سنتي 2008 و 2009 لم تتعد 7%. وبينما هم متشبثون بحلم العودة في يوم من الأيام، يستثمر المهاجرون في العقار : 90% من المهاجرين يملكون سكنا واحدا على الأقل بالمغرب، لكن لا يتوفرون على مشاريع كما أن استثماراتهم ضعيفة للغاية، خاصة في ميدان التجارة والخدمات. ينتمي أغلب هؤلاء العائدين إلى طبقات اجتماعية متواضعة إن لم نقل فقيرة ؛ وهم لا يواجهون أي صعوبات في إعادة الاندماج ضمن محيطهم الأصلي، خاصة بالمجال القروي.

بيوس دبالو

عندما تحدثت عن «الخوف من الآخر» أردت القول أن علينا الاهتمام بأنفسنا بدل شيطنة «الآخر» ونسب كل معاناتنا له. كلكم بلا شك تعرفون مقدم البرامج على إذاعة «RFI» جون بابتيست بلاكا، وربما بعضكم من متابعيه. أسس جون بابتيست بلاكا مجلة «L'Autre Afrique» حيث اشتغلت سنوات طويلة. كان الهدف من وراء هذه المجلة هو تغيير نظرة العالم إلى إفريقيا على أنها أرض الحروب والمجاعة والأمراض فقط. لقد قدما إفريقيا على أنها قارة النمو والأمل. خلال سعيينا في بناء هذه الصورة الجديدة لإفريقيا، وجدنا أنفسنا نناقش العديد من الشرور والآفات التي تعج بها قارتنا، ما هي هذه الشرور على وجه التحديد ؟ هل هي الحروب ؟ ما أسباب اندلاع الحروب ؟ الأسباب كثيرة وأولها تجارة الأسلحة. هكذا ودون سابق إنذار قادنا تشخيص أمراض قارتنا إلى مناقشة تجارة الأسلحة وأباطرتها. ما معنى كلمة سيجارة بإفريقيا ؟ إنها شركات متعددة الجنسية تزرع الأراضي وتطور صناعتها وتروج منتجاتها بإفريقيا. الأمر ذاته ينطبق على المشروبات الكحولية ذات الآثار الصحية والاجتماعية الجسيمة. تتوفر أوروبا على ترسانة قانونية تضمن بها حدا أدنى من الرقابة على هذه المنتجات ومطابقتها للمواصفات.

أما إفريقيا فقد باتت حقل تجارب كبير للأسلحة والأدوية والتجارب الطبية السرية. لقد وجدت مجلة «L'Autre Afrique» نفسها أمام مسؤولية التطرق إلى هذه الشرور والآفات. وكذلك كان، حيث أنجزنا ملفات مهمة حول سياسة خلق الصراعات وتاجيجها وتجارة السلاح بإفريقيا وأضرار صناعتي التبغ والمشروبات الكحولية على الحرث والنسل والكثير من القضايا الأخرى. لم تحصل مجلتنا على أي دعم أو رعاية ولا حتى عقود إخبارية لأن مدراء الوكالات الإخبارية متصلون بدوائر صنع القرار التي قد تشمل بعض رؤساء الدول المتواطئين في محاصرة المجلة حتى لا تشكل خطرا عليهم. ولهذا تحديدا قلت أنه من الخطأ شيطنة «الآخر» على طول الخط، فنحن بدورنا نتحمل جزء من المسؤولية. قادة بلداننا هم أيضا يتحملون جزء من المسؤولية عن واقعنا المرير اليوم. فشباب إفريقيا يعاني التهميش والجهل والبطالة بسبب الفساد والمحسوبية والزبونية وسوء تدبير الثروات. والنتيجة هي أننا بتنا مضطرين إلى هجر أراضينا ومغادرة بلداننا والسير نحو مستقبل مجهول. وهكذا، لا يمكننا أن نلقي الكلام على عواهنه وننسب «لآخر» كل الشرور. قبل أن نقول إن «الآخر» لا يقبل إفريقيا، يجب أن نصارح أنفسنا وننظف بيتنا الداخلي. بعبارة أخرى، «خوفنا من الآخر» يجب أن يتناوبا في علاقتنا بمن هم من نفس البلد ومسؤولينا قبل أن يتناوبا في علاقتنا «بالآخر» من بلد أجنبي. والشئ الأكيد هو أننا كلنا مسؤولون عن قضايا الهجرة وتهجير الشعوب، بما في ذلك المثقفون والصحافيون والكتاب. إفريقيا ستحتاج كل طاقاتها الشابة ومواردها إن هي أرادت تحقيق نهضتها.

إفريقيا لا يجب أن تكون حقل تجارب أو دار للعجزة حيث يقضي المتقاعدون لحظاتهم الأخيرة. لا بد أيضا أن تراجع إفريقيا مسارها وتطرح الأسئلة المناسبة وتتحدى بالشجاعة وتمجد حرية الفكر وتعيد كتابة تاريخها إن هي أرادت السير بثبات نحو مستقبل مشرق. وأول خطوة في هذا المسار هي جذب الشباب وتحفيزه بتوفير بنية تحتية محترمة ترقى للتطلعات، سواء تعلق الأمر بالطرق والمستشفيات والمدارس ونظام التعليم والتكوين ومراكز البحث والتطوير. من الممكن تحقيق إفريقيا على هذه الشاكلة، والأمر ليس مجرد حلم.

ستكون إفريقيا حقوق الإنسان واحترام النوع وتحرر المرأة. مهمتنا صعبة والطريق شائك وطويل ما في ذلك من شك، لكن لا يوجد حل آخر. إن تشكل هذا الوعي أمر ضروري كي ينبثق تعاون واتحاد بين المثقفين وعامة الشعب باعتباره السبيل الوحيد الممكن نحو تغيير نظرة «الأخر» اتجاهنا وفرض احترامنا عليه.



موغيبيل أوغري

تطرقتم للكثير من النقاط التي تحتاج التفاعل. لهذا سنفتح باب النقاش أمام الحضور الكريم.

مداخلة

عندي سؤالين اثنين، سؤال الأول له بعد واقعي ويتعلق بتدفق المهاجرين. عندما نتحدث عن تدفق المهاجرين، فنحن نتحدث عن المتجهين إلى أوروبا ؛ وكلنا يعلم مآسي المهاجرين في عرض البحر الأبيض المتوسط. لكننا في المقابل نكاد لا نذكر التدفق البشري الكبير بين بلدان إفريقيا نفسها. محصلة هذا الوضع هي أن التغطية الإعلامية تركز على المهاجرين المتجهين إلى أوروبا وتعمم الحقيقة الأخرى. ينتابنا إحساس بأن المهاجرين بين بلدان إفريقيا ليست لديهم أسباب واقعية للهجرة، والحقيقة هي أن لهم أسبابا كثيرة كالحروب والصراعات الإثنية والأزمات الاقتصادية... في ظل هذا الوضع، أصبحت بعض بلدان إفريقيا تستقبل مهاجرين ولاجئين أكثر من بعض بلدان أوروبا. إذا ما العمل بخصوص هذا النوع من المهاجرين الذين لا تأتي على ذكركم في نقاشاتنا والذين لا يخلقون ضجة تشد انتباه العالم إليهم ؟ سؤال الثاني له بعد مفاهيمي ويتعلق بالمفردات الكثيرة التي نستعملها كمرادفات لكلمة «مهاجر» ككلمة «لاجئ» و«منفي» و«مواطن عالمي» ؛ مع العلم أن كل واحد من هذه المصطلحات له دلالات مختلفة خاصة به. وهل تتفقون مع من يقول أن اكتساب مصطلح «مهاجر» في أيامنا دلالات قذحية، يعكس بشكل من الأشكال واقعا ما على أرض الواقع بين صناعات اللغة ؟ خلال القرن الثامن عشر، بدأ التفكير في وضع ترسانة قوانين حقوقية عالمية. ومن إرهابات ذلك ما نجده لدى الفيلسوف كانط عند حديثه في نص قصير عن فكرة التاريخ العالمي من وجهة نظر كونية. هذه الفكرة تؤكد وتسند ما ذكره الأستاذ بيوس ديالو من أن الإنسان بطبعه كائن متنقل يسعى إلى اكتشاف عوالم جديدة كلما باتت حياته مهددة حيث هو. وعليه، أرى أنه من اللازم وضع قانون عالمي بطابع «كانطي» يطبق على كل فرد في العالم باعتباره جزء من أسرة واحدة هي الإنسانية.

مداخلة

اعتقدت في بادئ الأمر وبناء على عنوان المائدة المستديرة أننا سنناقش أنواع الحركة والتنقل البشري الموجودة على أرض الواقع. شخصيا، أتابع أشغال المؤتمر العالمي حول الهجرة والتنمية منذ 2009. رغم بلوغه الدورة الحادية عشر، فهذا المؤتمر لم يتحدث يوما عن هجرة مواطني بلدان الشمال نحو بلدان الجنوب واستقرارهم هناك كما يحدث بالمغرب، حيث يقضون تسعين يوما القانونية ثم يعبرون الحدود عبر سبلة أو أي نقطة حدودية أخرى لأيام أو ساعات معدودة قبل دخول الأراضي المغربية مرة أخرى وهكذا دواليك. إذا قارنا مثلا حال الإسبان بالمغرب مع حال المغاربة بإسبانيا، فالفرق واضح. من جهة، حقوق المغاربة في تاكل مستمر ووضعتهم يزداد سوءا. وهذا الواقع يشمل حتى من كان لهم وضع قانوني سليم ويتمتعون بكامل حقوقهم. ومن جهة أخرى، المهاجر الإسباني بالمغرب لا يواجه أية مصاعب تذكر سواء في حياته اليومية أو المهنية. وفي السياق نفسه، نشرت مؤخرا دراسات أظهرت أن بعض الأوروبيين باتوا كالطيور المهاجرة يقضون الفترة بين شتنبر وأبريل بالمغرب حيث يمارسون الصيد البحري ويتاجرون في صيدهم. المنتمون لهذه الفئة لا يصرفون درهما واحدا بالمغرب الذي لا يستفيد منهم أبدا كسياح. في هذا الصدد، صرح كاتب الدولة المكلف بشؤون الهجرة أن حوالي ستة آلاف أجنبي يقيمون بالمغرب بصفة غير قانونية متتبعين خطة عبور الحدود ثم العودة باستمرار ؛ وبعض هؤلاء يشتغل في وظائف نظامية كالتهليل. من هؤلاء أيضا من يأتون خلال فترة نهاية السنة للعمل في القطاع المالي، حيث يساعدون مؤسسات كالحانات والأندية الليلية على ضبط حساباتها في وقت الذروة. هؤلاء يسمون «المغتربون». فأي منطق هذا يمنع الطالب الإفريقي من متابعة دراسته بأوروبا بحجة عدم توفره على التأشيرة ويسمح للأوروبي بدخول أراضيها بكل حرية والاستفادة من مواردها ؟

مداخلة

يمكنني تلخيص الهجرة في كونها ذهاب بلا عودة. استعمر البشر العالم منذ قديم الزمن وعاشوا في تناغم مع الكائنات الأخرى ولم توجد يومها أي حدود. في الماضي كانت الطبيعة للجميع بكل ما فيها ؛ أما اليوم فقد أصبحت الأمور أكثر تعقيدا جراء استبداد الفردانية والحميمية على حساب روح الجماعة والتقاسم. وهذا أمر مخيف بلا شك.

نيمب أونيسفوري

سأفاعل أولا مع التدخل الذي تحدث عن تدفق المهاجرين. على سبيل المثال، يوجد كامبرونيون بالعاصمة ياوندي وهم لا يعرفون أن بلدهم يستقبل أربع مائة وعشرين ألفا لاجئ ؛ في الشمال، يوجد مائة وستون ألف لاجئ نيجيري ؛ أما في الشرق فيوجد مائتان وستون ألف لاجئ من جنسيات إفريقية مختلفة ؛ والأرقام لا تكذب. الكامبريون يستقبل هؤلاء المهاجرين في هدوء لأنهم هاربون من شبح المجاعة. إذا كان هذا هو الوضع، فقولوا لي بالله عليكم كيف لبلد ناتجة الداخلي الإجمالي لا يتعدى خمسة وثلاثون مليار دولار أمريكي أن يستقبل هذا العدد الكبير من اللاجئين ؟ وعدد اللاجئين بالمغرب مثلا لا يتعدى مائة وعشرون ألف. أعتقد أن ما ذكرته يعطيكم فكرة عن ما يقع بالكامبريون وبدول مجاورة كغانا. تعداد مواطني دول جنوب الصحراء بأوروبا لا يتعدى المليونين، أليس كذلك ؟ ورغم ذلك باتوا يلغون ترحيبا وتقبلا أقل في ظل الأزمات المتلاحقة التي تضرب العالم، كأزمة الرهون العقارية سنة 2008 والأزمة الاقتصادية. نحن اليوم نعيش عصر الحروب التجارية والأزمات ذات التبعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العميقة. وهذا الواقع المتأزم صعب الحياة على الأسر. لما وطأت قدمي أرض المغرب قبل عقد من الآن، كان الكيلوغرام الواحد من الفاصوليا يكلف اثني عشر درهما أم اليوم فهي تكلف ثمانية عشر درهما للكيلوغرام الواحد. أما زيت الزيتون فقد قفز سعره من اثنين وثلاثين درهما للتر إلى أكثر من خمسين درهما للتر اليوم.

أعتقدون أن المغربي عندما تشتد حياته صعوبة سيتقبل أي تشريعات أو امتيازات لفائدة المهاجرين ؟ الكلمة الأخيرة بلا شك ستكون لغريزة البقاء ليس فقط بالمغرب بل في كل بقاع العالم.



عبد الرحمان رشيق

تحظى الهجرة إلى أوروبا بتغطية إعلامية كبيرة تُطلعنا على كل مآسي المهاجرين. نتكلم في غالب الأحيان عن الأنانية في علاقات الأفراد، لكنني شخصيا أفضل استعمال مصطلح الفردانية. كلما كبرت المدينة، استبدت الفردانية والحميمية. هذا الكلام يؤازر ويسند ما قلناه عن «الخوف من الآخر» وانعدام الثقة في علاقات الجوار بين المغاربة فيما بينهم وبالأحرى ثقفتهم بالمهاجرين. وقد أكدت دراسة في هذا الباب أن علاقات الجوار عند المغاربة يغلب عليها التشنج. لقد عرف المجتمع المغربي خلال العشرين سنة الماضية تحولات كبيرة ترتبط في الجزء الأكبر بالتمدن الكثيف. وقد أدى اجتماع عقليات كثيرة مختلفة ضمن مجال المدينة وتفاعلها تأثيرا وتأثرا إلى ظهور سلوكات وأنماط اجتماعية جديدة. ومن ذلك تراجع مستوى الثقة بين الأفراد إلى أدنى المستويات وبروز النزعة الفردانية والحميمية. ولعل المثير في نتائج هذا البحث هو أن 80% من الجيران بالقرى والمدن على حد سواء لا يثقون تماما في بعضهم البعض. هذا هو واقع الحال بين الجيران، فكيف سيكون الحال مع المهاجر القادم من وراء الأفق البعيد.

بيوس دبالو

كلما طرحنا قضايا الهجرة للنقاش، تحدثنا كثيرا عن هجرة الجنوب إلى الشمال، لكننا لا نتكلم كفاية عن الهجرة داخل القارة الإفريقية. لقد أقرت مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين أن عدد اللاجئين داخل إفريقيا أكبر من عدد المهاجرين المتجهين نحو أوروبا. فعلاوة على الكاميرون، تستقبل دول إفريقيا أخرى كثيرة لاجئين أكثر مما تستقبل أوروبا التي أحدثت ضجة كبيرة حول ما تعتبره أكبر أزمة هجرة في تاريخها الحديث. وقد انضاف إلى التأثير الإعلامي الكبير تصدر الشعبوية واليمين المتطرف للمشاهد السياسي. ولقد وجدت وسائل الإعلام الغربية في مواضيع الهجرة مادة دسمة تجلب المتابعين فأصبحت منبرا للشعوبيين المعادين للمهاجرين. كما أن قضايا الهجرة باتت محورا أساسيا في الحملات الانتخابية للسياسيين الذين يرون في شيطنة المهاجر والتخويف منه أقصر الطرق لبلوغ السلطة.

أية مكانة للكوني في الفضاء الإفريقي المتعدد الثقافات ؟

رئيسة الجلسة : سعيدة بلوالي
المشاركون : عبد العزيز مامادو مايغا، يونيسة تور، حافظ أدامو نفادا، بالو داودة
أحمدو كوروما : فضاء
يوم السبت 20 أكتوبر 2018 : التاريخ
16 : 30 - 15 : 00 : الساعة



موجز مداخلات المائدة المستديرة

أشرفت على تسيير هذه المائدة المستديرة رئيسة قسم العلوم الإنسانية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة سعيدة بلوالي، المعروفة بكتبها التي تناقش الازدواجية اللغوية وإشكالاتها وتعقيداتها. افتتحت الجلسة بإلقاء الضوء على مجموعة من المصطلحات. وقد توقفت عند مصطلح التعددية الثقافية الإفريقية، وقابلت الهويات الثقافية للإثنيات بكل ما فيها من تفرد وخصوصية مع مفهوم الكونية، لتخرج بسؤال حول سبل التوفيق بين العنصرين أو تجاوزهما معا والسعي قدما في بناء كونية جديدة. وقد ساهم في مناقشة هذه الموضوع عدد من المفكرين والباحثين.

ضيفنا الأول، الذي تابع كل دراساته العليا بوجدة، هو الدكتور بالو داودة، المدير البيداغوجي بالجامعة الإسلامية الإفريقية لأبيدجان ورئيس جمعية الأساتذة الباحثين خريجي الجامعات والمعاهد المغربية.

وضع داودة مجموعة من القواعد التي تضمن لنا، في رأيه، العيش المشترك بين ثقافات مختلفة ؛ معتمدا في ذلك على حياته الطلابية التي عاش فيها فكرة المواطنة الكونية بين المغاربة وطلبة أفارقة كثر من دول جنوب الصحراء. وبما أنه عاش تجربة التعايش داخل أسوار جامعة محمد الأول، يعتقد داودة أن المؤسسات التعليمية هي أفضل مكان يمكن أن نعيش فيه قيم الكونية النبيلة، خاصة أنها مؤسسات تعمل على تهيئة الأجيال للمستقبل. ورغم أنه يعطي وجدة مكانة تفضيلية عن غيرها من مدن المغرب، يرى ضيفنا الكريم أن المغرب، كبلد عرف كيف يثري ذاته من خلال ثقافات كثيرة وأكثر من هذا عرف كيف يتشبث بها كأجزاء لا تتجزأ من هويته، معتبرا أن المغرب نموذج في الانفتاح على الكونية نظرا لإيمانه العميق بقيمة التسامح وتقبله الخصوصيات الثقافية عند الآخر.



شدد خريج جامعة محمد الخامس بالرباط الأستاذ عبد العزيز مامادو مايگنا على غنى وتنوع الثقافة الإفريقية، مؤكدا أن هذا التنوع سمة أساسية داخل العديد من المجتمعات الإفريقية. ويعتبر التجربة المغربية نموذجا يحتذى، ويرى أن عودة المملكة المغربية إلى الاتحاد الإفريقي ستساهم في بث روح وقيم العيش المشترك والدفاع عنها إلى أن تسود القارة الإفريقية جميعها. وحسب ضيفنا الكريم، هذا المسار يقودنا إلى تحقيق جملة من القيم النبيلة التي جاء الإسلام ليحققها. وتحدث ضيفنا يونيسة تور، عن تجربته في اتباع نهج أمير المؤمنين نصره الله في لمّ شمل أتباع الطريقة التيجانية بساحل العاج، مبرزا أهمية الدين والإيمان في تحقيق التعايش المشترك، ثمنا للانفتاح المغربي. كما علق أملا كبيرا على المنظومة التعليمية والأجيال القادمة لبلوغ أكبر قدر ممكن من التعايش بين الثقافات. وفي الختام، أجمع المشاركون على أن مقارنة إفريقيا للكونية تعنى أولا تقبل الاختلافات والتعددية الهوياتية الإفريقية واستثمارها في توطيد أواصر التعاون والأخوة بين بلدان القارة. وقد أجمع المتدخلون أيضا على أن مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة مثال رائع على جهود نشر السلم والسلام والتسامح.

مداخلات المائدة المستديرة

سعيدة بلوالي

نجدد الترحاب والشكر بالمشاركين الأجانب الذين تكبدوا عناء القدوم من بعيد بهدف مناقشة موضوع بالغ الأهمية. يبدو من المهم فتح هذا النقاش بالحديث عن التقارب بين ما هو كوني وما هو خاص. كما أدعوكم للتفاعل والمشاركة في هذا النقاش الكوني والخاص. يبدو أنهما فكرتين متناقضتين بيد أن تناقضهما لا يمنع انسجامهما، أعتقد أن ضيوفنا سوف يبذلون قصارى جهدهم في محاولة الحديث عن الموضوع وتقريب المفهومين من محض خبرتهم ومهارتهم. ويتعلق الأمر بنمطين من التفكير والتأمل، وبمقاربتين، إذ من ضرور الذكاء التفكير فيما هو كوني إلى جانب ما هو خاص في ذات الوقت. لماذا؟ لأن هناك بالفعل اتجاه متنام لتعزيز القيم الكونية، في حين يتم إحباط هذا الاتجاه ومناقضته باستمرار بدافع تقاوم الهويات من حقيقة أن الناس يدعون تفردهم وخصوصيتهم. فأصبحنا نتحدث الآن عن شكل من أشكال الكونية ذات الطابع العرقي ويمكن أن نسقط في التناقض على هذا المستوى. فهل العرقية الكونية تستثني أو لا تقبل أو فقط لا تتعايش؟ هل عندما يولد شخص في إقليم ما فإنه يعرف بانتماء وإرث، فهل يحمله ويحافظ عليه بأمانة؟ ويتم تعريفه من خلال ما هو عليه ومن أين يأتي. اليوم، ما نود مناقشته هو: في الفضاء الإفريقي متعدد الثقافات، ماذا يمكن القيام به للاقترب من الكونية ومحاولة الجمع بين الخصوصي والفريد؟ سأكتفي بهذا القدر وأعطي الكلمة للسيد بالو داودة، الذي يرغب في إعادة توجيه الموضوع.

بالو داودة

أود أن أشكر منظمي هذا المعرض المغاربي للكتاب، فهو بادرة طيبة يسمح للجميع ولكل واحد بالتعبير، ولهذا الغرض نجتمع اليوم. أشتهل كمدير تربوي للجامعة الإفريقية للمسلمين، وفي الوقت نفسه رئيس للأساتذة الباحثين المترشحين الناجحين من المغرب. في الواقع، لقد ناقشت أطروحتي للدكتوراه في المغرب ولدي خلفية جامعية. ومن أجل التأثير في الجيل الحاضر يجب التوجه نحو الجامعة. حيث يوجد في جامعة محمد الأول بوجدة، إذا لم أخطئ التقدير، حوالي ست وتسعين ألف طالب. بينما في جامعة أبيدجان يوجد تقريبا مائة ألف طالب. وإذا ما أردنا التأثير في الناس أثناء الحديث عن الكوني، فإنه يجب استهداف الجميع، وليس فئة أو جزء من الكل. عندما قدمنا إلى المغرب خلال التسعينات، وجدنا أنفسنا بمعية مغاربة بكل تأكيد إلى جانب السنغاليين والغينيين والماليين... إن ما عايشناه في بداية الأمر، هو أن خيار التعايش لم يطرح أمامنا. لقد أتى كل واحد منا مشبع بتربيته وطريقة عيشه، وبالتالي وجب التعايش والحوار ودرء الخلافات، لقد قمنا بتكوين أسرة والتي يمكن أن نطلق عليها - تماشيا مع الموضوع - الكوني. وقد تألفت هذه الكونية من تجمعنا ومن كل ما يهمننا ومن كل ما هو طبيعي بالنسبة لنا. ونقيض الوضع أن ينغلق كل واحد في قوقعته ويفعل ما يبدو له صوابا. على سبيل المثال، إذا رغب أحد في الأكل، فإنه يأكل في الشمال، ونحن، عندما نريد أن نأكل فإننا نأكل في اليمين. لا أحد يفعل مثل الآخرين، بل يخضع كل شخص لما نسميه بالخصوصيات.

بالتالي، وفي واقع الأمر، إن التأثير يطال جزءا كبيرا من المجتمع عندما نحاول تطبيق ما نحن بصدد الحديث عنه. ولذلك، يجب استهداف الجامعات والمؤسسات التعليمية. ندرج في هذا الإطار أيضا وجدة: وأخص بالذكر وجدة، لأن الناس في هذه المدينة منفتحون جدا على التعاون مقارنة بالمدن الأخرى، لاسيما في مقاربة جنوب-جنوب. وهذا ما نسعى لتطويرة اليوم، وفي الكوت ديفوار لا نجد أفضل من المغرب لتحقيق ذلك. لقد أمضيت أكثر من عشر سنوات هنا كما حصلت على الدكتوراه ثم عدت إلى بلدي، وشغلت منصبا رفيعا في الكوت ديفوار، لقد كان بإمكانني أن أصبح وزيرا أو رئيسا للجمهورية! من يدري؟

في حال صرت رئيسا للجمهورية، سوف أعود إلى وجدة وأحضر كل أصدقائي في هذه المدينة وأنظر في وجههم لأخبرهم بأن الفضل يعود لهم، ذلك لأن الانفتاح الذي عايشته مكنتني من تطوير ذلك على مستوى بلدي. أنا ما عليه اليوم، وفي هذه الحالة، أضع كل شيء رهن إشارة وجدة ! وسيكون ذلك بمثابة مفاجأة للمدن الأخرى التي يجب أن تحذو حذوها ! في المقابل، إذا ما أردنا المضي قدما فيجب التأثير في الجامعات والتأثير في المؤسسات. من يرى شجرة تنمو بميل طفيف وأراد تقويمها، فإذا كانت الشجرة قاسية فسوف يكسرهما حتما. بينما إذا بدأنا عملية التقويم في سن مبكرة أثناء مرحلة النمو فسوف تنمو باستقامة. وهذا ما أود قوله حاليا، سوف نتاح لنا فرصة الغلو في الموضوع أكثر.

سعيدة بلوالي

شكرا لك سيد داودة. فنحن نتحدث عن مجتمع له تاريخه وله خصاله، ونحن، مع كل ما يمثله لنا. إنها تجربة مثالية للتعرف على الآخر، وإحياء ثقافته، وإيجاد طريقة لخلق التجانس معه، إضافة إلى تشكيل ثقافة مشتركة، مع التقاطعات المحتملة. في اعتقادي إنها الخطوة الأولى بامتياز نحو فكرة الكونية. أمرر الكلمة للسيد عبد العزيز مامادو ماينغا.

عبد العزيز مامادو ماينغا

يعتبر هذا الملتقى من أهم الملتقيات التي شاركنا فيها في هذا المجال واستطاعت اللجنة أن تجسد مكانة الكوني في هذا اللقاء، حيث التقينا بشعوب جاؤوا من شتى بقاع الأرض ومن مختلف الدول والقارات. فالموضوع المطروح : أي مكانة للكوني في الفضاء الإفريقي المتعدد الثقافات ؟ هذا موضوع مهم جدا ويستحق البحث والدراسة لكونه يدرس جانبا من الأحداث السامية التي من أجلها خلقنا جميعا: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا».

فللكوني مكانته الأساسية في فضاء التعددية الثقافية الإفريقية. فكما نعلم جميعا، إفريقيا من بين القارات الأكثر غنى في مجال التعددية الثقافية. في دولة واحدة نجد أكثر من ثقافة، أكثر من لغة، ففي بعض القبائل الواحدة تجد أن بعض القرى لا يتفاهمون إلا بلغة مشتركة أخرى، لكل فرع لغة يتحدث بها، وعليه يمكن القول إن الكوني وسيلة إذا انطلقنا من هذا الجانب يمكن أن نتخذ وسيلة للتنمية الثقافية والاجتماعية من خلال التعارف والتعايش والاحترام المتبادل بين الدول والشعوب وبين الأفراد. ويمكن أن يصب اهتمامنا حول دراسة تاريخ الدول إذا ما أردنا معرفة العصور الذهبية التي مرت بها المملكة المغربية إلى هذا العهد والعصر. في عهد صاحب الجلالة محمد السادس نصره الله يمكن بسهولة أن نتعامل مع من ينتمي إلى هذه المملكة وكذلك بالنسبة للشعوب حينما ندرس الحياة الاجتماعية، مثلا : الحياة الاجتماعية في المغرب من مختلف الإثنيات العرقية الموجودة فيها، حيث يسهل التعايش بيننا، وكذلك اللغات، يوجد مثلا في المغرب عدة لغات مثل العربية والأمازيغية، وهذه اللغات أينما نهتم بها وندرسها يمكن أن تكون وسيلة لتحقيق مكانة في فضاء التعددية الثقافية. وكذلك بالنسبة لبقية الشعوب، مثلا إفريقيا، نحن من غرب إفريقيا حيث توجد عدة قبائل مختلفة، من الممكن أن تجد في عدة قبائل قبيلة منتشرة في أكثر من دولة، ومن الممكن كذلك أن تجد قبيلة منحصرة في دولة، مثل قبيلة المندبيكو توجد في أكثر من دولة (بوركينافاسو، ساحل العاج وغينيا). نصف الشعب الذي أنحدر منه، يتواجد في مالي، في النيجر، في بوركينافاسو وفي غينيا، في حين ستجد أن قبيلة «الولوف» منحصرة في السينغال. فحينما نعرف الشعوب من خلال حياتها الاجتماعية ولغاتها فإنه يكون عاملا يسهل لنا أن نعطي تلك المكانة للكوني مع اختلاف ثقافتنا، وكذلك أرى أن كما سبق وقال الدكتور بالو، في مجال التعليم والثقافة وفي مجال الدبلوماسية، كلها مجالات يمكن استغلالها في التعايش بين مختلف القبائل، فالغنى الإفريقي في مجال التعددية الثقافية، يمكن أن نستغلها ليكون عاملا للتنمية المستدامة ودون أن نستخدمها من الناحية السلبية التي تكمن في الفرقة والإساءات.

في هذا المجال يجب الإشارة إلى دور المغرب في التنمية الثقافية والاجتماعية في الدول الإفريقية وكذلك التنمية الاقتصادية الذي لا يمكن أبدا أن يتجزأ عن المجالات الأخرى، فالعودة الحميدة للمملكة المغربية إلى الاتحاد الإفريقي سيسهم لا شك في إثراء الساحة الإفريقية في مجال تعددية ثقافات وفي مجال التعايش السلمي والتعارف وتبادل الخبرات بين الشعوب. نكتفي بهذا القدر، وإذا كان للسيدة الفاضلة أسئلة أخرى، فيمكن الإجابة عليها لاحقا.

سعيدة بلوالي

شكرا جزيلا للأستاذ الفاضل عبد العزيز مامادو مايكا على تدخله القيم، لقد أبان لنا كيف لنا أن نبحث عما يقرب الشعوب، وكيف يمكننا أن نفك الثقافات المتعددة لنجد ما يجمع بيننا. فبالنسبة له التعايش داخل التعددية الثقافية يؤسس لا محال للكوني. وسنرجع إليه لاحقا ليجيب عن أسئلة وتدخلات الحضور الكريم. ونحيل الكلمة إلى السيد يونيسة تور، رئيس الفيدرالية التيجانية بساحل العاج، فليفضل الأستاذ مشكورا ويقدم لنا توجيهها قيما في مجال الكونية لما للصوفية والروحانية من أهمية في هذا المجال.



يونيسسة تور

من هذا المنطلق أوجه شكري للقائمين بهذا اللقاء، وأسأل الله سبحانه أن يعينهم لما يسعون إليه جميعا. إن الموضوع في غاية الأهمية، تعددية الثقافات، لو نزلنا إلى هذا، الثقافة من مفهوم (لا أحتاج إلى تعريفه ولكن لكل شيء مصب من العلم) ولذلك عرف الإنسان بأنه حيوان ناطق، أي يفكر، يقبل العلم والثقافة، لذلك فاهم ما أوتي الإنسان العلم «وعلمنا آدم الأسماء كلها» لأن نحن خلفاء الله على الأرض، والعمادة لا تكون إلا بالعلم، فكل شيء يحتاج لتدليل لعمادة هذا الكون بالعلم. والتعددية شيء منطقي، فالله سبحانه وتعالى يقول : «إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا».

إذا، ومن هذا التعريف كما قال الدكتور عبد العزيز مامادو مايكا : الثقافات التعددية والشعبية كثيرة جدا في إفريقيا جنوب الصحراء. مثلا، في ساحل العاج، هناك أجناس موجودة أكثر من ستين ولكل عرق ثقافته ومفهومه من كبار الكون ولكن مع ذلك إفريقيا مرتبطة بكون سبحانه وتعالى إلى أن هناك مرض بدأ يمس الشعوب وهو عزل المكون وهو الله سبحانه عن الكون عن طريق العلمانية أي الإثنية أي تجريد الله والأخلاق والمفاهيم والقيم والعلم. ولكن نحمد الله سبحانه وتعالى، ولقد تنبه المغرب إلى هذه النقطة، رغم تعدد الشعوب في هذه المنطقة واختلاف الثقافات إلى أنها صخرة في بوثة واحدة، ونحن ورثنا هذا الميراث من المغرب عن طريق ثلاث ثوابت.

أولا، العقيدة الشرعية والمذهب المالكي والتثبيت السني. كان هناك استقرار في إفريقيا إلى فترة معينة وكان لهذه الثوابت الثلاث التي ورثناها من المغرب دورا في استقرار مناطق إفريقيا جنوب الصحراء، ومرت فترة كادت لولا لطف الله سبحانه وتعالى أن تندثر هذه الثوابت، ولكن نحمد الله قد قيد الله لهذه المهمة من يعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي وهو متمثل في شخصية أمير المؤمنين نصره الله سبحانه عن طريق معهد محمد السادس لتكوين الأئمة لكي يفهموا هذه المبادئ التي تلقيناها من الله. ثانيا، عن طريق مؤسسة محمد السادس لعلماء إفريقيا، الهدف الذي يسمو إليه أمير المؤمنين هو استقلالية إفريقيا، فالحمد لله إفريقيا غنية بالموارد الطبيعية والبشرية الموجودة، ولكن مع الأسف مختلفة بالمقارنة مع باقي القارات. ولذلك هدف المملكة هو النهوض بإفريقيا لكي تلحق بالباقي. عن تجربتي أيضا، لقد درست في السعودية (إعدادية، ثانوية، ماجستير ودكتوراه)، لما عدت إلى ساحل العاج أول ما بدأت به هو التعليم. أسست منارة إسلامية من الابتدائية حتى مرحلة الثانوية، ومجيئي إلى المغرب ساعدني أيضا، لأنني بكل صراحة استفدت من زيارتي للمغرب، جئت هنا لعدة ملتقيات في الدروس الحسنية وغير ذلك. حيث في عام 2014 كان هناك الملتقى الثالث العالمي للتجانين بفاس تحت رعاية جلالة الملك. وكان من بين التوصيات : أنتم التجانيون كثيرون ولكن لا تقارب ولا تفاهم بينكم، لماذا ؟ إذا، حاولوا أن تتقاربوا ! ومن ذلك عندما رجعت لكوت ديفوار قمت بعمل مهمة لا تخلو من الصعوبة. حاولت أن أنفذ أوامر أمير المؤمنين، فلنجتمع على تنمية واحدة كل على اختلاف عرقه وثقافته ولكن فليجمعنا شيء واحد وهو الإيمان، ربنا واحد ورسولنا واحد، إذا لماذا هذه الاختلافات ؟ والحمد لله استطعنا أن نكون هذا الاتحاد الفيدرالي للتجانين في كوت ديفوار. أخذت الفكرة من الملكة المغربية، ولكن بكل صراحة الملكة تقوم بدور مهم جدا، فعلينا أن نكون جنودا أوفياء لتنفيذ هذه الأفكار في الواقع الملموس.

سعيدة بلوالي

شكرا جزيلاً. أستاذنا وضع لنا أهمية العلم في تقريب الثقافات وأهمية علاقاتنا بالأخلاق والقيم والدين في تعاملنا مع الكوني. أحيل الكلمة للأستاذ محمد التوري ممثل الأفارقة التجانيين بالمغرب.

محمد التوري

أشكر المنظمين لإحتهم لنا هذه الفرصة لكي نساهم في إغناء هذا النقاش وهذه المداخلات، من خلال العنوان أعتقد أنه يشير إلى نظرة ثابتة، لأن الإيمان بفكرة تعدد الثقافات هي الأساس الذي من خلاله يمكن أن يعيش الإنسان في هذا الكون في تعايش ووثام ويستطيع أن يحقق ما يطلب منه من تقدم وازدهار، لأن إذا اعترفنا بأن لكل شعب ولكل مكون مجتمع ثقافته وهويته لن يكون هناك ادعاء أي مكون حضاري أن يدعي أو يزعم السمو على بقية المكونات الثقافية. فمن خلال الاحترام المتبادل للثقافات نستطيع أن نصل إلى هذا الوثام، والإنسانية تستطيع أن تنجز ما تريد أن تصل إليه من أمان وازدهار. لا أريد أن أطيل ولكن بعد هذه المقدمة، أريد أن أقول أنه حان الوقت لأن نعيد التفكير في الثقافة في إفريقيا، فعلى الأفارقة أن يعودوا إلى ثقافتهم ويغنوها ويعطوها الاهتمام والأولوية والرعاية من خلال نظرة منفتحة من دون تعصب ومن دون انغلاق ولكن مع القدرة على التفاعل مع الآخر، لنساهم في إغناء ما يمكن أن نسميه الثقافة الإنسانية أو الكونية، تفاعل وتأثير وتأثر متبادل في إطار إيجابي. فمثلا كما ذكر المتدخلون، بما أنني هنا في المغرب يجدر بي أن أشير إلى التجربة المغربية، وهذا ليس من باب المزايدة أو المجاملة ولكن هذا هو الواقع الذي نعيشه. استطاع المغرب مثلا، بتقبله واحتضانه للتعدد الثقافي وتسييره بشكل إيجابي في إطار تعايش يعطي الحق للجميع، في أن يعبر عن ثقافته وعن هويته بغض النظر عن انتماءه العرقي أو الديني، وأوصلنا المغرب إلى هذا الاستقرار السياسي وهذا التطور، وما يمكن أن نسميه الانفتاح الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي.

إذا، نحن في إفريقيا نعتقد أن إخواننا خصوصا في غرب إفريقيا يعيشون مشكل الاضطراب الثقافي، هل نحافظ على ثقافتنا ونتفاعل معها ونطورها أم نأخذ ثقافة الآخر وننسلخ من ثقافتنا أو نستطيع أن نعبر عن ثقافتنا بشكل إيجابي مع تقبل الثقافات الأخرى؟ أعتقد أنه يمكن أن نستفيد من المغرب في هذا المجال، كما ذكر المتدخلون، مجال التعاون الأكاديمي العلمي الذي من خلاله يمكن أن نستفيد من هذه التجربة المغربية في هذا المجال، لنعطي دفعة لقارتنا في تقدمنا واستقرارنا.

سعيدة بلوالي

شكرا جزيلا للأستاذ الجليل، لقد أفاد بأن الاحترام المتبادل للثقافات يمكننا ويمكن الإنسانية من أن تصبر إلى الكونية. فعلى الأفارقة أن يعودوا إلى ثقافتهم الخاصة، ليتمكنوا من التفاعل مع الآخر، وليتمكنوا من إغناء الثقافة الكونية. لقد ارتبئت مع السادة الضيوف الكرام أن نفتح النقاش مباشرة ليكون التفاعل على ما أظن أفضل، وأتيح التدخل للإخوة الحاضرين، ويمكن أن يكون التدخل بالعربية أو الفرنسية وسنعيد بعد ذلك الكلمة لضيوفنا الكرام ليتمكنوا من التجاوب مع حضورنا الكريم.

عبد الله حموتي

لو سمحتم، فيما يخص العلاقات مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، فإننا نجد فعلا، حتى في كتب التاريخ، أو في كتابات الروائيين، علامات تؤرخ لهذه العلاقات لاسيما فيما يتعلق بتواجد التيجاني في مختلف البلدان، فبالتالي توجد آثار مكتوبة، فالنقاش خلف آثارا في السينغال وفي مالي وفي الكوت ديفوار، إلخ. في الواقع، نسجنا علاقات تستمر في الوجود، وكم جميل أن نرى بلادنا أيضا تسير في الطريق الصحيح. أسير حلقة حول الثقافة الإفريقية وإفريقيا جنوب الصحراء، وما زال الطلبة يأتون من أجل التكوين. وفيما يخص الشعوب الإفريقية كلها وخاصة الدول التي لها علاقة دينية وروحية مع الكوني. إذا السؤال هو : هل يمكن أن نقول أن هذه العلاقات التي تستعمل الآن وطيدة لدرجة مهمة جدا ؟ وكيف أن هذا التواصل يمكن أن يطورها حتى تصبح ربما منفتحة على الثقافات والشعوب الأخرى إذ يعتبر الكوني أساسي بالنسبة للدول الإسلامية ؟

بالو داودة

إذا لاحظتم كل سنة ارتفاع عدد الطلبة القادمين إلى المغرب، فذلك لأنهم ينهون دراستهم هنا ويعودون إلى الكوت ديفوار حاملين معهم أجمل الذكريات، أي أنهم في ذات الوقت سفراء المغرب في الكوت ديفوار : إذ يضطلعون بمهمة تعزيز الثقافة المغربية في الكوت ديفوار، ولا يقف الأمر عند هذا الحد : بل عندما يلتقون أناسا في الكوت ديفوار ويتجاذبون معهم أطراف الحديث، يقولون : «لقد درست بالمغرب وقد كانت تجربة رائعة، هناك الهدوء والاستقرار وخصوصا طبيعة الناس». وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن الجميع يرغب في القدوم إلى المغرب. أود أن أوضح لكم شيئا، فكما سبق وذكرتم أنه في التسعينات، كانت تمنح الكوت ديفوار عشرون أو ثلاثون منحة دراسية مخصصة للطلبة الإيفواريين من أجل الدراسة في المغرب. الفوج الأول الذي عاد إلى أرض الوطن، كان مردوده جيدا في العمل. على إثر ذلك طلبت الكوت ديفوار أن يصل عدد المنح الدراسية إلى خمسين منحة كل سنة. ويقدم المغرب اليوم مائة وعشرون منحة للكوت ديفوار كل سنة. تخيلوا أنه منذ عشر سنوات، نتحدث عن أكثر من ألف منحة ! وهكذا إذا كما قال زميلي، السيد محمد التوري، قبل قليل بأن المغرب نجح في أمر ؛ ويتحتم علي الاعتراف بأنني لم أشهد لنجاحه مثل في باقي البلدان الإفريقية. لماذا ؟ لأن المغرب يستقبل كل طلبة العالم. ترسل الوكالة المغربية للتعاون الدولي منحا دراسية إلى جل بلدان العالم. نجد حتى الصينيين يأتون إلى المغرب بغرض الدراسة : إذا ما ذهبتم إلى الرباط فسوف تجدونهم. فالجميع يأتي إلى المغرب.

يحتضن المغرب كل الثقافات داخل بلد واحد، حيث من المحتمل أن تتعارض ثقافة كل شخص مع باقي الثقافات. إذ أنه ليس من الهين تحمل كل ذلك والتغلب على كل الصعوبات الممكنة، وحتى العمل مع الجميع. لكن المغرب نجح في ذلك منذ أكثر من ثلاثين سنة، منذ سنة 1986، كان التعاون المغربي قائما، وقد جئنا في هذا الإطار كما سبق وذكرنا. وأنا جئت بهذه الطريقة كذلك. كما قابلت أشخاصا آخرين قدموا من مجتمعات أخرى وتحقق التبادل بالفعل. لهذا السبب نتحدث باللغة العربية اليوم، لقد تعلمناها هنا. لقد كان توجهي علميا، وأثناء القيام بالأعمال التطبيقية، كان يتحدث الآخرون باللغة العربية في حين لم أكن أجيد هذه اللغة، وهذا ما دفعني إلى تعلم العربية. وكان ذلك ممكنا لأن المعاملة كانت لائقة، والاستقبال رائع، وسوف يستمر ذلك بإذن الله، لأننا اليوم سفراء المغرب.



عبد العزيز مامادو ماينغا

نشكر الأستاذ على مداخلته القيمة ولقد أشار إلى باقي النقاط التي أردنا أن نتحدث حولها، هو التاريخ الذي يجمع بين الأفارقة، بين المملكة المغربية والسودان الغربي، لاشك كانت من العوامل التي أثرت في التعددية الثقافية في إفريقيا إيجابا، إلى جانب تلك الصلات عبر القرون في مجال التبادل التجاري والتواصل الثقافي بين مختلف الشعوب والقبائل، نعطي على سبيل المثال المملكة المغربية والسودان الغربي، مدينة مراكش ومدينة تومبوكتو، العلماء الأفارقة أو علماء السودان الذين وصلوا إلى المغرب وعلماء المملكة الذين وصلوا إلى السودان وكون ذلك منذ قرون البيئة المناسبة للتعددية الثقافية الإيجابية، لأن التعددية الثقافية إذا دعت إلى التلاحق والحروب فهي سلبية، أما الإيجابية هي التي تؤدي إلى التعايش السلمي. الحمد لله، التاريخ سجل تواصلا فعليا وتبادلا تجاريا بين الشعوب الإفريقية وبين المغرب بصفة خاصة وإفريقيا جنوب الصحراء. مكانة الكونية لها جذور في تاريخنا كمسلمين منذ أن انتشرت جذور الإسلام في أرجاء العالم، فكانت إفريقيا المحطة الأولى للدين الإسلامي بعد البعثة النبوية حيث الهجرة الأولى والثانية، وقد تعرفنا نحن الأفارقة على الإسلام قبل المدينة المنورة، وهذا يجب أن تقتخر به القارة الإفريقية ولكن يجهله الكثير. فمنذ أن ظهر الوحي وبدأت هاته الرسالة، دعا الإسلام إلى التعايش من خلال احترام التعددية الثقافية بين الشعوب. الجميع يعرف ما هي المكانة التي كانت لبلال الحبشي في المدينة المنورة. والروايات تشير إلى أن بلال بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ترك المدينة لأنه لم يكن ليطبق سماح الآذان في المسجد النبوي بعد رحيل خير البرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فبعد مغادرته وانتقاله إلى المدينة رأى في المنام أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له ما هذا الجفاف يا بلال، وبلال كما نعرف من الحبشة، هذا يجسد مكانة الكوني في التعايش السلمي.

إذا أخذنا النموذج المغربي فهناك عوامل أثرت في توطيد هذه المكانة بين الشعوب الإفريقية. كما أسلف الذكر الأستاذ بالو، عن استقبال الطلبة الأفارقة في المغرب، يمكن أن نقول اليوم أن المغرب قبلة الباحثين، لكن هذا له جذور تاريخية، لقد بدأ منذ قرون في مختلف الدول التي حكمت هذه المملكة المباركة، لقد كان هناك تواصل فكري ورحلات علمية إلى المغرب لتلقي العلوم الشرعية، فمن هنا انطلقت راية المذهب المالكي إلى أرجاء إفريقيا. أنا خريج كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط، في مرحلة الدكتوراه في المناظرات الدينية.

اليوم، أصبحت لنا مكانة مشرفة كأفارقة في هذا المجال، الآن قالوا أن 120 طالب من ساحل العاج يلتحق، أنا من ساحل العاج وأقول أن 150 التحق هذا العام من مالي، هذا خير كثير. الحمد لله. السياسة الدينية المغربية، أعطت اهتماما خاصا للكوني في التعددية الثقافية من خلال تأسيس مؤسسات خاصة للأفارقة، مثل مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة. وهذا يجمع العلماء الأفارقة بمختلف قبائلهم باختلاف ثقافتهم، لغاتهم وانتماءاتهم وكذلك تأسيس معهد محمد السادس للأئمة والمرشدين والمرشدات، هذا المعهد بدأ بأئمة دولة مالي ثم أصبح معهدا دوليا، استقطب أئمة من إفريقيا والآن يستقبل هذا المعهد أئمة أوروبا وأمريكا. وهذه من الوسائل التي تسهم بلا شك في إحياء هذه المكانة وفي توطيد التبادل الثقافي.

رئيسة الجلسة : أمينة المؤدب
المشاركون : باربارا كاسان، تيفين سامويو، زكية سيناصر
فضاء : القدس
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 18 : 30 - 17 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

ذكرت أمينة المؤدب، الحاصلة على الدكتوراه في اللسانيات الإثنية ومديرة قطب الكتاب والمكتبات الوصائية بسفارة فرنسا بالرباط، في مستهل هذه المائدة المستديرة بالخطوط العريضة في مداخلة للأستاذ راشد رشدي، الحاضر معنا في القاعة، والذي كان قد شارك بها في مائدة مستديرة سابقة، خاصة حديثه عن سابقة تأسيس مكتبة جمعت كل معارف العالم، وعلى رأسها معارف اليونان، باللغة العربية ابتداء من القرن التاسع. بعد ذلك، قدمت المسيرة للجمهور الحاضر الأستاذة باربارا كاسان، الباحثة الفخرية في مركز البحث العلمي الوطني الفرنسي وعضوة الأكاديمية الفرنسية والكاتبة التي لها إصدارات عدة أبرزها «في مدح الترجمة» المتصل بموضوع النقاش مباشرة. تحدثت الأستاذة كاسان عما كان ربما يعتبر أول مظهر للكونية، وهو اللوغوس اليوناني الذي أصبح كونيا لما وضع اليونان كمقابل ونقيض لما سواه من «العالم البربري».

حسب كاسان، الترجمة هي ما يمكن المرء من الإقامة والعيش في كلتا اللغتين وكذا تعلم وفهم تنوع اللغات : وهذا هو البعد الأساسي في الكونية الجديدة. ضيفة أخرى تشرفنا بحضورها، الأستاذة الجامعية ورئيسة جمعية التراث اللغوي زكية سيناصر. كونها مغربية، تعيش حالة التنوع اللغوي الوطني بكل تفاصيله ؛ كما تشغل رفقة كتاب آخرين على مختارات من التراث الشفهي المغربي التقليدي المتعلق بالحكايات والأساطير والألغاز والأحجيات، وهو ما قادها إلى اكتشافات مهمة، منها أن جحا المغربي الشهير شخصية شبه كونية لها حضور قوي في كل بلدان المتوسط. كما أكدت على التشابه الكبير بين جملة من المحكيات المغربية وحكايات لافونتين وحكاية مشرقية نجدها عند كاتب الملاحم، اليوناني هيرودوت. وأكدت كذلك أن ترجمة الحكايات والأساطير المغربية إلى الفرنسية تؤكد باللموس مدى صعوبة إدخال نص من ثقافة معينة إلى ثقافة أخرى.



من جهتها، ناقشت الأستاذة الجامعية والروائية الفرنسية تيفين سامويو كتاب باربارا كاسان «معجم الفلسفة الأوروبي» الذي يمجّد التنوع والتعددية الثقافية في مقابل الكونية المهيمنة. وهذا معناه أن الترجمة هي في المقام الأول عمل يخدم في المقام الأول الاختلاف والتنوع، إذ يدفع المرء دائما إلى مساءلة لغته، حيث أن الترجمة فضاء يسكنه القلق وتحيط به الحصون والقلاع في مواجهة الهيمنة، وهي بهذا المعنى ترياق ضد الكونية. إلا أن برامج الترجمة لازالت غير قادرة على تجاوز المعاني الحرفية المباشرة إلى مستويات أعمق، حيث أنها عاجزة حتى الآن عن نقل البعد الثقافي ودلالاته العميقة. من ناحية أخرى، بينت باربارا كاسان خطورة الترجمة وأبعادها السياسية. ولقد أشار المتدخلون إلى جملة من القضايا، من بينها تدريس الرياضيات باللغة العربية الدارجة والإشارة إلى كتابة دانتي نص الكوميديا الإلهية باللغة الفلورنسية بدل اللغة اللاتينية، التي كانت لغة التواصل والتأليف في أوروبا. كل هذه المداخلات تؤكد إمكانية الابتكار وإعادة تشكيل اللغة، وأن هذا تحدي يناط بالترجمة رفعه وأخذه محمل الجد.

مداخلات المائدة المستديرة

أمانة المؤدب

يعتبر النقاش حول الكونية في صلب نشاطنا الترجمي الذي بدأناه منذ سنتين، هنا بالمغرب، من داخل مكتب الكتاب الفرنسي وبالتعاون مع عدد من دور النشر. وسنقدم نتاج عملنا في هذا الباب ضمن فعاليات الدورة القادمة للمعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء. ولقد شهدت إحدى أول الموائد المستديرة المنظمة هذه السنة مشاركة مؤرخ علم الرياضيات العربية المميز رشدي راشد، الذي يشرفنا بحضور هذا النقاش. وأنا اليوم سأستعين بشيء مما قاله الأستاذ في تسيير هذه الجلسة المتعلقة بالترجمة، وهذا ما لم أقله حتى الآن. ترجم الأستاذ رشدي العديد من الأعمال الخالدة، خاصة مخطوطات الخوارزمي التي أهداها مؤسس علم الجبر للخليفة العباسي المأمون. وقد ساهم هذا العالم الإسلامي الكبير في تطوير العلوم والفلسفة، وأسس لفعل الترجمة عبر ترجمة نصوص الفكر اليوناني والفارسي القديم الذي أغنى اللغة العربية. وفي نظري، من الضروري جدا إعادة الاتصال بهذا التراث بشكل عاجل. ونحن نعتبر اشتغالنا في الترجمة ومشاركتنا في هذه المائدة المستديرة التي تناقش الكونية، خاصة فكرة مساءلة الكونية القائمة أو بناء كونية جديدة أو تبني مقاربة جديدة، مساهمة بسيطة في هذا الاتجاه.

في البداية، أريد التنديد بحالة التعتيم والتغاضي المنهج عن الدور الكبير الذي لعبه الدين الإسلامي واللغة العربية في تشكيل الحضارة الأوروبية والحداثة. فقد أسس العرب علم الجبر ونظرية الأرقام والكسور العشرية والكثير من الأشياء الأخرى في علم الرياضيات وسائر العلوم. وهذا كله يفند الرأي الذي يقول بأن العلوم الحديثة إنتاج خالص للغرب. في الحقيقة، الترجمة تمكننا من أن نبين للجميع أنه لا يوجد سوى عالم واحد وحقيقة واحدة : أي أن العلم لا دين له ولا هوية ولا كاتب تنسب له حقوق ملكيته الفكرية. وبهذا المعنى، يصبح رجوعنا جميعا إلى الكونية المتنوعة، رجوعا إلى الحقيقة. وهنا أقرأ لكم جملة قال فيها الأستاذ رشدي : «العلم لا جغرافيا له، ولا توجه روحي له : فهو إذا لا غربي ولا شرقي، وكل ما في الأمر هو أننا بصدد ادعاءات مبنية على أسس إيديولوجية بدل أسس فلسفية وعلمية. وكما هو معلوم، تم نقل الفكر اليوناني إلى البلدان الإسلامية» عبر حركة ترجمية كبيرة. لكن ترجمة أعمال بهذا المستوى الذي تحدث عنه الأستاذ لا تتم بالمصادفة هكذا. هذا الجهد الترجمي الكبير كان يندرج ضمن جهد بحثي أكبر شمل كل العلوم وقام باستخلاص عصارة كل ما كتب فيها باللغة العربية قبل أن يطالب بترجمة أعمال الثقافات الأخرى. وهذا يؤكد أن الأمر لا يتعلق بعملية نقل بسيطة.

طور العرب التراث اليوناني وفتحوا أمامه آفاقا لم تكن تلوح في الأفق من قبل. وقد فعل العرب ذلك بفضل الترجمة أولا. بعد هذا التذكير المقتضب، سأقدم ضيوفنا الكرام. أنا حقا سعيدة لأنني جمعت ثلاثة صديقات كل واحدة منهن تشغل على الترجمة بأسلوب مختلف ومهم. على شمالي، الدكتورة باربارا كاسان، مديرة بحوث فخرية بالمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي وعضوة في الأكاديمية الفرنسية وحائزة على الميدالية الذهبية للمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي. كما تشغل كترجمة وكاتبة ؛ وقد أشرفت على تنسيق إنجاز كتب جماعية عديدة منها «معجم العبارات غير القابلة للترجمة». وبالمناسية، سيتم عرض النسخة العربية من كتاب الأستاذة باربارا «في مدح الترجمة» ضمن فعاليات المعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء المزمع تنظيمه في فبراير القادم. لم أستفص في تعريف باربارا لأنها بكل بساطة غنية عن التعريف. ضيفتنا الثانية هي الأستاذة تيفين سامويو التي أصبحت معتادة على زيارة المغرب بحكم مشاركتها في عدد من المؤتمرات بالرباط وفي الدورة المنصرمة من المعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء. وعلاوة عن كونها أستاذة أدب مقارن مختصة في الترجمة، تشغل تيفين على الأدب العالمي والعلاقات بين الآداب المختلفة. وفوق هذا وذاك، فالأستاذة روائية ومترجمة تشغل على عدد من اللغات الأوروبية.

ضيفتنا من المغرب هي الأستاذة زكية سينصار، المختصة في قضايا التعددية اللغوية والتنوع اللغوي. ترجمت زكية عدة كتب حول اللهجات والازدواجية اللغوية كما ساهمت في ترجمة كتب أخرى.

باربارا كاسان

في الحقيقة، أريد التعليق على عنوان هذه المائدة المستديرة وعلى شعار الدورة الثانية من المعرض المغاربي للكتاب. يذكرني شعار «مقاربة الكوني» بعنوان فرعي في كتابي «في مدح الترجمة» أطلقت عليه «تعقيد الكونية». لذلك، أتساءل هل عبارة «مقاربة» في شعار المعرض تعني أن الكونية مشكلة سلفا وأن أقصى ما يمكننا فعله هو مقاربتها ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمتى تشكلت هذه الكونية ؟ وما هي أول كونية بلغت الكونية ؟ أنا لا أعرف شيء عن أصول الأشياء في هذا العالم المتداخل، وأفضل الحديث عن الكونية الأولى ؛ وإذا افترضنا أن هناك كونية مميزة تم اختراعها فهي ربما الكونية اليونانية، الأرستية مثلا، التي تقول : لا معرفة إلا معرفة الكون. هذا الفكر يميز بين الكوني والمفرد والجماعي. وعليه، يمكننا القول إن الكونية ربما كانت ولو مرة واحدة على الأقل، إن لم تكن للمرة الأولى إطلاقا، اختراعا يونانيا. وهذه الكونية ربما اخترعت، أو وجدت أو اختزلت، في كلمة واحدة هي : اللوغوس.

هذه كلمة لا ترجمة لها أصلا ؛ وهي أفضل مثال على الكلمات غير القابلة للترجمة. اللاتينيون ترجموها من خلال التلاعب بالكلمات والألفاظ ؛ فقالوا : «الخطاب والمنطق». يحمل اللوغوس في طياته فكرة النسبية والرياضيات ؛ وهذا يحيلنا مرة أخرى إلى ما قاله الأستاذ راشد رشدي. إذا عندنا : اللوغوس - أي المنطق - واللوغوس، أي الخطاب. في الحقيقة، يمكن أن نترجم كلمة اللوغوس بمئات الطرق والصيغ ؛ لكن لماذا ؟ أليست هذه الكونية ثقيلة ومزدحمة بالمعاني ؟

في الواقع، السبب هو أن الإنسان عندما يعمل العقل واللغة فهو ينتج الآخر. حسب أرسطو، الإنسان حيوان ناطق لا كونية له أكثر من هذا، إلا أن يتحدث اليونانية أو يكون يونانيا أصلا. وهذا يعني عند اليونان : التحدث كما ينبغي والتفكير كما ينبغي وتحصيل العلم كما ينبغي. ولكن، إذا لم يكن المرء يونانيا ولم يتحدث اليونانية، فماذا سيكون ؟ سيكون من البرابرة، أي الأقوام التي لا يسمع اليونان من لغتها سوى «بلا بلا بلا». وهذا يبين أن كلمة برابرة محاكاة لصوت «بلا بلا بلا» الذي يصل أذن اليوناني عندما يستمع لغات أجنبية. أعتقد أن المشكلة الأساسية في تشكل الكونية هي أنها تبقى دائما منسوبة إلى أحد ما : على سبيل المثال، اللوغوس كونية يونانية. وإذا بدأنا هكذا، سنفهم أنه من الضروري جدا الاستمرار في إعادة تشكيل الكونية دون توقف، أي أن نجعل مجهود إعادة تشكيل الكونية صيرورة دائرية يكون أولها آخرها. وإذا كنت قد أوليت كل اهتمامي وتفكيري للترجمة، فلأنها تمنحنا بدل اللوغوس الواحد كلمة الله التي تشعل لنا فوانيس تكشف معاني ونواميس العالم المتنوعة ولأن بدل اللوغوس الواحد عندنا لغات كثيرة. هذا الكلام يمكن أن يقودنا إلى تشكيل كونية تتمحور حول فكرة تنوع اللغات البشرية.

يمكن أن نحاول تشكيل شيء جديد يشبه الكونية، وأنا صراحة لا أعرف ماذا يمكن أن نسميه : هل يمكن أن نسميه كونية معقدة ؟ ربما ؛ لكن في جميع الأحوال، هذا الشيء الذي يمكن أن نسعى في تشكيله هو شيء مركب، ويضم في داخله صفات أهمها التفرد والخصوصية والتنوع ولا يوجد بالتالي كونية مهيمنة بل يوجد كهدف أو كخط ناظم لكل شيء في العالم. وبالنسبة لي، مقاربة الكوني تعني وعينا بأن ما نحتاجه فعلا هو ببساطة خيط ناظم يجمع كل شيء ولا ينسب لأحد ووعينا بأن الكونية الحالية منسوبة لأحد ما. وفي نظري، تمكنا الترجمة من فهم التنوع اللغوي، المناقض للفردية السائدة في اللوغوس وكونيته، كما أنها تمكنا من الإقامة والعيش بين لغتين أي في كنف كلتا اللغتين. ولو كان موكل لي أمر الحسم في أساليب وأدوات مقاربة الكوني، لكان طلبي الأول من الجميع هو الإقامة والعيش بين لغتين قدر المستطاع. وهنا أريد استحضار جاك ديريدا الذي استعمل عبارة : «كثير من لغة». ولو أردت أن أعطي تعريفا عاما وبسيطا واختزاليا لمفهوم التفكيك، فسأقول بلا تردد : «كثير من لغة».

في الواقع، مثيرة جدا هي عبارة «أكثر من» كأسلوب في إعادة تشكيل الكونية. وهذه العبارة لابد أن تشمل كل شيء في نظري. وجدير بالذكر أنه حين اشتغالي على «معجم العبارات غير القابلة للترجمة» و«معجم الفلسفة الأوروبي» اللذين ذكرتهما أمانة، عشت لحظات مميزة أبرزها عندما فهمت أننا نتكلم ونتفلسف لا من خلال المفاهيم بل من خلال كونية تتجلى في كلمات اللغات البشرية المختلفة. وهذا معناه أنني عندما أقول «Bonjour»، فأنا لا أقول «سلام» ؛ وأني عندما أقول لك «Je vous souhaite une bonne journée» كتحية فأنا لا أتمنى لك حقا وبمعنى حرفي أن تحظى بيوم جيد يعمه السلام ؛ وهذا معناه أيضا أنني عندما أقول «mind»، فأنا لا أقصد «geisst» كما أنني لا أقصد «spirit». في نظري، هذا هو المنطلق الذي سيمكننا من تشكيل كونية أكثر تعقيدا وتركيبا وأكثر تفاعلا مع الواقع وأقل خضوعا للإيديولوجيات. قبل أن أترك لكم الكلمة، يمكن أن أحدثكم إذا تفضلتم عن طريقة اشتغالنا، أخذين بعين الاعتبار فكرة الخط الناظم، على «معجم العبارات غير القابلة للترجمة». بني هذا المعجم في مقابل نوعين من الكونية : كونية عالمية وما يمكن تسميته الكونية القومية، التي أسمىها القومية المرضية، كذلك التي عبر عنها هايدغر عندما قال «إن اليونانية والألمانية هما لغتا الإنسان المفكر العميق»، أي الكونية في أبهى صورها. هذا الرأي لا يعبر إلا عن هايدغر وعن فكره لوحده، بطبيعة الحال. مثال آخر لهذه الكونية المرضية يقدمه لنا القومي الفرنسي ريفارول الذي كان يدعو إلى فهم العالم من خلال الفرنسية لأنها اللغة الكونية السائدة في العالم. هذان هما العدوان اللذان واجههما «معجم العبارات غير القابلة للترجمة»، الذي ترجم إلى العربية في جزء منه بفضل الأستاذ علي بنمخلوف ؛ وأنا أقصد أن المعجم أعيد تشكيله وصياغته كليا.

أمانة المؤدب

مقدمة رائعة حقا. فقط كتوضيح أراه مهما : صحيح أنني ذكرت ريفارول وكونية اللغة الفرنسية لأقول أننا من خلال اليونان واللغوس واصلنا التفكير في كونية معينة وفي تعريف الكونية الحالية الخاضعة للهيمنة الغربية ؛ لكن بلا شك، قضية التعددية اللغوية واللغات مهمة جدا بالمغرب كبلد معروف بتعددته اللغوية التي تشمل لغات كالفرنسية واللغة العربية الفصحى واللغة العربية الدارجة والأمازيغية. اشتغلت زكية بشكل كبير على قضايا التعددية اللغوية والازدواجية اللغوية ؛ ولها إصدارات وترجمات عدة في المغرب. أستاذة زكية، هل لك أن تحدثينا عن التعددية اللغوية المغربية في ضوء الكونية ؟

زكية سيناصر

أشكر المنظمين على هذا اللقاء الرائع. عندما عرفت أنني مدعوة إلى هذه المائدة المستديرة، طرحت على نفسي السؤال التالي : الكونية والترجمة، كيف لي أن أحدث عنهما وأناقشهما من خلال تجربتي الخاصة، لأنني في آخر المطاف لست مترجمة محترفة ؟ كما قالت أمانة، عندي تجربة فيما يخص التعددية اللغوية المغربية. كان أبي مدرسا للغة العربية الدارجة في إحدى المدارس الفرنسية إبّان عهد الاستعمار. وبالتالي نشأت وأنا محاطة بكتب ومقررات تضم وتحوي حكايات وأساطير وقصص وألغاز وأحجيات وأمثلة من التراث المغربي مكتوبة بالدارجة المغربية. هذه البيئة ساهمت في إثراء مخيالي ومخيلي الخاص بكنوز الدارجة المغربية. يمكن أن أميز بين مستويين من الدارجة : الدارجة كلغة للتواصل والدارجة كلغة أدبية، بكل بما في الكلمة من معنى، وإذا أتيت لي الفرصة سأقدم بعض الأمثلة. بعد ذلك، ولجت المدارس الفرنسية بالمغرب، أو ما كنا نسميه مدارس البعثة الجامعية والثقافية الفرنسية التي لم تكن فيها لغة أخرى غير الفرنسية، فقد كانت العربية مقصية وغير معترف بها ومصنفة كلغة أجنبية. بعد مساري الدراسي الابتدائي والإعدادي والثانوي، كانت الوجهة هي فرنسا من أجل إتمام دراستي العليا. عندما عدت إلى المغرب، التحقت بمركز الدراسات والأبحاث للتعريب، أي أنني دخلت في علاقة مهنية قوية مع اللغة العربية الفصحى.

هكذا وجدنتني أعمل في المؤسسة التي ستوكل إليها مهمة إحلال اللغة العربية الفصحى محل اللغة الفرنسية في كل القطاعات في مغرب ما بعد الاستقلال. وهكذا وجدنتني أتعامل مع مجموعة من اللغات في نفس الوقت. قد يسألني أحدكم : ما الدرس الذي استفدته من تجربتك الشخصية ؟ في الحقيقة ما استفدته هو أنني أيقنت بما لا يدع مجالا للشك أن المغرب متنوع لغويا وأن هذا التنوع ثروة حقيقية. ولا يجب أبدا مقارنة هذا التنوع اللغوي مقارنة صدامية تميل إلى الصراع وتخلق ثنائية ومقابلة بين اللغة العربية الفصحى واللغة العربية الدارجة من جهة واللغة العربية واللغة الفرنسية من جهة أخرى. وأنا ما زلت أشتغل على هذه المواضيع. قد يتساءل أحدكم : ما هي الأعمال التي قمت بها في هذا الباب ؟ حدثكم عن تكويني وعلاقتي الخاصة مع اللغات منذ الصغر، أما الآن فسأحدثكم عن «نزعة الكونية» وعن «الكونية».



أنا جد سعيدة بحضور مديرة دار النشر الباريسية «غوتتر» معنا، لأنني أنا ومشلين غاليت - مشلين مديرة أبحاث في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي وخبيرة في علم الأجناس - قررنا نشر مختارات من التراث الشفهي المغربي : حكايات وأساطير وألغاز وأحجيات. بدأ هذا المشروع من مؤلف - حقيقة، توجد مصادقات في حياتي لا توصف - كَتَبَ جورج كولین عنوانه «مختارات مغربية». هذا هو الكاتب الذي كان والذي يستعين به في تحضير دروس الدارجة : صدفة رائعة حقا ! أليس كذلك ؟ لقد وجدنتني أدرس تلك النصوص من جديد وقد قررنا، أنا ومشلين غاليت، ترجمة تلك النصوص إلى الفرنسية، لأننا تمنينا من شدة جمالها وغناها أن ننقاسمها مع بلدان وثقافات أخرى. وقد اكتشفت مع مشلين، عالمة أجناس، كبيرة، لا يشق لها غبار في مجال تخصصها، في قصص جحا الصغيرة - أنتم بلا شك تعرفونه ولو معرفة سطحية ؛ بالنسبة لي جحا مغربي : إنه جحا فاسي وجحا مراكشي- اكتشفنا أن جحا هذا هو «كونية» في حد ذاتها : لأن عندنا جحا إيطالي وجحا مالطي وجحا مصري وجحا في كل بلدان المتوسط تقريبا. وفي كل بلد وحقة، كانت تسمى هذه الشخصية بأسماء مختلفة تراوحت بين موحى ويوحى وناصر الدين حجة. باختصار، نتحدث عن جحا نفسه الذي نعرفه في المغرب. حكاية أخرى تتشابه مع حكايات أمم أخرى هي : «اللعابة» التي اخترتها عنوانا لأحد كتبتي. ما محتوى حكاية «اللعابة» ؟ إنها نسخة كربونية من حكاية دليلة المحتالة في «ألف ليلة وليلة»، ونحن هنا بكل تأكيد بصدد كونية أخرى. في تجربتي أنا وميشلين، كل الحكايات التي أردنا ترجمتها -خمسون نسخة- تشابهت على نحو غريب مع حكايات لافونتين.

نفس الشيء يمكن قوله بخصوص المواعظ التي تنتهي دائما بدرس معين. والفرق الوحيد الذي سجلناه هو أن هذه الأساطير كانت، إن جاز القول، كل حقوقها الفكرية ملك للثقافة المغربية : نجد في هذه النصوص حديث عن الزمن من خلال التقويم القمري المغربي وشهور بأسماء مغربية، لكن الباقي كله، أي كل ذلك الخيال، كوني تماما وإطلاقا. نفس الكلام يصح قوله بخصوص الأمثال. قدمت لنا ميشلين غاليت حكاية «رطل ونص رطل» التي ترجمتها. والمميز حقا في هذه الحكاية هو أن لها وجودا مسجلا بمصر القديم سجله المؤرخ اليوناني هيرودوت. وهذا يعني أن الناس من كل الأصقاع قد تناقلوها مدة ألفين وخمسمائة سنة ومازالوا حتى يومنا هذا. نحن هنا في نفس الوقت بصدد، امتدادات ثقافية استثنائية وإشعاع ثقافي كوني، لأن هذه الحكاية موجودة حقيقة وفعلا في كل ثقافات العالم : فقد استطاعت ميشلين أن تجد نصوصا مماثلة في الكثير من البلدان. وهذا كله دفعنا إلى ترجمة هذه الحكايات المغربية. وبصراحة، ظننا أن ترجمتها إلى اللغة الفرنسية أمر يسير علينا، لكننا اصطدنا بصعوبات كثيرة. فقد وجدنا أنفسنا نتعامل مع لغة عربية دارجة، بمستوى أدبي راقى جدا، كلها صور ومجازات وموسيقى وكلام مقفى موزون. وهذه لغة أدبية مميزة يصعب التعامل معها في الترجمة : نحن لا نتحدث عن لغة عربية دارجة كذلك التي يستعملها المغاربة في حياتهم. هذه هي العقبة التي واجهتنا، لأن الترجمة تتجاوز فعل الانتقال من لغة إلى أخرى إلى فعل الانتقال من لغة وثقافة وتصور وجودي معين إلى لغة وثقافة وتصور وجودي مختلف. وعلاوة على الاختلافات الثقافية، طرح أمامنا مشكل اختلاف النظام اللغوي الفرنسي ومنطقة عن النظام اللغوي العربي. كنا نجد أنفسنا أمام عبارات باللغة العربية نحير في التعبير عن معناها باللغة الفرنسية. هل نترجمها ترجمة حرفية ؟ هذا لن يعطي النتائج المرجوة أبدا، لأن القارئ الفرنكوفوني لن يفهم أي شيء. صديقتي عالمة أجناس وتتنقن الفرنسية، وأنا أتحدث العربية بمستوى جيد على العموم. تشاورنا وتناقشنا بخصوص أحسن استراتيجية يمكن العمل بها. وقد تبين بوضوح أن الحرفية ليست حلا، لأننا سنقضي على كل المعاني الخفية. فبدأنا نعمق البحث والتشاور لأننا لم نرد ولم نرغب أبدا في الاستسلام واعتبار تلك النصوص «غير قابلة للترجمة» على قول باربارا كاسان. ببساطة لم ننقل فكرة أن هذه النصوص لا يمكن ترجمتها. لذا بذلنا جهدا كبيرا ومضاعفا كي نقب في اللغة الفرنسية وننتج نصا فرنسيا ينقل المعاني ويحترم النظام اللغوي الفرنسي، لأننا كنا ننتقل من إنتاج شفهي إلى إنتاج مكتوب. كما تعلمون جزء كبير من قوة أي حكاية هو الشفوية التي يصاحبها التجسيد الذي يبعث الحياة في الشخصيات والزمان والمكان. عندما نحكي، فنحن غالبا نحكي لجمهور، ونفكر في أشياء مثل «الحلقة» وتلك العبارات المكررة الجميلة التي يستعملها الحكواتي لشد الانتباه. توجب علينا مراعاة كل هذه الأمور وأكثر كي لا تفقد الحكاية روحها الأصلية. والنتيجة هي كتاب بعنوان «مقتطفات من الأدب الشفهي المغربي» يضم بين ضفتيه خمسة وخمسين نصا صغيرا بين حكاية أسطورية ولغز ومثل شعبي.

كتلخيص وخلاصة لما عشناه خلال هذه المغامرة، سأقدم لكم مثالا على تلك اللغة الأدبية الشاعرية التي تعاملنا معها : نتحدث حكاية ترجمناها عن سلطان أصلع لا أحد يعلم ذلك عنه لأنه كان دائما يضع عمامة على رأسه. في يوم من الأيام، وبينما هو يتجول محفوقا بوزرائه، مر السلطان بالقرب من شجرة تفاح، فعلق عمامته بغصن، وظهرت صلته للجميع وقامت الدنيا ولم تقعد. استشاط السلطان غضبا، فأرعد وأربد وأنزل اللعنات على شجرة التفاح. لكنه لم يجد شفاء لغله وحنقه إلا في أن يأمر بقطع الشجرة واستعمال خشبها في بناء دعامة بئر في قصره. وبعد بضعة أيام، مر السلطان بمحاذاة هذا البئر، فسمع تراتيلا لم يفهمها. شعر السلطان بالقلق والحاجة الملحة للفهم. فأمر وزرائه أن يأتيه بمفسر عليم يفسر له تراتيل البئر. وكذلك كان ؛ حيث جلب له الوزراء مفسرة أصولها من بني هلال أنهت حيرته. هذه التراتيل في اللغة العربية تحوي كلمات لا مقابل لها في الفرنسية. وبصراحة، من الصعب أن تجد الروعة اللغوية التي وقفنا عليها في تلك الحكايات والأساطير والألغاز والأحجيات في اللغة الفرنسية. وهذا يعني أن العبارات التي عجزنا عن ترجمتها كثيرة للغاية.

بدلنا جهدا عسانا نحصل على أفضل نتيجة. وقد توجب علينا اللعب على حبلي الفرنسية والعربية في نفس الوقت : إما أن نجد عبارة فرنسية تفي بالغرض أو ننحت العبارة العربية في الفرنسية عند غياب المقابل، ولكن أيضا لجمال العبارة وتقديرها. قمنا بالاستعانة كثيرا بالهوامش التي أنقذتنا حقا، لأننا لم نرغب أبدا في التضحية لا بالمعنى ولا بالمبنى. وفي الختام، أعود للحديث عن الهدف من لقاءنا اليوم : الشائع هو أن الجميع، وخاصة الشباب، يربطون الافتخار بانتمائهم بحجم اعتراف الناس بكونية الثقافة التي ينتمون إليها، سواء كانوا يعيشون هنا أو هناك. وأملنا من هذه الترجمات هو أن يجدد شبابنا، من خلال اللغة العربية واللغة الفرنسية، اللقاء مع ثقافتهم وتراثهم، وأن يفخروا مرة أخرى بهذا التراث الكوني.



أمينة المؤدب

أعتقد أننا سنحصل على بعض الأسئلة بخصوص ما قمت بالتفضل بالإشارة إليه في آخر الجلسة : وهذا سيمنحنا فرصة اكتشاف المزيد حول هذه النصوص. في انتظار حصة الأسئلة، سنستمع للأستاذة تيفين سامويو، ثم سأعطي الكلمة للأستاذة باربارا من أجل التعقيب إن هي أرادت ذلك.

تيفين سامويو

لم أتمتع كفاية بهذه الحكايات الجميلة. فقد كنت أفكر فيما سأقدمه بعد مداخلتين رائعتين واحدة منهما ناقشت النظرية والأخرى ناقشت التجريب والممارسة. شخصيا، أرى أن التحدث عن الترجمة كفكرة أو كمفهوم حتى، لا يفتح أمامنا نفس الأفاق ولا يضعنا أمام نفس الإشكالات التي نواجهها عند ممارسة فعل الترجمة. لكن، أعتقد أن هذا الاختلاف والصراع، إذا جاز القول، بين النظرية والممارسة في الترجمة، يقاوم الكونية. أهتم بالترجمة في الجانب النظري والتطبيقي أيضا. فهي ما يمكن أن يحميننا من الكونية المهيمنة، خاصة الترجمة الهادفة إلى بناء تصور حول العالم وطبيعة علاقات عناصره يرفع من شأن التنوع الثقافي ويقلل من شأن الكونية. ومن المثير للانتباه أن «معجم الفلسفة الأوروبي» للأستاذة باربارا كاسان منفتح على التنوع الثقافي وليس الكونية، لأن مثلا عبارة «عالم» في هذا المعجم هي العبارة الألمانية «Welt» وليس عبارة أخرى من لغة كونية مهيمنة. هذه العبارة مثال واضح على رفع شأن التنوع الثقافي مقابل الكونية لأنها اختيرت لأسباب علمية موضوعية فقط : وأنا أعتقد أن باربارا هي صاحبة هذا الاختيار.

مثلا، دخل معنى الكونية إلى كلمة «Monde» الفرنسية بعد أن تشكل داخل اللغة الألمانية أولا ؛ لكن في مرحلة معينة بدأ الحديث عن كتابات الهولندي هيفل حول تاريخ العالم التي تربط العالمي بالكوني وتطرح فكرة «الكوسموبوليتانية» : وهذا يرجعنا إلى الحديث عن العلاقة الألمانية واليونانية بهذه السلسلة من التحولات الدلالية. نحن نتحدث عن سلاسل تحولات دلالية عاطفية، سيطرة الأحادية اللغوية، التي تبقى استثناء في تاريخ العالم، استنادا على لحظة تاريخية تصبح فيها الكونية محصورة داخل حدود الدولة-الأمة وانتماء لغوي واحد وأوحد يميز هذه الدولة-الأمة ويساهم في تكونها منذ البداية. وفي نظري، جرى استبدال سلسلة الدلالات الخاصة بعبارات عالم وكونية و«كوسموبوليتان» ابتداء من منتصف القرن العشرين مع ظهور الدراسات ما بعد الاستعمارية ونظرية التفكيك التي جاءت بسلسلة دلالات أخرى أصبح بموجبها العالم أكثر ارتباطا بالتنوع والمتعدد، وانتهت بموجبها سيطرة اللغة الألمانية على معنى العالم. إذا، عرف العالم لحظتين تاريخيتين سيطرت فيها اللغة اليونانية واللغة الألمانية على معنى كلمة «عالم»، خاصة في السياقات حيث توظف هذه الكلمة من أجل التوصيف. وقد أصبحت هذه السلاسل الدلالية تنتج لنا عبارات مثل : الثقافة-العالم والمدينة-العالم والأدب-العالم. استعمال كلمة «عالم» في هذه العبارات كصفة تقريبا - وهذا استعمال خاص جدا - هو ما يجعل الكثير من العبارات غير قابلة للترجمة ويجعل كلمة «عالم» مختلفة من لغة إلى أخرى. وإذا أردنا الحصول على فكر عالمي، فمن الضروري أن نكون قادرين على الانتقال من لغة إلى أخرى وفهم هذا التاريخ بمنهجية تاريخية متحررة من أي اعتبارات قد تصدنا عن الفهم والحقيقة. ومما لا يحتاج لبيان هو أن حركة الدلالات عبر اللغات لها تاريخ تماما كما هي علاقة اللغات التي لها تاريخ أيضا. شخصا، اعتمدت على سلسلة الدلالات التي جعلت من الترجمة نمطا أساسيا في بناء الفكر، وذلك من قناعة مفادها أنه من المستحيل حيازة المرء كل معاني العالم والتمكن منها دون غيره من باقي الأمم، وأن الترجمة تسير في الاتجاه المعاكس لخط سير الكونية.

تحدثت باربارا عن مقولة «كثير من لغة» لجاك دريدا. أما أنا فسأتحدث عن آخر ما قيل في هذا الباب وربما أتحدث أيضا عن التأثير الذي أحدثته النقاشات التي شهدتها مجموعة من دول العالم حول ترجمة «معجم العبارات غير القابلة للترجمة» (أحب أن أسمى هذا الكتاب بهذا الاسم كي لا أنسى أن هناك فعلا عبارات لا يمكن ترجمتها، لأننا في بعض الأحيان نحاول أن نتناسى هذه الحقيقة رغم أننا في الممارسة الترجمة، وكما بينت الأستاذة من قبل، نعاني كي نتناسى). على نحو مفاجئ في الفترة الأخيرة، وجدنا أنفسنا مرة أخرى بصدد مساعي هدفها ربط الترجمة بالكونية. هذه المساعي تبرز بوضوح في المؤتمرات والمؤلفات المتعلقة بالحوار شرق-غرب، كمؤلف حوار الفيلسوف سليمان بشير ديان والفيلسوف جون لوب أميسيل حيث تم الربط بين الترجمة والكونية، ولكن نوع معين من الكونية فقط حتى نكون منصفين. تحدث سليمان بشير ديان عن تمييز وظفه الفيلسوف الفرنسي موريس ميرلوبونتي في سياق الحديث عن كلود ليفي ستروس (عزلت الترجمة كونية وصفها موريس بالصاعدة واعتبرها كلود ليفي بنية، بنى كبيرة تمجد فكرة الأبوية وتحرم التزاوج والتلاقح، واعتبرها سليمان ديان مكافئة للمتعالي البعيد المستعصي عن الفهم) وما سماه «الكونية من جانب واحد»، كأسلوب في فهم الكونية وفق صيرورة زمنية متصلة أو وفق الترابطات التي نقيمها بين اللغات وضمن اللغات ؛ وهذا ما أشارت إليه زكية في حديثها عن الانزياحات اللغوية القوية والكثيرة في الحكايات والأمثال الشعبية المنتشرة في كل بقاع العالم ؛ وهذا تماما ما سيسميه سليمان ديان «كونية من جانب واحد». ما يصدمني اليوم هو أن الموضوع العام لهذا المعرض يربط هو الآخر بين الترجمة والكونية. وهنا يأتي سؤال مهم جدا : لماذا بعد إبعاد الكونية ومساءلتها نريد العودة إليها من خلال لغات وثقافات أخرى ؟ يبدو أن علينا وضع الأمور في نصابها من جديد. وأؤمن أن بإمكاننا إيجاد رابط أو خيط مشترك عام يجمعنا ويغنيينا عن الكونية، وأن هناك كونية في العلوم بلا شك وربما في الفلسفة أيضا. لا ريب أن هناك كونية في العلوم، لكن عندما نشغل على النصوص الأدبية، فما يهمنا في الممارسة الترجمة هو المحافظة على ما في هذا النصوص من اختلاف.



إذا، هل أنا بصدد تشكيل كونية أساسها الاختلاف عندما أقول هذا الكلام ؟ ربما، وفي جميع الأحوال، ما يصدمني أيضا في فعل الترجمة هو أن الاختلاف لا يتعلق فقط بالآخر ولغته أو صعوبة أن يعبر المرء في لغته عن ثقافة الآخر ولغته، بل يتعلق أيضا بالاختلافات التي يقف عليها هذا المرء داخل لغته. ولهذا، فنحن عندما نمارس الترجمة، نجد أنفسنا في فضاء سمته الصراع نفقد فيه القدرة على استعمال لغتنا الأم. وفي الحقيقة، أنا أدعو الجميع إلى خوض تجربة الممارسة الترجمية، لأننا أصلا نواجهها بشكل مستمر ؛ حينها ستعرفون أن شعور المرء في تلك اللحظة اتجاه لغته أسوأ بكثير من شعوره الناتج عن عدم إتقان اللغة التي يترجم منها : دائما نشعر في الممارسة الترجمية أن لغتنا الأم هي اللغة التي لا نتقنها. وأجد أن فضاء القلق والصراع هذا يلعب دور الحصن ضد الكونية والهيمنة... ما تحدثت عنه الآن نموذج صغير على مستوى العالم تجب المحافظة عليه ومناقشته. هذا القلق الذي يعيشه المترجم عند ممارسة الترجمة يمثل لي ترياقا ضد الكونية، فأنا أرى أن الترجمة، خاصة ترجمة النصوص الأدبية والتراث الشفهي، كما هي مفهومة الآن عالميا تسير بخطى ثابتة نحو إلغاء الكونيات المهيمنة وأخذ مكانها. حاليا، يمكننا تطوير برامج الترجمة من ترجمة كل لغات العالم تقريبا بسرعة كبيرة وتقديم الترجمة كبديل للغة الإنجليزية في دور توحيد العالم. ربما لاحظتم هذا، اليوم إذا ذهبتم إلى الصين مثلا، فلن يستقبلكم موظف الاستقبال في الفندق بلغة إنجليزية مكسرة، لأن هذا الأخير سيستعمل أحد برامج الترجمة الفورية المثبتة على هاتفه الذكي كي يتواصل معك بكل سهولة. عندما نفكر في الترجمة اليوم، فهذا ما نتخيله. لي صديق كان يشتغل مترجما بالأمم المتحدة ؛ وقد كان مترجمو المنظمة يمارسون فعل الترجمة من ألفه إلى يائه ؛ أما اليوم فيقتصر عملهم على مراجعة الترجمات الآلية التي تنتجها برامج الترجمة الخاصة بالمنظمة. وغالبية محترفي الترجمة، عندما لا يشتغلون على نصوص معقدة، يكتفون بتصحيح الترجمات الآلية. هذا يعني أن هناك كونية مهيمنة خطيرة هي كونية السلع التي تساهم فيها الترجمة بقوة كسلعة وكالية. والاستمرار على هذه الحال لا يبشر بالخير، لأننا سيشهدنا الحنين إلى الإنجليزية كلغة عالمية مشتركة (Globish) مادامت على الأقل تسمح للأفراد بخلق علاقات إنسانية فيما بينهم. يمكنني أن أحدث عن تجارب ترجمة كتلك التي تمت الإشارة إليها، لكنني أفضل التفاعل مع بعض ما جاء في المداخلتين الأوليين. أعتقد أننا جميعا متفقون على أن الترجمة هي : التكيف مع الاختلاف وحسن التعامل معه. هذا هو التعريف الذي أطرحه أنا والذي طرحته المتدخلات قبلي. وفي حال تبنينا هذا التعريف، سنفهم كيف أن الترجمة هي ربما أفضل باراديجم (نموذج) تتوفر عليه اليوم للعلوم الإنسانية وسنفهم أيضا الأهمية السياسية الكبيرة للترجمة.

باربارا كاسان

أود التطرق إلى نقطتين اثنتين. أولاً، أريد تصحيح فكرة خاطئة حول فكرة «غير قابل للترجمة». نقول إن نصاً أو عبارة ما غير قابلة للترجمة لأننا لا نترجمها ونحتاجها كما هي أو لأننا غير قادرين على ترجمتها أو لأننا لا نكاد نشعر بالرضى عن أي من الترجمات الكثيرة التي وضعناها. كل هذه الفرضيات تؤكد لنا أن المسألة أكبر من إنتاج ترجمة جيدة وأن الترجمات تختلف. وهذه الاختلافات هي التي تجبرنا في بعض الترجمات على الاستعانة بالحواشي التي تمت الإشارة إليها. وحتى قبل بداية الترجمة تكون عند المترجم حواشي في النص الأصلي، فيضيف إليها وهذا أمر طبيعي لأننا نتعامل مع شعر ونثر فيهما حياة وثقافة ووجود مختلف يصعب نقله كلياً دون الاستعانة بالحواشي.

يتكلم الفلاسفة ويعبرون عن فكرهم من خلال المفاهيم، وهذا يجعلنا نفترض أنهم لا يحتاجون الحواشي. لكن في الحقيقة، هم أيضاً يحتاجونها. ومن هنا جاءت فكرة الاشتغال على «معجم المفردات غير القابلة للترجمة» الخاصة بالفلسفة. والهدف من وراء هذا العمل هي أن نقول للجميع إن الحواشي مهمة وتقرض نفسها حتى في الكتب والمجالات حيث لا تتوقعون مصادفتها. هذه الحواشي مهمة لأن المفاهيم كلمات قبل أي شيء آخر. هذا فيما يخص التوضيح. أما الآن، فأريد التوسع فيما قالته تيفين، لأنني أنا أيضاً قلقة للغاية. في مرة من المرات، خلال سفري إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كنت في حاجة إلى ترجمة مقاطع من كتابي «في مدح الترجمة» على وجه السرعة، فقررت الاستعانة بمنصة الترجمة الآلية «Deep Elle»، وهي بالمناسبة أفضل من «Google Translate» بمراحل، فكانت الترجمة التي حصلت عليها مرضية جداً. لم أحتج أي تعديلات؛ وحينها قلت في نفسي: ما أسوأه من كتاب.

حالياً، يجب أن نبحث عن الفرق الذي يمكن أن يبقى قائماً بين ترجمات البشر وترجمات الآلة. لماذا أتكلم بضمير الجماعة «نحن»؟ لا أعرف من المقصود بـ «نحن»؛ لكن أريد أن يكون العالم كله «نحن» لأننا إن لم نكن كذلك، فما عسانا نفعل؟ هل نطبق فكرة «أكثر من..» التي تمت الإشارة إليها؟ هل نسير في اتجاه تمجيد الاختلاف؟ نحن في الحقيقة نمارس الاختلاف ونعيشه. وذلك ما نفعله مع اللغات مثلاً عندما نتكلم لغتين على الأقل. كما قالت تيفين، نتيجة هذا الوضع هي أننا نبدأ في مساءلة لغتنا الأم ونشكك في تمكنا منها. وبعبارة أخرى، نحن لا نعيش تجربة لغتنا بمعنى الكلمة إلا بعد أن نعيش تجربة لغة أخرى.

إذاً، الاختلاف هو الفرق الذي سيبقى قائماً: الاختلاف الذي تنتجه الثقافة والتعليم؛ ولا أرى فرقاً غير ذلك. على الأقل هذا يبدو واضحاً مع شركة مثل «Deep Elle» الصينية أو المترجمين الذين يعملون لصالحها. ما أتلج صدري حقا هو دعوتي إلى الصين بهدف تقديم محاضرات حول الفلسفة اليونانية انطلاقاً من نصوص يونانية. وما أراه شخصياً هو أننا في حاجة إلى «الأخر». نحتاج قدماً ثالثة ورابعة... تجد لنفسها موطئ مع الأقدام التي تشغل الفضاء لوحدها. لا نريد فقط الثقافة الصينية الضاربة جذورها في أعماق التاريخ واللغة الصينية الرائعة ولا نريد فقط الثقافة الأنغلو-أمريكية... بل نريد كل الثقافات، بل نريد تمجيد الاختلاف. لا بد من قدم ثالثة ورابعة أيضاً ترغماً على الرجوع إلى داخل لغة معينة، أي إلى الرجوع إلى داخل لغتين على الأقل من خلال ما تسميه حنة أرنت الثقافة والذوق. ابتداءً من هذه اللحظة، نكون قد دخلنا أرض السياسة، وهذا، حسب رأيي، هو الفرق الكبير بين ترجمة البشر والترجمة الآلية على منصات مثل «Google Translate» و«Deep Elle». هل هناك معنى سياسي في الترجمة أم لا؟ نحن يا أعزائي عندما نترجم نكون واقفين في أرض السياسة. ولكننا أبعد ما نكون عن السياسة عندما نستعمل «Google Translate» و«Deep Elle». في الترجمة الآلية لا توجد فكرة «بين بين» التي تتوفر في الترجمة البشرية، وهذا ما يكون لدى المترجم مهارة التكيف مع الصعوبات الترجمة ويلغي، فيما أرى، إمكانية الاستغناء عن الترجمة، ولكن ليس كمنتج. ستكون برامج الترجمة قادرة على ترجمة نصوص سيئة كنصي الذي حدثتكم عنه دون مشاكل، لكنها لن تكون قادرة على التكيف مع الاختلافات، وهذا هو لب الترجمة الذي إن غاب عنها تحولت إلى شيء آخر.



في الختام، أريد الإشارة إلى جملتين قالتها حنة أرنت، يبدو لي أنها غاية في الأهمية. الجملة الأولى في صيغة سؤال : هل يمكننا اعتبار الذوق ملكة سياسية ؟ الجواب : نعم، لنا أن نختار ؛ وهذا الاختيار يوجهه الذوق. الذوق يوجهه العقل. سيتدخل الذوق كي يقول لك لا، عليك أن تبذل مجهودا أكبر. إذا، هل يمكننا القول إن الذوق ملكة سياسية ؟ الجواب : نعم. الجملة الثانية قالتها حنة في سياق حديثها عن التعددية اللغوية، حيث قالت : الذين لهم قدرة وأهمية يفعلون الأشياء التي تجعل من الإنسان إنسانا. وما تسميه حنة إنسان هو ذلك «الغموض المتأرجح» في العالم، وهذا مثير للاهتمام حقا. وبالتالي، ليست هناك لغة فيها ثبات تام : وهنا لا نتكلم عن المعاني بقدر ما نتكلم عن الطاقة. فاللغة طاقة ؛ والترجمة طاقة. ومنذ اللحظة التي تصبح فيها الترجمة مجرد كبسة زر، ينفك الارتباط بين الترجمة والسياسة. وبالنسبة إلى، ما من أهمية ولا روح ولا معنى في الترجمة إلا وهو سياسي.

أمانة المؤدب

لقد التحق جمهور إضافي فيه مترجمون، وأنا أرى هذا وقت مناسب كي نستمتع لأراء الحضور الكريم. تفضلوا.

مداخلة

فهمت من كلامك أستاذة زكية أنك قلقة من إمكانية إفراغ الترجمة من اللمسة الأدمية. ألا تتفقين معي أن هذا الكلام لا ينطبق على ما أسميته لغة التواصل اليومي ؟ وأنا أنفق معك على أننا عندما ندخل عالم الشعر والإبداع والأدب، لا نبقي متأكدين من أي شيء. لا توجد أي برامج ترجمة آلية قادرة على ترجمة رواية يابانية مثلا إلى الفرنسية مثلا والتكيف مع الاختلافات.

وهنا أ طرح السؤال التالي : هل من المهم حقا وضع الحواشي ؟ فحتى لو بذل المترجم جهدا كبيرا كي يضع الحواشي، فلن يكون القارئ الفرنسي قادرا على خوض التجربة العاطفية والإنسانية والثقافية التي تعبر عنها تلك الرواية اليابانية بشكل كامل. لكن، هل هذا أمر خطير ؟ المهم حقا هو أن تدخل عالم آخر غير عالمك وأن تختبر شاعرية مختلفة وتغير الأجواء وتدهش. هل يعد أمرا مقلقا أن كل النصوص العادية سنترجم مستقبلا ترجمة آلية، لأننا لن نصل أبدا إلى ترجمة النصوص الإبداعية الحقيقة ترجمة آلية ؟ ما رأيك أستاذة زكية ؟

زكية سيناصر

سأجيب على نقطتين مختلفتين. أولاً، برامج الترجمة الآلية تقتصر على لغة التواصل العادية. فهذه البرامج اليوم عندها فعالية كبيرة جداً ترتفع نسبتها يوماً بعد يوم بفضل أعمال التطوير المستمرة التي يقوم بها مهندسو الذكاء الاصطناعي في المراكز البحثية التي تؤكد لنا اليوم أن برامجها باتت قادرة على ترجمة المشترك اللفظي الواحد في عشرة سياقات مختلفة في نفس اللحظة واختيار المقابل الأنسب للسياق المعني. وقيل وقت طويل من الآن، كنا نقول إن برامج الترجمة الآلية لن تتمكن أبداً من التعامل مع المشترك اللفظي. لكن التكنولوجيا كذبت تكهناتنا، وأهلها يقولون إننا بعد عقد من الآن سنكون قادرين على ترجمة رواية مثل «البحث عن الزمن المفقود» ترجمة آلية رائعة إلى كل اللغات ؛ ربما هم يبالغون.

حالياً، يبذل مجهود كبير من أجل تجاوز كل مشاكل الاشتراك اللفظي بالاعتماد على السياق. على سبيل المثال، تحدثت عن الترجمة في منظمة الأمم المتحدة : حيث تتوفر هيئة الترجمة في هذه المنظمة على برنامج ترجمة آلية خاص تطعمه بكل الوثائق الصادرة عن المنظمة منذ سنة 1945، والنتيجة هي أن كل الترجمات السياقية التي ينتجها هذا البرنامج ترجمات دقيقة بنسبة خمسة وتسعين في المائة، ما يجعل عمل المصحح محدوداً جداً. وعليه، ففكرة أن النصوص الأدبية لا يمكن ترجمتها آلياً ليست صحيحة على وجه الإطلاق، وإنما تبقى فكرة نسبية، خاصة أن الخبراء يشغلون على هذا الموضوع منذ مدة. وكما سبقت الإشارة، لا فائدة من التحسر على عجز الترجمة عن نقل كل الحمولة الثقافية والعاطفية للنصوص. أولاً، لا أحد يحيط بالنص الذي يقرأه إحاطة تامة.

ثانياً، انتمأؤنا إلى ثقافة ولغة النص لا يعني بالضرورة أننا سنحيط بما فيه بسلاسة وأننا سنتفاعل ونتأثر بكل ما فيه. وهذا تماماً ما تقصده باربارا بعبارة «غير قابل للترجمة»، حيث يبذل المترجم جهداً كبيراً ويستمر في إعادة ترجمة نص يعرف أن من غير الممكن ترجمة كل حمولاته ؛ وهذا مجهود فكري واعي وحساس، وجهد سياسي في آخر المطاف لأنه يصب في صالح فكرة العيش المشترك. بمعنى أننا دائماً نحاول فهم أشياء جديدة، لأننا هكذا سنتقدم : الترجمة أفضل مثال على حالة البحث ومحاولة الفهم بشكل مستمر. وإذا أردنا أن نحفظ للترجمة قوتها السياسية، فعلينا الدخول في مواجهة إيجابية مع فضاءات القلق والصراع التي نجد أنفسنا فيها خلال الممارسة الترجمية، لأنه فعلاً هناك أشياء تضيق من النص الأصلي وهناك حالة من التملك تهم علاقة المترجم بالنص. والترجمة بطبيعة الحال لا تكون دائماً عملية سخية وتعددية... وقد حفظ لنا التاريخ العديد من الأمثلة في هذا الباب. وبالفعل، توجد في الترجمة أيضاً تراتبية وطرق مختلفة. وإذا أردنا أن نحفظ لها قوتها السياسية، فيجب علينا أيضاً تقبل النواقص وحالة عدم المساواة وضعف التكافؤ التي قد نجدها في الترجمة. أما بخصوص سؤالك الأخير، فلا أخفيك أنني أظل قلقة بخصوص هذا الفضاء الترجمي التصادمي ودائماً أتمنى أن يكون فضاءاً للإحساس المرفه والإبداع والذكاء. فقط كمثال بسيط : شاركت السنة الماضية في مؤتمر حول علم الترجمة، فوجدتني أنا وكل المترجمين الأدبيين معزولين في قاعة صغيرة، وحيث شكلنا واحداً في المائة تقريباً من مجموع المشاركين، أي كأننا لم نشارك أصلاً.

رشدي راشد

هل يمكنك تدريس الرياضيات بالدارجة المغربية ؟ ما هي اللغة الكونية ؟ متى ومن يتكلم هذه اللغة وكم من الوقت يفعل ذلك ؟ في الحقيقة، لطالما وجدت حالة الهوس باللغة الكونية، خاصة في القرن الثامن عشر. هل كونية اللغة الكونية حقيقية، أم أنها مجرد آلية ومظهر من مظاهر الأدلجة خلال لحظة تاريخية معينة ؟ وبالنسبة، اللغة الكونية تسمى أيضاً اللغة الآدمية. أما بخصوص الترجمة الآلية، فأرى أننا مازلنا في البدايات. وكما تمت الإشارة إلى ذلك، هناك عمل تطويري كبير في هذا الباب يلعب فيه خبراء الرياضيات دوراً محورياً.

مداخلة

ما يبدو لي مثيرا للاهتمام حقا هو السؤال التالي : أي علاقة بين الرياضيات والترجمة الآلية ؟ يجب أن نفهم أن برامج الترجمة الآلية، تماما كمحرك البحث غوغل الذي يستمد قوته من كونه يجمع كل شيء ننصوره ولا ننصوره عن العوالم التي نعرف والتي لا نعرف، لا تتطور إلا من خلال تجميع كل ما كتبه البشرية يوما في جميع اللغات. أي أن تجميع كل هذه النصوص هو الذي يمكننا من فرز العبارات والجمل والفقرات رياضيا وبالمعية ودقة تراعي السياق وهذا ما يمنح برامج الترجمة الآلية القدرة على التأرجح بين ثقافتين ولغتين والتكيف من الصعوبات. وهنا لابد أن أوضح للجميع أن تغييرا مهما حدث في نموذج الترجمة الآلية : بدل نموذج يركز على الترجمة إلى اللغة المحورية فقط، انتقلنا إلى نموذج الترجمة إلى لغة محورية ثم الترجمة من هذه اللغة المحورية إلى لغات أخرى ؛ فننتقل مثلا من الصينية إلى الإنجليزية ثم من الإنجليزية إلى الفرنسية أو الألمانية... واللغة الإنجليزية هي اللغة المحورية حاليا، الإنجليزية الخاضعة للمعالجة الرياضية. إذا، فتجميع كل النصوص المكتوبة في العالم وبكل اللغات في برامج الترجمة الآلية سيمكننا من ترجمات آلية رفيعة المستوى. وهكذا تجري الأمور. نحقق هذا التطور من خلال الكونية، الكونية التي تشمل كل شيء دون أي استثناء. ومن المثير للاهتمام حقا تعريف الكونية بهذا الشكل المتحرر من سطوة الرياضيات. ولقد مررت بتجارب كثيرة خلال الممارسة الترجمة تشبه ما تحدثت عنه الأستاذات ؛ توجد ترجمات رائعة لأشعار بودلير. لكن حتى إذا وضعت بعض نصوص هذا الشاعر على منصة «غوغل ترجمة» فستحصل على ترجمات رائعة حقا تروق لك قراءتها. وقد قرأ لنا دانيال ميسجياسح هذا الشعر، فوجدناه رائعا. وأنا هنا أؤكد مرة أخرى على أن التعليم واحد من الدعامات الأساسية في هذه الحكاية كلها. الشيء الذي لا يتغير في رأيي هو أننا نواجه لغتين : نص في لغة ما نريد نقله إلى لغة أخرى وثقافة أخرى ونظام لغوي آخر ورؤيا كونية أخرى. هذا الترابط بين اللغتين هو في رأيي ما يمنح الترجمة معناها السياسي والبيداغوجي الاستثنائي.

مداخلة

تدريس الرياضيات بالدارجة المغربية ؟ شخصا، أرفض هذه الفكرة، لأننا عندما قمنا بتعريب الرياضيات، أصبحت معجمية علوم الحياة والأرض والرياضيات والفيزياء والكيمياء باللغة العربية الفصحى، فأصدرت الوزارة توجيهاتها بضرورة استعمال اللغة العربية الفصحى في شرح الدروس وطرح الإشكاليات ومناقشتها، لكن الأساتذة لم يلتزموا بهذه التوجيهات : لقد كانوا يوظفون الدارجة. وأنتم بلا شك تابعتم ما وقع في التعليم خلال الأشهر الأخيرة بعدما قرر المسؤولون العودة إلى التدريس بالفرنسية. كانت المصطلحات التقنية باللغة العربية الفصحى، لكن الشرح والإشكاليات والمناقشة كانت تتم بالدارجة. وقد كان هذا هو الحل الوحيد أمام الأساتذة، لأن التلاميذ لم يكونوا مؤهلين للتواصل باللغة العربية الفصحى بالفعالية المطلوبة.

زكية سيناصر

فيما يخص لغة التواصل، نحن سعيينا في ترجمة التراث الشفهي المغربي إلى تجاوز مستوى التواصل العادي، والهدف هو تمكين القارئ الفرنسي من اختبار نفس المتعة التي يختبرها القارئ المغربي... وهذا ما قصدته في مداخلتني الأولى. وقد كانت الأستاذة كاسان محقة تماما عندما قالت أننا «نستمر في الترجمة». صدقوني إذا قلت لكم أن بعض الجمل والعبارات تطلبت منا، أنا ومشلين، أيام من العمل المتواصل. لقد كنا نترجم ونترجم، فلا تقنعنا هذه الترجمة، فينتهي اليوم دون أن نرضى عن أي ترجمة أخرى. لكننا نعود في اليوم الموالي عازمتين على تحقيق نتاج أفضل. ويكفي في بيان حجم معاناتنا أن أحدثكم عن كلمة «مليد» التي قد نستعملها لوصف امرأة فنقول «كتلبد»، أي تسير بجانب الجدار متسحبة.

الكلمة فيها دلالة مميزة أكثر مما ذكرت ؛ لكننا لم نجد في اللغة الفرنسية عبارة مقابلة قادرة على نقل كل المعاني. صدقوني إذا قلت لكم أننا نحلم بما نترجم... في إحدى الليالي استيقظت عند الثالثة صباحا وكتبت الترجمة التالية : «...et, à pas feutrés, elle se faufila jusqu'à la sortie...». كما أسلفت، كانت النصوص التي اشتغلنا عليها غنية بالصورة. ويمكن أن أقدم أمثلة سيتين لكم باللموس مدى صعوبة ترجمتها إلى اللغة الفرنسية. نحن لم نستسلم لفكرة أن تلك النصوص غير قابلة للترجمة ؛ وعلى هذا الأساس واصلنا البحث والتوثيق والترجمة وإعادة الترجمة. لكننا في لحظة معينة، عرفنا أن علينا التوقف والاكتفاء بالترجمة التي بين أيدينا حتى وإن لم تكن بالمستوى المثالي الذي نريده.

مداخلة

سؤالي يتعلق بحالة خاصة تهمني شخصا : كتب دانتى «الكوميديا الإلهية» بلغة إيطالية غير مقعدة هي الفلورنسية وأدار ظهره للغة الكونية آنذاك، أي اللغة اللاتينية التي كانت لغة التواصل في أوروبا ذلك العصر، تماما كما هي الإنجليزية اليوم. لم تكن إيطاليا الحديثة كما نعرفها اليوم سياسيا ولغويا قد خرجت بعد إلى الوجود. رغم أن دانتى وظف الفلورنسية، التي ستكون أساس اللغة الإيطالية الحديثة فيما بعد، فهو لم يتخل عن اللاتينية كليا، إذا يجد قارئ «الكوميديا الإلهية» عبارات لاتينية، بل وعبرية وبروفينسالية أيضا (مقاطع كاملة باللغة البروفينسالية). وبالتالي، يمكننا القول أن دانتى هو نفسه ساهم في غموض الفلورنسية التي استعملها في نص أراده أن يكون واضحا.

غريب هذا الوضع حقا : يتخلى الكاتب عن لغة التواصل المستعملة في الكتابات في لحظته التاريخية، ويختار لغة غير مقعدة وضيقة الانتشار. ربما هذا هو أصل مشكل النصوص غير القابلة للترجمة : أي تبدأ هذه الصعوبات من اللحظة التي يقرر فيها كاتب معين تأليف نصه بلغة غير لغته الأم. وهي لا تقتصر على إتقان اللغة المصدر واللغة الهدف، بل تتعداه إلى ضبط لغة الكاتب الخاصة التي فيها تعديلات تجعلها مختلفة عن اللغة التي يكتب بها ولو بنسبة بسيطة. والصعوبة الكبرى في الترجمة الأدبية هي مستويات اللغة ؛ فكما تعلمون جميعا، داخل كل لغة هناك مستويات لغوية مختلفة ؛ وهذا معناه أن المقبول أدبيا في لغة معينة لا يكون مقبول بالضرورة في لغة أخرى ؛ وما يكون عاميا في اللغة المصدر، لا يكون بالضرورة عاميا في اللغة الهدف.

أردت الإشارة إلى هذه النقطة، لأن دانتى باستعماله الفلورنسية يبدو كأنه تخلى عن الوضوح في نصه، وربما اختياره مبني على عدم الإيمان بالعقلانية الشاملة : لم يكن يؤمن أن العلاقة مع الإله والعلاقة مع العالم، وهي المواضيع التي تناقشها «الكوميديا الإلهية»، يمكن ترجمتها كليا، أي فهمها كليا. ولعل كل ما في الأمر هو أنه باستعماله الفلورنسية، يكون دانتى قد نبه القارئ إلى ضرورة عدم الفهم من خلال كلمات اللغة فقط. وبلا شك، اختيار التخلي عن لغة التواصل والكتابة وتعويضها بلغة أخرى غير مقعدة ولا يفهمها الجميع يبقى حالة استثنائية في التاريخ. كما تعلمون اختيار دانتى وضعه في مواجهة مباشرة مع الكنيسة، لأنه تكلم في أمور عقائدية ؛ ولاهوتية بلغة لا يجوز، في رأي الكنيسة، توظيفها في هذا الباب ؛ أي كان لابد من الخوض في هذه المسائل باللغة اللاتينية فقط. لكن دانتى غامر باستعمال لغة قد تعتبر نوعا من التجديف والإزدراء.

مداخلة

أنتفق تماما مع ما قلته عن دانتى الذي كتب فعلا بعامية جديدة أسسها هو بنفسه. وقد تساءلت مع نفسي مرة ألسنا حين نبتكر أي شيء نبتكره داخل اللغة، حتى أننا نبتكر ونخلق اللغة داخل اللغة كما قال دريدا. وهذا ما فعله لوثر عندما ترجم الإنجيل للمرة الأولى إلى اللغة الألمانية. لقد ترجمه لربات البيوت وللأطفال قبل أي أحد آخر.

هذا الاختيار قاده إلى الابتكار وإعادة تشكيل اللغة الألمانية حتى أن نبتشه قال : «أجمل كتاب في اللغة الألمانية هو إنجيل لوثر». وكل لحظة تاريخية نكون فيها بصدد ابتكار وإعادة تشكيل الأشياء، بما في ذلك الفلسفة، هي في الحقيقة فرصة - وأعتقد أننا هنا تماما نستطيع تكبير الصور وتعميم الإشكالات - لإنتاج كلمات جديدة ونظم لغوية جديدة. يقول دريدا في هذا الشأن : «لا أتكلم سوى لغة واحد وهي ليست لغتي». وفي كل مرة نبكر فيها شيئا ما في اللغة أو العقلانية أو النظام اللغوي، فنحن نتحدى الترجمة بما ابتكرناه، وهكذا نتطور.

عندي صديق مترجم من الطراز الرفيع، وهو دائما يقول إن المشرفين على المعاجم يدرجون الكثير من الأمثلة من النصوص الأدبية، لكنهم أبدا لا يدرجون أمثلة للمعاني أو أمثلة من نصوص مترجمة، علما أننا غالبا جدا نتحدث عن ترجمات هي نتاج جهد جبار واحتكاك ومعرفة عميقة باللغة التي يعنى بها هذا المعجم أو ذلك، والتي لا تقتأ تعيد خلق نفسها. أستاذة باربارا، من واجبك كعضوة في الأكاديمية الفرنسية الآن طرح هذا الإشكال وإيصاله إلى من يهمهم الأمر، لأن التدارك في هذه المسألة مهم جدا.

مداخلة

بشكل عام، اللغة العامية لغة جامدة نوعا ما. سبق لي أن خضت تجربة في الصناعة المعجمية : حاول فريق العمل الذي كنت عضوا فيه العثور على أمثلة وابتكار كي نشرح معاني الكلمة في أحد مشاريعنا المعجمية ؛ وقد كنا مجبرين على ابتكار وتشكيل عدة أمثلة. بعض المعاجم لا تستعمل أي اقتباسات، بل تستعمل أمثلة مبتكرة كليا بهدف تبين بعض الصعوبات اللغوية الدقيقة. في الحقيقة، نحن كمعجميين نعاني، لأننا أحيانا كثيرة نقاسي قبل العثور على مثال يعبر عن معنى من المعاني الدقيقة التي يحملها هذا الفعل أو تلك الكلمة. وكى ينجح الكاتب في تجاوز جمود اللغة العامية، عليه أن يكون مبتكرا من الطراز الرفيع له القدرة على جر اللغة إلى الأمام. اشتغل اللساني الفرنسي موريس جروس على التراكيب الجامدة والأمثال، وكما قالت أستاذة، توصل الرجل إلى أن الأمثال والتراكيب الجامدة توجد في عدد كبير من اللغات وأننا نتواصل، عندما نتكلم وعندما نستمع للآخرين، بعبارات غالبا لا نبتكرها في تلك اللحظة التواصلية وهي تأتي في تراكيب جامدة سابقة الوجود. وعليه، فالمعنى الحقيقي للابتكار هو الأدب والشعر، وربما العلوم أيضا. لكن اللغة العامية لا تميل للابتكار بقدر ما تميل إلى التكرار والتراكيب الجامدة. وهذه سمة مشتركة بين كل اللغات العامية : بعض الأمثال والتراكيب الجامدة نجدها في العربية والصينية وكل اللغات تقريبا.

مداخلة

أريد أن أرجع إلى مسألة الابتكار التي ناقشتها الأستاذة زكية عبر السؤال التالي : هل يمكننا تدريس الرياضيات باللغة الدارجة ؟ الأكيد هو أن هذه اللغة تفتقر للمصطلحات الضرورية. لكن يمكننا تأسيس البنية المصطلحية اللازمة كما فعلنا مع اللغة العربية الفصحى من قبل. في نفس الوقت، عندما نسمع الأستاذة زكية سيناصر تتحدث عن صعوبة الترجمة في حد ذاتها، نتأكد من مستوى التعقيد العالي الذي تمتاز به الدارجة، التي ليست مجرد تشكيلة لغوية ثانوية بأي حال من الأحوال. شخصيا، كتبت بالدارجة بعد أن ألفت عدة كتب بالفرنسية ؛ لم أحاول إعادة إنتاج أمثال أو حكايات أو أساطير، بل حاولت خلق نصوص جديد في هذه اللغة بأسلوب أدبي.

رئيس الجلسة : بوعزة بنعاشر
المشاركون : فكري بنعبد الله، فتح الله ولعلو
فضاء : ليلي العلوي
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 17 : 00 - 18 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

أشرف على تسيير هذه المائدة المستديرة الكاتب والباحث المغربي بوعزة بنعاشر، وشارك فيها رئيس جمعية ذاكرة الرباط-سلا المهندس فكري بنعبد الله ؛ الذي بين موقفه من هذه الفكرة من خلال التجمع الحضري الرباط-سلا. وهو يرى أن العناصر الواجب مراعاتها وتشمينها عند تشكيل مجال معين هي الساكنة وكذا دعم ديناميكية المجتمع المدني والتراث المادي واللامادي. هذا التراث ملك مشترك توظفه ساكنة المجال المعني توافيقا في تحقيق تنمية مستدامة ومتوازنة. وهذا يعني أننا بصدد حالة من التكافل والتوافق المبني على أساس الانتماء إلى فضاء جغرافي واحد يصبح بدوره مرجعا هوياتيا مشتركا. كما حدثنا عن سياق تأسيس جمعية ذاكرة الرباط-سلا اقتداء بتجربة جمعية ذاكرة الدار البيضاء، وقربنا من أسلوب عملها : ولقد قسمت الجمعية التجمع الحضري الرباط-سلا إلى مجالات صغيرة كل واحد منها له ديناميكيته وإشكالياته وهوياته الخاصة، والتي تتطلب معالجة خاصة.

أكد بنعبد الله أن جمعيات مماثلة سترى النور مستقبلا بمدن مغربية عديدة كوجدة، مشددا في الوقت نفسه على ضرورة أن تؤسس وجدة، ذات التراث الكبير والمميز والقدرات البشرية الهائلة، «جمعية ذاكرة وجدة». حسب بنعبد الله، المسألة التي يجب الحسم فيها قبل تأسيس هذه الجمعية هي امتداد المجال الذي ستغطيه : ما حدود هذا المجال ؟ وأوضح الأستاذ فكري أن الاشتغال على تراث مجال الرباط-سلا والترويج له دفع المسؤولين إلى مراعاته في البرامج التنموية القائمة (تهيئة ضفتي أبي رقراق) والقادمة (تهيئة هضبة عكراش) والبرامج الهيكلية كبرنامج «الرباط مدينة الأنوار».



فتح الله ولعلو، وزير المالية الأسبق والخبير الاقتصادي حدثنا عن صعود وانبثاق المجالات ؛ وهذا موضوع له أهمية كبرى في كتاباته. ولقد أصدر عددا من الكتب في هذا الباب آخرها «نحن والصين» الذي نال عنه جائزة معرض بكين للكتاب. ويناقد ولعلو في هذا الكتاب تاريخ فكرة صعود وانبثاق المجالات ويذكرنا بثنائيات عديدة، حيث قسم المجال على أساسها انطلاقا من مراحل تاريخية مختلفة كثنائية المجال النافع والمجال غير النافع. كما يرى أن مصطلح الدول الصاعدة ظهر مع نهاية الحرب الباردة وتشكل «البريكس» التي دعت العالم، انطلاقا من مكانتها الكبيرة في الاقتصاد العالمي، إلى وضع خطة إنقاذ تواجه تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 2008. وقال ولعلو إن العالم استجاب لهذه الدعوة من خلال تأسيس مجموعة العشرين التي باتت مسؤولة عن اتخاذ قرارات اقتصادية عالمية. يرى أيضا أن مفهوم الصعود الاقتصادي مفهوم مستقبلي يعبر عن حالة التطور الاقتصادي الكبير الذي تشهده دولة معينة، خاصة تلك التي تنجح في تحقيق الثورات الثلاث : الرقمية والديموغرافية والتعددية القطبية. ويرى كذلك أن إفريقيا ستكون لها مكانة مهمة، لأن أوروبا ستحتاجها في تصحيح اختلالاتها الديموغرافية ولأن ساكنتها ستشكل ربع الساكنة العالمية المتوقع تضاعفها خلال المائة سنة القادمة، ويرى أيضا أن المغرب الكبير ستكون له حظوظه في هذا المضمار، رغم أن الهرم السكاني سيسجل ارتفاعا في نسبة الشيخوخة مستقبلا. قال ولعلو إن دخول المغرب نادي الدول الصاعدة فعليا مشروط بانخراطه في مجال واسع.

مداخلات المائدة المستديرة

فكري بنعبد الله

يساهم المجال المشترك في تقوية النسيج الاجتماعي، لما يشهده من تفاعل اجتماعي وحركة بشرية. فلا يمكننا الفصل بين مجال معين وساكنته، التي يعرف بها وتعرف به. فغالبا ما يحدث تداخل وتراكم بين مختلف مكونات المجال، فتتولد كلها في صورة واحدة تعبر عنها كجسد واحد بعد أن كانت عناصر متفرقة. لكن ما السبيل إلى تحقيق هذا التفاعل الخلاق؟ الوسيلة هي حركية وتفاعل وتلاقح البشر والعلوم والثقافات داخل المجال المعني الذي قد يكون مدينة أو قرية أو جهة أو بلدا أو قارة... عندنا في مغرب اليوم وعي واهتمام كبيرين بقيم المجال والتراث المادي واللامادي والإنساني... ويرجع الفضل في هذا الوعي والاهتمام للمجتمع المدني أساسا. كلما شاهدت نشرات الأخبار المسائية على قنوات الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة، أقف على نموذج أو نماذج من الجمعويين المبدعين الفخريين بانتمائهم والذين يبذلون مجهودات جبارة عبر مختلف جهات ومدن المملكة، ويفكرون دائما في سبل إبراز وتطوير إمكاناتنا المادية واللامادية المحلية والجهوية والوطنية لتحقيق مزيدا من النماء الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وهم يشتغلون في مجالات رائعة ومميزة كتربية النحل والرياضة وإدماج ذوي الاحتياجات الخاصة. في الحقيقة، أنجز هؤلاء المبدعون أشياء غاية في الروعة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار تردي الحياة السياسية عندنا، فالجتماع المدني مثلا في العمل الجاد والتشبث بالأمل في مستقبل أفضل. وحسب معجم اللغة الفرنسية «لاروس»، التراث هو ملك مشترك بين الجماعات البشرية في مجال معين وهو موروث عن الأجداد. سأضيف إلى هذا التعريف تفصيلا صغيرة مفادها أن هذا المجال بنفسه يستحيل مع مرور الوقت إلى رمز هوياتي مشترك بين جماعاته البشرية، لأنه يصبح عنصرا مؤثرا في صيرورة تشكل هذا التراث المشترك وتظهراته المختلفة. لكن ما هو التراث حقيقة؟ يتشكل التراث من راغدين اثنين: تراث مادي وتراث لامادي. عكس التراث اللامادي، يسهل علينا تقاسم التراث المادي لتجليه في أجسام محسوسة: قصر أو حصن أو بنايات عظيمة تدل على مجتمع معين وحضارته. قسمت اليونيسكو التراث اللامادي إلى خمسة مكونات: الثقافات والفنون والحرف والشفهية... ويمكن أن نقول أن المغرب يسجل حضورا قويا على مستوى التراث اللامادي بفضل المجهودات الكبيرة التي يبذلها مجموعة من المفكرين المغاربة كالأستاذ أحمد سكوتني، خبير اليونيسكو والباحث بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث. ويحدد التراث المادي واللامادي في ارتباط بحالة من التكافل والتفاعل بين الساكنة من منطلق الانتماء إلى جغرافيا ومجال مشترك. أقف عند تجربتي الجمعوية والمهنية في مجال الرباط-سلا. تعرفون حالة التنافس التي طبعت علاقة الرباط وسلا، والتي أصبحت مضحكة بعض الشيء. والمثير هو أن بعض المثقفين يعبرون إلى اليوم عن هذا التوتر والمنافسة بأشكال مختلفة ويحقد أحيانا. فعندما ننظر إلى المدينتين، ندرك أن سلا لم تحظ بنفس الاهتمام التي حظيت به الرباط، علما أن عدد ساكنة سلا ضعف عدد ساكنة الرباط. هذا الوضع المختل كون عندنا قناعة بضرورة التفكير في مجال الرباط-سلا وما يزرخ به من إمكانيات وفق مقاربة وتصور مختلف عما جربته جمعيات عديدة (جمعيات أبي رقراق ورياط الفتح وسلا المستقبل...)، أي التفكير وفق مقاربة شمولية تعتبر الرباط وسلا مجالا مشتركا واحدا بتاريخ مشترك ونهر مشترك يوحد ولا يفرق ويصل ولا يفصل. وقد جسدنا هذه الرؤيا على أرض الواقع سنة 2014 بتأسيس «جمعية ذاكرة الرباط-سلا» اقتداء بتجربة «جمعية ذاكرة الدار البيضاء». وأنا سعيد بالمشاركة في هذه التجربة الجمعوية الطموحة.

بوعزة بنعاش

أنت هو رئيس الجمعية؟

فكري بنعبد الله

نعم، هذا صحيح ؛ لقد خلصنا، بناء على جملة من المعطيات، إلى أن المجال الجغرافي الذي تغطيه الجمعية مميز وأن بإمكانها القيام بعدة أنشطة، خاصة أنها تنشئ المصالحة مع التاريخ وتتعامل مع إشكالات هذا المجال وفق مقاربة ذكية ومتوازنة. وأنا أقول هذا الكلام بناء على تجربتنا الميدانية وعلاقات التعاون والتقدير والاحترام التي تربطنا بكل جمعيات المجتمع المدني الناشطة على العدوتين. إذا، تأسست الجمعية وبدأنا التفاعل عن قرب مع القيم المشتركة بين كل مكونات مجال الرباط-سلا. كانت بدايتنا من سلا بإطلاق تظاهرة أيام التراث، التي يمكننا اعتبارها اليوم بمثابة ثاني أكبر حدث ثقافي داخل مجال الرباط-سلا. وتشهد هذه الأيام التراثية، التي ننظمها في أبريل من كل سنة، حضور آلاف الزوار (مواطنين وشباب ودبلوماسيين وسياح...) الذين يستفيدون من جولات تعريفية حول تراث المجال المادي واللامادي ويتابعون عروض فنية مختلفة (المسرح والموسيقى...).

لقد تبين لنا في الجمعية أننا بصدد مجال فيه مدينتين كبيرتين وبنائات أثرية رائعة وتعليم عالي ومنظمات دولية وتمثيلية ثقافية أجنبية ومؤسسات حكومية متركزة بالرباط وموروث عماري أندلسي أساسا، إمكانات طبيعية هائلة : النهر والهضاب والبحر والغاية التي توحد مكونات المجال. ربما من السهل الفصل بين الناس، لكن من الصعب جدا فعل نفس الشيء مع الطبيعة. وإذا استطعنا منع شخص من عبور النهر، فلن نستطيع سد أفق الرؤية أمامه، ولن نستطيع إلغاء هذه الوحدة الجغرافية والمجالية بين الرباط وسلا. على هذا الأساس، اقتنعنا من داخل جمعيتنا بضرورة توظيف قنوات التواصل الأساسية كالإذاعات والقنوات التلفزيونية والفرق المسرحية والموسيقية الكثيرة التي تنشط على العدوتين في مشاريعنا ومبادراتنا. وبناء على ما عايشته، يمكنني القول إن مجال الرباط-سلا خير مثال على نهوض المجال وإحياء التراث، أكان ماديا أم ثقافيا أم تاريخيا... وخير مثال على نضالات الجمعيات الهادفة إلى ترسيخ هوية مجالات اشتغالها على إبراز إمكاناتها واستثمارها في التنمية. وهذا هو النهج الذي اتبعناه في مقاربة إمكانات مجال الرباط-سلا وتأكيده وحدته رغم كل شيء. والسؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن أحدكم الآن هو : كيف جسدت هذا النهج على أرض الواقع ؟ لقد فكرنا في خلق فضاءات مفتوحة بتجهيزات ممتازة تمنح الشباب فرصة الإبداع وتفجير طاقاتهم. أول ما قمنا به هو تقطيع المجال إلى مجالات صغيرة ؛ وقد ساعدنا هذا التقسيم على تحقيق نتائج سحرية ؛ وأنا هنا لا أبالغ أبدا وأعني ما أقول. هذا التقطيع أعطانا عدة مجالات صغرى كالقصب والوداية وشالة وسلا المدينة والرباط... لما بدأنا الاشتغال مع شباب هذه المجالات الصغرى، وجدنا تفاعلا عفويا كبيرا... أبدع الشباب في تحديد ما يريدون الاشتغال عليه وإنتاج أشياء غاية في الروعة شملت مجالات عدة كالمرح والموسيقى... تجربة ذاكرة الرباط-سلا تدفعني للقول على أن الارتباط بمجال معين وثقافته وحركية ساكنته دائما ما يقودنا إلى الإبداع والتعاون. ماذا تفعل جمعيتنا اليوم ؟ تبحث الجمعية عن التمويل وتحرص على الجانب الأمني لأنشطتها وتوفر اللوجستيك والتمويل وتحافظ على علاقة جيدة مع السلطات التي تحترم وتقدر مجهوداتها. كما أشرت من قبل، جمعية ذاكرة الرباط-سلا هي فكرة مقتبسة من فكرة جمعية ذاكرة الدار البيضاء.

اليوم هناك جمعيات جديدة تسير على نفس النهج كجمعية ذاكرة أسفي الناشطة وجمعية ذاكرة الجديدة المتوقع تأسيسها في الثالث من شهر نونبر القادم. وتفكر مدن أخرى في تأسيس جمعيات مهمتها إبراز تراثها والمحافظة عليه والترويج له كرافعة تنموية أساسية. وهنا يأتي السؤال : أين وجدة من كل هذه الحركية ؟ في الحقيقة، هدفي من هذه المداخلة هو طرح هذا السؤال ؛ فهذه فرصة لأجدد مطالبتي لأهل وجدة بحماية تراث المدينة والجهة واستثماره في النهوض بهذا المجال. فمن غير المفيد أن يبقى المرء مقتصرًا على التاريخ ومقاومة المحتل والمساهمات القيمة للنخب الوطنية الوجدية في الحياة السياسية والعلمية من أمثال عزيز بلال. اليوم للأسف، نعاني خمولا مهنيا يبعثنا عن الفكر والكتاب وكل ما يتعلق بسياسة المدينة، فالمغرب في أمس الحاجة إلى سياسة مدينة أصيلة وممتازة تراعي الشروط المحلية.



شخصيا، تعلمت على يد مجموعة أساتذة منحدرين من وجدة والرباط، كما تعرفت هنا على نوع مميز من أبناء وجدة : الفرنسيون الذين ولدوا وعاشوا بوجدة واحتفظوا بذكريات وعلاقات عاطفية مميزة معها. أنا أؤمن أن المجال الوجدي يتمتع بقوة أسرة غير طبيعية تشد إليه العامة، خاصة الشباب والمفكرون والأحرار. وبلا شك هناك الكثير من الوجديين الذين يؤمنون بضرورة عودة مدينة وجدة والولاية والجهة ككل إلى ماضيها. كلكم تعرفون المآسي التي رافقت عمليات هدم مجموعة من البنايات بمدينة السعيدية. ربما تأتي مداخلتي في وقت متأخر مقارنة بهذه الأحداث ؛ لكن أؤكد لكم أنني اشتغلت كثيرا على مدينتي وجدة والسعيدية... وبدلت كل ما في وسعي كمهندس لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث.

مثلا، ثانوية باستور الشهيرة التي بنيت مكانها ساحة عمومية كان من الأفضل المحافظة عليها كجزء من الذاكرة الجماعية حتى تتمتع بها الأجيال القادمة. كان ممكنا إزالة الملحقات التي أضيفت إلى المدرسة عبر مراحل تاريخية مختلفة لإنشاء حديقة تصبح بدورها جزءا من المعلمة الثقافية دون إلغاء المدرس. لكن المدينة استبدلت جزء من ذاكرتها ببنايات اسمنتية. اليوم مازالت عندنا إمكانية تجنب هذا الخطأ في مواقع أخرى كمجموعة من المنازل الصغيرة والمحطة الحرارية... أنا أعرف أن صديقنا الأستاذ محمد امباركي أطلق مبادرة رائعة هدفها إعادة تأهيل المحطة كما يحدث في الدول التي تحترم نفسها وتحترم تراثها. في نظري، من الممكن أن تكون المحطة الحرارية القلب النابض للجسم الثقافي بوجدة. لكننا اليوم للأسف لا نستطيع حتى المرور بمحاذاة محطة القطار القديمة لوحشة المكان. كما توجد بنايات أخرى كانت تستغلها الحركات النقابية يمكن تأهيلها أيضا. لكنني بصراحة لا أعرف هل هذه البنايات الرائعة، التي بناها المكتب الوطني للسكك الحديدية، مازالت موجودة أم لا. أحد أسباب قدومي إلى وجدة اليوم رغبتني القوية في تقاسم تجربة جمعية ذاكرة الرباط-سلا مع الأستاذ محمد الزاوي وكل أصحاب النوايا الحسنة المستعدين للتعاون تحت إشراف الأستاذ محمد امباركي من أجل تأسيس جمعية مستقلة وحررة تماما في أقرب الأجل. وأنا أتنبأ لهذه الجمعية بمستقبل واعد جدا لأنها تركز على الشأن المحلي : وجدة وعدد من المعالم الأثرية الموجودة ضمن مجالها. في رأيي، المشكلة الأساسية الواجب التعامل معها هي ضبط مجال تدخل الجمعية : هل تكتفي الجمعية بوجدة أم تضيف إليها مناطق أخرى ذات مؤهلات تاريخية وطبيعية مثل زكزل وفجيج ؟ شخصيا، أتمنى أن لا تقتصر أنشطة الجمعية على مدينة وجدة. وبطبيعة الحال، تأسيس هذه الجمعية ذات الاهتمام الموسع لا يعني بأي حال من الأحوال تراجع نسبة الاهتمام بالمدينة. عندما نتحدث عن وجدة، فنحن نتحدث عن مجموع جهة الشرق وكل ما تتركز به من إمكانات ثقافية وبشرية.

بوعزة بنعاش

شكرا جزيلآ أستاذ فكري بنعبد الله على هذه المداخلة الغنية. تحدث عن العلاقة بين المجال والتراث والانتقال من الحق في المدينة إلى الحق في المجال داخل جهة الشرق. الكلمة الآن للأستاذ فتح الله ولعلو.

فتح الله ولعلو

أولآ، أنا جد سعيد بمشاركة الأستاذين بوعزة وفكري هذه الجلسة الفكرية المنعقدة ضمن فعاليات الدورة الثانية من المعرض المغاربي للكتاب بوجدة، الذي يسير بثبات نحو ترسيخ نفسه كموعد ثقافي قار وبإشعاع محترم. هذا معرض مفيد لوجدة وجهة الشرق والمغرب ككل ؛ وأتمنى أن يكون مفيدا للمغرب الكبير أيضا. سأناقش في مداخلتي قضية نهوض المجالات من خلال المفهوم نفسه وتاريخ تشكله وتطوره في الماضي والمستقبل عالميا. لكنني بلا شك سأعود إلى ما قاله الأستاذ فكري ؛ عندما نتاح لي الفرص في النقاش، سأسمح لنفسي بأن أستفزه قليلا بخصوص الرباط ووجدة. إذا، سننطلق من المجالات نحو المستوى العالمي ثم سنعود إلى المستوى الوطني.

خلال عهد الاستعمار وحتى بعده، كنا نتحدث عن «المغرب النافع» والمغرب «غير النافع». والمقصود بالمغرب النافع بشكل عام هو المحور الممتد من الدار البيضاء حتى القنيطرة وأماكن إنتاج الفوسفات والفحم كجهة الشرق. كنا نعتبر هذه التسميات تعبيرا صريحا عن اختلالات اقتصادية واجتماعية ومجالية عميقة في المغرب. وفي فرنسا، في الخمسينيات، كان الناس يميزون بين باريس و«الصحراء الفرنسية»، بمعنى أن باريس كانت كل شيء وأن باقي فرنسا لم يكن أي شيء. ومن هنا نشأ ما بات يعرف بالجهوية واللامركزية. في الواقع، فكرة الصعود نفسها ترتبط بثنائية المجالات المتقدمة مقابل المجالات المتخلفة. وهذا يعني أن فكرة التأخر مهمة أيضا. لكن في نفس الوقت، تتضمن فكرة الصعود مفهوم الاستدراك ؛ وهذا مفهوم مهم جدا : الجهة المتأخرة تلتحق بالجهة المتقدمة.

بطبيعة الحال، ولدت خلال خمسينيات القرن الماضي فكرة «الثنائية» بين فضاء متقدم وفضاء متخلف. وحتى قبل تلك اللحظة، كنا نتحدث عن المجالات أو البلدان المتحضرة مقابل البلدان «البربرية»، علما أن البلدان المتحضرة حينها هي أوروبا أساسا. فيما بعد، تجاوزنا هذه الثنائية إلى ثنائية البلدان المتقدمة مقابل البلدان النامية، ومنها إلى ثنائية البلدان المتقدمة مقابل بلدان العالم الثالث. ومنذ هذه اللحظة، تشكل عند بلدان العالم الثالث وعي بضرورة التكتل والتعاون تجسد في مؤتمر باندونغ، الذي جمع تسعة وعشرون دولة بدأت تطالب بمكانة وأدوار مهمة في العالم. ولقد طمحت هذه الدول إلى استدراك تأخرها والالتحاق بالدول المتقدمة. وهكذا ولدت حركة عدم الانحياز المكونة من سبعة وسبعين دولة، والتي ترأستها فلسطين قبل أسبوع من الآن في اجتماعات الأمم المتحدة.

إذا أخذنا بعين الاعتبار مسألة الثنائيات المشار إليها، فسنقول بحيادية تامة أنه حتى سنة 1980، لم تكن فكرة نهوض المجالات وصعودها قد فرضت نفسها، رغم أن جذورها التاريخية ترجع إلى القرن التاسع عشر، أو القرن الثامن عشر. لم تفرض الفكرة نفسها قبل 1980 لأن العالم كان منقسما من الناحية السياسية والجيوستراتيجية بين المعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي والمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. لقد كنا نعيش حقبة الحرب الباردة.

حتى على المستوى الاقتصادي، كان العالم منقسما بين الشمال والجنوب، والبلدان المتقدمة مقابل بلدان العالم الثالث. لم تبدأ دول العالم الثالث - إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية - في التكتل وتوحيد الكلمة إلا بعد هذه المرحلة التاريخية من خلال مؤتمر باندونغ ومؤتمر القارات الثلاث بهافانا. مع نهاية السبعينيات وخلال الثمانينيات، شهد العالم تحولين اقتصاديين. التحول الاقتصادي الأول لم يكن إيجابيا، لكنه يبقى تحولا اقتصاديا على كل حال : ارتفاع سعر برميل النفط سنتي 1973 و1979 ؛ نتج عن هاتين الصدمتين البتروليتين أن دول لم تكن غنية أصبحت دول غنية وريعية.

يمكنني أن أقول إن هذا ليس أمرا جيدا، لأن هذه البلدان لم تستغل وضعها الجديد كي تصبح دولا متطورة ؛ ولهذا لا نرى أنها تستحق وصفها بالبلدان النامية. من هذه البلدان العربية السعودية وسائر بلدان الخليج والجزائر وليبيا... كل هذه البلدان اغتنت بالصدفة البحتة.

أما التحول الاقتصادي الثاني الذي وقع سنة 1980 فيتعلق بتزايد قوة الصين وبروزها كلاعب جديد على الساحة الدولية. إذ بعد صعود نجم اليابان ومن بعدها النمر الآسيوية، جاء دور التين الصيني ؛ والنقطة المهمة هنا هي أن كل هؤلاء الفاعلين الاقتصاديين ينتمون للقارة الآسيوية. وهنا بدأنا نتحدث عن نهوض وصعود حقيقي لدول محسوبة على معسكر الدول النامية. هذا الواقع الجديد هو الذي رسخ فكرة النهوض الاقتصادي. ولقد بدأت هذه البلدان الصاعدة، وفي مقدمتها الصين، تنادي بضرورة تغيير المنطق الذي يحكم العالم منذ 1945 تماشيا مع التغيرات الكثيرة التي شهدتها العالم. لكن هذا لم يكن كافيا، فقد توجب على هذه الدولة تغيير كل شيء على أرض الواقع وعدم الاكتفاء برفع المطالب.

بعد ذلك، عاش العالم الأزمة الاقتصادية العالمية 2008-2017 ؛ إذ حاول الرئيس الأمريكي باراك أوباما مواجهتها، لكنه وجد مجموعة السبعة عاجزة عن مواجهة التحديات لوحدها. ولعل من البلدان التي كانت قادرة على التدخل مجموعة من البلدان الصاعدة، فكانت النتيجة هي أن الرئيس الأمريكي طلب من الصين والهند وإندونيسيا وتركيا والعربية السعودية والمكسيك والأرجنتين والبرازيل وجنوب إفريقيا الانضمام إلى مجموعة اقتصادية جديدة هي مجموعة العشرين الهادفة أساسا إلى مواجهة تداعيات الأزمة الاقتصادية الأخيرة عبر خطط للإنعاش الاقتصادي. هذا السياق الجديد هو الذي دفع الصين وروسيا والبرازيل وجنوب إفريقيا والهند إلى تأسيس مجموعة دول البريكس (BRICS). وكل أعضاء هذه المجموعة دول نامية تحقق نسب نمو عالية، أي أنها دول تطمح حقا إلى تدارك تأخرها مقارنة بالدول المتقدمة وتحقيق الصعود. بالتأكيد، الصين هي أكثر دولة صاعدة قلصت الفرق بينها وبين البلدان المتقدمة. وقد بذلت جهدا جبارا كي تصل إلى ما وصلت إليه. وفي سنة 2017، أصبحت الصين واعية بأنها ربحت من العولمة أكثر بكثير مما ربحت الولايات المتحدة ذاتها، وهي مبتكرة هذه العولمة. ولكن ما إن انخرطت الصين في الدفاع عن اتفاقات التبادل التجاري الحر الثنائية والمتعددة الأطراف، حتى وصل إلى البيت الأبيض الرئيس دونالد ترامب الذي يتبنى سياسية حمائية. كل هذا التغيرات وغيرها هي التي قادتنا إلى الحرب التجارية التي نعيشها حاليا. وفي الواقع، هذه الحرب التجارية تجري فصولها بين عدة أطراف في نفس الوقت. أولا، البلدان المتقدمة ضد البلدان الصاعدة: حرب تجارية أمريكية ضد الصين أشعلتها الولايات المتحدة لما لاحظت أن الصين تبنيها ثلاثة أضعاف ما تشتريه منها؛ وهذا فرق كبير بلا شك. ثانيا، حرب تجارية بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي. ثالثا، حرب تجارية أمريكية ضد المكسيك وكندا... في الحقيقة هذه الحرب ليست حرب تجارية فقط ؛ إنها حرب تكنولوجية أيضا. أمريكا تدخل هذه الحرب معتمدة على سلاحين أساسيين هما قدرتها على الخلق والابتكار - عمالقة الإنترنت والصناعات الذكية - وكتلتها الديموغرافية الكبيرة.

شخصيا، أرى أن الولايات المتحدة قادرة، رغم كل ما يقوله رئيسها، على استيعاب المهاجرين الوافدين عليها، خاصة الأطر التي تساهم بفاعلية في التطوير التكنولوجي. الصين بدورها تدخل هذه الحرب بأسلحة عدة أهمها أن لها اقتصاد سوق موجه ومرتبط جدا باقتصاديات اليابان وكوريا الجنوبية وفيتنام وإندونيسيا والهند... وفي الواقع، هذه العلاقة الاقتصادية القوية جدا جعلت الصين قادرة على مواجهة الولايات المتحدة. بطبيعة الحال، ستحاول البلدان إيجاد نوع من التوافق في علاقاتها التجارية ؛ لكن الصين ستبحث عن شركاء وأسواق آسيوية بديلة كي تقلص نسبة اعتمادها على السوق الأمريكية. كما أشرت، يرتبط مفهوم الصعود الاقتصادي بما عرفته سنوات الثمانينات من أحداث ؛ لكن حتى إذا عدنا إلى التاريخ الاقتصادي، فسنسجل حضور هذا المفهوم انطلاقا من القرن التاسع عشر. حينها، كانت قاطرة الاقتصاد العالمي الأساسية هي بريطانيا وألمانيا وفرنسا.

بدأ الأوروبيون حينها بالحديث عن العالم الجديد والاقتصاديات الجديدة. ماذا كان الأوروبيون يقصدون بالعالم الجديد ؟ لقد كانوا يقصدون أساسا أمريكا الشمالية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. بين سنتي 1875 و1914، كانت الولايات المتحدة دولة صاعدة ؛ وفي سنة 1914، أصبحت القوى العظمى الأولى عالميا. وشملت تسمية العالم الجديد أيضا أستراليا ونيوزيلندا التي استقطبت مثل الولايات المتحدة أعدادا كبيرة من المهاجرين البيض : مهاجرون أوروبيون استوطنوا هذه البلدان ثم أصبحوا ينافسون أوروبا. وبلا شك، كان من الممكن أن تشهد أمريكا اللاتينية نفس النهوض الاقتصادي الذي شهدتها الولايات المتحدة، لكنها لم تستطع مواصلة نهضتها الاقتصادية، ثم بدأت تتراجع. وفي سنة 1945، كانت الأرجنتين متقدمة على فرنسا، لكنها تراجعت لاحقا. هذا التراجع بين التقدم والتخلف في سباق التنمية الاقتصادية عند بلدان أمريكا اللاتينية لا نجد له تفسيرا آخر غير الهيمنة الأمريكية على المنطقة. هذا فيما يخص الماضي. أما اليوم فنحن مطالبون بتحليل العلاقة بين البلدان المتقدمة والبلدان الصاعدة.

من الآن وحتى الفترة الممتدة بين سنتي 2030 و2050، سيشهد العالم ثلاث ثورات. الثورة الأولى ثورة ديموغرافية. في سنة 2030، سيبلغ تعداد ساكنة العالم، أكثر من ثمانية مليار نسمة. سترتفع نسبة الشيخوخة بالقارة العجوز والصين، وهذا معطى يمكننا رصد إرهاباته من الآن. لكن في المقابل، سيرتفع تعداد ساكنة مجموعة من البلدان، خاصة الهند التي ستصبح القوى الديموغرافية الأولى عالميا. أما إفريقيا التي يسكنها حاليا 17% من ساكنة المعمور، فستستحوذ سنة 2100 على 40% وآسيا 43%. بالتالي، فالجزء الأكبر من الثورة الديموغرافية المتوقعة سيحدث بالقارة الإفريقية، ولهذا أرى أن إفريقيا ستغزو أوروبا بشكل أو بآخر، أحب من أحب وكره من كره. عندما نتحدث عن المجال، لابد أن نبدأ بالحديث عن الرجال والنساء وأعدادهم : هذا أهم شيء بالنسبة لي، ولهذا أرى أن النسبة الأكبر من التمدن والتطور العمراني العالمي ستحدث بإفريقيا. أكبر المدن العالمية ستكون في إفريقيا ؛ ولن تكون كالمدن الصينية أو الهندية التي نراها اليوم، بل ستكون مدن عملاقة لا يقل تعدادها ساكنتها عن الثلاثين والأربعين مليون نسمة، وستضم نسبة مهمة من الطبقة المتوسطة، لكنها أيضا ستضم نسبة مهمة من الفقراء. هذا نوع أول من النهوض المستقبلي : نهوض يعتمد على العنصر البشري.

الثورة الثانية، التي نعيشها الآن، هي الثورة الرقمية، حيث أصبحت خدمة الإنترنت معمة على الجميع. صحيح أن التحكم في الإنترنت هم عمالقة وادي السيليكون بولاية كاليفورنيا الأمريكية. لكن الصين تلعب دورا مهما في هذه الثورة، مما يعني أننا نسير في اتجاه معركة جديدة بين الولايات المتحدة والصين حول الريادة التكنولوجية. لا بد من الإشارة إلى أن أوروبا متأخرة في هذا الباب. وأشير هنا إلى أوروبا لأننا جيرانها. في تصوري، الحرب ستحسم بشكل كبير في معركة التكنولوجيا. لماذا ؟ الثورة الديموغرافية تعتمد على العدد لكنها ليست حاسمة، لأن الاستفادة الحقيقية من هذا العدد مشروطة بمستوى تكوين الأفراد وتعليمهم ومستوى البحث العلمي : أي سيكون الحسم بالكيف لا بالكم. إذا، فالبلد الذي يحقق نتائج جيدة في هذه المجالات هو الذي سيفرض نفسه قائدا للعالم. والهجرة التي سيشهدها العالم مستقبلا مختلفة تماما عن تلك التي شهدناها سابقا : ستكون الهجرة أساسا هجرة الأدمغة، لارتباطها بالتكنولوجيا. أما الثورة الثالثة فهي أن عالمنا المستقبلي سيكون متعدد القطبية : أي أننا سنعيش في عالم لا تسيطر فيه لا أمريكا ولا الصين ولا أوروبا، حتى أن أوروبا ستكون في المرتبة الثالثة. صحيح أن الولايات المتحدة أولا وأوروبا ثانيا ستبقيان متقدمتان على الصين في الدخل الفردي ؛ لكن الصين ستتجاوزهما على مستوى الناتج المحلي الإجمالي ابتداء من سنة 2030. حينها، سيشكل الناتج المحلي الإجمالي الصيني ربع الناتج المحلي الإجمالي العالمي مقابل 11% حاليا. ستأتي الولايات المتحدة الأمريكية في المركز الثاني. أما أوروبا فستتراجع إلى المركز الثالث لعدة أسباب أهمها ارتفاع نسبة الشيخوخة ؛ ولن تخرج أوروبا العجوز من هذا المأزق إلا بالاعتماد على إفريقيا الشابة ؛ وأنا هنا لا أدخل بلدان المغرب الكبير ضمن إفريقيا الشابة لأنها هي الأخرى ستشهد ارتفاعا في نسبة الشيخوخة.



إذا، الحديث عن مجالات الغد يستوجب مراعاة الثروات الثلاث المذكورة. والدول النامية اليوم هي دول مجموعة «البركس» ؛ لكن يمكننا أن نضيف إليها المكسيك وإندونيسيا لأنهما تتوفران على كتل بشرية كبيرة. الدول السبع التي ستقود العالم سنة 2030 هي الصين والولايات المتحدة الأمريكية واليابان والهند ثم - نلاحظ أن اثنين من الأربعة الأوائل ينتمون إلى آسيا - روسيا، رغم كل الصعوبات ورغم أنها لا تنتج تقريبا إلا البترول والغاز. ولعل البرازيل وربما المملكة المتحدة. كما تلاحظون، حتى ألمانيا لن تحافظ على مكانتها مع السبعة الأوائل بعد سنة 2020. أما فرنسا التي كانت ضمن السبعة الأوائل حتى سنة 2010، فستكون بعيدة عن دخول نادي السبعة الأوائل. نعرفون أن الهند تجاوزت كل من فرنسا والمملكة المتحدة سنة 2017، وأنها اليوم تطارد ألمانيا. ربما فهتم من خلال كلامي أن مسألة النهوض والصعود لا ترتبط بحجم الثروة. فرغم أن العربية السعودية مثلا دولة غنية، فهي تنتمي إلى مجموعة البلدان المتخلفة. كل دول الخليج غنية، لكنها لم تشهد أي ثورة رقمية : إنهم يستهلكون التكنولوجيا الرقمية ولا ينتجونها. علاوة على ذلك، هذه الدول غير قادرة على حماية نفسها. وكلنا يعلم أن القوى العظمى اليوم تمتلك القوة الاقتصادية، لكنها أيضا تملك قدرة عالية على حماية نفسها ومواجهة أي تهديد.

إذا قارنا بين قارات العالم من حيث النمو الديموغرافي، إفريقيا، كما أشرت من قبل، ستبهرنا. وهذا سيساعد بعض الدول الإفريقية مثل نيجيريا وإثيوبيا ومصر وأوغندا والمغرب الكبير على فرض أنفسهم. الحديث عن المجال، يقودنا للحديث عن الصين مرة أخرى : إحدى نقاط الضعف عند الصين هي أن فيها صين نافعة وصين غير نافعة. هناك اختلالات مجالية كبيرا تضعف قدرة الصين على المنافسة عالميا. كل الصين الغربية تعاني من تأخر مهول ؛ وهذا ما يفسر إطلاق الصين مشروع طريق الحرير الرابط بين غرب الصين وأوروبا عبر مجموعة كبيرة من الدول. كرجل متفائل جدا بمستقبل المغرب الكبير ومؤمن به، أرى أن لجهة الشرق أدوار مهمة لتلعبها في المستقبل بفضل إمكانياتها الكبيرة. يمكن أن تكون الجهة مبعث المغرب الكبير الذي سيعود للحياة بطريقة أو بأخرى، ولو بعد حين. ولهذا أرى أن من المهم تشييد فضاءات للاستقبال وبنية تحتية قوية تعين الجهة على الإطلاع بهذه الأدوار. قبل أن أختم، أريد أن أطرح سؤالا : الرباط ؟ أعتقد أنها بنية استقبال مهمة على المستوى المغاربي. ارتبط تاريخ الرباط، السيد فكري يعرف مراحل الكبرى أفضل مني، بالنصور الذهبي والأندلسيين وليوطي والملك محمد السادس حاليا. وفي الحقيقة، شهدت الرباط طفرة كبيرة بفضل جملة من المشاريع المهيكلية، وعلى رأسها مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق الذي صالح الرباط وسلا مع البيئة والنهر والبحر.

مشروع آخر يساهم في مصالحة الرباط مع البحر هو مشروع «الرباط مدينة الأنوار، عاصمة المغرب الثقافية». وهنا أود الإشادة بالمهندس محمد امباركي والعمل الرائع الذي قام به في حي الرياض. بالنسبة إلي، كان حي الرياض منذ سبعينيات القرن الماضي نموذجا لنوع جديد من النهوض المجالي. المسألة الثانية التي أريد التحدث فيها بعلاقة مع الرباط هي هضبة عكراش : هضبة مساحتها ألف هكتار، أي ثلاثة أضعاف مساحة حي الرياض، تقابل نهر أبي رقراق وشالة. الرباط في نظري حظها رائع جدا : الرباط محدودة بالبحر والغاية والحزام الأخضر التابع لمدينة تمارة. وهذا يدفعها إلى النهوض بشكل مختلف عبر هضبة عكراش وفي مجالات أخرى غير التمدد الجغرافي. وبلا شك، الخبراء الكبار من أمثالكم هم من يسهرون على تنزيل مشروع «الرباط مدينة الأنوار»، الذي أطلقه صاحب الجلالة، على نحو يمكن مجال الرباط من النهوض بالاعتماد أساسا على هضبة عكراش.



بوعدة بنعاش

شكرا جزيلا على هذه المداخلة الشيقة التي تطرقت إلى جملة من القضايا وطرحت عددا من الأسئلة وأبرزت مجموعة من النماذج. قلت إن اهتمام العالم انتقل من المتوسط إلى الأطلسي ثم منه إلى الهادي، وتنبأت بانتقاله مستقبلا إلى محيط جديد هو المحيط الرقمي. ولقد بينت لنا هذه المداخلة باستفاضة، أن نهوض المجالات عبارة عن ترابطات وجدل تصاعدي وظاهرة تاريخية جيو-استراتيجية، معتمدا في ذلك على مقاربة جيو-إبستمولوجية خاصة. علاوة على ذلك، حدثنا عن ثورات ثلاث : الثورة الديموغرافية والرقمية والاقتصادية. بالتأكيد، الجامعة والباحثون المغاربة مدعوون إلى الاهتمام بهذه التحولات المرتقبة منذ بدايتها وحتى نهايتها. بعبارة أخرى، وكما سبقت الإشارة، لابد من توظيف المعرفة والبحث العلمي في النهوض على شتى المجالات.

فكري بنعبد الله

فرض عمدة الرباط السابق قوته وترك بصمته في مدينة عانت كثيرا، ربما أقل من الدار البيضاء، من الصراعات السياسية وغياب التوافق. عانت الرباط من عدة اختلالات وأزمات أخرى، أو حتى أضعفت، مسيرتها التنموية... وبلا شك، ساهم مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق في إنعاش المدينة.

يندرج هذا المشروع ضمن رؤيا ملكية ترمي إلى التوفيق بين الرباط وسلا ومصالحتهما مع محيطهما. أتحدث عن هذا المشروع بعاطفة كبيرة لأنني شاركت فيه رفقة مجموعة من الزملاء بقيادة الراحل مزيان بلقيش. اشتغلت كثيرا على الجزء المتعلق بالتهيئة العامة. وقد تبين لنا من خلال عملنا اليومي في الميدان أن الاعتماد على المجال ومؤهلاته سيجقق النهوض المرجو ويبلور صورة جديدة حول علاقة الرباط وسلا. مثل الرباط وسلا كممثل صحيفة رخام غير مصقولة مشقوقة من الوسط وتحمل نفس التفاصيل يمين الشق وشماله. من جهة تتقابل قسبة الوادية مع المدينة القديمة لسلا. ومن جهة أخرى، تتقابل بطانة مع مسجد حسان. لكن كلما تقدمنا شمالا تراجعت نسبة التشابه بين المدينتين : تتقابل قرية ولاد موسى ومولاي إسماعيل مع فضاءات مهمشة لها مكانة خاصة في قلبي أبرزها دوار الدوم ودوار الحاجة.

منذ أيام قليلة، ناقشت هذا الموضوع في اجتماع دعنتي إليه وزارة الداخلية كفاعل جمعي. شاركت في هذا الاجتماع ثلاثون جمعية. وبصراحة، كان هذا اجتماعا استثنائيا، لأن وزارة الداخلية نادرا ما تغفل شيء مماثلا. وعلى العموم، قليلون هم المسؤولون القادرون على إطلاق مبادرات كهذه. ولكن لماذا ؟ قد يتساءل بعضكم. لأن هذه الفضاءات غير المندمجة استقادت من مشاريع إعادة التأهيل والإدماج تدرج ضمن برنامج للتنمية الحضرية من تمويل البنك الدولي في السبعينيات. حينها كنت طالبا في مدرسة المهندسين، واقترحت برنامجا إصلاحيا. كلما فكرت الدولة في مشروع معين ووضعت خطته تنافس الطلبة المهندسون في طرح خطط بديلة مبدعة تنطلق من الميدان وخصوصياته.

هذه هي المعركة التي خضناها داخل أروقة وكالة تهيئة ضفتي نهر أبي رقراق حتى أقنعنا الجميع بضرورة وضع هذه الأحياء المهمشة ضمن برنامج التهيئة. أكدت في هذا الاجتماع على ضرورة عدم حصر التراث في الأماكن التاريخية وتوسيعه ليشمل فضاءات أعطتنا ثروة بشرية رباطية كبيرة خرج منها أطر رياضيون وفنانون ومسؤولون ووزراء. وقد كنا سعداء لما عرفنا أن السلطات وضعت برنامجا تنمويا تشاركيا يراعي هذه الفضاءات. وحسب المقاربة التي اعتمدت في وضع البرنامج، فجهود إعادة التأهيل والإدماج ليست مادية فقط : لم نركز فقط على جهود تجديد وتوسيع وتقوية الشبكة الطرقية وتقوية الشبكة الكهربائية والتزود بالماء الصالح للشرب والصرف الصحي... بل تعديناه إلى بناء صورة جديدة. واليوم الناس يتوجهون إلى دوار الحاجة قصد التسوق... لأنه أصبح قطبا حضاريا له جاذبية خاصة وسمعة جديدة وإيجابية. أصبحت ساكنة الرباط وسلا تتوجه إلى هذه الفضاءات التي تم تأهيلها لأننا لما اهتممنا بها أحيينا ماضيا مدفونا وربطناه بالحاضر.

في الحقيقة، اكتساب هذه الأماكن سمعة جديدة وإقبال الناس عليها يؤكد أن من طالبوا في الاجتماع المذكور بضرورة إدراج الفضاءات المهمشة في مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق كانوا على صواب، وأن اقتصر مشروع بهذا الحجم على المسرح الكبير والمرينا... وعدم مراعاة البعد الاجتماعي كان سيعني فشله. وبطبيعة الحال، هذا المشروع يعطي أهمية كبرى لمدينة سلا أيضا باعتبارها جزءا من مجال الرباط-سلا. وفي الأسابيع القليلة القادمة، سيعلن عن برنامج تنموي ميزانيته خمسة مليار درهم وهدفه إحداث التوازن بين الرباط عاصمة الأنوار وسلا المهمشة منذ فترة طويلة.

تحدث الأستاذ ولعلو عن التجمع الحضري الرباط-سلا وهضبة عكراش البالغة مساحتها ألف هكتار. مساحة الهضبة ثلاثة أضعاف حي الرياض، الذي أشرف عليه صديقنا المهندس محمد امباركي، علما أن تطوير الحي مستمر منذ ثلاثين سنة. وإذا كان هذا هو الوضع مع حي الرياض، فماذا سنفعل مع هضبة عكراش ذات المساحة الأكبر ؟ أولا، عندنا مشاكل متعلقة بملكية الأراضي : البعض يملكون مائة أو مائة وخمسين هكتارا من الأراضي الواقعة في مدخل الهضبة. وأنا أشير إلى هذه النقطة لأن الهضبة محاطة بالتلال من كل الجوانب، ولا مدخل إليها إلا هذه الأراضي ذات الحساسية من حيث البيئة والملكية. بصراحة، أرى أن تهيئة الهضبة وتعميرها سيكون تحديا كبيرا أمام الرباط، سواء تحركت الآن أو في وقت لاحق. نحن نتكلم عن الهضبة في أفق خمسة وعشرين سنة القادمة. لكن الأفضل هو البدء من اليوم.

بلا شك، الجهات المسؤولة مطالبة بتبني مقاربة تراعي البعد الإيكولوجي وتنشد الحداثة وصورة جديدة للرباط وسلا وعلاقة تعاون وتفاعل قوية بين المدينتين. حسب المعلومات المتوفرة لدي، أطلقت الجهات المسؤولة برنامج للتهيئة على مستوى مدخل الهضبة. وكل ما أتمناه هو أن تلاقي المراحل الأولى من هذا المشروع نجاحا كبيرا يقودنا إلى إعادة التفكير في أساليب تعمير وتهيئة المدن المغربية. مشكلة هضبة عكراش الأساسية هي ملكية الأراضي : عندنا ملاك لهم حضور اجتماعي قوي في هذا المكان بمئات الهكتارات وآخرون بسطاء وآخرون يملكون من خمسين إلى ستين هكتارا... كيف سنتعامل مع هذا الوضع ؟ أتتقصنا الشجاعة لفعل ما فعلناه في مشروع تهيئة نهر أبي رقراق ؟ أول ما قمنا به في هذا المشروع هو نزع الملكية وتوحيدها : النهر والأراضي المحيطة به كلها أصبحت تابعة للوكالة، سواء تعلق الأمر بأراضي الأحباس أو أراضي المشاع أو أراضي الجموع أو أراضي الملك الخاص. سيطرة الوكالة على الوعاء العقاري المطلوب منحها قوة وجنبها الكثير من المشاكل. ما أخشاه هو ألا تحضر نفس العزيمة والصرامة في هضبة عكراش. تميز حي الرياض بتهيئته العمرانية المتوازنة، والسبب في ذلك هو أننا جهزنا أربع مائة وخمسون هكتارا من خلال شركة واحدة وبرؤية واحدة ونموذج جديد لسياسة المدينة فيه مزيج رائع من المساكن والبنائات والمؤسسات والفضاءات الخضراء. وبالنسبة للهضبة، أنا متخوف من أن نبدأ بداية سيئة. أنا لا أتمنى شيء من ذلك ؛ لكننا نتحمل مسؤولية التنبيه إلى الاختلالات الممكن حدوثها. أتمنى أن نستفيد حقا من هذا المشروع داخل مجال الرباط-سلا والمغرب ككل. المغرب الذي استطاع إنجاز مدينتي زناتة وتامسنا، قادر على إنجاز مشروع هضبة عكراش عبر شركة واحدة تطبيق رؤية واحدة على مئات الهكتارات لتعطينا مجالا حضريا راقيا وموحدا بنفس جديد ومتجدد. أتمنى أن نفعل هذا في الهضبة.

بوعدة بنعاش

شكرا، الكلمة الآن للحضور في القاعة. أول المتدخلين هو الأستاذ والزميل العزيز عبد الفتاح الزين، الباحث بالمعهد الجامعي للبحث العلمي. تقضل أستاذ، لكم الكلمة.

عبد الفتاح الزين

أعتقد بإمكاننا استقراء ما قاله الأستاذ فكري والأستاذ ولعلو والإفادة منه في فهم وضع مجال الجهة الشرقية. أنا أتمنى لهذا المجال وأعرفه جيدا ؛ وقد سبق لي أن اشتغلت عليه كباحث اجتماعي ؛ حتى أن أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه كانت حوله. تحدثت بعض الشيء عن التراث اللامادي الغائب تماما. عندما نتحدث عن المدينة اليوم، لابد من الحديث عن استدامتها ومحيطها القروي بكل مكوناته. القرويون اليوم يتميزون بالقول إن المدينة هي التي تأتي إليهم وليس العكس. هذا كلام صحيح. مثلا، حي التقدم هو الذي أتى عند المعاضيد وليس العكس. بالمناسبة، باب زعير كان يسمى باب الحديد. أتعرفون لماذا ؟ لأن قبائل المعاضيد لطالما دافعت عن الرباط، وإن كانت في حالة صراع مع ساكنتها. كل أملاك أهل المعاضيد كانت بسلا : كانوا يشترون عقاراتهم داخل سلا القديمة، لأنهم كانوا يتاجرون مع أهلها.

بعد ذلك، للأسف، فتحت المدينة كما تبين حالة القايد السويسي الذي كان يسيطر على جزء كبير من أراضي الدولة. كل الأراضي الواقعة شمال باب زعير كانت تابعة للدولة... وربع هذه الأراضي تصرف فيه القايد السويسي كاملاك شخصية. وعليه، أرى أن الحديث عن التراث اللامادي لا يستقيم إلا بالحديث عن المجال القروي والحضري كمجال واحد متداخل العناصر، لأن من الخطأ التفكير في المدينة بمعزل عن محيطها القروي. هذه هي الفكرة الأولى التي أردت مناقشتها. الفكرة الثانية تتعلق بهضبة عكراش. أعتقد أن حي أكدال اليوم كارثة عمرانية بكل المقاييس، لأن برنامج إعادة التهيئة الذي استفاد منه لم تتجز بالشكل المطلوب : لم ننطلق من مساحة أرضية كبيرة موحدة تجهز وفق رؤية واحدة تراعي كل الأبعاد العمرانية والجمالية الواجب مراعاتها. للأسف، أكدال تتحول تدريجيا إلى نقطة سوداء داخل الرباط.

في الحقيقة، هناك مجهودات تبذل حالياً؛ لكن تنقصنا مقارنة تنموية تراعي البحر والموروث النباتي. هذا المشكل لا يهم الرباط وسلا فقط، بل يهم تمارة والصخيرات أيضاً. إذا راعينا الإمكانيات البحرية والطبيعية في هذه المدن ومحيطها، سنحقق نتائج مهمة بخصوص إدماج تراثنا الوطني في مشاريعنا التنموية. الواقع يقول إننا مازلنا نقارب المدينة مقارنة إثنية؛ وأنا أرى أن تجاوز هذه العقلية سيساعدنا كثيراً في بناء مدن مغربية مواطنة ومستدامة.

بوعزة بنعاش

شكراً أستاذ الزين. الكلمة الآن للسيد عبد اللاوي.

السيد عبد اللاوي

نحن في حاجة إلى مفاهيم جديدة. القوانين والأنظمة والدراسات تضبط إحداثيات المجال المراد الاشتغال عليه والأهداف المنشودة والإمكانيات المتوفرة وغير المتوفرة. ما هي الفكرة هنا؟ الفكرة هي الانطلاق من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية وندرة الموارد الطبيعية أو البشرية... أي جرد الإمكانيات المتوفرة واستيعاب الشروط الاقتصادية والاجتماعية والبيئية قبل وضع خطط تنموية متقنة. وهذا ما يسمى تحليل دورة حياة المجال. بعد وضع تصور معين وجرّد الإمكانيات المتوفرة وتحديد الحاجيات، نخرج بخلاصة واضحة حول ما يلزمنا القيام به وكيفية القيام به.

السعدي عبد الإله

أريد التحدث عن مجال وجدة. بالنسبة إليّ، الرباط بعيدة عن هنا بخمس مائة كيلومتر ومشاكلها بعيدة عنا. إذا نظرنا إلى وجدة كمجال، فسنجد أنفسنا بصدد مجال رمزي ومعقد جداً لم يحظ بالاهتمام الكافي طوال تاريخه. تكلمتم عن المجال وتعريفه وعلاقته بالمواطنين. في نظري، اقتحار الناس بالانتماء إلى مجال معين مشروط بمدى جاذبيته. لكنكم لم تتحدثوا عن جاذبية المجال أو آليات تدارك الفرق بين مجال متخلف ومتقدم. علينا التفكير في وجدة كمجال وتزويدها بكل ما يلزم من إمكانيات كي نرفع جاذبيتها ويطلب لأهلها العيش فيها. بالمناسبة، أشكر مسؤولي وكالة جهة الشرق على كل المجهودات المبذولة في هذا الاتجاه. ولقد أشرفت الوكالة على عدة مشاريع، خاصة في فضاءات وجدة المهجورة: كالقر القديم للمكتب الوطني للسكك الحديدية والمحطة الحاررية القديمة التي هدمت مؤخراً. كما تعرفون، عندما نريد هدم مدينة ما، نستعين بخدمات المنعشين العقاريين. وهذا ما نفعله في وجدة. المنعش العقاري يهدم بكل فرح مادام سيحصل على مساحات أرضية يتاجر فيها. أما الثقافة المجتمعية وذاكرة المدينة فلا تعنيه في شيء؛ وهذا أمر عادي، لأنه تاجر يسعى إلى تحقيق الربح. خلاصة القول هي أن وجدة في حاجة ماسة إلى مقارنة جديدة ومبدعة.

بدر الدين الفيلاي بابا

أنا مهندس؛ ما قاله الأستاذ بنعبد الله يعيدني إلى وجدة. أنا منبهر بجمعية ذاكرة الرباط-سلا. أنا مقيم بكندا وأزور المغرب بين الفينة والأخرى. في إحدى الزيارات، صادفت أيام التراث التي تحدث عنها الأستاذ بنعبد الله. زرت التظاهرة، وأعجبت حقاً بما فعلته الجمعية: الزيارات التعريفية والنقاشات والعروض الفنية. حدثت الكثير من الناس عن تلك التظاهرة طوال الأيام المالية، خاصة بكندا، وقدمتها كمثال على ما نستطيع القيام به كمجتمع مدني. بشكل عام، عندما لا نكون في موقع المسؤولية، نحتم ونلقي باللائمة على الآخرين طوال الوقت، لكننا لا نسأل أنفسنا ما الذي يمكننا نحن، كمجتمع مدني، القيام به كي نحل إشكالات مجالنا. وبلا شك، جمعية ذاكرة الرباط-سلا تقدم مثلاً رائعاً وتجب على الكثير من الأسئلة.

محمد امباركي

عندي سؤالين للأستاذ ولعلو. تحدثت عن النهوض ؛ وسؤالي الأول يتعلق بنهوض المغرب ؛ توجد بعض العناصر الدالة على أن المغرب يستعد لدخول نادي البلدان الصاعدة. ويكفي هنا أن نشير إلى تطور البنية التحتية وتطور مجموعة من القطاعات التي أصبح فيها المغرب رائدا إفريقيا : القطاع البنكي والاتصالات والطاقة المتجددة... لكن رغم أن هذه العناصر تؤكد قدرة المغرب على النهوض، فالواقع يقول شيء آخر : فما هي إذا العوامل التي تحول دون التحاق المغرب بالدول الصاعدة ؟ سؤالي الثاني يتعلق بالتعليم والتكوين والبحث العلمي. كثيرون هم من يعتبرون منظومة التربية والتكوين والبحث العلمي بالمغرب منظومة كارثية : هل تتفق مع هذا الرأي ؟ وإذا كنت متفقا، هلا فسرنا لنا المفارقة بين مغرب ينجح في العديد من القطاعات ومغرب نظامه التعليمي رديء ؟ شخصيا، لا أتفق كليا مع هذا الرأي.

السيد بنعيسى

سنأخذ من نفس الملاحظة التي أبدتها الأستاذ فتح الله، عندما تحدث عن وجود الصين النافعة والصين غير النافعة. نفس التقسيم موجود لدينا في المغرب، المغرب النافع والمغرب غير النافع. وأعتقد لا زلنا نعيش هذه الوضعية من خلال الملاحظات التي سأبديها. سنأخذ من خط السكة الحديدية الذي ينطلق من وجدة ويتجه إلى بوعرفة ليصل إلى بشار، ومنه إلى فجيج... ألا توجد إمكانية ليم استعمال هذا الخط في إحياء عدد من النقاط القابلة للإحياء ؟ لدينا سهل يضيع فيه البصر، نسميه الطرايد، بين برغم عين بني مطهر وبين تندرارة. مساحة كبيرة جدا. ومن يذهب إلى تندرارة أو بوعرفة أو فجيج، ويمر من هناك دائما يطرح السؤال... هناك سهل شاسع وفارغ، رغم أنه يمكن أن يتم استثماره. هناك نقاط كانت حية في وقت ما، سأبدأ من بوعرفة، تويست، سيدي بوبكر، جرادة حيث كانت فيها مناجم الفحم وحاليا ميتة. سنأخذ فقط بوعرفة، ألا توجد إمكانية لإحياء منجم المنغنيز ؟ إضافة إلى هذا هناك الآن مناطق تعيش التضيق، مثلما هو الحال بالنسبة لفجيج التي يجري فيها إنجاز مشروع تهيئة ؛ حيث أن المناطق العسكرية فيها تبلغ أكثر من 610 هكتار، ستنزع من الفلاحين لجعلها مناطق عسكرية وهذا يتناقض مع روح التنمية. فعندما كنتم تتكلمون عن الرباط أنا كنت أراجع وأقارن ما بين الازدهار الذي ستعرفه الرباط، وما نعيشه للأسف في المنطقة الشرقية.

مداخلة

عندي سؤال للأستاذ ولعلو : ما مدى تأثير التغيرات المناخية على المسيرة التنموية التي تنبأت بها حتى سنة 2100 ؟ لاحظت أن مداخلتك، شأنها شأن كل المداخلات التي استمعت إليها في عدة مؤتمرات مؤخرا، لم تتطرق للمناخ. مازلنا لا نتطرق إلى هذه القضية رغم أن آثارها أصبحت بادية في الفترة الأخيرة على مجموعة من مدن العالم. التغيرات المناخية تؤثر سلبا على مسيرة التنمية. وهذا التأثير السلبي ستزداد حدته مستقبلا، لأن حرارة الأرض أخذت في الارتفاع حسب العلماء.

يحيى شقروني

أنا إطار بنكي سابق مقيم بهولندا وأصولي من وجدة. سؤالي للأستاذ بنعبد الله. تحدثت عن الرباط وسلا، وقلت إن النهر لطالما فصل بين المدينتين. هنا بوجدة، كان الجزء الشرقي من المدينة حزاما أخضر، لكنه اختفى من الوجود. في نظرك، هل علينا حماية ما تبقى من المساحات الخضراء ؟

بوعزة بنعاش

شكرا لكم جميعا. أعطي الكلمة الآن للسيد فكري بنعبد الله والسيد فتح الله ولعلو.

فكري بنعبد الله

يتعلق السؤال الأول بامتداد المجال أو الذاكرة التي يجب أن تشغل عليها الجمعية الجديدة. هل نحن بصدد مجال وذاكرة جهوية أساسا أم ماذا بالضبط ؟ في الحقيقة، هناك نوع من التداخل بين المجالات المحلية والجهوية والوطنية المتنوعة إثنيا وإنسانيا وماديا. شخصا، أنادي بتوحيد الجهود وتوسيعها على أكبر نطاق ممكن، لأن وجدة وجهة الشرق عموما تزخر بطاقات ملتزمة ومناضلة قادرة على خلق الفرق وإعطاء الإضافة. لابد من رفع مستوى جاذبية وجدة، لأن جزء مهما من قيمة المجال يكمن في قدرته على التجدد والمحافظة على جاذبيته. بطبيعة الحال، قيمة المجال تكمن أيضا في إمكانياته الثقافية وطاقاته الفكرية والإبداعية. في الحقيقة، نحن نعيش نوعا من التناقض. عندنا مثقفون ومبدعون رائعون من بركان ووجدة، إلخ... يمكنهم تنشيط الجهة ومدنها وإحياء الهوية الجهوية المشتركة، لكننا لا نستفيد منهم كما يجب. علينا بذل مجهود فكري كبير جدا للوصول إلى تصور شمولي حداثي يساعد الجهة على النهوض. اعذرني على العودة إلى الرباط وسلا البعدين ومشاكلهما، لكن الهدف من ذلك هو تقاسم تجربتنا معكم عساها تفيد في النهوض بجهة الشرق. شكرا لك أستاذ بدر الدين على شهادتك التي تتلج الصدر حقا.

يتعلق السؤال الثاني بالتراث اللامادي : خصصت ذاكرة الرباط-سلا برنامجها الثقافي بين سنتي 2018-2019 للموروث الثقافي اللامادي حصرا. احتفالنا من قبل بالذاكرة اليهودية-المسيحية بالرباط وسلا. وهذه المرة، سنكرم مجموعة من رموز الإذاعة والتلفزة المغربية الذين مازالوا على قيد الحياة كمحمد بن ددوش ومعينون... الذين عايشناهم صغارا وشبابا. وبطبيعة الحال، لن ننسى مدينة جرادة وبنائاتها السككية القديمة التي تعتبر تراث إنسانيا. كأني واحد منكم، قرأت رواية «جيرمينال» فتأثرت بها وعمقت إحساسي بالخسارة الإنسانية والمجالية والبيئية الكبير في جرادة. من الضروري تشمين الدور الذي لعبته وجدة وجهة الشرق في الصناعة المنجمية عموما، والنضال النقابي خصوصا. من ناحية أخرى، لابد من إبراز الدور المهم الذي لعبته السكة الحديدية الوجدية في بناء البلاد وشبكة السكك الحديدية الوطنية. تحدث الأستاذ الشقروني عن ضرورة الإسراع في الاهتمام بمجموعة من الفضاءات المهجورة. كل هذه المعطيات تدفعنا للمطالبة بمؤسسة تكون شريكا اجتماعيا يدافع عن هذه الفضاءات ويبعث فيها روحا جديدة، اقتداء بالرباط التي منعت هدم كل بناية تحمل قيمة رمزية.

فتح الله ولعلو

في الواقع طرحت قضية الانبثاق انطلاقا من البعد العالمي، لأنه مفهوم مطروح أولا على المستوى العالمي بالأساس، من خلال انبعاثه وحضوره القوي اليوم وآثاره في المستقبل. ولكن طرحت مباشرة من بعد، بأن هذه القضية يجب أن نربطها بتطور المجال داخل بلدنا. من هنا طرحت على الأستاذ فكري، وأجاب إيجابيا، أن نفكر جميعا حول هضبة عكراش. لماذا ؟ لأنه مع الأسف، في الرباط، وكان السيد أمباركي حاضرا معنا حيث كان فاعلا أساسيا في حي الرياض، في الرباط بعد الاستقلال، باستثناء مناطق مدن القصدير أو السكن غير اللائق، مثل دوار الدوم ودوار الدباغ باعتبارها الأحياء الأساسية، وامتداداتها. الشيء الذي جرى في الرباط منذ الاستقلال باستثناء ارتفاع البناءات أساسا نظرا للاكتظاظ السكاني، في حسان وأكدا. ولكن الحين الأساسيين اللذان ظهرا هما السويسي من جهة، والرياض من جهة أخرى. أعتقد أن تجربة السويسي تجربة فاشلة. فيلات كبيرة وأرقة صغيرة. كارثة، لست معماريا لكن أعتقد أن هذا غير معقول. أما تجربة الرياض، تجربة ناجحة ورائدة. بل أنها التجربة الوحيدة الأكثر تكاملا في المغرب. يمكن أن تكون هناك نقاط ضعف أو شيئا من هذا القبيل. ولكنها بصفة عامة تعد الأكثر تكاملا. ولذلك مع التغيير الذي يقع الآن في الرباط، هذا الحي يمكنه التحول إلى نموذج. ولذلك أطرح على الإخوان، الأصغر مني سنا والمختصين، لكن يبقى عمل كبير ينتظر على هضبة عكراش لأنها مثل السويسي هي أرض ملك خاص. ونقولها بكامل الصراحة، 80% من الأراضي هي في يد 8 ملاك. مثل السويسي.

إذا، يجب علينا أن نبتعد عن نموذج السويسري، ونقترب من نموذج الرياض. ولكن أن نبني هذه المدينة على أساس، أولاً المفهوم الملكي الجديد لمدينة الأنوار، وأيضاً على أساس أننا نعيش في العصر الرقمي. قرن جديد مختلف عن القرن العشرين. وبالنسبة لوجدة، بطبيعة الحال، نحن نعرف ونقولها بصراحة، هناك الآن شيئين في وجدة : من جهة إقبال الحدود، والذي يطرح مشكلة في المنطقة. ومن جهة ثانية، يلاحظ القادم إلى وجدة أن الدولة قامت بأشياء كثيرة. وأنا كما قلت أمس أن ما أنجز هو بنية استقبالية للمستقبل، عندما ستفتح الحدود في يوم من الأيام، وجدة في موقعها، مستقبلها مرتبط بأربع أشياء. أولاً محيطها، فهي عاصمة المحيط. ولكن هذا المحيط يتغير. المعادن في العالم بأسره، تنتهي في يوم ما. وبالتالي فالمشكلة هي تحضير البدائل. مثلاً في شمال فرنسا أو منطقة لورين، أو لاغوغ الأتالنية. كان هناك الحديد والفحم. انقضت. فجاءت البدائل، جاءت من أوروبا، في إطار العمل الودودي. إذا، قضية البيئة يجب أن تكون دائماً حاضرة على أن وجدة مرتبطة بجنوبها وبغربها وبشمالها.

النقطة الثانية هي تقوية الارتباط بالبحر الأبيض المتوسط. وبالأساس بالميناء القادم بالناظور. ولذلك السكة الحديدية في هذه المدينة لديها قيمة تاريخية كبيرة. ذلك المبنى التاريخي لمحطة القطار في وجدة له قيمة تاريخية كبرى لأنه هو الرابط الوحيد العاطفي ما بينها وباقي البلد. ومن قبل كانت تلك المحطة هي الرابط مع الجزائر ومع المغرب الغربي. لذلك فإن مبنى محطة القطار في وجدة له معنى أكبر كثيراً من الرباط أو الدار البيضاء. في الرباط نحن محظوظون. لدينا محطة قطار ضخمة، تشبه محطة ميترو كبيرة. وتوجد في وسط المدينة. لكن لا توجد مدينة ارتبطت بالقطار مثل وجدة. هذا الارتباط يجب أن يتنوع، ويجب أن يذهب جزء منه إلى البحر الأبيض المتوسط. تلك السكة التي شيدت ما بين تاوريرت والناظور لها أهميتها. لكن بالنسبة لي أكثر أهمية منها السكة بين وجدة والناظور، لأننا لدينا طنجة المتوسط ولكن لدينا مشروع ميناء الناظور. وهذا مرتبط بتوجه جديد للمغرب منذ 2000، وهو التوجه المتوسطي المغرب، والذي لم يكن كذلك من قبل. المغرب كان أطلسيا بشكل أساسي. الآن مع طنجة المتوسط وغدا مع الناظور نتجه إلى المتوسطية، وبالتالي هناك الجانب السياحي مع السعودية، إلخ، ولكن الجانب الثالث الذي يجب أن يبقى حاضراً بالأساس هو البعد المغربي. فهذه المدينة مرتبطة بالحدود. وأخيراً بالنسبة للمغرب، هل هو بلد صاعد. هل المغرب بلد صاعد ؟

شخصياً، أصف الدول بالصاعدة على أساسين اثنين هما الجغرافيا والديموغرافيا : الصين دولة صاعدة ؛ وكذلك الهند والبرازيل. يمكن للمغرب أن يكون دولة صاعدة، لكن صعوده هذا مشروط بانتمائاً إلى فضاء واسع. حالياً، عندنا بعض عناصر النهوض الواجب تطويرها من خلال الثورات الثلاث التي ذكرتها. وفي تصوري، المغرب مطالب ببذل جهد أكبر لتحقيق الثورة الرقمية، على أن يربط هذا الثورة بنظامه للتربية والتكوين. أنا حقا سعيد لأننا كمغاربة واعون بأهمية المنظومة التعليمية في التنمية ووعينا بالحالة المزمنة لنظامنا التعليمي. فيما يخص تأثير المناخ على المسيرة التنموية حتى سنة 2100، كلامك صحيح تماماً. تحدث عن الثورات الثلاث فقط لأنها أشياء نفعلها. سؤال المناخ هو رهان، إما أن نذهب ويكون الاقتصاد الأخضر، وإما أنها ستكون نهاية الإنسانية. لذلك الآن هناك مد وجزر. وقع الاتفاق في باريس، كانت هناك مراكش، بدأنا... ثم جاء ترامب في إطار هذه الصراعات. أعتقد أن توجه الاقتصاد الأخضر، وأنا متفائل، سيتغلب في آخر المطاف، وسيخلق أداة جديدة للنمو. ولن يظل النمو مرتبطاً بالأساس بالبترول ولا حتى بالمعادن، ولكنه سيرتبط بهذه الأشياء الجديدة المتعلقة بالرقمية. هل تعطينا الصين أملاً في الصعود ؟ نعم، بلا شك. لماذا ؟ لأنها حتى سنة 1980 كانت تعاني ركوداً اقتصادياً كان أحد تبعات توحيد النظام السياسي الصيني على يد ماو تسي تونغ. من الناحية الاقتصادية، كانت الصين في ذلك التاريخ دولة خارج التغطية تماماً كما هي روسيا اليوم دولة خارج التغطية : قوى جيوسياسية ضعيفة اقتصادياً. الصين، هذا النهوض الذي تعرفه، وليست وحدها بل مع بلدان آسيوية أخرى، الهند والفيتنام بالإضافة إلى ماليزيا وإندونيسيا، وهما بلدان مسلمين.

هذا يعطي أملا لأنه في السبعينات، وكنا مناخلين، كنا نعتبر أن العالم الثالث انتهى. أو نعتبر وفق نظرية المركز والمحيط، بأن العالم الثالث يسير نحو الثورة (فيديل كاسترو)، وأن تلك الثورة ستؤدي إلى زوال الرأسمالية. وعندما جاءت الصين بهذا الشكل، أعطت أملا لبلدان أخرى، ونحن من بينها، بإمكانية التغلب على الجمود، ويقع ما قلته في البداية، وهو اللحاق والانثاق. ما معنى نهوض مجال معين ؟ النهوض هو أن مجالا يكون خارج التغطية وبلا روح أو أمل ليصبح بعد حين مجالا داخل التغطية وبروح متجددة ومفعم أمل كبير. رغم كل ما قلته عن الصين، فهي مازالت تعاني جملة من المشاكل. من هذه المشاكل ارتفاع نسبة التلوث وبعض المشاكل السياسية... ما يستفاد من وضع الصين هي أنه توجد في آسيا اقتصاديات قادرة على المنافسة وخلق الفارق رغم كل شيء.

الكتاب السمعي، مدخل آخر لولوج الأدب

رئيسا الجلسة : إيستير لونمان وتيري كوينكتون
فضاء : القدس
التاريخ : يوم الأحد 21 أكتوبر 2018
الساعة : 09 : 30 - 11 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

يشرف المتدخلان بنفسهما على تسيير هذه المائدة المستديرة التي ناقشت الأنماط الجديدة في صناعة وتوزيع الكتب. ضيفتنا الأولى، الصحافية إيستير لونمان، عضوة في جمعية «La plume de Paon» التي تعنى بالترويج للكتاب السمعي كنمط جديد لم يفرض نفسه بعد في صناعة الطباعة والنشر. ضيفنا الثاني، الأستاذ تيري كوينكتون المهتم من جهته بقضايا الناشرين المستقلين. سبق له أن ترأس التحالف الدولي للناشرين المستقلين مدة عشر سنوات. يقدم الكتاب السمعي والناشر المستقل للقارئ بديلا عن الكتب الورقية الصادرة من دور النشر العالمية المحكومة بهاجس الربح المادي ؛ ويلبيان متطلبات خاصة لكنها مهمة عند زبائن معينين. وقد بين كوينكتون، صاحب التجربة الطويلة في ميدان النشر، كيف كان الناشر المستقلون بأمريكا اللاتينية مهددين سنوات الألفين بالانقراض جراء الضغوطات الكبيرة التي مارسها عليهم دور النشر الإسبانية العملاقة ؛ كما أكد على أن هؤلاء الناشرين يتمتعون بقدر كبير من الجرأة والقدرة على المخاطرة.

في نفس السياق، أكد ضيفنا الكريم أن الناشرين المستقلين يخلقون فرصة للقاء بين الكتاب المهووبين المغمورين والقراء، وبين كيف أن لهم دورا كبيرا في تنوع النصوص وإثراء وتجديد عالم الكتاب، أي تحقيق ما يعرف باسم «تنوع التعبير الثقافي في عالم الكتاب». واعتبر كوينكتون أن الناشرين المستقلين يلعبون في بعض الأحيان دورا ديمقراطيا بتحرير ذواتهم، رغم كل ما يتهددهم من أخطار، خاصة عبر ضغط الحكومات المتسلطة والشركات متعددة الجنسية التي تسهر على إقصاء أي كتب نقدية تعري الواقع وتفضح الممارسات غير اللائقة. وقد عرض المتدخل في هذا الباب مثالا يتعلق بشركة الصناعة الحيوية الزراعية «مونسانتو».



نقطة أخرى تم التطرق إليها هي تأثير القدرة الشرائية الضعيفة عند الطبقات الاجتماعية الهشة على قدرة الولوج إلى اقتناء الكتاب. وقد عرض المتدخل في هذا الباب مثال الكاتبة والشاعرة فيرونيك تادجو والكاتب ليليان تورام. من ناحية أخرى، اعتبر كوينكتون بأن التحالف الدولي للناشرين المستقلين هو نادي تطرح فيه حلول عملية تمكن الكتاب المغمورين من إسماع أصواتهم، كالنشر المشترك وأحيانا النشر المشترك للكتاب على مستوى قارتين أو أكثر. من جهتها، أكدت إيستير لونمان على أن الكتاب السمعي خيار جديد أمام القراء وأنه أصبح جزء مهما من أي عقد نشر يتم توقيعه. وقد بينت أن الأصوات التي تسجل الكتب السمعية تبرز ما في الكتاب من ذكاء وبعد عاطفي وتضيف بعدا آخرًا لجاذبيته. كما قالت أن مستهلكي الكتاب السمعي هم غالبا قراء من الطراز الرفيع يدفعهم شغفهم إلى اكتشاف كتب جديدة ربما لم يكونوا ليقرووها في النسخة الورقية. وبينت أيضا أن سوق الكتاب السمعي تكبر يوما بعد يوم، خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية التي تنتج بمعدلات ضخمة منذ سنوات، ولكن حتى بأوروبا حاليا، خاصة بفرنسا. كما أكدت أن الكتاب السمعي يسعى إلى كسب جمهور جديد قد لا يكون بالضرورة من مستهلكي الكتاب الورقي ويسعى إلى تجديد وإثراء علاقة القارئ بالمقروء.

مداخلات المائدة المستديرة

إيستير لونمان

مرحبا بالجميع : سيجدنا الأستاذ تيري كوينكتون عن الناشرين المستقلين وتحالفهم الدولي. أما أنا فسأحدثكم عن الكتاب السمعي. سيقدم تيري عرضه بإيجاز، ثم سأخذ الكلمة مرة أخرى.

تيري كوينكتون

سأتحدث عن حيثيات تكتل الناشرين المستقلين في هيئة دولية، وسأقربكم من أساليب العمل التي يتبعها هؤلاء الناشر في التنسيق ومواجهة دور النشر الكبيرة بمختلف مناطق العالم.

إيستير لونمان

أنا هنا اليوم كي أتحدث عن الكتاب السمعي. لكن لدي ملاحظة بسيطة قبل البداية هي أنكم كمغاربة تتوفرون على إرث أدبي شفهي كبير جدا تتعاملون معه يوميا كما يحدث في الساحات العمومية الفلكلورية : مما يعني أنكم متصلون بالموضوع بشكل من الأشكال. هذه فقط ملاحظة سريعة أردت أن أبدأ بها. تبدأ قصة الكتاب السمعي من الولايات المتحدة الأمريكية سنوات الثلاثينيات. في تلك الفترة، أصبحت الكتب الورقية تباع مرفقة بنسخة مقروء بصوت عالي. وفي الواقع، من الصعب وضع تعريف دقيق للكتاب السمعي، لأنه ببساطة قراءة مسجلة لكتاب معين. لكن بشكل عام، يمكننا القول إن الكتاب السمعي قد يكون مسجلا على شريط أو قرص مضغوط. لكن في ظل ثورة الهواتف الذكية والإنترنت أصبح الكتاب السمعي أيضا محتوى يمكن تحميله. وفي الحقيقة، الغالبية العظمى من مستهلكي الكتاب السمعي يفضلون استعمال هواتفهم الذكية. إنتاج كتاب مسموع جيد يتطلب مراعاة مجموعة من الاعتبارات. مثلا، بعض النصوص تتضمن العبارات المكتوبة بخط الأرابيسك، تتطلب من المؤدي إحساسا مرهفا بنسق الجملة وروحها. وميزة القراءة المسجلة بصوت عالي هي أنك أنت كمستمع لست مضطرا للتمحيص في كل كلمة من كلمات النص كي تتذوق حلاوته وتفهم عميق معانيه، لأن صوت المؤدي يقربك لك الصور والمعاني ويجعلك تعيش الأحداث. وبلا شك، النجاح في هذه المهمة أمر صعب للغاية لأن الكتاب السمعي هو في آخر المطاف أداء وتأويل صوتي معين لنص معين سيستمع له جمهور معين. وبالتالي، فنجاح مشروع أي كتاب مسموع يعتمد على جودة النص والقارئ وكذا جودة الإنتاج. ولقد عرفت الكتب الرقمية راجا كبيرا جدا وحققت مبيعات قياسية في السنوات الأخيرة، خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وألمانيا وفرنسا حيث أصبحت مكونا مهما في صناعة الكتب. لكن هذا المنحى التصاعدي بدأ يعرف بعض التراجع في الفترة الأخيرة. وعلى عكس الكتب الرقمية، أصبحت سوق الكتب السمعية تتطور بسرعة كبيرة.

نقطة أخرى أريد التطرق إليها بإيجاز لأنها تقنية في المقام الأول تتعلق بالجمهور المستهدف. وعادة، عندما نتكلم عن الكتب السمعية، يقول البعض إنها كتب مخصصة لمن هم غير قادرين على القراءة من مختلف الفئات. لكن هذا غير صحيح تماما. وإذا سمحتم لي، أريد أن أستعين في شرح فكرتي هنا بقصة واقعية قصيرة أحبها جدا. بطل هذه القصة هو رجل بريطاني كان ينتج الكتب السمعية في البدايات الأولى لهذه الصناعة. كان هذا المنتج دائما يحكي الطرائف والمستلحاحات في الحفلات والسهرات واللقاءات. وعندما يسأله أحدهم : ماذا تفعل ؟ يجيب : أنتج الكتب السمعية. فيقول محاوره : أه، أنت إذا تنتج كتباً مسموعة للعلمي ؟ وعندما يسأل هو محاوره : وأنت، أخبرني ماذا تفعل ؟ يجيبه محاوره : أنا أعمل ناشرا. فيستوضحه : أه، أنت إذا تنتج كتباً ورقية ؟ نعم هو كذلك، يقول الرجل الآخر : فيعلق صديقنا قائلاً : أنت إذا تنتج كتباً للصم.

أعتقد أن هذه القصة القصيرة تفصح عن كل شيء وتعطيني من أي تفاصيل إضافية. يمكن للمرء أن يقرأ الكتب ويستمتع إليها حسب ظروفه وانشغالاته. وعلى سبيل المثال، عادة تستمع للراديو أو الموسيقى بينما تقود سيارتك مسافة خمسين كيلومترا أو أكثر ؛ لكن اليوم يمكنك أيضا أن تستمع لذلك الكتاب الذي تتمنى قراءته منذ سنوات دون أن تتمكن من ذلك. شخصيا، ذهبت هذا الصيف في سفر طويل، فانتهزت الفرصة واستمعت إلى جزء من كتاب لطالما تمنيت أن تتاح لي فرصة السفر في عوالمه هو «البحث عن الزمن المفقود» للروائي الفرنسي مارسيل بروست. والجميل في الأمر هو أنك تجلس مرتاحا داخل سيارتك بينما يحكي لك صوت عذب تستحليه أذنك حكاية ذلك الكتاب الذي لم تسعفك في قراءته ظروف العمل أو ما شابه ذلك. وبلا شك، ستعيش تجربة مختلفة عن تلك التي كنت ستعيشها لو قرأت الكتاب بنفسك. كيف ؟ عندما تقرأ الكتاب الورقي، يمكنك أن تقفز على بعض المقاطع والجميل التي ربما تسبب لك الضجر أو الإزعاج مثلا. لكن، عندما تستمع للكتاب فأنت مضطرا نوعا ما إلى تتبع كل فقرات وأحداث النص.

في الواقع، يتفاعل الأطفال مع الكتب السمعية أفضل من غيرهم لأنهم معتادون على سماع القصص التي تحكيها عادة الجدة أو الأم أو الأب. وأنا أؤمن أن هذه الكتب وسيلة ناجعة في تعلم الفرنسية أو العربية أو الإنجليزية... كلغة ثانية. إذ يمكن لأساتذة اللغة المراد تعلمها منح طلبتهم فرصة الاستمتاع والتعلم من خلال كتب مسموعة. وهي أيضا مساعدة لبعض الشباب الذي قد ينظر للكتاب الورقي كجمرة بين يديه. يكفي أن تحمل لإبنيك على هاتفه كتابا مسموعا عن شيء يعشقه كي تراه مسافرا في معاني الجمل والعبارات على نحو لم تألفه أبدا، لا أنت ولا هو.

بالتالي، فالكتاب السمعي وسيلة جديدة كفيفة بأن تحبب لنا القراءة والكتب. والملاحظ هو أن من يقبلون على شراء الكتاب السمعي يكونون قراء نهمين يقرؤون الكتب الورقية ولكنهم يستمتعون أيضا بالكتاب السمعي. والمبدأ العام عند هذا النوع من القراء هو أنهم يستمعون للكتب بالأذن بدل قراءتها بالعين ؛ أي أنهم يغيرون أداة القراءة فقط. وبالأرقام، يصدر بالولايات المتحدة الأمريكية، أكبر سوق للكتب السمعية في العالم، حوالي خمسين ألف كتاب مسموع جديد سنويا. حاليا بفرنسا، لا تصدر سوى بضع مئات من الكتب السمعية، لكن القطاع يتطور. وفي الختام، أتمنى أن يكون الكتاب السمعي حاضرا في المعرض المغاربي للكتاب بوجدة السنة القادمة.

تيري كوينكتون

شكرا إستير ؛ يمكن أن نأخذ بعض الأسئلة الآن.

مداخلة

هل توجد استثمارات أو وثيقة مشابهة يجب ملؤها قصد الانخراط في مؤسسة توفر الكتب السمعية ؟ وهل تتوفر حاليا مكتبات للكتب السمعية يمكن الولوج إليها ؟

إيستير لونمان

في الحقيقة، الأمر يعتمد على البلد حيث يقيم المرء. في فرنسا مثلا، توجد كتب مسموعة في غالبية المكتبات. وإذا لم تتوفر هذه الإمكانيات في بلد ما، يمكن الاستعانة بمنصات مثل «أمازون». وكما أضعكم في الصورة، هناك نموذجان اقتصاديان عندما يتعلق الأمر بالكتب السمعية. في النموذج التقليدي، ينتج الناشرون كتب مسموعة على أقراص مضغوطة أو يضعونها على منصات حيث يمكن تحميلها بمقابل كالمنصة المستقلة «Book d'Oreille». أما في النموذج الجديد، فتوجد منصات مثل «Amazon Audible» التابعة لشركة «أمازون» يمكنك الانخراط فيها بعشرة أورو على ما أعتقد والاستفادة من كتابين أو ثلاثة. وبطبيعة الحال، الكتب المعروضة بالملايين.

مداخلة

الكتاب السمعي هو بشكل من الأشكال قراءة للنص المكتوب. ومن هنا سؤال، هل يُحول الكتاب الورقي إلى كتاب مسموع بموافقة الكاتب أم لا ؟



إيستير لونمان

نعم ؛ بطبيعة الحال. وسواء أحببنا أم كرهنا، الكتاب السمعي هو أداء وتأويل صوتي لنص معين، تماما كما يحدث في المسرح. وبلا شك، نحن نفعل ذلك بموافقة الكاتب. نحن هنا نتحدث عن نوع جديد من حقوق النشر والطبع يمكن تسميته حق الملكية البصرية، أي أن الكاتب اليوم عندما يبيع نصا جديدا لإحدى دور النشر فهذه الأخيرة تفاوضه حتى بخصوص الحقوق السمعية البصرية. أكثر من ذلك، يحتم الواجب الأخلاقي على الناشر إخبار الكاتب باسم القارئ الذي سيؤدي نصه شفويا، على أن له الحق في المطالبة بتغييره إذا لم يعجبه. لكنني لم أسمع يوما أن كاتباً ما كره صوت القارئ لأحد كتبه ؛ لكنه أمر ممكن بلا شك. وبعض الكتاب يفضلون قراءة كتبهم بأنفسهم كالروائي ألبرت كامى الذي له تسجيل قديم لروايته «الغريب». لكن عدد هؤلاء قليل، لأن الأداء الصوتي في الكتب السمعية فن في حد ذاته. ومن القواعد الذهبية التي نعلمها للمهتمين بالأداء الصوتي هي أن علامات الترقيم مقدسة. لكن في بعض الأحيان يصعب تطبيق هذه القاعدة لأن بعض الكتاب لا ينتجون دائما نصوص مناسبة للتسجيل : أي أن بعض النصوص عندما تقرأ بصوت عال تصبح صعبة على المؤدي والمستمع أيضا، لأنها تقتصر إلى موسيقى تشد الأذن. القاعدة بشكل عام هي وجوب احترام علامات الترقيم، لكننا أحيانا نصادف مقاطع تضطربنا إلى التعامل معها بمعرفتنا كي ننتج نص بمعنى يروق للمستمع. وهنا بالطبع نتكلم عن موهبة المؤدي وحسه المرهف وحرية في اتخاذ القرار المناسب. هذا يعنى أن جودة القراءة في الكتب السمعية عامل مهم جدا. وبهذا المعنى، يصبح الكتاب السمعي ثمرة تعاون بين الكاتب والمؤدي الصوتي. وإذا نجحت العملية، فذلك يضيف أبعادا أخرى إلى الكتاب الأصلي. لكن في المقابل، قد تستمع إلى كتاب معين بأداء صوتي لا يعجبك ويفسد عليك متعتك فتكون النتيجة غالبا هي عودتك إلى الكتاب الورقي.

تيري كوينكتون

سنتحول مباشرة إلى الحديث عن الناشرين المستقلين. أولا، النشر هو إصدار وطبع وتوزيع الكتب أو المجلات والصحف، ويتدخل فيه مجموعة من الفاعلين. وفي الوقت الحالي، دول قليلة فقط هي التي تقرر ما يمكن وما لا يمكن نشره. وفي فترة ما، كانت المؤسسة الدينية هي من يقرر.

عاشت أوروبا هذا الوضع مدة طويلة من الزمن، حيث كان ضروريا الحصول على رخصة طبع من الكنيسة الكاثوليكية. وفي الواقع، مازال هذا الأمر صحيحا في بعض البلدان كالعربية السعودية حيث تمارس السلطات رقابة صارمة جدا على كل النصوص المنشورة. وفي بلدان أخرى أو فترات أخرى كانت الجامعة هي من يقرر أي النصوص التي يجب نشرها. عرفت المطابع الجامعية في تلك الفترة تطورا كبيرا، وأصبحت الكتب الصادرة عنها تتمتع بنوع من السلطة الأدبية حتى قبل وصولها إلى رفوف المكتبات. لكن هل هذا يعني أن كل ما في هذه الكتب صحيح بالضرورة ؟ بطبيعة الحال الجواب هو لا.

يعتبر النشر التجاري أكثر أنواع النشر دينامية ورواجا. والحديث عن هذا النوع من النشر سيقودني للحديث عن الناشر المستقل. عموما، يمكننا التمييز بين أسلوبين اثنين في قطاع النشر التجاري : إما شركات النشر والطبع الكبرى مثل «هاشيت» بفرنسا و«بيرتلسمان» بألمانيا أو دور النشر المستقلة. في الواقع، لا تمثل أرباح هذه الشركات الكبرى من مبيعات الكتب نسبة كبيرة من مجموع مداخيلها. وعلى سبيل المثال، وزعت شركة «هاشيت» السنة الماضية مائتان وستون مليون أورو من الأرباح على مساهمين برقم معاملات في حدود ثلاثة مليار. لم تحقق الشركة هذه الأرباح الكبيرة من مبيعات الكتب، بل حققتها أساسا من عمليات إعادة بيع وشراء دور النشر التي في محفظتها الاستثمارية. وقد نجحت هذه الشركات، بدعم من صناديق استثمارية كبيرة، في السيطرة على صناعة الطباعة والنشر العالمية. مثلا، تعمل «هاشيت»، أحد إخطبوطات هذه الصناعة، على توسيع وتنويع محفظتها الاستثمارية بشراء مجموعة من دور النشر المستقلة. رغم الظروف الصعبة، مازال قطاع النشر المستقل يقاوم ويفرض وجوده أمام هذه الشركات الكبرى. لقد نشأ هذا القطاع ومازال مستمرا بفضل الشغف الكبير والرغبة الجامحة في تحقيق تنوع ثقافي حقيقي.

يشغل الناشرون المستقلون، الذين يلعبون دورا مهما للغاية في صناعة الطباعة والنشر، وفق أساليب تختلف من ناشر إلى آخر حسب البلد والبيئة السوسيو-اقتصادية والسياسي. وفي الحقيقة، يختلف الناشرون المستقلون حتى على مستوى الطبيعة القانونية لمؤسساتهم ومواردها وأهدافها. وقد نجح الناشرون المستقلون في تحقيق معادلة صعبة بين التميز على المستوى الفكري والإبداعي من جهة وتحقيق الربح المادي من جهة أخرى. لكن في ظل الهيمنة المتزايدة للشركات الكبرى، سيصبح استمرار هؤلاء الناشرين تحديا صعبا. وإذا كنت اليوم ناشرا مستقلا تنشر الكتب الناطقة بالفارسية في شيكاغو أو برلين، فأنت بلا شك لن تتبنى خطأ تحريري وخطة عمل كذلك التي سيتبناها ناشر مستقل إيراني في طهران. حسب التحالف الدولي للناشرين المستقلين، الناشر المستقل هو من ينشر الإبداع من خلال اختياراته الخلاقة وحريته في التعبير وتحمله مسؤولية النشر والتكاليف المالية ومشاركته الفعالة في نقاش الأفكار والتحرر وتطوير الفكر النقدي. وبهذا المعنى، يكون الناشر المستقل فاعلا رئيسا في «تنوع التعبير الثقافي في عالم الكتاب».

يسعى التحالف الدولي للناشرين المستقلين منذ تأسيسه سنة 2002 إلى المحافظة على هذا التنوع الثقافي. وقد أصبح مع مرور الوقت شبكة تضامنية قوية تمثل، بشكل مباشر أو غير مباشر عبر جمعيات إقليمية ووطنية، حوالي خمسمائة وخمسين دار نشر في اثنين وخمسين بلدا. ويقوم التحالف من خلال اللقاءات الدولية التي ينظمها على الترويج لروح التعاون والعمل الحر في ميدان النشر والتوزيع، خاصة عبر المساهمة في نشر الإنتاجات القادمة من الجنوب والترويج لها. لكن الأمر ليس سهلا أبدا بسبب الصعوبات الكثيرة والضغط التي تمارسها الشركات الكبرى. وهنا أريد أن أحكي لكم قصة دور النشر الإسبانية العملاقة مع الناشرين المستقلين بأمريكا اللاتينية والتي انتهت بتأسيس تحالف بين الناشرين المستقلين. منذ بداية الألفية، حيث سعت هذه الشركات العملاقة وعلى رأسها «كروبو بلانيتا» إلى إحكام قبضتها على سوق الكتب الناطقة بالإسبانية في أمريكا اللاتينية. لكن عدد من الناشرين المستقلين المعروفين بأفكارهم التقدمية القوية وبصلاية مبادئهم رفضوا هذا الهجوم الذي اعتبروه استعمارا جديدا.

فما كان منهم إلا أن نسقوا واتفقوا على الاستمرار في نشاطاتهم كمستقلين رغم الصعاب حتى لا تآتيهم الأوامر من اسبانيا. وبسبب هذه الأحداث بدأ بعض الناشرين المستقلين يتساءلون عن إمكانية تأسيس تحالف يجمع كل دور النشر المستقلة بحيث يحمي بعضها البعض الآخر في مواجهة هذه الشركات الكبرى. وبلا شك، يواجه الناشر المستقلون بالمغرب أو مالي أو بوركينا فاسو... نفس التحديات والمخاوف في علاقة بشركات مثل «هاشيت». وربما من الممكن تأسيس تحالفات وطنية في هذه البلدان يكون هدفها تأكيد مكانة الناشرين المستقلين في صناعة الطباعة والنشر. لا يضم التحالف الدولي كل دور النشر المستقلة في العالم، لأن ذلك سيفقده معناه حسب مؤسسيه. كيف ذلك ؟ قد يتساءل أحدكم. أراد مؤسسو التحالف خلق نادي يأخذ أعضاؤه الوقت الكافي للقاء والتعارف وتكوين صداقات تتقوى مع الوقت إلى أن تصبح شراكات ؛ وهذا أمر ربما يصعب تحقيقه بعدد كبير جدا من الأعضاء. ربما يتساءل بعضكم الآن قائلا : ماذا يفعل هذا التحالف تحديدا ؟ وماذا يفعل الناشرون المنضوون تحته ؟ في الحقيقة، يطلق التحالف مجموعة من المبادرات هدفها ترسيخ التنوع الثقافي بكل بقاع العالم. على سبيل المثال، ينظم التحالف لقاءات مهنية وورشات موضوعاتية تمنح الناشرين المستقلين القادمين من كل القارات فرصة تبادل الأفكار والخبرات والبحث عن شراكات في ميدان النشر المشترك والنشر الرقمي...



بخصوص مساهمات أعضاء التحالف، ففي المغرب مثلا، تساهم دار النشر «الفينك» في مشاريع للنشر المشترك التضامني داخل الفضاء الفرنكوفوني (المغرب الكبير وإفريقيا السوداء). أعطى بعض الناشر الفرنسيون الأولوية للكتاب الأفارقة مثل فيرونك تادجو. لكن مشكلة الكتب الصادرة عن دور النشر الأوروبية هي أنها تباع في الأسواق الإفريقية بأسعار مرتفعة لا تناسب القدرة الشرائية عند غالبية القراء بسبب تكاليف النقل والحقوق والضرائب. مثال سريع يتعلق بمؤلف رائع للكاتبة الإفوارية فيرونك تادجو صدر عن دار النشر الفرنسية Actes Sud ؛ الذي بلغ سعره بالمغرب مائة درهم، أما بمالي فقد بلغ سعره اثنين وعشرين أورو، هذا رقم يكاد يعادل متوسط الدخل الشهري المحلي هناك. في هذا الصدد، عبرت الكاتبة عن استيائها وقالت إنها تكتب لإفريقيا، لكن كتبها تباع بأسعار لا تراعي الواقع الاقتصادي داخل هذه القارة. السبب الرئيس في هذا الوضع غير الصحي هو دور النشر الغربية التي لا يهتمها سوى الربح المادي ؛ وبطبيعة الحال، لا يمكننا لومها على ذلك. وقد لاحظنا أن أهم ما يحدد تكلفة الكتب هو عدد النسخ الصادرة في كل طبعة : كلما كان عدد النسخ قليلا، ترتفع تكلفة الكتاب. وعليه، قررنا من داخل التحالف الدولي إطلاق مبادرة للنشر المشترك الهدف منها إيصال كتاب فيرونك تادجو إلى الأسواق الإفريقية بأسعار تراعي القدرة الشرائية داخل كل بلد. وهذه سياسة متحررة من الهاجس التجاري الصرف.

مضمون العملية هو أن المؤسسة التي تملك حقوق النشر لا تدفع من مجموع التكلفة إلا ما كانت ستدفعه في حال أنتجت الكتاب بمفردها. وهذا يعني أننا لا نطلب من هذه المؤسسة أن تكون سخية، ويعني أيضا أن كل الأرباح الناجمة عن قرار رفع عدد النسخ المطبوعة (دار الناشر التي يتعاون معها التحالف لا تستفيد من هذه الأرباح الناجمة عن زيادة عدد النسخ المطبوعة والتي ما كانت لتحقيقها ولو أنتجت الكتاب بمفردها) تُضخ في مشاريع مماثلة يستفيد منها سوق الكتاب بالمغرب الكبير وإفريقيا السوداء. وقد نجح الناشرون المستقلون بفضل هذه السياسة في تزويد السوق المغربي مثلا بكتب أسعارها معقولة؛ ربما يختلف السعر من الجزائر إلى المغرب أو تونس، غير أنه يبقى في متناول المستهلك. لكن للأسف، حتى هذه الأسعار غير مقبولة في بلدان إفريقيا السوداء. ولعل هذه في الشروط والأهداف هي التي ساهمت في ظهور النشر المشترك الذي أصبح يشكل أحد أبرز اهتمامات التحالف الدولي في الفضاء الفرنكوفوني.

كما يمكن أن أقدم مثال آخر على أنشطة التحالف في السوق الأنجلوساكسونية التي تعج بالناشرين المستقلين المنخرطين للغاية في قضايا البيئة وقضايا المرأة. عندما أردنا نشر الكتاب الرائع «العالم حسب مونسانتو» للصحافية الفرنسية ماري مونيك روبن، أبدى ناشرون كثر استعدادهم للمشاركة في هذا المشروع. وقد خلق هذا الكتاب بلا شك صدام رأس حاد لشركة مونسانتو التي تعتبر أحد أكبر الملوئين في العالم بسبب نشاطاتها في ميدان التكنولوجيا الحيوية الزراعية كإنتاج الأسمدة والمبيدات الحشرية الأكثر سما. في العادة، نشترى حقوق الكتاب ثم نترجمه إذا اقتضى الأمر ذلك ثم ننشره، لكن عندما قررنا نشر هذا الكتاب واجهنا مشاكل كثيرة خارجة عن المؤلف، بسبب شركة مونسانتو التي نجحت في تخويف بعض الناشرين. ومن ذلك أن دار الناشر الأمريكية «The New Press» المعروفة بخطها التحريري الحذر جدا قررت أخذ استشارة قانونية كي تعرف ما إذا كانت الشركة سترفع عليها دعوى قضائية بعد نشر الكتاب تطالبها فيها بتعويضات قدرها عشرون مليون دولار قد تزج بها في ضائقة مالية صعبة جدا. بلا شك هذا خطر قانوني مهم للغاية، إذ لا يجب إغفاله أبدا. نفس هذا التخوف عبرت عنه دور النشر الأسترالية، لكنها في نهاية المطاف قالت إن بمقدورها، بناء على الوضع السياسي القائم بأستراليا حينها، الحصول على دعم المجتمع المدني الكفيل بإحراج الشركة ومنعها من رفع أي دعوى قضائية.

بناء على كل ما ذكرت، نلاحظ أن ميادين نضال التحالف وأنشطته تختلف من بلد إلى بلد بحسب الإشكالات المطروحة والأهداف المراد تحقيقها. وفي حالة هذا الكتاب، عمل الناشرون المشاركون على تقادي ما يمكن تقاديه من مصاريف، كإنتاج ترجمة واحدة بتكلفة واحدة لكل الأسواق الأنجلوساكسونية بدل إنتاج ترجمة للسوق الأمريكية لوحدها ثم ترجمة للسوق الأسترالية لوحدها ثم ترجمة ثالثة للسوق الجنوب إفريقية أو البريطانية لوحدها أيضا. وربما لاحظتهم أن الناشرين المستقلين في السوق الأنجلوساكسونية يمسكون بزمam الأمور ويسيرونها بشؤونهم بفعالية أكبر من تلك التي نسجلها عند الناشرين المستقلين في السوق الفرنكوفونية. في الختام، ألخص كل ما أتيت على ذكره بالقول إن الهدف من تأسيس التحالف الدولي للناشرين المستقلين هو تمكين المهنيين من اللقاء والتواصل، أما ما يأتي بعد ذلك فهو متعلق أساسا بقدرة هؤلاء المهنيين على خلق شراكات وإطلاق مشاريع حقيقية.

مداخلة

من يملك حقوق التأليف في مشاريع النشر المشترك ؟

تيري كوينكتون

في الحقيقة لا فرق بين عقد النشر المشترك وأي عقد نشر عادي فيما يخص حقوق الملكية الفكرية. والأمم معتمد على اختيار المؤلف. مثلا، اختارت الكاتبة الإفوارية فيرونيك تادجو التنازل عن تعويضات حقوق المؤلف في القارة الإفريقية.

بالمناسبة، إذا كنت من عشاق كرة القدم، فلا بد لك أن تعرف أن هناك لاعبين لم يكتفوا بالتميز فوق المستطيل الأخضر، بل تميزوا أيضا بكتابة نصوص جميلة على الورق الأبيض. ومن أبرز هؤلاء اللاعب الدولي الفرنسي الأسبق ليليان تورام، الذي يسعى في كتاباته إلى فضح ومواجهة كل أشكال العنصرية في المجتمع. وقد كتب تورام في هذا الشأن كتابا رائعا بعنوان «نجومي السوداء» يقول فيه إن الكتب لا تحدثه إلا عن إنشائين أو الملوك : في حين أنه كإنسان أسود يحتاج أن يجد كتباً تحدثه عن نجوم وأشخاص فيهم شيء منه. ولقد حقق هذا الكتاب نجاحا كبيرا بفرنسا، لكن تورام أراد أن يجده على رفوف مكتبات إفريقيا أيضا. في الواقع، كان بمقدور تورام، بفضل مكانته وعلاقاته القوية، أن يصدر كتابه من دار النشر «هاشيت» التي كانت ستقدم له شيكا في الحال. لكن الرجل الذكي لم يفعل ذلك ؛ بل فضل التعامل مع دار نشر في دولة غينيا كوناكري ودار نشر أخرى في المغرب. أكثر من ذلك، تنازل تورام عن كل مستحقاته من حقوق المؤلف وقبّل دون تردد القيام شخصيا بالحملة الترويجية للكتاب. ولكم أن تتخيلوا فرحة أي دار نشر يقود حملتها الترويجية بطل كرة عالمي فاز بكأس العالم لأن النتيجة بطبيعة الحال هي تحقيق أرباح ضخمة. خلاصة القول، هي أن كل كاتب له موقفه الخاص. لكن بشكل عام، يبقى احترام حقوق المؤلف أمرا مهما جدا في صناعة الطباعة والنشر.

مداخلة

كيف يتم تسبير التحالف ؟ وما هي موارده المالية ؟ وهل لك أن تقدم تقييما لمستوى مساهمة الناشرين المستقلين المغاربة فيه ؟

تيري كوينكتون

حدثتكم في مداخلتني عن الناشرين المستقلين في سوق أمريكا اللاتينية ومعاوناتهم مع دور النشر الإسبانية العملاقة التي أرادت السيطرة على تلك السوق وكيف أن هذا الوضع هو الذي قاد في نهاية المطاف إلى تأسيس التحالف. في البداية، وجدنا أنفسنا أمام خيارين اثنين. وقد كان الخيار الأول هو تأسيس منظمة غير حكومية تابعة لإحدى المنظمات الدولية المعروفة. لكن، كنا سنضطر حينها إلى هدر نسبة كبيرة من الأموال القليلة التي تمكنها من تعبئتها فقط في التحضير لاجتماعات تشاورية بين الناشرين المنتمين إلى مختلف دول العالم دون تحقيق أي خطوة مهمة إلى الأمام في مسار تأسيس التحالف. أما الخيار الثاني فقد كان هو تأسيس جمعية فرنسية وفق القانون 1901 الذي ينص على حق الجمعيات الفرنسية في تلقي الدعم، بما في ذلك الدعم العمومي.

في الحقيقة، هذه الجمعية الفرنسية التي كنت رئيسها مدة عشر سنوات لا تحدد كيفية الاشتغال، فقد وُضع نظام ينص على اجتماع الحلفاء كل ثلاث سنوات. وفعلا، اجتمع هؤلاء الحلفاء بديكار سنة 2003 ، ثم بباريس سنة 2009 ؛ وقد اشتغلت كثيرا في التحضير لهذا الاجتماع، لأننا استقبلنا مئات الناشرين القادمين من بلدان كثيرة كاستراليا والهند وتونس والجزائر والمغرب. لكننا لم ننجح في عقد الاجتماع الموالي بجنوب إفريقيا سنة 2015. وبعد مدة لاحظنا أن النظام الموضوع بدأ يفقد قوته. لأنه من الصعب تحقيق نتائج جيدة إذا أصبحنا نعقد اجتماعا واحدا كل سبع سنوات. وكل هذا المشكل، تقرر سنة 2010 تأسيس لجنة دولية من الناشرين المستقلين تجتمع مرة كل سنة بباريس أياما قليلة قبل معرض فرانكفورت للكتاب قصد تفادي مصاريف السفر ومشاقه بالنسبة لأعضاء اللجنة. وتتركب هذه اللجنة من منسقي مختلف التشكيلات اللغوية. وفي الحقيقة، يشكل اجتماع اللجنة الدولية للناشرين المستقلين فرصة للتداول في أنشطة الحلفاء ومشاريعهم الاستراتيجية في مختلف الأسواق والتأكد من أن الحكامة حاضرة باستمرار في طريقة تسبير الجمعية. وبالتالي، أصبحنا نتحدث عن اجتماع سنوي مهم جدا على مستوى توجهات واختيارات التحالف، لأنه يمكن من دراسة القرارات المتخذة وأثرها على التحالف وإيجاد الحلول.

مداخلة

هل يحق للكتبي أن يبيع كتابا ما بسعر يفوق السعر المحدد فوق الغلاف ؟ لأنني تعرضت لهذا الموقف ولم أعرف كيف أرد.

تيري كوينكتون

بالنسبة للمغرب، أنا بصراحة لا أعرف كيف تسير الأمور هنا. أما في أوروبا فيمكنني القول إن السلطات تشن حرب على مثل هذه الممارسات. لا بد أن تجد قانونا خاصا بالكتاب ينظم مثل هذه المسائل، وحتى إن لم تجد قانونا كهذا فإنك ستجد ميثاق شرف قويا يُجمع عليه كل مهنيي القطاع كما هو الحال في ألمانيا. أما بخصوص مبدأ توحيد سعر الكتاب، فالمراد منه التأكيد على أن السعر يحدده منتج الكتاب وأنه لا حق للكتبي في رفعه أو تخفيضه. وبالتالي فهو ملزم ببيع الكتاب بالسعر المحدد من طرف المنتج. وفي الحقيقة، هذا توجه عام في كل القارات وليس في أوروبا فقط. على سبيل المثال، قامت دولة التشيلي وعدد من بلدان أمريكا اللاتينية بالمصادقة على قوانين حول سعر الكتاب الموحد. وهذا أمر أجده مثيرا للغاية، لأن هذا النوع من القوانين يضبط سوق الكتاب في تلك البلدان بشكل كبير جدا. لا أدري هل بيننا هنا أي خبراء اقتصاديين، لكن أحب أن أثيرهم بالقول إن صناعة الكتب صناعة رائعة لأنها تابعة للقطاع الخاص مائة في المائة وهذا يعني الكثير من الصفقات ولكن أيضا لأن سعر منتجها لا تتحكم فيه تقلبات السوق. هذا الكلام يضرب قوانين عديدة في علم الاقتصاد ويحير الاقتصاديين. وفي رأيي، سياسة الثمن الموحد سياسة فعالة، رغم أن الدول الانجلوساكسونية لا تطبقها.

مؤتمر جامعة محمد الأول بوجدة

رئيس الجلسة : جمال حدادي
المشاركون : انتصار حدية، محمد بو عبد الله، رشيد التوزاني، إدريس الفاخوري،
يحيى حلوي، عبد الله إدريسي
فضاء : السلام
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 11 : 00 - 09 : 30



موجز مداخلات المائدة المستديرة

تسعى هذه الجلسة إلى تثمين منشورات أساتذة جامعة محمد الأول بوجدة في مختلف التخصصات، مما يؤكد توفر هذه المؤسسة على كفاءات متنوعة تشمل عدة مجالات تميز فيها الأساتذة من خلال نشر مؤلفات قيمة. ولعل الهدف من خلال هذه الجلسة يتجلى في الإشارة إلى بعض أوجه هذا التميز وليس الإحاطة بها كلها. نفتتح هذه الجلسة مع السيدة انتصار حدية، أستاذة في كلية الطب والصيدلة، وهي كذلك أخصائية أمراض الكلى في المستشفى الجامعي بوجدة. قامت بنشر قصص قصيرة باللغة الإنجليزية ثم رواية بالفرنسية بعنوان «إذا وهبنا الله الحياة» سيرا على منوال بعض الكتاب-الأطباء الذين بلغت شهرة بعضهم الآفاق. تجمع الكاتبة بين الأدب والعلاج من خلال تطوير مفهوم «العلاج بالقراءة» والذي صار يستخدم بالفعل في مناطق كثيرة من العالم.

في سياق متصل تشرح الكاتبة كيف أن مؤلفاتها هي أيضا فرصة للترافع والدفاع عن قضايا لها صلة وثيقة بالنفع العام، من قبيل التبرع بالأعضاء. أما الأستاذ محمد بوعبد الله، فهو عالم معروف في قسم الجيولوجيا في نفس الجامعة. شارك في إصدار مؤلف سنة 2016 تحت عنوان «احتياطات المعادن في شمال إفريقيا» ؛ حيث أن المؤلف يتيح لكل من العلماء والمهنيين الاطلاع على كل ما يمكن معرفته عن الموارد المعدنية في شمال إفريقيا. ولأنه كتب باللغة الإنجليزية، فقد تيسر توزيعه على الصعيد الدولي، ويعتبر الكتاب مهما للغاية، خاصة بالنسبة لشركات المناجم المغربية. وبما أن جهة الشرق، معروفة منذ زمن بعيد بثرواتها المعدنية فإنها، تحتل مكانة بارزة داخل فصول هذا الكتاب.



من جهته، قدم الأستاذ رشيد التوزاني مؤلفان اعتمد في صياغتهما على مجموعة من الأبحاث الجامعية : الأول، تحت عنوان «الكيمياء التشاكلية»، ويندرج في إطار التعريف بفوائد الكيمياء الخضراء ؛ أما الثاني فقد ركز أكثر على الفرص التي تتيحها الحياة اليومية، في إطار منطق مختبر الكيمياء التطبيقية والبيئة الجامعية وذلك في إطار التعاون مع جامعة رين الفرنسية.

يختتم الأستاذ إدريس الفاخوري، من كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية في وجدة، هذه العروض بتقديم مجموعة كبيرة من المنشورات المتعلقة بمواضيع متنوعة تناولها بالبحث والتحليل خلال مسيرته المهنية الطويلة. وتعتبر المحاضرات التي نشرها السلسلة الأولى من كتبه إذ تغطي موضوعاتها جميع جوانب القانون تقريبا. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فلقد صار مؤلفه المخصص لنظام التحفيظ العقاري، مرجعا أساسيا في الموضوع. كما أن الندوات العلمية شكلت أيضا مصدرا من مصادر النشر بالنسبة للأستاذ إدريس الفاخوري. ومن خلال هذه الرحلة عبر بعض التخصصات، نقف عند غنى وثراء الإنتاج الفكري لجامعة محمد الأول بوجدة، حيث أن وفرة المنشورات وجودتها تعتبر بلا شك قيمة مضافة أساسية لصورة هذه المؤسسة الجامعية.

مداخلات المائدة المستديرة

تقديم / الطالب

باسم جامعة محمد الأول وكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بوجدة، نرحب بكم في هذه الجلسة الفكرية. كما نشكر الأساتذات والأساتذة الكرام المتدخلين والضيوف المميزين كل باسمه وصفته. إنه لمن دواعي الفخر والاعتزاز أن تشارك جامعة محمد الأول في النسخة الثانية من المعرض المغربي للكتاب بأجود وخيرة أساتذتها، ولعل أكبر مثال على العطاء والجود والكرم في المجال العلمي هو الدكتورة انتصار حدية، أستاذة بكلية الطب والصيدة بوجدة. وهنا نشكر منظمي المعرض نيابة عن عمداء الكليات الثمانية بجامعة محمد الأول. نستقبل الحضور الكرام كل باسمه وصفته وأجدد الترحاب وشكرا.

مداخلة

تحت الرعاية السامية لجلالة الملك محمد السادس نصره الله وفي إطار الدورة الثانية للمعرض المغربي للكتاب، تنظم جامعة محمد الأول حفل تقديم إصدارات بعض أساتذتها الباحثين قصد اطلاع الجمهور الكريم على مشاركتها في النشر الأكاديمي العلمي. كتذكير، تحتل جامعة محمد الأول الرتبة الأولى في مجال الكيمياء وطنيا ؛ وهي من أفضل مائتي جامعة عربية وإفريقية. وقد وصلتنا مؤخرا أخبار سارة مفادها دخول مجلة علمية مختصة في الكيمياء تصدرها جامعة محمد الأول في قاعدة بيانات المجالات علمية الدولية. وحضور السيد رئيس الجامعة معنا اليوم تشجيع منه لهذه الجهود العلمية. للجامعة أدوار عديدة ؛ فبالإضافة إلى التكوين والبحث العلمي والابتكار والتجديد تهتم الجامعة بالنشر العلمي والأكاديمي الذي يساهم في إشعاعها العلمي ويمكنها من الاضطلاع بأدوارها ويرفع مكانة ممثليها على الصعيد الوطني والدولي. أرحب بالحضور الكريم مرة أخرى وأتمنى لكم أمسية طيبة.

الطالبة

من هي الدكتورة انتصار حدية ؟ إنها امرأة متعددة المواهب والاهتمامات : فهي أستاذة بكلية الطب والصيدة بوجدة، وطبيبة أخصائية في أمراض الكلى وتصفية الدم وزرع الكلى بالمستشفى الجامعي بوجدة وفاعلة جموعية وكاتبة عامة لجمعية مساعدة مرضى القصور الكلوي بمدينة وجدة وأيضا كاتبة أدبية أصدرت مجموعات قصصية بين 1999 و2005 باللغة الانجليزية، وروايتين باللغة الفرنسية لاحقا. اليوم، ستقدم لنا الأستاذة روايتها الأخيرة «إذا وهبنا الله الحياة». تفضلني أستاذة.

انتصار حدية

شكرا على هذا التقديم الرائع ؛ السيد رئيس جامعة محمد الأول بوجدة ؛ السيد الكاتب العام بولاية جهة الشرق ؛ الزميلات والزملاء الأساتذة. أنا مسرورة وفخورة بالمشاركة في تظاهرة بحجم وروعة المعرض المغربي للكتاب، الذي عرف كيف يجدد نفسه ويأتينا في حلة جديدة ونسخة أفضل مقارنة بدورته الأولى التي كانت ناجحة دون شك. بهذه المناسبة، أشكر المنظمين على الدعوة الكريمة التي وجهت لي ولأساتذة جامعة محمد الأول بوجدة لمناقشة مجموعة من المواضيع، كموضوع الأدب العلاجي الذي سأحدث فيه لارتباطه بروايتي «إذا وهبنا الله الحياة» الصادرة سنة 2016 والتي لاقت استحسانا لدى القارئ. الحديث في موضوع الأدب العلاجي يفترض الحديث أولا في بعض النقاط التمهيدية المهمة ذات الصلة والتي تمت مناقشتها مرارا من قبل. هل من فائدة في الأدب ؟ وما الذي يحفز فينا عزيمة الكتابة والقراءة أو يثبتهما ؟ عندما نطرح هذا النوع من الأسئلة، فنحن نساأل أنفسنا حول ركيكة من ركائز الحضارة الإنسانية.

هذا لأن النص والكتابة، شعرا ونثرا، والأدب بشكل عام، له أهمية قصوى وقوة جبارة لا ينكرها أحد كحافظ للذاكرة الجماعية. الكتابة شهادة على تطور فكر الإنسان ومعتقداته واكتشافاته وأخطائه ورؤيته للعالم وما يملئه من سوء الفهم والشد والجذب. ألسنا نحن من نقول إن الكتابة خلود ؟ بدون الأدب، لا ذاكرة لنا ولا إرث حضاري يتم تمريره بين الأجيال، مما يعني في المحصلة استحالة قيام حضارة إنسانية ممتدة في الزمن. كلنا نعرف كتباً سافرت في الزمن وظلت تلهمنا بأفكار جديدة وتمكننا من تأليف كتب أخرى وتحليل وضعيات العالم وترابطاته. من بين هذه الكتب ذلك الذي وضع له كاتبه «شتيفان تسفايغ» عنوان «الوعي مقابل العنف» : انطلاق الكاتب من النزاع الشهير بين رجلي الدين «جان كالفان» و«كاستليون» في القرن السادس عشر ليقدم لنا مثال مواجهة فكرية تتجاوز سياقها التاريخي والاجتماعي والسياسي الخاص إلى سياقات أخرى كثيرة ؛ يقدم لنا الكتاب مواجهة حول قيم الحرية والتسامح ؛ ولهذا مازلنا نرجع إليه حتى يومنا هذا. نرجع إلى هذا الكتاب كلما تقوت الظلامية والأصولية لأنه يدافع عن فكرة إيجابية وتقاؤلية للغاية مفادها أن التاريخ دائم التجدد : التاريخ مد وجزر لا يتوقفان.

الأدب مفيد ومهم لأنه يحفظ الذاكرة الجماعية، لكنه مهم أيضا لأنه يشكل فضاء للتلاقي والتبادل والانفتاح. إنه يمكننا من توسيع آفاق الفرد وتعبئة طاقاته المهمشة، أو غير المكتشفة أصلا، لأننا عندما نكتب، ومن باب أول ننشر، نلتقي بالآخرين ؛ نلتقي كتاب وقراء لا نعرفهم، لكننا مستعدون لسماع انتقاداتهم. وبلا شك، عندما نكتب نلتقي ذاتنا، لأن كل شخصية من الشخصيات التي نخلقها فيها شيء منا. بدورها، القراءة، التي قد تبدو للوهلة الأولى نشاطا انعزاليا بلا نفع، فهي فرصة للقاء الآخر والذات أيضا. كل كتاب مرشح لأن يكون نقطة التحول في حياتنا أو تصوراتنا للحياة. كل كتاب هو فرصة حقيقية : فرصة لإحداث تغير جذري في الاتجاه الإيجابي يبدأ مع آخر صفحة نقرأها. وهذا كله يعني أننا لا نقرأ أبدا أي كتاب بالصدفة. توجد في النص قوة جذب تشد القارئ الذي يجد شيء من ذاته بين صفحات الكتاب. ربما يتكون عنده ارتباط خاص بإحدى الشخصيات أو يعيش إحداها. في بعض المرات، عندما نقرأ، نشعر كما لو أننا نخطب ذاتنا. وهذا الشعور له أثر إيجابي علينا، لأن كل واحد منا له شخصية شعرية أو نثرية خاصة. شخصا، كثيرة هي الكتب التي أثرت في نفسي، أو حتى قلبت كياني رأسا على عقب، أي بطرق مختلفة. أول هذه الكتب رواية «ابكي أيها البلد الحبيب» للمبدع الجنوب إفريقي «ألان باتون». يتحدث هذا النص الرائع عن الكرامة الإنسانية في ظل نظام الفصل العنصري «الأبرتايد» ويقرنا بشكل كبير من القضية التي ناضل من أجلها الراحل نيلسون مانديلا ورفاقه. لقد سافرت داخل روسيا، ومن موسكو إلى سان بيترسبورغ، من خلال كل ما قرأته من روائع دوستويفسكي الروائية «الجريمة والعقاب» و«الإخوان كارامازوف»... والعديد من القصص القصيرة التي ناقشت بعمق موضوع الجنون. كتاب باولو كويلو «الخيميائي» هو الآخر ترك بصمته في شخصيتي. إنه كتاب منفلت من قيد الزمان، وهو ذو طابع فلسفي لا يتوقف من خلال صفحاته عن زرع الأمل. كاتب آخر تأثرت بأعماله، إنه مفخرة الأدب العربي نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل في الآداب. كتاب آخر له مكانة خاصة عندي هو رواية العظيم أرنست هيمنغوي «الشيخ والبحر»، التي تعد درسا أديبا في الكفاح وقوة الإرادة. هذا فيما يتعلق بالنثر ؛ أما إذا تحدثنا عن الشعراء الذين أثروا في كياني ووسعوا مداركي، فسأذكر الكثير من الشعراء. لكنني أكتفي بذكر بابلو نيرودا الذي يقول : «كانوا يحدثونني عن فينزيولا والتشيلي والباراغواي ؛ ولم أفهم يوما قصدهم ؛ فأننا لا أعرف إلا أرضا واحدة بسيطة ليس لها اسم».

هذا شعر يرفض الحدود ويلغيها ويدعو البشرية إلى الانفتاح. وهذا يؤكد أن الأدب ليس حكرًا على النخبة المنعزلة في روجها العاجية. الأدب مفيد للجميع وهو يخص الجميع، حتى في المجتمعات المتطورة النفعية التي تربط قيمة الشيء بنفعه المادي. علاوة على كل ما ذكرت، يمكن أن يكون الأدب علاجًا ضد الألم والمعاناة أو يخففهما على الأقل. لكن كيف له أن يكون كذلك ؟ غالبا ما يعالج الطب الأمراض البدنية والعقلية من خلال منتجات وأدوية وعلاجات كلها تهدف إلى إصلاح الخلل العضوي.



السؤال هنا : إذا كانت للأدب طاقة علاجية، فهل هو يعالج الكاتب أم القارئ ؟ في الحقيقة، أرى أنه يعالج الإثنين معا. كيف يعالجنا الأدب ؟ وما الذي يعالجه فينا ؟ يعالج الطبيب الآلام والأمراض التشريحية البيولوجية الفيزيولوجية، ولكن ماذا عن جراح الروح وألمها كالخوف والعنف والظلم والعزلة والجهل والخيبة والنسيان والقيح بكل تجلياته والعبثية بكل ألوانها... ؟ ربما أفضل علاج لهذه الأمراض هو الأدب. وإلا كيف نبرر الأثر الإيجابي الذي تتركه فينا بعض الكتب، وكيف نبرر مشاعر الإثارة والانبهار التي تحركها بعض الكتب الأخرى. هذا يؤكد أن من أدوار الأدب الأساسية الدور العلاجي. كيف لا والأدب قناة نعبّر من خلالها عن ذواتنا والعالم. والأدب كان ولازال مدافعا عن القضايا العادلة ومنندا بالاختلالات السياسية والدينية والأخلاقية والاجتماعية. فالأدب يتصدى للدغماتية ويرفع مستوى تقدير الذات عند الفرد من خلال إنتاج النموذج ونقيضه والبطل وعدو البطل.

أخيرا، الأدب فيه بعد جمالي أيضا، لأنه في نهاية المطاف تعبير فني ينتج الجمال ؛ وفي الواقع، نحن في حاجة ماسة إلى الجمال في هذا العالم. لو سادت قيم الجمال في العالم، لانتهد صراعاتنا المستفحلة كما قال فرويد. لكل نص أدبي صوت يخاطب العقل والقلب. وهذا علاج في حد ذاته. وحينما يقرأ القارئ، فهو يسمع لحنا رقيقا يجلب السكينة. إن الأدب يمنح البؤساء والمحرومين فرصة السفر إلى ما وراء الحدود ويمنح العميان بصرا يبصرون به الألوان والأشكال والنور. إنه يمنح كل واحد منا الحق في التفكير والتأمل والحلم. وقد صدق «جون كلود بيروث»، إذ قال إن الكلمات مسكنات للألم. وهذه الفكرة هي أصل مفهوم القراءة العلاجية. هذا مفهوم مهم للغاية، وله مكانة معتبرة في العديد من المجتمعات، خاصة بالملكة المتحدة. فكرة القراءة العلاجية هي توجيه الفرد إلى قراءة كتب محددة بهدف تجاوز صعوبة معينة. وقد أظهرت التجربة أن القراءة العلاجية ساعدت البعض على تجاوز مشاكل كالقلق المرضي والإدمان على الخمر، ومكنتهم من إيجاد العزاء في شيء من شيء آخر ورفع مستوى تقدير الذات. يمكن أن تكون القراءة العلاجية نشاطا فرديا أو جماعيا. الغاية من هذا النشاط هي أن يدخل القارئ في جو أكثر إيجابية ويقبل واقعه الصعب كبداية ثم تحسينه ؛ وبهذا المعنى، تصبح القراءة الأدبية علاجا يكمل العلاجات الطبية الفيزيولوجية ويواكب فترة تلقي العلاجات والنقاهة ويخفف الآلام التي لا تخففها إلا علاجات قليلة. وقد أكد بعض المستفيدين من هذا العلاج الأدبي أن حياتهم أخذت منحى إيجابيا. من هؤلاء من كانوا مكلومين في عزلة ثم أدركوا بفضل القراءة العلاجية أنهم ليسوا وحدهم في مواجهة ألمهم، وأن هناك طرق مختلفة يعيشون من خلالها حزنهم دون تدمير أنفسهم.

من الكتب الأكثر فعالية في القراءة العلاجية رواية «أنا كارينينا» ورواية «كائن لا تحمل خفته» التي تستعمل في علاج القلق المرضي. أما روايتي «إذا وهبنا الله الحياة»، التي تتحدث عن معاناة المصابين بالفشل الكلوي في انتظار الحصول على كلية، فهي رجاء ونداء للجميع من أجل تشجيع التبرع بالأعضاء البشرية في المغرب.

حظي الكتاب باستحسان كبير بالمغرب وخارجه، عند القراء ومرضى الفشل الكلوي وعائلاتهم، لأنه يساعد المرضى المهمشين على تحمل المعاناة ويعطيهم أملا في حياة جديدة، ويكشف وجها آخر للمرض بعيدا عن مشاعر المظلومية والشكوى. ويظهر مشاعر الحب والطموح والنجاح والنماء والرغبة القوية في مواصلة العيش في الحياة. هل الألب مفيد؟ نعم، هو كذلك. هل له قدرة علاجية؟ بلا شك. لكن أهم صفة في الأدب كما قال «فرناندو بيسوا» هي أنه برهان على اكتفاء الإنسان بالحياة في حد ذاتها.

جمال حدادي

شكرا أستاذة حدية على هذه المداخلة التي ناقشت فيها العلاج الأدبي والأدب العلاجي. الأستاذة حدية خير برهان على قيمة أستاذة جامعة محمد الأول وتعدد اهتماماتهم وتفاعلهم مع محيطهم على نحو يجعل جامعتهم جامعة فاعلة ومتفاعلة. المداخلة الموالية حول كتاب موضوعه التنقيب عن المعادن. والمتدخل هو الأستاذ محمد بوعبد الله، الغني عن التعريف. تفضل أستاذ ؛ لكم الكلمة.

محمد بوعبد الله

شكرا. السيد رئيس جامعة محمد الأول بوجدة، السيد الكاتب العام بولاية وجدة، السيدات والسادة الأساتذة والزلاء، الكتاب الذي سأقدمه بين أيديكم عنوانه «احتياطات المعادن في شمال إفريقيا» ؛ وهذا عمل أصدرته دار النشر «سبرينغر» بعد فوزها بمنافسة دولية. الفكرة هي إنتاج كتاب يصف الثروات الباطنية الأساسية بمنطقة شمال إفريقيا، التي تساوي مساحتها نصف مساحة شمال القارة ككل. نحن بصدد كتاب يخاطب الأكاديميين والباحثين، لكنه يخاطب أيضا العاملين في قطاع التنقيب عن المواد المعدنية والطاقية. عندما نتحدث عن الموارد المعدنية، غالبا ما نفكر في الذهب والفضة والرصاص والزنك... وعندما نتحدث عن الموارد الطاقية، غالبا ما نفكر في النفط والفحم الحجري واليورانيوم... ومن هنا جاءت فكرة إنتاج كتاب يصف كل هذه الموارد المعدنية والطاقية لمساعدة الباحثين والعاملين في ميدان التنقيب، خاصة شركات المعادن الدولية.

ما يميز هذا الكتاب عن غيره هو الشمولية والتوسع في المواد الموصوفة والجمهور المستهدف. حضر الكتاب مع نهاية سنة 2016، وظهر في الأسواق سنة 2017. وهو موجود في لائحة دار النشر «سبرينغر» للكتب العشرة الأكثر مبيعا من جميع الأصناف والتخصصات. واليوم كل مكتبات الجامعات العالمية تتوفر على نسخ من الكتاب، ويقع في ستمائة صفحة كلها مكتوبة بالإنجليزية. ولقد أشرفت على كتابة الجزء الأكبر، وتعاونت مع الأمريكي «جون سلاك». وحتى أعطيكم فكرة عامة، سأحدثكم عن احتياطات المغرب، رغم أن المحتوى جد متخصص، لكن سأبسط كلامي قدر المستطاع. يصف الكتاب احتياطات المغرب من الثروات الباطنية حيث أن أحد عشر فصلا من أصل اثنين وعشرين تتحدث عن المغرب. سأعود للحديث عن احتياطات جهة الشرق لوحدها، كتجسيد بسيط للهوية المتقدمة. تحدثنا في فصلين أو ثلاث عن احتياطات الجزائر. وتحدثنا في فصل أو اثنين عن احتياطات مصر. كما خصصنا فصلا لمعادن الرصاص والزنك بجيبوتي والسودان، وفصلا آخر للموارد المعدنية والطاقية بمالي. أردنا أن نتحدث عن احتياطات ليبيا والنيجر. لكننا، للأسف، لم نتوصل بالوثائق الضرورية لأسباب سياسية وأمنية. أعود الآن للمغرب الشرقي، الذي كان منطقة منجمية بامتياز. خلال السبعينيات والثمانينيات، حيث تركزت أكبر مواقع استغلال الاحتياطات المغربية في الشمال الشرقي للمملكة.



حاليا، نتحدث عن جراحة كإقليم، لكن عمليات استغلال احتياطات الرصاص-الزنك بمناطق تويسيت وسيدي بوبكر التابعة للإقليم بدأت سنة 1908 وانتهت سنة 2002، أي ما يناهز قرن من الاستغلال. تم استخراج ثمانون مليون طن من خام الرصاص-الزنك بمعدل 3-4 غرام في الطن من الرصاص و3-4 غرام في الطن من الزنك ؛ عمليا، تم إنتاج أربعة مليون طن من الزنك والرصاص الصافيين. كانت مناجم الحديد بالناصور أكبر منطقة بالمغرب. حاليا، كلها مغلقة.

اشتغلنا على الجانب المتعلق بالاستكشاف، كي نظهر لمن يهمهم الأمر أن هذه المناجم يمكن تشغيلها من جديد. احتياطات أخرى يمكن أن نتحدث عنها هي احتياطات منطقة سيدي لحسن وسيعرفها من يعرف منطقة تاويرت. توجد ببوعرفة احتياطات من معدن المنغنيز. أما بمنطقة بني تجيت، فتوجد احتياطات من معدن الرصاص والزنك والباريتين. باختصار، هذه المنطقة من التراب المغربي معروفة بمواردها المعدنية الكبيرة. كما تعلمون، هذا شيء جيد جدا، لأنه يجلب الاستثمارات : غالبية الاستثمارات في الجهة تتعلق بمواردها الطاقية والمعدنية. معلوم أن الاقتصاديين يراقبون تطور الأسواق الدولية باستمرار. ومعلوم أيضا أن إفريقيا ستحقق، خلال العشرين سنة القادمة، أعلى معدلات النمو بفضل مواردها الطاقية والمعدنية الكبيرة. للأسف، في فترة سابقة، كان عدم الاستقرار السياسي والأمني في القارة السمراء يخيف الاستثمارات فتهرب من إفريقيا. لكن الأوضاع تحسنت في السنوات القليلة الماضية. واليوم يتسابق الصينيون والأمريكيون والألمان والفرنسيون... لأخذ موقع جيد في اقتصاد إفريقيا. وأرى أن المغرب، بفضل السياسة الملكية، أخذ موقعا جيدا جدا في الاقتصاد الإفريقي. توجد بالمغرب شركات ذات إشعاع دولي ؛ ومن هذه الشركات مجموعة مناجم، من أكبر الشركات المعدنية الإفريقية ولها احتياطات بالمغرب والعديد من بلدان إفريقيا وأمريكا اللاتينية.

تعتبر مجموعة مناجم، ذات الخبرة الكبيرة، مفخرة مغربية لأنها عندما تصدر تجربتها وتتقاسم خبرتها يشتغل الجيولوجيون والمنقبون المغاربة في عدة مشاريع خارج المغرب، ما يمنحنا فرصة اكتشاف هذه الأسواق الخارجية. تلقى الكتاب الكثير من النقد ؛ وتمت مراجعته في ضوء هذه الانتقادات قبل النشر. الكتاب غالي جدا ؛ حسب علمي، يتراوح سعره بين مائتين وثلاثمائة أورو. وبالنسبة لعدد من الجامعات المغربية، لا يمكن شراء الكتاب بهذا السعر. لكن أعتقد أن السعر سينزل مستقبلا. بشكل عام، هذه أهم النقاط المتعلقة بكتاب «احتياطات المعادن في شمال إفريقيا». إذا كانت عندكم أية أسئلة أو أي تعليق، فأنا رهن الإشارة.

جمال حدادي

شكرا أستاذ بوعبد الله. كما تعلمون، يعتمد إشعاع الجامعة على ما تنتجه من معارف بالفرنسية والعربية والإنجليزية، وتعاونها مع العلماء والخبراء. قلت إن بوعبد الله غني عن أي تعريف ببساطة لأنه عالم كبير. الكتاب الموالي لموضوعه الكيمياء. وسبقدهم لنا رشيد التوزاني، أستاذ جامعي وخبير بالمركز الوطني للبحث العلمي والتقني وحائز على جائزة التميز من جامعة محمد الأول بوجدة. وكإشارة هنا، تعمل جامعة محمد الأول على إرساء نظام جودة تختار بموجبه أفضل الكتب والبحوث المتنافسة على جوائزها. أعطي الكلمة الآن للأستاذ رشيد التوزاني.



رشيد التوزاني

أشكر المنظمين على الدعوة الكريمة. يشرفني أن أقدم بين أيديكم كتابين اثنين. عنوان الكتاب الأول «كيمياء محاكاة الحيوية». وبالنسبة، أشكر رئاسة جامعة محمد الأول وكلية العلوم بوجدة والكلية متعددة التخصصات بالناظور على ما يقدمونه لنا من تسهيلات. الكتابان في الكيمياء. وكما يعلم الجميع، عندنا ميول واهتمام بالكيمياء الخضراء. لكن ماذا نقصد بالكيمياء الخضراء؟ إنها كيمياء تراعي اثني عشر مبدأ منها : تجنب المخلفات والوقاية الآنية من التلوث واقتصاد الذرات وتصنيع مواد أكثر أمنا واستخدام مواد خام قابلة للتجدد... الكتاب الأول أطروحة دكتوراه ناقشها الباحث عبد السلام معادلي سنة 2016. حاول عبد السلام محاكاة الأنظمة الأنزيمية قصد تحفيز تفاعلات أكسدة الأوكسجين. الكتاب الثاني عنوانه «L'activation du C-H» ؛ وهو ثمرة تعاون مع فرنسا. تشجع جامعة محمد الأول التعاون المغربي الأوروبي، خاصة مع فرنسا. الكتاب أطروحة حضرها الأستاذ تيفاوي بتعاون مع جامعة رين الفرنسية. موضوع البحث هو طريقة إحداث تفاعلات كيميائية باعتماد مبدأ اقتصاد الذرات. وحتى تكون الصورة واضحة للجميع، نقول إن الكيمياء متصلة مباشرة بالحياة اليومية : الألبسة والأطعمة... بدأ مختبر الكيمياء التطبيقية والبيئة بوجدة عمله في الثمانينيات بقيادة صديقنا العزيز عبد الكريم الرمضاني، عميد سابق، بدأ هذه السياسة وحفز البحث في المركبات الحلقية. بعد العميد الرمضاني، جاء العميد القديري الذي واصل المسيرة. ثم بعدهما، جاء العميد حموتي الذي شجع البحث في مثبطات التآكل. هذه مسيرة واستمرارية سيأخذ الشباب مشعلها كي تكبر معهم وتتطور.

بالمناسبة، نوقشت بالمغرب مؤخرا خمسة أطروحات لها صلة بالكيمياء الخضراء. وفي الختام، نشكر الجامعة على ما تقدمه لنا من دعم.

الطالبة

نستمع الآن إلى الدكتور إدريس الفاخوري، أستاذ بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بوجدة، ومنسق بيداغوجي في ماجستير قانون العقود والعقار بنفس الكلية، ورئيس مركز إدريس الفاخوري للدراسات والأبحاث في العلوم القانونية. تقلد أستاذنا عدة مناصب مهمة ؛ وهو حاصل على دكتوراه الدولة في القانون الخاص من كلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهرة. ألف ضيفا ما يفوق اثنين وثلاثين مقالة علمية وثلاثة وعشرين مؤلفا آخرها «الوسيط في نظام التحفيظ العقاري بالمغرب»، وهو دراسة حول نظام التحفيظ العقاري والفقه الإداري والعمل القضائي.



إدريس الفاخوري

السادة منظمي المعرض المغربي للكتاب، السيد رئيس جامعة محمد الأول، السيد الكاتب العام بولاية جهة الشرق عمالة وجدة-أنجاد، زملائي الأساتذة، أبنائي وبناتي الطلبة، أيها الحضور الكريم المتنوع المشارب (قضاة، موثقون، عدول، أساتذة...) شكرا لكم على إنجاح هذه الجلسة الفكرية. رغبة مني في استعمال الوقت المحدد لي أحسن استعمال، حاولت صبيحة اليوم تصنيف الإصدارات التي سأقدمها بين أيديكم، والتي تمثل حصيلة عملي لأزيد من ثلاثة عقود. عموما، تمثل هذه الإصدارات إسهاماتي في مجال التأليف والتنسيق وإعداد ندوات الدراسات القانونية. سأحرص على عدم تجاوز الوقت المحدد لتقديم هذه المؤلفات المساهمة بفعالية في إشعاع جامعة محمد الأول التي نعتز بالانتماء إليها. الإسهامات كثيرة وتشمل مجالات متعددة.

كلنا نتعاون من أجل الرقي بهذه الجامعة إلى مصاف الجامعات الكبرى في العالم. وبلا شك، توجد في حقل الدراسات القانونية مؤلفات مدرسية المنهج ترتبط بالمحاضرات المقدمة للطلبة، وتوجد مؤلفات تناقش قضايا قانونية وطنية توزيعها وطني، كما توجد أنشطة علمية مختلفة، ساهمت في العديد منها. أهتم بكل هذه المسائل، لكنني في نفس الوقت أواكب التطورات القضائية بالمغرب. هذا من جهة.

من جهة ثانية، أهم هذه الإصدارات التي صدرت خلال الثلاثين سنة الماضية فيها شقان، شق متعلق بالتشريع والفقه والقضاء وشق قضائي عملي متعلق بممارسة القضاء لمهامه المتمثلة أساسا في تطبيق النصوص القانونية. لقد صنفت كتبتي في أربعة أصناف : الصنف الأول هو محاضرات ألقيتها على الطلبة ؛ سوف تتعجبون، المقرر كان طويلا ولا أحد يشتكي. كانت المقررات طويلة في الثمانينات ولا أحد من الطلبة يطلب اختصارها. الأمور تغيرت الآن. محاضراتنا أصبحت صغيرة جدا والطلبة يريدونها أكثر اختصارا. ماذا سننقص منها ؟ لا يمكننا اختصارها أكثر مما هي مختصرة.

مثلا، هذه محاضرة في مادة القانون المدني عنوانها «العقود المسماة، عقد البيع»، ألقيتها في السنة الجامعية 1982-1983 على طلبة السنة الثالثة قانون خاص في النظام القديم. هذا أيضا كتاب قانوني طويل درست به عدة سنوات في الثمانينيات، ولا أحد اشتكى منه. يتكون هذا المؤلف من جزأين : نظرية القانون ونظرية الحق. نظرية القانون تعطي الطالب فكرة عن القانون بصفة عامة (القانون المدني، القانون الجنائي، القانون العام، القانون الخاص...) هذه طبعة للطلبة. أريد أن أثير انتباهكم إلى جودة الطباعة الضعيفة في 1982. كانت الكاتبة هي التي تكتب بالآلة الكاتبة. تغيرت الأمور نسيبا مع مرور السنوات. من 1988 إلى 1998، تطورت الأمور نوعا ما. كتابي «الزواج والطلاق» موجه لطلبة السنة الثانية حقوق في النظام القديم. أدرس هذه المادة ما يناهز السبعة وثلاثين سنة. أعطيتهم الكتاب الصغير، لكنهم هم أيضا يشتكون. طبعت كتابي «نظرية القانون» الطبعة الوطنية الأولى في 1993 بالدار البيضاء، وقد وزع في كل جهات المغرب.

لكن ما عساي أن أقول ؛ صاحب المطبعة طبع ووزع لنفسه فقط. على أي حال، كان «الزواج والطلاق» أول إنتاجاتي الموزعة في المغرب. بعد ذلك، أصدرت كتابا آخر جمعت فيه القانون والحق، خصصته لطلبة السنة الأولى حقوق ؛ وانظروا كم هو كبير. هذا كتاب نظام التحفيظ العقاري، هذا الكتاب قرأ فيه رئيس الوكالة الوطنية للمحافظة العقارية، والذي أكد لي أن الكتاب سبب نجاحه في المباراة. في الحقيقة، أؤمن أن هذا الكتاب فيه بركة. يستعمله العديد من الطلبة لأنه يبين بإيجاز ماهية نظام التحفيظ العقاري بالمغرب وأنواعه ومساطرهم ومراحلهم... أغلب طلبتي الذين اجتازوا مباراة المحافظة العقارية نجحوا بهذا الكتاب الصغير، لا تحقروه. حقوق الملكية الفكرية هي حقل آخر من المعرفة القانونية التي اهتمت بها في السنوات الأخيرة. هذا أول كتاب لي في مبحث حقوق الملكية الفكرية التي بدأت تدريسه في الموسم الجامعي 2008-2009. من بعد سيتطور هذا المشروع إلى كتاب وطني كبير. هذا حقل جديد لم ينل اهتمام الباحثين في الدراسات القانونية. حقوق الملكية الفكرية هي التي تتحدث عن حقوق المؤلف والحقوق المجاورة والسينمائي والمسرحي والفنان، إلى غير ذلك. هذه الحقوق وضع لها القانون عدد 2-00 كما وقع تعديله. هذين الكتابين أيضا مقرران دراسيين عنونتهما «قانون الأسرة المغربي» و«حقوق الملكية الفكرية». كما سبقت الإشارة، ألفت أيضا كتب قانونية وطنية طبعتها دور نشر وطنية كبيرة منها «النجاح والمعارف»... من بين هذه المؤلفات كتاب «الحقوق العينية».

كما تعرفون صادق المشرع المغربي سنة 2011 على القانون عدد 39-08 المتعلق بالحقوق العينية. نسخت المدونة الجديدة قانون قديم يتعلق بالعقارات المحفوظة. وقد كنت في مقدمة من كتبوا حول هذه المدونة. صدرت هذه المدونة في 2011، أما كتابي فصدر في سنة 2013. وقد لاقى إقبالا كبيرا في كل التراب الوطني، خاصة بمراكش. وصلنا إلى الطبعة الثالثة ؛ وأنا الآن أنقح فيه وأضيف إليه منذ سنة ونصف. سأضيف إلى عنوان الكتاب صفة «الوسيط»، لأنه عادة عندما يكبر حجم الكتاب مقارنة بطبعته الأولى نسميه الوسيط. كتابي هذا فيه حوالي سبع مائة صفحة. نفس الشيء بالنسبة لكتاب «نظام التحفيظ العقاري». ظهر التحفيظ العقاري أصدرته سلطات الحماية الفرنسية في 1913 واستمر العمل به إلى يومنا هذا. قانون الالتزامات والعقود والتحفيظ العقاري مازالا يعملان. كل ما في الأمور هو أن قانون التحفيظ العقاري تم تعديله وتحيينه وتغييره في سنة 2011 بمقتضى القانون عدد 14-07.

وقد كان من الضروري مواكبة التعديلات التي أقرها ظهير التحفيظ العقاري، فمقت بإصدار هذا الكتاب الوطني الذي صدر في طبعة ثالثة كبيرة جدا. أيضا في إطار اهتمامي بالنظام العقاري بالمغرب، ألفت كتاب في قضايا المنازعات العقارية وأنا بصدد إصدار طبعته الثالثة. يرصد هذا الكتاب توجهات مختلف المحاكم المغربية في تطبيق نظام التحفيظ العقاري من طرف السادة المحافظين، فيه الشفاعة، القسمة، الوكالة، الطعن في قرارات المحافظ، القواعد المسطرية العقارية، الحيازة، الاستحقاق، الرهن، تحرير العقود، الوعد ببيع العقارات... كتاب وطني آخر أصدرته سنة 2016 عنوانه «قانون الأسرة المغربي، أحكام الزواج». لا يمكن أن يكون الزواج دون طلاق. المشرع يتكلم عن الزواج والطلاق. هذا الكتاب فيه مجموعة من التعديلات، أهمها تلك المتعلقة بدور النيابة العامة في قضايا الأسرة بعدما أصبح لها دور أساسي في القضايا الأسرية. لقي كتاب «حقوق الملكية الفكرية في التشريع المغربي» إقبالا كبيرا على المستوى الوطني. وأنا الآن أشارك به في جائزة عربية. يرصد المؤلف جميع القوانين المنظمة للملكية الفكرية والملكية الصناعية والمعاهدات ذات الصلة التي صادق عليها المغرب. تطلب مني هذا الكتاب وقتا طويلا وجهدا كبيرا، حتى أنني أجريت عملية جراحية على ظهري بسببه.

الكتابة عندي فن وهواية؛ أكل وأشاهد التلفاز ثم أقصد مكتبي حيث أحب أن أكتب. أوشكت على التقاعد، لكنني سأواصل على نفس النهج حتى ألقى اليقين. صدر لي مؤخرا عن أكبر دار نشر بالمغرب «النجاح الجديدة» كتاب وطني حول الرابطة الزوجية بالمغرب. إذا كنت معروفا تطبع لك هذه المطبعة الكتب بموجب عقد للنشر. أصدرت كتابا آخر عنوانه «المنازعات الأسرية» موضوعه مدونة الأسرة في ضوء العمل القضائي. نفذ هذا الكتاب من السوق ولم أعد طبعه. في 2007، أصدرت كتاب «التطبيق للشقاق»؛ وهو الآن الأول من نوعه بالمغرب. في ظل مدونة الأحوال الشخصية المفاة، كنا نتحدث عن إجراء الخلع. أما الآن، فقد أصبحنا نتحدث عن إجراء الطلاق للشقاق. المرأة التي لا تريد البقاء مع زوجها تحرك مسطرة الطلاق للشقاق. نفذ هذا الكتاب أيضا في السوق ولم أعد طبعه. أيضا هناك المنازعات الأسرية أمام القضاء ومحاكم النقض. تتبعت طبعا العمل القضائي. هل القضاء يذهب في اتجاه التطبيق الصحيح لنصوص المدونة أم لا؟

بالموازاة مع هذه المؤلفات سواء ذات الطابع التدريسي الأكاديمي أو ذات الطابع الوطني للمهتمين بالمجال والحقل القانوني من قضاة ومحامين وعدول وموثقين وممتهني المهن القانونية والقضائية، كانت هناك مجموعة من الأنشطة الموازية الأخرى كرسد الاجتهادات القضائية. من ناحية أخرى، شاركت في مجموعة من الندوات؛ بعضها نشر، لكن بعض الآخر لم ينشر للأسف. وفي الحقيقة، ينبغي نشر أعمال كل الندوات العلمية كي تبقى راسخة. الكلام يطير ولكن الكتابة تبقى. نظم مركزنا بشراكة مع وزارة العدل ورئاسة جامعة محمد الأول ندوة قيمت حصيلة مدونة الأسرة بعد عام من بداية تطبيقها. كانت أول ندوة حول موضوع مدونة الأسرة التي أتت بتغيير جذري لقوانين الأسرة على صعيد العالم العربي. قانون الأسرة المغربي يعتبر ثورة كبيرة في المجال التشريعي ومجال حقوق المرأة والطفل والرجل أيضا. وبالتالي، احتضنت وجدة أول نشاط علمي وطني حول عام من تطبيق مدونة الأسرة. لم يحضر آنذاك وزير العدل، فتاب عنه الكاتب العام للوزارة آنذاك السيد ليديدي. نظمت أيضا ندوة عنوانها «مدونة الأسرة بعد ثلاث سنوات من التطبيق، الحصيلة والمعوقات». وقد شارك فيها قضاة ممارسون وأساتذة باحثون ومحامون وممثلو مجموعة من المهن. سلط المشاركون الضوء على مجموعة من الإكراهات. وبناء على توصيات هذه الندوة، أصدرت وزارة العدل دليلا جديدا للسادة القضاة يصوب مجموعة من الاختلالات. موازاة مع هذه الندوات الوطنية، نظمنا ندوات دولية منها ندوة بعنوان «تطبيق مدونة الأسرة في المهجر» التي نظمت بشراكة مع وزارة العدل والوزارة المنتدبة المكلفة بالجالية المغربية المقيمة بالخارج ومجلس الجالية المغربية بالخارج وجامعة «أنفيس» ومعهد الدراسات المغربية المتوسطة ببلجيكا. وكانت لدينا اتفاقية شراكة معهم ونظمنا هذه الندوة. أغلب هذه الندوات من تمويل الشركاء لأن الجامعة إمكانياتها محدودة.

بإمكانها فقط المساهمة بقدر معين ولكن باقي المساهمات أخرى تأتي بطرق الأبواب. الأستاذ الباحث لا يجلس في بيته وينتظر من العميد تمويل الندوة ؛ بل ينبغي له أن يبحث عن التمويل بالانفتاح عبر خلق شراكات. انفتاح الجامعة على محيطها ينطلق من الأساتذة الباحثين أنفسهم. نظمنا أيضا يوم دراسي حول أسس تجديد الفقه الإسلامي من خلال فكر الأستاذ أحمد الخليلشي، الأسرة نموذجا. الأستاذ الخليلشي من الفقهاء والأساتذة الكبار ؛ وهو أستاذي. كانت هذه الندوة نوعا ما احتفالا بأستاذنا المبجل الذي يشغل حاليا منصب مدير دار الحديث الحسنية. استمعنا في هذه الندوة إلى شهادات مجموعة من السادة الأساتذة والقضاة الذين عرفوا الرجل عن قرب. عندي كتاب آخر نفذ من السوق فيه شيء من روح المعرض المغربي للكتاب موضوعه الزواج والطلاق بالمغرب الكبير. يقارن هذا الكتاب الصادر سنة 1993 قوانين الزواج والطلاق بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا. لم يتحدث الكتاب عن موريتانيا لأن القانون لم يكن متوفرا عندي آنذاك ؛ وقد أعاب علي الطلبة الموريتانيون ذلك. آنذاك لم يكن الانترنت متوفرا، حاليا كل شيء سهل. أستسمحكم إن كنت قد أطلت. شكرا؛ والسلام عليكم.

جمال حدادي

شكرا. بعد هذه الجولة بين تخصصات وكتب مختلفة تدل على أن جامعة محمد الأول حاضرة وفاعلة ومتفاعلة مع محيطها وتحقق لها إشعاعا وطنيا وعربيا ودوليا وإفريقيا. ربما لاحظتم أننا فعلنا في هذه الجلسة وراعينا تنوع السن : مع أساتذة كبار وطلبة وطالبات أبوا إلا أن يشاركونا في هذا الحفل المدرج ضمن فعاليات الدورة الثانية من المعرض المغربي للكتاب. ولعل كثافة الحضور دليل كافٍ على أهمية هذا الحدث الثقافي الذي ثبت نفسه سريعا في قائمة أكبر المعارض الدولية. الكلمة الآن للحضور.

مداخلة

أنا طالبة بجامعة محمد الأول، ولي عمل آخر غير الدراسة. فرغت نفسي هذا الصباح لحضور هذه الجلسة الفكرية المنظمة من طرف جامعة محمد الأول، التي أشكرها بالمناسبة. بالنسبة إلي، المعرض المغربي للكتاب اكتشاف جميل. تحدثت الأستاذة حدية عن القوة العلاجية للأدب. وفي الحقيقة، هذا اكتشاف آخر مهم توصلت إليه بفضل الأستاذة، لأننا دائما نحصر العلاج في الرعاية الصحية والأقراص والمسكنات والحقن، ولأننا نخاف الحديث عنه أصلا. لقد تأثرت بمدخلة الأستاذة حدية تأثيرا عميقا، لأنها اعتبرت الأدب علاجاً للأمراض والآلام. وسأحتفظ في ذاكرتي بعبارتها لها عن العلاقة بين الأدب والطب قالت فيها : «من الطبيب ؟ هل هو القارئ أم الكاتب ؟». أنا الآن أرى بوضوح الفائدة من حضور هذا اللقاء. أخيرا، أريد التأكيد على الغنى الكبير الذي تتمتع به جامعة محمد الأول في كل الميادين.

انتصار حدية

شكرا لك سيدتي على هذه الشهادة المؤثرة. الأسئلة التي تطرح علي غالبا هي : ما الذي يدخل طبيا عوالم الأدب ؟ وما الدافع وراء كتابة رواية، أو نشر مجموعة قصصية ؟ أما جوابي على هذه الأسئلة فهو أنني كاتبة قبل أن أكون طبيبة. الكتابة شغف كبر معي منذ سنوات الطفولة. أحيانا ننسى أن كثيرا من الكتاب الذين بصموا تاريخ الأدب هم أطباء ؛ ومن هؤلاء كونان دويل، مؤلف مغامرات «شارلوك هولمز»، و«لويس فرديناند أغوست ديتوش»، مؤلف «سفر إلى آخر الليل»، ونجيب الكيلاني بالنسبة للأدب العربي... كتاب كثر هم أطباء في الأصل. لذلك أعتقد أن مهنة الطب فيها شيء مميز جدا. ربما هذا الشيء هو قربنا من ضعف الإنسان ومعاناته ؛ يحتك الطبيب يوميا بالهشاشة الإنسانية ولحظات الانكسار. وتعرفون كم هو صعب على الإنسان أن يظهر ضعفه وألمه. والتفريغ على أحد ما، كطبيب مثلا، دائما يساعد. وهذا التفاعل الإنساني يكون مصدر إلهام للأطباء الذين يمارسون الكتابة الأدبية والكتابة بشكل عام.

مداخلة

أهنتك أستاذة حدية على إبداعك في الطب والأدب. عندي بعض الملاحظات التي قد تفيدك في مسارك الإبداعي. إضافة إلى الأطباء الكتاب الذين تم ذكرهم، يوجد أطباء كتاب آخرون من بريطانيا والولايات المتحدة كطبيب الأطفال كارلوس وليامس. لكن هؤلاء جميعا ينتمون إلى مرحلة ما قبل الحداثة في حين أن هناك أطباء كتاب كثر ينتمون إلى مرحلة ما بعد الحداثة وكتاب تخصصهم الأصلي هو البيولوجيا. هذه مسألة غريبة في مجتمعنا ؛ لكنها ليست كذلك في المجتمعات الغربية. الطبيب في الولايات المتحدة لا يحصل على رخصته إلا إذا حصل على نقط محترمة في الأدب، وهذا أمر مهم جدا. التقيت أطباء كثر ؛ وأول ما يسألونني عنه هو كاتبتي المفضل. هذه مسألة حميدة جدا، وأعتقد أن الجمع بين التخصصات أصبح أمرا ضروريا. فيما يخص سؤال فائدة الأدب، أكتفي بالقول إن هذا السؤال لا يطرح إطلاقا في المجتمعات الغربية. الأدب اليوم مكون أساسي في النسيج الحضاري والثقافي للمجتمعات المتقدمة.

مداخلة

أنا طالب دكتوراه في القانون بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بوجدة. أشكر منظمي المعرض المغربي للكتاب على منحنا فرصة اكتشاف آخر الإصدارات في شتى المجالات. سؤالتي للأستاذ بو عبد الله : هل أشرت في كتابكم للجانب القانوني والإداري المتعلق برخص التنقيب ؟ وهل أشرت إلى تعقيد المساطر أحيانا عندما يتعلق الأمر بأملاك الدولة، كالملك الغابوي مثلا ؟

محمد بو عبد الله

كما أشرت من قبل، يخاطب الكتاب العلماء بالدرجة الأولى، وبالتالي لم تكن هناك حاجة للحديث في الشق القانوني، خاصة أنه ليس لي تكوين قانوني. وفي الحقيقة، سؤالك دعوة لأساتذة القانون من أجل طرح حلول للإشكالات القانونية والإدارية التي ذكرت.

رئيس الجلسة : أحمد زكي
المشاركون : مولاي منير القادري بوتشيش، ميشيل تهاو شان، عبد المالك،
بلقاسم الجطاري، محمد بنيعش، حكيم الفاضل الادريسي
فضاء : السلام
التاريخ : يوم السبت 20 أكتوبر 2018
الساعة : 17 : 00



موجز مداخلات المائدة المستديرة

تم الترتيب لهذه الجلسة وتطوير مواضيعها من قبل رجال الإيمان والخبرة الذين سيقدمون مقاربات مختلفة لهذه القضية، إذ يتفق الجميع إطلاقاً على ربط الإسلام والسلام كما هو الشأن بالنسبة للتصوف. وبعد تلاوة بعض الآيات القرآنية، أشار الأستاذ منير القادري بوتشيش، الذي يترأس مؤسسة الملتقى، إلى أن الثقافة والتنمية ترتبطان ارتباطاً وثيقاً، وبأن الروحانية والأخلاقيات تعتبر بالتالي من أهم أسس التقدم. ولعل تاريخ التصوف في المغرب وإنجازاته التي تشهد عليها وفرة الإنتاج الفكري تجعله أحد أسس الهوية المغربية وحصناً ضد الإيديولوجيات الخبيثة. وتنسجم مبادئ الصوفية تماماً مع القيم الإنسانية العالمية، حيث أنها علاجا ضد المادية المعولة وضد مجموعة من السلوكيات التي تنطبق على الجميع؛ سواء تعلق الأمر بالمسلمين أو غيرهم.

يذكر الأستاذ حكيم الفاضل الادريسي بأن معرفة الطبيعة البشرية، والسلم والعنف، هي أمر إلهي. وبأن المعرفة بدون تعاطف هي المصدر الأول للعنف : وهكذا، يؤسس القرآن الكريم العلاقة بين المعرفة والتعاطف. قبول الاختلاف وممارسة النسيان والحذر من إطلاق الأحكام وطلب العدالة والتربية : إنها المبادئ المؤسسة التي تجلب السلام، حيث أنه من خلال استكشاف المعرفة بدءاً بالبوذية والطاوية، تمكن الدكتور ميشيل تهاو شان من الولوج إلى التصوف، والذي يسميه «علم القلب»، إذ أن منهجه يثمن مقارنة المعرفة من خلال عمق الزمن والتعاطف، وهو المبدأ المؤسس للتصوف، حيث أنه لا أحد غريب على المتصوف، بل نحن جميعاً ننتمي إلى بعضنا البعض.



لعل مسار مغني الراب الشهير عبد المالك يجسد مقاربات العلماء. ومعلوم أنه ينحدر من عالم منحرف، قبل أن يهتدي إلى الإسلام ، حيث يسعى إلى العيش حسب مبادئ دينه ومواءمة إيمانه مع معيشته اليومي. ولقد اهتدى إلى طريقه بفضل التصوف، واستعاد حب بلده وتعلم كيف يدعو للتربية والروحانية. وبالنسبة له، يعتبر المغرب بلد النزاهة، وبلد انسجام الإنسان مع قناعاته.

أما الأستاذ محمد بنيعش، فيذكر بأهمية «مجاهدة النفس» والحاجة إلى مراقبة سلوك الفرد ورفض العنف كمحاولة للنهل من الصفات الإلهية. ويوضح أن الروح هي «قلب القلب»، إذ يصعب الوصول إليها ؛ ولعل هذا هو الثمن الذي يؤديه المتصوف للوصول إلى عتبة السلام.

أما الأستاذ بلقاسم الجطاري، فقد ربط الصوفية بالفضيلة، ومن خلال هذه العلاقة تمنح للمتصوف سلطة الشفاعة في نظر المؤمنين، أي الشفاعة عند الله، ولكن أيضاً، على سبيل المثال، الشفاعة عند السلطان. في البدء كانت الشفاعة، لأسباب مقدسة وبالتدريج أصبحت الشفاعة تستغل من أجل منافع دنيوية، ولعل هذا الوضع هو أيضاً بمثابة اعتراف بالفضيلة.

مداخلات المائدة المستديرة

أحمد زكي

يسر مؤسسة الملتقى أن ترحب بكم وبهذا الحضور الكريم من المثقفين والأدباء. نرحب بالسيد رئيس جامعة محمد الأول بوجدة، والسيد المدير الجهوي للثقافة، والسيد مستشار وممثل دولة الكوت ديفوار ودولة مالي. أيها السادة، يسرني استقبالكم في هذا اليوم البهيج بمناسبة هذه الندوة العلمية المنظمة بشراكة مع وكالة جهة الشرق في إطار فعاليات الدورة الثانية للمعرض المغربي للكتاب تحت عنوان : «التصوف وثقافة السلام»، يوطرها ثلة من الدكاترة والخبراء المتخصصين، الذين نشكر لهم جهودهم الجادة ونسأل الله تعالى أن تثمر بالنجاح والتوفيق وهم : السيد الدكتور مولاي منير القادري بوتشيش، أستاذ التعليم العالي بجامعة دوفين بفرنسا، مادة المالية الإسلامية، وعضو مجلس العلماء المغاربة بأوروبا، ورئيس المركز الأوروبي-متوسطي لدراسة الإسلام اليوم بباريس، مدير مؤسسة الملتقى، رئيس المركز المستقل للدراسات الإسلامية في أوروبا والمتخصص في الدراسات الإسلامية والتمويل الإسلامي.

نرحب كذلك بالدكتور حكيم الفاضل الإدريسي، عضو المجلس العلمي بالدار البيضاء، أستاذ الدراسات البلاغية والنقدية ورئيس شعبة الدراسات العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك سيدي عثمان بالبيضاء، مؤطر بوحدة الدكتوراه تحليل الخطاب السري، وعضو محكم بمجلة «قوت القلوب» التابعة لمركز الإمام جنيّد للدراسات الصوفية بوجدة، والذي سيكون عنوان مداخلته «أخلاقيات السلام».

نرحب أيضا بالدكتور محمد بنيعيش أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، خريج جامعة القرويين وجامعة محمد الخامس بالرباط، حاصل على دكتوراه الدولة بجامعة عبد المالك السعدي تخصص الفكر والحضارة. درس ويدرس العقيدة الإسلامية السنية، فقه الأحوال الشخصية، علم الكلام، والفرق الكلامية، علم الاجتماع الإسلامي والتاريخي. مداخلته بعنوان «ضبط النفس ومسالك التحكم لتحقيق السلام عند الصوفية». نرحب بالدكتور بلقاسم الجطاري أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بوجدة حاصل على دبلوم الدراسات المعمقة وشهادة الدكتوراه في تخصص الحضارة الإسلامية بجامعة ستراسبورغ دكتوراه الدولة تخصص الأدب الصوفي جامعة محمد الأول كلية الآداب والعلوم الإنسانية ومداخلته تحت عنوان «إسهامات صوفية الريف في بناء السلم المجتمعي».

خير ما نبدأ به آيات من الذكر الحكيم مع المقرئ سي أحمد دردر فليتفضل مشكورا :

1. تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا
2. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا
3. وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا
4. وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا
5. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
6. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا
7. وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا
8. وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا

9. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا
10. إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

صدق الله العظيم

نفتتح ندوتنا بمداخلة «التصوف وثقافة السلام» ونستدعي الأستاذ منير ليقول كلمته.

مولاي منير القادري بوتشيش

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على سيدنا محمد المليح صاحب المقام الأعلى واللسان الفصيح، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

السيد رئيس جامعة محمد الأول بوجدة، السيد مدير الثقافة، والسادة ممثلي الوفد الإفريقي والمالي، نرحب بكم. السادة العلماء، السادة المفكرين، السادة المثقفين، وممثلي المجتمع المدني. في هذه التظاهرة الثقافية والتواصلية والعلمية، وبحضور الوجوه النيرة والمشرقة، يسعد مؤسسة الملتقى ويشرفها التواجد والحضور معكم والمساهمة بهذه المشاركة الصادقة المفعملة بالمحبة والتقدير، ونشكر لكم طيب المعاملة وجميل الحفاوة والاستقبال. ونشكر السادة المشرفين على تنظيم هذه التظاهرة الهامة والمفيدة، ونثمن جهودكم الحثيثة والجادة، التي لا شك أنها ستثمر النجاح والتوفيق إن شاء الله. إن هاته التظاهرة وإن كانت في الحقيقة قصيرة في المدى والزمن، لكن نرجو أن تكون نتائجها وثمارها لها عمق ونتائج في الآفاق في مدينة وجدة، عاصمة الثقافة العربية لهاته السنة، وفي جهة الشرق، لا يخفى على أحد منا أن هاته المنطقة تزخر برجال وطاقت مبدعة، ومن زخم ثقافي وحضاري عريق يطل كل المجالات والميادين، فميزدا من التألق والازدهار لهذه الجهة وللباقي الجهات في بلدنا العزيز تحت القيادة السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده.

إن الثقافة هي المشترك القيمي الأساسي لكل تقدم وازدهار وارتقاء حضاري، إذ بات من المؤكد اليوم أنه لا تقدم ولا نمو اقتصادي إلا بالاهتمام والاعتناء بالرأسمال المعنوي، اللامادي، فالعلاقة عضوية ووطيدة بين الثقافة والتنمية. فالثقافة تشكل الرأسمال والركن الأساسي في التكامل مع البعد الروحي والأخلاقي؛ إذ يتساءل أحد الباحثين، هل الثقافة هي القيم والأساليب التي يبتكرها الإنسان فحسب أم أن هناك بعدا روحيا للثقافة يتمثل بصفة خاصة في القيم الروحية التي يعتنقها الإنسان، وتؤثر في سلوكه إلى جانب أنواع أخرى من القيم مثل القيم الجمالية والفكرية، وقد أجمع الدارسون على أن الثقافة العربية من أغزر الثقافات العالمية من حيث المضامين والمجالات والمظاهر والتجليات والأبعاد والأهداف والمرامي. والموروث الثقافي العربي والإسلامي، وخصوصا الأندلسي لا زال شاهدا على ذلك، حيث استفاد الغربيون أيما استفادة منه ومن الحضارة العربية الإسلامية كلها، وهنا نستشهد بما قالته المستشرقة الألمانية «يغريت هونكا» في كتابها الشهير «شمس العرب تشرق على الغرب»، وتقول: «صممت على كتابة هذا المؤلف وأردت أن أكرم العبقرية العربية وأتيح لمواطني فرصة العودة إلى تكريمها، كما أردت أن أقدم الشكر للعرب على فضلهم الذي حرمهم من سماعه طويلا تعصب ديني أعمى وجهل أحقق».

رغم تقدم التكنولوجيا اليوم، وتقدم وسائله وأدواته وآلياته، وتقنياته يبقى الكتاب له وضع متميز وسمات خاصة وحاجة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها من أجل التعلم والمعرفة والثقافة والتثاقف، وجميع أصناف التفاعل الثقافي داخل وبين الأمم والشعوب والحضارات، ومن هنا تأتي قيمة ثماره المعرفية، فالكتاب خير صديق، فهو كالباحر يغوص فيه القارئ في الأعماق يبحث عن الكنوز الثقافية ليخرج مثقلا بفوائد الفكر الراقي. إن مؤسسة الملتقى العالمي للتصوف، من بين اهتماماتها في الدرجة الأولى، الشأن الروحي والأخلاقي كممارسة ومدارس، وهي بذلك تهتم بأحد الثوابت الدينية المغربية، وهو التصوف السني، أي مقام الإحسان أن تعبد الله بأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك، كما ورد في الحديث المعروف، حديث جبريل عليه السلام.

لقد راكم التصوف المغربي خلال تاريخه المجيد تراثا ضخما وزخما من المعارف والدراسات، والرجالات والمتون والقيم الإنسانية والكونية، وما زال الكتاب الصوفي في مختلف الخزانات الوطنية والعالمية خير شاهد على المستوى العالمي الذي حققه في النظم والتأليف والمضمون والقيم الروحية والأخلاقية والإنسانية، ومنها مثلا كتب ابن عربي التي ترجمت إلى عدة لغات، وجلال الدين الرومي والغزالي، ككتب عرفت اهتمام الغرب وهذا يدل على أهميتها.

كان التصوف المغربي في ارتباطه العضوي المتين ببقية الثوابت الدينية يمثل حصنا حصينا وسدا منيعا ضد كل أصناف الاختراقات التي تروم زعزعة واستقرار البلاد، ووحدته وأمنه وسلامته ؛ ويرجع الفضل في ذلك لعلماء القرويين في وضع التصوف كثابت من ثوابت الهوية المغربية، إلى جانب المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية. وهو ما أشار إليه بن عاشر في منظومته «المرشد المعين في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك».



التصوف كما عرفه كبار الصوفية نذكر منهم الإمام الجنيد «التصوف هو التخلق بكل خلق إنساني وترك لكل دنيء»، وكما عرفه صاحب كتاب القشيرية «التصوف أخلاق فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف»، التصوف كما عرفه الشيخ زروق في كتابه العالم الفقيه قواعد التصوف، له أكثر من 2 000 تعريف كلما أجملت في صدق التوجه إلى الله، وهنا يظهر أن التصوف يشغل بالأساس على البعد الأخلاقي، الإحساني الذي يمثل لب الإسلام وحقيقته وروحه، والذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وبها امتدحه الحق تعالى في كتابه العزيز، «وإنك على خلق عظيم». لذلك لا عجب أن تكون العلاقة وطيدة حميدة بين التصوف والقيم الإنسانية الكونية كقيم المحبة والسلام والاحترام والتعايش المشترك والتآزر والتعاضد والإيثار. وهاته القيم كلها تعزز تحقيق قيمة السلم والسلام، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده كما ورد في الحديث، وكذلك كما ورد في كتاب الله عز وجل : «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم لعبد مبين». وفي خضم الطغيان المادي الجامح في عصرنا الحالي، تم إقصاء وتجاهل الجانب الروحي والأخلاقي التزكوي، وبذلك تم التغافل عن تلبية الحاجيات الروحية الدفينة في الإنسان بحكم تكوينه من جسم وروح، مما جعله يفقد توازنه، وأمنه الداخلي وسلامته واطمئنانه. يقول العالم الفرنسي بيكسون : «ما أحوج العالم إلى وثبة روحية»، لأنه أصبح طغيان المادة ونسي الإنسان تلبية حاجياته الروحية، وبذلك استفحل التطرف المادي، الذي أضحى يفرق الكثير من الناس في اللذات والشهوات والاستهلاك الجشع بكل صوره وأشكاله، إلى درجة أن القيم الأخلاقية صارت عند هؤلاء المعولمين مجرد سلع تسوق للاستهلاك تحقيقا للمصالح الكبرى ؛ فمفهوم السلام أصبح مجرد شعار يستخدم ليحصد الأموال الطائلة، والنفوذ الأوسع كما انتشر الداء العضال، المرض المزمن والمعدى، داء التطرف الديني الذي يتسم أصحابه بنمط التدين المنغلق والفهم السطحي الحرفي الضيق للنصوص.

إن الفهم العميق للدين الإسلامي الحنيف، وسر مقاصده الشرعية الأخلاقية، وأحكامه وكنه رسالته السمحاء للبشرية جمعاء، وبالنموذج المحمدي الكامل هو الكفيل بجمع شتات الأمة وتحقيق الخيرية، التي أكرمها الله تعالى بها وأهله لتحمل رسالة الإسلام والموعظة الحسنة والرحمة والسكينة والسلام، وما أعظم وما أروع النماذج الإنسانية الخالدة التي امتدحها الحق وقدمها لنا في كتابه العزيز، مثل قوله تعالى : «عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما». إن التربية الإحسانية تستأصل جذور الشر والكيد وأخلاق السوء من أعماق النفس البشرية وتزكّيها بالأخلاق المحمدية، ألم يقل الحق تعالى : «قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها»، وقال عز وجل : «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»، وهذه التزكية والطمأنينة من آليات الأمن والسلام الذاتي الداخلي الذي يتمظهر في السلام الخارجي مع الأسرة والمحيط والعالم والكون أجمع.

من خلال هذه الأخلاق المحمدية الكريمة، كان الصوفيون والمسلمون بهذا البعد الروحي عالمين أينما حلوا وارتحلوا، محبوبين ينشرون بذور المحبة والرحمة والرفق والإحسان، دون عنف أو إكراه، بل بالقوة الحسنة والمعاملة الطيبة. ولهم في رسول الله أسوة حسنة، ألم يقف النبي لجنازة يهودي، فقال الصحابة، إنها جنازة يهودي، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أليست نفسا ؟ ألم يكن يتعامل مع اليهود حتى مات ودعاه عند يهودي. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»، لم يشر إلى الجار أن يكون مسلما أو غير مسلم. إذا، هنا تأتي مقاصد الشريعة أن المعاملة لا بد أن تكون معاملة الرحمة والمحبة والاحترام. وبعض النماذج لهؤلاء الصوفية، يقول ابن عربي في وصاياه : «افعل الخير ولا تبال فيمن تفعله، تكن أنت أهل له». يقول الشيخ عبد العزيز الدباج : «الرحمة نور ساكن في الذات يقتضي الرأفة والحنان على سائر الخلق بدون استثناء». ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي : «الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». ويقول الإمام أبو حامد الغزالي : «الرحمة التامة هي إضافة الخير على المحتاجين، وإرادته لهم عناية بهم، فبهذا سكنوا في قلوب هؤلاء بهذه المعاملة الطيبة». سكنوا في القلوب قبل أن يسكنوا في البقاع والأمصا، لأن البعد الروحي للأخلاق يشغل به الإنسان الذي هو محور وجوه ورأسمال لامادي، وقطب الروحي في كل إصلاح وتنمية، فهو صمام الأمان من كل تعصب أو تطرف أو إرهاب، وذلك لدحض الصورة القاتمة في الغرب عن الإسلام أو ما يعرف بالإسلاموفوبيا، فالإسلام منها براء. لأن الإسلام والسلام صنوان مرتبطان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وبهذا الإشعاع الروحي والأخلاقي، والوسطية والاعتدال تمكن المغرب من نشر الإسلام في ربوع البلدان الإفريقية والتي لا يزال تاريخها المعاصر خير شاهد على ذلك. مما متن أواصر المحبة والتعاون والتكامل في هذا العمق الإفريقي العزيز، وإذا كنا في حاجة ماسة، نحن وأجيالنا الصاعدة إلى تحصين روحي وأخلاقي وعقدي كي نحافظ على هويتنا الدينية، التي نكتسب بها معرفة لوجودنا وبقائنا، فإننا نحتاج إلى تحصين وتمنيع ثقافي شبيه بالحفاظة على هويتنا الحضارية والثقافية ؛ وحتى لا تبقى الثقافة بدون روح، لا بد من تحصينها بالبعد الأخلاقي والروحي، وعلى مشتركتنا الثقافي العريق وسط الرياح العاتية الهوجاء للعولمة، التي لا تعترف بثقافة الاختلاف والتنوع، وتروم أن ترج بنا في بنية ثقافية موحدة، تحت شعر الثقافة الشمولية الموحدة للعالم، وتنسف ما عاها من هويات دينية وثقافية. الخطر داهم ومحقق لأن العالم الغربي وصل إلى تطور هائل ويسخر كل الأموال من أجل الربح وتحقيقه عن طريق الآليات التكنولوجية والإعلامية والمعلوماتية المعقدة لإغرائنا بالمعلبات الصناعية والمصنوعات الغذائية والثقافية، ويطور آليات الاستقطاب والإدارة والتسيير والإغراء لتيسير الابتلاء واستهلاك الثقافة المعلبة، بما في ذلك ثقافة الجنس والإباحة وثقافة العنف بكل أنماطه وصوره، من العنف الثقافي والرمزي وغيرهما. الأمة الإسلامية والعربية مطالبة بمواكبة عصرها ومسيرة ركب التنمية الثقافية والإبداعية والإعلامية وغيرها، لكن مع تجنب السقوط في التبعية العمياء للثقافة المعولة المادية، التي تروم الهيمنة والسيطرة وابتلاع الثقافات الجهوية والوطنية ذات الخصوصيات والمميزات التاريخية والحضارية العريقة.

بما أننا نحضر هاته التظاهرة المتمحورة حول الكتاب المغربي فعلينا أيها السادة إعطاءه المزيد من الاعتناء بالتأليف والنشر والاهتمام بالمضامين التي ينبغي أن يحملها سواء في الكتاب المدرسي التعليمي، أو الكتاب الثقافي والإبداعي. فهذه المضامين ينبغي أن تكون هي المشترك الثقافي المغربي والعربي، الذي يجمع ويوحد الشعوب المغربية والعربية والإفريقية والإسلامية، وهو ما يسمى الديبلوماسية الثقافية ودورها في تقريب الشعوب، أي التنمية المتسمة بالتوازن بين ما هو مادي وما هو روحي، وترسيخ التربية على القيم نفوس الناشئة والشباب والنساء والرجال كقيمة المواطنة الإيجابية البناءة، وقيمة الإبداع والابتكار، وقيمة التمسك بالثوابت الدينية والوطنية للتحصين العميق والتمنيع المتين ضد كل أشكال الاستلاب الثقافي والأخلاقي والحضاري وقيم الوسطية والاعتدال، لدرء مخاطر التطرف والعنف والإرهاب عنا وعن أبنائنا وأجيالنا الصاعدة، وقيم التفاعل الإيجابي المثمر مع عصرنا ومحيطنا حتى نكون إيجابيين وفاعلين، وإسهاما منا يكون إسهاما متميزا في هذه الحضارة لنكون بذلك مشاركين في تخليقها وأنسنتها وتوازنها لتصبح مشتركا إنسانيا وكونيا بمشاركة جميع مكونات هذا العصر تحت رعاية السلم والاحترام والأمن والتعايش والسلام.

أحمد زكي

نشكر مولاي منير على مداخلته القيمة وندعو الاستاذ حكيم الفاضل الإدريسي ليقدم لنا مداخلته «أخلاقيات السلم».

حكيم الفاضل الإدريسي

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. الشكر موصول لهذا الفضاء المغربي للكتاب ومؤسسة المتقن. السيدات الفاضلات، السادة الأفاضل، الإخوة المشاركون في هذا اللقاء الثقافي والفكري.

في إطار تجربة التصوف، فهذه المائدة العلمية كما رأيت صوفية بامتياز، والتصوف صفاء ولا مقارنة بين الإسلام سوى الصفاء. لعل أول سؤال طرح على مستوى وجودي رفيع هو سؤال السلم، وذلك هو أنه لما أرادت إرادة الحق أن تجعل هذا الإنسان خليفة في هذه الأرض، نوقش هذا الأمر على مستوى عال، وهو مستوى ملائكة فكان الخطاب موجها للملائكة : «إني جاعل في الأرض خليفة»، فكان جواب الملائكة كما تعلمون هو هذا السؤال الاستفهامي : «تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»، أي أن الخليفة لن يكون مسالما، سيكون خليفة عنيفا فلذلك النظر في هذا الموضوع يجب أن نرجع إليه في أوليته، فموضوع السلم والعنف نوقش على هذا المستوى، وكان الجواب الإلهي للملائكة هو ردهم إلى العلم الإلهي قال : «إني أعلم ما لا تعلمون» ؛ من هنا كما يقول السادة الصوفية أن مسألة معرفة الإنسان ومعرفة الأمن والسلم والعنف أمر متصل بالعلم الإلهي.

من هنا كان من أولويات السلوك الصوفي، أن معرفة الله واجبة وأن معرفة الله قائمة في كل ما يتعلق بشؤون الأرض، إلا أن هذه المعرفة عند الصوفية كما تعلمون هي معرفة متصلة بصفة إلهية عظمى وهي صفة الرحمانية، فلا يمكن أن نتكلم عن معرفة دون رحمة، لذلك فلما وصف الله تعالى حكمه وتدييره لهذا العالم وصفه من هذا المستوى «الرحمن على العرش استوى»، والاستواء هو الحكم والتدبير، أي أن الله استوى رحمانا، ولم يستو جبارا أو قويا، أو غيرها من الصفات، من هنا لا يمكن أن نتكلم عن المعرفة دون وجود الرحمة، معرفة بلا رحمة سلطة وعنف، فبذلك وجب النظر إلى المسألة من هذه الزاوية. القرآن الكريم مليء بهذه الإشارات «الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان»، «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»، فكلمة رحمان تتكرر في القرآن مرات ومرات لكي تؤسس لهذه العلاقة المتصلة بين المعرفة والرحمة.



لما أراد الله أن يعلم سيدنا موسى ويزكيه ويرقيه، عرفه بالخضر، العبد الصالح، ولما أراد الله أن يصف الخضر بهذه المعرفة قال: «فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً»، فقدمنا الرحمة على العلم، لذلك لا يمكن أن نؤسس لأي معرفة دون أن تكون مقترنة بالرحمة. إن السنة في التجربة الدينية وفي عرض النص القرآني والنبوي مؤسسة على رفع الحرج وعلى النذر «ولما جعل عليكم في الدين من حرج». كان يؤسس أيضاً السلم لأول نقطة دم سالت على الأرض بين أخوين لسيدنا آدم عليه السلام قابيل وهابيل، قال تعالى: «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق»، هذه أوليات لابد أن نعرفها في المعرفة، لا يمكن أن نتكلم عن العنف والسلم دون أن نتكلم عن الأولويات والوجود الإنساني، «إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك...» العنف. قال «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَكُنْ يَسْتَحِبُّ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ» (سورة المائدة).

السلم هو أن لا تقتل، فالقتل نهاية العنف، والتطرف نزيه بهذا المصدر الأول الذي هو القتل. إن المبدأ الأول في السلم ألا تقتل ومن يقتل هو الذي يحكم في السلوك التربوي وهو الذي يمارس العنف، إلا الله تعالى وذلك راجع إلى صفة سلوكية نفسية، والعلة في ذلك عدم وجود تطابق عند الآدميين. فالسلم ليس في المطابقة وإنما السلم أن نتعامل مع الآخرين مع اختلافهم وانفصالهم عنا. السلم ليس أن تكون نسخة عني أبداً، وقال الله في حق سيدنا إبراهيم «يا نار كوني برداً وسلاماً على سيدنا إبراهيم»، النار بقيت ناراً ولكنها لا تحرق، لم يغير الله طبيعة النار. فالآدميون طبائع مختلفة يبقون على طبائعهم لكن لا يقتلون ولا يمارسون العنف، هذا هو الأصل. لقد أثبتت التجربة أن السلوك في الإسلام أن تتبنى وتدعم هذه الأسس، وفي السلوك الصوفي هناك مبدأ عدم الإنكار، ويقولون من اتسع علمه قل اعراضه وإنكاره ومن قل علمه كثر اعراضه. أيضاً من أصول التربية على السلم، النسيان أن ننسى فلذلك أغلب الذين يكونون عنيفين هم الذين تكون لهم ذاكرة قوية لا ينسون أبداً، ينتقمون. السلم ألا تتعلم ألا تسرع في إصدار الأحكام، واستدلال الصوفية بقوله تعالى: «هو الله لا إله إلا هو الحمد له في الدنيا والآخرة، وله الحكم وحده فلا يجوز لعباد أن يستأثروا بالحكم فلا رجوع إلا إلى الله ولا حكم إلا لله تعالى». من أسس السلم أيضاً العالية العدل وهو إسم ضروري للعالم، أي أن العدل المخلوق به في العالم «إن الله يأمر بالعدل والإحسان»، «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون».

إن السلام هو المبدأ الأول في التربية حقيقته لا تفعل، وفي عدم الفعل فعل، أجمل شيء في السلوك التربوي ألا تفعل فإذا توقفت عن الفعل فأنت فاعل في الحقيقة فعلا سيكون له الأثر المباشر على تغيير السلوك، إن المسلم لا يفعل كي لا يعصى لأنه في عدم فعله ينصاع. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أحبكم إلي أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون، وأبغضكم إلي الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الملتصقون للبراء العنت»، لذلك لا يفهم السلم إلا بضده وهو العنف، فالعنف هو الذي يريد أن يملك الآخر وأن ينفي وجوده، لأن العنف سيادة وسلطة، وفي قوله تعالى: «ولقد آتينا داود منا فضلا يا حبال أوبيي معه والطير وألنا له الحديد»، وهذه الليونة هي المعبر عنها في قوله تعالى وصفا للنبي صلى الله عليه وسلم: «فبما رحمة من الله لنت لهم».

إن السلم يوجد في الإنسان على درجات مختلفة حتى لا يعتقد أن أحدا سيأتي بسلمه للآخر، وهذه مشكلة غاية في الخطورة بمعنى أن هناك أناس يعرفون السلم وهذه هي المعادلة الخاطئة المغلوطة التي أشار إليها الأستاذ مولاي منير قبل قليل، وإنما ذلك تابع للنفس ودرجات استعدادها على حد قوله تعالى: «ونفس وما سواها قالهما فجورها وتقواها»، أي أن السلم ليس مبدأ يخضع صاحبه لتربية سلمية، هذا هو الذي تفقده وهذا هو الذي يجب أن يؤسس عليه العلاقة الاجتماعية والبشرية. إن التصوف يحمل مشروعا تربويا على السلم، وهو ألا يمثل سلطة. إن السلم يتعلم وإن كان في الأصل علما إلهيا وهيبا، إن العنف لا يمكن محوه وإزالته بصفة مطلقة وإنما ندفع عنها بعنف أقل منه وهذا يدخل في باب درء المفاسد وجلب المصالح عند الفقهاء وعند الأصوليين.

إن أصل العنف هو الغضب أو بإشارة أخرى أي الشعور بالذات، وبالمعرفة والامتلاك لذلك جاء الخطاب النبوي مباشرا، لا تغضب...، لأن الغضب هو الذي يفتح باب العنف، ولا يمكن التحكم فيه وهذا يقتضي تربية ومرانا وممارسة لذلك كان أول لقاء للوحي للنبي (ص) عندما قال له الله تعالى، اقرأ، قال ما أنا بقارئ، فنفي القراءة أي نفي المعرفة أي التحكم ونفي السلطة، فلا سلطة له، فجاء الخطاب الإلهي «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم»، وهذه إشارة نبوية غاية في الدقة. ما أنا بقارئ، لم يقل ماذا أقرأ، نفي القراءة والنفي هو الخروج من دائرة السلطة والتحكم، أي من العنف، والدخول في السلم مباشرة.

وأخيرا تقتضي التربية على السلم عدم المقارنة لأن المقارنة فيها دائما تعظيم للذات لذلك قال الله تعالى: «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» لذلك كل من يقارن يدخل إلى العنف، وهذا هو الذي جعل إبليس يدخل إلى العنف وإلى الصراع، أنه قارن بينه وبين آدم، أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فكان الخروج من رحمة الله والطرد، وكان مشروع إبليس، مشروع التصدي والعنف ضد الآدميين، وهو مشروع مازال حيا لحد الآن.

أيها الاخوة الكرام، هذه عبارة عن محطات اقتبستها من قراءتي المتواضعة والخاصة للخطاب الصوفي وللنصوص الصوفية، التي إن صح القول هي المعبرة عن أخلاقيات السلام، فالسلوك الصوفي منذ بدايته إلى نهايته ينتهي بالمحبة والمعرفة، ويبدأ باليقظة، أنا أقول إن العالم اليوم في حاجة إلى يقظة، لقد غفل العالم ونام في سبات عميق، هذا السبات سببه غياب المحبة الحقة القائمة على الرحمانية وغياب السلوك التربوي، وهذه اليقظة فاليقظة هي أول قدم يضعها الصوفي في سلوك الطريق القويم، واستدل الصوفية بقوله تعالى: «إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله»، فالقيام أي الخروج من الغفلة وأن نرى حوالينا أن الذي يهم هو بناء الإنسان، والذي يهم هو بناء السلام.

أحمد زكي

نشكر الدكتور على مداخلته القيمة. وأعطي الكلمة الآن للدكتور ميشيل تهاو شان ليلقي مداخلته بعنوان: «الفضائل النبيلة للصوفية في ثقافة السلم»، فليفضل مشكورا.

الدكتور ميشيل تهاو شان

بسم الله الرحمن الرحيم. إنه لمن دواعي فخري أن ألقى هذه المحاضرة. في الواقع، إنه حوار ومشاركة لمساري الذي استطعت من خلاله أن أعي المزايا المتعددة للصوفية. على غرار جميع الطلبة، أردت أولاً وقبل كل شيء، أن أدرس وأتلقن العلم. حصلت على شهادة دكتوراه في علم الأحياء وأخرى في العلوم، وكذلك في التمويل وعلم النفس... لكن جميع هاته الشهادات ليست ذات أهمية كبرى، لأنني اكتشفت، رفقة الأساتذة الكبار، ما أدعوه اليوم بعلم القلب... الصوفية. عايشة البوذية والطاوية لما يزيد عن أربعين عاماً قبل أن أتوصل إلى الصوفية، وما كنت أستطيع التعمق أكثر في المعرفة القلبية هذه وجدواها العظيمة لولا سيدي حمزة وسيدي جمال وسيدي منير، ولولا حضور الفقهاء وكبار الأساتذة. لقد قمت بتأسيس «دائرة تفكر الأمم» سنة 1994، حيث طورنا برنامجين دراسيين: دكتوراه في مجال إدارة السلام، وأخرى مخصصة للحكامة الدولية للتنمية المستدامة. بفضل الأساتذة الكبار تلقنت المعرفة القلبية وفضلها، تمكنت من تطوير برنامج حول المعارف. هناك أربعة أنواع من المعارف. توجد، في المقام الأول، المعارف المحملة والمعارف المقارنة. 95% من البرامج مبنية على هذين النوعين من المعارف، ويتم تدريسها في الجامعات. في المقابل، هناك نوعان آخران من المعارف: المعرفة الوجدانية والمعرفة التوليدية اللتان تطورتا بفضل المعرفة القلبية. هاتان الأخيرتان لا تكتفيان بقول: أنا أملك السلم، أنا أعزز مبادئ السلم، أنا أطور السلم، أنا أقل غضباً... لا. هناك تطبيقات أساسية أخرى للعلم. المحاكاة على سبيل المثال، بمعنى محاكاة الطبيعة، وكذا محاكاة الإنسان وطريقة تفكيره وتفكيره. إنه علم المستقبل، الذي سيتم تطويره في إطار ما يُسمى بالذكاء الاصطناعي، آلة التعليم وتطبيقات أخرى ستعطي للإنسان أهمية مقارنة مع ما لم يتم تطويره بعد. لقد اشتغلت على هذين البرنامجين في الأمم المتحدة لفائدة الدبلوماسيين وكبار رؤساء الشركات. كان هذان البرنامجان نتيجة لتفكير منبثق من المعرفة القلبية.

النقطة الثانية التي أود أن أتوقف عندها تخص المغرب بالأساس. منذ عامين فقط، بدأنا نشهد ما نسميه احتقالات بشعائر الأجداد في قلب منظمة الأمم المتحدة وداخل منظمة اليونسكو. كيف نشأ هذا الاحتقال؟ إذا ما نظرنا إلى التطور الذي تعيشه الصين، فأول سؤال يتبادر إلى خلد كل باحث ومفكر هو سرُّ هذا التطور السريع. ومن أهم الإجابات التي يمكننا تقديمها هي أنه في خضم هذا التطور، هناك دائماً احترام أشخاص النسيج المجتمعي الأكبر سناً. وفي المغرب أيضاً، لدينا في الصوفية سلالة عريقة تشكل الركيزة الأساس لشئ ثابت لا يتغير. إذا، فعلم القلب لا يسهم في تعزيز أخلاق شعب فقط، ولكن أيضاً في تطوير تكنولوجيات المستقبل التي سنكون في حاجة ماسة إليها. أود أن أشارك معكم شيئين مهمين: أولاً، الملاحظة حول السلم. منذ أكثر من ألفي سنة، وحتى أيامنا هذه، لا تزال الحرب قائمة. بل وفي بعض المناطق، نجدها أكثر حدة وفوضاوية مما نستطيع تخيله. بينما يطمح 99% من الناس إلى إرساء السلم. فأين تكمن المشكلة؟ هل نحن فقط منقادون في ثقافة تعليمية، وفي نظام ثابت ينتج الحرب باستمرار؟ إذا نظرنا إلى تطورنا اليوم، ما هو موعود وما هو منتشر هو الذي يكمل الحرب. حتى بالنسبة للأشخاص الذين يحاربون من أجل السلام وضد الحرب. هناك دائماً شيء ما ضد شيء آخر... وفي خضم كل هذه العملية، يوجد ما نسميه مصادر التنافس والتباري والتضاد بين الأشياء.

ما الذي نحتاجه كي نصبح قادرين على قلب أو تغيير هذا النموذج المعياري؟ لقد تم نسيان الصوفية: لم تلق انتشاراً واسعاً. في حين أنه في الصوفية ومعارف القلوب، يمكننا أن نعاود العثور على الأخلاق والآداب والعلوم السببية، ودروس الحكماء. أولئك الذين عاشوا قبلنا، الذين نسميهم آبائنا وأسلافنا، إلخ. نجد كل هذا في المعارف القلبية. وبالعودة إلى ما تعلمته عن الحقائق النبيلة، تعلمت من حديث أن لله ثلاثمائة صفة، وأنه إذا ما اتسم شخص بصفة واحدة من هذه الصفات يكون ماله الجنة. في البوذية، توجد صفة واحدة تلخص كل المنهاج البوذي، ألا وهي: الضمير، الضمير، الضمير... في الصوفية، توجد كلمة تعبر عن الحب تجاه الله وتجاه كل مخلوق في الآن ذاته، هاته الكلمة هي: التراحم.



ما المهم فيما نطلق عليه الحقائق الأربع في البوذية كما في الصوفية ؟ إنها الطريقة التي تسمح للإنسان بأن يفكر، وأن يسير أغوار نفسه بحثاً عن الجوهر كي يتسنى له فهم عملية التفكير هذه. الحقائق الأربع للصوفية، هي وجود التراحم. الولادة تراحم، الحب تراحم. في داخلنا، كل تغيير هو تراحم. الحقيقة الأولى إذن هي وجود التراحم. الحقيقة النبيلة الثانية هي أصل وأسباب هذا التراحم، لكن الأصل صار نسبياً منسياً. دعوني أقدم لكم مثالا : عندما تعضوا بأسنانكم على شفاهكم، لا تقول الشفة أبدا : سأنتقم من الأسنان. هذا يعني أن الحب هو مثل كيان واحد. الأمر مشابه عندما يكون عليك أن تحمل شيئاً ثقيلاً، إذا أملت يد اليسرى، فيدك اليمنى تتحمل ثقلها. هذا يعني إلى حد ما أن هناك حبا كامنا بداخلنا وهو التراحم الذي نسيناه. أصل هذا التراحم يجب أن يبلغ أقصى حد، يعني أنه يجب علينا أن نحب بعضنا البعض ونحس بضرورة الآخر في حياتنا. لا أحد غريب عن الآخر، نحن والعالم واحد. الحقيقة النبيلة الثالثة هي تحقيق هذا التراحم ؛ وهذا يأتي تقريبا من تلقاء نفسه. إذا حاولنا أن نفكر بعمق، سنبلغ الحب الأبدى... الجمال الأبدى... السعادة السرمدية. هذا الإجراء يسمح لنا بالتفكير مطولا في معرفة القلوب. ما هي السبل التي يجب أن نسلكها حتى نصل إلى تحقيق هذا التراحم ؟ نعد تقريبا عشرة عوامل أو إعدادات نجدها في سور متعددة من القرآن. ساكتفي بذكر إثنين أو ثلاثة. إحداها يتم تطبيقها بشكل كبير في المغرب، إنه الكرم ؛ التراحم بإكرام الآخر. وثانيها ورثتموها عن أسلافكم، سواء في التصوف أو في الحكم، إنها الأخلاق. وتوجد أخرى، من بينها الحكمة... كل هذا يشكل مسلكا من مسالك الصوفية التي يمكنكم اتباعها كل يوم. في كل مرة تعون فيها هذا، ستعاودون النظر في تلك العملية لإصلاح المشكل. سأعطي مثالا بسيطا حول هذا : الجميع غالبا ما يغضب، ونقول إن الغضب نصيح سوء، إلخ. كيف نحل هذا ؟ ستفهمون المبتغى من هذه الحكمة العادلة. يعني : الغضب، هو أن تؤذي نفسك بسبب غلطة الآخر، ما إن تحلوا هذا حتى تعطوا للأمر قيمته الحقيقية.

هذه هي الحقائق الأربع التي نجدها غالبا، وما أثر في نفسي كثيرا هي «سورة ياسين» التي تعتبر جوهر القرآن نفسه في الآية الخامسة والثمانين. من هنا قررت أن أركز في دراساتي وأبحاثي على التراحم. وفي البوذية، نتحدث عن جوهر الجوهر : ما يتبقى ولا ينتظر إلا الازدهار. إذا، ما الذي تعلمته في الآونة الأخيرة، وخاصة في المعرض المغربي للكتاب ؟ عبارات لطيفة، لقاء مع شخص، حوار مع كتاب، القراءة لأجل معلم، القراءة لأجل أطفال، القراءة لأجل كل من كان حاضرا، تستطيع أن تغير حياة أحدهم. الشيء الثاني الذي أود أن أشاطره معكم هو أن كل فعل تراحم هو فعل سلام، سلام تجاه الآخرين، سلام مطلق.

الاستنتاج الأخير : إذا لم يكن هناك وجود للسلام في ثقافتنا، فذلك لأننا نسينا أننا ننتمي إلى بعضنا البعض، وأن الواحد منا يكمل الآخر. إننا ننتظر بفارغ الصبر تطور الصوفية والعلم والمعرفة القلبية وانتشارها في دول أخرى ؛ لأن الصوفية والإسلام ليسا حكرًا على المسلمين فقط، بل يمتدان بصلة إلى كل أولئك الذين اتخذوا من السلام ضالتهم. نرجو من خلال هذه المقدمة أن يسود السلام العالم، وذلك عندما تحل سلطة الحب والتراحم محل حب السلطة، وسيأتي هذا بسرعة لأن جميعنا يعلم أن السياسة مؤقتة، وأن العلم متقلب، لكن الدين والإيمان والتراحم حقائِق تتسم بالديمومة.

أحمد زكي

أقدم بالشكر الجزيل للسيد ميشيل تهاو شان على شهادته النابعة من القلب، وأعطي الكلمة للفنان عبد المالك ليقدم مداخلة بعنوان «الصوفية والمجتمع».

عبد المالك

بسم الله الرحمن الرحيم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.
مساء الخير لكم جميعا. سيدي منير، إخواني، أخواتي. سيداتي، سادتي. عادة، عندما يُطلب مني الإدلاء بمداخلة، أفضل أن أحكي مساري الذي يجسد مدى تأثير الصوفية على مجتمع غربي، لأنها قصتي أنا. حظ والداي رحالهما في فرنسا خلال السبعينيات من القرن الماضي. وُلدت في باريس، وبعدها، افترق والداي وهما لا يزالان شابين، فترعرعت في ستراسبورغ، في إحدى الأحياء المهمشة، حيث تتمركز أغلب المشاكل الاجتماعية كالبطالة والانحراف، إلخ. هكذا أصبحت منحرفا. لقد كبرت في عائلة كاثوليكية، وولدت كاثوليكية في الأصل. كنت أبدي اهتماما كبيرا بالمدرسة والمعرفة منذ نعومة أظفاري، ما خلق لي نوعا من التناقض، لأنني كنت تلميذا نجيبا ومنحرفا في الوقت ذاته. باختصار، كنت أعيش حياة مزدوجة لا يتوافق فيها داخلي مع ما يعكسه مظهري الخارجي. وبما أننا كنا عرضة في الحي لعدة مشاكل، كان من الطبيعي أن نخوض مواجهات مع الشرطة. مات إثنان من أقاربي إثر هذه المواجهات. لكن بسبب المخدرات أيضا، مات صديقان لي نتيجة جرعة زائدة أمام عيني.واجهتي مع الموت والمعاناة في سن مبكرة كانت سببا في صحوة ضميري. وسرعان ما انصب كل تفكيري على مفهوم الروحانية، لأن مسيحية وكاثوليكية والذي لم تجد إجابات شافية لتساؤلاتي. في الوقت نفسه، حدثني أناس في الحي عن الإسلام. أحسست حينها كما لو كان الإسلام ديانتي الفطرية.

للأسف كانت هذه الديانة جميلة من الجانب النظري، لكنني لم أستطع أن ألمس ذلك في الجانب التطبيقي. كانوا يشيدون بميزات الرسول، إلخ. لكن ما كنت أراه في الواقع هو الطريقة التي يعيش بها هؤلاء الناس والتي كانت متناقضة تماما مع ما يقولونه. ما قدموه لي كانت نظرة عن الإسلام، نظرة تقصي الآخر، نظرة شعارها : «إننا على الصراط المستقيم، وإن الآخرين لفي ضلال مبين، إلخ». كنت أعيش هذا التناقض : تلميذ نجيب صباحا، وفتى منحرف مساء. في الوقت نفسه، كنت أكتب نصوصا، وكان لدي انجذاب نحو الإسلام. لكن كل الموازين انقلبت عندما توفي فرد من أفراد عائلتي. فهمت حينها أن الانحراف طريق آخره مسدود، وأن المطاف سينتهي بي إما ميتا، وإما نزيلا في مصحة نفسية، وإما مسجونًا. ومع ذلك، عانقت هذا التصور المزدوج للإسلام، والذي كان متعارضًا كل التعارض مع الدين الإسلامي الحق في مكنونه وجوهره، ومع ما نستطيع أن نعيشه في حياتنا اليومية. حتى أنني أصبحت نوعا ما مثملا يسمونه اليوم، في الإعلام، بالمتهرب والمتشدد، إلخ. هكذا أصبحت، أحسست أن شيئا ما لم يكن صائبا، لكن في الوقت ذاته راودني شعور بأنه يجب علي أن أحذو حذو الآخرين، وهذا ما فعلته في نهاية الأمر. هذا التصور الازدواجي للإسلام دفعني للقيام بمواعظ دينية في شتى أرجاء أوروبا. وإبان ذلك، بدأ بعض أصدقائي بالذهاب إلى سوريا والعراق لأنهم أرادوا الدفاع عن الإسلام، إلخ.



ذات يوم، حدثني صديق عن الصوفية، وأخبرني أنه إذا ما أردت أن أعرف ما هو الإسلام حقيقة، فعلي أن أعرف روح الإسلام وكنهه أولاً ؛ أي الصوفية. بدا الأمر غريباً بالنسبة إلي، لاسيما أن الناس المحيطين بي كانوا لا ينفكون يتحدثون عن العنف. قيل لي إن الإسلام سلام وحب. فوجدت نفسي أواجه متناقضة أخرى. فبدأت أقرأ إذن عن الصوفية، بدأت أقرأ كتابات الأمير عبد القادر الجزائري، وابن عربي، والإمام الغزالي. اجتاحتني غمامة حزن كثيفة، وأحسست أنني ولدت في الحقبة غير الصحيحة. أحسست أن الصوفية ولى زمانها وأضحت من الماضي المنسي، إلى أن بين لي صديقي العكس. فقد حدثني عن إمام يعلم الإسلام على المنهج الصوفي. أخبرني أنه كان إماماً بحق وأنه يقطن بالمغرب. وبما أنني كنت باحثاً عن الحقيقة، شددت رحالي وقصدت هذه المنطقة في شرق المغرب، في «مداغ» حيث توجد الزاوية البوتشيشية. جئت ورأيت سيدي حمزة الذي استقبلنا...

في الطائفة، طرحت على نفسي أسئلة كثيرة حول الصراع السياسي والصراع ضد الآخر، إلخ. كل هذه الأسئلة شتت ذهني تماماً. وحالما وطأت قدماي باب الغرفة، استقبلنا سيدي حمزة، ثم قال هذه الجملة التي قلبت حياتي رأساً على عقب : «هنا، لا مكان للسياسة. هنا، يوجد فقط حب الجميع دونما استثناء». كنت قد جئت بنظرة مغلوطة، بمفاهيم وقناعات تحمل جميع الأخطاء والمسؤوليات للدولة، وللشرطة، لفرد أو لآخر. فإذا بي ألتقي رجلاً صار شيخاً لي. أدركت ساعتها أنه لم يسبق لي أن تساءلت عما أتحملة أنا من مسؤولية ؟ وما الذي أستطيع أن أفعله حتى أغير الأمور إلى الأفضل ؟ بعدها، بقيت هنا أدعو وأصلي، وأقرأ القرآن. كنت ألتقي تدريجياً هذه التربية حيث يعلموننا حب الله ورسوله الكريم، و أن هذه الحقيقة لم تكن كل ما سمعته طيلة هذه السنوات، ولكنها سلوك وتصرف. فجأة، فهمت أنه على كل مسلم أن يكون مسلماً للبشرية جمعاء، سواء أكان الناس مؤمنين أم لا. فهمت كل هذا في لحظة واحدة، لقد عشت تجربة لا تُصدّق في بلدكم الساحر، المغرب. كنت بعيداً عن موطني، وبدأت أفهم حقائق الأشياء. لهذا قررت أن أشرع في الكتابة عن مساري، عما عشته، عن العلاقة التي ربطتني بشيخي وسائر أفراد العائلة البوتشيشية. ما عشته كان استثنائياً. بدأت أكتب انطلاقاً من هذا المنظور. ما حدث هو أنه رويديا، فهمت ما كان يلقنني إياه معلمي. بدأت أفهم أنه إذا أردنا تغيير الأشياء إلى الأفضل، يجب علينا أن نبدأ بحب أوطاننا أولاً، وبحب المكان الذي ترعرعنا فيه. بفضل الإسلام والطريقة القادرية البوتشيشية، بدأت أحب وطني فرنسا، وبدأت أفهم أن فرنسا هي وطني. كتبت أموراً كثيرة وفعلت أشياء عديدة في هذا الصدد، ما قادني إلى السفر حول العالم. أصبحت فنانيا مهما في فرنسا أمثل قيم هذا البلد. قيل لي أنك عندما تعانق الإسلام، ستبتعد عن كل أشكال الوطنية. لكن هذا غير صحيح. بتطبيق مبادئ الصوفية وتعاليم الإسلام، أحببت وطني، وجميع الكائنات، وغيّرت من سلوكي تجاه نفسي وتجاه الآخرين. نظمت حفلات موسيقية في جميع بقاع العالم : اليابان، الولايات المتحدة الأمريكية، أمريكا اللاتينية، إلخ.

لم أكتف بتقديم القيم الإيجابية والكونية فقط، لكنني قدمت أيضا قيم الإسلام، قيم الحب والاحترام، والحوار... والتي كانت عكس ما يروجونه عن الإسلام اليوم، أو ما يدعون أنه إسلام بينما هو العكس تماما. بدأت أقول للجميع، أينما حللت وارتحلت، أن التعليم والمعرفة مهمان بالفعل، لكنهما لا يكتملان دون الجانب الروحي. وقد كنت خير مثال على ذلك، حيث كنت طالبا مجدا في شبابي ؛ فقد درست الفلسفة والأدب الكلاسيكي، لكن هذا لم يمنني من الوقوع في الخطأ، حيث انحرفت عن المسار القويم للإسلام، ورأيت العديد من أصدقائي يذهبون للقتال في سوريا والعراق أو غيرهما. ومن يعلم ما كنت سأصبح اليوم لولا اكتشافني لروح الإسلام : الصوفية والطريقة البوتشيشية ؟ كنت سأكون غالبا في بؤرة من بؤر النزاع في الشرق الأوسط، أدعو إلى عكس ما أتى به الإسلام وأنا أحسب أنني أحسن صنعا. إذن بدأت أقول إن المهم يكمن في التربية والروحانية.

مؤخرا، وأنا أوصل هذا المسار وهذا العمل رفقة شيعي الجديد سيدي جمال ورفقة سيدي منير، توصلت إلى الاستنتاج الآتي : الحديث عن الروحانية شيء رائع ومهم بالطبع. لكن عن أي روحانية ينبغي أن نتحدث ؟ ينبغي لهذه الروحانية أن تكون فعالة، ينبغي لها أن تغير الأفراد. لقد كنت منحرفا، وسارقا. وها أنا اليوم رجل يحترم نفسه ويحترم الآخرين. رجل في قلب الحوار، وكل هذا بفضل التطبيق العملي لمبادئ الإسلام. لا يقتصر الأمر على بضع كلمات نجتزها فحسب ؛ لأنهم اليوم، في فرنسا وفي الغرب بصفة عامة، لا ينفكون يحدثوننا عن المبادئ الكونية... عن الحرية والأخوة والمساواة. كل هذا رائع، لكنه يظل دون معنى إن لم يُفَعَّل على أرض الواقع، وإن لم يُحَيَّن هذا الخطاب في علاقتنا الإنسانية باعتبارنا كائنات. لقد اكتشفت أيضا أمرا مذهلا. المغرب بلد رائد في هذا المجال، لأنه يشكل حلقة وصل بين إفريقيا وأوروبا، والشرق ؛ إنه بلد الإسلام والصوفية. وأيضا بفضل مجهودات الملك محمد السادس، نصره الله، أصبح المغرب منارة ليس للعالم الإسلامي فقط، ولكن للعالم المعاصر بأسره. العالم بحاجة إلى المغرب. العالم بحاجة إلى قيم المغرب التي هي قيم السلام والحب والاحترام... قيم الإسلام... قيم الصوفية.

العالم بحاجة إلى كل هذا، وإذا لم نسلط الضوء على هذه المثل العليا التي يحمل المغرب مشعلها، سيصير المجال رحبا أمام التشدد، وما يمكن أن يترتب عنه من دمار وخراب، وسينتج عن ذلك جيل من الشباب الضائع الذي سينتهي به المطاف مقتولا، لأنهم يتشبثون بما يخالونه روحانية، والذي هو في الواقع يفرق بين الناس. لقد أدركت اليوم أنه من المهم أن أتحدث عن الصوفية، لكن من المهم كذلك أن أتحدث عن المغرب ؛ عن هذا البلد الذي يُجسّد بشكل فعلي سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم المتَّبَع من لدن كبار مشايخ الصوفية والإسلام. إنكم محظوظون لتواجدكم في بلد تُطَبَّق فيه هذه الروحانية تطبيقا فعليا ؛ ولقد سنحت لي الفرصة لأعيشها بجانب سيدي جمال وسيدي منير. أظن أنه من المهم أن أقول هذا. هذا ليس تبشيرا على الإطلاق، بل إنها الحقيقة.

اليوم، عندما أكون في فرنسا وأتحدث إلى شباب مسلمين، يقولون لي : «نحن نمارس الشعائر، لكن هذا بدون جدوى، لا نستطيع أن نتغير. نحن نطبق ونرى أناسا يعيشون في التناقض : يتحدثون عن الإسلام، ولكن لا يسلكون سلوك المسلمين». أنا أتحدث لأجل هؤلاء. أنا نفسي تغيرت، لقد أخبرتكم بهذا عند البدء ؛ لقد وُلدت في أسرة مسيحية كاثوليكية. عندما علموا أنني اعتنقت الإسلام، خافوا كثيرا. ولكن بفضل هذه التربية التي تلقيتها على يد سيدي حمزة، والتي ألقاها اليوم من سيدي منير، استطاعوا أن يلمسوا سلوكا وأن يلقوا أناسا لا علاقة لهم بما كانوا يتخيلونه عن الإسلام، فغيروا ديانتهم. اليوم، تقريبا جميع أفراد عائلتي هم مسلمون ؛ وتجدر الإشارة إلى أنهم لم يصبحوا مسلمين عن طريق التقليد، لكن بممارسة هذه الطريقة الصوفية. عندما رأوا الإسلام مفعلا بهذه الطريقة تأثروا كثيرا. لقد أرادوا أن يصيروا مسلمين لكي يصبحوا أناسا متحابين، أناسا يتحاورون، أناسا يحبون الإنسانية جمعا. أود فقط أن أذكركم بأنكم محظوظون لتواجدكم في هذا البلد : بلد الأولياء، بلد متشبع بالشعائر الإسلامية إلى حد كبير، بلد بوسعه أن يكون نموذجا ومرجعاً ليس فقط للعالم الإسلامي ولكن للعالم بأسره.

يعيش العالم اليوم أزمة ليست خارجية، لكنها أزمة قيم وافتقاد إرشادات. إنكم محظوظون لتواجدكم في بلد حيث لا تزال القيم حاضرة والروحانية حية بينكم، محترمة للآخر وللجميع. إنها ملموسة وإنها هنا. أردت أن أخبركم بهذا. لديكم كنز. ولكم أن تظهروا هذا الكنز للعالم.

الدكتور محمد بنيعيش

بسم الله الرحمن الرحيم، واللهم صل وسلم على سيدنا محمد النبي المليح صاحب المقام وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

السيد مدير هذا اللقاء مولاي منير القادري بوتشيش، السادة الأساتذة الحاضرين في هذا اللقاء العلمي. في الحقيقة قد تفاعلت مع مداخلات الإخوة الذين سبقوني وربما طووا عني كثيرا من العناء في هذا المجال، وتفاعلت خاصة مع الإخوة الذين تحدثوا باللغة الفرنسية، وكنت أود أن أخوض في الكلمات بالفرنسية أو بعض العبارات لكن أعتذر لأنني لن أتمكن من ترجمة مداخلتي.

عنوان هذه المداخلة حاولت أن تكون ذات طابع أكاديمي علمي، ثقافي يسعى إلى الارتقاء بهذا الموضوع الذي اخترت له هذا العنوان المركب وهو «ضبط النفس ومسالك التحمل لتحقيق السلم عند الصوفية»، وحتى أسابق الزمن سأعرض بعض العناصر المنظمة لهذا الموضوع، ثم إن بقي لنا الوقت قد أكتله، أو سأحاول أن أقف عند محطات أساسية ربما قد تدخل بنا في عمق مفهوم السلام وحقيقته والأبعاد الرئيسية للسلام. من العناصر الأساسية لهذا الموضوع :

1- مبادئ وآليات ضبط النفس ومتابعة سلوكها.

2- التحديد المبدئي لأسباب العنف والصدام الإنساني.

3- التكامل الوظيفي والتأليف الروحي لتحقيق السلم الاجتماعي والعالمي.

4- توظيف المضادات الحيوية واعتماد السيرة النبوية في السلم والحلم.

في المحور الأول، أول ما نبتدأ بالتعريف كما رأينا في هذا العنوان، هو تعريف يعتمد على موضوع النفس ولهذا فالتصوف له عدة تعريفات، ولكن سأختار له تعريفا مناسباً لهذا الموضوع، وهو التعريف النفسي في حد ذاته وعلى رأسه الجنيـد «التصوف هو تصفية القلوب، ومجانبة نزوات النفس ومخالفة أخلاق الطبيعة»، فالصوفية على هذا الأساس هي بناء السلام، وهو ضد الحرب وضد الاعتداء، ولكي أكون بسلام وحتى يكون الآخر معي في سلام، لأنه إذا لم أكن أنا أولا في سلام، فهنا سيقع ما يسمى مبدأ التزاحم والتدافع، وبالتالي سأكون حينئذ في صراع والكل يريد أن يأخذ مكان الآخر، ولهذا فمن منهج الصوفية ابتداء وعلى مستوى التحديد المعرفي والتحديد المنهجي. فإن لديهم منهج متكامل بين المعرفة وبين تطبيق هذه المعرفة كمنهج أساسي، ومن أول مبادئ هذه المعرفة للدخول إلى العمق الإنساني، فإنهم يطرحون ما يسمى بالملاحظة الداخلية للنفس ستنبني على علم ما يسمى بعلم الخواطر، أي الأفكار الطارئة على الإنسان من حيث لا يريد، ومن حيث لا يستجلب هذه الأفكار، وهذا العلم قد عرف عند الصوفية على المستوى التنظيري وعلى المستوى الذوقي والتطبيقي وعلم الخواطر هو البحث في الباعث النفسي للإنسان لكي يبنني عليه سلوكا معينا، وحين يبنني هذا السلوك فإنه سيتقمص أو سيصبح بحسب ذلك محركا أو خلفية رئيسية لذلك السلوك، ولهذا فمن أهم الخواطر التي قسمها الصوفية نجد أربعة خواطر هي، الخاطر الرباني، الخاطر الملكي، الخاطر النفساني والخطر الشيطاني.

هذه الخواطر حينما تتداخل فيما بينها من حيث دفع الإنسان إلى سلوك ونمط معين من الأفعال، فإن هذا السلوك ربما قد يبدو في البداية حميدا، ولكن حيث أن خلفيته غير صحيحة فإنه سيؤدي به إلى مآل غير محمود، وعلى ضوء هذا التأسيس المعرفي لهذه الخواطر سيؤسسون منهاجاً وقواعد أساسية في ضبط هذه الخواطر ومصاحبتها، وهي تنبني على أربعة عناصر أساسية متداخلة فيما بينها تداخلا قويا وهي، مبدأ المجاهدة، مبدأ الريادة، مبدأ المراقبة ومبدأ المحاسبة.



تنقسم هذه المبادئ إلى فريقين، مبدأ المجاهدة والريادة، وهي التي تجمع بين الترويض السلوكي والترويض النفسي لأنه حينما نسمع الرياضة فهي عند الصوفية لها بعد نفسياني، ترويض النفس على سلوك معين وعلى الوقوف على مبادئ معينة، وهذا يدخل في إطار الترويض النفسي والمجاهدة، على عكس ذلك هي ترويض آلي للحواس والغرائز حتى لا تقع في مطبات تؤدي إلى صدام مع الآخر. والملاحظ أن مبدأ المجاهدة عند الصوفية هو الجهاد، وحين طرح الصوفية هذا المبدأ فإنهم كانوا مبادرين إلى السلم. لماذا ؟ لأنه حين نقول مجاهدة النفس فهذه تعتبر عندهم هي الجهاد الأكبر، وحيث إنها كذلك فهي احتواء الصوفي لما بداخله من غليان ونزعات ودوافع الغضب والعنف والكبر وكل الأخلاق الذميمة. حينما نقوم بضبط هذه العناصر سيصبح هذا الشخص في غنى عن الجهاد الآخر وعن مزاحمة الآخر، لماذا ؟ لأنه عرف حدوده وبالتالي وقف عندها، حينما تقع هذه المجاهدة وهذه الرياضة ينتقل إلى المراقبة، وهي عند الصوفية مراقبة ذات أبعاد ويمكن ربطها بعلم النفس، أو ما يسمى بالملاحظة الداخلية والخارجية، ويوظفها الصوفية بطريقة موضوعية، وهنا يكون المحور كما أشار إلى ذلك الأساتذة، حول أن القلب يصبح محور هذه الملاحظة وذلك باعتبار أن هذا القلب يضعف ليصبح في رؤية شمولية واستيعابية للعالم الآخر، ولكل ما حوله بصورة ذات جلاء لا لبس فيه. فطالما هناك عوائق في القلب هناك مطبات فيه، فإن هذا الشخص لا يمكنه أن يفتح على الآخرين انفتاحا كلياً، ولهذا يفتح أبو حامد الغزالي في هذا المجال أنه يراقب الإنسان عيوب نفسه بطرح بعض الأدوات الأساسية، أول شيء أن يراقب نفسه بنفسه، أو من خلال صديق له وتسمى الملاحظة الخارجية، وأن يراقب نفسه من خلال عدوه، بحيث يكون العدو أكثر صدقاً في قول الحقيقة بالنسبة إليك، فكل من يعاديك سيخرج لك عيوبك. هنا يكون للعدو طابع إيجابي، بحيث يلجأ الصوفي إلى عدوه لكي يريه مرآة نفسه. ثم يتخذ شيخاً عارفاً متمرساً عالماً في علم النفس الروحي وله تجربة في هذه الملاحظة، وبالتالي يكون الأخذ منه في هذا المجال هو الطريق الأمثل للدخول إلى القلب، لأنه حينما يتقابل صاحب القلب الكبير مع صاحب القلب الذي مازال متردداً، وما زالت فيه الزوايا، فحينئذ تكون هناك القدرة على التغيير الموضوعي والسلوكي بكل معانيه، ولهذا كما يقول ابن عطاء الله السكندري «لولا ميادين النقاش لما تحقق سير السائرين». فهذا الطرح يقول الغزالي رحمه الله أنه مهما أنت راعيت هذه الزوايا في النفس فتبقى فيها زوايا دقيقة لا يمكن استخراجها، مثل ذلك البرعم الذي لم يخرج رأسه بعد من الأرض، وحينما يقوم الفلاح بإزالة الأعشاب فيغفل عن هذا البرعم وفي الأخير ينمو وبالتالي يغير السلوك، وهذا يمكن أن نضعه في إطار ما يسمى بالاشعور السلوكي، الذي يحدد السلوك من حيث لا يدري.

يطرح الصوفي نقطة أخرى لكي ترتفع عنك المنازعة يطرح مبدأ الله، وكما يقول ابن عطاء الله السكندري أيضاً «نعلك أن تدعي ما ليس لك من المخلوقين أقبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين». إذا مبدأ الاعتداء على الآخر يبنّي بالدرجة الأولى على أسس عقديّة لأن اعتداءك على الآخر هو عدم التزامك بالمراقبة الإلهية، دخولك واعتداؤك على مقام الألوهية لأنك ستصبح في مقام الكبر، العنف والاعتداء، وهذه من مقامات الألوهية «الكبر ردائي والكبرياء ردائي والعظمة لي، فمن نازعني فيهما فقد أقسمته»، فإذا، حينما تنقلت عن تعاملك مع الله سبحانه وتعالى القلبي حينئذ تذهب إلى الآخر، تريد أن تمارس ألوهيتك وسلطتك وعنفك على الآخر للاستيلاء عليه. اختصر هذه العناصر في التحدي المبدئي لأسباب العنف والصدام الإنساني، وأقسمه إلى السبب الموضوعي، والذي يساوي الخوف من قوت المقاصد ويساوي أيضاً مبدأ المزاحمة، والسبب الذاتي وهو الذي يبنّي على خبث النفس واستبداد العقل الباطن، وثالثاً السبب التواضعي والتعليق الثقافي للسلوك باعتباره دليلاً على ضعف الشخصية المريضة، وأركز علة هذا العنصر الثالث، وهو يعتبر الصوفية أن من الأسباب التي تساهم في انتشار العنف والحروب والاعتداء على الآخر هو وجود ثقافة معينة، هذه الأخيرة تحدد العنف بطريقة أو بأخرى بحيث تنتقل من مفهوم الشجاعة إلى مفهوم التسامح إلى مفهوم الانتقام؛ أي أن الشخص الذي لا ينتقم لظلم أصابه قد يعتبر عندنا في مجتمعنا أنه جبان وليست له قيمة، فهذه الأفكار هي التي تؤدي إلى تولد هذه الظاهرة حتى تصبح ثقافة عامة، وأنداك ستعم المجتمع وتؤثر في الحياة العامة للإنسانية.

التكامل الوظيفي والتأليف الروحي لتحقيق السلم الاجتماعي والعالمي : هو الذي يبنّي على : رابطة الجنسية النفسية، ومبدأ التغيير والتأثير، محورية القلب ودوره في تحقيق السلم والتجانس، والاعتماد الوظيفي يقوم على وظيفة السلوك بحسب طبقات القلب، وطبقة القلب كما يذهب إليها أبو حامد الغزالي تنقسم إلى أربع طبقات مثل حبة اللوز الذي له لبه، ولب له، وقشره وقشر قشره، فطالما نحن عشنا مع القشور، قشور السلوك والأفكار فنحن لن ندخل إلى هذا القلب، والصوفي يسعى دائماً إلى الدخول إلى هذا القلب في عمق أعماقه. وأول مدرسة في العالم هي التي طرحت ما يسمى باطل الباطل، أي لاشعور الشعور بحيث هذا العمق في الكيان الإنساني هو الذي يسعى الصوفي لاستخراجه، وحين يستخرج هذا الأسلوب يكون ضبط النفس وأساليب التحلم افتعال للترويض السلوكي للوصول إلى السلام الذي هو مطلب الجميع. أختتم وأقول إن مبدأ السلام هو مبدأ وجودي بالدرجة الأولى، إلا أنه لا يمكن أن يحققه بصورة الإطلاق، ولكن يبقى دائماً في إطار النسبية وبحسب تفاوت هذه النسب نكون قد نجحنا في تأسيس السلام إلى أنفسنا ومجتمعنا ووطننا والعالم أجمع. والسلام عيكم ورحمة الله.

أحمد زكي

نشكر الدكتور محمد بنيعش على مداخلته القيمة، وآخر تدخل في هذا الحفل الخاص بالثقافة والسلام والتصوف هو للأستاذ بلقاسم الجطاري تحت عنوان «إسهامات صوفية الريف في بناء السلم المجتمعي».

بلقاسم الجطاري

بسم الله الرحمن الرحيم، شكراً سيدي الرئيس، سيداتي، ساداتي، دعوني ودون تكلف أقول إن لبعض الملاقى شذى وعطراً فريداً، وإن لبعض الأحاديث قبولا عجيبياً يصادف هوى في النفوس لا تصادفه أخرى. دعوني بغير مجاملة أقول أيضاً إن الدعوة للحديث عن التصوف والصالح هي دعوة لمساءلة مدارج راقية من مدارج الوجود، والإدراك وفرصة لمحاورة ألوان من الذوق والعرفان، لذا لن يستقيم القول ولن يستطاب القصد إلا وقد جعلنا المحبة زاداً والثناء عتاداً، ثنائياً وشكري إذا لمن دعا واستضاف وهياً العدة، والمضيف وتقديري لمن توبس بالنباغة وبالفصاحة فأودع موضوع التصوف وموضوع الصلاح في برنامج هذا المعرض المبارك.



قراري هو أن أجعل للمساهمة موضوعا هو وظيفة الصلاح وسوسيولوجية الشفاعة بالريف المغربي، أرجو صادقا أن يستفيد السامع فائدة معتبرة وأن تستحف غير المنخرطين في مضمار العرفان على الاستزادة من هذا العقد المعرفي المفيد الفريد، أقول في مداخلتني : يشيع الاعتقاد لدى غير العارفين أن رجال الصلاح والتصوف رجال منزوون في خلواتهم ومنكفؤون على أنفسهم، لا تشغلهم هموم الحياة الدنيا، داركون صفحا في شؤون بلادهم وأحوال أهلهم، وهذا الاعتقاد لعمري خاطئ نشأ بفعل ميل الناس إلى الاختزال والاطمئنان إلى النمطية الشائعة لدى كثير من عوام الناس وخواصه.

إن عوامل رجالات الصلاح والتصوف لم تنحصر في دائرة الزهد والخلوة رغم ما لذلك من أثر في تربية النفس وتجلية الحقائق، والحاصل أن ميزة تجربتهم الروحية تكمن في قدرتهم على الجمع والتوفيق بين أدوار ووظائف تتوزع بين مجالات الحياة المختلفة، الدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والروحية، وهو ما أضفى على سلطتهم فريدة وجاذبية لم يكتسبها أي من ذوي الجاه والنفوذ. لقد استندت سلطة الصلحاء والصوفية عبر التاريخ إلى شرعية الواجب الأخلاقي وهو ما جعل وجوده حاجة اجتماعية مطلوبة وبالأخص في فترات الأزمات السياسية الداخلية أو التهديدات الخارجية، وقد زادت الحاجة لهذا الدور في المناطق البعيدة عن مراكز النفوذ السلطاني، كمنطقة الريف ذات التضاريس الوعرة والبنية القبلية الانقسامية.

لا بأس من التذكير هنا أن أرض الريف بشمال المغرب الأقصى قد ارتبطت منذ وقت مبكر بالصلحاء والمرابطين وبالفقهاء الذين نشروا الإسلام وعلومه على أساس التلاسن بين المعرفة والسلوك العملي، كما تجلّى في تجربة آل صالح بالנקور، ثم في تجارب من جاء بعدهم، وقد وفد خلال القرن 6 الهجري 12 الميلادي، والمتأثرين بتعاليم الصوفية الكبرى من المشرق والأندلس وبلاد المغرب، وفي هذا الصدد واستنادا إلى ما حازه المتصوفة بالريف من وظائف الشفاعة والوساطة فقد ساهم هؤلاء بفعالية في إرساء أسس الأمن والسلم الاجتماعيين وذلك على مستويات عديدة أكبر منها مستوى، التدخل في جوانح العلاقات بين الفاعلين الاجتماعيين المختلفين سواء على الصعيد الداخلي بين الأطراف الأسرية والقبلية والقبليّة أو في علاقتهم بالسلطة المحلية أو بالسلطة المركزية، ومستوى توفير شروط الأمن الاقتصادي والسياسي والثقافي بتفعيل أدوار «الحرم» الأمان المقدس والإطعام والتكافل وتأمين سبل الحياة الاقتصادية والعمرانية، يتضح مما سبق ذكره أن ميثاق الصلاح بالمنطقة قد كان نتيجة الحاجة لتدبير جوانب مركبة من حياة الناس الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

الحق أن هذه الأدوار التي اضطلع بها الصلحاء والمتصوفة نابعة من موقعهم الرمزي والاعتباري، وهي أدوار فرضتها شروط موضوعية عديدة تراكمت على امتداد عقود ساهمت أولاً في تخفيف بؤر النزاع والخصام، وفرض حد معقول من السلم والأمن سمح للمجتمع الريفي بأداء وظائفه الطبيعية والاستمرار في نشاط مؤسسته. حتى أخرج بحديثي إلى وظائف بعينها تكشف عن طبيعة المهام التي أسندت بضغط الحاجة الاجتماعية إلى هؤلاء الصلحاء على مر الحقب، سأتناول على سبيل المثال وظيفة التحكيم بوصفه تفعيلًا لوظيفة الوساطة والشفاعة، ومعلوم هنا أن الشفاعة قد انتقلت من مجالها الروحاني المحض إلى مجال سوسيو-سياسي، موصول إلى مشاغل الأفراد والجماعات. إن الشفاعة مقولة دينية وآلية سوسيو-ثقافية بمعنى الوساطة بين طرفين للحصول على منفعة أو تحقيق طلب لأحدهما، أو بمعنى آخر يحيل على النتيجة المتوخاة من ورائها وهو العفو والقبول الذي يمنحه الطرف الأقوى في العلاقة وصفة الشفاعة متأصلة في تاريخ التدين الإنساني تحيل على فكرة الخلاص وعلى فكرة الانقاذ الإلهي المتجذرتين في التراث الديني الكتابي، والتي يرى معتنقها أن الله قد اصطفى من خلقه أشخاصا مقربين له أنبياء وأولياء ممن يقتون الناس في الدنيا والآخرة من تبعات أعمالهم السيئة. وفي هذا الشأن ننقل عن الغزالي قوله، «إذا حق دخول الله على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى يقبل بفصله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين، شفاعة الأمناء والصلحين»، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن المعاملة فإن له شفاعة في أهله وقربائه وأصدقائه ومعارفه، وقد شهد هذا المفهوم تحويرات عديدة في المعتقد الإسلامي، إذ كان في البداية مقتصرًا على إمكانية تخلص المذنبين يوم القيامة بتدخل أهل الوجاهة عند الله قبل أن يمتد ويكتسب مضمونا دينويا، فأضحى بالإمكان التدخل من طرف هؤلاء الوسطاء لدى الله لطلب قضاء أي حاجة بالدعاء وغيره؛ وبالتالي تحول هؤلاء الوسطاء إلى وسيلة يتخذها الناس أفرادا وجماعات للتواصل مع عالم الغيب واقتضى منه أداء طقوس خاصة يعبرون بها عن ولائهم واعترافيهم وتقربهم إلى هؤلاء، هذه الطقوس التي اضطلع عليها بالتوسل هي تعبير عن وضعية في سلم العلاقات الاجتماعية بين الوجاهة والدينين، وأتباعهم تعكس اعترافا بالقوى الروحية الرمزية المادية التي يمتلكها ويستخدمها هؤلاء الوجاهة في أداء مهمتهم التوسيطية. وقد ساهم الخطاب الصوفي في إنشاء وتسويق العلاقة التي تجمع بين الأولياء الصلحاء وأتباعهم ومريدتهم حيث تم تقديم الأولياء والصلحاء والشرفاء بوصفهم شفعاء عند الله لتحقيق أمانى وحاجات الناس في الدنيا والآخرة.

وهكذا شرع الناس في اللجوء إلى الأولياء والصلحاء كلما حلت بهم مصيبة أو ضائقة متوسلين منهم إعمال جاههم عند الله لطلب الفرج؛ وفي هذا الصدد، تقدم كتب المناقب والكرامات أمثلة عديدة عن تدخلات الأولياء والصلحاء في هذه الحالات، نذكر منها كرامة وجاج بن زلمة اللامي الذي توفي سنة 454 هجرية (1054 م)، والذي قبل توسل المصامدة به لطلب المطر إذ كانوا يزورونه ويتبركون به، وإذا أصابهم قحط استسقوا به. ومن الشواهد أيضا قبول الشيخ يعقوب ابن الشفاف استغاثة المرأة التي أسر ابنها من طرف القراصنة على مقربة من بادس لفق أسره. كما تولى الشرفاء الأدارسة مهمة التشفع لأهل فاس لتحقيق مطالبهم لدى الله، إذ أورد الجزائري أن الناس يتبركون بشهاداتهم في الصدقات ويتوسلون به في الشفاعات ويستسقون بأطفالهم في الاستسقاءات لكل مجال. استخدام الشفاعة من طرف الأولياء والصلحاء تعدى المستوى الروحي الغيبي إلى مستوى آخر، فاكتمسى مدلولًا واقعيًا، كأن يتوسل إلى الولي أن يتدخل لدى السلطات بهدف استقرار عطف السلطان على الجهة أو الطرف المعني بالشفاعة. وتوجد بكتب المناقب نماذج عديدة لأولياء وصلحاء مارسوا مهمة الشفاعة لدى السلاطين نظرا لمكانتهم الاعتبارية مثل الشيخ عبد العزيز الصنهاجي الذي كان السلطان عبد العزيز المريني لا يردده في حاجة، ولذلك عظم التوسل به إليه. كما اقترن مفهوم الشفاعة بمفاهيم أخرى مثل «الزواكة» والعار ومفاهيم أخرى تمثل جزءا من المنظومة القبلية وركنا من أركان العرف الذي كان ينظم الحياة الاجتماعية والذي يوفر أدوات لحل النزاعات سواء بين الأفراد والمجموعات أو بينهم وبين السلطة المركزية.

لذلك شكلت الشفاعة ركيزة أساسية لتجسيد سلطة الأولياء والصلحاء ومكونا بنيويا في إنتاج وجاهتهم والاعتراف بقوتهم باعتبارها وسيلة من وسائل التنظيم والضبط الاجتماعيين وأداة لضمان التوازن والاستقرار الاجتماعي. وبناء عليه يمكن القول إن الشفاعة كانت نظاما من القيم والرموز يستوجبها بناء وضبط العلاقات بين الأولياء والصلحاء من جهة والفاعلين الاجتماعيين الآخرين من جهة أخرى. ختاماً، إن ما عرضته في هذه المداخلة المتواضعة لا يرقى إلى مرتبة القول الفصل وأن الحديث عن الصلاح والحديث عن الشفاعة تخصيصاً والتصوف تعميماً بالريف وبغيره من ربوع المغرب والعالم الإسلامي يستدعي جهداً وتراكماً ويستلزم مدخرات علمية لا تتحقق إلا في ضوء الجدل والنقاش والتجاوز والعمل الجماعي. وهو ما نرجو أن نظفر به في رحاب هذا المحفل العلمي المبارك.

المعرض المغاربي للكتاب



المؤتمر
الصحافي
الختامي



المشاركون :

- محمد امباركي، رئيس المعرض المغاربي للكتاب، مدير عام وكالة جهة الشرق ؛
- عبد القادر الرتتاني، رئيس اتحاد الناشرين المغاربة ؛
- جلال الحكماوي، مدير المعرض المغاربي للكتاب 2018 ؛
- ادريس خروز، مدير المعرض المغاربي للكتاب 2018 ؛



موجز مداخلات المائدة المستديرة

عقد هذا المؤتمر الصحفي في اليوم الموالي لاختتام فعاليات المعرض المغاربي للكتاب. ورغم أن الإحصائيات النهائية ليست متوفرة بعد (سننشرها لحظة توفرها)، فمن الواضح أن عدد زوار المعرض ممتاز، وأن عدد المهنيين المشاركين ممتاز أيضا. انتقلنا من سبعة عشر ناشر في الدورة الأولى إلى خمسة وعشرين ناشر في الدورة الثانية، علما أن شروط المشاركة صارمة وتفرض على الناشر الالتزام بكل القوانين المنظمة لصناعة الطباعة والنشر والملكية الفكرية دوليا، وفي مقدمتها الرقم الدولي المعياري للكتاب ورقم الإيداع القانوني. مسألة أخرى تم طرحها هي تعبئة الشباب ومشاركته في فعاليات المعرض. تمت الإشارة إلى أن معدل أعمار زوار المعرض والمشاركين في الموائد المستديرة مرتفع نسبيا.

تمت الإشارة أيضا إلى الحملة الترويجية الكبيرة التي سبقت المعرض بأيام في شوارع وجدة وفي وسائل الإعلام السمعية البصرية لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الزوار، وفي مقدمتهم الشباب. أما الأطفال فقد استفادوا من تظاهرة «طفولة الكتاب»، التي نظم الجزء الأول منها داخل خيمة المعرض، على أن ينظم الجزء الثاني في قافلة تبدأ جولتها من اليوم الموالي لانتهاء فعاليات المعرض : ستساهم في تنشيط هذه القافلة المنظمة الوطنية للتعليم الأولي.



استقر الرأي على تنظيم المعرض في أربعة أيام ؛ وقد أصبح هذا الاختيار أحد أهم سمات المعرض كعلامة مسجلة باسم وكالة جهة الشرق. هذا الاختيار فيه اقتداء بالمعارض العالمية، ويساعد على استقطاب خيرة المثقفين والمفكرين في الموائد المستديرة المنظمة، وعلى ضبط مالية المعرض، خاصة أن المعرض يخصص ميزانية مهمة لبناء الخيمة التي تستقبل النashرين. هذا الهاجس المادي هو الذي دفع القائمين على المعرض للتفكير في خلق مؤسسة مهمتها توفير التمويلات الضرورية والإشراف على مجموعة من ظاهرات الكتاب التي ستخلق زخما تصاعديا تكون ذروته افتتاح الدورة الجديدة من المعرض. نقطة أخرى تم التطرق إليها هي فكرة نقل جزء من أنشطة المعرض إلى مناطق مختلفة من الجهة وتنظيم أنشطة محلية طوال السنة وتأسيس ظاهرات جديدة مثل معرض الحكاية : نوع من السرد يشترك فيه المغرب مع عدد من الدول حول العالم، لاسيما بلدان المغرب الكبير. هذه كلها أفكار طرحت في سياق مناقشة سبل إطالة عمر المعرض ليشمل المدة الفاصلة بين اختتام دورة وافتتاح دورة أخرى.

مداخلات المائدة المستديرة

محمد امباركي

مرحبا بجميع الصحافيين الذين التحقوا بهذا المؤتمر الصحافي المنظم في ختام فعاليات الدورة الثانية من المعرض المغاربي للكتاب «آداب مغربية». يشكل هذا المعرض تعبيراً صريحاً عن اهتمام وكالة جهة الشرق بصورة جهة الشرق. وتسعى الوكالة إلى إبراز صورة جديدة تظهر الإمكانات الكبيرة للجهة، خاصة إمكانياتها الفكرية غير المستثمرة في رفع جاذبيتها في عصر اقتصاد المعرفة والابتكار. علاوة على ذلك، تسعى الوكالة إلى صورة تبرز موروث الجهة المادي واللامادي الغني، وتعرف بمختلف أورشها التنموية. وقد حققت الوكالة جزءاً مهماً من هذا الهدف عبر وسائل مختلفة، أبرزها إصدار مؤلفات تعرف بالجهة من كل النواحي. وبالتالي، فقد اكتسبت وكالة الشرق تجربة مهمة في ميدان الكتاب والنشر أهلته لتنظيم هذا المعرض. وخلال تحضيرها لهذا الحدث، لم تواجه الوكالة صعوبة في إيجاد شركاء من المؤسسات الوطنية والجهوية ومن المهنيين وأهل الفكر والثقافة، لأن المبادرات الجيدة تحشد الهمم وتلقى القبول عند الجميع. أما الأهداف المسطرة لهذا المشروع فهي أبعد ما تكون عن استهداف العالم الخارجي وحده لأنها تراعي واقع الكتاب بالجهة، وفي مقدمتها التورية البطيئة لتطور المكتبات والكتبيين مقارنة بتورية تطور صناعة طبع ونشر الإصدارات الأدبية والعلمية التي لا تجد طريقها إلى القارئ كما ينبغي. وبهذا المعنى، يصبح المعرض المغاربي للكتاب ميسر للمطالعة ومحفزاً عليها داخل الجهة.

أخيراً، فهم الجميع، بالنظر إلى تاريخ الجهة، أن تظاهرة من هذا النوع وبهذه الأهمية لا يمكن أن تكون إلا مغربية وإفريقية من شدة ارتباط مصير هذه الجهة بمصير المغرب الكبير وإفريقيا، فلطالما كانت وجدة مدينة محورية داخل هذه الفضاءات. عموماً، هذه هي الأفكار التي تبلور من خلالها تصور المعرض المنظمة دورته الأولى سنة 2017 بنجاح كبير منح هذه التظاهرة وما تعبر عنه من أفكار إشعاعاً كبيراً.

عبد القادر الرتقاني

في الحقيق، الدورة الثانية من المعرض المغاربي للكتاب، التي اختتمت فعالياتها يوم أمس، وضعت وكالة جهة الشرق وشركائها أمام تحدي رفع سقف الطموحات والأهداف المسطرة. وأرى أننا فعلاً رفعنا التحدي ونجحنا فيه لما فتحنا باب النقاش في موضوع «مقاربة الكوني»، كموضوع أني يفرض نفسه بقوة، ولما حرصنا على الكيف بدل الكم لاستقطاب مفكرين من الطراز الرفيع. وهنا لا بد من شكر اللجنة المنظمة وعلى رأسها المنسقان ادريس خروز وجلال الحكماوي. شخصياً، تابعت عدد من الموائد المستديرة والأنشطة الموازية، لكنني بطبيعة الحال ركزت على قطاع النشر. استقطبت دورة المعرض الأولى، المنظمة بين 21 إلى 23 شتنبر من سنة 2017، سبعة عشر ناشراً؛ أما الدورة الثانية فقد استقطبت خمسة وعشرين ناشراً. قد يرى البعض هذا العدد صغيراً، لكنه يجد تفسيره في حرص اللجنة المنظمة على أن يكون الناشرون المشاركون نظاميين، أي الالتزام بأفضل الممارسات والقوانين واللوائح الوطنية المنظمة لصناعة الطباعة والنشر. وبالتالي، هذا اختيار يرفع من جودة المعرض : وضعنا مجموعة من المعايير الواجب توفرها في الكتب المعروضة والمسوقة، وفي مقدمة ذلك توفر كل كتاب على رقم دولي معياري ورقم تسلسلي. وبالمناسبة هذه هي المعايير التي ستمنح الكتاب المغربي تأشيرة السفر حول العالم. هذه السنة، حضر معنا فعاليات المعرض كل رواد النشر بالمغرب، وهذه علامة جيدة : عبر هؤلاء الناشرون عن ثقتهم فينا لما أبدوا رغبتهم في المشاركة ثم شاركوا فعلاً. وقد صار كل شيء على أحسن ما يرام. الجميل في الأمر حقاً هو أننا حطينا هذه السنة بجمهور ذواق عالي المستوى غالبية من البالغين الذين كانوا يحضرون الموائد المستديرة قبل التجول بين أروقة المعرض.

جلال الحكماوي

يمتاز المعرض المغربي للكتاب عن غيره من المعارض على عدة مستويات، خاصة الموائد المستديرة الكثيرة والبرمجة الموازية. لاحظنا جميعا أن بعض الموائد المستديرة عرفت نجاحا كبيرا. ومنها تلك التي ناقشت مواضيع «كتابات نسائية» و«المغرب الكبير - المشرق : مقاربات متقاطعة». شخصا، أفسر هذا الاهتمام الكبير بطبيعة القضايا المطروحة وأهميتها في الأدب والثقافة عموما. في الحقيقة، واجهنا بعض الصعوبات، لكننا تغلبنا عليها. من أبرز هذه الصعوبات استقطاب شخصيات وازنة ومعروفة عالميا ومنح جمهور المعرض فرصة الاستماع إليها والاستفادة منها. سعينا من خلال دعوة كتاب مغاربة معروفين وآخرين صاعدين أو مغمورين إلى تشجيع الأدب المغربي والإفريقي.

كانت الأمسية الشعرية الحدث الرئيس في البرمجة الرسمية. وقد شارك فيها شعراء من المغرب الكبير ومالطا وكوبا، التي مثلها شاعر كبير شرف المعرض بحضوره هو «فكتور رودريغيز نونيز». ومن ناحية أخرى، حرص المعرض على ترفيه زواره والمشاركين أيضا. وقد استفاد الأطفال على وجه الخصوص من ورشات متعددة ومتنوعة، أظهرنا من خلالها مدى اهتمامنا بقراء الغد. سعى المعرض إلى تشجيع التلاميذ والطلبة على المطالعة من خلال قافلة ثقافية زارت المدارس والمؤسسات الجامعية والمسارح، ومن خلال انفتاح المعرض نفسه على العالم. لقد خلقت التظاهرة راجا كبيرا تجب الإشارة إليه. وبشكل عام، أرى أن الدورة الثانية من المعرض دورة مميزة من حيث طبيعة المواضيع المطروحة للنقاش وقيمة المشاركين في هذه النقاشات. ليس من السهل أن تستقطب شخصية بقيمة هدى بركات، التي رفضت المشاركة في تظاهرات مماثلة، وجاءتنا نحن استثناء. من بين هذه الشخصيات المرموقة أيضا الفيلسوفة «باربارا كاسان» وشاعر «السلام» المتميز «ألكسندرو أهو». وعليه، يمكننا اعتبار الدورة الثانية من المعرض المغربي للكتاب دورة ناجحة نبني عليها مستقبلا من خلال النقد الذاتي والنقد العام البناء، وهذا ما جئنا من أجله.



ادريس خروز

شكرا السيد الرئيس. نحن اليوم بصدد تقييم أولي للمعرض الذي فتح باب النقاش حول موضوع شائع، وهذا تحدثنا عنه في اللقاء الذي عقدناه قبيل المعرض. فبالنظر إلى عدد الموائد (34)، والمشاركين (120)، كان من الصعب ربط كل الموائد المستديرة في تركيبة واحدة، خاصة مع صعوبة الموضوع العام وما ينتجه من نقاش علمي عميق : تنظم أربع موائد في نفس الوقت ؛ وكلها تتطلب الإصغاء والنقاش المتعمق والرأي الآخر وإضافات الجمهور... التنسيق بين كل هذه الموائد تمرين صعب.

لكن، كما قال الزملاء، هدفنا هو ترسيخ وبناء التجربة على أسس منهجية عالمية رفيعة المستوى. وقد شاهدنا جميعا المستوى الفكري العالي الذي بلغته النقاشات، في حضور جمهور غفير فاق التوقعات. بطبيعة الحال، سنعطى الأرقام النهائية الدقيقة التي على أساسها سنقيم ونقوم. لكن حتى إذا لم تتوفر الإحصائيات، فكلنا نعرف أن اللقاءات عرفت متابعة كبيرة. النقاش كان فكريا بعيدا عن الآراء غير المؤسسة علميا. لماذا ؟ لأننا حرصنا على استضافة محاضرين ومحاضرات يتوفرون على عشرين أو ثلاثين سنة من التجربة كي تستفيد وجدة وجمهور جهة الشرق عموما من فكر العالم. استضيفنا مفكرين من المغرب الكبير والشرق العربي وأوروبا وإفريقيا بطبيعة الحال، خاصة أن دولة الكوت ديفوار كانت ضيفة الشرف. تنوعت اللقاءات في طبيعتها بين نقاشات أدبية وأمسية شعرية ونقاشات عميقة تطرح قضايا تهمنا في المغرب ككل، كقضايا الدين والمساواة وحقوق الإنسان والانفتاح على العالم والعلاقة بين المجال والقيم والسلوك المجتمعي وقضايا الشباب... لهذا نقول إن معرض وجدة معرض للكتاب وليس للآداب فقط، لأن هناك من يقول إن المعرض مخصص لكتب الأدب، وهذا ببساطة غير صحيح. في نظري، حقق المعرض كل أهدافه، ويبقى أن هناك بعض المسائل التي تتطلب منا مناقشتها.

من بين ذلك سبل ضمان استمرارية المعرض : هل سيستمر في نفس الفضاء، وب نفس المنهجية، أم سيفتح على المعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء، أم سيفتح على الجهات التي لها علاقة شراكة مع جهة الشرق ؟ وأي دور ستلعبه الوكالة التي هي حاليا محرك ومنسق ديناميكية المعرض ؟ هذه كلها مسائل يمكن التداول فيها. أشكر نساء ورجال الإعلام لمواكبتهم هذا الحدث ؛ لقد كنت سعيدا جدا بخوض هذه التجربة الغنية إنسانيا مع نساء ورجال وكالة جهة الشرق الذين، بدون مجاملة، فأنا لا أجمال أحد هنا، كانوا رائعين. أقول هذا الكلام لأن مستوى العمل والاحترام والبحث عن الحلول مستوى محترم جدا. وبالتالي، نال المعرض استحسانا كأستاذ مارس مهنة التدريس مدة أربعين سنة وترأس المكتبة الوطنية للمملكة المغربية مدة ثلاث عشرة سنة، لأن من المهم جدا المحافظة على علاقة وطيدة مع الكتاب. وما لا شك فيه اليوم هو أن هذا المعرض أصبح علامة فارقة في خارطة الأحداث الثقافية الوطنية والدولية، لأنه يمجّد المعرفة والفكرة ويفتح نقاشا موسعا حول القضايا الاجتماعية بالمغرب والمغرب الكبير والشرق وعلاقتنا بباقي بلدان المتوسط التي نحب والتي نكره أيضا (الحب والكراهية) وعلاقتنا بأوروبا والعديد من الفضاءات التي نكتشفها بفضل الشعر والشباب والشراقات التي تجمعنا في شتى مجالات الحياة. وأنا أرى أن هذا التوجه يحمل لنا في طياته أملا كبيرا. كيف نحافظ على مكتسيات المعرض ونرسخها ونضيف إليها دون أن نفقده روحه وهويته ؟ كيف ندعم ونثري هذه التركيبة الثابتة في جزء والمتغيرة في جزء آخر ونمنحها بعدا عالميا نسعى إليه ؟ هذا معرض مميز يكسر صورة المعرض التقليدية. نجح هذا المعرض الذي هو ثمرة مجهود شامل ومتكامل - مشروع كبير كما يقال - في الوفاء بكل وعوده. وهنا أتوجه بالشكر إلى كل من ساهم في إنجاحه : وكالة جهة الشرق وكل شركائها والفرق التقنية وبطبيعة الحال المنابر الإعلامية التي غطت كل الفعاليات بالصوت والصورة.

بلا شك، نساء ورجال الإعلام هم من يبلغ المعلومة ويدفعنا إلى بدل المزيد من الجهد. قد يرى البعض أن الحضور كان ضعيفا وقد يرى البعض العكس ؛ أما أنا شخصا فأقول، معتمدا على تجربتي في العديد من المعارض خلال العشرين سنة الماضية، أن المشاركة في ورشات هذا المعرض وموائده المستديرة تمنحني فائدة وممتعة أكبر من تلك التي أجد في معرض الدار البيضاء ؛ وهنا أؤكد مرة أخرى أنني لا أنتقد هذا الأخير. وإنما أناقش سبل ضمان التطوير المستمر ؛ لأن معرض الدار البيضاء كبير وموسع لدرجة أن الناس بالكاد يسمعون بعضهم البعض، بينما معرض وجدة يميل إلى الكيف وي طرح نقاشات عميقة وينظم ورشات مختلفة. هذا اختلاف في المقاربات لا بد أن نسطر عليه. كيف نستثمر تجربة الدورة الثانية في التحضير لدورة ثالثة أفضل ؟ ما الذي يجدر بنا فعله من الآن وحتى افتتاح الدورة الثالثة ؟ هل علينا تنظيم ورشات مصغرة وثلاث مؤتمرات أو أربعة ؟

ما أريد قوله هو أننا نحتاج إلى تبني نسق تصاعدي يراعي مكتسبات دورة 2018 وتكون قمته في افتتاح دورة 2019.

منصف الكلائي

بارك الله فيكم، شكرا على الاستضافة ومنحنا فرصة التواصل بالقراء والكتاب، أنا ناشر تونسي ... مشكلة الناشر هي أنه غير متصل مباشرة بجمهور القراء، عكس شاعر الصلّام أو المحاضر الذي يجد جمهوره أمامه فيتفاعل معه مباشرة ولحظة بلحظة. إذا، بالنسبة إلينا نحن معشر الناشرين، لا اتصال مباشر مع القارئ، أو القارئ المفترضين، أي من نريد إقناعهم بأهمية ومتعة القراءة. أريد أن ألقى القارئ وأقول له أنني أتمنى قراءة كتبتي وأنا أعرف ما يريد قراءته وأنا أعرف كيف أرضيه. في الحقيقة، الحصول على فرصة تحقيق هذه الإمكانية أمر مهم جدا من أجل تطور صناعة الطباعة والنشر. وبطبيعة الحال، معرض وجدة وما شابهه من تظاهرات ثقافية تمنحنا هذه الفرصة. إذا تحدثت عن تجربتي، فأنا ناشر شاب نشر أول كتاب سنة 1969، أي البارحة فقط، وقد حضرت فعاليات هذا المعرض كي أتعلم وأحضر لكم ولابنائكم وأحفادكم أساسا كتباً تلم شمل المغرب الكبير. ولكي يكون المعرض مغاربيا بمعنى الكلمة، لابد أن نستقبل بعضنا البعض تماما كما استقبلتمونا أنتم، ولابد أن نحرص على استضافة مفكرين وشخصيات من الصفوة دائما : المتدخلون في الموائد المستديرة والجمهور الذي يحضر فعاليات هذه الموائد، خاصة من الشباب. ومن الرائع حقا أن يرى الإنسان تلك القاعات الرائعة ممتلئة جنباتها طوال أيام المعرض. من ناحية أخرى، كانت الأمسية الشعرية رائعة حقا، لكن ربما كان من الأفضل لو نظمت أمسية شعرية ثانية بالمقهى الأدبي «كولومبو» في خيمة المعرض، لأنه فضاء مثالي كي نمّنح زوار المعرض فرصة تشنيف مسامعهم برقيق أشعار ثلّة من الشعراء المبدعين.

ملاحظتي الثانية تتعلق بالشعر المعاصر، بما في ذلك شعر الصلّام. أنا بصراحة لا أفهم لماذا توجب علينا الانتظار حتى البارحة مساء كي نسمع شعر ينتمي للحاضر والمستقبل أيضا. كان من الأجدر أن يقدم لنا مزيج من الأشعار دون ترتيب زمني. هذه ملاحظة عامية، وأنا أدرك ذلك تماما ؛ لكن القصد هنا بكل بساطة هو شكركم. وأنا متفق معكم تماما عندما تقولون إن الصحافة مهمة. في الحقيقة، نحن كلنا رجال ونساء إعلام : فنحن إعلاميون من حيث أننا نذيع خلاصة النقاشات التي شاركنّا فيها والتي حضرناها. بلا شك، الإعلام عامل مهم جدا. وهذا يدعونا إلى تجديد الشكر لكل المنابر الإعلامية التي غطت فعاليات المعرض.

محمد امباركي

أغتتم هذه الفرصة لأشكر شعراء الصلّام «مارك ألكسندرو» و«مالك» اللذين أسعدانا بحضورهما.

رشيد ماموني

أضم رأبي إلى رأي الأستاذ ادريس خروز، الذي تتلمذت على يده، بخصوص سبل ضمان استمرار روح المعرض من الآن وحتى افتتاح الدورة الموالية. رائع حقا أن يكون لدينا معرض ناجح مدته أربعة أيام، لكن الأروع هو تمديد عمره أكثر من ذلك بكثير. وعليه، أستوضحكم سيدي الرئيس، هل لكم تصور حول سبل إطالة عمر المعرض بضعة أسابيع أو أشهر. من ناحية أخرى، وكما قال الأستاذ الحكماوي، هناك عمل يجب القيام به بخصوص الشباب. لأنكم إذا جذبتم مزيدا من الشباب، فهذا ربما سيمنحكم فرصة إطالة عمر المعرض حتى الدورة الموالية.

مداخلة

في الحقيقة يوجد مشكل تواصل مع الشباب، لأن عددا كبيرا منهم لا علم له بوجود هذا المعرض.

محمد امباركي

ليس في استطاعتنا أن نطرق باب كل منزل كي نخبر الشباب أن هناك تظاهرة ثقافية اسمها المعرض المغاربي للكتاب. لكننا أطلقنا حملة إعلامية محلية غطت كل شوارع وجدة وحملة وطنية عبر مختلف وسائل الاتصال السمعي البصري المتاحة... كما أننا عقدنا مجموعة من اللقاءات مع رئيس الجامعة ومدراء المدارس الثانوية... وبالتالي من غير المعقول أن نبحث عن الشباب بعد كل هذا المجهود الترويجي الذي لا يترك أي مجال للشك في أن كل من يهتم بالكتاب والفكر قد عرف بأمر المعرض وبالتفاصيل أيضا. ربما يكون من الجيد لو طلبنا من «مارك ألكسوندرو» تقديم عروض من شعر الصلالم كي نجذب مزيدا من الشباب.

مداخلة

طاب يومكم جميعا ؛ وأشكركم على الجهود المبذولة. أصدرتم مجموعة من الإحصائيات الأولية التي سيتم تحديثها ؛ وأنا أريد التطرق إلى الإحصائيات المتعلقة بعدد زوار المعرض وعدد الكتب التي بيعت... إذا أمكن، هل لكم أن تطلعونا على الإحصائيات النهائية.

مراد الميموني

السلام عليكم، مراد الميموني موقع اليوم 24 أود أن أهنيئ إدارة المعرض المغاربي للكتاب ؛ حضرت أشغال الدورة الأولى وهذه الدورة أيضا، وقد سمعنا مجموعة معطيات من السيد الرئيس حول عدد الندوات وعدد المحاضرين وما إلى ذلك، فإذا أمكن، نود أن نعرف أيضا عدد زوار المعرض، علما أن عددهم يبدو، والله اعلم، أقل بكثير من الدورة الأولى. ما السبب في نظركم إن صح هذا الامر ؟ ثانيا، ألا ترون أن تنظيم ندوات متزامنة (34) في أربعة أيام اختيار غير سليم ؛ ألا تفكرون في إطالة عمر المعرض المغاربي للكتاب كي يصبح أسبوعا مثلا، ويتسنى للجمهور حضور كل الندوات، خاصة أننا كإعلاميين نجد صعوبة في تغطية جميع الندوات.

محمد امباركي

قلت في البداية أننا في مرحلة التقييم الأولي. هذا التقييم سيبحث عن الآليات والأدوات التي يمكن أن تضمن استمرارية المعرض. شخصيا، اشتغلت في المهرجان الدولي للسينما، وكان لنا برنامج سنوي، في منطقة سوس طيلة السنة : ورشات، تكوين...الخ وهذا يعني أن الأمر ممكن. نحن نقدم تقييما أوليا، ولكن ينبغي أن نفكر في هذه الآليات أيضا. اليوم في الصباح، مثلا، التقيت بمواطن من الناضور سألني لما لا ننقل جزء من المعرض إلى مدينته. يمكن أن نفكر في الآليات الكفيلة بضمان استمرارية المعرض على مستوى البرمجة واللقاءات والنشر في جهة الشرق ؛ يمكن طبعا أن ننتهي بالدورة القادمة من المعرض وهذا الاشتغال لا يكون فقط على مستوى التنشيط بل يكون كذلك على مستويات أخرى. وتعرفون مثلا أن من الصعب جدا الاشتغال مع المؤسسات التعليمية لأن المسألة تتطلب جهدا إداريا... بالتالي، يمكن أن تكون لنا استراتيجية متوازنة فيما يتعلق بالتنشيط العادي لتقديم الكتاب... ولكن ينبغي أن نوفر إرادة محلية تسهر على التواصل مع الجامعة والأكاديمية ونخلق شراكات وبرامج على المدى البعيد. وبالتالي، أرى هذا المعرض كمحرك ينبغي أن تكون معه طاقات مصاحبة كي لا يصبح حدثا معزولا. وهذا تصور ينبغي أن يناقش. نحن لا نريد أن نقع في أخطاء تقع فيها بعض المعارض، كالمعرض الدولي للدار البيضاء، حيث تلغى موائد مستديرة بسبب غياب الجمهور. هذه مسألة أخرى لابد من مراعاتها، خاصة أن هذا المعرض يركز على النقاش الفكري. في الحقيقة، التنوع في النقاشات يبين أن المجتمع المغربي يتوفر على هامش من الحرية، ونحن نعتبر ترسيخ ثقافة الحوار عند الجمهور، من كبار السن أو الشاب، هدفا أساسيا.

ليس من السهل أن نربي بسرعة، في دورتين فقط، جمهورا كبيرا على ثقافة الحوار. نحن الآن بصدد تقييم أولي معكم ؛ ولكن طبعا، ستكون لنا جلسات عمل الهدف منها وضع استراتيجية تحقق للمعرض حضورا جهويا لمدة من الزمن بعد اختتام الفعاليات. الأمر الأساسي بالنسبة لي، كما قلت خلال ندوة صحافية بالدار البيضاء، هو ألا ننسى أن المعرض المغربي للكتاب هو الوحيد من نوعه بالمغرب الكبير. بمعنى أنه موعد ثقافي بارز في الجهة والمغرب الكبير والعالم العربي وإفريقيا والعالم أيضا. قد يرى البعض أن هذا ادعاء كبير، لكنه حقيقة. هذه فكرة جميلة ومشروع طموح ينبغي أن نقويه ونستمر فيه. أنا متفائل جدا بمستقبل المعرض المغربي للكتاب.



عبد القادر الرتفاني

كإضافة فقط، هذا المعرض مازال في سنته الثانية. وكما تعلمون، المعارض تتطلب تحضيرات على طول السنة. قبل أن يبدأ معرض بكين، أحد أهم المعارض المنظمة هذه السنة، كنا نجد رواقا صغيرا في كل معارض العالم، منذ سنوات، مهمته إخبار الجميع أن معرضا جديدا سيرى النور في بكين. نحن فما زلنا في الدورة الثانية والعمل الذي ينتظرنا بلا شك عمل كبير.

بالمناسبة، أخبركم أن السيد محمد امباركي عقد اجتماعا مع منظمي معرض بروكسيل للكتاب، ممثلين في الصديقتين «إلفيرا» و«لورا». وبالمناسبة، نلتبس منهما المعضرة على استعمال اللغة العربية في أغلب المداخلات. من نتائج هذا الاجتماع أننا سنحصل ابتداء من السنة القادمة - «إلفيرا» و«لورا» حصلتا على موافقة مدير معرض بروكسيل - على قضاء يشبه الرواق مهمته التعريف بجهة الشرق، بما في ذلك معرضها المغربي للكتاب.

هذا معناه أننا سنبدأ عملية تسويق جديدة للمعرض بعد أن قيدته وكالة جهة الشرق كعلامة مسجلة. وكما تعلمون الترويج لأي علامة أمر صعب للغاية يتطلب بدل كثير من المجهودات. لا أريد تسمية أي علامة تجارية، لكن بعض هذه العلامات المعروفة استثمرت سنوات وأموال طائلة كي تصل إلى الصورة والسمعة التي كانت تطمح إليها. والمسؤولون على معرض وجدة لا يريدون التسرع في بناء صورة وسمعة هذا المعرض، بل يريدون بناءها بالتدرج وبثقة وحرفية عالية.

محمد امباركي

هذا صحيح. وأنا بدوري سأجيب على السؤال المطروح لأنه يتحدث عن استراتيجية تطويرية. في الحقيقة، نحن ندرج المعرض المغربي للكتاب وكل الأنشطة الثقافية المتعلقة بالكتاب في إطار استراتيجية تنموية جهوية تعترف بدور الثقافة في التنمية. وهذا معناه أن المعرض المغربي للكتاب مرتبط بسلسلة من التظاهرات الهادفة إلى تطوير الثقافة والتي تؤثر عليه إيجابا. أقرب مثال على ما أقول هو المسرح ؛ حيث تقدم وكالة جهة الشرق دعما كبيرا للمسرح، بما في ذلك مسرح الطفل. جهة الشرق معروفة بإنتاج نصوص مسرحية وممثلين رفيعي المستوى ؛ وهذه سمة مهمة تشكل جزء من تراث الجهة. إلى جانب الأنشطة المسرحية، توجد الأنشطة الموسيقية المختلفة والمؤتمرات المهمة بالهوية التاريخية للجهة. وعلى سبيل المثال، اشتغلنا كثيرا على الذاكرة اليهودية بجهة الشرق التي كانت السبب في إنجاز عدة مشاريع ثقافية وتنموية، خاصة بمدينة دبدو حيث شيدت الوكالة دار للثقافة ستسهر وزارة الثقافة على تجهيزها، على أن تفتح هذه الدار أبوابها في بداية السنة القادمة.



بالتالي، فنحن واعون بمفصلية الثقافة في التنمية. وإذا ركزنا على المعرض، نلاحظ أن له هوية بارزة. عموما، تدوم معارض العالم العربي عشرة أيام ؛ أما في أوروبا فالمعارض لا تتعدى أربعة أيام. من جهتنا، قررنا تنظيم المعرض في أربعة أيام، لأن من الصعب جدا استقطاب شخصيات فكرية مرموقة على امتداد عشرة أيام، علاوة عن ارتفاع التكاليف. وهذا معناه أن المعرض (حجر الزاوية في سياسية الأنشطة الثقافية والفكرية وتطوير الكتاب بالجهة) سيحافظ على نفس النموذج وعلى نفس المستوى الرفيع. هذه المعايير تشكل جزء مهما من هوية المعرض، تماما كما هو معيار طرح النقاشات العميقة. هذه النقاشات رفيعة إلى حد أننا في مرات عديدة نحير في الالتحاق بهذه المائدة المستديرة أو تلك. ومن الجيد أن نعد الاختيارات أمام الجمهور الحاضر. في كل معارض الكتاب التي أعرفها - لست اختصاصيا في المعارض لكنني أعرف الكثير عنها - تطرح المواضيع بانتقائية وبأسلوب هذا المعرض ؛ لكن في بعض الأحيان يكون هناك إزعاج ؛ ما يقال في هذه القاعة يسمع في القاعة الأخرى والعكس صحيح. لكن أعتقد أن هذا مشكل بسيط يمكننا التغلب عليه بتغيير التجهيزات الصوتية.

سنستمع للملاحظات ونحللها ونستفيد منها من خلال اللجنة العلمية المكونة من المدير جلال بناني الحاضر معنا - الرجل لا يستهان به أبداً ؛ إنه صديق «مارك ألكسوندرو»- وأمينة المؤدب التي قدمت لنا مساعدة كبيرة وشريكنا المعهد الفرنسي بمدينة وجدة وممثلة دار النشر «ملتقى الطرق» الأستاذة لبنى وبطبيعة الحال أطر وكالة جهة الشرق : كريم يحيى وعبد القادر بطاري ومريم النواوي وحنان جواد... واللائحة طويلة. كثير من هذه الأسماء حاضرة معنا اليوم، ما يعني أن اللجنة العلمية ممثلة بقوة. لقد اشتغلنا بقناعة كبيرة وإمكانات قليلة جداً. يجب أن نعرفوا أننا حضينا بالكثير من المتطوعين وموارد مادية شحيحة، وأننا رغم ذلك كنا عازمين على إنجاح هذا المعرض أي بناء مغرب كبير يسود فيه الفكر والمفكرون.

نحن فعلاً مطالبون ببرمجة مجموعة من التظاهرات الثقافية التي تقودنا تصاعدياً إلى الدورة الموالية من المعرض، الذي يعتبر - لا أجرؤ أن أقول - ممتازاً، ما قد يفهم منه أن التظاهرات الثقافية الأخرى التي ستوصلنا إليه ستكون أقل من ممتازة ؛ لكن أقول إن هذا المعرض يفترض أن يكون مسك ختام كل هذه التظاهرات الثقافية. ربما يجدر تنظيم لقاءات ذات طابع جهوي يبرز فيها مفكرون صاعدون ويمكنهم المساهمة في نقاشات المعرض لاحقاً. مثلاً، نقاش الحكايات، خاصة أننا نتوفر بوجود على موروث حكواتي عريق وعندنا ساحة مشابهة لساحة جامع الفنا هي ساحة سيدي عبد الوهاب حيث يقدم الحكواتيون عروضهم، رغم أن عددهم أصبح قليلاً. أردنا المحافظة على هذا الموروث ففكرنا في خلق ما يمكن تسميته معرضاً أو مهرجاناً للحكاية والحكواتين. وسنرى نتاج عملنا قريباً.

بطبيعة الحال، يوجد مثل هذا التراث ببلدان المغرب الكبير وإفريقيا وأوروبا حيث يوجد شعر التروبادور الغنائي. لا أعرف إن كان ببلجيكا تراث متعلق بالحكاية الشفهية، لكن سيكون رائعاً لو تشارك معنا. هذه الحكايات تخلد الخيال الشعبي وتعبّر عن الهويات المدفونة. لا بد من تنسيق كل هذه الأشياء، لأن هذه الحكايات فيها الكثير مما يمكن سرده أمام الأطفال الذين سيحتفظون بها في أذهانهم. وكما تعلمون، المعرض المغاربي للكتاب يمدد استفادة الشباب منه حتى بعد أيامه الأربعة. غداً نتطلق من المعرض قافلة ستجوب عدة أقاليم حاملة معها جزءاً من تظاهرة «طفل الكتاب» التي نظمت في خيمة المعرض ؛ وسيساهم في تنشيطها المنظمة الوطنية للتعليم الأولي في إطار الشراكة التي تجمعنا. ستصل القافلة إلى مدارس العالم القروي ومؤسسات التعليم الأولي حيث سنوزع كتب أطفال بالجان.

ستستمر هذه القافلة حتى افتتاح الدورة القادمة من المعرض ؛ وخلال هذه المدة الفاصلة بين الدورتين، سنتظم أنشطة مختلفة منها مسابقات بين تلاميذ الثانويات والإعداديات والابتدائيات يتوج الفائزون فيها خلال حفل افتتاح الدورة الموالية. وهذا ما يفسر امتناعنا عن توزيع أي جوائز هذه السنة، ولأننا لا نريد أن نفقد عملية التنويع ومنح الجوائز قيمتها ونفريها من معناها. لكن ابتداءً من السنة القادمة، وكما هو معمول به في الكثير من التظاهرات الثقافية التي تعرفونها، سيقدم المعرض جائزته الخاصة، وهذه إحدى أولوياتنا حالياً. ربما يمكننا ضمان استمرارية هذا المعرض عبر خلق مؤسسة مهمتها توفير التمويل للمعرض والدفاع عن مصالحه. يطرح التمويل مشكلاً كبيراً لأننا، على عكس المعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء، لا نتوفر على معرض كبير أو مؤسسة مشرفة... وبالتالي نحن في نوع من المنافسة غير المتكافئة، لأننا نبني خيمة كبيرة للمعرض كل سنة، وهذا فيه تحديات كثيرة أولها التمويل. نتوفر على مسرح محمد السادس حيث ننظم اللقاءات والموائد المستديرة، لكن يجب أن نوفر فضاء مريحاً للناسخين والكتاب والزوار ؛ وهذا كما قلت يكلف الكثير. وبالتالي، لا بد أن نبحث بلا كلل أو ملل عن التمويل.

في نفس الوقت، نعمل على مجموعة أخرى من المشاريع الممكنة. بعض هذه المشاريع تمت مناقشتها في لجان مختلفة، كما هو الشأن بالنسبة إلى فكرة المعارض المحلية ؛ وقد برمجت مائدة مستديرة ناقشت هذا الموضوع. وكما اقترح الأستاذ جلال الحكماوي، لما لا يذهب المعرض حتى الناضور وبركان وفجيج ويطرح مواضيع وتيمات محلية يكون فيها شيء من روح المعرض وتعطى أهمية للكتب المتعلقة بالصحراء والواحات... بالمناسبة، نحن نطمح إلى خلق ترابط بين معرض وجدة ومهرجان الواحات.

أما الإحصائيات، خاصة تلك المتعلقة بالمشاركة، نحن بصراحة لم نتوصل بالأرقام النهائية حتى الآن. لكن الملاحظات الأولية تشير إلى أننا استقطبنا مزيدا من المهنيين مقارنة بالسنة الماضية ؛ وأننا حطينا بنقاشات ولقاءات أكثر أيضا.

عمر الزاوي

أريد الرجوع إلى مسألة طرحت في البداية : كيف نطيل عمر المعرض المغاربي للكتاب ونجعله يعيش طوال الفترة الفاصلة بين اختتام دورة وافتتاح دورة أخرى ؟ أريد تقديم إضاءة بسيطة في هذا الباب ؛ هذا المعرض عنده قدرة الانفتاح على فضاءات خارج وجدة، خاصة ذلك «هناك» الذي نريد جلبه إلى هنا. وفي نظري الكتاب هم الأقدر على فعل هذا. الشيء المهم، والذي لا يمكن حصره في أية إحصائيات، هو تلك الشراكات التي تولد بين جنبات المعرض والديناميكية التي يخلقها هذا الأخير. وهذه نقطة مهمة للغاية لا يجب إهمالها.

مداخلة

أعتقد أن حضورنا، كمجموعة شباب شاركوا وساهموا في إنجاح هذه الدورة، جواب كافي على التساؤل المتعلق بمكانة الشباب في المعرض. وإذا كنا اليوم طاقة على مستوى تنفيذ الخطط، فنحن من سيبضع تلك الخطط في المستقبل، وهذا فيه رد على التساؤل المتعلق باستمرارية المعرض. نحن الشباب ؛ ربما لا نتواصل بالشكل المطلوب، لكننا استطعنا تنظيم ثلاثة تظاهرات متعلقة بالكتاب هنا في وجدة. في شهر مايو المنصرم، فتحت ست جمعيات مكتبتين عموميتين بكل من الحديقة المئوية لالة عائشة والحديقة الإيكولوجية. وقد جهزتهما بالكتب من خلال فكرة «الدخلة بكتاب»، أي تنظيم حفلات موسيقية تذكرو الدخول إليها هي كتاب واحد. وقد مكنتنا هذه الفكرة من جمع أربع مائة وخمسون كتابا. المبادرة الثقافية الثالثة التي أشرفنا عليها كشباب هي فكرة «نديرو قهوة»، أي مقهى أدبي نناقش فيه مواضيع مختلفة تهم الشباب بحضور شخصيات كسناء العاجي وأحمد غيات.

محمد امباركي

نشكركم على حضوركم ونعلمكم أننا سنصدر كتابا خاصا بهذه الدورة ما إن يكون جاهزا، وهذا بلا شك لن يتجاوز بضعة أسابيع. ونعلمكم أيضا أن كتاب الدورة الأولى قد نشر ويمكنكم تحميله من على موقع وكالة جهة الشرق www.oriental.ma. وأختم بهذه الشهادة : إذ عبر المشاركون خلال تناولهم وجبة الفطور هذا الصباح عن رغبتهم في زيارة المعبر الحدودي زوج بغال ؛ وقد ذهبنا جميعا إلى هناك. وقد كان الموقف جد مثير ومؤثر بسبب الوضع الحدودي المحزن.

المعرض المغاربي للكتاب



مسرح
مختبر
للمشاركين



يهدف هذا المسرد إلى تمكين القارئ من العثور بسرعة كبيرة وبسهولة على الصفحات التي تحتوي على مداخلات الأساتذة المشاركين في الموائد المستديرة. وبغية تقريب المتدخلين من القراء، قام الناشر بتقديمهم في سطور من خلال بعض المعلومات المتاحة للعموم. وفي حالة إذا ما تبين أن هذه المعلومات غير كاملة أو غير دقيقة، فسيتم إجراء تصحيح بناء على طلب الأشخاص المعنيين.

المشاركون

الصفحات

العباسي إيناس

كاتبة وشاعرة وصحافية تونسية، حصلت على جائزة لجنة التحكيم الخاصة لآخر كومار ذهبي بتونس عن روايتها «منزل بورقية» باللغة العربية : ذاكرة المدينة وسكانها في قلب الكتاب. 302. 306. 309. 310. 314

عباد يحيى

كاتب وروائي فلسطيني، باحث سابق في المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، وهو رئيس تحرير موقع «Ultrawt»، وهو موقع إعلامي مخصص للشباب العربي. 198

أبوزيد ليلي

صحافية وكاتبة، نشطت واحدا من أوائل البرامج بالعربية على أمواج الإذاعة المغربية. وهي الكاتبة المغربية الأولى التي ترجمت أعمالها باللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية. 263

أبو الفرح يحيى

أستاذ جامعي مغربي، باحث في موضوع التواجد المغربي في إفريقيا والديناميات الحالية لإفريقيا. وهو مدير معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس بالرباط. 131. 134. 135. 138. 139. 143

الأشعري محمد

ولد في مولاي إدريس زرهون بالمغرب، وهو شاعر باللغة العربية (سبع دواوين شعرية) وسياسي مغربي. كان نائبا برلمانيا عن مدينة الرباط، وبعدها نائبا عن مدينة مكناس، وتقلد منصب وزير الثقافة من 1998 إلى 2007. 80

أُكْنَاو فاطمة

أستاذة التعليم العالي وباحثة في مركز البحوث الديدانكتيكية
والبرامج التربوية. شاركت في وضع مناهج تعليم الأمازيغية.

الأمير رشا

ناشرة وناقدة أدبية وروائية. بعد الدراسة في باريس، أسست دار
النشر الجديدة بلبنان سنة 1990، وهي دار نشر مستقلة نشرت
أعمال محمد خاتمي ومحمود درويش.

الفلاح خلود

شاعرة ليبية تكتب باللغة العربية، ولها حضور دولي بارز، وتعتبر
خلود الفلاح بأن أسلاف الشعراء هم السحرة والخيميائيين.

النبريص باسم

كاتب فلسطيني، نشر ثمانية مؤلفات باللغة العربية، بما في ذلك
مجموعة من الدواوين الشعرية ولقد كتب في مواضيع مختلفة
أهمها القضايا السياسية والثقافية والفلسفية.

284 إلى 286

علاوة حاجي محمد

كاتب جزائري باللغة العربية، وهو أيضا صحافي في إذاعة
الجزائر الدولية. رواياته تطبعها جريدة طليعية.

عامر مفتاح

مغربية، أستاذة التعليم العالي. ترأس فريق بحث في مركز التهيئة
اللغوية في المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

العمرتي محمد

من مواليد مدينة وجدة، حاصل على دكتوراه الدولة، أستاذ بجامعة
محمد الأول في وجدة. مدير مختبر حقوق الإنسان والقانون
الإنساني الدولي، وأيضا عضوا في المنظمة المغربية لحقوق الإنسان.

أعراب شادية

خبيرة متخصصة في الجغرافيا، باحثة في المركز الوطني للبحث
العلمي، بجامعة أنجس، تعمل منذ خمسة عشر سنة على هجرة
المغاربة في أوروبا والإمارات العربية المتحدة. وتركز أعمالها
أيضا على مقارنة النوع.

أوغري مونغيل

أستاذة جامعية فرنسية، والمديرة الحالية للمعهد الفرنسي بالرباط،
نشرت سنة 2017 أحدث ديوان لها تحت عنوان «شظايا همسات»،
وتشارك كثيرا في قراءات شعرية ومحاضرات في الخارج.

أزدود ادريس

لساني ويدير مركز الدراسات الفنية والتعبيرات الأدبية والإنتاج
السمعي البصري في المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، وهو أستاذ
باحث في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة.

بيضا عبد الله

باحث، روائي وناقد أدبي مغربي، أستاذ مبرز في الآداب، وحاصل
على دكتوراه في الأدب والثقافة المغاربية الفرنكفونية، وهو أيضا
أستاذ جامعي، كما ينشر مقالات عن المستجدات الأدبية.

بالو داودة

تابع دراسته في جامعة محمد الأول بوجده إلى أن حصل فيها على
شهادة الدكتوراه، وهو المدير التربوي للجامعة الإفريقية المسلمة
في أبيدجان كما يرأس جمعية الأساتذة الباحثين الإيفواريين
خريجي الجامعات المغربية.

بركات هدى

كاتبة، ولدت في لبنان وتعيش الآن في باريس، كتبت رواياتها
باللغة العربية وترجمتها إلى الفرنسية. وقد فازت بالعديد من
الجوائز الأدبية، بما في ذلك جائزة نجيب محفوظ المرموقة.

برواضي أمينة

كاتبة مغربية تكتب باللغة العربية. عرفت قصصها القصيرة نجاحا
كبيرا.

بلفقيه أنيسة

ولدت في وجدة، درست الأدب الفرنسي وسيمائيات الصورة
بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، بالمغرب. وقد نشرت أربع
روايات، بما في ذلك آخرها، «السمندر»، في سنة 2018.

بلوالي سعيدة

أستاذة جامعية مغربية، رئيسة شعبة الآداب الفرنسية بجامعة
محمد الأول بوجدة. نشرت العديد من الأبحاث بالفرنسية حول
ازدواجية مفهوم ثنائية اللغة.

بن أحمد فؤاد

أستاذ مؤهل بمعهد دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية
العليا التابعة لجامعة القرويين، وهو مهتم بالأنشطة الفلسفية
والعلمية في إسبانيا أيام كانت مسلمة وكذا في المنطقة المغاربية.

بنعبد الله فكري

مهندس معماري متخرج من المدرسة العليا للفنون الجميلة في باريس. سنة 2001، أسس مجموعة «كونفليانس» (ملتقيات) ؛ من بين إنجازاته : تصميم مطار وجدة وتجديد بيت المغرب بباريس.

بنعاشر بوعزة

كاتب مغربي، تخرج من المدرسة الوطنية للإدارة في فرنسا، أستاذ بمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس السويسي. 89. 92. 95. 139. 144. 370. 373. 377. 379. 380. 381.

بنعلي عبد القادر

كاتب وصحافي هولندي من أصول مغربية. كتب في سن الحادي والعشرين روايته الأولى والتي لاقت نجاحا كبيرا. حصل على جائزة «ليبرس»، نشر عدة مسرحيات ومقالات ونصوص نقدية.

بناني حميد

مخرج مغربي وكاتب سيناريو وكاتب، ولد في مكناس. أنتج 43. 50. 193. وأخرج في عام 1970 أول فيلم روائي طويل بعنوان «وشمة» والذي استقبل بحماس من طرف النقاد.

بناني جليل

طبيب ومحلل نفساني، وكاتب مغربي يعيش في الرباط، وهو مؤسس مشارك ورئيس دائرة التحليل النفسي المغربية. ومن 101 إلى 106 بين مؤلفاته العديدة، «طبيب نفساني بالمدينة» الحائز على جائزة الأطلس الكبير لسنة 2014.

بنحسين صخر

باحث وناشر ومن كبار المتخصصين في فكر ابن عربي حيث ترجم بعض نصوصه وعلق على نصوصه الأصلية، وهو من أصل جزائري، يعيش ويعمل في باريس، ويدافع عن قيم الحداثة والطابع السلمي للإسلام.

بنمخلوف علي

ولد في فاس، وهو أستاذ جامعي للفلسفة العربية وفلسفة المنطق في باريس وبروكسل. وهو فيلسوف ينتمي للمدرسة التحليلية كما أنه مهتم بالفلسفة العربية في العصور الوسطى. 227. 230. 232. 234. 235. 236.

بنيس محمد

ولد في فاس، وهو واحد من أهم شعراء الشعر العربي الحديث. 112. 114. شارك بنشاط في الحداثة الشعرية العربية منذ ثمانينيات القرن الماضي.

بوشارب أمل

كاتبة جزائرية بالعربية، أعمالها تكتسي طابع الكونية، كما أنها لا ترفض أي منهج في الكتابة، وهي تنتمي للمدرسة الأدبية العالمية،³¹¹ وتعتبر نفسها : «قارئة للعالم»!

بوكوس أحمد

لساني وعالم اجتماع مغربي، حاصل على الدكتوراه في اللسانيات، وهو الرئيس الحالي للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، حيث ساهم في إنشائه منذ سنة 2002. ولقد أشرف على العديد من الأبحاث ونشر العديد من المؤلفات.

بوخريص فاطمة

أستاذة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. فازت بجائزة 178 الاستحقاق للثقافة الأمازيغية لسنة 2015، من أجل الخدمات المقدمة للغة والثقافة الأمازيغية.

بومالك عبد الله

دكتور في اللسانيات، أستاذ باحث بكلية الآداب بوجدة، وهو 122 ملحق لدى المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. ولد في آيت عميرة بالقرب من أكادير، حيث درس اللغة الفرنسية وآدابها.

كاسان باربارا

متخصصة في علم الإثالة وفيلسوفة فرنسية، ومديرة أبحاث 362. 355 في المركز الوطني للبحث العلمي، وهي مترجمة ومديرة سلسلة مخصصة للفلسفة. ولقد تم انتخابها لعضوية الأكاديمية الفرنسية في سنة 2018.

كافاليري جون بول

خريج سلك الدراسات الأوروبية العليا بـ «كوليج دوروب»، وممثل 153. 151. 105. 104 مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين في المغرب. 159. 157

الشرفي عبد المجيد

من مواليد صفاقس، أكاديمي تونسي متخصص في الحضارة 278. 270 والفكر الإسلامي، وهو أستاذ فخري في جامعة تونس. يهتم بتحليل النص القرآني بنظرة وأدوات فكرية معاصرة.

الشرفي فوزية

تونسية من مواليد صفاقس، وهي أكاديمية وفيزيائية وشغلت 236. 232. 229. 226 لفترة قصيرة منصب كاتبة الدولة لدى وزير التعليم العالي، قبل أن تعود لنضالها الحر ضد الظلامية.

شطا حكمت

ولد في سوريا، وأصبح مهندساً معمارياً في فرنسا واشتغل بعدها ثلاثين سنة في دمشق. عاش في المنفى في لبنان، ويعيش حالياً في برلين. ويعتمد على الفنون التشكيلية وخاصة التصوير الفوتوغرافي لإغناء الهندسة المعمارية.

شافيس أنطونيو

باحث إسباني في مؤسسة الثقافات الثلاث، متخصص في التراث الأندلسي والموريسكي.

دحان بول

ولد في فاس، وهو محلل نفساني ومحافظ متحف الفن اليهودي المغربي في بروكسل. وهو شغوف بالفن ومواطن حقيقي للعالم، إذ يرمز إلى التنوع، من حيث أصوله وفكره.

درويش نجوان

من أصل فلسطيني، ولد في القدس. وهو شاعر وصحافي وناقد أدبي عربي. ويعتبر من أهم شعراء العربية المعاصرين الواعدين.

درويش سامح

شاعر وكاتب مغربي، يرأس المهرجان الأدبي «الموكب الأدبي» وجمعية «كافايت للثقافة والتنمية». أصدر سبع مجموعات شعرية، بما في ذلك ثلاثة على شكل هايكو، بالإضافة إلى رواية.

داوود زكية

صحافية وكاتبة فرنسية من أصول مغربية، وهي رئيسة تحرير سابقة لمجلة «لاماليف»، ساهمت أيضاً في الكثير من الصحف الأجنبية. ألقت العديد من الكتب، بما في ذلك العديد من المقالات حول الهجرة.

دوسيكاتي روني

فرنسي ولد بتونس، وهو كاتب وناشر، روائي وكاتب مسرحي، وهو أيضاً مترجم من الإيطالية واليابانية. كتابه «المرافقة» هو رواية عن الاستيطان الشعري.

دوفيرنياس أني

درست الفرنسية في عدة مناطق من العالم، ومن سنة 1977 ولادة عشر سنوات، في المغرب. أكملت أطروحتها حول الأدب المغربي الناطق باللغة الفرنسية في سنة 2002، ومنذ ذلك الحين شاركت في الأبحاث في هذا المجال.

ديالو بيوس

بعد عشر سنوات بفرنسا، استقر الصحفي والكاتب ديالو بيوس 333. 336. 339. 342 بموريتانيا وكرس نفسه للثقافة. ومنذ سنة 2010، كان يشرف على تنشيط لقاءات تحت مسمى «عبور موريتانيا». وفي سنة 2016، أصبح مديراً للكتاب والقراءة العامة.

دياورا مانتيا

ولد في باماكو، وهو كاتب ناطق بالإنجليزية وأستاذ للأدب، 42. 47. 50. 138. 144 يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية. في سنة 1991، التحق بجامعة بنسلفانيا كأستاذ رسمي. وفي سنة 1992، أنشأ قسم «الدراسات السوداء» بجامعة نيويورك.

العلمي يوسف أمين

كاتب مغربي، حصل على منحة «فول برايت» سنة 1991 لإجراء 154. 155 بحث حول الخطاب الإعلاني، حيث تابع دورة تدريبية في جامعة نيويورك. بعد ثلاث سنوات، عاد إلى المغرب ونشر كتابه الأول.

الفاخوري إدريس

دكتور وأستاذ بكلية الآداب والعلوم القانونية والاقتصادية 403 والاجتماعية بجامعة محمد الأول بوجدة. كما أنه رئيس مركز الدراسات والأبحاث في العلوم القانونية، والذي يحمل إسمه.

الخمون مولاي احمد

دكتور، أستاذ جامعي في قسم الدراسات الإسبانية بكلية الآداب 109. 112. 113. 114. 115 بجامعة محمد الأول بوجدة.

الحكماوي جلال

شاعر ومترجم مغربي، مبرز في الترجمة الأدبية، وهو أيضاً ناقد 257. 312. 432 سينمائي ومدير «المجلة الدولية للشعر» «انتخابات حرة». في سنة 2018، تم اختياره ليكون مندوباً للمعرض المغربي للكتاب بوجدة.

المجاهد الحسين

حاصل على دكتوراه الدولة في الآداب، أستاذ باحث، لساني ومؤرخ 118. 122. 124. 125 لغوي، له عدة منشورات، مولع بعلم دراسة اللهجات والتقاليد والآداب الشفوية، وهو الكاتب العام للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. 127. 128. 177. 178. 180. 182

المريني عبد الحق

ولد في الرباط، حاصل على الدكتوراه من جامعة محمد بن عبد الله 13. 17 بفاس، مؤرخ المملكة والناطق الرسمي باسم القصر الملكي، وهو محافظ ضريح محمد الخامس، له العديد من الأعمال التاريخية.

الناجي محمد

مؤرخ وعالم اجتماع وأكاديمي وخبير اقتصادي مغربي. ويعد أن تخصص في التاريخ الاقتصادي وعلم الاجتماع القروي، اقتحم مجالات غير معهودة، مثل العبودية في العالم الإسلامي.

الزين عبد الفتاح

عالم اجتماع مغربي، أستاذ وباحث في جامعة محمد الخامس بالرباط، نشر العديد من الدراسات، خاصة حول الشباب والهجرة والمغاربة المقيمون في الخارج.

فرجاني محمد

خبير تونسي في علم السياسة والدراسات الإسلامية يعيش في فرنسا. وهو أستاذ وباحث، تتناول أعماله تاريخ الأفكار في العالم العربي، والعلاقة بين السياسة والدين، وبين المعرفة والسلطة.

فيليبون كاشرين

إعلامية مختصة في تدبير الرصيد الوثائقي ومسؤولة عن المنشورات (السلاسل والنشر الإلكتروني) بمركز جاك بيرك في الرباط.

خسوس شكيب

متخصص في علم الاجتماع الأنثروبولوجي وطبيب مغربي، كما كتب عدة مقالات فكرية. باحث في العلوم الاجتماعية ومناضل، أنشطته تهتم بحقوق الطفل، والتعليم ومحو الأمية، والفقر والتهميش.

غيكو جون لويس

ولد في آبت (فرنسا)، أستاذ جامعي، موظف فرنسي رفيع المستوى، متخصص في تهيئة المجال، وهو يرأس حالياً معهد الاستشراف الاقتصادي للعالم المتوسطي الذي أسسه.

غوتيريز دوتيران إغناسيو

كاتب إسباني، أستاذ وباحث في جامعة مدريد، وهو متخصص في الأنثروبولوجيا، وفي منطقة الشرق الأوسط. نشر العديد من المقالات والعديد من الكتب، بما في ذلك كتاب «الثورات العربية» الذي نشر سنة 2017.

حبيب الله سكيينة

شاعرة مغربية تنظم أشعارها بالعربية، متميزة دولياً بفضل قصائدها الشعرية المفتوحة وكذا نصوصها النثرية.

حذية انتصار

أخصائية في أمراض الكلى وكاتبة مغربية، أستاذة في كلية الطب بجامعة محمد الأول بوجدة. تنشر رواياتها باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

الحسني الإدريسي مصطفى

دكتور في علوم التربية، وهو من مواليد تازة، بالمغرب، أستاذ ديداكتيك التاريخ بجامعة محمد الخامس بالرباط. حصل على جائزة رينيه ديفيك للتعليم العمومي سنة 2007.

حاتمي محمد

مؤرخ، أستاذ بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، ينشر بانتظام مقالات عن تاريخ وأخبار اليهود بالمغرب.

الجاي سليم

من أب مغربي (والذي كان الشاعر الرسمي للراحل الحسن الثاني، تغمدته الله برحمته)، في رصيده أكثر من ثلاثين كتاب، منها «معجم الكتاب المغاربة» سنة 2005، و«معجم الروائيين الجزائريين» سنة 2018.

جعيدان إدريس

ولد بالدار البيضاء، درس الفلسفة والعلوم السياسية. كتب العديد من النصوص ضد الإسلام السياسي، ويهتم على وجه الخصوص بالآليات إعادة إنتاج النخبة الحاكمة بالمغرب.

كرايوتوف لورا

وكيلة أدبية لدى وكالة ليستر الأدبية، وهي تعمل بشكل أساسي في أوروبا الشرقية، وهي المنطقة الجغرافية والثقافية التي تنحدر منها، للترويج للأدب الفرنسي بها، بالدرجة الأولى.

الخياري سعد

مخرج وكاتب، وهو خريج المعهد العالي للدراسات السينمائية ومؤسس المتحف الوطني للمجاهد في الجزائر العاصمة. باحث مشارك في معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية بفرنسا، تتناول منشوراته قضايا تتعلق بالحضارة العربية الإسلامية.

خليفة ميشيل

مخرج فلسطيني ولد في الناصرة، غادر مدينته سنة 1970 صوب بروكسيل، حيث واصل تدريبه في الإخراج المسرحي والراديو والتلفزيون. وهو مخرج فيلم «عرس في الجليل» سنة 1987.

خروز إدريس

432. 15 خبير اقتصادي التكوين، أشرف على المكتبة الوطنية بالمغرب حتى سنة 2016، ثم مؤسسة روح فاس ومهرجان الموسيقى الروحية. سنة 2018، تم اختياره ليكون مندوبا للمعرض المغربي للكتاب بوجدة.

كسيكس إدريس

95. 93. 90. 86 صحافي وكاتب مسرحي مغربي، وهو أيضاً ناقد أدبي ويشرف على مركز أبحاث معهد الدراسات العليا في التدبير «HEM» ومجلة نفس المعهد، «إيكونوميا»، وكمدافع عن التفكير العقلاني، يولي كسيكس أهمية قصوى لإغراء الكتابة.

الحبابي مامون

247. 241 كان مؤلفاً في مجال العلوم الاقتصادية قبل أن يجذبه الأدب. نشر روايته الأولى سنة 1994. ومنذ ذلك الحين ينشر بانتظام (في رصيده حتى اليوم، ثلاثة عشر رواية) ومن خلالها يكشف مجموعة من مساحات الظل في المجتمع.

لهبيل التجموعتي نعيمة

50. 45. 42 أكاديمية وخبيرة استشارية، نشرت العديد من المقالات. وقد فازت روايتها الأولى «اللائحة» بالعديد من الجوائز. رافقت مشروع إعادة تأهيل المدينة العتيقة بفاس واشتغلت على الإسكان غير الصحي ومدن الصفيح.

لحلو مريم

- 288 إلى 283 من أصل مغربي، مستشارة في مجال التسويق والإدارة والتواصل وتكوين المدربين، شاركت في عدة محاضرات وأشرفت على تسيير مجموعة منها. في سنة 2012، أسست مكتب «Compétence plus» (كفاءات وأكثر) بالدار البيضاء.

لاربر فرانسوا

173. 165 محافظ المكتبة الفرنسية، شغل منصب الملحق الثقافي بسفارة فرنسا في المغرب ومدير مكتبات مرسيليا. وهو مدير سلسلة لدى دار النشر «لاكروازي دي شومان» (ملتقى الطرق).

الازرق نورة

- 124 لسانية، والمسؤولة الحالية عن مركز التهيئة اللغوية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

لونمان إيستير

تعمل صحافية في إذاعة وطنية فرنسية كبيرة، شغوفة بالأدب، 387. 388. 389
كما تنشط أيضا جمعية «لابليم دو بان» (ريشة الطاووس)، التي
تهدف إلى تطوير الكتاب المسموع.

الوكيلي ميلود

المدير السابق للمعهد العالي للدراسات البحرية، يترأس المجلس
العلمي لمندى البحر، أستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط، وهو
أيضا باحث مشارك في المعهد الملكي للدراسات الاستراتيجية
بالرباط.

ليفوني فرانسوا

أستاذ الفلسفة، يشرف على عدة سلاسل لدى عدد من الناشرين. 25. 29
عضو في هيئة تحرير مجلة قنطرة الصادرة عن معهد العالم
العربي. نشر تسعة مؤلفات وشارك في عدد من الأعمال الجماعية.

محمود ديما

شاعرة مصرية، تبنت شكل القصيدة الحرة. وبعد حصولها على
الإجازة في العلوم، ابتعدت عن مجال تخصصها، وأنتجت ديوانين
شعريين، نشر بعد ديوانها «فصول الربيع العربية» ولقد ساهمت
هذه الدواوين في إبراز قريحتها الشعرية.

ماجدولين ثريا

أستاذة جامعية، شاعرة وكاتبة مغربية، خبيرة في الشؤون 75. 77. 79. 82
الثقافية، وهي عضو مؤسس لجمعية النساء المبدعات في البحر
الأبيض المتوسط. تتوفر على خمسة دواوين شعرية منشورة.

موهوب محمد

أستاذ الفلسفة بجامعة القاضي عياض بمراكش، وهو مترجم 272
أيضا من العربية إلى الفرنسية. له عدة مقالات حول الترجمة
والأدب، و«مقتطفات من القصة القصيرة الفلسطينية».

مارتن فريدريك

كاتبة فرنسية، فازت سنة 2004 بجائزة بروميثيوس التي
تمنح كل سنة لمجموعة من القصص القصيرة المتميزة. ونشرت
بعدها العديد من الكتب، بما في ذلك مجموعة من دواوين الشعر
والروايات. كما تكتب أيضا للشباب.

ماتبا فدرىكا

رسامة ونحاتة فرنسية من أصل تشيلى، وهى عضو مؤسس فى «معهد لكل العالم» الذى أنشأه إدوارد كليسان سنة 2007. وهى أيضا «فنانة بدوية» مع متحف المارتينيك للفنون فى الأمريكيتين.

امباركى محمد

مهندس، مهندس معمارى، دكتور، ووزير سابق، مدير وكالة جهة الشرق حيث قام بتطوير النشر للتعريف والترويج لجهة الشرق. وفى سنة 2017، أسس المعرض المغربى للكتاب.

المؤدب أمينة

حاصلة على الدكتوراه فى اللسانيات الإثنية، وشغلت منصب ملحقة ثقافية بالقاهرة، ثم فى دمشق ومدريد وإشبيلية وبرشلونة؛ تشرف حاليا على مركز الكتاب والإعلام فى السفارة الفرنسية بالمغرب.

المؤدب هند

صحافية ووثائقية فرنسية، حائزة على الماجستير فى الفلسفة وآخر فى العلوم السياسية. تشارك فى مجلة «نيو جيو» على راديو «نوف» وتنشط فيها برنامج «3 أزمنة، 3 حركات».

ميفراني عبد الحق

شاعر مغربى من الجيل الجديد وهو مسؤول ثقافى، قام بالإشراف على اللقاء الدولى الخامس للشعر بأسفى. وهو أيضا رئيس مؤسسة «الكلمة» للثقافة والفنون منذ سنة 2013.

معز ماجد

ناشر وشاعر تونسي، حاصل على شهادة الدراسات العليا المعمقة فى علم الأحياء، حصل بعد ذلك على الماجستير فى التدبير من فرنسا سنة 2000. وهو الفائز فى مسابقة الشعر بول فيرلين فى سنة 2011، وهو يمثل الشعر الفرنكفونى الجديد بتونس.

موراليس أنياس فاليري

مغنية وكاتبة كلمات أغاني من بورتوريكو. وهى شخصية إعلامية فى المجال السمعي البصري، تعاونت مع عدد من الفنانين الموسيقيين. بدأت حياتها المهنية كممثلة فى سنة 2001 ومسيرتها الموسيقية فى سنة 2003.

نعمان غُسوس سمية

- عالمة اجتماع مغربية وناشطة نسوية، ساهم كتابها «بعيداً تماماً
عن العفة» في شهرتها لدى جمهور واسع من القراء. تساهم
بمقالات في المجالات النسائية المغربية، وفي المجلة الإسبانية
M'Suro، كما تنشر مقالات فكرية.

النقروش سميرة

- شاعرة جزائرية تكتب بالفرنسية، تعيش حياة أدبية دولية جد
نشطة، حيث تساهم في العديد من المجالات الأدبية. ولقد قامت
بعمل استثنائي في مجال النشر عن الشعر الجزائري المعاصر.

نكومو هنري

- مدير الكتاب، والفنون التشكيلية والبصرية في وزارة الثقافة
والفرنكوفونية بكوت ديفوار، أسس سنة 2007 جمعية «أكوابا
الثقافة» والتي تسعى لتعزيز قيمة الأدب في القارة الإفريقية.

نونيز فكتور رودريغيز

- شاعر وصحافي وناقد أدبي ومترجم كوبي. عاش في نيكاراغوا
وكولومبيا والولايات المتحدة الأمريكية، حيث يعمل حالياً مدرساً
للغة الإسبانية.

أونيسفوري نيمب

- كاتب كاميروني، قريب من المثقفين المغاربة، كما عمل مع المنظمة
الدولية للهجرة. يساهم في كثير من الصحف ويشرف على مجلة
«Afrique Progrès» منذ سنة 2014.

ولعلو فتح الله

- اقتصادي وسياسي مغربي، وزير الاقتصاد والمالية سابقاً، عمدة
الرباط من 2009 إلى 2015، فاز في سنة 2018 بالجائزة الخاصة
في معرض بكين الدولي للكتاب عن مؤلفه «الصين ونحن».

كوينكتون تيري

- رئيس التحالف الدولي للناشرين المستقلين حتى سنة 2013، لديه
خبرة واسعة في مجال النشر والحوار بين الثقافات والمكتبات
الإعلامية. وهو باحث في مجال اقتصاديات الكتاب.

رشيق عبد الرحمان

عالم اجتماع مغربي وخبير في التخطيط الحضري وباحث، يقدم خدماته الاستشارية لمجلة عمران (الدوحة) كما يدرس علم الاجتماع الحضري في الجامعة. وقد نشر عدة أبحاث حول الحركات الاجتماعية وعلم الاجتماع الحضري في المغرب.

رشيق حسن

عالم أنثروبولوجيا مغربي، وهو أستاذ جامعي في الدار البيضاء وفي العديد من الجامعات الأجنبية. بعد بحوث في المناطق القروية، صار يهتم بالأيديولوجيات السياسية والدينية.

راشد رشدي

فرنسي من أصول مصرية، ولد في القاهرة، وهو عالم رياضيات وفيلسوف ومؤرخ للعلوم. يستكشف عمله الفكر العربي، لا سيما من خلال النصوص القديمة ونصوص القرون الوسطى. يدرس في اليابان والقاهرة وباريس.

الرتناني عبد القادر

ناشر مغربي، لكنه معروف بشكل خاص بطباعة الكتب الجميلة، والتي تغطي العديد من الموضوعات. أسس الاتحاد المهني للناشرين المغاربة، ويتزأسه حاليا.

رحيحيل زهور

بعد أن اشتغلت بجد وصبر من أجل الحفاظ على الذاكرة اليهودية إلى جانب سيمون ليفي من أجل جمع كل المعلومات حول تاريخ الوجود اليهودي الطويل جداً في المغرب، الأستاذة رحيحل، وهي عالمة أنثروبولوجيا مغربية تشغل حالياً كمحافظة للمتحف اليهودي المغربي في الدار البيضاء.

الصايل نورالدين

ولد في طنجة، كان أستاذا ومفتشاً عاماً للفلسفة، كما أنه شغل منصب مدير المركز السينمائي المغربي، شارك في تأسيس سينما وطنية مغربية من خلال تطوير عشق السينما.

السالمي حبيب

كاتب تونسي، كان في البدء أستاذاً للغة العربية قبل أن يسافر لمتابعة الدراسة في السوربون. ولقد اختار الصحافة الثقافية. بعد التبريز، يعيش حبيب السالمي في باريس ويعلم اللغة العربية في الأقسام التحضيرية.

سامويو تيفين

تيفين سامويو روائية فرنسية ولدت في المنطقة الباريسية. وهي حالياً أستاذة جامعية تدرس في جامعة باريس 3 السوربون الجديدة. 60. 61. 65. 68. 70. 359-71

سنهوري صباح

اطلع قراؤها الناطقون بالفرنسية على أعمالها بفضل ترجمات المعهد الفرنسي بالخرطوم، لأن الكاتبة السودانية تكتب باللغة العربية. أعمالها عبارة عن نصوص روائية وشعرية. 265. 266

شمبري كارل

كاتب وصحفي مالطي، وهو أيضا مدافع عن حقوق الإنسان، قام بالعديد من التقارير الدولية، بما في ذلك في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ولأنه مستقر في الشرق الأوسط، أشرف على الأقسام الإعلامية لعدة منظمات غير حكومية. 205

سيبيليو سيموني

مدرس وباحث إيطالي في اللغة العربية وآدابها، يشرف على الماجستير في اللغات والثقافات الشرقية. وهو مترجم متخصص، حاصل كذلك على دكتوراه في الأدب المقارن من جامعة نابولي. 203

سيناصر زكية

أستاذة جامعية وحاصلة على الدكتوراه في اللسانيات والعلوم الإنسانية، مسؤولة رفيعة في وزارة التربية الوطنية، وهي أيضاً الرئيسة المؤسّسة للجمعية المغربية للتراث اللغوي. 356. 364. 365

سيلا فودي

سياسي سنغالي، شغل منصب رئيس «SOS-Racisme»، عضو البرلمان الأوروبي، عضو المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي بفرنسا. في سنة 2014، أصبح سفيراً منتقلاً للسنغال. 41. 42. 45. 47. 48. 143. 136. 50

تيلماتين مهند

أستاذ في قسم الفلسفة بجامعة قادس (إسبانيا). 295. 297. 299

الترابي عبد الله

صحافي مغربي متخصص في الإسلام السياسي في المغرب، 151 إلى 147 شغل منصب مدير تحرير مجلة زمان. سنة 2014، انضم إلى 153 إلى 158 مجلة «Tel Quel» الأسبوعية. ويستضيف برنامج «Confidences» (أسرار الصحافة) على القناة الثانية المغربية. 151 إلى 147

تور يونيسة

- 347 بعد حصوله على الدكتوراه في المملكة العربية السعودية، عاد إلى ساحل العاج وأنشأ مؤسسة تعليمية. كما يرأس فرع الطريقة التيجانية والتي ساهم في تأسيسها بساحل العاج.

الطرابلسي بهاء

213. 214. 215. 220. 221 كاتبة وصحافية مغربية، حاصلة على شهادة الدكتوراه في الدراسات الاقتصادية من جامعة «Aix-en-Provence». ألّفت العديد من الروايات الناجحة. وحصلت عن روايتها «أخبرني عن الحب»، على «جائزة إيفوار» سنة 2014.

اليتربي كريمة

317. 318. 319. 321. 323. 324. 325. 326. 328 أستاذة جامعية، تدرس اللغة الفرنسية وأدائها وتنتشر العديد من المقالات عن الكتاب المغاربة الناطقين بالفرنسية. كما كتبت مقالات وتحاليل حول أعمال كبار الكتاب المغاربة.

زكنياريس جون

- 240 إلى 249 عالم اجتماع وأكاديمي فرنسي، يُدرس ويشارك بانتظام في البرامج السياسية لإذاعة «لوكس راديو». ينشر مقالات أدبية وهو أحد مؤسسي «دائرة الأدب المعاصر».

زنكنة هيفاء

82. 202. 260. 261. 311 روائية وناشطة ورسامة سياسية عراقية، شاركت في العديد من المنشورات الدولية وكذلك في معارض في أوروبا، وشاركت في تأسيس الرابطة الدولية للدراسات العراقية المعاصرة.

زاوي محمد

55. 57 مخرج جزائري، و صحافي أيضا، ومسرحي ومنشط إذاعي. ولقد أبرز فيلمه «أنا حالة إنسانية» على حساسيته القوية اتجاه مأساة المنفى والتي يرسمها بطريقة مؤثرة.

الزكري خالد

60. 61. 62. 63. 65. 66. 68. 69. 70. 72. 226. 227. 229. 231. 236 أستاذ جامعي وباحث، في جامعة مولاي إسماعيل بمكناس وأستاذ زائر بكل من جامعة، إكس لاشابيل، مانهايم، لايبزيغ وباريس ولقد ركز بحث تأهيله على الدراسة المقارنة بين الأدب المغربي الناطق بالعربية والفرنسية.

المعرض المغاربي للكتاب



برنامج
الأنشطة
اليومي



الجمعة 19 أكتوبر 2018

11 : 00 - 09 : 30

الواقع والحلم
تسيير :
ميلاني
محمد زاوي

حسن رشيق،
فريدريك مارتن،
لورا كرايوتوف

الكتابة والإبداع
في إفريقيا
تسيير :
فودي سيلا

حميد بناني،
هنري نكومو،
مانتيا دياورا،
نعيمة لهبيل التجموعتي

أن تكون مبدعا
عربيا اليوم
تسيير :
ديما محمود

نجوان درويش،
رشا الأمير،
ميشيل خليفي

مسألة
الكوني
تسيير :
نورالدين الصايل

رشدي راشد،
فرانسوا ليفوني

12 : 45 - 11 : 15

الشباب،
المرجعيات
والانتظارات
تسيير :
جليل بناني

هند المؤدب،
فدريكا ماطا

الإرث الثقافي
تسيير :
شكيب كسوس

زكية داوود،
إدريس كسيكس،
سعد الخياري،
بوعزة بنعاشر

المشرق والمغرب
الكبير :
بين الأنا والآخر
تسيير :
ثرثيا ماجدولين

حبيب السالمي،
هدى بركات،
محمد الأشعري

الشرق والغرب :
أفقا التفكير
تسيير :
خالد الزكري

إدريس جعيدان،
تيفين سامويو،
حكمت شطا،
محمد شريف
فرجاني

16 : 30 - 15 : 00

الهجرة والعولمة
تسيير :
عبدالله الترابي

شادية أعراب،
جون بول كفاليري،
محمد العمرتي،
يوسف أمين
العلمي

الجاليات : هويات
إفريقية جديدة
تسيير :
يحيى أبو الفرح

مانتيا دياورا،
بوعزة بنعاشر،
فودي سيلا،
عبد الفتاح الزين،
جون لويس كيكو

الإبداع
بالأمازيغية
تسيير :
الحسين المجاهد

مفتاحة عامر،
فاطمة أگناو،
نورة الازرق،
عبدالله بومالك

أسفار
الأندلس
تسيير :
مولاي أحمد
الكمون

روني دوسيكتي،
محمد بنيس،
أنطونيو شافيس

الجمعة 19 أكتوبر 2018 (تتمة)

18 : 30 - 17 : 00

الكتابة علي الجدران :
تحية لغزة
تسيير :
سامح درويش

يحيى عباد،
كارل شمبيري،
سيبيلو سيموني،
هيفاء زنكنة

متخيل
اللغات
تسيير :
زكية داوود

أحمد بوكوس،
ماجد معز

النشر والتراث
الأمازيغي
تسيير :
الحسين
المجاهد

عبدالقادر الرتاني،
فاطمة بوخريص،
ادريس أزودود

المتوسط :
بين الثقافة والمجهول
تسيير :
ميلود الوكيللي

مصطفى الحسني
الإدريسي،
إغناسيو غوتيريز
دوتيران،
فرانسوا لاربر

السبت 20 أكتوبر 2018

11 : 00 - 09 : 30

جنوب-جنوب :
اللحظة الشعرية
تسيير :
عبد الحق ميفراني

فكتور
رودريغز نونيز،
رشا الأمير،
نجوان درويش،
باسم النبريص

المغرب الكبير،
الصورة عند الآخر
تسيير :
جون زكنيارييس

عبد القادر بنعلي،
سليم الجاي،
ماجد معز،
مامون الحبابي،
عبد الله بيضا

الإسلام
والحدثة
تسيير :
خالد الزكري

فوزية الشرفي،
علي بنمخلوف،
محمد الناجي

كتابات
نسائية
تسيير :
سمية نعمان كحسوس

بهاء الطرابلسي،
فاليري
موراليس-أتياس،
سميرة النقروش،
أنيسة بلفقيه

12 : 45 - 11 : 15

عرض تقديمي لعمل
خيالي وعمل تجريبي
تسيير :
إدريس جعيدان

أحمد بوكوس،
مهند تلماتين،
كاثرين فيليبون

كتابات مغربية
تسيير :
مريم لحلو

حبيب السالمي،
محمد علاوة حاجي،
سكينة حبيب الله

الإسلام والحدثة
تسيير :
عبدالرحمان رشيق

عبد المجيد الشرفي،
فؤاد بن أحمد،
محمد موهوب،
صخر بنحسين

كتابات نسائية
تسيير :
أمينة برواضي

ليلي أبوزيد،
هدى بركات،
هيفاء زنكنة،
صباح سنهوري

السبت 20 أكتوبر 2018 (تتمة)

15 : 00 - 16 : 30

آية مكانة للكوني
في الفضاء الإفريقي
المتعدد الثقافات ؟
تسيير :
سعيدة بلوالي

عبد العزيز
مامادو مايكا،
يونيسة تور،
حافظ أدامو نفادا،
بالو داودة

المهاجر
اليوم
تسيير :
موغيل أوغري

عبد الرحمان رشيق،
بيوس دبالو،
نيمب أونيسفوري

التراث اليهودي
الثقافي
المغاربي
تسيير :
كريمة الأيتربي

زهور رحييل،
محمد حاتمي،
بول دحان

سؤال الكتابة
تسيير :
محمد علاوة
حاجي

سكينة حبيب الله،
خلود الفلاح،
أمل بوشارب،
إيناس العباسي

17 : 00 - 18 : 30

مجالات ناهضة
تسيير : بوعزة بنعاشر

فكري بنعبد الله، فتح الله ولعلو

الترجمة والكوني
تسيير : أمينة المؤدب

باربارا كاسان، تيفين سامويو، زكية سيناصر

17 : 00

الصوفية وثقافة السلام مع مؤسسة الملتقى
تسيير : أحمد زكي

مولاي منير القادري بوتشيش، ميشيل تهاو شان، عبدالمالك، بلقاسم الجطاري،
محمد بنيعيش، حكيم الفاضل الادريسي

الأحد 21 أكتوبر 2018

09 : 30 - 11 : 00

الكتاب السمعي، مدخل آخر لولوج الأدب

تسيير : إيسدير لونمان وتيري كوينكتون

المعرض المغاربي للكتاب



محيلة المعرض:
الصور
و
الأرقام





معرض متميز، إفتتاح راقى



طموح مغاربي

المغاربيين، الذين سيأتون من مختلف بقاع العالم لوجدة. معرض 2018 سيعمل على إيجاد مسارات الإجابة. «آداب مغربية» أحدثت سنة 2017 حول موضوع حساس أصبح نفسه كونيا : «لنعبّر عن الشباب، لنكتب الأمل» مع إثارة قضية الهجرة الشائكة.

مائتا مثقف ناقشوا بعدها الثقافي الذي يعتبر اليوم أساسيا. ونقاشات أكثر من ثلاثين مائدة مستديرة، تطرقت لكل الجوانب المهمة وقدمت قراءات أصيلة لهذا الموضوع الراهن العسير. فقد رجعوا أحيانا للتاريخ لفهم الحاضر أكثر، كما ارادوا استشراف المستقبل وتصور الوسائل لجعله أفضل للأجيال الجديدة، قادر أكثر على توفير إطار ملائم لمواهبهم المتعددة. الإسهام الثقافي الكبير للشباب الوافد من المغرب الكبير على بلدان الاستقبال، يظهر بشكل جلي. ومن جانب آخر، يكشف لنا الخسارة التي تلحق ببلداننا بسبب هجرة هؤلاء المبتكرين الذين تفننوا هناك في إبداعهم. رغم انشغالنا بالقراءة، لم نتجاهل أشكال أخرى للتعبير، مثل «الصلام» أو «الهييب هوب» حيث المواهب المغربية تلقى النجاح الكبير. كل هذا تم تدوينه في أعمال المعرض الأول.

في المغرب، خطاب العرش السامي الذي ألقاه صاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله سنة 2014، حث على ضرورة الارتقاء بثمين التراث اللامادي. كما أن توجهات ملكية سامية جديدة، حددت كأولوية وطنية إصلاح التربية والطفولة والتعليم الأولي بالخصوص. الكتاب والقراءة يشكلان أساس هذا الجهاز المستقبلي. لذا، سيتم مرة أخرى هذه السنة، تخصيص برنامج أكثر ثراء للطفولة. حضور ومشاركة فعالة، تبدو هذه الدورة جد مثيرة. شكرا لكل الذين وحدوا جهودهم لتحقيق ذلك.

خلال هذه السنة 2018، تم اختيار وجدة «عاصمة الثقافة العربية»، هذا تشريف وتكليف. العالم العربي يضم حوالي نفس عدد سكان الاتحاد الأوروبي. وعندما قررت بلداننا وبالإجماع، وجدة عاصمة ثقافية خلال سنة كاملة، فإن جزءا مهما من البشرية يقوم باختيار قوي، ويعين المدينة للعالم : بالنسبة للمنتخبة السعيدة، هذه خطوة ملحوظة نحو الاعتراف الكوني. الكونية هي بالتحديد موضوع هذه الدورة من المعرض المغاربي للكتاب، التي تتشرف بالرعاية الملكية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله.

الكونية ؟ ليست مجرد تساؤل أو تأكيد وإنما طموح. مقاربة الكوني، بكل تواضع، تفتح الطريق نحو طموح مغاربي.

الإشكالية مشتركة بالنسبة لمؤلفينا وللناشرين : كيف يمكن الرقي بآدابنا على المستوى المغاربي ووضعها على طرق الكونية ؟ سلسلة كاملة من الأسئلة تتتابع، أكثر حدة من النجاح، أحيانا كوكبية لمؤلفين من أصل مغاربي، قدامى أو معاصرين، يعودون إلينا أحيانا من الخارج، متشبعين بأفكار جاهزة للاستهلاك. إنتاجات أخرى تؤكد إرادات مهيمنة تغزو بقوة مختلف وسائل الإعلام. إذا، كيف يمكن إدخال مؤلفينا بشكل دائم في الكوني ؟ كيف هم أنفسهم يقترحون ذلك ؟ أين المفاتيح ؟ من يحملها ؟ ما الذي يمكن أن يفعله كل من له مصلحة وبأي استفادة، بالنسبة للشباب على الخصوص ؟ هذه بعض الأسئلة المطروحة على المثقفين والمبدعين والناشرين

محمد امباركي

رئيس المعرض «آداب مغربية»



جلال الحكماوي



إدريس خروز

فريق وكالة جهة الشرق



لعريبي امينة	دينار رضوان	أمطاط حسن
المودن عبد الرحيم	العجرودي فردوس	بياب عبد العزيز
ماهر سعيدة	البليدي محمد علي	بلحسين جواد
الناوي مريم	الجفالي سميرة	بن حليمة هدى
رابح عبد المجيد	الوهاي حسن	بنموسى جلال الدين
اسلسلي مجدولين	حنو الكبير	بيطاري عبد القادر
السياجي بشرى	احميمو سهام	بوعلي لحسن
يحيى كريم	جوات حنان	البخاري محمد
زروالي سناء	جليلي نعيمة	شوقيري نور الدين
	كروم محمد	دردوش الجيلالي

مهنية في التنظيم وتفطية إعلامية جيدة

آداب مغربية مهياة ومقصود لها أن تكون علامة. وهي تحمل للجمهور المغربي العريض خطابا يبرز تموقع جهة الشرق وخاصة المدينة الألفية وجدة، التي غدت قلب ومركز ثقل الإتحاد المغربي المنشود.

آداب مغربية بوجدة تقول للجميع بأن المدينة أصبحت تحتضن اليوم حدثا سنويا إضافيا يعزز إشعاعها الدولي. ومن أجل التعريف به، فقد سخرت كل وسائل الاتصال، من شبكة الانترنت، ورايو، وتلفزيون، وصحافة، ولافتات ووصلات إخبارية، وبيارق بالمواقع الالكترونية ومقالات، لتبليغ هذه البشري داخل الوطن وخارجه.

آداب مغربية هي أيضا تظاهرة بالنسبة للمدينة والجهة. وبالمناسبة، فإن وسائل الإعلام الجهوية مجندة وستزدان المدينة بألوان التظاهرة. كما ستضاف لوحات إشارة بارزة لربط الأماكن المعنية بالتظاهرة. وسيتم التكفل بالمشاركين وتوجيههم بمجرد وصولهم عن طريق الجو أو ليستدلوا على وجهتهم إن كانوا قد اختاروا وسيلة برية.

آداب مغربية هي أيضا العلامة التي ستوضع في كل أماكن التظاهرة، وفي التشوير كما على كل التجهيزات الوافية التي تسلم للمشاركين، ولافتات القرب بالمواقع المعنية والحوامل الإعلامية، الفردية منها أو الجماعية.

آداب مغربية تضع الناشرين والشركاء رهن إشارة الجمهور والمشاركين في إطار عرض يتسم بالمهنية. وسيقدم دليل المشاركون المعلومات العملية الضرورية، والنظام الداخلي للمعرض وكذا دفتر التحملات المتعلق بالأجنحة.

آداب مغربية توفر أيضا فرصة انتهازها 25 فنانا تشكيليا من جهة الشرق، بدعوة من المعرض، لعرض إبداعات خاصة بالمناسبة، برواق مولاي الحسن للفنون بوجدة، تحت عنوان كتب فنانين.

آداب مغربية موضع متابعة مستمرة طوال التظاهرة مع تسجيل كامل للمؤتمرات والورشات (التي سيتم تدوينها ونشرها)، وتوزيعها على الموقع الخاص وشبكات التواصل الاجتماعي فايسبوك، تويتر وإنستغرام.

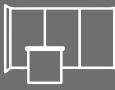
موقع آداب مغربية : www.lettresdumaghreb.com





5 | قاعات
محاضرات 

8 | أروقة
مشخمة 

50 | أروقة
مجهزة مسبقاً 

1 | مقهى
أدبي 



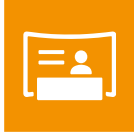
1 مركز الأعمال



1 فضاء وسائل الإعلام



1 إدارة المعرض





04

فضاءات
للأطفال



01

فضاء
أغورا



01

مكتبة
الشباب







تكريم ثريا الشاوي



تكريم
محمود درويش



allocations au fond
de l'Égyptologie du
«Awel» « Abu
« que Dieu lui fasse
« dit. Les gens ont
« et du Souli, certains
« comme origine de
« r'attribue de nos
« s'est puille, « bien
« ne soient affecton
« ppelle Souli»
« le B. Shah Al Khan
« Abah, décédé en
« 266 A.H.



معرض للفن المعمار

01



18

فنان عارض





01

سورة
موسيقية



03

ندوات
مصحفية



42

مصحفي
مشارك



مصورين
محترفين 5 | 

مؤطرين
ومصورين فيديو 7 | 

وحدة مونتاج
عالية الجودة 1 | 

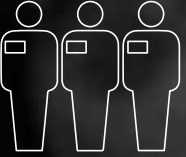






47 000

28 000 زائر للمعرض
19 000 مشارك في التظاهرات التي نظمت بأماكن أخرى
مثقفون



+297



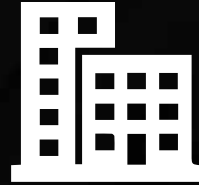
2

كتبيين



26

ناشر مغاربي



24

مؤسسة



سيارات خاصة

8



حافلة صغيرة



12



15

سيارات متعددة الخدمات



1

حافلة



+20 000

إعجاب على مواقع
التواصل الاجتماعي

Total des mentions J'aime une Page aujourd'hui : 20 038



Mentions J'aime nettes

Les mentions J'aime nettes correspondent aux nouvelles mentions moins le nombre de mentions Je n'aime plus.



1 موقع
إلكتروني



DU 9 AU 13 OCTOBRE 2019
OUJDA - MAROC

SALON
MAGHRÉBIN
DU LIVRE

Programme Programme

SOUS LE HAUS-PATRONAGE DE SA MAJESTÉ LE ROY SAÛD BIN ABDOULAZIZ

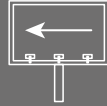
PRÉSENTATION
LE SALON
ESPACE EXPOSITIONS
VISITE VIRTUELLE
ACTUALITÉS
CONTACT
COMMUNICATION
MÉDIAS

Programme



لوحات إرشادية
3 x 4 01 | 

لافتة
عمودية 160 | 

لوحات عملاقة
للتشوير 06 | 

لافتة أفقية
8 متر x 1 متر 30 | 

مضيفة
إستقبال 23 | 

حارس أمن 32 | 

قاعة
المراقبة بالكاميرا 01 | 



تحت الرعاية السامية لحاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله



طفولة الكتاب



600

طفل شاركوا
في
المعرض



قافلة طفولة الكتاب



مجموعة من الكتب
موزعة مجاناً 500 | 

تلاميذ شباب
استفادوا من
الورشات والعروض 800 | 

منشطين
من طرف المؤسسة المغربية
للنهوض بالتعليم الأولي 10 | 

مدرسة تمت زيارتها
في المجال القروي 25 | 



تساهم في تكوين وتداول المعرفة

تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس

المعرض المغاربي للكتاب



لنعبر عن الشباب، لنكتب الأمل
وقائع المعرض



وجدة، من 21 إلى 24 شتنبر 2017

كافة الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي أصحابها،
ولا تعبر بتاتا عن وجهة نظر وكالة جهة الشرق



978-9920-9928-0-0

Dépôt Légal : 2019MO1490

www.oriental.ma

